(٦) نصوص وأبحاث جغرافية وتاريخية عن جزيرة العرب

غزوات الجراكسة والأتراك في جنوب الجزيرة

(المسمّى)

البرق اليماني في الفتح العثماني

تأليف

قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي المكي
(٩١٧ - ٩٩٠ﻫ)

منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر - الرياض - المملكة العربية السعودية

البرق اليماني

(٦) نصوص وأبحاث جغرافية وتاريخية عن جزيرة العرب

البرق اليماني في الفتح العثماني

(تاريخ اليمن في القرن العاشر الهجري، مع توسع في أخبار غزوات "الجراكسة" و"العثمانيين" لذلك القطر)

تأليف

قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي المكي
(٩١٧ - ٩٩٠هـ)

★

أشرف على طبعه
حمد الجاسر

★

منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر - الرياض - المملكة العربية السعودية

الطبعة الاولى
١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م

مقدمة الناشر

ايضاح عن الكتاب

حيـــاة المؤلف

هـذا الكتاب

طريقـة النشر

بيان معاني بعض الكلمات



ايضاح عن هذا الكتاب

في سنة ٩٢٣ هـ زالت دولة المماليك التي كانت تحكم مصر والشام ،وتسيطر على غرب الجزيرة العربية (الحرمين) سيطرة اسمية ، واستولت على تلك البلاد الدولة العثمانية .

وقد حاولت الدولة الجديدة بسط نفوذها في أنحاء الجزيرة العربية ، فاستطاعت ذلك بالنسبة الى أطراف الجزيرة ، ولكنها وجدت مقاومةعنيفة حالت بينها وبين التوغل داخلها ، وخاصة في جنوبها في (اليمن) وفي وسطها .

ولم تتمكن من التوغل في شرق الجزيرة إلا بعد استيلائها على العراق ، في مطلع النصف الثاني من القرن العاشر ، وبعد إخضاع البصرة للحكم العثماني في سنة ٩٥٣ هـ .

إن قيام الدولة العثمانية بإرسال الحملات تلو الحملات لإخضاعالجزيرة لحكمها يعتبر أول غزو خارجي منظم ، وبصرف النظر عن غاياته وأهدافه إلا أنه أولى المحاولات للسيطرة الخارجية على تلك البلاد ، والقضاء على استقلالها .

وهذا الكتاب يسجل جانباً كبيرا من الغزوات التي قامت بها تلك الدولة لبسط نفوذها في الجزيرة ، بل يصوّر أروع جانب من جوانب البطولة التي صمدت أمام تيار الجيوش العظيمة الغازية ، فصدّتها عن التغلغل داخل البلاد، بعد أن أبادت آلاف القتلى ، بل عشرات الآلاف من أبطال رجالها .

ومؤلف هذا الكتاب – مفتي مكة وأحد قضاتها ومؤرخهـــا – يعتبر المؤرخ الأول لتلك الحوادث ، بحكم معاصرته لها ، وتصدّيه لتدوينها .

وهو – بحكم عمله وبحكم سيطرة الدولة العثمانية على الحرمين الشريفين – يعتبر صنيعة للدولة ، بل يصح أن يوصف بأنه مؤرخها (الرسمي) من علماء العرب ، ومن هنا تبرز ناحية من نواحي الضعف في هذا الكتاب .

هذه الناحية التي قد تطغى على عاطفة المؤلف طغياناً كبيراً يبرز أثره في استعمال كثير من الكلمات النابية في حق من يصفهم بأنه أعداء (ملك البرين والبحرين، وخادم الحرمين الشريفين) ويصفهم بأوصاف هي ألصق بأعدائهم من الغزاة ، كالخروج عن الدين ، والالحاد ، وطاعة الشيطان .

إلا أن أثر تلك العاطفة يختفي عندما يسجل الوقائع والحوادث تسجيلاً يعجز أسلوب المؤلف ، وتضعف عاطفته عن اخفاء ما يتضمنه من الحقائق .

إنه لا يرى غضاضته في أن يقول [(١)] : (ولقد سمعت المرحوم أحمد جلبي المقتول (دفتر دار مصر) يفاوض المرحوم داود باشا في حدود سنة ٩٥٣ فقال : ما رأينا مسبكاً مثل اليمن لعسكرنا ، كلما جهزنا اليه عسكراً ذاب ذوبان الملح ، ولا يعود منه إلا الفرد النادر ، ولقد راجعنا الدفاتر في ديوان مصر من زمن ابراهيم باشا إلى الآن ، فرأينا قد جُهّز من مصر إلى اليمن في هذه المدة ثمانون الفاً من العسكر ، لم يبق منهم في اليمن سبعة آلاف نفر . انتهى كلامه . قلت : وقد تجهز بعد ذلك إلى هذا الزمان أضعاف ما ذكر محمد بك – رحمه الله تعالى – وهلم جرّا إلى آخر الزمان ، وهذا سر إلهي لا يعلم حقيقته إلا الله تعالى !! والذي يلوح للخاطر أن سبب نقصان بركتهم ما يرتكبونه من ظلم العباد) الخ .

ولا أن يسجل ما يرتكبه بعض القواد ورجال الدولة من أنواع الظلم ،

---

(١) ص ٩١ .

أو يفعلونه من المعاصي مما لا يتفق مع تعاليم الاسلام ، وأن يتبع ذلك بالاستغفار لهم ، أو الاعتذار عن أفعالهم ، بأعذار واهية .

ولئن كان الأصل لهذا الكتاب مؤلفاً باللغة التركية عن تلك الغزوات ، ألفه أحد الرجال الذين خاضوا أغمارها وكان يتولى وظيفة (رئيس الكتاب) لأكبر قائد من قواد تلك الغزوات ، وكتاب بهذه الصفة يقصد به إرضاء جانب واحد ، كثيراً ما تعوزه النزاهة والصراحة ، وقل أن يسلم من الانحياز ، وهذا أقل ما يوصف به كتاب من هذا القبيل إلا أن الكتاب هذا - مع ما فيه - يعتبر ذا أهمية تاريخية متعددة الجوانب فهو يصور جانباً كبيراً من صمود بلادنا وبطولة ابنائها أمام جحافل الغزو الخارجي .

وهو يعتبر حلقة في سلسلة تاريخ بلادنا ، يبقى ذلك التاريخ مبتوراً بفقدانها.

وهو يحوي وثائق تاريخية هامة تفيد المعنيين بدراسة هذه الناحية وهو يضم - في طياته - لمحات تاريخية واجتماعية عن بلادنا ، فيصف الاستقبالات والاحتفالات الرسمية لرجال الدولة الجديدة الحاكمة عندها يصلون الى جدة ، ومكة .

ويسجل بعض مواقف اولئك الرجال الشاذة من أوضاع بلادنا .

ويشير الى بعض الوفادات التي يقوم بها بعض مشاهير البلاد ، إما للمطالبة بأن يتولى القضاء في مكة عالم من أهلها من العرب ، أو لاقرار أمير مكة في منصبه ، أو غير ذلك من الوفادات التي تحدث عادة الى قاعدة الدولة .

ومولفه عالم من علمائنا أسدى يداً بيضاء لبلادنا بتسجيل تاريخها في مؤلفه هذا أو في مؤلفات أخرى كتاريخه لمكة وغيره ، ومن حق هذا العالم علينا ، ومن الوفاء له ابراز كل أثر من آثاره المفيدة . واسلوب الكتاب يخرج عن مالوف كتاب هذا العصر ، فهو مسجوع ، والسجع في العهد الذي ألف فيه ذلك الكتاب يلجأ اليه المؤلف ليظهر مقدرته وتمكنه من اللغة ، يضاف الى

هذا أن لجرس الكلمات المسجوعة في آذان من كتب لهم الكتاب وهم عجم لا يعرفون من اللغة العربية إلا اليسير - لجرس السجع في آذانهم من الأثر أعظم مما لبليغ المعاني في الكلام الفصيح ، ومن حسن حظ القارىء أن سجع الكتاب ليس من الممل العسر الفهم ، الذي يحوج الرجوع الى القاموس كثيراً.

ولقد ألف هذا الكتاب في الوقت الذي بدأت اللغة التركية أول مـا بدأت تتسرب إلى اللغة العربية، وجاء أهلها بأشياء جديدة ليس لها مسميات معروفة عند العرب ، كالرتب والالقاب ، وبعض أنواع الأسلحة والأطعمة والألبسة ، ومؤلف الكتاب وان كان يجيد العربية ، ويحسن اللغتين التركية والفارسية، ولكنه لم يكلف نفسه عناء تعريب كثير من الكلمات التركية التي استعملها ، والتي بقيت مستعملة الى أول القرن الذي نعيش فيه ، ثم ماتت .

والكتاب ـ من هذه الناحية ـ يفيد المعنيين بالدراسات اللغوية ، ويفيد المهتمين بمعرفة تطور الأسلوب العربي في الكتابة في ذلك العهد .

ولئن أخذنا على المؤلف ـ فيما أخذنا ـ مبالغاته في مدح من مدحهم استرضاء، وتزلفا ، وفي ذم من ذمهم انجرافاً وراء العاطفة ، ومبالغة في الاسترضاء والتزلف ، فإننا ندرك ـ مع ذلك ـ ان القارىء لا يغرب عن ذهنه وجوب اطراح تلك المبالغات من مدح أو ذم ، ولن يعيي فهمه ادراك الغاية منها، وأن أولئك الذين وصمهم المؤلف ـ والله يغفر له ـ بما هم منه ابرياء ، لا يقلون فضلاً عمن اسبغ عليهم من صفات المدح والثناء ما يرتفع عن اقدارهم. وما لنا نذهب بعيداً ، وجل ما نقرأ اليوم في صحفنا وكتب تاريخنا يجري على سنن ما جرى عليه مؤرخنا ؟ !

فإنا لم نوقّ النّقص حتّى نطالب بالكمال الأوّلينا

لن نطالب بالكمال، ولكن بالاعتدال. وما أحسن القصد في كل الأمور !

حياة المؤلف

تمهيد :

(لحياة القطب ارتباط وثيق بتاريخ الدولة الاسلامية في « كجرات » الاقليم الذي تقع فيه بلدة «نهروالة» التي ينسب القطبي اليها. وفيها عاش اهله مئات السنين ، ولهذا نورد نبذة عن تلك البلدة ، وعن سلاطينها) .

الدولة الاسلامية الكجراتية :

في غرب الهند ، بقرب شواطىء البحر العربي وجدت دولة اسلامية ، قامت من مبتدأ القرن الخامس الهجري، حتى سنة ٩٧٨ هـ حيث ازالها المغول.

قامت هذه الدول في إقليم « كجرات » بأرض الدكن ما بين ٢٥ / ٢٣ و ٤ / ٢٢ درجة من العرض الشمالي ، وما بين ١ / ٧٠ و ٧٤ درجة من الطول الشرقي .

وكانت تشتمل على أربع مديريات ، وتقدر مساحتها بـ ٢٩٠٧١ ميلاً مربعاً ويقارب سكانها ، في الآونة الاخيرة – خمسة ملايين .

في هذا الاقليم توجد مدينة (نهرواله) وتقع في غربه، مما يلي إقليم السند قرب جزيرة « نماكجة » بقرب شط العرب .

تقع (نهروالة) في ولاية (بروده) – تنطق الراء هنا قريبة من الطاء، وتكتب طاء صغيرة فوقها – في الدرجة ٢٣/٥١ من العرض الشمالي و ١٠|٧٢ من الطول الشرقي، وعدد سكانها في الوقت الحاضر يقاربون ٣٠ ألفاً – وتسمى

الآن « بتن » بالباء والتاء الهنديتين المثقلتين [١] .

قامت الدولة الاسلامية في (كجرات) في سنة ٨١٠ هـ (١٤٠٧ م) وامتدت الى سنة ٩٦٥ هـ (١٥٧٢) حيث استولى المغول على (كجرات) وقضوا على تلك الدولة الاسلامية .

وفي الدولة الكجراتية وجد ملوك اهتموا بنشر الدين الاسلامي في تلك الأقطار وبتشييد المساجد والمدارس ، وبالاهتمام بالحرمين الشريفين .

وكان من أشهرهم السلطان أحمد شاه ، الذي تولى الحكم فيما بين سنتي ٨١٣ و ٨٤٥ هـ .

ومن آثار هذا السلطان في مكة المدرسة التي أنشأها وعرفت بالمدرسة الكنبائية ، نسبة الى قاعدة ولاية من ولايات كجرات ، تعرف بهذا الاسم (كنباية) او (كهنباية) وبالانجليزية (كيمبي) وهي أكبر بنادر الهند ، وفيها مسجد عظيم بني في عهد السلطان محمد شاه (٨٤٥ هـ ٨٥٥) وتقع في عرض ٨ / ٢٢ درجة وطول ٤٠ / ٧٢ درجة شرقاً ، على الضفة الشرقية من نهر (ماهي) بمقربة من مصبه في خليج (كيمبى) وتبعد ٥٢ ميلاً عن أحمد آباد [٢] .

ووصف القطبي [٣] هذا السلطان بأنه من أصحاب الخير الكثير ، شديد المحبة للعلماء ، كثير البرّ والصدقات .

ومن ملوك تلك الدولة السلطان محمود شاه ، الذي تولى الحكم فيما بين سنتي ٨٦٣ و ٩١٦ هـ وله أثار اصلاحية في بلاده ، وقد بنى هناك مدينة

---

(١) كتاب «نزهة الخواطر – معجم الامكنة» للسيد عبدالحي اللكنوي (١٢٨٥ - ١٣٤١ هـ) (ص ٣٩ - ٤٥) .
(٢) : نزهة الخواطر - معجم الأمكنة (٤٤)
(٣) : الأعلام (٢٣٧) هامش (خلاصة الكلام) .

(محمد آباد) وتوفي هذا السلطان في شهر رمضان سنة ٩١٦هـ عن عمر يقارب الـ ٦٧ عاماً .

وخلفه ابنه السلطان مظفر شاه ، وكان عادلاً فاضلاً ، محباً لأهل العلم ، وكان حسن الخط ، كتب بيده جملة مصاحف ، وأرسل مصحفاً منها إلى المدينة المشرفة ، وخرجت روحه وهو ساجد ، في سنة ٩٣٢ هـ [١] .

ومن مآثر السلطان مظفر انشاؤه مدرسة في مكة ، وبنى رباطاً ، وقرر لمدرسي المدرسة وطلابها ، وللقائمين على الرباط نفقة يبعثها كل عام مع صدقة لأهل الحرمين الشريفين، ثم قطعت النفقة بعد أن صار نظار الرباط والمدرسة يعبثون بها ولا يصرفونها في وجهها .

وكانت المدرسة بجوار الحرم، وقد أزيلت عام ٩٧٢ هـ حيث بنى موضعها المدرسة السليمانية في عهد الدولة العثمانية واستبدل بمكانها غيره .

وينسب بعض المؤرخين المدرسة والرباط إلى والد هذا السلطان ،

ومن سلاطين هذه الدولة السلطان بهادرشاه، وتولى الحكم من سنة ٩٣٢ إلى سنة ٩٤٣ هـ - وقد جرت بينه وبين المغول كثير من الحروب التي انهكت قوى الدولة الكجراتية ؛ وانتهت بقتله - رحمه الله .

في سنة ٩٤٢ قام السلطان المغولي همايون بغزو كجرات فهزم السلطان بهادر ، فخشى على حريمه ونفائس خزائنه ، فبعث بها مع وزيره آصف خان الكجراتي ولكن السلطان بهادر قتل في سنة ٩٤٣ هـ من قبل البرتغال .

ويصف صاحب « النور السافر » هذا الوزير قائلاً [٢] : كان رجلاً صالحاً جواداً شريف النفس ، عالي الهمة .. ولما خشي السلطان على حريمه ونفائس

---

(١) : النور السافر (١٩١ / ١٩٢) .
(٢) النور السافر (٢٤٧/٢٤٢) .

خزائنه أمر الوزير بالذهـــاب إلى مكة . ومكث في مكة أكثر من عشر سنين ، مشتغلاً بالعبادات وأنواع الطاعات ، لا يعرف انه ترك الجماعة مع الإمام في المسجد الحرام فرضاً واحداً من غير مَرَض ونحوه، وكان محباً لأهل العلم ، محسناً إليهم ، مؤلفاً لأهل الفضل مشفقاً عليهم ، حتى نفق العلم في زمنه نفاقاً عظيماً ،واجتهد أهله اجتهاداً بالغاً ، وثاب الطلبة وعكفوا عكوفاً باهراً عليه ، وبحثوا عن الدقائق لينفقوها في حضرته ، وبحفظ الاشكالات ليتقربوا بها إلى خاطره ، كل ذلك لإسباغه على المنتسبين إلى العلم من صنوف الاحسان وواسع الامتنان ،وهوامع الانعام والاكرام ما لم يسمع بمثله عن أهل زمنه ، ومن قبله بمدة مديدة ، حتى قال بعض العلماء : قد أذكرنا ذلك ما يحكى عن الخلفاء والبرامكة ، وأبان لنا حقيقة ما في التواريخ عنهم . حتى قيل : انه أنفق بمكة في سنة ، مائة وخمسين صندوقاً ذهباً ، حتى ألبس أهل مكة نساءهم وخدمهم حلي الذهب الذي لم يعهدوا مثله ، وتوسعوا في الملبس والمعاش بما لم يعرفوه قبل ذلك) ا . هـ .

وفي سنة ٩٥٥ عاد من مكة إلى كجرات وأقام بها حتى قتل مع مخدومه السلطان محمود في ١٣ ربيع الأول سنة ٩٦١ [١] وكانت ولادته سنة ٩٠٧ هـ. ولما بلغ أهل مكة خبر وفاته حزنوا حزناً شديداً عليه ، ورثاه شاعرهم الشيخ عبد العزيز الزمزمي بقصيدة في ٨٦ بيتاً مطلعها: [٢]

أي القلوبِ لهذا الحـــادث الجلل
أطواده الشمُّ لم تنسف ولم تزل ؟!

صلة هذه الدولة بالبلاد العربية :

يقع غرب الهند الذي يقع فيه إقليم كجرات ، وإقليم السند متاخماً لبلاد

(١) : يؤرخ صاحب درر الفوائد (٣٩٩) قتله في سنة ٩٥٧ :
(٢) : أوردها كاملة صاحب (النور السافر ص ٢٤٦) .

العرب ، لا يفصل بينهما سوى البحر العربي ، وخليج عمان ، ولهذا كثرت هجرات العرب الى شواطىء البحر العربي المتصلة بالهند في إقليم كجرات، وخاصة بعد انتشار الاسلام في ربوع تلك الجهات ، فانتقلت جاليات كثيرة استوطنت تلك النواحي .

آل القطبي في « كجرات » : —

وفي زمن مجهول يقارب القرن السابع الهجري — انتقل الى تلك الجهة عالم من أهل عدن ، اشتهر في هذه البلدة بالاصلاح والتقوى ، يدعى محمد بن إسماعيل بن ابراهيم بن عمر بن محمد ، فاستوطن « نهروالة ».

ومن الشيخ محمد بن اسماعيل العدني تعاقب عدد من الذرية ، كان منهم الشيخ علاء الدين أبو العباس أحمد بن شمس الدين محمد بن قاضي خان ، بهاء الدين محمد بن يعقوب بن حسن بن علي بن محمد العدني .

ولد هذا العالم في « نهروالة » في الهند سنة ٨٧١ هـ وتلقى العلم عن والده، وجدّه ، وغيرهما من العلماء ، أبرزهم العالم محمود بن ادريس .

وبلغ في العلم مرتبة حملت سلطان تلك البلاد محمود شاه على أن يوليه منصب الافتاء ، بدار ملكه « كجرات » .

في سنة ٨٩٩هـ في عهد السلطان محمود شاه ، قدم الشيخ أحمد من(نهروالة) الى مكة ، حاجاً : ثم جاور فيها .

وكانت لهذا العالم صلة بعلماء عصره في مكة وفي غيرها من البلدان ، وقد اجتمع بالمؤرخ السخاوي ، وأخذ عنه ، وترجمه السخاوي في (الضوء) ترجمة مطولة ، وذكر انه أخذ عنه بمكة ، وحضر عليه دروساً وانه عاد في أثناء سنة تسعمائة [٣] الى (نهروالة) ثم سافر مرة أخرى إلى مكة واستقر فيها مدرساً في مدرسة أحمد شاه الكجراتي ، وكف بصره في آخر عمره ،ثم توفي بمكة سنة ٩٤٩ [٤] .

---

(١) : النور السافر ، ص ٢٠٩١ . (٢) :تاريخ الاسلام في الهند ، ص ١٥٢ وما يعادلها.
(٣) : الضوء اللامع . (٤) : نزهة الخواطر « ٢٦/٤ » .

وفي الهند وُلِدَ عالمنا الشيخ محمد بن الشيخ أحمد فعُرِفَ - كوالده - بالنهروالي - نسبة إلى تلك البلدة التي ينتسب اليها أبوه وآله ، وقد ولد سنة ٩١٧ - كما كتب بخطه [١] - في مدينة « لاهور » - على ما ذكر صاحب النزهة . [٢] .

ولا نعرف متى انتقل الى الحجاز ، ولكننا نعلم مما ذكره المؤرخون - كالسخاوي وغيره - أن أسرته بقيت هناك ، وهاجر بعض أفرادها في فترات متقطعة .

ومن آخر من هاجر منهم الشيخ عبد الكريم بن محب الدين - الذي ولد (أحمد آباد) سنة ٩٦١ - قدم مكة مع والده الشيخ محب الدين الذي تولى قضاء (جِبْلَةَ) في اليمن ، بعد ولادة ابنه بزمن قصير هو ١٣ سنة ، اذ كان قاضياً في سنة ٩٧٤[٣] - كما سيأتي بيانه .

ولقد عرفنا أن لملوك « كجرات » صلات قوية في الحجاز ، فقد أسسوا فيه مدرسة ورباطاً - تولى الاشراف عليهما أبو القطبي ثم القطبي المؤرخ ثم ابن أخيه عبد الكريم .

ومرّ بنا أنه في عهد السلطان بهادرشاه في سنة ٩٤٢ - اكتسح المملكة الكجراتية غزاة المغول ، ففرّ بحريم السلطان وبخزائنه وزيره آصف خان الكجراتي .

ونجد نصّاً للقطبي نفسه يدل على صلته بهذا الوزير ، وانه سافر معه إلى بلاد اصطنبول ، ولعل سفر ذلك الوزير كان للاستنجاد بالدولة العثمانية التي استولت على الحرمين الشريفين وغيرهما من بلاد العرب قبل قدوم هذا الوزير

---

(١) : الكواكب السائرة « ٣/٤٤ » .
(٢) : نزهة الخواطر « ٤/٢٨٥ » .
(٣) البرق اليماني .

بعشرين سنة ، بل بلغت جيوشها سواحل تلك الدولة وأطرافهـــا ، لطرد « البرتغاليين » الذين استولوا على بعض أجزاء تلك المملكة ، وعـــاثوا فيها فساداً وقتلوا سلطانها السلطان بهادرشاه غدراً [١] . في بندر « الديو » في سنة ٩٤٣ هـ – ولكن العثمانيين لم يستطيعوا طرد البرتغاليين ، كما لم يستطع ذلك السلطان الغوري عندما استنجدوا به [٢] .

يقول القطبي [٣] : (ورأيت اسكندرية زادت في الخراب ، عمـا كنت عهدتها قبل ذلك ، فانني مررت بها متوجهاً إلى الروم في سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة ، مع عمدة الملك ، وزير السلطان بهادر صاحب كجرات – رحمهما الله – ثم ذكر احد رفقائه وقال : وكنا نرفل في حلل الشباب ، ونقطف من الشبيبة ثمر عيشها المستطاب ، سقى الله ذلك العهد ، وتجاوز عما وقع فيه من الخطأ والعمد) .

تكالبت على الدولة الكجراتية القوى الخارجية ، فالمغوليون من داخل البلاد ، والبرتغاليون من خارجهـــا من السواحل ، وانتشرت فيها الفوضى والفتن الداخلية .

ففي سنة ٩٦١ قتل سلطانها السلطان محمود شاه بن لطيف شاه ، قتله احد خدمه بمواطأة بعض الوزراء والحرس [٤] ثم زالت الدولة بعد بضع عشرة سنة من ذلك التاريخ .

ولا شك أن ضعف هذه الدولة ، وتوالي الفتن في بلادها هي من الأسباب التي دفعت القطبي وأقاربه للهجرة من تلك البلاد .

---

(١) الاعلام « ٢٠٣ » ، النور السافر « ٢١٠ » .

(٢) انظر التفصيل في البرق اليماني .

(٣) الفوائد السنية في الرحلة المدنية والرومية « مخطوط » والاعلام « ١٧٦ » .

(٤) شذرات الذهب « حوادث سنة ٩٦١ » . النور السافر « ٢٥٢ » .

ولعل ذلك كان قبل سنة ٩٣٥ — لأننا نجد نصاً للقطبي نفسه يدل على انه كان قبل بلوغه في مكة هو ووالده وأهله .

قال في الكلام على عمارة عين مكة [١] : (ارتفع سعر الماء جداً في يوم عرفة ، وكنت يومئذ مراهقاً في خدمة والدي رحمه الله تعالى — وفرغ الماء الذي كنا حملناه من مكة إلى عرفات، وعطش أهلنا ، فتطلبت قليلاً من الماء للشرب ، فاشتريت قربة صغيرة جداً يحملها الانسان بأصبعه، بدينار ذهب).

بل صرّح القطبي بمشاهدته لحادثة وقعت في شهر رمضان سنة ٩٣٢ — في الحرم الملكي عندما دخل « اللوند » الجند الذين قدموا من مصر لغزو اليمن — دخلوا الحرم ، واستهانوا بحرمته ، فطلب الشيخ محمد بن عراق — وهو احد كبار علماء ذلك العصر — طلب رئيس الجند [٢] الأمير خير الدين وبعض المقدمين والرؤوس من اللوند،وكنت واقفاً على رأس الشيخ رحمه الله ، فرأيته قد احمرت وجنتاه ، وقامت كل شعرة في بدنه ، وانتفخت أوداجه، فنهر هذه الطائفة وجرح فيهم ، وأغلظ القول عليهم ، ورأيت الأمير خير الدين وهو يقبل أقدام الشيخ ويعتذر اليه ، ورأيت الكل أكبُّوا على أقدام الشيخ يقبلونها ويعتذرون اليه من جهلهم ، فأمرهم بكفّ الأذى عن الناس ، واشهار المفسدين منهم ، وان يخرجوا من بيوت الناس) .

ويصف مشاهدة من مشاهداته في شهر ذي الحجة من تلك السنة (٩٣٢) فيقول : وصل سليمان الرّيس إلى مكة ودخل من الحجون ، وجميع عسكره اللوند قدامه صفوفاً بعد صفوف ، مشاة كلهم حاملين بنادقها على اكتافهم ، ورأيت أول عسكره في المعلاة وآخرهم في الحجون ، ورأيت سلمان وخير الدين راكبين حصانين وما في العسكر راكب غيرهما ، — ثم أكمل وصف الموكب .

---

(١) الاعلام « ٢٢٩ » هامش خلاصة الكلام .

(٢) البرق اليماني .

ثقافة القطبي :

كان والده من علماء الأحناف ، وتولى منصب الافتاء في الدولة الاسلامية الكجراتية في عهد السلطان محمود شاه (٨٦٣ - ٩١٦هـ) .

وعن والده تلقى العلم في صغره .

ولا شكّ انه تعلم اللغة الفارسية قبل انتقاله من « نهر والة » وقد أتقن هذه اللغة اتقاناً مكنه من نظم الشعر بها ، ومن ترجمته بعض الكتب اليها .

وفي أول عهده بعد هجرته إلى مكة كانت الدولة التركية العثمانية قد استولت على تلك البلاد ، وأرسلت اليها من يتولى شؤونها كامراء الحج ، وقواد الجيوش ، وكان القطبي على صلة قوية بهم ، ومن ثمّ تعلم اللغة التركية حتى برع فيها ، وصار ينظم الشعر ، ويؤلف ويترجم عنها ، وبها .

ورحل إلى بلاد الدولة التركية مرتين - سيأتي الحديث عنهما - مكنتاه من التمكن من تلك اللغة ، وتقوية الصلة برجال الدولة من أهلها . ولعله ازداد من ذلك أثناء اقامته في مصر لطلب العلم ، فقد كانت تلك البلاد تدار من قبل الأتراك لأنها كانت تابعة لهم .

أما ثقافته العربية، فقد درس الفقه الحنفي على والده ، ثم انتقل إلى مكة في سنّ تمكنه من التمكن من طلب العلم فهو لم يبلغ الخامسة عشرة ، فأدرك بعض مشاهير علمائها مثل محبّ الدين محمد بن عبد العزيز بن عمر بن محمد بن فهد الهاشمي المكي من مؤرخي مكة ، والشيخ محبّ الدين أحمد بن محمد النويري العَقيلي خطيب المسجد الحرام [١] ، وغيرهما من علماء مكة .

وأخذ عن مؤرخ اليمن المحدث الشيخ عبد الرحمن الدّيبع [٢] صاحب التآليف المشهورة .

---

(١) : الاعلام (٦ و ٧) .

(٢) : نزهة الخواطر (٤ / ٢٨٥) وما بعدها .

ثم في سنة ٩٤٣- وعمر القطبي إذ ذاك حوالي الـ ٢٦ رحل إلى مصر لطلب العلم – وكانت مصر حسبما يصفها في ذلك العهد في رحلته الثانية : (مشحونة بالعلماء العظام ، مملوءة بالفضلاء الفخام ، ميمونة بيمن بركات المشايخ الكرام، كأنها عروس ، تتهادى بين أقمار وشموس) .

وقد تلقى العلم هناك عن كبار العلماء، ومنهم الشيخ عبد الحق السنباطي، والشيخ محمد التونسي ، والشيخ ناصر الدين اللقاني [١] وغيرهم ، ومن مشائخه شهاب الدين أحمد بن موسي بن عبد الغفار المغربي ثم المصري ، نزيل الحرمين كان والده من أرباب الأقلام في ديوان السلطان الغوري ، [٢] وللشيخ أحمد مؤلف عن « القهوة » اختصره الجزيري الحنبلي .

ثم ارتحل إلى مصر رحلة ثانية .

فقد ذكر الشيخ عبد القادر الجزيري الحنبلي انه كان في سنة ٩٥٥ بمصر ، وانه كتب اليه كتاباً في سابع ذي الحجة من تلك السنة [٣] .

وقد مرّ ببلاد الشام أثناء رحلته إلى البلاد التركية ، في عام سنة ٩٦٤ هـ فاجتمع بكثير من علمائها – ممن ذكرهم في الرحلة وفصّل الحديث عن اجتماعه بهم ، من أشهرهم شيخ الاسلام الغزّي ، أخذ عنه بمكة ، ثم اجتمع به في الشام ، والشيخ علاء الدين بن عماد الدين ، والقاضي كمال الدين الحمزاوي وغيرهم .

وفي اصطنبول اجتمع بمشاهير علماء الاتراك ـ رحلته الثانية سنة ٩٦٤ هـ وأخذ عن بعضهم .

هذه الاتجاهات المختلفة من نواحي الثقافة ، عربية وفارسية ، وتركية : مكنت القطبي من أن يضرب بسهم وافر ، وأن يأخذ بنصيب كبير من

---

(١) : الكواكب السائرة (٣ / ٤٥) .

(٢) : الاعلام (١٦٢ هامش الخلاصة)

(٣) : مختصر كتابه اسمه (عمده الصفوه في حل القهوه – مخطوط) .

(٣) : درر الفوائد المنظمة (٣٩٧) .

ضروب المعرفة وأنواعها في عصره ، حتى أصبح عَلماً يشار إليه فيها جميعها .

فقد بلغ في الثقافة الدينية الاسلامية درجة أهلته لتولي منصب الافتاء في مكة المكرمة ، وأن يتولى أعلى المناصب الدينية فيها ، وهو القضاء ، وأن يؤلف في تاريخها كتاباً يعتبر مرجعاً هاماً ،لا يستغني عنه أي باحث في تاريخ تلك البلاد .

كما ألف مؤلفات دينية أخرى ، تدل على سعة اطلاع ، وعمق معرفة . ومكنته ثقافته التركية بأن يَحظى بمنزلة رفيعة لدى رجال الدولة في ذلك العهد ، وأن ينقل بعض المؤلفات التركية إلى اللغة العربية كالكتاب الذي ألّف عن غزو الأتراك لليمن ، قدمه له سنان باشا فاتح اليمن ، فنقله إلى العربية ، وأضاف اليه إضافات أكملته .

وفي اللغة الفارسية نقل رسالة للوزير التركي لطفي باشا في شرح الفقه الأكبر في سنة ٩٤٩ - نقلها من التركية إلى العربية ،ثم طلب منه ذلك الوزير ترجمتها الى الفارسية فترجمها [١] ، فأحسن إليه الوزير - كما قال -

وله نظم بهذه اللغة ، أورد شيئاً منه في تذكرته .

ان آثاره - التي سنفرد لها حديثاً خاصاً - تدل على سعة ثقافته، وتنوعها وعمقها . وتدل - في الوقت نفسه - على انه استطاع أن يوجه تلك الثقافة وجهةً تهيّءُ له الفرَص ليستفيد منها في حياته : ولتصله بأهل عصره من رجال الدولة ، ومشاهير العصر .

رحلاته الى خارج الجزيرة :

الى مصر :

قام برحلات متعددة الى مصر ، فقد مَرَّ بها - سنة ٩٤٤ - مع الوزير عمدة الملك ، وزير ملك كجرات .

(١) : الأعلام (٢٠٢) .

ثم عاد إليها واستقر فيها لطلب في السنة نفسها ، ولا نستطيع تحديد الزمن الذي مكثه فيها .

ثم كان في آخر سنة ٩٥٤ هـ فيها – كما تقدم النقل عن صاحبه الجزيري الحنبلي ، ثم في شهر رمضان من سنة ٩٦٥ مَرَّ بها بعد رجوعه من القسطنطينية وعاد الى موطنه مع حجاج مصر بطريق الساحل ، فوصل مكة المكرمة في ثالث ذي الحجة من السنة نفسها .

الى الشام :

سافر الى بلاد الشام ، متوجهاً الى القسطنطينية – في سنة ٩٦٥ هـ. فغادر المدينة يوم الثلاثاء ١٦ المحرم ، فوصل بلاد الشام (دمشق) ١٥ صفر وأقام في تلك المدينة الى يوم الاربعاء ثاني عشر شهر ربيع الآخر ، واجتمع بعلماء هذه المدينة ، ومشاهيرها ، وأسهب في الحديث عمن اجتمع به .

ودخل مدينة « حمص » في اليوم السادس عشر من الشهر المذكور ، وبقي فيها يومين اجتمع فيها بعلمائها وأعيانها .

وفي مدينة « حماة » أقام ثلاثة أيام ، لاقى علماءها وأدباءها ، وغادرها إلى حلب ، فاجتمع بعلمائها وادبائها ، ولقي فيها اكراماً ، وضيافة ، وحسن استقبال ، ثم غادرها في يوم الأحد ثاني جمادى الأولى ، إلى البلاد التركية .

وهو في كل مدينة من تلك المدن التي يمر بها يُعنى عناية كبيرة بالاتصال بالعلماء والشعراء ، وبالتباحث معهم ، وبمساجلة من يساجله الشعر منهم .

ومع أن الغزى في (الكواكب السائرة) أشار إلى أن والده عالم الشام في ذلك العهد ، قد أضافه وأكرمه ، حينما مر في تلك الرحلة ، ونزل في حارة القرمـــاني تحت قلعة دمشق [١] وان شيخ الاسلام المرعشي اضافه

---

(١) الكواكب « ٣/٥٤ » .

وأكرمه لما اجتمع به في مدينة حلب، إلا أن انطباعاته عن بلاد الشام – على وجه الاجمال – تدل على أن نظرته إلى أهلها نظرة تخالف الواقع .

انه يقول : [١] (ورأيت أهل الشام يغلب عليهم الجفاء ، والجلافة ، والانقباض عن الغرباء ، فلم آلف أحداً منهم) .

وقال – يصف عالماً من علماء الشام هو الشيخ شمس الدين محمد بن هلال الحمصي : (له شعر لا بأس به ، من أواسط الشعر ، فامتدحني بقصيدة ... فأرسلت اليه بكسوة، ومعها هذه الأبيات ، قصدت بها التعرض بأعيان الشام:

لا فُضَّ فُوكَ ، أديبَ أهل زمانه
نظماً ، وفاضِلَ عصرِه وأوانِـــهِ
أبرزتَ من بحْرِ القريض جواهراً
وقطفتَ زهرَ النظم من افنانِـــهِ
لا عَيْبَ فيه ، سوى مَديح فائقٍ
أبصرتُ قَدْرِيَ قاصراً عن شأنِـــهِ
وعَجِبْتُ إذ خالفتَ أهلَ الشام في
حبِّ الغريبِ ، وحِرْتُ في إمكانـهِ
وأظنُّ بالتحقيق أنكَ ها هنا
مِثْـــلي ، غريبُ الدّارِ عنْ أوطانِهِ

لا يكتفي – في وصفه وتسجيله – بمـا يتعلق بالعلم والشعر ، بل كثيراً ما أشار إلى ما للبلدة التي يمرُّ بها من مظاهر ، وما فيها من آثار ، وما لها من مميزاتٍ ، فيقول [٢] – مثلاً – في وصف مدينة « حمص » :

(وهي بلدةٌ كبيرة جداً ، إلا أن غالبها خرابٌ ، ولها حِصار عظيم ، وحصن بها ، ويجري بهـــا النهرُ العاصي ، وكانت من محاسن بلاد الشام ،

---

(١) الرحلة .
(٢) الرحلة .

إلا انها دثرت الآن ، والموجود الآن في دفتر العوارض أربعة آلاف وأربعمائة بيت ، وذلك خارج عن الف بيتٍ – تقريباً – ليسوا في الدفتر ، لأنهم لا يعطون شيئاً من العوارض .

وفي نسائهم جمالٌ وحسن ليس في غيرهن من أهل ذلك القطر) .

الى البلاد التركية :

في عام ٩٦٥ هـ سافر إلى اصطنبول ، رسولاً من سلطان مكة الشريف حسن بن أبي نمي ، إلى السلطان سليمان القانوني ، ليطلب منه عزل والي المدينة المنورة المدعو (دلوبيري) وكان قاسياً في معاملة أشراف الحجاز، غير خاضع لشريف مكة ، فكتب هذا إلى السلطان يطلب عزله، وبعث بكتابه وبهدايا إلى السلطان وغيره من رجال الدولة ، مع الشيخ القطبي ، وبعث معه بعض رجال حاشيته ، ولكن سفارة الشيخ لم تنجح وقد فصل القطبي انباء رحلته هذه في كتاب دعاه (الفوائد السنية في الرحلة المدنية والرومية) مما يجده القارىء مفصلاً في ذلك الكتاب .

وقد غادر الشيخ المدينة في خامس شهر المحرم ٩٦٥ هـ ، متوجهاً الى تلك البلاد ماراً ببلاد الشام .

وغادر مدينة حلب في مستهل شهر جمادى الاولى الى البلاد التركية ، فمر بمدينة « اذنة » في تاسع الشهر المذكور .

ووصل بلدة(آق شهر) في ٢٣ منه وغادرها في اليوم الخامس والعشرين.

ولم يفته أن يتحدث عن بخل قاضي هذه المدينة ، مع سبق معرفته له في سنة ٩٥٤ حينما حج .

وفي أول جمادى الآخرة مرّ بقرية تدعى (قره أيوك) أي الجبل الأسود – عدل اليها لكي يقابل احد أبناء السلطان سيان، ويدعوه : السلطان بايزيد ، وقد نفاه أبوه الى هذه القرية .

ثم وصف مقابلته للأمير بايزيد ويفصل أنواع الهدية التي قدمها له ، ويذكر من حديثه معه انه قال له : (ان قدر الله تعالى الملك لنا اخرجت جميع أوقاف المسلمين بالتمام والكمال ، وزدت مقدار ذلك من عندي خارجاً عن ذلك ، وان اردت حلفت لك على هذا العهد ، فقلت له : يا مولانا السلطان : اليمين والحلف لامثالنا ، واما مثل مقامكم الشريف فنفس كلامكم هو عهد ويمين من غير حلف ، فقال : ومع ذلك فوالله اني نويت ذلك ، ونويت ان أغمر الناس بالفضل والعطاء وأسأل الله تعالى التوفيق لذلك، فقلت له : يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة : ولكن الأهم من الكرم : العدل ، فان البلاد خربت من الظلم ، وذكرت له بعض المظالم الواقعة في ديار العرب ، كمصر ، والشام ، وحلب ، مما شاهدته ، وتفصيله يطول جداً فاصغى إلي وهو متألم ووعد بازالة هذا جميعه) ثم أفاض في الحديث عنه ، ولكن الأمر لم يتم لهذا الأمير ، بل قتله والده السلطان ، شر قتلة في سنة ٩٧٠ [١] .

كان الشيخ القطبي يسجل وصف مشاهدته في دفتر ، يوما بيوم ، وبعد سفره من (قره أبوك) الى اصطنبول في يوم الخميس ثاني جمادى الآخرة ، وقع الدفتر منه، ثم وجد فسجل فيه : (وقعت الجنته [٢] المعلقة في السرج، وفيها الدواة والقلم ، وهذا الدفتر . ولا ندري كيف وقعت ، وتألمت لذلك، لأن الدفتر كان فيه ذكر المراحل والمنازل ، وما لاقيته ، وما صرفته ، فارسلت مكتوبا الى السلطان بايزيد ، مع احد الاسباهية [٣] الذين أرسلهم معنا ، وامرت برجوعه الى السلطان بايزيد ، والفحص عن الجنتـه ، فعاد ، فلما وصل اليه المكتوب جمع كبار أهل القرى التي هناك وامرهم بالفحص عن الجنته كما هي من كل بد ، فتوجهوا يسألون عنها ، فوجدوهـا عند امرأة

(١) : أنظر تفصيل ذلك في « الأعلام ١٩٧ و ١٩٨ هامش الخلاصة » .

(٢) : الجنته . ووضع تحت الجيم ثلاث نقط ، هي ما يسمى « الشنطة » أي « الحقيبة » .

(٣) : الاسباهية ـ تحت الباء ثلاث نقط ـ الفرسان « أهل الخيل »

فأتوا بها اليه فأحسن اليها ، ورآى الدفتر وبعض مسودات ، فطالع فيها واعادها الي الجنتة ووضع الكل في كيس ، ومهر عليه وسلمه الى الاسباهي ، فعاد الينا وادركنا في اصطنبول) .

وصل الى مدينة اصطنبول في اليوم الحادي عشر من شهر جمادى الآخرة وبقي فيها الى اليوم السابع عشر من شهر شعبان ـ ٥٥ يوماً ، قابل السلطان فمن دونه من الوزراء وكبار رجال الدولة ، واجتمع بكبار العلماء ، وبشيخ الاسلام أبي السعود العمادي ، ومدحه بقصيدة مطلعها :

قَبُولاً ، وإلا خـــابَ سَعْيُ الخواطر
وعُذَراً ، وإلا ضاقَ بابُ المعـــاذر

في ثلاثين بيتاً أعجب بها الممدوح ، وترّنم بأبياتها يرددها وقال : ان من الكلام لدُرّاً ، وان هذا منه .

وقابل غيره من العلماء على اختلاف مشاربهم . وزاره كثير منهم ، ومدح بعضهم وقدم للسلطان وللوزراء ولكبار رجال الدولة هدايا أحضرها معه من الحجاز من أقمشة هندية ، وفوط ، وقطع حرير مزركش بالذهب ، وغير ذلك مما أورد بيانه مُفصّلاً .

وكان قد أحضر معه كتاباً من شريف مكة يطلب فيه عزل والي المدينة التركي وهي المهمة التي أرسله الشريف إلى السلطان من أجلهـــا ، ولكنه لم ينجح في رسالته . ولعل من أسباب ذلك : —

١ — وجد في اصطنبول بعض المدنيين مع القاضي جلال بن خضر ، وقد كتبوا محضراً على لسان أهل المدينة يطعنون فيه على قاضي المدينة عبد الرحمن أفندي ، وكان ذلك المحضر مُزَوراً ، فطلبوا منه أن يوصله للوزير الأعظم ولكن أحد أصدقائه أشار عليه بألّا يفعل ، وعلل اشارته تعليلاً معقولاً ،

فلم يدفع المحضر المزور للوزير ؛ فأثار سخط القاضي ابن خضر ومن معه من المدنيين الناقمين على القاضي .

٢ — حدث خلاف بينه وبين حاشية الشريف فصاروا يزاحمونه عند الوزراء ، مما حمل اؤلئك على الاستخفاف بقدر الشيخ وبالمهمة التي جاء من أجلها .

وقد وصف القطبي ما لاقاه من عنت وأذى من بعض الحجازيين ، من ايقاعهم بينه وبين حاشية الشريف ومن قيامهم بنشر الشائعات الكاذبة عنه قال : (وصاروا منذ اقامتنا باصطنبول يشيعون عني موالاة قاضي المدينة وموالاة علي باشا ويكتبون بذلك إلى الشام ، وإلى مصر . وإلى مكة . ويوغرون الصدور عليّ ، والحال اني لم اجتمع إلى الآن بالوزير الأعظم لتوعكي) .

٣ — ان القاضي جلال اجتمع بالوزير الأعظم — قبل أن يجتمع به القطبي فسأله : « من هذا الذي أرسله السيد الشريف؟. فقال : ان الشريف انما أرسل عبيده وهجانه ، فصحبهم شخص من أتباع القاضي حسين ، ليس للسيد الشريف به معرفة ، ولا صحبة ، ولا سابق خدمة ، وأمره السيد الشريف أن يكون معهم لكونه يعرف بالتركي . وتقرر ذلك عند الوزير » .

ويقول : وقد ظهر للوزير ان هذا الكلام — كلام جلال بن خضر — كذبٌ لما رأى مكاتبات الشريف وليس فيها اسمهم مُطلقاً ، وما ذُكر فيها أحدٌ غيري .

٤ — يضاف إلى ما تقدم ان القطبي — فيما ظهر من تصرفه — طيّب القلب بدرجة تقرُب من الغفلة ، وإلا فكيف يقابل الأمير « بايزيد » ويهدي اليه وينتقد عنده سياسة والده ووالده السلطان الأعظم قد غضب عليه وأخرجه من اصطنبول ؟!

لقد كتب عن مدينة اصطنبول وَصفاً لمشاهداته ، ولمن اجتمع بهم من رجال الدولة في زمن كانت تلك المدينة أعظم مدينة اسلامية واحفلها بمظاهر الملك ، فكان ما كتبه ذا أهمية تاريخية ، تبرز قيمتها بمقارنتها بما كتبه من زاروا تلك المدينة بعـــد زمنه ، بل بقلة من كتب عنها في ذلك العهد من العرب .

جوانب من حياته الخاصة :

بلغ الشيخ القطبي ـ بين أهل عصره ـ مرتبة عالية ، حملتْ كثيرين من معاصريه على حسده وعلى السعي للنيل منه ، فقد (اصبح عظيم الجاه عند الأتراك ، لا يحجُّ أحد من كبرائه إلا وهو الذي يطوف به ، ولا يرتضون غيره ، وكانوا يعطونه العطاء الواسع)[١] .

وكانت مهنة تطويف كبار رجال الدولة يتولاها علماء من أهل مكة ، من ذوي البيوتات والقدم ، كآل ظهيرة الذين كان أحدهم هو الذي تولى تطويف السلطان (قايتباي)[٢] .

وأسند إليه الولاة الأتراك كثيراً من المناصب في التدريس والافتاء وغيرهما ، وقرروا له مرتباً شهريا مقارباً لما قرروه لشيخ الحرم الذي كانت مرتبته لديهم تلي مرتبة شريف مكة .

يضاف إلى ما تقدم ان المكيين ينظرون إليه رجلا طارئاً ، وافداً إلى بلادهم ، فكيف يحظى من الولاة والأمراء بضروب من التقدير تميّزه عنهم ؟

احتراق بيته وكتبه :

قال القطبي في (تذكرته) يصف حادثة وقعت له :

(مما وقع من افتقاد الله تعالى لي ، اني توجهت ليلة الثلاثاء : تاسع عشر

---

(١) : البدر الطالع (٢/٥٧) .
(٢) : الاعلام « ١٥٨ هامش الخلافة ».

ربيع الأول سنة تسع وخمسين وتسعمائـــة الى بركة ماجد [١] ، مع بعض الأصحاب للتنزّه ، فوقع الحريق في داري بمكة ، ولا أدري كيف وقـع ، غير انه ابتدأ من القاعة التي بها أسبابي وكتبي ، وكانت زهاء ألف وخمسمائة مجلد من نفائس الكتب التي ملكتها ، وورثت بعضها عن أبي رحمه الله - فذهبت كلها ، وذهب جميع ما في البيت من جليل وحقير ، ولم يسلم لي غير الثياب التي على بدني ، ولم يمكن العيال والأولاد - وقد كانوا في السطوح - أن ينزلوا من الدرج ، بل تسلقوا إلى سطح الجيران ، وتوجهوا الى الباسطية ، وسلم جميع أولادنا وعيالنا وخدامنا ، ولله الحمد والمنة ، فعزمت على السفر الى المدينة تسلياً بزيارة ذلك النبي الكريم [٢] ، وقد جبر الله تعالى وعوضني خيراً مما أخذ من الكتب والأسباب وغير ذلك ... ووجدت هذه الأبيات على حائط المسجد الذي في الجموم [٣] فاستبشرت:

ولا تقنطْ ، إذا أعْسَرْتَ يومـاً
فقد أيسرتَ ، في دهْرٍ طويـــل
ولا تظنُن بربّـــك َظنْ سوءٍ
فانْ الله أولى بالجميـــل

- ثم سرد أبياتاً أخرى من الشعر .

سبب احتراق بيته :

وقع خلاف بين علماء مكة حول إصلاح سقف الكعبـــة ، إذ طرأ فيه خلل ، ففريق منهم يرى إصلاحه ومنهم القطبي ، وآخرون لا يرون ذلك .

---

(١) : لا تزال معروفة بهذا الاسم، وكانت من متنزهات أهل مكة وصواب اسمها « ماجل » باللام .

(٢) : السفر الى المدينة لمجرد زيارة القبر الشريف أمر غير مشروع ، أما المشروع فقصد زيارة المسجد النبوي لقول الرسول (ص): « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد» .

(٣) : الجموم : من قرى وادي فاطمة معروفة الآن .

وقد تم اجتماع في الحرم الشريف في اليوم الخامس عشر من شهر ربيع الأول بين الفريقين للتداول في الأمر ، فانتهى بتأييد رأي الفريق الأول ، بفتاوى من شيخ الاسلام وغيره من علماء العصر ، وفي ليلة التاسع عشر من ذلك الشهر - أي بعد ثلاثة أيام - وقع الحريق في بيت الشيخ القطبي .

ويكاد صاحبه ومعاصره الشيخ عبد القادر الجزيري الحنبلي، مؤلف كتاب (درر الفوائد المنظمة) يكاد ان يربط بين الحادثتين، فيقول : (وقع حريق في بيت الشيخ قطب الدين الحنفي، واحترقت كتبه ، فزعموا أن ذلك بسبب الفتيا بهدم ما يحتاج اليه من عمارة السقف بالبيت الشريف ، وتقوّلوا عليه ما لم يكن) [١] .

ولعل من المفيد أن نورد ما ذكره الجزيري عن حادثة اصلاح سقف الكعبة كاملاً .

قال : -

(ومن ذلك ترميم السقف الشريف في سنة احدى وثلاثين وتسعمائة ، بحكم ورد من مصر من تلقاء كافل الديار المصرية يومئذ ، وهو المرحوم ابراهيم باشا، وقرىء المرسوم في الحطيم فكان في عبارته : « ليعمر تعميراً محكماً، ليكون أول من بناه ابراهيم عليه السلام ، وآخر من بناه ابراهيم » . فعدت هذه كبيرة ممن أنشأ ذلك المرسوم ، ويظهر لي انه القاضي محب الدين الظاهري وكان المباشر للترميم المذكور والي جلبى أمين جدة المعمورة، والمرحوم قاضي القضاة بمكة محب الدين ابن ظهيرة الشافعي ، وقاضي القضاة تاج الدين المالكي رحمها الله تعالى ، وجعلوا طوقاً من الحديد على موضع الكسر من خشب السقف ، وحشوا الموضع المنخسف بالمُشاق ، والجبس ، فلم يلبث ان زاد الكسر والخسف ، وظهر ظهورا تاماً ، وكان ذلك سبباً لتعميره في سنة

---

(١) درر الفوائد « ٢٢ » .

تسع وخمسين ، فانه قد عرض بنو شيبة وقاضي مكة بالتماسهم إلى الأبواب العالية سنة ثمان وخمسين وتسعمائة : (ان بعض أسهم سقف البيت قد انكسر ، وانخسف – بسبب ذلك – سطح البيت ، وصار الماء المجتمع من المطر ينزل إلى جوف البيت الشريف ، ويتلف الكسوة التي بداخله ، وقد بذلنا النصح وأردنا ان يُخص السلطان بهذه المزية العظمى ، ويعمر بيت الله تعالى ، ويخلد ذكر ذلك على صفحات الأيام ، ويكون له منقبة عظمى) . فلما وصلت العروض إلى السلطان نصره الله تعالى استفتى مفتي الزمان في ذلك الأوان . مولانا أبو السعود جلبى ، فافتاه بجواز ترميم الضروري من غير أن يتعلل به إلى ترميم ما ليس بضروري ، وأرسل السلطان صورة الفتوى مع حكم شريف إلى وزيره علي باشا كافل المملكة المصرية إذ ذاك ، ليرسل في هذه المصلحة من يعتمد عليه ، فأرسل الباشا لهذه المصلحة أحمد جلبى الذي كان مقاطعجياً قبل ذلك بمصر ، من طائفة يدعون في اللغة التركية (اسباهي آغلان) ، وجعله ناظراً على حرم مكة المشرفة،وأرسل معه معماراً ومصروفاً وما يتعلق بذلك من الأدوات والأسباب ، فوصل أحمد جلبى في موسم سنة ثمان وخمسين وتسعمائة .

بعد ذلك أراد الشروع فيما أراد ، فخالفه الشيبيون وقالوا : لا تمكن من ذلك . طمعاً منهم في شيء يحصل لهم من قبله ، فلما كان يوم الجمعة خامس عشر ربيع الأول عقد احمد جلبى مجلساً بحضور قاضي مكة ، وطلب جماعة من أهل مكة والمجاورين ، منهم الشيخ العلامة المحقق شاب الدين أحمد ابن حجر والشيخ الامام عمدة المحققين قدوة الملة والدين ، علامة اهل الأدب المتبحرين قطب الدين ابن ملا علاءالدين النهروالي مفتي الحجيج،والقاضي شمس الدين محمد بن عبد الحق النويري المالكي ، وشمس الملة والدين المدرس الحنفي، والسيد الشريف حسين المالكي،والقاضي شرف الدين يحيى ابن فائز بن ظهيرة، وحضر من المجاورين الشيخ الامام العلامة الرحالة شمس الدنيا والدين ، مفتي المسلمين،اوحد العصر محمد ابن شيخنا العلامة الحافظ الرحالةبقية السلف

جمال العلما أبي الحسن البكري الصديقي الاشعري الشافعي ، والشيخ العلامة عمدة أهل الأدب نور الدين علي العسيلي الشافعي ، فقال أحمد جلبى : ما قولكم في تعمير الموضع المنخسف في سطح البيت ، وقد حصل منه الضرر على الكسوة ، ويخشى منه الزيادة ؟ فقال الجميع : يجوز اصلاحه ، بل يتعين ، فقال فاتح البيت الشيخ أبو السعود الشيبي : ليس في سطح البيت الشريف موضع منخسف يحصل منه الضرر، وان يكن فمثل هذا يسد بالقطن،ويكتفي بذلك . فقال احمد جلبى : معي بينة تشهد بما اقول . واحضر جماعة من البنائين والمعمار ، وشهدوا أنهم عاينوا الكسر في سهمين من اسهم السقف الشريف،ورأوا السهم الثالث انحنى عن موازاة بقية الأسهم احد عشر قيراطاً بالعمل ، وانه ان لم يتدارك بالعمل يخشى من سقوط السقف الشريف . وحكم القاضي بموجب شهادتهم ، وأمر بالشروع في العمل .

فلما بلغ خبر هذا المجلس بعض الاعاجم تحرك فيه عرق عصبية للشيبيين وقال : لا يجوز ان يعمر مطلقاً الا من بعد ان يسقط من تلقاء نفسه ، وعمل مجلس آخر حضر فيه جماعة غير الأولين ، وكلهم بالغ في الانكار على القائل بجواز الترميم ، وصرحوا بان الكعبة قائمة بيد القدرة ، وانها لا تنهدم فلا يجوز ان تمس مطلقاً ، واوردوا لذلك اشياء وتفرقوا . فلما رأى ذلك أحمد جلبى اخرج لهم خط المفتي ، فخاف الجميع ، وفرقوا مما قالوا ، وذكروا ان هذا هو مرادنا بعينه ، ومرحباً بالوفاق .

فطلب خطوطهم بذلك ، فكتبوا خوفاً من اظهار مخالفة المفتي ، وطولع بذلك السيد الشريف أحمد أمير مكة المشرفة ، فحضر بنفسه ، وشرع في التعمير ، ولم يبلغوا مرادهم ، فاتفق ان في أثناء ذلك وقع حريق في بيت الشيخ قطب الدين الحنفي ، واحترقت كتبه ، فزعموا ان ذلك بسبب الفتيا بهدم ما يحتاج اليه من عمارة السقف بالبت الشريف ، وتقولوا عليه ما لم يكن قاله ، وقد الف في هذه الواقعة الشيخ العلامة شهاب الدين احمد بن حجر الشافعي تأليفاً بديعاً في بابه) .

وقد سجل الشيخ القطبي هذه الحادثة في (تذكرته) ، وبلغ من اهتمامه بتسجيلها انه سجل فتوى الشيخ ابن حجر ، بخط ابن حجر نفسه ، قائلاً : (وهذا خطه متع الله بحياته) [١] .

عنايته بجمع الكتب :

ان مكتبة تضم الفاً وخمسمائة مجلد في ذلك العهد من نفائس الكتب تعتبر عظيمة ، والقطبي ذكر ان كتبه التي احترقت كانت زهاء الف وخمسمائة مجلد من النفائس، مما ملكها أو ورثها عن أبيه ومما ساعد القطبي على جمع الكتب، انه كان ذا ثروة .

يصفه الشوكاني في (البدر الطالع) قائلاً : (وكانوا – يقصد الأتراك – يعطونه العطاء الواسع ، وكان يشتري بما يحصله منهم نفائس الكتب، ويبذلها لمن يحتاجها ، واجتمع عنده منها لم يجتمع عند غيره) [٢] انتهى .

يضاف إلى هذا ان القطبي بحكم مركزه الاجتماعي ، وكونه تولى وظائف كبيرة في مكة ، كان ذا صلة قوية بالمكتبات الموجودة في الحرمين الشريفين .

ومن تلك المكتبات : مكتبتان أنشأهما السلطان قايتباي ، سنة ٨٨٢ هـ.

وفي عهد القطبي كانت المكتبتان موجودتين وقد تحدث القطبي نفسه عنهما فقال عن مكتبة مكة التي أنشأها قايتباي: (وقد استولت عليها أيدي المستعيرين ، وضيعوا منها جانباً كبيراً ، وبقي منها ثلاثمائة مجلد ، وهي تحت تكلم مؤلف هذا الكتاب ، صُنتها وكملت بعض ما فات منها ، وجلدت منها ما يحتاج إلى التجليد ، واستخلصت بعض ما وجدته، وأعدته إلى الوقف صانه الله) [٣] .

---

(١) تذكرة القطبي - بخطه - « الورقة ١٦ و ٢٨ » .

(٢) البدر الطالع (٢/٥٧)

(٣) : الأعلام للقطبي .

ويقول عن مكتبة المدينة في حديثه عن رحلته إليها في سنة ٩٧٦ هـ : (وكان نزولي في خزانـــة كتب الأشرف قايتباي رحمه الله بفردى ، ونزل الأولاد والخدم عند الصهر العزيز البرهاني إبراهيم بن أحمد المالكي)[١].

وعندما تحدث عن انتزاع مدينة جِبْلة في اليمن من أيدي الأتراك سنة ٩٧٥ هـ قال : (ولما دخلوا جبلة نهبوا بيوت العسكر وكان من المنهوبين فيها قاضي جبلة الأخ الشقيق ، الصديق الشفيق ، القاضي محب الدين بن علاء الدين رحمه الله تعالى ، وعوضه غرف الجنـــان عن محن الزمان ، أصيب بطارفه وتليده ، وكتبه وأثاث بيته وعبيده ، وما كان لي من الكتب النفيسة عنده ، وكان من لطف الله به ، أنه نجا بنفسه ولله الحمد عريانا حافياً ، هارباً من قرية الى قرية ، ومن جبل إلى جبل ، إلى أن وصل الى زبيد بهذه الحال ، وسلمه الله بنفسه ــ وله الحمد ــ من تلك الأحوال [٢]) .

لقد جرى على كتبه نكبتان ، إحداهما احتراقها في سنة ٩٥٩ هـ . الثانية نهب ما كان مع أخيه محب الدين منها في سنة ٩٧٥ هـ .

وقد ذكر في الرحلة ، وهو يتحدث عن قصيدة له مطلعها :

الدنُّ لي والكأس والقرقفُ
وللفقيـــه الكتبُ والمِصْحَفُ

قال : (ذهبت القصيدة مع مسوداتي ورسائلي وكتبي في الحريق الواقع سنة ٩٥٩ هـ) .

وأشار إلى ان الله قد عوضه عن كتبه خيراً ، لما تقدم بيانه . ولهذا نجد بعض مخطوطات التي كان يملكها مفرقاً بالمكتبات مما يحمل اسمه أو عليه تعليق

---

(١) : رحلة القطبي المخطوطة صفحة ١٨ .

(٢) : البرق اليماني للقطبي مخطوط .

له ، هذا بالإضافة إلى مؤلفاته التي بقيت بعد الحريق ، مما قد تكون نسخت قبل وقوعه ، أو انه ألـّفها بعده ، مما سنتكلم عليه فيما بعد .

وقد عاش النهروالي عيشة رفاهية ، وغنى .

فقد نال هو وأبوه من عطف ملوك كجرات الإسلاميـــين كثيراً ، وتولى المدرسة والرباط اللذين أنشأهما أحد اولئك الملوك في مكة .

ثم نال عند الأتراك جاهاً عظيما فكانوا على ما يروى الشوكاني ويعطونه العطاء الواسع [١] .

وكان ذا صلة قوية بأمراء مكة يتولى كتابة الانشاء لهم .

وقد أرسلوه في سفارة إلى القسطنطينية ، فقابل السلطان هناك واجتمع برؤساء الدولة ، كما تقدم تفصيل ذلك في الحديث عن هذه الرحلة .

وكان ذا خدم وَحشَم، له مماليك، وهو قد حظي بطرف من الغنى، وكان موسّعاً على نفسه وعلى إخوانه . يروي الشوكاني انه (كان كثيراً للتنزهات في البساتين ، وكثيراً ما يخرج الى الطائف ، ويستصحب معه جماعةمن العلماء والأدباء ، ويقوم بكفاية الجميع) .

أما سلاطين الأتراك وولاتهم وأمراؤهم فقد غمروه بالعطـــاء وقرروا له راتباً سنوياً ، يماثل راتب شيخ الحرم المكي ، الذي كانت رتبته لديهم تلي رتبة شريف مكة . ولما أنشئت المدارس السليمانية بمكة ، وكلوا الإشراف على مدرسة الأحناف للشيخ قطب الدين .

وهذه المدارس ُتدِرُّ مالا كثيراً على القائمين عليها ، وخاصة وقت إنشائها .

---

(١) : البدر الطالع (٢/٥٧) .

وكان كلما قدم مكة والٍ من ولاتهم ، او قائد من قوادهم يتولى الشيخ القطبي تطويفه ، ومرافقته فيحظى منه بالتقدير الكبير .

ولهذا فلا عجب إذا رأينا القطبي يعتبر الدولة التركية (هي التي أنعش الله بها أهل الحجاز من الفاقة والفقر) على ما يقول .

نجده يكرر هذا في كثير من كتبه ، وينقل ذلك عنه مورخو الحجاز .

يصف القطبيُ السلطان سليمانَ القانونيّ فيقول :

(وقد أهلني لأن قبّلت يده ، وألبسني تشريفـــة التشريف ، وشملني بإحسانه الوافر الوريف ، مما أنا الى الآن أتقلب في جزيل إنعامه ، وأعيش الى الآن في فائض تفضلانه وإكرامــه ، وأترحّم على ذاته كلما ذكرت إحسانه [1]) .

ويذكر انه خُصّص له مرتّب يومي عندما عهد إليه بالتدريس في مدرسة الأحناف السليمانية بلغ ستين عثمانياً في اليوم ، وهذا مبلغ يعتبر في ذلك العهد ضَخْماً .

وعندما تحدث عن السلطان مراد قال: (واستمر يشملني بانعامه ،فوق ما بيديّ من المدرسة الشريفه السلطانية السليمانية ، مدرسة جده المرحوم ... وأنعم على أولادي بالتدريس ، وأولاهم بكل إكرام وإحسان لطيف [2]).

ويصف ما تجريه الدولة التركية على أهل الحرمين الشريفين بأنه : (مادة حياتهم وبه معاشهم)[3] لهذا فلا عجب إذا رأينا السيد محمد الحسيني يقول في « الجواهر الثمينة » ما هذا نصه : (قال مفتي الحرمين ، قطب الدين الحنفي: ان أهل الحرمين الشريفين ما شبعوا من دولة من الدول ، مثل ما شبعوا في دولة آل عثمان) [4] .

---

(١) : الأعلام ص : ١٩٧ هامش خلاصة الكلام .

(٢) : الأعلام ص ٢٧٢ .

(٣) : المصدر السابق ص : ٢٢٤ .

(٤) : الجواهر الثمينة ورقة ٩٠ مخطوطة باريد رقم ٢٦٥٠ .

أوردنا هذه الاشارات لكي ندرك مبلغ أثر ما قام به الأتراك من تقدير للقطبي في نفسه ، مما نشاهده في جميع مؤلفاته واضحاً جلياً ..

ان القطبي ، وهو ربيب تلك الدولة ، وصنيعة من صنائعهـا ، ظهرت جلُّ مؤلفاته طافحة بالمبالغات في الثناء على سلاطين الاتراك وعلى رجال دولتهم ، بل أصبح القطبي المؤرخ العربي الوحيد لتلك الدولة في عهده ،وهذا مما ينبغي أن نلاحظه عندما نقرأ كتاباته ، وخاصة كتابه « البرق اليماني » الذي نجده تحامل فيه تحاملا شديداً على العرب ، وخاصة اليمنيين ونسب إليهم أشياء بدافع الهوى ، وما كانت صحيحة .

ويؤخذ على القطبي أشياء — غـير تعصبه للدولة التي عاش في كنفها — يؤخذ عليه أنه كثيراً ما يهضم أعداءها حقهم ، ويصفهم بصفات هم أبعد ما يكونون عنها ، فهو عندما يصف العرب الذين لم يخضعوا لتلك الدولة يقول : (عربان جهلاء، ليسوا عقلاء بل غفلاء، ينخدعون بالكلام الباطل،ويصدقون بالموهات والأباطل، ركبوا من عقولهم متن عمياء، وخبطوا خبط عشواء) [١] ومثل هذا يرد كثيراً في كلامه .

ومع أن الشيخ القطبي حنفي المذهب ، إلا أنه كثيراً ما يخالف مذهبه .

والمخالفة إذا كانت جارية على أساس من الدليـل فهي محمودة ، غير انه — والله يغفر له — قد يفتي بعض الرؤساء بفتاوى يؤخذ عليه فيها ، من ذلك ما ذكره من أن أحد أمراء الأتراك المدعو رضوان باشا وصل مكة في وقت الحج من سنة ٩٨٢ فخرج إلى عرفات حاجاً ، لابساً ثياب الأحرام ، فاتصل ابنه بالشيخ وطلب منه ان يفتي والده بلبس الثياب ، وأن يفدي ، قـال القطبي نفسه : (سألني أحمد بك أن أمنع والده من التجرد ، خوفاً عليه من التوعك ، فمنعته ، وحذرته من التجرد، خصوصاً وهو على جناح سفر، لاسيما

(١) البرق اليماني (٤٦٤) .

وفي الشرع الشريف مندوحة عن ذلك بالفداء ، فلم يوافق على اللبس، واستمر متجرداً ، قصداً للتقشف ، فما وصل إلى عرفة إلا محموماً ، فلمته على ذلك ، والبسته المخيط ووقف بعرفة)[١] .

والشيخ رحمه الله ليس من العلماء المتعصبين لمذاهبهم، بل هو رحب الصدر يتقبل الدليل .

سئل عن الصلاة على الميت في المسجد الحرام بمكة وبمسجد النبي ﷺ في المدينة ، هل يجوز أم لا ؟ لأن الصحيح من مذهب الحنفية – كما يقول – كراهية الصلاة على الميت فيها فأجاب قائلاً : (فترجح عندي أن أفتي بالجواز من غير كراهية) إلى أن قال : (فاعلم ذلك واحفظه ، فانه نفيس ، ولا تجمد مع الجامدين ، على ان الكراهة كراهة تنزيه ، نص عليه شرف الأمة العقيلي ، كما نقله عنه الامام الزاهدي رحمهما الله تعالى) الاعلام ص : ١٤١ .

وله أشياء أخرى من هذا القبيل لا يتسع المقام لذكرها .

والشيخ القطبي لا يتورع عن اسباغ الثناء على نفسه ، وخاصة عندما يتحدث عن شيء من نظمه أو نثره .

فيقول بعد ايراده قصيدة مدح بها قاضي دمشق محمد بن أبي السعود العمادي، في أثناء مروره بتلك المدينة في رحلته الى القسطنطينية سنة ٩٦٥ هـ وعمره اذ ذاك ٤٨ سنة ، ومطلع القصيدة :

ما أومض البرق – لمّاعاً – على إضم
إلا تذكّرت احبابي بذِى سَلم

---

(١) لا المصدر نفسه (١٩٩) .

تقع في ٣٣ بيتاً – يقول : (وهده قصيدة – كما ترى – في أعلى درجات الانسجام واللطف والسلاسة ، ولكنها ما وقعت موقعاً معجباً منه ، لقصور ذوقه في فن الأدب ، وعدم ممارسته كلمات بلغاء العرب ، فلم يترتب على هذه القصيدة نتيجة غير بقائها في صفحات الدفاتر ، على ممر الاعصار)[١] .

ويصف قصيدة رائية استهل بها كتابه (البرق اليماني) قائلاً : (وقد افتتحته بقصيدة طنانة ، سارت بذكرها الركبان، تتسابق الفاظها الى الآذان والاذهان ، يعد كل بيت منها بديوان ، وتسحب كل كلمة منها أذيال البلاغة على سحبان)[٢] .

مؤلفـــاته :

للقطبي مؤلفات في الدين والأدب والتاريخ وصل الينا بعضها ، وبعضهـا فقد في حياته بعد الحريق الذي شب في داره ، وسبقت الاشارة اليه .

وسنورد أسماء ما نعرف منها :

١ – الاعلام باعلام بيت الله الحرام .

في تاريخ مكة المعظمة ألّف كما يظهر من خاتمته في عهد السلطان مراد ابن سليم « ٩٨٢ – ١٠٠٣ هـ » .

ويظهر ان المؤلف بدأه قبل ذلك العهـــد ، وانه كان يضيف اليه من المعلومات ما يستجد له .

---

(١) رحلة القطبي (ص ٢٠٠) نسختي الخطية .

(٢) « البرق اليماني » .

والكتاب وإن أُلّف في تاريخ مكة ، إلا أن القسم الأخير منه ، يشتمل على تاريخ مفصل لسلاطين آل عثمان من قيام دولتهم إلى عهد السلطان مراد .

والمؤلف ، كما تقدم ، صنيعة من صنائع آل عثمان، فأراد أن يشمل كتابه هذا على ما يتقرب به اليهم من ثناء ووصف لبعض أحوالهم، وتراجم لمشاهير وزرائهم ، وذكر فتوحاتهم الاسلامية في مختلف أنحاء العالم .

والقسم المتعلق بتاريخ مكة يشتمل على خلاصة بتاريخ المشاعر المقدسة وسماه مصطفى الجنابي في تاريخه « الاعلام باعلام بلد الله الحرام » . والشيخ القطبي كثيراً ما يغير أسماء مؤلفاته كما سيأتي بيان ذلك فيما بعد .

٢ — : « البرق اليماني » وهو هذا ، وسيأتي تفصيل الحديث عنه .

٣ — تاريخ مرتب على السنين :

ومن مؤلفات القطبي تاريخ مرتب على السنين، ذكره الشيخ عبد الله ميرداد في كتابه « نور الزهر » وذكر انه من مصادره فقال — وهو يسرد تلك المصادر : (تاريخ العلامة قطب الدين المكي الحنفي المرتب على السين)[1] .

والشيخ عبدالله ميرداد من أهل هـــذا القرن قتل سنة ١٣٤٣ هـ في الطائف .

وقد أشار الشيخ عبد الوهاب الدهلوي في مقال نشره عن الكتب المولفة عن الحرمين والطائف وجدة إلى هذا الكتاب ، وقال انه غير الأعلام المطبوع وانه كان موجوداً بمكة عند الشيخ عبدالله ميرداد أبو الخير .

---

(١) « نظم الدرر باختصار نور الزهر » . ص ٢ نسخة الشيخ محمد نصيف .

٤ — تذكرة النهروالي :

ذكر هــذا الكتاب من مؤلفاته السيد محمد بن عبدالله الحسيني المعروف بكبريت قائلاً : (وله تذكرة جامعة)[1] .

والتذكرة كما هو معروف عند المتقدمين كتاب يدون فيـــه العالم أو الأديب ما يحتاج إلى تسجيله للاستفادة والرجوع اليه .

وتذكرة القطبي هذه موجودة بخط يده ، والظاهر انها ممـا جمعه بعد احتراق كتبه ، إذ أولها : (بسم الله الرحمن الرحيم ، اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً ، وأنت إذا شئت جعلت الحزن سهلاً ، مما وقع من افتقاد الله تعالى لي اني توجهت ليلة الثلاثاء تاسع عشر ربيع الأول سنة ٩٥٩هـ إلى بركة ماجد ، مع بعض الأصحاب للتنزه ، فوقع الحريق في داري بمكة ، ولا أدري كيف وقع . غير انه ابتدأ من القاعة التي بها أسبابي و كتبي ، وكانت زهاء الف وخمسمائة مجلد من نفائس الكتب ، التي ملكتها وورثت بعضها عـــن أبي رحمه الله ، فذهبت كلها) إلى آخر ما قال وقد تقدم ذكره .

وهذه التذكرة تحوي بيان رحلاته المتعددة إلى المدينة ، ورحلته إلى اسطنبول والتي دعاها « الفوائد السنية في الرحلة المدنية » وسيأتي الحديث عنها .

وتتضمن هذه التذكرة عدا تسجيل أخبار رحلته إلى اصطنبول ورحلاته إلى المدينة فوائد تاريخية عن حوادث وقعت في عهده ، وقصائد شعرية عربية وفارسية له ، وقصائد اخرى لغيره وها هو بيان جل محتوياتها .

١ — رحلته الأولى للمدينة للتسلية بالزيارة بعد حريق بيته — الورقة ١ .
٢ — أدراك العربان في عهده — الورقة ٢١ .

---

(١) رحلة الشتاء والصيف ص ١٥٢ .

٣ – قصة الخلاف في عمارة سقف الكعبة سنة ٩٥٨ هـ – الورقة ٢٥ .
٤ – حادثة بِمِنى بين أمير الحج المصري وشريف مكة – الورقة ٣٢ .
٥ – أخبار تاريخية عن الكعبة وغيرها – الورقة ٣٣ .
٦ – الرحلة الثانية للمدينة ٩٦٤ هـ – الورقة ٤٤ .
٧ – الرحلة الثالثة للمدينة ٩٦٥ هـ – الورقة ٥٦ . (ولم يدون عن هذه الرحلة شيئاً) .
٨ – الرحلة الرابعة للمدينة مع ابراهيم المعمار ناظر عين عرفـــات سنة ٩٧١ هـ – الورقة ٥٧ .
٩ – الرحلة الخامسة للمدينة مع السيد حسين المكي المالكي شيخ الحرم المكي سنة ٩٥٧ – الورقة ٦٢ .
١٠ – أخبار عن سنان باشا فاتح اليمن – الورقة ٦٧ .
١١ – الرحلة السابعة للمدينة مع شيخ الاسلام حسين المكي المالكي . وهو المتقدم ذكره سنة ٩٨٠ – الورقة ٧١ .
١٢ – أشعار من أدب الدنيا والدين – الورقة ٧٧ إلى ٨١ .
١٣ – مختارات من شعر الطغرائي – الورقة من ٨٢ الى ٨٦ .
١٤ – ما انتخبه من ديوان أبي فراس – الورقة من ٨٧ الى ٩٠ .
١٥ – أشعار منوعة لابن الوردي وغيره – الورقة ٩٣ الى ١٠٧ .
١٦ – فوائد عن صناعة الحـــبر وعن التصحيف وعن كنايات عوام المصريين وفيها ما يستحيا من ذكره – الورقة ١٠٧ الى ١١١ .
١٧ – نقول من تذكرة أبي حيّان واسمها « بصائر القدماء وسرائر الحكماء ونوادر الملحاء وخواطر العلماء والأدباء » – الورقة ١١١ إلى ١١٣ ومن ١٤٥ إلى ١٦٠ .
١٨ – أشعار منوعة للقطبي نفسه وغيره – الورقة ١١٤ الى ١١٩ .
١٩ – نقول من طبقات السبكي – الورقة ١٢٠ الى ١٢٩ .
٢٠ – حكم منوعة وأمثال قرآنية – الورقة من ١٣٥ الى ١٣٧ .

أول تذكرة القطبي بخط يده

طرة تذكرة القطبي

صفحة من تذكرة القطبي بخطه

الصفحة الاولى من رحلة القطبي بخط يده

وفيها خط ابن حجر المكي

٢١ — من الأمثال المولدة منتخبة من كتاب «التمثيل والمحاضرة» للثعالبي ثم مختارات من كتاب « الجنا المحبوب» المنتخب من ثمار القلوب » الورقة ٦١ الى ٦٩ .

٢٢ — نقول من « الجامع الصغير وزوائده » للسيوطي - الورقة ١٧٢ الى ١٨٨ .

٢٣ — نظم للقطبي نفسه في تقريظ كتاب — الورقة ١٩١ .

٢٤ — منتخب من ديوان ابن الوردي — الورقة ٢٠٧ .

٢٥ — اشعار فارسية في الاقلام والمداد — الورقة ١٩١ .

ويظهر أن القطبي استعمل بتدوين هذه المعلومات دفتراً كبيراً كان يسجل فيه تلك المعلومات بدون ترتيب .

وقد يكون سجل بعضها قبل احتراق مكتبته كما يفهم من تسجيله لحوادث وقعت قبل ذلك أشار إلى بعضها .

ثم استعمل هذا الدفتر لتدوين رحلته إلى اسطنبول ، وقد فقد منه أثناء الرحلة فتأثر بذلك ، إلا أن الأمـــير بايزيد — ويسميه السلطان — وهو ابن السلطان سليمان القانوني ، بعث من يبحث عنه حتى وجده وأعاده اليه كما سبقت الاشارة إلى ذلك .

٥ — التمثيل والمحاضرة بالابيات المفردة النادرة :

هذا كتاب في الأدب ، ألفه القطب النهروالي،وأهداه إلى سلطان المغرب الأقصى في عهده ، الغالب بامر الله الشريف عبد الله أوله : (أحسن حمدِ الله وأكمله وأتمه في بيوت أذِنَ الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه) .

وجمع فيه من الأبيات المفردة مما يتمثل به في المحاضر ، ويستشهد به في المحافل كل مجالس ومحاضر ، وانتقاه من دواوين العرب ومن حذى حذوهم

من ظرفـــاء الأدب ، ورتبه على حروف المعجم معتبراً في الترتيب أوائل الأبيات ريسمى هذا الكتاب « تمثال الأمثال النادرة » يوجد منه نسخة مخطوطة سنة ١٠٦٣ هـ وبهامشها تقييدات يسيرة في دار الكتب المصرية .

٦ — الجامع لكتب السنة الستة في الحديث :

ذكر هذا الكتاب من مؤلفات القطب المكي ذكر هذا الشريف أبو محمد مصطفي بن سنان بن أحمد الحسيني الهاشمي ، الشهير بجنابي في كتابه المعروف بتاريخ الجنابي . كما ذكره صاحب « هداية العارفين » .

ولعل هذا من كتبه التي احترقت إذ لم أجد له ذكراً في فهارس المكتبات التي لدي .

٧ — زيادات على « دستور الاعلام » :

الأصل لابن عزم ، وزاد عليه القطبي زيادات يسيرة ، منه نسخة في مكتبة الحرم المكي واحرى في اصطنبول .

٨ — طبقـات الحنفية :

الف القطب في تاريخ علماء مذهبه كتاب طبقات الحنفية ، ولكنه احترق مع كتبه التي احترقت على ما ذكر الغزى في « الكواكب السائرة » [١] ، وذكر الجنابي أن هذا الكتاب يقع في أربعة مجلدات .

ولا يستبعد انه نسخ قبل احتراقه فبقي من نسخه ما اطلع عليه الجنابي .

٩ — الفتوحات العثمانية للأقطار اليمانية :

الف القطب عن الغزوات التي قامت بها الدولة العثمانية لفتح اليمن هذا الكتاب ، وسماه بهذا الاسم وأهداه إلى السلطان سليم خان ثم بعد ذلك غير اسمه إلى (البرق اليماني) كما سبقت الاشارة إلى ذلك .

وأسلوب كتاب الفتوحات أقرب إلى الاسترسال في الكلام على السجية

---

(١) جزء ٣/٤٤ .

فيقل فيه السجع المتكلف الذي يكثر في كتاب «البرق اليماني» ويوجد في كتاب البرق زيادات ذات فائدة، ومن هذا الكتاب نسخة جيدة مخطوطة سنة ٩٨٦هـ أي في حياة المؤلف توجد في المكتبة العامة في مدينة فينّا .

١٠ – الفوائد السنية في الرحلة المدنية والرومية :

هذا الكتاب يعتبر من أهم مؤلفات القطب المكي ذلك لأنه يحوي معلومات متنوعة، ويطرق جوانب مختلفة من نواحي المعرفة ، فهو يصف مدناً وأماكن ويتحدث عن مشاهداته فيها ، ويذكر علماء وأدباء مشيراً إلى بعض آثارهم ممن اجتمع بهم .

ألفه أثناء رحلته إلى البلاد الرومية كما يسميها ويقصد بلاد السلطنة العثمانية في ذلك العهد، اصطنبول ونواحيها ، وقد رحل اليها في سنة ٩٦٥هـ، وسجل في أوائل هذا الكتاب زياراته المختلفة للمدينة المنورة من سنة ٩٥٩ فما بعدها إلى وقت رحلته إلى البلاد التركية .

ويقع هذا الكتاب في ١٢٥ صفحة مستطيلة ، بحيث يقع في الصفحة ٣٥ سطراً بالخط الفارسي الدقيق ، خط المؤلف نفسه .

ويقع وصف الزيارات للمدينة منه في ٢١ صفحة .

ولقد دوّن رحلاته تلك في الدفتر الكبير الذي كان يدون فيه (تذكرته) والذي فقد منه اثناء الرحلة قبل أن يصل إلى اصطنبول، ثم وجد وأرسل اليه من قبل احد ابناء السلطان سليمان ، وقد سبقت الاشارة إلى ذلك .

وأول الكتاب بعد البسملة : (اللهم لا سهل الا ما جعلته سهلاً ، ابتدأ السفر المبارك الى المدينة الشريفة ليلة الاثنين بعد العشاء تاسع شهر ربيع الآخر سنة ٩٥٩ هـ واصبحنا في وادي مر، واقمنا به يوم الأثنين وليلة الثلاثاء، وسبب الاقامة تأخر بعض القافلة الى الغد ، ووقع لنا في طريق الوادي ان الجمالين لما

ناموا في الطريق جاء بعض السراق الى حمل الزاملة، وشق الخيش، وأخذ بعض الدقيق والرز وافاويه الطعام ونحو ذلك من بعض الجزئيات، وهذا علامة القبول ان شاء الله ، وكان الرحيل المبارك أوله وقت الظهر يوم الثلاثاء عاشر ربيع الآخر ، وكانت القافلة المباركة نحو ٦٠ جملاً وكان الجمال من زبيد المستزاد ، فتبُع الحرامية وقص أثرهم ووقع عليهم واسترد جميع ما أخذوه من الحوائج وجاء بها بعد أن وقع بينه وبينهم مقارعة بالسيوف وجرح واحداً من الحرامية وكانوا من زبيد وكفى الله تعالى شرهم) .

ثم استرسل يصف زياراته للمدينة ، ذاكراً المنازل وبعض ما يجري فيها وآخر ما سجل زيارته في سنة ٩٨٠ هـ .

أما أول رحلته الى البلاد التركية فهذا نصه بعد البسملة :

(هذه نبذة من أحوال سفري إلى الباب العالي السلطاني ، رسولا من قبل سيدنا ومولانا المقام الشريف العالي ، السيد الشريف الحسيب النسيب حامي الحرمين الشريفين، سلطان البلدين المنيفين، مولانا السيد حسن ابن أبي نمي خلد الله تعالى ملكهما ، الى السلطان الأعظم الافخم ، مولى ملوك العرب والعجم، سلطان سلاطين الزمان، افتخار ملوك آل عثمان السلطان سليمان خان نصره الله تعالى وأيد سلطنة القاهرة .

كان البروز المبارك من مكة المشرفة ، ليلة الخميس بعد مضي ثلث الليل خامس محرم الحرام افتتاح سنة ٩٦٥ هـ وكان امير الحاج الشامي الذي كنا معه الأمير يونس سنجق حمص .

وقد وصلت الى الوادي ، وكان معي لخاصة أحمالي وخدامي سبعة جمال وبغلتان ، والكراء لكل جمل الى الشام ١٩ ديناراً ذهباً جديداً وكان معي أخي مولانا محب الدين حبيب الله — وجوهر وسرور وياقوت وكيوان ، واسماعيل الكردي وجوهر الشريفي ، وفرحان الشريفي ، وأحمد الشويمي .

ولما اقبلت على المخيم بابي عروة صبحاً رأيت الحجاج قد رحلوا فادركت القافلة وقت الضحى،عند المضيق في فم الشعب ، فقيل لي:ان جمالنا لم ترحل . فرجعت الى الوادي وتعبت كثيراً خوفاً من السراق، ومعي أخي وقد انقطع الخدام عنا،فرجعت الى الوادي وحملنا وسرنا طول النهار وادركنا القافلة،وهو نازل بعيد المغرب فبمجرد وصولنا رحلوا فرحلنا معهم الى أن نزلنا على بركة خُليص)

ثم استرسل في وصف رحلته ماراً ببلاد الشام واصفا ما يشاهده باسلوب غير متكلف ، مسجلاً كلما يتعلق برحلته حتى وصل الى استنبول ، وذكر مقابلته للسلطان ولوزرائه وأعيان دولته وما قدم لهم من الهدايا ومن اجتمع به من العلماء في تلك البلاد ، وكان في كل ذلك دقيقاً ، وكان الغرض من رحلته هذه السعي لاخراج بيري والي[1] المدينة من قبل السلطنة العثمانية لخلاف حصل بينه وبين شريف مكة، ولكنه أخفق في مهمته كما أوضح ذلك بقوله: (وفي يوم السبت ١٨ شهر رجب توجهت إلى ديوان السلطان واستنجزت الجواب في أمر بيري واخراجه وعسكره من المدينة الشريفة فأمرت بالجلوس إلى أن يدخل الوزراء ويعرض الأمر على حضرة الخنكار (يقصد السلطان) فجلست إلى أن فرغ الديوان ودخل قضاة العسكر والوزراء وبرزوا وركبوا إلى بيوتهم ، فركبت مع الوزير الأعظم إلى بيته ، وذكر لي أن

(١) قد عزل دلوبيري عن المدينة بعد هذه السنة ، فقد ذكر القطبي في (البرق اليماني) - ص ١٧٩ نسخة سنان باشا - أن محمود باشا قدم من اليمن فوصل الى جدة في ١٩ شعبان سنة ٩٧٢ - وكان الأمير قاسم هو (سنجق) جدة ، وقاسم هذا كان من المماليك السلطانية ، خرج مع الوزير علي باشا وكان سراجاً له ، واول ما ولي أغاة المدينة الشريفة ، بعد عزل دَلوْ بيري ، ثم الى سنجق جدة ، ثم الى إمرة جدة - هذا كلام القطبي ، ويفهم منه ان عزل دلوّ بيري كان قبل سنة ٩٧٢ .

ومن مآثر بيري هذا ما ذكره السيد كبريت المدني في « الجواهر الثمينة » حيث قال : (ومن محاسن المدينة : البركة المباحة ، وهي بركة الأمير بيري ، وهي في قبلي جادّة العقيق ، وعندها حديقة ، وكان عليها بناء حسن ، لعبت به الأرياح) اﻫ .



الورقة الأولى من رحلة القطبي إلى البلاد التركية بخطه

الخنكار تأبى من إخراج البيري والعسكر ، وأمر بالتفتيش عليـــه ، فاذا ظهرت منه جنحة رفع عن المدينة. فضاقت الدنيا علي بهذا الجواب وقلت له: كيف التفتيش على ظالم غاشم يفعل بيده ما يريد ولا يرده عقل ولا دين ؟! فقال: ان قاضي الشرع عبد الرحمن أفندي يفتش عليه. فقلت: هو ظهيره ومعينه وهو الذي جلبه إلى المدينة الشريفة فقال: هكذا أمر الخنكار وقد عجزت عن رده عما أمر به . فلما يئست منه عزمت الى علي باشا فأجابني بذلك ثم توجهت الى بقية الوزراء فلم يفد الكلام معهم فبت بليل أليل الى أن أصبحت وكان السيد الشريف نصره الله تعالى كتب معي عرضاً وختمه وقال: إذا امتنعوا عن إخراج بيري مع عسكره ، أعطهم هذا العرض ودع القيامة تقوم ومضمون العرض: ان الآراء الشريفة ان استقرت على إبقاء بيري وعسكره في المدينة فنحن نرفع يدنا عن المدينة وتكون المدينة حينئذ في درك بيري وعسكره ولا نطالب نحن بشيء من الذي يُتوقع من اختلال أمورها ، والأمر راجع الى الآراء الشريفة . فصممت على إعطاء هذا العرض وكنت استصدق جماعة منهم مصطفى بن جلال ومنهم رئيس الحكماء البدر القيسوني فأشارا علي بعدم إعطاء هذا العرض والصبر والمطاولة . وكان مولانا السيد الشريف أكد علي في اعطاء ذلك العرض في آخر الأمر ، وصار البدر القيسوني ومصطفى يمنعاني من ذلك ويقولان : يتفاقم الأمر باعطاء هذا العرض والسلطان رجل عنـــده نوع من العناد وعدم الرجوع ، وربما يقال: إن الاشراف يعجزوننا بهذا الكلام. ويتولد من ذلك ما لا خير فيه ، وبت أفكر فيما أفعله ولم يمكني مخالفة أمر السيد الشريف .

فلما أصبحت مضيت إلى ديوان السلطان وقلت للوزير الأعظم : هذا عرض أمرني السيد الشريف أن اسلمه اليـــكم في الديوان آخر الأمر وقد اضطررت إلى دفعه اليكم. فأخذه الوزير الأعظم وفتحه في الديوان وقرأه وعلم مضمونه ثم التفت إليّ وقال : نعرض هذا على حضرة الخنكار؟ قلت : نعم . قال : لا يناسب عرض هذا لأن حضرة الخنكار سيف طويل ولا يعجز

عن حفظ المدينة مع بعدها عن مقر سعادته وفي هذا استشعار بعجزه عن ذلك فإذا فهم هذا المعنى ربما صمم على رفع يد الأشراف ويصعب علينا مــا يترتب على ذلك وتكون أنت السبب في ذلك ، قلت : أنا مأمور بدفع هذا العرض فيآخر الأمر وليس بيدي مخالفة أمر من أرسلني به ، وطال الكلام بيني وبينه إلى أن كان أخر كلامي له : إن السيد الشريف هو نائب السلطنة الشريفة في المدينة الشريفة وهو يقول : البلاد لحضرة الخنكار ، فأمــا ان يبقيني فيها كما كنت ويرفع عني بيري وعسكره ، واما أن يرفع يدي ويبقي بيري في البــلاد ، فان حــاكمين لا يتفقان في بلدة واحدة ، وان سيفين لا يسعهما جفير واحد ، والأمر راجع إلى السلطنة الشريفة ، وهذا آخر كلامي لا أقول لكم خلافه ، فقام من الديوان ودخل مع قضاة العسكر إلى السلطان وعرض عليه ذلك الأمر جميعه وبرز إلى بيته كعادته ، وركبت معه إلى بيته فطلبني وقال : اني عرضت جميع ما ذكرت ، وأمرت الحضرة السلطانية بابقاء بيري وابقاء السيد الشريف كما كان ولم يوافق على رفع أحدهما وأمر بالتفتيش على بيري وهذا آخر الأمر الشريف السلطاني ، ولا يمكن تغييره ولا تبديله ، فرجعت الى منزلي منكسر الخاطر ، ثم ركبت إلى علي باشا وبقية الوزراء وراجعتهم في ذلك ، فكل واحد

الصفحة الأخيرة من الرحلة بخطه

ذكر أنه لا يمكن الكلام في ذلك وقد انبتّ الأمر على هذا الوجه ولا يفيد المراجعة فيه ، فبقيت مغموماً مهموماً) .

ثم وصف ما قاساه من جراء عدم نجاح سفارته هذه وعاد منها عن طريق مصر في شهر شعبان من السنة المذكورة بطريق البحر ماراً ببعض جزائره كجزيرة رودس وغيرها . وكان يسجل وصف كل مكان يمر به ، ولم يفته أن يشير إلى ضائقة مالية نزلت به سببت له بيع مجموعة من كتبه .

ومن مصر عاد مع الحجاج بطريق الساحل ، الذي يمر على شاطىء البحر الأحمر إلى ينبع فبدر فرابغ فالجحفة إلى مكة حيث وصلها في ثالث ذي الحجة سنة ٩٦٥ هـ.

١١ — كنز الأسماء ، في فنّ المُعَمّى :

هذا من كتب الأدب وموضوعه استعمال الكلمات التي يعايى بها من قبيل الألغاز ، ومن هـــذا الكتاب نسخ في الاسكوريال وبرلين وفي العراق في مكتبة جامعة الحكمة في بغداد من كتب يعقوب سركيس .

١٢ — معيار المريدين :

وللقطبي كتـــاب يسمى معيار المريدين منه نسخة في مكتبة الفاتح في استنبول المجموعة ٥٢٩٣ مخطوطة سنة ١١٧٨هـ مقدمتها بعد البسملة والحمدلة : (أما بعد فهذا ذكر الفرق التي غلطت في الاباحة والحلول والاتحاد والتجسيم وبيان عوّارهم والرد عليهم) وهذا الكتاب يقع في ٤٥ صفحة في الصفحة ١٥ سطر بخط النسخ الحسن

١٣ — مناسك الحج :

وألّف القطبي كتاباً في مناسك الحج ، ذكره في رحلتـــه ، قائلاً عند

وصفه لاجتماعه بقاضي (آق شهر) : وقد جمع كتاباً في المناسك أخذ أكثره من كتابي الذي جمعته في مناسك الحج ، لما قدم للحج سنة ٩٥٤ هـ .

وله مؤلفات أخرى بالعربية والفارسية ، فقد ذكر في كتاب « الأعلام »[١] أنه نقل « شرح الفقه الأكبر » الذي ألّفه الوزير لطفي باشا من التركية إلى العربية ثم الى الفارسية .

شعره :

يعتبر القطبي من شعراء العصر الذي عاش فيه ، وصفه الغزّي[٢] بأن شعره في غاية الرقة ، وأورد قطعاً مختارة منه ، كما أورد صاحب « النور السافر » شيئاً من ذلك — وأجود شعره ، ما كان منه في الغزل ، وله أبيات مختارة في الحكم . أما مديحه فمن النوع التقليدي المجوج المحشو بالمبالغات .

وبالاجمال ، فإن كثيراً من آثاره ضاع في حياته بسبب احتراق كتبه في مكة ، أو نهب قسم منها مع أخيه محب الدين حينما كان قاضياً في بلدة (جبلة) في اليمن سنة ٩٧٥ ، واضطرته الفاقة اثناء رحلته الى استنبول لبيع قسم من كتبه كان ضنينا بها .

وفـــاته :

توفي القطبي على مـــا ذكر المؤرخ المكي عبد الملك العصامي ، وغيره من مؤرخي مكة في يوم السبت السادس والعشرين من شهر ربيع الثاني سنة ٩٩٠هـ وقت أذان الفجر الثاني ، ويضيف العصامي إلى هذا قوله:[١] (فأرّخ بعض الفضلاء ذلك بقوله : قد مات قطب الدين ، أجل علماء مكة . قال : قد حسبته فوجدته يزيد على سنة الوفاة واحداً،ومثل ذا يغتفر عند المؤرخين على خلف ، الراجح منه عدم الاغتفار مطلقاً) . وعلى هذا سار صاحب

---

(١) ص ٢٠٢ هامش الخلاصة .

(٢) الكواكب السائرة ج ٣ ص ٤٧ .

شذرات الذهب ، وفي الكواكب السائرة ، انه توفي سنة ٩٩١ هـ وذكر غيره ما يخالف هذين القولين ، إلا أن الصحيح هو ما ذكره المؤرخ العصامي المكي فهو أعلم به من غيره .

من مشاهير آل القطبي :

١ — تقدم أن والده كان من العلماء : وانه تولى بعض المناصب الدينية قبل انتقاله من الهند ، ثم لما انتقل إلى مكة تولى مناصب فيها كالنظر على بعض المدارس والربط ، ودرس في المسجد الحرام .

٢ — وأخوه الشيخ محب الدين حبيب الله كان عالماً ، وتولى قضاء ناحية من نواحي اليمن بعد ستيلاء الدولة العثمانية على تلك البلاد ، تولى القضاء بوساطة أخيه القطب ، وقد توفي قبـل أخيه ، فتوسط في تعيين ابنه عبد الكريم محله كما سيأتي بيانه .

٣ — يذكر العصامي أن القطب لم يخلف أولاداً ذكوراً ، وإنما خلف بناتٍ ، والقطب نفسه يذكر في رحلته أنه سافر إلى المدينة، ومعه الأولاد :

حسين ومحمد وعبد الكريم وجمال الدين [١] ، ولكنه لم يذكر هل هم من أولاده أم من أقربائه وكثيراً ما يعبّر المرء عن أولاد أقاربه بمثل تعبير القطبي ، ونص العصامي صريح ، فقد قال : [٢] (أما قطب الدين فلم يعقب سوى أربع بناتٍ لا غير) .

ولكنا نجد فيما بين أيدينا من المؤلفات كتاباً يُدْعى : « ابتهاج الزمن ، في الاحسان الواصل إلى أهل الحرمين من اليمن ، بمولانا الوزير العدل الباشا حسن » ، واسم المؤلف محمد ابن قطب الدين محمـد بن علاء الدين أحمد بن خوردار النهروالي المكى القادري الخرقاني الحنفي ، فرغ من تأليفه في غرة

---

(١) الرحلة ص ٦٥

(٢) سمط النجوم ج ٤ ص ٣٨٤ .

ربيع الأول سنة ١٠٠٥ هـ والنسخة التي بخط المؤلف موجودة في المكتبة العباسية في البصرة « مكتبة آل باش أعيان » ورقمها ب ١٦٠ [١] ومنه نسخ أخرى .

وقد نسبه بعض الباحثين إلى القطب المكي [٢] والصحيح انه ليس من تأليفه ، ولا يبعد أن يكون مؤلفه ابناً للقطبي ، ولكنه مغمور ، ولهذا توهم العصامي أنه لم يخلّف ذكوراً .

وقد يعترض على هذا بأنه لو كان ابناً للقطبي نفسه لما استطاع الشيخ عبد الكريم ابن أخي القطبي أن يستولي على مـا خلفه القطبي وهو عمه من كتب وغيرها ، ويُجاب على هذا بأن عبد الكريم قد قوي نفوذه ، واشتهر أمره في حياة عمه بخلاف غيره من آل القطبي .

٤ — عبد الكريم بن محب الدين : هذا هو أبرز عالم في بيت القطبي بعد القطب نفسه ، وقد ولد سنة ٩٦١ هـ بأحمد آباد من بلاد الهند ، وقدم مكة مع والده وبها نشأ ، ولازم عمه واستاذه قطب الدين وعلى يديه تخرج ، ولما توفي عمه حلّ محله ، وصار مفتياً لمكة ، ومقرباً لدى أمرائهـــا ، وذا صلة بالدولة العثمانية ، بحيث كان أشراف مكة يتوسطون به في بعض الشؤون ، واستطاع بقوة نفوذه أن يوحد إمامة المقام بعدما كانت قبله يتنازعها عدد من الناس ، وهو أول من سعى في تقرير مبلغ محدد من واردات بندر جدة راتبا لمفتي الحنفية بمكة فأجيب الى ذلك ،وقرر للمفتي المذكور خلعة تحمل مع الركب المصري يلبسها المفتي يوم العرضة ، وقرر له أيضاً كسوة تحمل من الديار الرومية ، ومعها مئة دينار سنوياً ، [٣] واستمر ذلك لمفتي مكة مدة سيطرة الدولة العثمانية على الحجاز .

---

(١) مخطوطات المكتبة العباسية قسم ٢ ص ٨٦ .
(٢) الاعلام للاستاذ الزركلي .
(٣) خلاصة الاثر ج ٣ ص ٩ .

ومن مؤلفاته : (النهر الجاري على البخاري) لم يكمله ، و « إعلام العلماء الاعلام ببناء المسجد الحرام » مختصر تاريخ مكة تأليف عمه ، زاد فيه أشياء مهمة مما يحتاج اليه وما حدث بعد تأليفه وهو كتاب صغير الحجم، طبع بتحقيق الأستاذين عبدالعزيز الرفاعي ومحمد أحمد جمال سنة ١٩٦٩ (١٩٥٠).

وكان والده الشيخ محب الدين يتولى القضاء في اليمن ، فلما مات سعى قطب الدين ليقرر ابنه عبد الكريم هذا مكانه في الوظيفة [١] ، ويظهر انه تولى هذا العمل ولم يباشره نظراً لعدم استتباب الأمن في اليمن في عهده ثم بعد ذلك اشتغل في وظائف أهم من تلك في مكة .

وكان جماعة للكتب ، فقد آلت اليه تركة عمه قطب الدين من الأموال والكتب الكثيرة ، ونمت معه ، حتى بلغت كتبه أربعة عشر الف كتاب ما بين مجلد ومجلدين وثلاثة وأكثر ، وكان الكتبة ملازمين لبيته ، يكتبون له ما يريد من الكتب ، مع الاعتناء بتصحيحها وضبطها [٢] .

وقد توفي في منتصف ذي الحجة سنة ١٠١٤ هـ. ودفن في مقبرة المعلاة بمكة [٣] .

٥ – الشيخ اكمل الدين ابن عبد الكريم المتقدم ذكره :

مع أن المترجمين لهذا العالم يصفونه بانه مفتي مكة وعالمها ، فان المعلومات عنه لا تمدنا بما يمكن من فهم حالته العلمية ، ولد في مكة سنة ٩٨٨ هـ ، ويظهر أنه تدخل في بعض الأمور التي حدثت أثناء الخلاف بين شريفي مكة فهيد وادريس بحيث كان بجانب فهيد ضد ادريس ، ولكن الأمر تم بتغلب

---

(١) النور السافر ص ٣٨٨.

(٢) نظم الدرر في اختصار نور الزهر تأليف الشيخ عبد الله غازي ص ٤١ نسخة الشيخ محمد نصيف في جدة .

(٣) خلاصة الأثر ج ٣ ص ٩ .

ادريس الذي سعى حق قتل هذا العالم في قرية « الاعاضيد » من قرى الطائف الشرقية ، ويؤرخ صاحب الخلاصة [٢] قتله بسنة ١٠٠٩ هـ ، ويظهر أن هذا غلط ، لأن صاحب « الخلاصة » نفسه نص على انه تولى امامة المقام بعد والده ، ووالده توفي سنة ١٠١٤ هـ كما تقدم ، والخلاف بين الشريفين وقع بعد هذا التاريخ بست سنوات ، ولهذا فان الصواب انه قتل سنة ١٠١٩ هـ .

٦ عبد الكريم بن الشيخ أكمل الدين المتقدم ذكره :

يصفونه بأنه من أعيان الفضلاء بمكة ، ويظهر انه غلب عليه التصوف بطريقة شديدة ، وله شرح على فصوص القونوي ، وقد توفي هذا بمكة سنة ١٠٥٥ هـ.

٧ — أبو محمد بن الشيخ علاء الدين :

هـــذا أخ للشيخ القطبي ، ذكر صاحب كتاب « نظم الدرر » ان القطبي ترجم أخاه هذا في تاريخه بما خلاصته : انه ولد في رجب سنة ٩٢٩هـ. ولما توفي والده سنة ٩٤٩ هـ نشأ في كفالة أخيه القطبي وقرأ عليه ، ورحل إلى بلاد الروم ، ثم رجع إلى مكة ، ورحل إلى الهند ، ثم تولى قضاء مدينة زَبيد في اليمن بالحاح أخيه القطب سنة ٩٧٧ هـ ، وبقي هناك حتى توفي في ذي الحجة سنة ٩٧٩ هـ .

٨ — خليل الله بن حبيب الله :

وهذا هو ابن أخ الشيخ القطبي الذي تقدمت ترجمته وقد تولى القضاء في بلاد « تعز » في اليمن وتوفي سنة ٩٨٢ هـ .

على ما نقله صاحب كتاب نظم الدرر عن الشيخ القطبي نفسه ، وهذا أخ للشيخ عبد الكريم الذي سبقته ترجمته .

---

(٢) خلاصة الأثر ج ١ ص ٤٢٢ .

هؤلاء هم أبرز بيت القطبي [1] ويلاحظ أن لقب الشيخ نفسه (القطبي) صار يطلق على أبناء أخيه كعبد الكريم وغيره .

وعلى ذكر هذا اللقب نحسن الاشارة إلى أن الشيخ القطبي كان يسكن في بيت بقرب الحرم الشريف بقرب الباب الذي لا يزال حتى هذا العهد يعرف بباب القطبي .

ومع تفرع هذا البيت فقد انقرض ، يقول الاستاذ أحمد السباعي [2] : (وقد انقرضوا إلا امرأة كانت تسمى سعادة كانت تحت رجـــل يقال له عبد اللطيف أولدها ولداً ورث أوقافهم) .

---

(١) هناك آخرون من آل القطبي أشار اليهم الاستاذ السباعي في كتاب « تاريخ مكة » ج ٢ ص ١٠٦ .

(٢) تاريخ مكة ج ٢ ص ١٠٦ .

٢ – هذا الكتاب

هذا الكتاب من أجلّ كتب القطبي وأشهرها ، وأكثرها انتشاراً .

وقد ألفه استجابة لرغبة سنان باشا فاتح اليمن ، وسمّاه في أول الأمر « الفتوحات العثمانية للاقطار اليمانية » وأهداه إلى السلطان سليم خان ٩٧٤ – ٩٨٢ هـ كما يظهر من مقـــدمة نسخة مكتبة فيينا المخطوطة سنة ٩٨٦ هـ. المكتوب أصلها في سنة احدى وثمانين وتسعمائة .

ثم زاد زيادات يسيرة ، وسمّاه البرق اليماني . وأهداه إلى السلطان مراد خان بن سليم ، كما ذكر في المقدمة ، وفي كتاب الاعلام [١] .

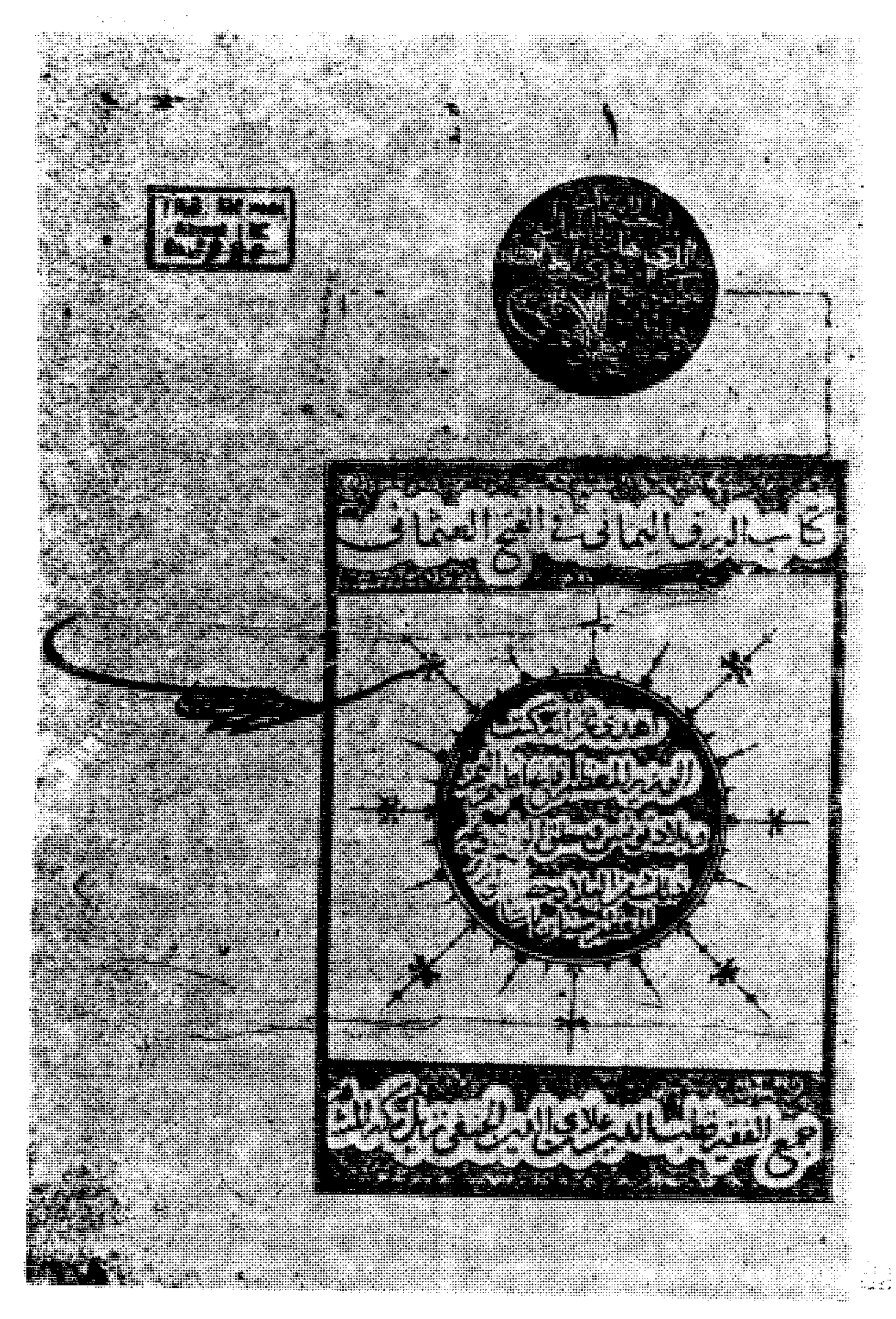
وقد طبعت مقتطفات من كتاب الفتوحات العثمانية مع ترجمة اسبانية لها. طبعت في لشبونة ١٨٩٢ .

ويوجد لهذا الكتاب نسخ كثيرة في مكتبات اصتنبول وغيرها ، منها ثلاث يظهر انها كتبت في عهد المؤلف وان المؤلف أهدى واحدة منها إلى مكتبة سنان باشا الخاصة الذي كتب التاريخ باسمه ، واخرى إلى محمد باشا رئيس وزراء السلطان مراد. وقد ترجمه المؤلف في الأعلام ، وثالثة إلى خزانة السلطان مراد (انظر صور طرر هذه النسخ وخواتمها وكلها في اصطنبول) .

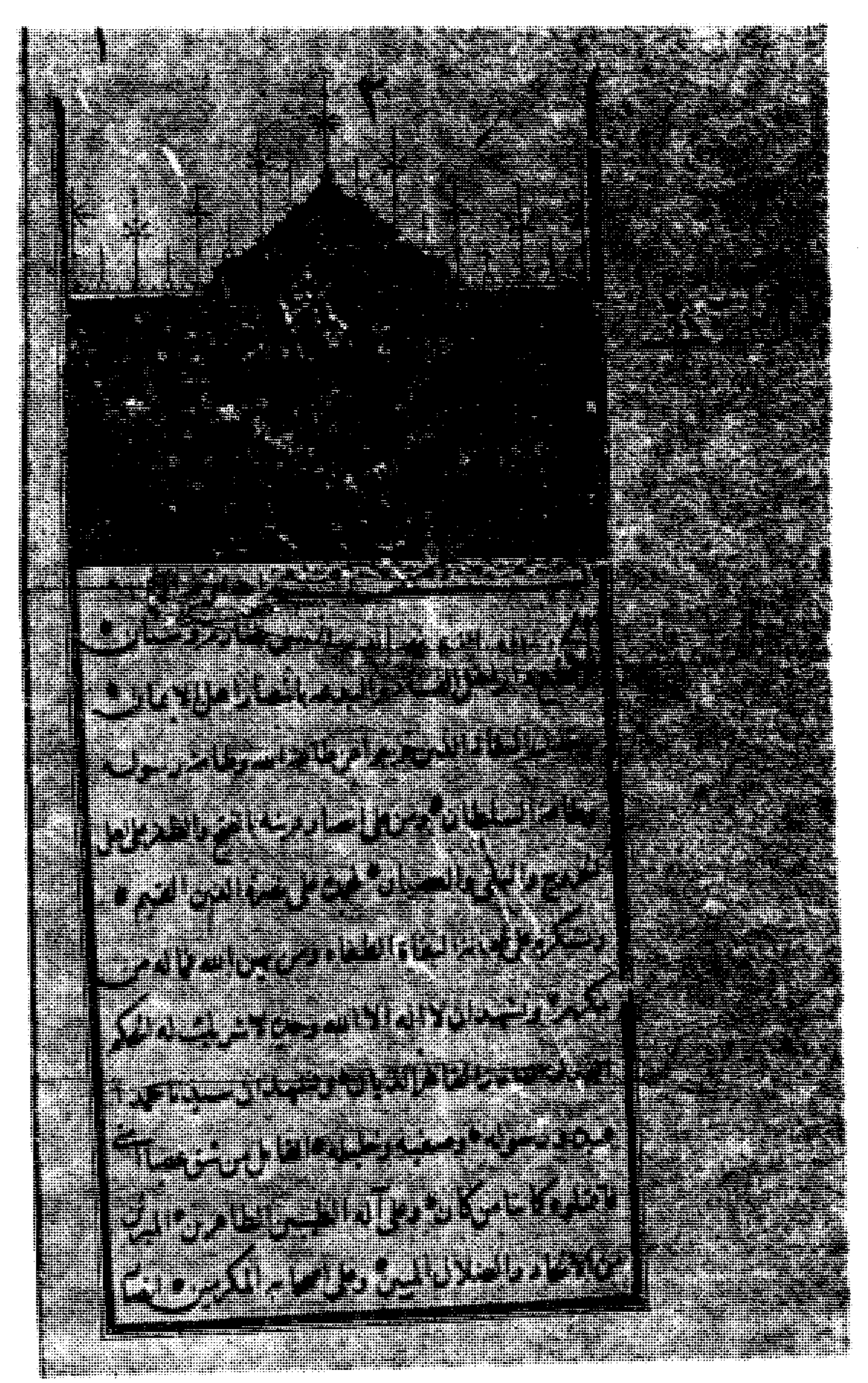
ويتضمن هذا الكتاب مجمل تاريخ اليمن من أول القرن العاشر الهجري إلى

---

(١) صفحة ٢٤٨ هامش « خلاصة الكلام » .

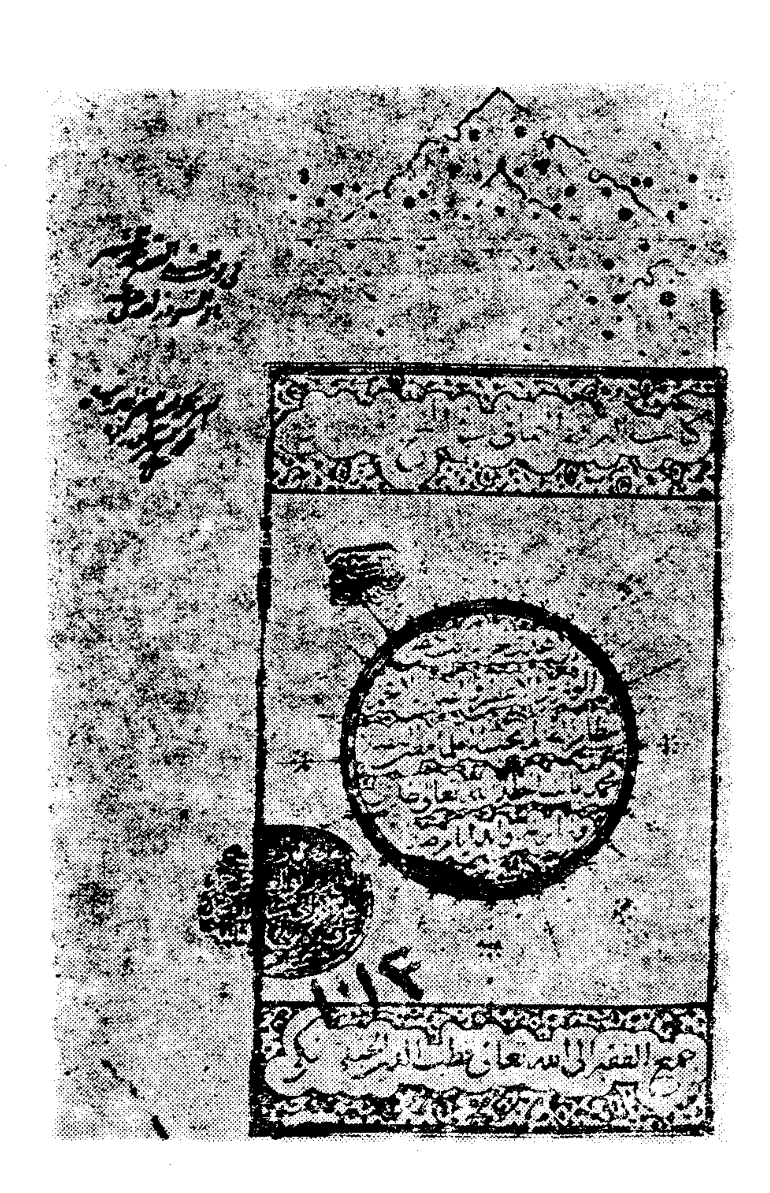


طرة نسخة سنـــان باشا

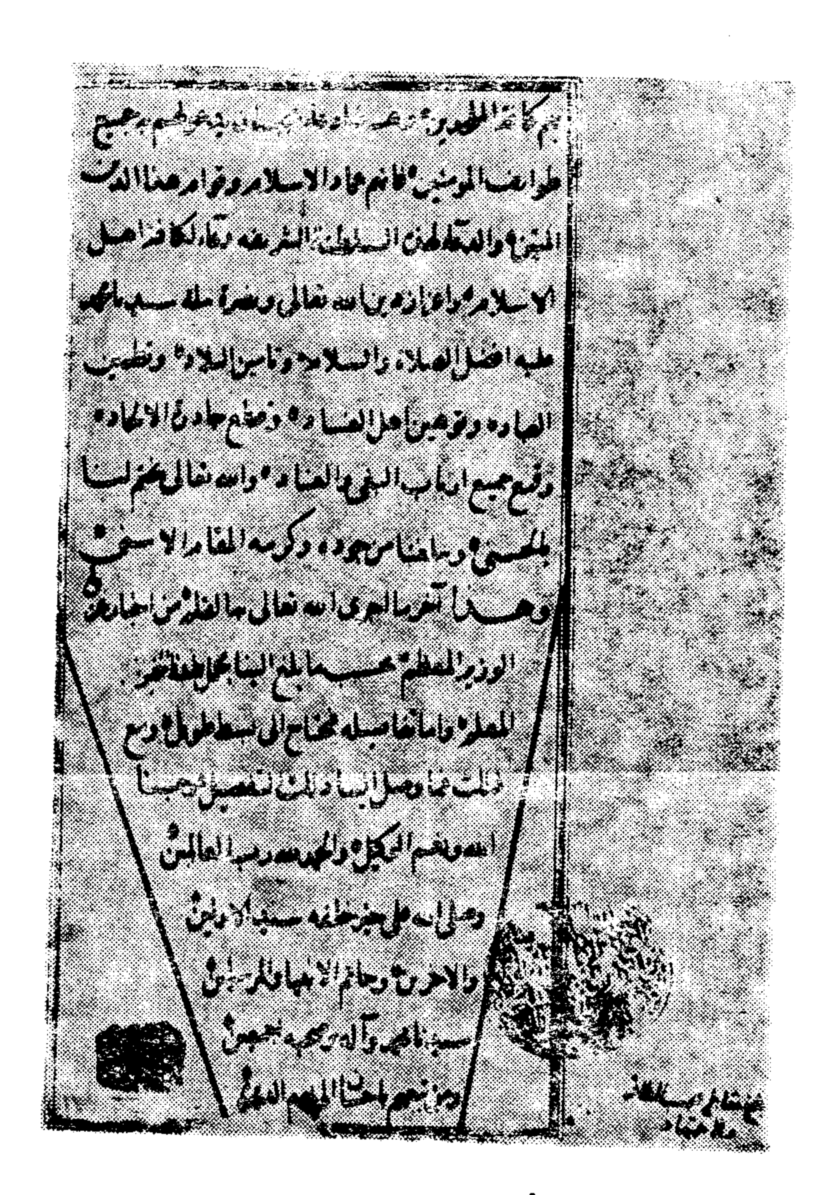


الصفحة الأولى من نسخة سنان باشا

الصفحه الأخيرة من نسخة سنان باشا



طرة نسخة محمد باشا



[illegible] كافة الموحدين [illegible] بدعواتهم بجميع
طوائف المؤمنين لانهم عماد الاسلام وقوام هذا الدين
المبين والمتعلقين بالسلطنة الشريفة [illegible] كافة اهل
الاسلام واعزازه [illegible] الله تعالى ونصرة ملة سيدنا محمد
عليه افضل الصلاة والسلام وتامين البلاد وتطهير
العباد وتوهين اهل الفساد وقطع مادة الالحاد
ودفع جميع اسباب البغي والعناد والله تعالى يختم لنا
بالحسنى ويبلغنا بجوده وكرمه المقام الاسنى
وهذا آخر ما الهمني الله تعالى به الفقير من اجابة
الوزير المعظم حسبما [illegible]
[illegible] واما تفاصيله فتحتاج الى بسط طويل [illegible]
[illegible] مما وصل [illegible] تفصيل [illegible] حسبنا
الله ونعم الوكيل والحمد لله رب العالمين
وصلى الله على خير خلقه سيد الاولين
والاخرين وخاتم الانبياء والمرسلين
سيدنا محمد وآله وصحبه اجمعين
[illegible]

الصفحة الأخيرة من نسخة محمد باشا



أول النسخة المهداة للسلطان مراد

آخر نسخة السلطان مراد

نزل حضرة الوزير من مخيمه بالابطح وضرب خيامه في
سبيل الجوخي وصلى الجمعة وتوجه بعد ذلك وادع البيت
الشريف وقام في الملتزم قيام الخايف الضعيف وبكى وابكى
العيون لفراقه واظهر شدة كآبته على ذلك واحراقه وتضرع
الى الله تع في القبول واعترف بين يدي خالقه بالعجز
والقصور وتصدق كثيرا ومشى القهقرى الى ان خرج من
باب الحزورة وركب الى مخيمه وهو يتصدق يمينا وشمالا
فلما امسى عليه الليل ذهب الى التنعيم واحرم بعمرة
مفردة واتى الى ان طاف بالبيت وسعى وحلق ثم دخل
المسجد الحرام واعاد طواف الوداع ليلا مختفيا عن الناس
واختلى ببيت ربه وتضرع اليه وعدد احسانه عليه
واعترف بتقصيره بين يديه وعاد الى مخيمه ثم توجه
مصحوبا بسلامة تع الى زيارة رسوله صلى الله عليه وسلم
ثم الى مصر كتب الله تع سلامته تم تاريخ فتح اليمن
في الدولة الشريفة السلطانية السليمية العثمانية
على يد الوزير المعظم سنان باشا خلد الله تع ظلال وزارته
وكان الفراغ من كتابة الاصل الذي نقل منه هذه النسخة
في مستهل رمضان الشريف سنة احدى وثمانين وتسعماية
بمكة المشرفة زادها الله تع شرفا وكرما وتمت
هذه النسخة المباركة في يوم السبت رابع شهر
رجب الفرد الاصم الاصب الحرام سنة ست وثمانين
وتسعماية
على يد العبد الفقير الغريب المسكين عبد نفسه من ذا به
المعاصي في نهاره وامسه نور الله قلبه بنور معرفته احمد
ابن محمد بن علي بن سالم بن غنيم بن سلامه بن عبد الله بن عبد
الرحمن المشتولي بلدا المصري مولدا ومنشأ غفر الله تع له
ولوالديه ولمشايخه ولاحبابه ولكل
المسلمين اجمعين امين امين
امين

تم الكتاب تكاملت • نعم السرور لصاحبه •
وعفى الاله بجوده • وبفضله عن كاتبه •
مذنب خطه عسى • دعوة غير خايبة •
رحم الله قايلا • رحم الله كاتبه •

الحمد لله الذي نصر الدين الحنيفي بصارم وسنانه وقطع
دابر اهل الفساد والبدعة بانتصار اهل الايمان وخذل
[illegible] الذين خرجوا عن طاعة الله وطاعة رسوله وطاعة
السلطان [illegible] ومن على انصار دينه بالفتح والظفر على اهل
الخروج والبغي والعصيان نحمده على نصرة الدين القويم
ونشكره على اهانة البغاة الطغاة ومن يهن الله فما له من
مكرم ونشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له الحكم
العدل القادر القاهر الديان ونشهد ان سيدنا محمدا
عبده ورسوله وصفيه وخليله القايل من شق عصا امتي
فاقتلوه كاينا من كان وعلى اله الطيبين الطاهرين المبرئين
من الالحاد والضلال المبين وعلى اصحابه المكرمين انصار
الدين المتين المؤيدين من عند الله بجنود الملائكة المسومين
المنزل في حقهم نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين
اما بعد فهذا كتاب لطيف وتاريخ منتخب ظريف جمعت
فيه ما تجدد في عصرنا من فتوحات اليمن وما حدث فيه
من الاهوال والفتن ولهب من نيران المحن والاحن
مما خلت منه كتب التواريخ والاخبار ولم توجد مجموعة
في غضون الصحف والاسطار وكان فن التاريخ علما شريفا
فيه العظة والاعتبار والاطلاع على حوادث الدهر الدوار
واختلاف صوارف الليل والنهار ومعرفة احوال بني النوع
مما يوقظ الاذهان والافكار ويزيد بصيرة اولي البصاير
والابصار

الصفحة الأولى والأخيرة من كتاب « الفتوحات العثمانية »

آخر سنة ٩٧٨ هـ، ويفصل ما قامت به الدولة العثمانية من أعمال حربية عنيفة لمحاولة الاستيلاء على ذلك القطر ، ويصور أول صراع بين قوات أجنبية محاربة وبين العرب في جنوب الجزيرة .

وفي آخر الكتاب وصف موجز لغزو الدولة العثمانية لأطراف البلاد التونسية في شهر جماد الأولى سنة ٩٨١ هـ .

وفي هذا الكتاب حاول المؤلف أن يبرز مقدرته البيانية ، فكتبه مسجوعاً ونثر فيه من محفوظات شعره أبياتاً كثيرة يجمل بها أسلوبه ويزينه .

وأصل هذا الكتاب أن القائد سنان باشا بعد عودته من غزو اليمن طلب من القطبي أن يؤلف كتاباً عن فتوحاته هناك ، وقدم له كتاباً عنها منظوماً ومؤلفاً باللغة التركية ، نظمه مصطفى بك الرموزي ، أمير اللواء ، و (دفتر دار اليمن) .

وقد وصف القطبي هذا الكتاب بأنه تاريخ لطيف ، غير انه لما كان منظوماً لم يتمكن ناظمه من أداء المعنى أداء تاماً .

وذكر انه انتفع به انتفاعاً كبيراً [١] .

وذكر صاحب « كشف الظنون » ان هذا الكتاب كتبت نسخته الأولى في عهد الدولة السليمية ، والنسخة الثانية — وهي المتداولة كتبت في عهد الدولة المرادية [٢] .

ويظهر انه لم يطلع على النسخة الأولى التي سماها المؤلف « الفتوحات العثمانية ، للأقطار اليمنية » لأنه لم يذكر هذا الاسم في الكشف .

---

(١) مقدمة (البرق اليماني) .
(٢) ١/٢٤٠ .

وقد نقل كتاب « البرق اليماني » إلى اللغة التركية مصطفى بن محمد المعروف بخسر زاده المتوفي سنة ٩٩٨هـ [١] .

وبالإجمال فإن كتاب البرق اليماني يعتبر من أهم مصادر تاريخ جنوب الجزيرة في القرن العاشر الهجري .

وقد انتشر الكتاب انتشاراً واسعاً ، فقلّ أن تخلو مكتبة عامة في العالم العربي منه ، في مصر والحجاز والعراق ، أما في تركية فيوجد في مكتبات اصطنبول العديد من نسخه ، ولعل من أسباب رواجه ما لمولفه من الشهرة عند ولاة الأتراك وعلمائهم ، فهو مؤرخ دولتهم بين العرب ، وهو أحد مشاهير علماء المذهب الحنفي مذهب الدولة الرسمي .



(١) ١/٢٤٠ .

طريقة تحقيق هذا الكتاب ونشره

الغاية من تحقيق أيّ كتاب إبرازه للقارىء بالصورة التي رسمها المؤلف ، أو بأقرب صورة مماثلة لها بقدر الإمكان .

ولئن احتاجت بعض المخطوطات اللغويةوالأدبية القديمة إلى بعض الشروح والايضاحات لبعض جملها ، تضاف في هوامشها ، فإن مثل هذا بالنسبة للكتب التي تسرد الحوادث ، أو تسجل بعض المعلومات العامة — يعتبر خارجاً عن منهج التحقيق ، بل يعتبر دراسة خاصة لذلك المخطوط .

ولقد فكرت — عند ما أردت البدء في طبع هذا الكتاب — أن أضيف اليه بعض الحواشي لإيضاح معنى كلمة لغوية ، أو للتنبيه على خطأ في التعبير ، أو لتحديد موضع وذكر اسمه الصحيح ، إلا أنني رأيت هذا قد يثقل الكتاب بحواشي كثيرة ، وتلك الأمور التي أشرت اليها هي من السهولة بحيث يدركها القارىء ، وعلى هذا انحصرت الغاية في اخراج الكتاب بأوفى صورة أرادها مؤلفه، وأوضحها ، وهذا يرجع — قبل كل شيء — إلى اختيار أقرب النسخ إلى المؤلف وألصقها به ، فكان أن وقع الاختيار على أربع نسخ من نسخه الكثيرة ، التي قل أن تخلو مكتبة من المكتبات الكبرى العربية ، منها :

١ — النسخة التي أهداها المؤلف للقائد سنان باشا ، الذي طلب منه تأليف الكتاب ، وقدم له الأصل التركي ليعتمد عليه ويتخذه أساساً لمؤلفه .

ومن حسن الحظ أن هذه النسخة – مع النسخ الأخرى التي سبقت الاشارة اليها – لا تزال محفوظة في مكتبات اصطنبول .

وقد كتب في طرة هذه النسخة داخل دائرة منقوشة بمـــاء الذهب : (أهدي لخزانة الوزير المعظم ، فاتح اقليم اليمن وبلاد تونس وحلق الواد ، وغير ذلك من البلاد ، حضرة الوزير المعظم سنان باشا) . وفي أعلى الصفحة اسم الكتاب ، وفي أسفلها : (جمع الفقير قطب الدين بن علاء الدين الحنفي ، نزيل مكة المشرّفة) .

ولا شكّ أن المؤلف سيختار لمن الف الكتاب له أجود النسخ، وأصحها. وقد رمزنا لهذه النسخة بحرف (س) .

٢ – النسخة الثانية : نسخة أهداها المؤلف الى رئيس وزراء ذلك العهد، محمد باشا ، وهي تشبه الى حد كبير – نسخة سنان باشا ، ويظهر انها منقولة منها ، غير أن الأولى أصح ، ويظهر أن عجلة الكاتب في الكتابة هي التي سببت سقوط بعض الجمل في هذه النسخة ، وأن كاتبها هو كاتب الأولى : أما طريقة تذهيب طرقي النسختين فهي واحدة ، والكتابة فيهما متشابهة إلى درجة تحمل على الاعتقاد بأن الكاتب واحد . وفي طرة هذه النسخة – داخل دائرة منقوشة بماء الذهب : (اهدي لخزانة كتب الوزير الأعظم ، والصدر الأفخم ، انتظام العالم، محب العلماء الفضلاء ، محمد باشا ، خلد الله تعالى ظلال وزارته ، وأبّـــد أيام صدارته) . وفي أعلى الصفحة اسم الكتاب ، وفي اسفلها : (جمع الفقير الى الله تعالى قطب الدين الحنفي المكي) .

وفي هامش آخر صفحة منها :(بلغ مقابلة بحسب الطاقة والاجتهاد) وفي هوامشها اضافات سقطت من الأصل ، وتصحيحات يسيرة :

٣ – النسخة الثالثة : نسخة نعتقد أن المؤلف أهداها إلى السلطان مراد، فقد اهدى المؤلف اليه نسخة من كتابه ، وتدل العناية بكتابتها وتذهيب

أول صفحة منها ، وبعض اشارات مكتوبة عليها على ذلك . وهذه النسخة لا تختلف عن سابقتيها في شيء ؛ إلا أن تصحيف الأسماء ، وسقوط بعض الكلمات والجمل فيها كثير ، ومن مقابلتها بهما يظهر انها منقولة عن أحدهما

٤ - النسخة الرابعة : كتاب « الفتوحات العثمانية للأقطار اليمنية » هذا هو أول نسخة لكتاب « البرق اليماني » كانت مختصرة ، فتوسع فيها المؤلف بأن أضاف اليها ما يتعلق بغزو البلاد التونسية ، مع زيادات يسيرة ، وكتبها بأسلوب مسجوع، ولهذا فالرجوع إلى هذا الكتاب مما يفيد في تحقيق النسخة الأخرى الموسّعة منه التي هي كتابنا الذي نتحدث عنه .وأوثق نسخة اطلعنا عليها وأقدمها هي نسخة المكتبة العامة في فينّة (النمسا) فهي مخطوطة سنة ٩٨٦ - في حياة المؤلف - وقد استفدنا منها في تصحيح بعض أسماء المواضع ، التي ورد كثير منها في النسخ الأخرى مصحّفاً محرّفاً ، ومنه ما لم نتمكن من معرفة الصواب فيه ، فأبقيناه على علّاتـه .

وكان ممن ملك هذه النسخة عالم تركي له اطلاع واسع في الأدب العربي ، يدل على ذلك كثرة تعقّباته للمؤلف عندمـــا يورد شعراً على غير وجهه ، والمؤلف كثيراً ما يعتمد على حفظه ، فيورد الشعر بعد أن تصرفت فيه ذاكرته . ومن ذلك ما علقه على إيراد المؤلف ص ١٢ - البيت :

والليالي - كما علمت - حبالى مثقلات يلدن كل عجيب

علق : (سياق البيت :

كن حمولاً إذا جفتْك الليالي وصبوراً ، إذا أتتك مصيبه
فالليالي من الزمان حبالى مثقلات ، يلدن كل عجيبه

وله اشارات على بعض الكلمات التركية استفدنا منها يسيراً .

ورمز نسخة الفتوحات : (ف) .

هذه هي الأصول التي اتخذناها أساساً للنشر ، واعتمدنا عليها في تحقيق الكتاب . وسيراً على النهج الذي ألمعت اليه من عدم الحاجة إلى الحواشي والاكتفاء بابراز الكتاب بصورة هي أقرب ما تكون إلى صورته الأصلية — فإنني أرى وجوب الاشارة إلى :

١ — أن المؤلف — رحمه الله — كان ينقل عن مؤلف تركي يجهل النطق بكثير من الأسماء العربية التي يجهلها المؤلف نفسه ، وهذا مـا سبب وقوع تحريف في بعض الأسماء مثل (صعدة) فالمؤلف يكتبها (صعدا) و(صبيا) يكتبها (صبية) وهذا خطأ . ومن هـذا القبيل اطلاق اسم القبيلة على الموضع ، وان كان شائعاً ، إلا أن المؤلف قد يخلط بينهما .

٢ — مع تمكن المؤلف من اللغة ، إلا أنه قد يرتكب اللحن أحياناً ، فيصرف من أسماء المواضع ما لا يجوز صرفه ، وقد يضطره التزام السجع إلى هذا وإلى ما سبق بيانه في الاشارة الأولى ، وقد يلحن في تصريف بعض الأفعال .

٣ — ذكر المؤلف — ص ١٨ ما هذا نصه : (ولهم — يعني البرتقال — شخص ماهر ، يقال له أحمد بن ماجد ، صاحبه كبير الفرنج ، وكان يقال له (الى مندي) وعاشره في السكر ، فعلمه الطريق في حال سكره).اه

والمعروف أن قائد البرتغال يدعى : (فاسكو دي غاما).وان (ملندي) هو اسم البلدة التي اجتمعا فيها . وهي بلدة لا تزال معروفة وعلى هذا ينبغي تصحيح عبارة المؤلف ، والفضل في التنبيه على هذا الخطأ يرجع للأخ الصديق الأستاذ محمد العبودي مساعد مدير الجامعة الاسلامية في المدينة .

٤ — الكلمات الأعجمية من تركية وفارسية ، مما يكثر وروده في هذا الكتاب ، يحتاج القارىء العربي الى فهم مدلولاتها ، وهذا ما دعى الى وضعها في جدول في مقدمة الكتاب ، ومحاولة ايضاح معانيها بالاستعانـــة ببعض

الاخوان الذين يحسنون اللغة التركية ، وبالرجـــوع الى بعض القواميس ، وأضيف إليها بعض كلمات عاميّة استعملها المؤلف .

٥–وضع فهرس للموضوعات العامة لا يفي بالغرض ، ولا يكون مستوفياً لكل ما في الكتاب من معلومات مثل استيفاء فهارس الأعلام ، وهذا ما دعى الى وضع ثلاثة فهارس للأعلام (من أشخاص ومواضع وجماعات) أما ما عدا ذلك من وضع فهارس للشعر ولأسماء الكتب – الخ –فالكتاب ليس أصلاً قديماً ، أو مصدراً من مصادر دراسات اللغـــة أو الأدب بحيث يقدم للباحث جديداً فيها ، ووضع فهارس له من هذا القبيل قليل الجدوى .

وقد ضبطت أسماء المواضع ضبطاً يتفق مع ما في المؤلفات القديمة ،وأشير في مواضع يسيرة الى طريقة نطقها الآن عند أهلها .



كلمات تحتاج إلى تفسير

اسكتملي : (جلس في صدر ديوانه على اسكملي ملبس بالسراسر ، وعلى يمينه وشماله اسكمليات أخرى ص ١٤٢ – يقصد نوعاً من الكراسي الواسعة).

الأصباهية : (قسم الفرسان من الجند)

الأصقال : (ج : صقالة : تعريب : إسكالا : المرفأ)

الأغوات : (جمع آغا بمعنى سيد أو موظف كبير ، وقد يقصد بها : رئيس قسم من الجند مثل : جعل في هذا القصر دزداراً يحكم على نحو الـ ٧٠ من العسكر ، وولى عليهم آغا – ص ٣٨٩)

أمير آخور : (مدير اسطبل الخيل)

أوطاق : وطاق :(المخيم ، والكلمة محرفة عن أوتاق)

أوغلي : (بمعنى ابن فيقول قُوْرت أوغلي سنان – أي قورت ابن سنان ، وقورت قد يكتبها : قورد – بالدال – ومعنى الكلمة: الذئب ،ولكنها في الكتاب علم لشخص)

إيالة : (إيالة اليمن أو ايالة مصر : أكبر وحدة إدارية في العهد التركي ، وأصل الكلمة عربي)

باشا : (لقب تعظيم بمعنى : رئيس)

برشة : (جمع برشات : مركب بحري)

بكلاربكية : (يقصد بها الولاية أو الامارة ، ويصرّفها المؤلف كثيراً فيقول : بكلربكي : رئيس . بكلربكيون : أي رؤساء – بكلربكية : أي وظيفة الرئيس)

البلوكات : (الفِرَق من الجند النظامي)
التختروان : (تعريب الكلمة: بساط الريح ، والمؤلف يقصد نوعاً من الأسرّة يتحرك ، من نوع العربة)
تفكجي : (جندي من حملة البنادق)
جاشنكير : (أمر بتفريق ثلاثة في البحر : كتخداه ، وكلارجيه ، وجاشنكيره – ١٢٧ كتخُدَاه : وزيره، وكلارجيه : مدير المخازن جاشنكـيره : أي المشرف على شؤونه الخاصة)
جاووش – أو جـاويش : (رتبة عسكرية في الجيش التركي، عربت في عهد حديث بكلمة « شاوش » أو شاويش ويجمعها المؤلف على (جاويشية)
جبجي : (شفلوت جبجي –٤٣٩–) جندي لابس درعاً)
الجبه خانة : (مستودع السلاح)
الجزية : (اللونبا طائفة من كجرات كانوا يعطون الجزية – ص ١٦٩ المقصود هنا ضريبة سنوية)
الجلاب : (جمع جلبة . قال المؤلف: (وأركبوه جلبة فلما وصلوا به إلى بين العلمين غرقوه في البحر ٢٧) وفي هامش (ف): الجلبة : قايق بالتركي ، والقايق مركب بحري صغير أي زورق)
جلبي : (يضيف المؤلف الى كثير من الأسماء كلمة جلبي وهو لقب تعظيم ، والجيم تنطق قريبة من الشين)
الجوالي : (كاتب الجوالي : أي جابي واردات أهل الذمة والغرباء)
الجوامك : (جمع جامكية : فرق عليهم بعض الجوامك – ٤٤٧ – يقصد العطايا والمرتبات)
حصاريّة : (في ص ٨١ : وضع في القلعة حصارية يقصـد جنداً مرابطين فيها)
خاقان : (الخاقانية، الخاقاني : ملك وظيفة الملك ، الملكي)
خركاه :(وله تخت يجلس عليه داخل خيمته ، في خركاه عظيمة ص ١٤١ ، وعمل له ضيافة مختصرة عنده داخل وطاقه ، في الخركاه الذي يختص به ص ١٤٧ – يقصد جناحاً خاصاً)
خزينة داربامي : (رئيس الخزانة)

الخندكار : (لقب السلطان)
الخواجا : (المعلم)
خوانين : (جمع خان ، أعلى ألقاب التعظيم ، يطلق على السلطان)
دار باشي : (رئيس الديوان)
دار الضرْب : (دار سك النقود)
دَرْبَند : (طريق ضيق بين جبلين)
دزدار : (حارس أو رئيس حراس قلعة ، مثل قوله : جعل في القصر نحو ٧٠ من العسكر وولى عليهم آغا هو دزدار اولئك الحفظة ، وكدخدا ، على عادة القلاع -- ص ٣٨٩ —)
الدست : (كاتب الدست ، أي السجلات الرسمية)
الدشيشة : (ارسل جرايات أهل الحرمين ، ودشائشهم — ٤٥٩ — يقصد القمح الذي يرسل إلى تلك الجهة ، فيعمل طعاماً للفقراء ، يُجرش -- يُدَشُّ — ويطبخ ويفرق عليهم)
دفتردار :(رئيس موظفي الواردات والخزينة في الولاية)
دفتر الروس : (وفي ص ١٦٦ : استخرج رضوان صورة دفتر من دفتر الروس وعليه خط قاضي العسكر بجهات أناظولي : ان جبلة وذي سفال والقاعدة من أعمال صنعاء ... فأخرج مراد باشا له الدفتر الذي عليه مهر عليه مهر السلطان الأعظم فترجحت حجة مراد بالمهر الأعظم ، يقصد دفتراً يعطى الرؤساء والولاة يوضح فيه بيان حدود الولاية وأسماء مدنها وقراها)
الرّهائن : (جمع رهينة : رجال يقدمهم المغلوب للغالب، يكونون محبوسين عنده. كما في ص ٤٤٢ : وشرط — قائد الترك — أن يعطي محمد بن شمس الدين رهينة، اما ولده أو أخاه ، يكون مقره صنعاء، على عادة أهل تلك البلاد من اخذ الرهائن اهـ ولا تزال تلك العادة باقية)
الرُّيَسا : (جمع ريس: ربان السفينة، وقائدها ، والمؤلف هنا — ٧١ — ٢٩٠ — يجاري العامة في قلب الهمزة ياءً والصواب : (الرؤساء)
الزردخانة : (تركوا أحمالاً كثيرة

من البارود والنفط والزردخانة
- ص ٢٦٢ - هنا مصنع آلات
الحرب)
الزرياف : (وصنوف السراسر
والديباج والزرياف - ص ٤٦٣ -
نوع من الأقمشة كما يفهم من
الكلام)
سالبانه : (ارسل اليه ما بقي في
القاهرية من الخزينة بعد استيعاب
سالبانته» - ١٦٧ - يقصد المقرر
السنوي)
السّراسر: (خلعة من السراسر العال
وفي ص ١٤٧ :اثواب من السراسر
بدون تفصيل مما يبين ان المقصود
نوع من الأقمشة)
سردار : (رئيس)
السكباج :(انظر الكلاج وهو يقصد
نوعاً من انواع الحلوى)
السمعلة : (قبول آراء الطائفة
الاسماعيلية)
السناجق الخاقانية :(الألوية السلطانية
او رؤساء الألوية ص ١٥٨ وقد
يقصد بها رئيس حاملي الأسلحة،
كما في ص ١٧٥ ، والعلم كما في ص
٩٢ / ١٥٠، وقد يقصد بها ناحية
إدارية يحكمها شخص،وقد تطلق
على الشخص نفسه كما في سنجق
عدن مثلاً - ١٢٨/٨)
سيب : (خلعة سيب : فألبس سنان
الشريف خلعة سيب وخلعة
سراسر ، ص ٤٤٩ - يدل على
انها أعلى نوع من أنواع الخلع ،
وقد يقصد بها الدرع)
شاد : (شاد النطرون مثلاً ، أي
المتضمن لجباية خراجه)
شاه بندر جدة : (رئيس التجار كما
في ص ١٤٠)
الشفاليت : جمع شفلوت : (طائفة
من العرب ملفقين من كل قبيلة ،
يأكلون العلوفة السلطانية ،
ويخدمون العسكر ، سفراً
وحضراً، ويربون شعورهم ويسمى
الواحد منهم شفلوتاً - ص ٢٩٧)
شقدار : (حافظ شق المملكة
ص ٨٣)
الصوباشي : (في هامش (ف) :
صَوْ : ما هو بالصاد ، بل بالسين
إذا كان علماً بين الأروام - أ هـ .
ويقصد بالكلمة في الأصل موظف
توزيع الماء ، إذ سُو : يقصد بها

الماء . ثم اطلقت على من يقوم بأعمال الشرطة في المدن ، وقد يقصد بها رئيس المفرزة)

ضربزنات : (نوع من المدافع يحشى بالبارود وتشعل فيها النار فترمي قذيفتها)

طغراء : (العلامة السلطانية التي توضع في أعلى الكتاب كما في ص ٤٢٣ ، وقد يقصد بها المرسوم السلطاني – كما جاء في ص ٨٦ : فكتب له طغراء سلطانياً وولاه زبيد) .

عثماني : (ويجمعه عثامنة ، نوع من النقد)

علوفة : (يجمعها : علوفات : مرتب شهري أو سنوي: ورتبنا علوفته في كل عام ستمائة الف عثماني ، ص ٤٢٥) .

علوفجية : (الأتباع ذوو الرواتب . قبل قوله : وبرز بمن قدر عليه من عسكر مصر ، ومن معه من المماليك والعلوفجية ـ ص ٣٩٢)

العَواني : (بمعنى جندي أو موظف صغير)

غراب :(جمعه أغربة : وهو مركب بحري)

فداوي : (فدائي : جندي لا يتزيا بزي الجند)

قابجية الباب العالي : (حجّاب ، الواحد قبوجي)

القبودان (القبطان) : كابتن : أي ربان السفينة ، أو قائد الاسطول البحري)

كاشف : (كشاف)

كتخدا : (وكيل، وانظر كدخدا)

كُدُخْدَا :(الموظف الكبير ويقصد بها الوزير الأول في حكومة الولاية التي يحكمها باشا)

كخيا : (كيخية : تؤدي معنى كتختا ، كدخدا ، ويجمعها على كواخي — ص ٤٦٢)

الكلاج : (الخراف المشوية والدجاج والمهلبية والمأمونة والسكباج والرشيدية والشرابية والكلاج – ص ٤٥١ نوع من الحلوى)

كلارجية : (أمناء مستودعات المؤن واحدهم كلارجي)

كمخا : (أربع قدود كمخا غال ص ١٤٧ ـ نوع من القماش)

الكوركجية : (عمال السفن والكلمة تودي معنى الكنّاس)

الكوكلية : (طائفة من خاصة الجند)

كيخيا : (كخيا : وكيل أعمال)

كيخية الجاويشية : (وكلاؤهم)

كيس رومي : (خمسون الف عثماني)

اللوند : (جند نصف نظامي يجند محلياً)

محتسب : (أمير العسكر والمتكلم عن الحروب)

المكاحل :(في هامش «ف» : مراده بالمكاحل ما يعبرعنه بالتركي قنبره ــ ا هـ ــ أي ما يعرف الآن باسم القنابل)

نقيل : (كلمة يعبر بها في اليمن عن العقبة فيقال نقيل سمارة ، نقيل احمر وهكذا)

النقاره زن : (يقصد رئيس الفرقة الموسيقية العسكرية)

ناخوذا : (جمعه نواخذ . وفي هامش « ف » : يريد بالنواخــذ جمع ناخوذا، وهو لفظ فارسي معناه: المَلاّح ــ ا هـ)

نوبتجية : (المناوبون للحراسة)

النوتية : (البحّارة)

الوطاق : (يقصد بـه المخيم والأثاث والمحطة)

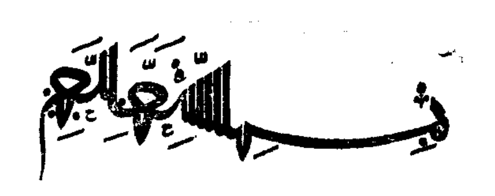
هَـدّة : (استعملها المؤلف بمعنى السماط)

اليرَق : (اعطاه كل ما يحتاج اليه من اليرق والآلات ــ ص ٣٩٤ ــ اليرق هنا الأسلحة)

اليساقجية : (الجند الذين يراقبون العسكر ، ويمنعونهم من مخالفة الأنظمة ، او التعدي على احد)



البرق اليماني
في الفتح العثماني



الحمد لله الذي نصر الدين الحنيفي بصارم وسنان ، وقطع دابر أهـــل الفساد والبدعة بانتصار أهل الإيمان ، وخذل البغاة الذين خرجوا عن طاعة الله ، وطاعة رسوله ، وطاعة السلطان ، ومَنَّ على أنصار دينه بالفتح والظفر على أهل الخروج والبغي والعصيان .

نحمده على نُصرة الدين القيّم ،ونشكره على اهانة البغاة الطغاة : (ومَن يُهِـن الله فما له من مكرم) .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الحكم العدل القادر القاهر الديان ، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله ، القائل : « من شق عصا أمـــتي فاقتلوه » كائناً من كان » . وعلى آله الطيبين الطاهرين ، المبرّئين من الإلحاد والضلال المبين ، وعلى أصحابه المكرمين ، أنصار الدين المتين ، المؤيدين من عند الله بجنود الملائكة المسوّمـين ، المنزل في حقهم : (نصر من الله وفتح قريب ، وبشر المؤمنين) .

أما بعد : فهذا كتاب لطيف ، وتاريخ منتخب ظريف ، جمعت فيه ما تجدد في عصرنا من فتوحات اليمن، وما حدث فيه من الأهوال والفتن،وتلهّب من نيران المِحن والإحن ، مما خلت منه كتب التواريخ والأسفار .

وكان فن التاريخ علماً شريفاً فيه العظة والاعتبار، والاطلاع على حوادث

الدهر الدوّار ، واختلاف صوارف الليل والنهار، ومعرفة أحوال بني النوع، مما يوقظ الأذهان والأفكار ، ويزيد بصيرة أولي البصائر والأبصار ، ويقيس العاقل نفسه على من مضى من أمثاله في هذه الدار .

وقد قص الله تعالى لنا بعض أخبار الأمم السالفة في أم الكتاب ، فقال تعالى : (لقد كان في قصصِهم عبرة لأولي الألباب) وجاء من أحاديث سيد المرسلين ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين، كثير من أخبار الأمم الماضين ، كحديثه عن بني اسرائيل و وما غيّروه من التوراة والانجيل ، وغير ذلك من أخبار العجم والعرب ، ما يقتضي لنا منه العجب .

وقد قال الامام الشافعي رضي الله عنه : من علم التاريخ زاد عقله .

ولقد قيل :

إذا عرف الانسان اخبار من مضي	توهمته قد عاش من أول الدهر
وتحسبه قد عاش آخر عمره	الى الحشر،ان أبقى الجميل من الذكر
فكن عالما أخبار من عاش وانقضى	وكن ذا نوال ،واغتنم أطول العمر

ولا يخفى ان قطر اليمن قطر عظيم ، وإقليم واسع من أحسن الأقاليم ، وفضلها وبركتها على كثير من الامصار ، مقرر عند علماء الأخبار والآثار ، وقد ورد في ذلك من الأحاديث ما صح عند النظار ، وجمع في ذلك أهل الحديث عدة رسائل واسطار ، فمنهم الامام محمد بن عبد الحميد بن عبد الله ابن خلف القرشي المصري ، جمع « أربعين حديثاً في فضل اليمن » .

ومنهم الامام الحافظ محمد بن اسمعيل بن أبي الصيف اليمني [1] الف كتاباً في فضل اليمن وأهله .

ومنهم الحسين بن محمد اليمني من أهل صنعا ، قاضيها وعالمها ، له كتاب حافل في هذا المعنى ، وغيرهم من مؤرخي اليمن ، ذكروا في صدور كتبهم

(١) توفي سنة ٦٠٩ واسم كتابه : « الميمون في فضائل أهل اليمن » - كشف الظنون .

أحاديث كثيرة زادتها شرفاً وحسناً . وقد روى الامام الحافظ أبو عبد الله محمد بن اسمعيل البخاري رضي الله عنه في صحيحه عن النبي ﷺ « انه قال:

« اتاكم أهل اليمن الين قلوباً، وأرق افئدة، الفقه يمان والحكمة يمانية » .

وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن ابي مسعود البدري رضي الله عنه قال : أشار النبي ﷺ بيده نحو اليمن وقال : « الا إن الإيمان ههنا » .

وفي صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ « انه قال : « جاء أهل اليمن هم أرق افئدة ، الإيمان يمان ، والفقه يمان ، والحكمة يمانية » .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : بينا النبي « ﷺ » بالمدينة إذ قال: « الله أكبر جاء نصر الله وجاء الفتح، وجاء أهل اليمن نقية قلوبهم، لينة طاعتهم، الإيمان يمان والفقه والحكمة يمانية » أخرجه بن حبّان في صحيحه .

ولو تتبعنا ما ورد في هذا الكتاب أو في هذا الباب ، لأدى الى الإسهاب والإطناب ، وملت منه الطباع وان طاب،فعدلت عن ذلك الاكثار ، وملت الى الاقتصاد والاختصار ، وذكرت فتوحات اليمن بسيوف (آل عثمان) خلدالله تعالى ملكهم الى انتهاء الزمان، مما خلت عنه كتب التواريخ إلى هذا الأوان، وشرعت من أول القرن العاشر ، وتتبعت أفواه الرجال ، وصدور الدفاتر ، وجمعت من ذلك ما يكون نزهة للخاطر ، وقرة للناظر، ووشحته بلطائف من الأشعار والنوادر ، وحليته بجواهر من عقود الحكم الزواهر ،

وألحقت به في الخاتمة فتح (تونس) و (حلق الواد) [1] مختصراً بطرق الاستطراد ، حيث لم أطلع على تفاصيل ذلك لبعد البلاد .

وسميته « البرق اليماني ، في الفتح العثماني » .

وخدمت به سدة سلطان سلاطين الزمان ، وخاقان خواقين العصر

---

(١) حلق الواد : مدينة في تونس ، على ساحل البحر ، لا تزال معروفة .

والأوان ، وخليفة الله الأعظم على أفراد بني الانسان ، ثالث العمَرين ، صرامة وحزماً من ملوك آل عثمان ، ظل الله الممدود على كافة أهل الايمان ، وسيفه المسلول بيد القهر على أهل البغي والعدوان ، مدمر الملاحدة بكل عضب صارم وسنان ، قاتل الكفرة والمبتدعة وسائر حزب الشيطان ، القائم بفرض الجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى، وإذلال أهل العصيان ، ذى المغازي التي تليت آياتُ نصرها في المحافل والمشاهد ، وتسند العوالي حديثها منه عن مقاتل ومجاهد ، لم يكتحل عين الزمان برؤية من يوازنه أو يوازيه ، ولم تنظر أحداق النجوم مع كثرة دورانهـــا حول السماء والأرض إلى من يساويه أو يساميه، [1] صاحب الامامة العظمي والسلطان الباهر،وارث الخلافة الكبرى كابراً عن كابر ، متوج رؤوس المنابر والدفاتر ، بذكره الكريم الفاخر ، مرغم انوف الفراعنة والجبابرة ، كاسر تيجان الأكاسرة ، قاصر قصور القياصرة ، هازم جنود البغاة وجيوشها ، وهادم حصون الطغاة فهي خاوية على عروشها ، ملك البرّين ، والبحرين ، والعرب والعجم ، والروم والترك ، والعراقين ، والشرق والغرب ، واليمن والحبشة والخافقين ، خادم الحرمين المحرّمين الشريفين ، عـــامر البلدين المكرمين المنيفين ، السلطان الأعظم ، والليث الغشمشم ، والبحر الغطمطم ، واسطة عقد ملوك بني عثمان ، السلطان مراد ، بن السلطان سليم ، بن خان بن سليمان خان ، خلد الله تعالى أيام خلافته ، ما تعاقبت الشهور والسنون ، وأجرى أحكام سلطته في أكناف أطراف الربع المسكون ، وجعل الملك كلمة باقية فيه وفي بنيه الى يوم يبعثون .

وهذا دعـــاء لا يُرد لأنه ... يُزان به كل الورى والمماليك
نراه بلا شك أجيب لأننـا ... إذا ما دعونا أمّنته الملائكُ

---

(١) لولا الأمانة العملية ، لكان من الأحسن حذف هذه الأوصاف ، التي تجاوزت الحد ، وبلغت من الغلو درجة قبيحة ، فضلاً عما تضمنته من الباطل .

وانا في إهداء هذا الكتاب وان لم تكتحل بنظره عين الزمان ، كمُهدي الدر إلى عُمان ، والزهر إلى النعمان ، والقطر الى السحاب الهتّان ، فبابه الكريم العالي سوق يروج فيه ما كسد من بضائع الفضلاء، ويرغب فيه إلى كل من يجلب اليه متاعاً من متاجر العلماء النبلاء ، فقصة الاعرابي وإهداؤه قربة ماء إلى خليفة الزمان [وإهداء رجل جرادة إلى حضرة سليمان] ، معلوم عند كبراء أهل الشأن ، وكرماء بني نوع الانسان ، والغرض هو التعلق بحبال الآمـــال ، والتوسل إلى التوصل إلى فائض الاحسان والإفضال ، وتهنئته بالسلطنة الشريفة ، وجلوسه على البخت الشريف ، في أشرف ساعات السعد والاقبال ، والالتجاء من جور الدهر الظلوم [1] إلى مَعْدلة هذا الظل الظليل ، الممدود الظلال ، فأكرم به سلطاناً كان بلباس الكرم والتقوى وليّاً ، وهمي على العالم من غيث إحسانه وَسْمياً ووليّاً ، واتخذ طوق العدل في لبّته حُلِيّاً ، وألبس الدنيا جمالاً ، ومنح أهلها منى وآمالاً ، فأصبح الدين منبسطاً ، والبخت بحلول مقدمه الشريف مغتبطاً ، فالسيف والقلم يجريان إلى قهره ورضائه ، والبأس والحلم يمضيان بمضائه ، فلو استجار به أحد من الدهر [2] لحماه، أو جاوره كليب ما طرق حماه،أو استنجدبه امرؤ القيس ما كساء قيصر ما كساه،ولو دعى الطود الأشم الى طاعته لأجاب، أو أشار إلى

---

(١) في (ف) و (س) زيادة هذا نصها :

[فلقد أناخ بكلكله على خدام العلوم ، وطحنهم طحن الجائر الغشوم ، سيما جيران بيت الله الحرام ، وجيران نبيه سيد الأنام ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، فقد تواتر عليهم منذ سنوات المحل الشديد ، الى أن ذهب الطارف والتليد ، وشاب من هوله اليافع والوليد ، ثم انتعشوا بعض الانتعاش ، ورجعت لهم أرواحهم بعد الانتغاش ، بوصول حضرة الوزير المعظم] .

يعني « سنان باشا » وقد ساق الثناء الذي اسبغه على الوزير (محمد باشا) فاستعمله في النسخ الاولى من هذا الكتاب في حق « سنان » وفي هذه النسخة في حق « محمد باشا » .

(٢): المجير من الدهر هو الله سبحانه ، وهذا مخلوق ضعيف (لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعا) فضلاً عن دفع الضرر عن غيره : وكلام المؤلف في مدح السلطان ووزيره ، من الغلو ، الذي نهى عنه الرسول (ص) ومن الاطراء بالباطل .

الليل البهيم لانجاب ، مع عفاف حتى عن الطيف ، وتقوى فاق بها المحرمين في (الخيف) وعدل أزال به كل شطط وحيف .

كيف لا وقد اسعده الله بوزيره الأعظم، ومشيره الأكرم الافخم، الجواد الذي لم ينحن الهلال إلا ليكون نعلا لحافر جواده ، ولا مدت الثريا كفها الخضيب الا للتمسك بذيل كرمه وامداده، ولا طلع البدر المنير الا ليكسب منه كمالا، ويستر نقصانا ، ولا دارت حول الأفق اعين النجوم الا لترى وجهه الكريم وتعاينه عيانا ، ولا سل الصبح سيفه الا قال : الله أكبر على أعدائه ، ولا احمر الشفق في الخافقين الا حرمة لحمرة خافق لوائه[1]، ولا امطرت السحب الا بكاء من خشية جلاله ، ولا اصفرت البروق الا خجلا من لمعـــان سيوفه ونصاله ، ولا تحلت الخناصر بالخواتم الا لانها تعقد عليه ، ولا تكحلت العيون بسواد النور الباصر الا للتشرف بالنظر اليـــه ، ولا فتحت الدوي افواهها الا لتنطق بمدحه بألسنة الاقلام ، ولا حبر الحبر بياض الطروس بسواد السطور الا ليشير بأن الليالي والأيام له من جملة الخدام، غرة جبين الإيالة والوزارة العظمى ، درة اكليل العظمة في المقام الاسمى ، ليث عرين الوطيس بأساً وجاشاً ، حضرة الوزير الأعظم (محمد باشا) أنعش الله به البلاد والعباد انعاشاً ، وفرش به بساط البسيطة بالأمن والعدل فراشاً ، فلقد أنام الأنام في ظل الأمن والأمان ، وبسط لسكان البسيطة بساط العدل والاحسان ، وشمل باحسانه طوائف بني الانسان ، سيما فقراء (الحرمين الشريفين) وفقهاء هذين البلدين المنيفين ، فإنه صيرهم خواص عبيد إحسانه ، واتخذهم عسكر الدعاء بدوام سلطانه، فإن عسكر الدعاء أنفع وأنجع من عسكر القتال ، وسهامهم أشد نفوذاً من نصال النبال، تنفذ من المسافات التي هي أبعد مما بين الغرب والشرق،

---

(١) أبقينا هذه النعوت التي تجاوزت الحدود ، لسببين أولها : محافظة على الأمانة العلمية ، التي تقضي بعدم التصرف بالنصوص القديمة ، وبآثار المتقدمين ، أيا كانت . وثانيهما : لأن من أهم أهداف المؤرخ إبراز صورة كاملة للعصر الذي يؤرخه ، ولا يتم هـــذا بالتصرف بما أثر عن المتقدمين ، أيا كان ، ومهما بلغ من مجافاته لمألوف العصر ، ومخالفته لأحوال أهله .

وتسرع في إهلاك العدو أسرع من وميض البرق ، فالله تعالى يديم علينا وعلى الإسلام ظلال السلطان الأكبر ، بتدبير هذا الوزير الأعظم الأفخر ، ويطيل عمرهما في السعادة إلى مدى لا يُعَدّ ولا يُحصَر .

وهذا دعاءٌ قد أجيب ، وإنما يريد به داعيه إظهارَ إخلاص

وقد آن أن نشرع في المقصود ، ونستعين بعون الملك المعبود .

وقد رتبت هذا الكتاب على مقدمةٍ وثلاثة أبواب وخاتمة .

المقدمة في سبب تأليف هذا الكتاب .

الباب الأول : في ذكر ملـــك اليمن ، من أول القرن العاشر ، إلى زمن الفتح الخاقاني الباهر .. وفيه ثلاثة عشر فصلا .

الباب الثاني : في ابتداء الفتح العثماني ، واستيلاء الملـك السليماني ، ببلاد اليمن الأقصى والداني ، وفيه سبعة وثلاثون فصلاً .

الباب الثالث : في الفتح الثاني ، وعود الممالك اليمنية إلى سلك ملك الدر النظيم العثماني ، وهو المقصود بالذات من تأليف هذه المباني ، وترصيف درر هذه الكلمات منتظمة في سلك جواهر المعاني ، وفيه ستون فصلاً .

الخاتمة : في عود حضرة الوزير إلى إيالة مصر ، ثم إلى الباب العالي وزيراً ، ثم توجهه إلى فتح (تونس) و (حلق الواد) وأخذ سفـــائن النصارى ، وعوده إلى الباب الشريف مظفراً منصوراً ، وفيها خمسة فصول .

المقدمة في سبب تأليف هذا الكتاب

اعلم ان الجراكسة أخذوا مملكة اليمن من عامر بن عبـــد الوهاب آخر ملوك بني طاهر .

ثم انقرضت (الجراكسة)، فاستولى على اليمن طائفة من (اللّـوند) كما سيأتي تفصيله ، وكانت الخطبة والسكة في أيام (اللوند)باسم المرحوم المقدس السلطان سليمان خان ، عليه الرحمة والرضوان ، الى أن توجه المرحوم الخادم سليمان باشا إلى (الهند) فاستخلص مملكة اليمن من (اللونـد) واستصفاها باسم المرحوم المقدس السلطان سليمان خان ، في سنة ست وأربعين وتسعمائة ، واستمرت من جملة الممالك المحروسة العثمانية الى أن اختل أمر اليمن عند وفاة المرحوم المقدس رحمه الله تعالى ، فأظهر العصيان مطهّرُ بن شرف الدين، علي الحسني ، الذي ادعى أبوه الإمامـة ، فأرسل المرحوم الأقدس السلطان سليم خان ، بوّأه الله رياض الجنان ، لافتتاح ممالك اليمن ،وزيره الأعظم، ومشيره الأفخم ، مدبر أمور جمهور الأمم ، فاتح ممالك اليمن ، من أقصى كوكبان الى بندر عدَن ، دافع آثار الجور والفتن ، قالع مآثر الظلم والإحَن ، من أقاليم (سيف بن ذي يَزَن)رافع أعلام السنة والهدى، كاسر رايات البدعة والردى، الذي لم يَجُدْ بمثله الدهر، ولم يَجِدْ مثله أهل العصر، المحسن الى جيران بيت الله الحرام، وإلى جيران نبيه محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، معدن اللطف والكرم والجود ، رحمة الله الشاملة لأفراد الوجود ، الوزير المعظم ، حضرة

سنان باشا المكرم ، دام الزمان به مسعودا ، والنصر والظفر به مشهودا ، وظل سعادته ممدودا ، وبحر مواهبه مورودا .

لا بدّل الله حالاً قد حباه بها ما دار بين (النحاة) العطف والبدل

ولما توجه بعسكره المنصور إلى المملكة اليمنية ، ومَرّ بهذه البلدة الشريفة العلية ، (مكة المشرفة) زادها الله تعالى شرفاً وتعظيما ، اجتمعتُ بخدمته ، فأحسن إليّ بوافر نعمته ، وأحسن إلى جميع أهل الحرم الشريف ، جيران بيت الله المنيف ، وطلب منهم الدعـــاء ، واستجلبهم بلطيف الاستدعاء ، فدعوا بنصره وتأييده ، وإصابته وتسديده ، فتقبّل الله دعاهم ، واستجاب ضراعتهم ومُناهم ، ففتح الله تعالى البلاد لحضرة الوزير ، ونصره ويسّر له مراده أحسن تيسير ، فعاد من أرض اليمن الى بـلد الله الحرام ، ورزقه الله تعالى حجة الإسلام ، فلازمته في زمن الحج ، وقضيت معـــه مناسك العَجّ والثج ، وغمرني بلطفه وكرمه ، وقلدني بأطواق بره ونعمه ، وشرف معاطفي بخلَع التشريف ، وأتحفني بكل نادرة لطيفة وكل خبر لطيف ، وساق إليّ أخبار هذا الفتح العظيم ، وما منحه الله تعالى من الفضل العظـــيم ، والخير الجسيم ، وشرح ما لاقاه هو والعساكر المنصورة من التعب الشديـد ، والألم الأليم ، وأمرني أن أرقم تلك الأخبار ، وأودع صدور الصحف عجائب تلك المآثر والآثار ، لتكون عبرة لأولى الأبصار ، وتذكرة لمن تذكر من أهل الاعتبار ، وتبصرة يتبصر بها حذاق اهل الاستبصار ، وتطّلع بها على ما ظهر من مخبئات الليل والنهار ، لتكون قياساً لما يتولد من حركات دوران الفلك الدوار ، من عجـــائب تحار فيها الأفكار ، وغرائب تقف دونها أنظار النظار .

والليالي كما علمتَ حُبـــالى مثقلاتٌ يلدنَ كلّ عجيب

وأعطاني حضرة الوزير المشار اليه ، أعلا الله تعالى مرتبة لديه ، نسخة

من تاريخ فتح اليمن ، منظومة باللسان التركي ، للمرحـوم المبرور ، مصطفى بك الرموزي ، أمير اللواء السلطاني ، و (دفتردار) ممالك اليمن ، تغمده الله تعالى برحمته ، وأسكنه فسيح جنته ، لأستضيء به في الاطلاع على بعض أحوال تلك البقاع ، وهو تاريخ في أعلى درجات اللطافة ، ليس له نظير في الكياسة والظرافة ، أناف على الحسن غاية الإنافة ، غير انه لما كان منظوماً لم يتمكن ناظمه من أداء المعنى بالتمام ، ولو بلغ حد الإعجاز في حسن اداء الكلام ، على اني انتفعت به كثيراً في الأخبار ، وعولت عليه فيما ثبتت صحته عند نقلة الأخبار ، وجمعت في حدائق هذه الأوراق ، ثمرات تتـــنزه بها الخواطر والأحداق ، بانشاء عربي بليـغ ، يدركه أهل الأذواق ، وسجع سهل ممتع ألذّ من سجع ذوات الأطواق ، وكنت قد افتتحته بقصيدة طنانة ، سارت بها الركبان ، تتسابق ألفاظها ومعانيها الى الآذان والأذهان ، يُمَدّ كل بيت منها بديوان ، وتسحب كل كلمة منها أذيال البلاغة على (سَحبان) :

لكَ الحمد يا مولاي في السر والجهر	على عزة الاسلام والفتح والنصر
كذا فليكن فتحُ البلاد إذا سمتْ	له الهممُ العليـا إلى شرف الذكر
جنودٌ رمَتْ في (كوكبان) خيامها	وآخرها بـ (النيل) من شاطىء مصر
تجرّ من الأبطـــال كل غضنفر	بصارمـه يسطو على مَفرق الدهر
عساكر سلطانِ الزمانِ مليكنا	خليفة هذا العصر ، في البرّ والبحر
حمى حوزة الدين الحنيفيّ بالقنـــا	وبيض المواضي ، والمثقفة السمر
له في سرير الملـــك أصلٌ مؤثَّلٌ	تلقّاه عن أسلافـه السادة الغُر
ملوكٌ تساموا للعـــلى وخلائفٌ	أولو العزم في أزمانهم ، وأولو الأمر
شموسٌ بفيض النور تمحو غياهبـــاً	من الكفر ، منهم يُستَمَد ضيا البدر
همُ ملأوا عينَ الزمان وقلبـــهُ	فقرّت عيونُ العالمين من البشر
همُ العقدُ من أعلى اللآلي منظّماً	وسلطاننا في الملْك واسطة الدرّ
(شهَنْشاهُ) سلطانُ الملوك جميعهم	(سليمٌ) كريمٌ أصله طيّب النجر
عمـــادٌ يلوذُ المسلمون بظله	وسدٌّ منيـع لـــلأنام عن الكفر

وحين أتاه أن قد اختــلّ جانب من (اليمن) الأقصى، أصر على القهر
وساقَ لها جيشاً خميساً عرمرمــاً تدُكُّ فجاجَ الأرض في السهل والوعر
لهم أسَد شاكي السلاح عرينــه طوالُ الرمــاح السمهرية والبُتْر
وزيرٌ عظيمُ الشأن ، ثاقبُ رأيه يجهّز في آنٍ ، جيوشاً من الفكر
يقوم بأعباء الوزارة قــومة تشدُّ جيوشَ الدين بالأيدِ والأزْر
أيادٍ له بالبأس كاسرة العــدى ولكنها بالجــود جابرة الكسر
به أمَّن الله البــلاد ، وطمْـــن العباد،وأضحى الدينُ منشرحالصدر
(سِنانٌ)عزيزُ القدْر،يوسفُ عصره ألم ترَه في (مصر) أحكامه تجري ؟!
تدلى إلى أقصى البــلاد بجيشه ومهَّد ملْكاً قــد تمزّق بالشر
وشتّت شمل الملحــدين وردهم مثال قرود في الجبــال من الذعر
وقطّع روساً من كبار رؤوسهم لهم باطنُ السرحان والطير ، كالقبر
وكان (عصا موسى) تلقّفُ كلما بدا من صنيع الملحدين ، من السحر
ولا زال فيهم عاملُ الرمح عاملاً ولا برحوا بالذل في القتل والأسر
وما (يَمَنُ) إلا ممالكُ (تُبّع) وناهيك من مُلك قديم ، ومن فخر
وقد ملَكَتْها(آل عثمان)إذ مضت (بنو طاهر) أهلُ الشهامة والذكر
فهل يطمع(الزّيديُّ)في مُلك(تبّع) فيأخذَه من (آل عثمان) بالمكر ؟!
تسمّى (أمير المؤمنين) سفاهــة وكاد يسوس الناس بالكذب والغدر
وكان كذي رجلين رجلٍ صحيحة وأخرى رمى فيها الزمــانة بالكسر
أبى اللهُ والإسلامُ والسيفُ والقنا وسرُّ (أمير المؤمنــين أبي بكر) !

الباب الأول

في ذكر مَن ملك اليمن من أول القرن العاشر، الى زمن الفتح الخاقاني الباهر، وفيه ثلاثة عشر فصلا .

الفصل الاول

في دولة السلطان عـامر بن عبد الوهاب ، آخر مـلوك العرب في اليمن ، رحمه الله تعالى

إعلم ان سلطنة ممالك اليمن ، أعلاها وأسفلها ، وجبالها وتهائمها انتهت في رأس القرن العاشر ، إلى السلطان عـــامر بن عبد الوهاب بن داود بن طاهر ، بن مُعوْضة الأموي ، ولقبه الملك الظافر ، صلاح الدين ، وهو آخر ملوك بني طاهر .

وابتداء ملكهم من سنة تسع وخمسين وثمانمائة ، أخذوا مملكة اليمن من بني رسول الغسّاني ، وولي السلطان عامر بعد وفاة عمه المنصور ، في سنة أربع وتسعين وثمانمائة ، واستمر سلطاناً مطاعاً ، نافذ الأمر ، في أقطار اليمن كلها ؛ الى انتهاء دولته ، تسعاً وعشرين سنة ، وكان كثير المال والسلاح ، والخيل والخزائن ، شديد الالتفات إلى العلماء ، وإلى جمع الكتب العلمية ، شافعياً سُنّياً سَنِيّاً قرشياً عَبشمياً ، لم يكن فيه ما يُرمى به غير التعرض للأوقاف ، في آخر عمره ، وكان سبباً لزوال ملكه .

قال الفقيه الأجل ، الحافظ المحدث ، المؤرخ الشيخ وجيه الدين عبد الرحمن بن الدَّيْبَع رحمه الله تعالى ، في تاريخه « الفضل المزيد في تاريخ أهل زبيد » ما نصه : (كان الملك الظافر رحمه الله تعالى على جانب عظيم ، من الدين والتقوى ، نشأ في طـــاعة الله تعالى لم تُعلم له صبوة ، وكان

ملازماً للتلاوة والأذكار ، كثير الصدقات ، له مآثر عظيمة ، من مساجد ومدارس ، وخيرات ومبرات ، وله مشاهد من الحروب معدودة محمودة ، ولم يكن فيه خصلة يُذم بها سوى تعرضه للأوقاف ، في معارضة الفقهاء ، وأظن ذلك هو الذي كان سبباً لزوال دولته ، وذهاب مـــا في يديه ، وأنا ناصحٍ والنصيحة هي الدين لِكل من ولي أمراً من أمور المسلمين ، من الملوك والسلاطين ، وسائر المتصرفين ، أن لا يتعرضوا للوقف وأهله ، فما سمعت بأحد اشتغل به وبأهله ، وتعرض من أول الأمر للكلام فيه ، إلا تغيرت أحواله ، وتعثرت أذياله ، وتشتت باله ، وعظم وباله ، وانعكست آماله ، ووُتر أهله وماله ، (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تُصيبهم فتنة أو يُصيبهم عذاب أليم) انتهى باختصار [١] .

وأنشد لنفسه في هذا المعنى :

يا صـــاحبي لا تكلّم في الوقف أولى وأصلحْ
فإننا ما رأينـــا شخصاً تولاه أفلحْ



---

(١) « الفضل المزيد » ذيل كتاب « بغية المستفيد » وكلاهما لابن الدَّيْبَع مخطوطان .

الفصل الثاني

في ذكر انتقال الدولة باليمن من بني طاهر ، الى الأمير حسين من الجراكسة

وقع في أول القرن العاشر ، من الحوادث الفوادح النوادر ، دخول (الفرتقال) [1] اللعين ، من طائفة الفرنج الملاعين ، إلى ديار (الهند) ، وكانت طائفة منهم يركبون من زقاق سبتة في البحر ويلجون في الظلمات ، ويمرون بموضع قريب من (جبال القُمْر) بضم القاف وسكون الميم جمع أقمر ، أي أبيض ، وهي مادة أصل بحر النيل ، ويصلون إلى المشرق ، ويمرون بموضع قريب من الساحل ، في مضيق ، أحدُ جانبه جبل ، والجانب الثاني بحر الظلمات ، في مكان كثير الأمواج ، لا تستقر به سفائنهم ، وتنكسر ، ولا ينجو منهم أحد ، واستمروا على ذلك مدة ، وهم يهلكون في ذلك المكان ، ولا يخلص من طائفتهم أحد إلى بحر الهند ، إلى أن خلص منهم (غُرَّابٌ [2]) إلى الهند ، فلا زالوا يتوصلون إلى معرفة هذا البحر ، إلى أن دلهم شخص ماهر ، يقال له (أحمد بن ماجد [3]) صاحبه

---

(١) يقصد : البرتغال ، ويعبر عنهم المؤلف باسم (الفرنج) .

(٢) الغُراب : هنا نوع من السفن ، وسيتكرر ذكره كثيراً ، ويجمعه المؤلف على (أغربة) .

(٣) هو الربان النجدي المعروف، وقد طبعت بعض مؤلفاته في وصف البحار وذكر ممالكها. طبعها مستشرقون فرنسيون وروس .

كبير (الفرنج) وكان يقال له (الى ملندي) وعاشره في السكر ، فعلمه الطريق في حال سكره ، وقال لهم : لا تقربوا الساحل من ذلك المكان ، وتوغلوا في البحر ثم عودوا ، فلا تنالكم الأمواج ، فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم ، فكثروا في بحر الهند ، وبنوا في (كُوَه) من بلاد (الدكن) قلعة يسمونها (كوتا) ثم أخذوا (هرموز) وتقوّوا هنالك ، وصارت الأمداد تترادف عليهم من البرتغال ، فصاروا يقطعون الطريق على المسلمين أسراً ونهباً ، ويأخذون كل سفينة غصبا ، إلى أن كثر ضررهم على المسلمين ، وعم أذاهم على المسافرين ، فأرسل السلطان مظفر شاه ، بن محمود شاه ، بن محمد شاه بن أحمد شاه ، سلطان كجرات يومئذ ، الى السلطان الأشرف قانصوه الغوري ، يستعين بـه على الفرنج ، ويطلب العدد والآلات والمدافع ، لدفع ضرر الفرنج عن المسلمين ، ولم يكن أهل الهند إذ ذاك يعرفون المدافع والمكاحل والبندقيات يومئذ ، وممن ارسل الى السلطان الغوري يطلب منه النجدة على الفرنج : السلطان عامر بن عبد الوهاب ، لكثرة ضرر الفرنج بالمسلمين ، في بحر اليمن وبنادرها ، وتواتر أذاهم ، وضعف جنود المسلمين في بحر اليمن ، بتلك الديار عن مقاومتهم ، لعدم معرفتهم بحرب البحر ، واستعمال المدافع ، ونحو ذلك ، فجهز السلطان (قانصوه) من كبار مقدميه الأمير (حسين الكردي) وأصحبه طائفة كبيرة من اللوَنْد كبيرهم سليمان الريس وجهز لهم عمارة عظيمة وأغربة نحو الخمسين بمدافع كبيرة ، (وَضرْبزنات) وولاه نيابة جَدّةَ ، وعظم شأنه ،وكان مقداماً شجاعاً فاتكاً ، كثير الظلم ، شديد السياسة ، فأول ما جاء بَنى على جدة سوراً محيطاً بها ، في عام سبع عشر وتسعمائة ، حمل فيها التجار التراب والأحجار وهدم ما أراد من بيوت المسلمين ، وغصبها وأدخلها في البناء ، ووضع بعض التجار في وسط البناء ، ليبني عليه ، فخلص نفسه بمال كبير ، بعد الشفاعة فيه ، وإنما بنى ذلك السور صَوْناً للبندر عن متخطفة العربان ، فإن تلك الأيام كان الخلاف بين ذوي محمد قائماً ، وما خلص للمرحوم الشريف بركات خلوصاً كلياً ، بـل كان يعجز عن دفع العربان ، إذ ذاك ، إلى أن قوي ، وآتاه الله الملك والحكم ، وجعل الملك فيه وفي ذويه .

ولما فرغ الأمير حسين من بناء سور جده توجه بأغربته إلى الهنـــد ، ودخل (الديو) واجتمع بالسلطان(مظـّفر شاه) وحصل له منه إمداد كبير ، غير أن الفرنج ارتفعوا إلى (كوَه) وما أمكن الأمير حسينُ أن يستمر في (الهند) ، فعــاد من غير عمل ، فوصل إلى (بندر كـَمَران) [1] ومعه العدد والآلات ، وكثير من عسكر (اللوند) ومنهم الأمير (سلمان الريس) وكان فاتـكا شجاعاً ، ذا معرفة بالحروب ، خصوصاً بالمدافع والبنادق .

فأرسل الأمير حسين إلى السلطان عامر ، يطلب منه الميرة والاعانة ، مُدِلاً عليه بما سبق له من المكاتبات إلى السلطان (الغوري) في طلب النجدة منه ، فلما وصل اليه رسول الأمير حسين ، بهدية كبيرة الى عامر ، أراد عامر أن يُمدّه بما أراد من الميرة وغيره ، فمنعه من ذلك وزيره ، وقـال : (اذا أعطيتهم شيئاً يصير عادة عليك ، تطالـَب بها كل عام) . وكلام الشح مطاع ، والبخل والامساك مركوزان في الطباع ، فاستصوب رأيه ، وكم من كلمة شحّ تخرب الديار ، وتؤول إلى الخسائر والدمار ، فأرسل السلطان عامر ، إلى الامير حسين جواباً غير لائق ، ولم يرسل اليه شيئاً ، ومنع الميرة من (كمران) فتشاحنت النفوس لذلك .

وأراد الأمـير حسين إنكاء السلطان عامر ، وإخراب داره ودياره ، فحدثته نفسه بأخذ اليمن وحسن له ذلك من حوله من الجند (واللوند) وشرع في أسباب ذلك .

وممن قوي جأشه على ذلك أهل الجبال ، من طائفة (الزيدية) فانهم كانوا في ضيق وضنك عظيم ، مع عامر بن عبد الوهاب ، لفتكه بهم ، وقتله في كل وقت لهم ولأكابرهم ، فرأوا ذلك فرصة ، فنزلوا اليه ، وطلبوا منه مائتي رجل من (اللوند) وهم يقومون بجوامكهم ونفقاتهم ، ويركبونهم الخيــل .

---

(١) كمران : جزيرة معروفة بين عدن وجزيرة َفرسان ، قرب الساحل الشرقي .

وورد اليه صاحب (جازان) يومئذ وهو السيد الشريف عز الدين بن أحمد بن دُرَيب مع كثرة اختصاصه بعامر بن عبد الوهاب ، وتوالى الاحسان اليه ، فلم يَرْعَ له حرمة ، ولم يراقب فيه إلاً ولا ذمة .

ووفد إلى الأمير حسين أيضاً صاحب (اللُحَيَّة) الفقيه (أبو بكر بن مقبول) وقال له : نحن نفتح لكم الطريق ، من (بندر اللحية) . وقابل الأمير حسين ، ووعده بأن يكون دليله في الطرقات، وأمدّه بالميرة والمعونات، ولبس خلعته ، وتقدم أمامه .

وكان أهل اليمن لا يعرفون (البندقيات) ولا (المدافع) بحيث ان الترك في أول حربهم مع عسكر اليمن ، رموا بمدفع في جمع كبير من عسكر عامر ، يفوقون الألوف ، فراعهم ذلك ، وخافوا منه ، وانهزموا ، وأخذوا الحجَر معهم الى (زَبيد) يتفرجون عليه، ويفرّجون الناس عليه، ويتعجبون منه ، ويستعظمون أمره .

فوقع بين الترك، وعامر بن عبد الوهاب عدة حروب، وهو ينكسر فيها، كلها ، الى أن اخذ الأمير حسين (زَبيداً) ودخلها بعسكر كبير من الترك واللوند والمغاربة والمصريين والشاميين ومعهم أمير سلمان الرومي ومن انضاف اليهم من الزيديين وأهل جازان ، وذلك بعد حرب كبير ، وكان دخوله إلى (زبيد) ضحى يوم الجمعة ، تاسع عشر شهر جمادى الأولى ، سنة اثنتين وعشرين وتسعماية ، ومدّت العساكر يدها إلى النهب والغارة ، وحلّ بالمسلمين من ذلك بلاء عظيم .

وهرب عامر وأخوه عبد الملك ، وولده عبد الوهاب ، وقد مات تحت كل واحد منهم عدة أفراس ، وأبلوا بلاء عظيما ، وقاتلوا فلم يساعدهم المقدور ، وانهزموا جميعاً إلى (تَعِز) ، ومن أمرائه يومئذ علي بن محمد النظاري ، وحسام الدين عيسى الحَجْري ، وطائفة .

فلما هربوا ، واستولى الأمير حسين على (زبيد) صادر أهلها بعد نهبها ، وأمر (عوانيًا) عنده يقال له (طوغان) فكتب بيوت أهل (زبيد) ،

وأسماء أهلها ، وأخذ منهم أموالاً عظيمة ، واقام بزبيد سبعة وعشرين يوماً، وهو يصادرهم ، ويجمع منهم الأموال ، إلى أن أضعفهم .

ثم خرج يوم الخميس سابع عشر جمادى الآخرة إلى الساحل ، وأقام عشرة أيام ، وسار هو وسلمان الريس في الأغربة الى (عدن) ، لأخذها ، وولوا بدر الدين الحَجَبي على تعشير النخل بزبيد ،فظلم وغشم،وأخذ منهم الاموال، وأذاقهم شديد النكال .

وتولى في زبيد من مماليكه الأمير (برسباي) .

وعضده الشريف عز الدين صاحب (جازان) فمهد البلاد، وضبط العسكر الباقي بزبيد ، وأقام الى ثاني عشر شهر شعبان سنة اثنتين وعشرين وتسعماية ، ثم خيم خارج زبيد عند (باب الشبّارق) وخرج صحبته بالمدافع الكبار والصغار ، وأقام هناك خمسة أيام ، يجمع العساكر .

ثم سار إلى مدينة (حَيْس) [1] وضرب خيامه فيها ، ثم سار ومن معه إلى (مَوْزَع) فصالحه صاحب (موزع) الأمير عبد الله بن سلامة ، على مال دفعه اليه ، لئلا ينهب البلاد ، ولا يتعرض لأحد ، فدخل البلاد ، وقد تسلم المال ، فنقض العهد ، ونهب بيت الأمير المذكور ، وكانت فيه ودائع أهل البلد .

ثم رجع الى (زبيد) فدخلها يوم الأحد ثامن شهر رمضان سنة اثنتين وعشرين وتسعماية .



---

(١) حَيس : بلدة في تهامة ، مشهورة . جنوب زبيد .

الفصل الثالث

فيما وقع للأمير حسين ، وفي انقضاء دولة الجرا كسة

أما الأمير حسين فإنه توجه مع الريس سلمان في اثنين وعشرين (غراباً) و (فِليونـَين) الى بندر عدن وبها يومئذ الأمير مرجان العامري ، فوصلوا في ثالث عشر شهر رجب سنة اثنتين وعشرين وتسعماية .

وكانت عدن معمورة ، ترد اليها السفائن من بنادر الهند ، وبها التجار الكبار ، والأموال الجزيلة ، فصادف الامير حسين آخر موسم الهند ، وقد سافرت السفائن ، ورأوا قلاعهم وهي مسافرة ، فوجه اليهم سلمان أغـْربَة ، فأخذ مركباً منها ، كان لعامر بن عبد الوهاب ، فاستولى سلمان عليه ، ووضع فيه (ناخوذا) و (كرانيا) من قبله ، وجهز إلى (كـُجـْرات [١]) وأرسل فيه مكاتبات الى السلطان (مظفر شاه) يذكر فيها أن الأمير حسين أخذ اليمن ، وملكها ، وانه عائد بعد ذلك إلى الهند ، لأخذ (البرتقال) اللعين ، واجتمع عسكر الأمير حسين تحت حصن (صَبـِر [٢]) ورموه بالمدافع ، ورموا أكثر دُورِهِ ، ولم يقدروا على أخذه ، ولا على أخذ عدن ، وخرج أهل عدن ، ووقعت مقتلة كبيرة ، جرح فيها سلمان ثلاث

---

(١) كجرات : إقليم من أشهر أقاليم الهند .

(٢) صَبـِر : من أشهر حصون اليمن ، ولا يزال معروفاً .

جراحات ، ثم وقعت حروب أخرى ، وكان الحرب بينهم سجالا ، فوصل من (تَعِز) أخو عامر عبد الملك بن عبد الوهاب ، بعسكره ، ودخل عدن ، فأيس العسكر المصري من أخذ عدن، فأخذوا ما وجدوا حول عدن من المراكب ، وركبوا سفائنهم .

وعادوا في يوم السبت ، حادي عشر شهر رجب سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة ، وتوجهوا بما معهم من مال أهل اليمن والمنهوب ، الى (جُدّة) المعمورة ، واستمر حاكماً في (جُدّة) لا يد على يده ، ولا معارض له فيما يفعل ، وكان لا يخلو كل يوم من شنق ، أو توسيط ، أو شنكله ، أو نوع من أنواع السياسة ، وكلما نزل مكاناً يوضع له فيه المشنقة ، ومحل الشنكلة وآلاتها ، فيقع في يده من شاء الله من المظلومين ، فيتلفه بأدنى سبب ، وانقرضت في هذه الأثناء دولة الجراكسة .

ودخل إلى مصر السلطان الأعظم ، مولى ملوك العرب والعجم ، السلطان سليم خان ، بن بايزيد خان ، تغمده الله تعالى بالرحمة والرضوان ، في أول محرم الحرام سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة وقد انهزمت الجراكسة قبل ذلك في (مرج دابق) وفُقِد السلطان الغوري تحت سنابك الخيل ، واجتمع بقية السيوف منهم بمصر على (طومان باي) وانكسروا في (الرّيدانية) خارج مصر ، وهرب طومان باي ، ثم مسك ، فأمر السلطان سليم بشنقه على (باب زُوَيلة) وانتهت به دولة الجراكسة ، وذلك ابتداء الفتح الخاقاني ، وأول الملك العثماني ، بمملكة العرب ، أدامها الله تعالى .

وكان مولانا المرحوم المقدس السيد بركات رحمه الله تعالى ، أرسل ولده سيدنا ومولانا الشريف (أبا نُمَيّ) نصره الله تعالى ، لتقبيل بساط السلطنة وسِنّه إذ ذاك ثلاث عشرة سنـــة ، فقوبل من (الخندكار) [1] الأعظم بالتبجيل والاكرام ، وتيمن بطلعة شريف مكة ، وفرح بوصوله إلى ركابه

---

(١) الخندكار (الخنكار) : السلطان .

العلي ، وأمر له بكتابة الأحكام السلطانية على حسب المراد ، فشرفاء مكة في بركة تلك الأحكام إلى الآن، وكتب معه حكماً سلطانياً، بقتل الأمير حسين الكردي ، أمير (جدة) ورجع مولانا السيد الشريف (أبو نُمي) مجبوراً مسروراً إلى مكة ، وزينت لقدومه البلاد ، وفرح الناس لانقضاء دولة الجراكسة ، لكثرة ظلمهم ، وتعديهم على الشرع الشريف ، وتركهم العمل بآية المواريث ، واستيلائهم على التركات ، وحرمان الأولاد فضلاً عن البنات والعصبات ، ولذلك أخذهم الله تعالى ، فقد حكى لي والدي رحمه الله تعالى عن شخص مجاب للدعوة ، من أولياء الله تعالى ، أنه رأى بمصر جركسياً أخذ من دلاّل متاعاً ، بدون قيمته ، فلم يرض الدلاّل بذلك ، وقال له : بيني وبينك شرع الله تعالى ! ، فضربه بالدبّوس إلى أن أدمى رأسه وشجها ، قال الرجل : فدعوت الله تعالى على ذلك الجركسي ، وكنت أشاهد أمثال ذلك قبل هذه القضية ، خصوصاً في أمر المواريث ، فإنهم كانوا لا يورثون احداً ، وانتهى حالهم بالتدريج الى أن صاروا يستولون على أموال الميت جميعه ، ويحرمون أولاد الصلب ، فضلاً عن غير الأولاد من الورثة ، قال : فبت على طهارة ، مفكراً في أمرهم ، داعياً الى الله تعالى بزوال دولتهم ، وولاية من يرفق بالمسلمين عليهم ، وأخذني النوم ، فرأيت في النوم مَلَكاً نزل من السماء ، وبيده مِكنَسَةٌ وهو يكنس الجراكسة ، ويلقيهم الى بحر النيل ، فعلمت أن دولتهم قد انقضت ، فما مضى لي تكميل عام ، إلا وشاهدت (اوطاق) السلطان سليم على جنب النيل ، وعسكره يأتونه بالأسارى من الجراكسة ، فيأمر بضرب أعناقهم ، الى أن صارت رؤوسهم كالأكوام الكبيرة ، وهم يلقون جثثهم في بحر النيل ، لئلا يعفن الهواء بها فيحصل الوباء ، ثم يتبعونها بإلقاء رؤوسهم أيضاً في البحر ، يدحرجونها ، وفي ذلك عبرة لمن اعتبر ، وموعظة يَزْدَجر بها الغافل أيّ مزدجر ، ويقال : ان المرحوم السلطان سليم خان ، سقى الله عهده صوب الرحمة والرضوان ، أرسل الى الغوري

مصحفاً لم يكتب فيه آية المواريث ، تعريضاً بأنه محى حكم المواريث في مملكته ، وهذا الأمر لم يشتد الا في سلطنة الغوري ، ثم تزايد في آخر أيامه ، عند انقراض دولته ، فكان سبباً لزوال ملكه ، فليحذر سلاطين الاسلام من ذلك ، فإنه الموت الزوءام ، ويواظبوا على تأييد شرع محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، فمن أيــد الشرع الشريف ، وبسط العدل على القوي والضعيف ، ومنع المظالم ، وكف عن المظلوم يد الظالم ، وعمل بكتاب الله وسنة رسوله ، دام ملكه ، وانتظم فيما بين الملوك سلكه ، فإن العدل إن دام عمّر ، والظلم إذا قام خرّب ودمر ، والملك يدوم مع الكفر ، ولا يدوم مع الظلم .

ولما ورد مولانا السيد الشريف (أبو نُمَيّ) ومعه السيد عَرّار بن عِجْل بن عرار النموي الى مكة المشرفة راجعاً من لثم ركاب السلطنة الشريفة السليمية العثمانية بمصر ، بالأحكام الشريفـة السلطانية ، ومعها الخلــع السلطانية ، لمولانا الشريف (بركات) رحمــه الله تعالى قرئت المراسم الشريفة بالحطيم باستقرار مولانا السيد بركات على الحرمين الشريفين ، والاقطار الحجازية ، وبندر جدة المعمورة ، مفوضاً اليه جميع أمورها من الولايات ، والعزل ، وغير ذلك ، بالعرض الى الأبواب السلطانية ، ولبس السيد الشريف الخلعة السلطانية ، وطاف بها البيت الشريف ، ودعا له الريّس على زمزم وتوجه الى (دار السعادة) والفقهاء حوله ، وهنأه الناس بالولاية الجديدة والخلعة السعيدة ، وخطب الخطيب على المنبر ، باسم السلطان الأعظم سليم خان ، وقرت العيون ، وزالت الغبون ، ثم جلس السيد عرار في (مقام الحنفي) وطلب الأمير حسين ، ليسمع الأحكام السلطانية ، فجاء حاسراً ذليلا ، بعد ذلك التيه والعظمة بحيث حكى لي من رآه لما دخل الحرم الشريف ، لم يجد من يقدم له (تاسومة) قال فحنّ خاطري عليه ، وقدمت له (تاسومتي) فلبسها فلما وصل إلى السيد عرار لم يقم له ، وقال له : ورد حكم السلطان نصره الله تعالى ، ان يجهزك إلى مصر . فقال : السمع والطاعة

فرسم عليه بعض العبيد، وكان في ترسيمهم، الى أن نزلوا به إلى جدة وأركبوه جلبة ، فلمـــا وصلوا به الى بين (العلمين) غرقوه في البحر هناك واكلته الحيتان ، ومزق أديمه الحدثان ، وتسحب خدامه وذووه ، وذهبوا بدداً (ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربّك احداً) ولم يبق للجراكسة أثر بمكة ، وهرب من نجا منهم الى (اليمن) ، ولحقوا بالأمير (برسباى) في (زَبيد) فاجتمعوا هناك ، وصارت لهم شوكة وظلموا الناس ، وقهروهم ، وجمعوا الأموال ، وتقووا بطوائف (الزيدية) وبصاحب (جازان) وجمعوا الجموع لمحاربة السلطان عامر بن عبد الوهاب وذويه ، والملك بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله على كل شيء قدير .



الفصل الرابع

في ذكر برسباي وما وقع له واستشهاد عامر

لما عاد الأمير حسين من عدن ، إلى جدة ، وأقام برسباي نائباً في زَبيد ، استفحل أمر برسباي ، وقويت شوكته ولحقته بقية السيوف ، ممن هرب إلى اليمن من الجراكسة، وقوى برسباي فتتبع عامرا وذويه ، واخذ في أهبة الحرب والقتال ، ليستصفي جميع المملكة لنفسه ، وقدر الله جارٍ على عباده وقضاه نافذ في أرضه وبلاده ، فتحرك عامر وأولاده وأخوه عبد الملك فجمعوا العساكر ، وحصنوا البلاد ، واجتمعوا في تعز فخرج الأمير برسباي بمن معه من الترك واللوند والمغاربة ومن وافقهم من طائفة الزيدية ، وصاحب جازان وقبائله ، فتوجهوا إلى تعز لمحاربة عامر وذويه ، وكان وصولهم الى مدينة تعز صبح يوم الجمعة ، سادس شهر صفر ، سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، فلما ترآى الجمعان أحس السلطان عامر بالغدر من بعض جماعته ، واتهمهم بذلك ، فولى من غير حرب ولا قتال ، إلى جهة إبّ وجِبْلة ، ودخل برسباي بمن معه الى (تعز) واستباحوا الرعية ، قتلاونهباً، وصادروا التجار والمتسببين ، الى ان استصفوها ، ثم استناب الامير برسباي في تعز وأعمالها الأمير (آقباي) وخرج بمن معه من العسكر الى جهة المقرانة، وهي قلعة حصينة ، فيها خزائن عامر بن عبد الوهاب ، وذخائره وأمواله ، فعارضهم عامر ، وسبق الى المقرانة ، وأخذ معه ما خف حمله من الجواهر ،

وترك الباقي ، وأحرق ما يمكن إحراقه ، بحيث يقال : لمـــا أحرقوا الفوط المقصبة بقصب الذهب ، سال الذهب منها كالسواقي ، وصارت سبائـــك ، فتركوها، وتركوا ما لا يمكن إحراقه ولا حمله، وفرّ هو ومن معه إلى إبّ وجبلة وأراد أن يتحصن عامر في حصن حِبّ فسبقه الى الحصن الأمير شمس الدين محمد النضاري ، وتحصن فيه ، ومنع عامر منه ، واستمر حصن حب بيده ، وبيد أولاده من ذلك العهد إلى أن أخذه محمود باشا بعد ذلك من عـلي بن عبد الرحمن بن محمد النضاري ، في سنة سبعين وتسعمائة ، بعد حصار كبير كما سيأتي بيانه ، وإنما أخذه غدراً ، فكما غدر جدُّهُ بعامر ، غُدِرَ بـأولاده من بعده . والدنيا هكذا قرضٌ بوفاء ، وسيأتي شرح ذلك مفصلا إن شاء الله تعالى ، والسعيد من تيقظ ، والعاقل من وُعِظَ بغيره فاتعظ .

ولما وصل برسباي الى (المقرانة) استباحها ، وأخذ أموالها ، وكل ما وجده بها ، وكانت جملة مستكثرة ، وظفر برسباي أيضاً بجماعة كانت عندهم ودائع لعامر بن عبد الوهاب ، فأخذها منهم ، وتوجه الى قتال (بني عمار) طائفة كبيرة ، شجعان أصحاب خيل ورجل ، وأقام على المقرانة نائباً عنه الأمير اسكندر مملوك الأمير حسين ، وخرج إلى بلاد بني عمار بمن معه من العسكر ، فلم ينل منهم شيئاً ، وقاتلوه قتالا شديداً ، وقتل جماعة كثيرة من عسكره ، وكثير من أشراف جازان ، الذين ناصروه ، ورجع عنهم القهقرى وجمع الجموع وتوجه لأخذ صنعاء؛ فلما سمع عامر بن عبد الوهاب بانهزامه من بني عمار ، استخفه الفرح ، وطمع في قتاله ، وتوجه بمن معه من العسكر يحث سيرا حثيثاً خلفه ، فلما علموا بوصوله قصدوه قبل أن يحط الأحمال ، وكان عامر وعسكره منذ ثلاثة أيام ، يطردون الخيل خلف عدوهم ، وهم في غاية التعب ، وكانت وقعة عظيمة ، فاستشهد فيها الملك الظافر صلاح الدين عامر ابن عبد الوهاب ، وأخوه عبد الملك ، وأكثر من معه من الامراء ،وتشتت الباقون ، وأسر أولاده . وبذلك انقرضت دولته ، وانتهى ملكه ، وذلك في يوم الجمعة الثالث والعشرين من ربيـع الآخر سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ،

وكان ملكاً شهماً فاضلا ، يميل الى العدل ، ويكره الجـــور ، ويرى إكرام العلماء ، ويحسن اليهم ، ويقتني الكتب الكثيرة ، ويشتريها ، وتهدى اليه ، وتجلب له من الأقطار الشاسعة .

وقد وفد اليه جماعة من العلماء أكرمهم وأحسن اليهم ، منهم شيخنا آخر العلماء المحققين ، مولانا علاء الدين محمد الكرماني النقشبندي ، وألّف باسمه رسالة في التعبير ، وقدمها اليه ، وأنعم عليه فيها بألف دينار ذهباً ، غير ما أجرى عليه من النفقة الى حين ذهابه من عنده ، وأكرم نزله وأغدق عليه ، وهو من أجلاء تلامذة مولانا علي القوشقجي ، وعاد من عنـــده الى مكة وجاور بها إلى أن توفي بها سنة تسع وعشرين وتسعمائة .

أدركته وأخذت عنه ، وكان شيخاً مقعداً بصيراً نورانياً ، له مكاشفات رحمه الله تعالى، وله تربة في المعلاة معروفة تزار، يستجاب الدعاء عندها[1]، وله تصانيف في الهيئة والكلام والتصوف ، وغير ذلك رحمه الله تعالى بحيث حكى لي بعض مشائخي ان السلطان محمد خان رحمه الله تعالى ، التمس من مولانا علي القوشجي ان يعمل له زيجاً فقال له : ان هذا الأمر يحتاج الى مهَرة من علماء الفلك، يساعدوني في عمله، اعلم من عرفته الآن من تلاميذي، مولانا علاء الدين الكرماني ، وقد ترك العلوم الرسمية ، واشتغل بالتصوف ، وكتب كتاباً في (مقابلة المثنوي) وجاور بمكة ، منقطعاً الى الله تعالى ، ولا يمكن مجيئه الينا لمساعدتنا بعمل الزيج ، فأعرض السلطان محمد خان رحمه الله تعالى عن ذلك .

ولما انقرضت دولة عامر بن عبد الوهاب أسف الناس على فقده ، ورثاه جماعة من العلماء ، فمن ذلك قول عالم اليمن ومسندها ، ومحدثها ، الشيخ وجيه الدين عبد الرحمن بن الدّيبع بفتح الدال المهملة فالياء المثناة التحتية

---

(١) الدعاء عند القبور بدعة منكرة ، فالميت بحاجة الى من يدعو له ، ودعاؤه شِرك أكبر .

الساكنة فالباء الموحدة المفتوحة آخرها عين مهملة ومعناه بلغة السودان : الأبيض .

رحمه الله تعالى ، فانه كان غرس نعمته ، وربيب دولته ، فقال :

أخلاّي ضاع الدين من بعد عامر وبعد أخيه أعدل الناس في الناس
فمُذ فقِدا والله واللّه اننـــا من الأمن والسلوان في غاية الياس

وله أيضـــاً :

تحطّم من رُكن الصلاح مشيدُه وقُوّضَ من بُنْيانه كلُّ عامر
فما من صلاح فيه بعد صلاحه ولا عامرٌ واللهِ مَن بَعْدِ عامر

وفيه مراثٍ كثيرة واستمر يُرثى بعد تطاول زمان وفاته أيضاً ، بحيث اني سمعت بعد سنة أربعين وتسعماية وأهل اليمن ينعونه بمراثي ، جعلوا لها طرائق يغنون بها ، وقد ترجمه الحافظ السخاوي في « ضوئه » وأثنى عليه ، وترجمه الحافظ الديبع في آخر كتاب « الفضل المزيد في تاريخ زبيد » وفي تاريخه « بغية المستفيد » بأخبار مدينة زبيد ، واثنى عليه كثيراً رحمه الله تعالى وسقى عهده .



الفصل الخامس

في قتل الأمير برسباي وولاية الأمير اسكندر الجركسي

لما استشهد عامر بن عبد الوهاب ، وصفت المملكة للترك ، كان من أكبر الجراكسة إذ ذاك الامير برسباي ، مملوك الامير حسين ، وبعده الامير اسكندر ويسمى المخضرم ، وبعده رومي من (اللوند) أهل البحر ، يقال له الامير رمضان الرومي ، أما الامير اسكندر المخضرم الجركسي ، فإنه استقر في (المقرانة) وتتبع ما بقي من أموال عامر بن عبد الوهاب ، فظفر بالفقيه عمر الجبرتي، أحد خواص عامر ، فدله على مال عظيم لعامر ، مدفون تحت الارض ، فاستخرجه ، فقسم بعضه على عسكره ، وتقوى به ، وسيأتي بقية أخباره قريباً .

وأما الأمير برسباي فاستمر بمن معه إلى صنعاء،وكان فيهاالأميرعلي بن محمد البعداني ، نائباً عن عامر في صنعاء وجهاتها ، وأعمالها وكان متأثلا ، صاحب جنود وخزائن ، فدخل برسباي وعسكره إلى صنعاء واستولوا على أهلها وقتلوا ونهبوا وأمسكوا الأمير علي البعداني ، واستصفوا أمواله وذخائره وعذبوه بانواع العذاب ، واستخلصوا جميع ما معه ثم قتلوه ، واستمروا شهرين في صنعاء ، وهم يصادرون اهلها ، ويظلمونهم ، الى ان جمعوا ما لا يحصى من الأموال والذخائر ثم قصد الأمير برسباي الرجوع الى زَبيد فجعل

في صنعاء رتبة نحو المئتين من العسكر وامر عليهم اميرا، وتوجه بجميع مـــا حازه من الخزائن، مما نهبه وحصله من صنعاء من الأحوال والأموال والنفائس والذخائر واللؤلؤ والنقد بحيث حمل ثمانية آلاف بعير لخاصته ، غير الذي مع كل واحد من عسكره فساروا على طريق (نجارة) فلما توسطوا المضيق خرج عليهم جموع بني حُبيش وغيرهم من العربان واخذوهم على غزة وقتلوا منهم أبطالهم وشجعانهم وقتلوا برسباي ومن معه من خواصه ، ونهبوا جميع تلك الأموال ، فتفرقت أيدي سبـــا ، وذهبت شذر ومذر ، ولله عاقبة الامور ، وهرب بقية السيوف منهم مكسورين منهوبين ، فهلك منهم من هلك ، ووصل الباقون الى مدينة زَبيد ، في الليلة التاسعة والعشرين من جمادى الآخرة ، سنة ثلاث وعشرين وتسعماية ، وولوا عليهم (اسكندر الجركسي) .

وأما الامير رمضان ومن معه من طائفة (اللوند) للأروام فأظهروا الدولة الرومية ، وتزيا هو ومن معه بزي الاروام، واستمر الامير اسكندر والياً على زبيد وحواليها ، بمن بقي معه من العسكر ، وتزيا أيضاً بزي الاروام ، وبهذا يسمونه المخضوم ، فانه لحق دولة الجراكسة وأول دولة اللوند من الاروام ، وورد اليه حكم من قبل السلطان سليم خان ، بأن يكون والياً على بلاد اليمن، أرسله اليه نائب مصر ، من قبل السلطان سليم خان ، إذ ذاك ، وهو ملك الامراء (خير بك) فأطاع وامتثل ، وزاد في اظهار الشعار العثماني،وصارت الخطبة باسم السلطان الاعظم ، سليم خان ، غير أن أمراء اللوند كانوا يذكرون امراءهم في الخطبة ، بعد ذكر السطان ، واستمر اسكندر ثلاثة أعوام على ذلك ، إلى أن ورد الامير حسين الثاني الرومي نائب جدة .

الفصل السادس

في ذكر توجه الأمير حسين الرومي نائب جدة الى اليمن ، وعوده الى جدة

كان الأمير حسين هذا رجلاً فاضلاً كاملاً من أمراء السناجق ، الذين وردوا مع المرحوم السلطان سليم خان ، إلى مصر ، وكانت له وجاهة عند ملك الأمراء خير بك بمصر ، فولاه سنجقاً بجدة ، بعد وفاة الأمير قاسم الشرواني ، أول أمراء الأروام بجدة ، فلما ورد اليها رأى في جدة عدة مراكب وأغربة ومدافع ومكاحل ، وآلات القتال ، الذي أرسلها السلطان الغوري ، مع حسين الكردي ، ووصلت الى الهند ، ثم الى اليمن ، ثم عادت إلى جدة ، وصارت مودعة في الفرضة السلطانية ، في جدة ، ووجد بها (زردخانة) كاملة من آلات الحرب والبارود ، وسمع أن اليمن خالية ، فطمع في أخذ اليمن ، فأرسل الى مصر يستأذن ملك الامراء (خير بك) في ذلك فأذن له ، فاستعد لذلك وتوجه إلى اليمن في سنه ست وعشرين وتسعمائة ، فلما وصل إلى اليمن صادف وصوله خبر وفاة المرحوم السلطان سليم خان ، سقى الله عهده صوب الرحمة والرضوان ، وخبر ولاية المرحوم السلطان سليمان خان ، اسكنه الله تعـالى فراديس الجنان ، فأراد الأمير اسكندر قتاله ، وتهيأ لذلك ، ولم يوافق على استيلاء الأمير حسين على البلاد ، وكان الأمير حسين رجلاً عاقلاً ،رأى اختباط الملك في ذلك الوقت ، واراقة الدماء ، فرجع الى جدة من غير قتال .

الفصل السابع

في ذكر قتل الأمير اسكندر المخضرم ، وولاية كمال بك الرومي ، وقتله ، وتولية اسكندر بك القرماني

كان كمال بك هذا (ينكجرياً) من عسكر المرحوم السلطان سليم ، ماشياً قدامه مع العسكر ، عند دخوله الى مصر وفتحه لها ، فلما توجه سلمان الريّس الى اليمن ، توجه معه في جملة (اللوند) ، وترقى أمره هناك إلى أن صار أميراً مهيباً ، فاتكاً ، مشاراً إليه ، فتقدم إلى الأمير اسكندر في الديوان ، فأظهر أنه يريد أن يستأذنه ، فاختلى به وقطع رأسه ، وأظهر أنه خان السلطنة ، وأنه لم يطع الامير حسين ، الذي ورد من قبل السلطان سليمان ، والياً على اليمن ، وان الامير حسين أمره بهذا الفعل ، لما سبق منه من عدم الإطاعة ، وكان ذلك في سنة سبع وعشرين وتسعمائة ، وولي هو موضعه ، واستولى على أمواله وخزائنه ؛ وخطب باسم السلطان سليمان خان، وضبط زَبيد ونواحيها ، واستمر في (تَعِزّ) ونواحيها الامير رمضان بمن معه من معسكر ، هكذا ، الى سنة ثلاثين وتسعمائة ، وبنى مدرسة سماها (الكمالية) في زبيد .

ذكر قتل الأمير كمال ، وولاية اسكندر القرماني

كان باليمن طائفة من اللوند ، أهل شوكة وقوة ، أرادوا الاستبداد بالملك ، والاستيلاء عليها ، فجاؤا الى كمال بك في زبيد فقتلوه ، وولوا عليهم واحداً منهم اسمه اسكندر بك القرماني ، وقتل طائفة منهم أمير (تعِز) ، يومئذ رمضان بك ، وولوا مكانه (دلو علي بك الطويل) ، وذلك في شهر صفر سنة ثلاثين وتسعمائة ، وكانت الخطبة باسم السلطان سليمان ، ويذكرون بعده اسكندر بك القرماني ، وصارت البلاد مُخبّطة غاية التخبيط ، وأهل زبيد في قهر وذل ، ومصادرة ، مع هذه الأمراء ،والعربان مستولية على البر ، والطرقات منقطعة ، لا يسلكها أحد إلا بخفير منهم .

الفصل الثامن

في ذكر عصيان أحمد باشا بمصر ، وتَسَحُّبِ سلمان الريس خوفاً ، ووصوله الى مكة ، وتوجهه هو والامير حسين الرومي ثانياً من جدة ومعه سلمان الريس الى اليمن

كان حصل في مصر اختباط بسبب عصيان احمد باشا على السلطنة ،وسبب ذلك ان السلطان سليمان لما ولي السلطنة ،قدّم للوزارة العظمى مملوكه ابراهيم باشا ، وكان أحمد باشا مملوك السلطان سليم والده مقدماً عليه في المرتبة ،وكان شهماً شجاعاً مهيباً ، ذا نفس أبيّة ، فأبى من تقدم إبراهيم باشا عليه ،وجلس فوقه ، في صدر الديوان ، مقام ابراهيم باشا ، وكان يُـدِلُّ إدلالاً عظيما على حضرة السلطان ، فدخل عليه ، وشكى أحمد باشا ؛ فأمره السلطان أن يوليه مصر ، وأن يتوجه اليها لضبطها وحفظها ، ويخلو الدست لابراهيم باشا؛ فتوجه أحمد باشا الى مصر . فبعد توجهه ، أعمل إبراهيم باشا الحيلة في قتل احمد باشا ، وكتب أحكاماً سلطانية إلى الأمراء المحافظين بمصر ، أن يجتمعوا عند أحمد باشا ، ويقطعوا رأسه ، ويرسلوها إلى الباب العالي ، ويضبطوا البلاد إلى أن يرد عليهم باشا جديد ، فلما وصلت الاحكام مع (جاويش) الى الاسكندرية ، وكان واليها مملوكاً لأحمد باشا ، أحب الاطلاع على ما معه من المكاتبات ، فأضافه ، وأحضر له الشراب ، وأسكره هو وجميع من معه من

أتباعه ، فلما غلب عليهم السكر ، فتش حوائجه ، وأخذ الأحكام ، واطلع على ما فيها ، وأرسلها الى استاذه أحمد باشا الى مصر ، فلما اطلع أحمد باشا على ما في الأحكام ، أرسل إلى الأمراء الذين أمروا بقتـــله ، أحضرهم كلهم عنده ، وأمر بقتلهم ، فقتلوا ، وعصى ، وأظهر شعار السلطنة ، وضرب السكة ، وخطب باسم نفسه ، وقتل من قدر عليه من مماليك السلطان ، واستبد بالأمر ، وصادر التجار واليهود ، وجمع الأمـوال والخزائن ، وأخذ قلعة مصر، بعد حرب كبير مع من كان بها من (الينكجرية) ، ثم انه نزل إلى الحمام ، وكان يرصده طوائف من غرض السلطنة الشريفة ، ومنهم جانم بك الحمزاوي ، والأمير محمد بك ، فاجتمعا ، وأحاطا بالحمام ، ورفعا (سنجقاً) ونادوا : من أطاع السلطان سليمان فليقف تحت هذا السنجق ، فوقف تحته كثير من العسكر ، ووصل الخبر اليه في الحمام ان العسكر السلطاني أحاط به، وكان حلق نصف رأسه ، فهرب الى سطح الحمام ، ثم منه إلى سطح آخر ، ثم نزل الى الأرض ، وأدركه بعض مماليكه بفرس ، فخرج إلى البر ، ووصل الى شيخ العرب ، عبد الدايم بن بقر ، مستجيراً بــــه ، وتقوّى العسكر السلطاني ، ونهبوا خزائنه وأمواله ، وساقوا خلفه برّاً وبحراً ، واحـــاطوا بابن بقر ، وهددوه ، فأتاهم به ، فأمسكوه ، وقطعوا رأسه ،وطـــافوا بها مصر ، وأرسلوها الى الأعتاب السلطانية ، وكانوا قد هيأوا عسكراً يجهزونه الى مصر ، فاكتفوا عن ذلك (وكفى الله المؤمنين القتال) وكان ذلك في سنة ثلاثين وتسعمائة .

وألطف ما سمعت في تاريخ قتله بيتاً بالفارسية :

كشت شد جونكه او بنامردى   كشت تاريخ قتل (او قتلت)[1]

وكان سلمان الريس في مصر ، في ابتداء هذه الفتنة ،فلما أحس بها تسحب الى مكة ، وحسن للامير حسين الرومي نائب جدة العود الى اليمن والاستيلاء

(١) . كلمة (او قتلت) هي التارخ وتساوي بحساب الجمل [او = ٧ - ق = ١٠٠ - ت = ٤٠٠ - ل = ٣٠ - ت = ٤٠٠ = المجموع :] ٩٣٧ هـ

عليها ، وكانت العدة موفورة بجدة ، فلفقا عسكراً ، واستمدا ، وتوجها الى اليمن ، وهذا ثاني دخول اليمن للامير حسين الرومي ، ولسلمان الريس .

وكانت الفرنج تكمن في جبل(كَمَرَان)[1]ويتخطفون المسلمين من السواحل وينهبون ما يقدرون على نهبه ، فلما وصل سلمان الريس دفع ضررهم ، وقتل منهم جماعة ، وأسر جماعة ، ونظف ساحل اليمن منهم،وأرسل الى اسكندر بك القرماني ، يطلب منه الطاعة ، فأبى العسكر من ذلك، وكان في خاطره الميل بالخفية الى سلمان ، والامير حسين ، غير ان العسكر ما مكنوه من ذلك ، فوافقهم ظاهراً ، وأرسل بالخفية الى الامير سلمان ، والى الامير حسين بالموافقة ، فأرسل سلمان الى طائفة (يافع) و (المهرة) يستعين بهم على الترك الذين في (زبيد) فأتوا إليه واستخدمهم ، وصاروا جنده،وأرسل الى السيد عز الدين صاحب (جازان) يستعين به ايضاً ، وكان بينهما محبة ومودة سالفة من ايام حسين الكردي، فأتى اليه بخيله ورجله وسلاحه وخرج الترك الذين في زبيد لقتال سلمان فتوجه اليهم واقام الامير حسين الرومي لحفظ الأغربة ، والبرشات ، وما فيها من العدد ، ومعه جانب من العسكر، واجتمع سلمان مع من وصل اليه من يافع والمهرة بحراً ، والسيد عز الدين صاحب جازان برّاً من قرية المراوعة ،وخرج الامير اسكندر القرماني لمحاربة سلمان ، ومعه جميع ترك زبيد ، ووقع بينهم حرب كبير ، فانهزم اسكندر القرماني ومن معه ودخلوا الى زَبِيد ، وغلقوا ابوابها ، فأحاط سلمان بزبيد ، واراد احراق ابوابها،والدخول عليهم،فطلبوا منه الأمان، فأمنهم، ودخل الى زبيد، واوقفأمير جازان عز الدين ابن دريب خارج زبيد،وامسك اسكندر القرماني ونفاه ، ووقع بين سلمان والامير عز الدين صاحب (جازان) مخالفة ووقع بينهما حرب كبير ، قتل فيه من عسكر سلمان ما يزيد عن المائتين من الأورام ، وقتل السيد عز الدين صاحب جازان ، في المعركة ، واستولى

---

(١) هي جزيرة معروفة .

سلمان على زبيد ، يصادر أهلها ، ويتبع أهل الفساد ، الذين تعصبوا عليه أولاً ، واستدعى الأمير حسين فجاء ، ورفق بأهل البلاد ، فانه كان يميل الى الخير والعدل ، فانثالت عليه الناس ، وكبر أمره ، فخاف سلمان على نفسه ، وفر الى البحر ، واستولى الامير حسين على البلاد، من شهر رجب سنة ثلاثين وتسعمائة ، وطمن البلاد ، وشتت أهل الفساد .

ثم في سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة عصت العربان وَعتتْ ، وقطعت الطرقات واعتدَتْ ، وعم ضررهـا وزاد شرها ، فبرز بنفسه إلى قتالهم ، وتبعهم الى محالهم ، وشتت شملهم ، وأخذ خيلهم ورَجْلهم ، وطمن الرعايا، وأمن البرايا ، وعاد مظفراً منصوراً ، محمودا في سيرته مشكوراً .

وكان صاحب تعز الأمير الأشرفي ، فأرسل إلى الامير حسين يطلب منه بعض الخزينة ، للصرف على من عنده من العسكر ، فـــأبى منه ، فأحدث مكوساً زائدة على الرعايا ، ومد يده الى المصادرة على الناس ، فلما بلغ الامير حسين ذلك لم يرض بفعله ، فتوجه اليه ، وقاتله فقتله ، وقتل اغراضه من أهل الفساد ، واستقل بالبلاد، وشكره الناس على ذلك وجاء في أثناء ذلك الأحكام الشريفة السلطانية .

فإن أحمد باشا لما قتل بمصر ، جاء الوزير الأعظم إبراهيم باشا إلى مصر ، لإصلاح ما فسد من أحوال مصر ، والنظر في أموال السلطنـــة ، وأحوال الرعية، وكان ممن وصل إليه من اليمن سلمان الريس، وأخبره بأحوال اليمن، وانها مملكة بلا رأس (سلطان) وان الامير حسين استولى عليها، وانه لا يصلح لذلك، لأنه عاجز عن حفظها ، وأكثر الحَطّ على حسين بك ، حيث استأثر باليمن دونه ، وكان سبباً لإخراجه من اليمن ، وطلب عسكراً يأخـــذ به اليمن ، ويأخذ الفرنج الذين بالهند أيضاً ، فوعده بذلك ، لكنـــه أرسل إلى الأمير حسين حكما سلطانياً ، باستمراره على البلاد ، يستميله بذلك ، ليغره ، حق

يأخذ بيد سلمان ، فوصل اليه الحكم المذكور ، وقويت به شوكته، وازدادت مكانته ورفعته ، وتمكن من البلاد ، وأحسن ضبطها ، وعمرها،وأزال خللها، وكان يحب العلماء ، ويعتقد الصلحاء والأولياء ، ويطيع الشرع الشريف ، ويتلطف بمداراة القوي والضعيف ، فأحبته أهل اليمن ، وسكنت في أيامه نيران الفتن .



الفصل التاسع

في ذكر وفاة حسين بك ، وولاية مصطفى بك، ووصول سلمان من مصر بالعسكر الجرار الى اليمن ، وما حدث بها من أنواع الفتن

قدر الله سبحانه وتعالى بقضائه المحتوم المبرم ، وحكمه النافذ على جميع البرايا والأمم ، بوفاة الأمير حسين ، في سنة اثنين وثلاثين وتسعمائة ، وذلك بعد مرض طويل ، وتوعك زايد مستطيل ، فلما أحس بالرحيل ، وانه قادم على الدب الجليل ،أوصى بالخيرات ،وقدم الاحسان والصدقات ،وأقام بدله الأمير مصطفى الرومي ، واقام الخواجا محمود خواجته كالوزير معه ؛ وأمر الأمير مصطفى ان يستشير محموداً في جميع الأمور ، فأسكنا رجّ البلاد ، ودفعا داعية الفساد ، واستمرا على ذلك إلى وصول سلمان من مصر .

وكان من خبر سلمان انه لما تسحب من اليمن ، ووصل الى الوزير الأعظم ابراهيم باشا بمصر ، ودبره في ارسال عسكر معه ، ليدفع به أذى الافرنج ، ويأخذ اليمن في ضمن ذلـــك ، ويحصل الأموال والخزائن للسلطنة الشريفة ، فاطاعه ابراهيم باشا وكتب له من اللوند الاتراك أربعة آلاف نفس ، وجهزهم معه في أغربة الى جدة ، ليسافروا منها الى الهند ، وإلى اليمن ، وكان عسكراً ملفقاً من كل نوع ، من الأساكفة والصناع ، وقطاع الطريق ، والجهال من الشباب ، وغير ذلك ، ولكل عشرة أنفس منهم رأس يسمونه (بلوكباشي)

ولكل خمسين منهم رأس له بيرق ، يكونون تحتــه ، وعلى الجميع سنجق سلطاني ، اسمه خير الدين حمزة ، وكان لا يخلو من خير، وجعل سلمان الريس قبطاناً على الجميع ، فوصلوا إلى جدة في شهر رمضان ، سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة، وكان ذلك في ابتداء دولة المقام الشريف العالي ، نجم الدنيا والدين الشريف محمد ابي (نُمَيّ) ادام الله تعالى عزه وسعادته،وأيد دولته وإيالته، فلما دخل سلمان جدة عاث اللوند فيها ، وصاروا يتعرضون للعرب ، وينهبون الأسواق، فانقطعت الميرة عن مكة،فحصل فيها قحط شديد ، وغلاء عظيم ، بحيث صار تاريخاً عند أهل مكة فيقولون : سنة سلمان . وأضر ذلك بالناس جداً وارتفعت الأسعار ، وفقدت الأقوات من الأسواق ، ووصل قدح القمح خمسة محلقة، والرطل السمن اثني عشر محلقاً، ولكنه لم يدم زمانه،ولم يطل، فحصل الفرج ، من الله تعالى في وقت الحج ، ونزلت الأسعار ولله الحمــد والمنة ، وتفرق عسكر سلمان ، ووصــل طائفة منهم الى مكة وسكنوا بيوت الناس قهرا واخرجوا اهلها منها ، وكثروا بمكة ، وكثر اذاهم بها، وتسلطوا على السوقة، وعلى العرب فتسلط العرب عليهم، عند (بير شميس) وصاروا اذا خرجوا من حدة بالحاء المهملة خرج عليهم العرب من الشعاب عند بئر شميس ، وهجموا وقتلوهم وسلبوهم، الى ان قتلوا منهم مقتلة كبيرة وتعفنت طرق جدة باشلائهم ، وصارت طريق جدة مخوفة ، وترك السيد الشريف صيانة طريق جدة لبذاءة سلمان وجماعته على قواد السيد الشريف واتباعه بمكة وجدة ، فأغتنمت العربان ذلك ، وصاروا يقطعون الطريق على اللوند ، ويفتكون بهم ، الى ان قتل في ضمنهم تاجران كبيران معتبران ، أحدهما : الخواجا شيخ علي الكيلاني ، والثاني الخواجا محمد شاه قوام اللاري ، وكانا من خيار الناس احسانا، وتفقدا للفقراء ، فأسف الناس عليهما وأمر حينئذ السيد الشريف بالكف عنهم ، ومنع العربان عن التعرض لهم ولغيرهم ، ولكن اعفنت طريق جدة من جثث الموتى، فأرسل الشيخ العارف بالله تعالى ، ولي الله على الاطلاق ، الشيخ محمد بن عراق ، قدس الله روحه ،

ونور ضريحه ، طائفة من اتباعه وفقرائه ، لدفن الاموات في طريق جدة ففعلوا ذلك ولم يحسر على ذلك احد غيره رحمه الله تعالى ، لاختلاف الطريق، وشدة المخافة ، ولما كثر اللوند بمكة نصبوا بيارقهم في الحرم الشريف ، وصفوها من باب السلام ، الى باب علي ، وتعدوا على بيوت الاكابر ، وضاق الناس ذرعاً بذلك، فشكوا ما يجدونه الى الشيخ محمد بن عراق، فجلس في المسجد الحرام ، وطلب الامير خير الدين ، وبعض المقدمين والروس اللوند ، وكنت واقفاً على رأس الشيخ رحمه الله تعالى ، فرأيته قد احمرت وجنتاه ، وقام كل شعره في بدنه ، وانتفخت اوداجه ، فنهر هذه الطائفة، وجرح فيها، واغلظ القول عليهم ، ورأيت الامير خير الدين ، وهو يقبل اقدام الشيخ ، ويعتذر اليه ، ورأيت الكل اكبوا على اقدام الشيخ يقبلونها ، ويعتذرون اليه من جهلتهم ، فأمرهم بكف الأذى عن الناس ، وإشهار المفسدين منهم ، وان يخرجوا من بيوت الناس ، قالوا : قد قرب الحج ، ومقصودنا ان نحج ، ثم نتوجه الى غزو الفرنج ، فأين نسكن ؟ فقال لهم : توجهوا الى منى ، فان بها بيوتاً خالية اسكنوها الى زمن الحج، ولا تظلموا احداً ولا تغصبوا من المسلمين شيئاً . فقبلوا ذلك جميعاً وامتثلوا امره وامسكوا جماعة من مفسديهم وربطوهم وخرقوا لهم في سواعدهم وعضدهم السكاكين ، واركبوهم الجمال ، وطافوا بهم مكة ، ثم انتقلوا الى منى ، وكفى الله تعالى شرهم ، وكان ذلك من بركة من الشيخ وكرامته ، رحمه الله تعالى .

ورأيت بخط الشيخ جار الله ابن فهد رحمه الله تعالى : ان الشيخ رضي الله عنه كان في المدينة الشريفة ، فأشار اليه النبي ﷺ ، وقال له : توجه إلى مكة لإصلاحها . فقدم إلى مكة لإصلاحها يوم الاربعاء ، سادس شهر شوال فصادف هذه الفتن في الحرم الشريف ، فأسكنها بقدمه اللطيف ، وأطاعه طائفة اللوند وأمراؤهم وأغواتهم ، وصاروا يبادرون لما يأمر ، ويتمثلون أوامره ، ويتبركون بآثاره ، ولما ضاق عليهم الأمر في المساكن أمرهم أن لا

ينزلوا دار احد إلا بإعطاء الأجرة التي يرضى بهـــا صاحب الدار ، فصاروا يسترضون أصحاب البيوت ، وصاروا يدفعون لهم فوق الأجرة ، ومنهم من سكن الدور الخالية بمنى . انتهى .

وأما سلمان الريس فاستولى على محصول جدة وكان نصفه للسلطنة،ونصفه للسيد الشريف ، فوضع يده على المجموع ، وكان محصول جدة في ذلك العام للجهتين ، تسعين ألف دينار ذهباً ، ووافقه على ذلك نائب جدة الأمين علي جاووش ، وكان مولانا السيد الشريف أبو نُمَيّ أدام الله تعالىعزه وسعادته ، نازلاً بفريقه في أرض (الدكناء) فتوجه امين جدة اليه ، يذكره باستيلاء سلمان على مال جدة بالأمر السلطاني ، وانه ما أمكنه المخالفة ، وقـدم من عنده هدية سنية للسيد الشريف ، وحلف له على المصحف الشريف انظاهره وباطنه واحد ، وانه لم يضمر غِلاً ولا غشاً ، ولا يريد سوءاً ، فقبلهديته ، وأخلع عليه ، وأضافه وأكرمه وردّه . وفي أثناء إقامته عند مولانا السيد الشريف أشاعوا بجدة ان السيد الشريف أمر بقتلأمين جدة وانه قتلوجميع من معه ؛ فأقيمت غوغاء بجدة ، وأمسك سلمان جماعة بجدة من المنسوبين الى مولانا السيد الشريف ، وأراد قتلهم ، فأمره أصحابه بالتربص الى أن يصل الخبر ، فحصن سور جدة بالمدافع ، وتهيأ بآلات الحرب ، فـاضطرب الناس بجدة لذلك ، وإذا بأمين جدة ورد من عند مولانا السيد الشريف ، بالخلع والتشاريف ، فسكن روع الناس لذلك .

وفي أثناء ذلك عصى على مولانا السيد الشريف عمّاه السيد رُميثة،والسيد أبو الغوث ، أخـَوَا مولانا السيد الشريف بركات بن محمد ، طمعاً في المنصب، والتف عليهم جماعة من دواعي الفتنة ، فوصلا الى خارج جدة ، وأرسلا إلى سلمان الريس ، وإلى الامير خير الدين ، يطلبان منهما أن يقيماهمـــا في امرة مكة ، ويعرضا لهما في ذلك ، فاشتورا فيما بينهما فما رأيا ذلك صواباً ، وعلما ان فعل ذلك يؤدي الى فتنة عظيمة ، وان البلاد تتخبط بسبب ذلك ، فلم يقبلاهما ، فرجعا الى (الخيف) وأرسلالسيد الشريف أبو نمي أدام اللهعزه،

مائة وخمسين فارساً ، مع أخيه المرحوم السيد ثـَقـَبـَة بن بركات ، وولد عمته السيد حزيمة أمير المدينة ، السيد باز بن فارس الحسيني ، وأمرهما بالقبض على عميه المذكورين ، وتوجه اليهما القائد جوهر المغربي ، وعـــذلهما على فعلهما ، ولامهما على ما صدر منهما ، فذكرا أنهما فعلا ذلك من ضرورة ضيق اليد ، وضنك العيش ، وطلبا الزيادة في المشاهرة ، فالتزم لهما ذلك ، وأحسن إليهما إحساناً كبيراً ، وأتى بهما طائعين ، وعُدّ ذلك من تدبيراته وحسن رأيه ، وكادت تثور فتنة فأسكنها الله تعالى ، وأكد ذلك السكون والاطمئنان وصول السيد محمد السمهودي من الأبواب السلطانية ، بمراسم وخلـــع للسيد الشريف أبي نمي أدام الله تعالى سعده ، يتضمن الإنعام عليه بإمرة مكة ، عوضاً عن والده المرحوم مولانا السيد بركات ، فزين حاكم مكة القائد مرشد الحريري مكة سبعة أيام .

ووصل السيد الشريف مولانا بخيله ورجله إلى مكة ، بعد أن أمر باخلاء مكة من عسكر سلمان ، فأمرهم الشيخ محمـــد بن عراق ، أن يتوجهوا الى منى ، فتوجهوا كلهم من مكة إلى منى ، ودخل السيد الشريف إلى الحرم ، وأحدقت الناس به ، وقُرِئَتْ المراسيم السلطانية بالحطيم ، ولبس الخلعة السلطانية ، وطاف بها ، ودعى له الريِّس من أعلى قبة زمزم ، واطمأنت خواطر الناس بذلك ، ثم دخل من باب الحَزْوَرَة ،وخرج من أسفل مكة ، وعاد إلى (الدكناء) وكان يوماً مشهوداً .

وفي السابع والعشرين من ذي القعدة وصل أمير الحاج المصري ، الى وادي الجموم ، فبرز مولانا السيد الشريف أبو نُمَـي ، بعسكره لملاقاته،وطلب منه الخلعة السلطانية على العادة ، واسمه (سنان كتخدا) فأرسل الخلعة على رأس (جاويش) فتسلمها السيد الشريف ، ولبسها وهو على ظهر فرسه ، وعاد الى منزله ، ووصل (سنان كتخدا) بالحجاج الى مكة من غير عرضة ووصل بعده امير الحاج الشامي،وهو الأمير (اويس الكاشف) ودخل مكة بلا عرضة، فأرسل اليه مولانا السيد الشريف يطلب خلعته المعتادة ، فأرسلها

اليه من مكة فلما وصلت اليه تسلمها ولبسها واعتذر الى اميري الحاج عن دخول مكة وعن الحج ، لأن القبطان سلمان يحج مع طائفة كبيرة من اللوند المفسدين،وأنه يخشى من سوء أدبهم ويرهب من وقوع فتنة يتضرر بها الضعيف والعاجز ، وأما حفظ الحجاج ، وتأمين الطرقات من العربان ، فذلك خدمتنا ودركنا ولا نخل بها ، ولا يقطع على الحجاج من طوائف العربان شيء من التعدي والاختطاف ، ان شاء الله تعالى ، ففعل ذلك ووفى به،وحفظ سائر العربان ومنعهم من الخطف والنهب ، ونحو ذلك ، لكن القلوب كانت خائفة، متوقعة وقوع الفتنة في كل لحظة ، وسلم الله تعالى الحجاج من ذلك .

وفي ضحى يوم الخميس خامس ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة ، وصل سلمان الريس بجميع عسكره ، إلى مكة ، ودخل من الحجون ، وجميع عسكره اللوند،قدامه صفوفاً بعد صفوف، مشاة كلهم،حاملين بنادقهم على اكتافهم ، ورأيت أول عسكره في أول المعلاة ، في المحل الذي بني فيه بعدذلك عمارةوالدة السلاطين(الخاصكية)رحمها الله تعالى،وآخرهم في الحجون، ورأيت سلمان وخير الدين راكبين حصانين ، وما في العسكر راكب غيرهما وكان مدخلاً هائلاً فاستمر الى باب الصفا ، ودخل الأمير خير الدين إلى منزله وكان نازلاً بالعينيّة المتصلة بباب أجياد ، التي كانت مدرسة (المجاهدية) بناها الملك المجاهد من بني غسان ، ملوك اليمن ، وكان بالقديم يقام بها درس ثم استبدلت، وأخذ المدرسة أحمد العيني ، وأوقفها على قراءة قرآن ووظائف خير ، ثم سكنها الافنديون قضاة مكة المشرفة ، ثم خربت وهي الآن خراب الى أن يقيض الله من يعمرها .

وبعد أن وصل الأمير سلمان والأمير خير الدين الى منزله المذكور ، برز من عنده الأمير خير الدين ، ودار من السوق الصغير أمام باب ابراهيم ، الى أن وصل إلى السويقة ، ونزل في منزله الذي هيء له ، وهو بيت الخواجا

الطاهر ، الذي هو الآن من أوقاف المدارس الأربعة السلطانية السليمانية بمكة.
ثم في ثامن الحجة توجه الحجاج والناس الى عرفات ، محرمين لاداء الحج ، وتخلف في ذلك العام المقام العالي ، السيد الشريف ابو نمي عن الحج ، وتخلف كثير من أهل مكة ، خوفاً من وقوع فتنة ، وكانت الوقفة الشريفة يوم الاثنين ، ولم ير الناس حراً ولا شراً ، ولله الحمد .



الفصل العاشر

في ذكر وصول الامير سلمان ، والامير خير الدين الى اليمن

لما فرغ سلمان وخير الدين من الحج عادا الى جدة ، وركبا مع العسكر السفن والأغربة إلى اليمن ، مثابراً على أخذ ثأره من الأمير حسين ، لما تقدم من فعله معه ، من اخراجه من مملكة اليمن ، واستئثاره بالملك دونه ، ولم يكن سفره ذلك ميموناً عليه ، بل قتل هو والأمير خير الدين ، وغالب ذلك العسكر ، بسبب ظلمهم في حرم الله تعالى ، واستطالتهم على مولانا السيد الشريف ، حامي بلد الله تعالى ، وايذائهم له بلسانهم ، واستيلائهم على ما يتعلق به من محصول جدة ، وصبره عليهم في جميع ما فعلوه ، الى أن انتقم الله تعالى له منهم ، وهكذا عاقبة الظالمين ، ومآل أحوال الصابرين ، وفي ذلك عبرة لمن اعتبر ، وعظة لمن رزقه الله السمع والبصر .

ولما وصل الأمير سلمان إلى اليمن ، اطلع على وفاة حسين بك وصيرورة الإيالة إلى مصطفى بك، فاستجاش بمن معه من عسكر اللوند ، وقصد زبيد ، فلما رأى مصطفى بك هذه الحال ، خرج بمن معه إليه ، وأرسل إليه جاويشاً ، يسأله ما المراد بهذه الحروب ، وما المقصود من سل السيف ، وإراقة دماء العسكر من الجانبين ؟ فلما وصل الجاويش إلى سلمان بك ، وأدى رسالته ، قال له في الجواب : ان الحضرة السلطانية السليمانية ، خلد الله ملكها ، أنعمت على الأمير خير الدين بمملكة اليمن ، وآمرك

أنت أن تتوجه الى الباب الشريف السلطاني ، فإن أطعت فسلم البلاد الى الامير خــير الدين ، وسلم نفسك الينا ، لنجهزك إلي الابواب السلطانية ، فلما عاد الجاويش الى مصطفى بك بجوابه ، عرف انه إن وقع في يد الأمير سلمان قتله ، فدبر الحيــلة في ذلك ، وصار يستميل اللوند ، الذين عند الامير سلمان بالبذل والعطاء ، فنبذوا سلمان ، وصاروا عُصْبَة الامير مصطفى ؛ ففي الأمثال : الدراهم مراهم ، والنقود تحل العقود . فقوي جأش مصطفى بــك ، وكثر جيشه ، وعظم بذلك زفرته وطيشه ، وثبت للأمير سلمان في مقابلته ، وعزم على حربه ومقاتلته ،وبقي مع الامير سلمان نبذة من اللوند الشجعان ،وشرذمة صابرة على حَر الطعان ، فالتقت بالصُلَيْف الفئتان ، وثبت سلمان لوقع المُرّان ، فما لبث أن هرب مصطفى ، وأشفى من جُرُف الجِراقة على شفا ، واستمر منهزماً الى نواحي عدن وكمران ، وعاد عسكر مصطفى الى سلمان ، واعتـذروا منه عما وقع منهم من المخالفة والعصيان ، فقبل عذرهم ، وسامحهم فيما وقع من غدرهم ، ودخل بهم الى زبيد ، فصادر أهل زبيد مصادرة عامة ، وآذى الخــاصة والعامة ، وأخذ من كل واحد ممن صادف بها من التجار والمتسببين من ألف دينار إلى ثلاثة آلاف دينار ، وأنعم بها على اللوند ، واستجلب خواطرهم بذلك ، وتوجه الى تعز ، وجعل في زبيد الامير يونس ، وتوجه مع اللوند ، وأخذوا تعز ونهبوها ، وقتلوا أميرها ، ثم أخذوا إبّاً وجِبْلة ، ونهبوا منهما أموالاً عظيمة .

وكان ابن حمزة في الزيدية ومعه أموال جمة ، فقاتلوه فهرب منهم ، ولم يثبت لمقابلتهم ، ففر وترك جميع ما معه من الأموال ، فظفر بها سلمان ومن معه من اللوند ، واستمر ابن حمزة هارباً ، الى أن وصل الى أمير بيت الفقيه ، علي بك القرماني ، فاتفق معه أن يتوجها الى زبيد ، ويأخذانها من الامير يونس ، النائب بزبيد من قبل سلمان ؛ فبمجرد وصولهما الى زبيد ، واستيلائهما عليها ، والشروع في مصادرة أهلها ، وصل سلمان الى خارج زبيد

بمن معه من اللوند والعربان ، فقاتلهم أشد قتال في الباب الغربي ، فانهزموا منه الى الباب الشرقي ، فتبعهم وكسرهم ، فدخلوا مدينة زبيد ، وغلقوا أبوابها فحاصرهم ، وأرسل إلى اليافع والمَهْرة ، فوصلوا اليه ، وأتى بالمدافع الكبار من الصّليف ، ونزل البستان فوق النهر ، ورماهم بالمدافع والمكاحل والبنادق ، فأخذ زبيد قهراً ، ودخل العسكر من اللوند وغيرهم ، وأصابته بندقة في رجله ذلك اليوم ، فما أمكنه الدخول الى البلد ، فاستمر مخيمه في البستان ، ومنع التعرض لأهل البلد ، وصاروا يأتونه بالعسكر الذين خالفوه وحالفوا غيره ، من داعية الفتنة والفساد ، فيقتل البعض ، ويكحل البعض ، الى ان أكحل طائفة كبيرة ، استمروا زمانا بمكة الى أن أكلتهم الايام والليالي ، تركتهم كغيرهم من الاقوياء ، شبيه الشّن البالي ، من كل أمير كان يحكم على مئين ، وكبير أذلّه الدهر فعاد من الصاغرين ، وهكذا شأن الزمان الجائر ، ودأب الدهر الظلوم الغادر ، وفعله على نمط واحد في الأوائل والأواخر ، وكل من فر من يد سلمان ، ولم يقع في أسره من اللوند والتركمان ، التحق بمصطفى بك حول عدن ، فاستقر خاطره بذلك واطمأن ، وعند الاطمئنان ، يغدر الدهر الخوّان ، وهذه عادة الزمان ، مع أبنائه في كل آن .

ذكر قتل مصطفى بك واستقلال سلمان بملك اليمن

لما رأى سلمان انتعاش مصطفى بك، والتئام بعض العسكر عليه ، قصده بجموعه ، وتوجه لمحاربته ، وتوجه الآخر إليه ، ومعه ابن حمزة بمن معه من الجنود ، والتقيا على التربية [1] في سلخ سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة ، وكان بينهما عدة مصاف كان فيها الغلبة لسلمان ، ففر مصطفى منه فتبعه الى ان أدركه ، وحزّ رأسه ، ووقع في اسره ابن حمزة ، وغالب عسكر مصطفى ، إلا القليل النادر ، الذي نجى بنفسه في ابتداء الوقعة ، وذلك في مستهل محرم الحرام ، سنة أربع وثلاثين وتسعمائة، فكحل ابن حمزة ، وقتل كثير من الاسرى صبرا وكحل الباقين ، واذاقهم وبالا وقهرا ، فظن ان الجو خلا له ، وان الدهر البسه تاج كرامته ومنحه إقباله ، وان الزمان بذل له مراده وهيأ آماله .

وهيهات هيهات العقيق وأهــــله   وهيهات خل بالعقيق نحاوله !!

---

(١) التربية : بضم التاء وفتح الراء ، ثم باء مثناة تحتية مفتوحة ، ثم هاء : قرية شرقي زبيد : «النسبة الى المواضع »تأليف بامخرمة .

الفصل الحادي عشر

في قتل سلمان ، وولاية ولد أخته مصطفى بن بيرم

لما رأى الأمير خير الدين استقلال سلمان بالملك ، وانه سقط اعتباره لما استقل سلمان ، وكان في أول الأمر لا يبت أحدهما أمراً دون الآخر ، وكان الأمير خير الدين في الحقيقة هو المشار اليه ، وكان سلمان قبطاناً في البحر ، يرجع اليه في أحوال البحر لا غير ، أضمر الفتك بسلمان، والغدر به، وصار يرصده في كل وقت ، وينتظر الفرصة في ذلك ، فسلط عليه طائفة من اللوند ، هجموا على سلمان ، وضربوا رأسه بالسيف ، في موضع اسمه جزيرة المحاملة ، وتوجهوا على حمية إلى الأمير خير الدين ، وكان ذلك في أواخر سنة أربع وثلاثين وتسعمائة ، فقام بالأمر بعد سلمان ولد أخته مصطفى بك ابن بيرم، وكان شجاعاً فاتكا ، ذا معرفة بالحروب ، سيما أخذ القلاع بالمدافع، وافتتاح الحصون المنيعة ، فجمع مصطفى بك كل من كان من أتباع سلمان ، وخواصه ومماليكه ، ومن أشجعهم الخواجا صفر ، وكان على الأغربة التي كانت بيد سلمان ، فجعل الخواجا صفر وزيراً ، واستعد لأخذ الثأر من خير الدين بك ، واستعد خير الدين بك للقتال ، وأرسل من جانبه سنان القنبطان ، وكريم الحلبي ، وبالي حلبي ، مع بعض عسكره إلى زبيد ، للقبض على من بها من جماعة سلمان ، فوصلوا الى زبيد ، واستولوا عليها في أوائل شعبان سنة خمس وثلاثين وتسعمائة ، واستأسروا من وجدوا بها من أتباع سلمان ، وأقاموا بها ثلاثة عشر يوماً ، فتوجه اليهم مصطفى بن بيرم ، بمن

معه من عسكر خاله ، وطلب الخواجا صفر ليأتيه بالمدافع والضربزانات، ومن معه وعنده من عسكر اللوند والعرب ، ودخل زبيد على غفلة ، وقتل سنان القنبطان ، ومن معه من أتباع خير الدين ، وأطلق جماعته ، وتوجه إلى قتال خير الدين .

ذكر قتل الامير خير الدين ، وعزم مصطفى بن بيرم الى الهند ، وتركه مملكة اليمن

لما توجه مصطفى بن بيرم لأخذ ثأر خاله سلمان من الأمير خير الدين ، أحس الأمير خير الدين بذلك ، وكان خوّارا جباناً ، فأسقط في يده ، وكان في حبسه جماعة من الأمناء والعمال ، والملتزمين بأموال المملكة ، فأخرجهم من حبسه، وأمر بقتل الأمناء والعمال ، فقتلوا صبراً ، وقد ورد : « بشر القاتل بالقتل ولو بعد حين » فبمجرد أن وقع المصافّ ، ولمعت بروق الأسياف ، خار خير الدين وخاف ، وناله الارتعاش والارتجاف ، وما شام بروق الأسياف إلا وأمطره من الوبال وابل ، وأوقعه النكال في كفة حابل ، وطارت اليه من كنانة البأس حمام الحمام ، وسعت اليه باجنحة الطيور نسور السهام، وهرب منكسراً وولى مدبرا ، فتبعه مصطفى بن بيرم، وقتله بيده ، وما نفعه شيء من الاته وعدده ، واستولى مصطفى على البلاد كلها ، سهلها وجبلها ، غير أن مصطفى لما شاهد جراءة اللوند على الامراء بالفتك فيهم ، وقتلهم واحداً بعد واحد ، لم يستقر خاطره في اليمن ، ولا أمن الاقامة بها من كثرة الفتن ، فجمع ما يعز عليه من السلاح ، والمدافع والمكاحل ، ومن يعز عليه من أهله ، واتباع خاله ، وترك مملكة اليمن ، وأقام فيها السيد علي الرومي من أصحابه ، واليا على جميع البلاد ، نائباً عنه فيها ، وأدخل معه في الامر مملوكا للامير سلمان ،

اسمه أحمد بـــك ، وتوجه الى كمران ، مظهراً انه يريد أن يبني فيها قلعة يدفع فيها ضرر الفرنج ، وأحضر البنائين والآلات وشرع في عمـــارة قلعة حصينة ، ولمـــا حصل زمان سفر المراكب الى الهند ، في زمن رجوعهم ، ركب في أغربته ، وأخذ معه الآلات والمدافع الكبار ، وشحن تلك الأغربة بما يعز عليه ، وتوجه هو وخواص جماعته ، وجماعة الامير سلمان الى الهند ووفد على السلطان بها درشاه صاحب كجرات ومعه الخواجا صفر ، وذلك في سنة ست وثلاثين وتسعمائة ، فأكرمه السلطان بهادر غاية الاكرام ، وفرح بقدومه عليه ، وأنعم عليه وأغدق، وصدّق رجاءه فيه وحقق ، واعطاه على قاعدة سلاطين الهند خطابا ، ولقبه (رومي خان) ولقب الخواجا صفر (خدا وندخان) واعطى بندر الديو لرومي خان ، وبندر صورة لخدا وندخان،وصار لهما في الهند شأن عظيم ، ومرتبة علية ومقام جسيم، وقصتهما ووقائعهما في تلك الأقطار ، متلوة بألسن التجار والسفار .

ومحصله‌انه بعد ان اختص‌بالسلطان بهادر شاه ووصل صاحب دلي السلطان همايون شاه إلى محاربته ، هرب من عند بها شادر شاه ، إلى همايون شاه واختص به أيضاً اختصاصاً أعظم من الأول فحسده على مرتبته بعض الخواتين فسقاه السم، وتوفي الى رحمة الله تعالى في سنة خمس وأربعين وتسعمائة .



الفصل الثاني عشر

في ذكر ولاية اسكندر موز على مملكة اليمن

ثم لما توجه مصطفى بن بيرم من اليمن الى الهند قام بالامر من تلقاء نفسه الامير اسكندر بن سولي المشهور باسكندر موز ، وبارزه الامير السيد علي ، فأعان الامير اسكندر شخص من نواخيذ الأروام ، يقال له الناخوذة أحمد ، كان ذا ثروة ، وتدبير ، وحسن رأي ، وقدم عهد ، ومحبة مع الامير اسكندر ، فاستعان على إزالة السيد علي ورفيقه أحمد بك ، وانطوى اسمها ، واندرس رسمها ، وملك البلاد الامير اسكندر ، وصار الناخوذة احمد من جملة وزرائه وأمرائه ، فتمكن الامير اسكندر من مملكة اليمن ،وأظهر فيها العدل والكرم ، وكان شجاعاً كريماً ، وافر العقل ، حسن التدبير ، أحبه أهل اليمن ،وتبسطوا في أيامه ، وكان له اعتقاد في المشايخ والصلحاءوالعلماء، وكان له سماط ممدود ، وطعام مبذول ، وكان أكولاً ، يقال انه يأكل الكبش وحده ، ويجتمع على سماطه العسكر ، وينعم عليهم ، ويضبطهم ، بحيث حكى لي بعض الامراء ، انه كان يحضر معه في السماط سيفاً مسقطاً ، مذهباً ، مثمناً ، ثم بعد الفراغ من الطعام ، ينظر يميناً وشمالا في وجه الحاضرين من الجند ويقول : سبحان الله ! أخرجت هذا السيف لأعطيه شخصاً من العسكر ، كانت حِمالة سيفه رثة ، فما حضر الآن ، وما كان هذا السيف نصيبه لغيبته في هذا الوقت ، وكان من نصيب هذا الشاب ، ويشير

الى واحد من عرض المجلس ، ويعطيه السيف ، ويقول : كان هذا نصيبك . ويفعل كل قليل هكذا ، ويعطي سيفاً أو خنجراً ، أو ترساً أو فرساً ، أو ثوباً جميلاً ، مطوياً بين يديه ، فاستمال بذلك قلوب العسكر .

وأما الرعايا فكان يمنع الظلم عنهم ،ويحسن الى الضعفاء والارامل ،ويرسل الى زوايا المشايخ بالإنعامات .

حكى لي من وصل اليه : ان امرأة جاءته بغصن من الفاغية ، طويل ، نحو الذراع ، مستغرباً طوله ، بحسب العـــادة ، وأهدته اليه ، وقالت له : ربيت لك هذا الغصن ، وصرت أتفقده بسقي الماء ، الى أن انتعش ، وصار في هذا المقدار بسعادتك ، لكونه على اسمك ، فأجلسها الى جانبه ،وأكرمها ، وتناول الغصن بيده ، وصار يستعظمه ، ويريه لجلسائه ، ويظهر ان ذلك كان في خاطره وفي ضميره ، فكتب لها ان تكون أرضها التي تزرعها مُعْفى كلها ، وأمر لها ببقرتين من أحسن بقره الخاصة ، وملأ حِجرها فضة ، ورحب بها وصارت من المُدِلاّت عليه ، ومن المقبولات عنده .

ووفد عليه شاب من السادة الشيبيّين سَدنــة بيت الله الحرام ، فأكرمه وعظمه ،وقال له : إن أقمت عندنا الى موسم الهندي نلت منا فوق مطلوبك ، فقال له : أريد الرجوع الى وطني سريعاً ، فليس لي طاقـــة على التغرب . فأعطاه ألف دينار ذهباً ، واعتذر منه .

وبالجملة فكانت محاسنه جَمّة ، رحمه الله تعالى .

وكان فتاكاً في العسكر ، إذا توهم من أحدهم خلافاً ، أو ظن به إضمار سوء قتله ، من غير مهلة .

وكان قد استكثر من عبيد السود ،وضبط اللوند بهذه العبيد ،وضبط العبيد باللوند ،ولم يستخدم غير هذين الطائفتين ،وكانت الخطبة والسكة في أيامه ،باسم السلطان الأعظم ،السلطان سليمان خان ، سقى الله عهده ثوب الرحمة والرضوان .

وإذا قرأ أحد في موكبه له الفاتحة يقول له : إقرأها لحضرة السلطان سليمان .

ووصلت اليـــه المراسيم السلطانية بإقامته على بلاد اليمن ، وكانت حال الرعية في أيامه منتظمة .

ووقع له عدة مقاتلات مع العربان ، وكان هو الظافر فيها عليهم ، منها أخذه لإدريس الأعور ، وفتح حصن (تَـعْـكَـر) وغير ذلك . واستمر في الملك ستة أعوام ونصف ، وهو نافذ الامر ، مقبول الكلمة ، باسط اليد .

وبنى مدرسة عظيمة في زبيد ، تسمى الاسكندرية . وهو من الامراء الذين يـــذكرهم أهل اليمن بالجميل ، ويثنون عليه الثناء الجزيل ، رحمه الله تعالى .



الفصل الثالث عشر

في ذكر وفاة اسكندر موز ، وولاية الناخوذه أحمد لمملكة اليمن ، وظهور الامام شرف الدين في أيامه

ثم توفي اسكندر مـــوز في سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة ، وخلف ولداً صغيراً ، فقام بعده بولده وزيره الناخوذه أحمد ، وقدمه صورة ، وكان هو كافل المملكة اليمنية ، والأمور كلها راجعة إليه ، وسار في الناس على سيرة اسكندر موز ، واستمال العسكر ببذل المال ، إلا انه كان جائراً على الرعية ، غير مشكور السيرة فيهم .

وفي أيامه استولى الإمام شرف الدين – الذي ادعى الإمامة في طوائف الزيدية – على الجبال ، وفحل أمره ، وكبر جيشه ، وسار في الجبال باظهار شعار الزيدية ، غير انه لم يتعرض لأهل السنة ، بل كان ينالهم منه الانعام ، لا سيما العلماء ، من أهل المذاهب الاربعة رضي الله عنهم ، فانه كان يكرمهم غاية الإكرام ، وكان يترضى عن الصحابة رضي الله عنهم ، ما عدا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ، وكان يقول بالأئمة الاربعـــة ، أصحاب المذاهب الأربعة ، رضي الله عنهم ، ويرى مذهب الزيدية مذهباً خامساً ، فإن سيدنا زيد بن علي ، رضي الله عنه ، كان مجتهداً ، ويرى ان مذهبه أرجح .

ورأيت بخطه ما نصه : ورضي الله عن الإمام أبي حنيفة ومالك ومحمد بن

إدريس الشافعي وأحمد بن حنبل ، ولا جزا الله تعالى خيراً من أوقع بين سفهائنا وأتباعهم من الجهلة المتعصبين » . انتهى .

وكان يدعي الاجتهاد ، ويظن ان دواعي الاجتهاد وشروطه اجتمعت فيه . وكان يقول : (تقليد الحي أولى من تقليد الميت) . وهذا من الأغلاط الواهية ، فإن فضيلته لم تبلغ به الى مرتبة يصح منه دعوى الاجتهاد بها ، تجاوز الله تعالى عنه .

ذكر ترجمة شرف الدين ، وترجمة الامام زيد ، وشيء من اصول عقائدهم

كان شرف الدين يلقب نفسه المتوكل على الله ، واسمه يحيى بن شمس الدين ابن أحمد ، صاحب « البحر الزخار » في مذهب الزيدية ، وهو أيضاً صاحب « كتاب الأحكام » في أصول الزيدية ، بن يحيى ، بن المرتضى ، بن الفضل بن المنصور بن الفضل بن الحجاج ، بن علي بن يحيى ، بن القاسم بن يوسف ، بن المنصور بن يحيى ، بن الناصر بن أحمد بن يحيى ، بن الحسين بن القاسم ، بن ابراهيم بن الحسن ، بن الحسن بن علي بن أبي طالب الحسني .

قرأ على ابراهيم بن محمد بن عبد الله بن الهادي ، وعلى ولده الهادي بن ابراهيم بن محمد ، وعلى الفقيه جمال الدين علي بن أحمد بن مكابر ، وكلهم زيديون ، وله رواية وإجازة عن جده أحمد ، صاحب « البحر الزخار » .
وأما الإمام زيد رضي الله عنه الذي تنتسب الزيدية اليه فهو بريء مما ينسبونه اليه من مسائل الاعتزال ، وعقايد أهل الزيغ والضلال ، حاشاه من تلك الخلال ، وكلّا أن يصدر منه شيء من شوائب الاختلال ، بل كان إماماً مثيلا ، وعالماً نبيلا ، ومجتهداً جليلا ، غير أن من لا خلاق له من أتباعه ،

الذين لا حظ لهم من الدين ، بل تبرأ منهم كما تبرأ من الشياطين ، نسبوا اليه ما نسبوا ، وافتروا عليه وكذبوا ، كما كـــذبت الرافضة على سيدنا الإمام جعفر رضي الله عنه ، وأسندت إليه وإلى بقية الاثني عشر رضي الله عنهم ، ما تصم الاذان عنها ، وتنفر قلوب أهل الدين منها . ولقد كانا يجلان إمامنا الأعظم أبا حنيفة رضي الله عنه ، وكانوا في عصر واحد ، وكان بينهما وبينه مودّة ، ومهاداة ومراسلة ، ورأيت في آخر كتاب « خزانة الأكمل » من كتب الفتاوى عندنا : أن الامام أبا حنيفة رضي الله عنه أمدّ الامـــام زيد بمال عظيم ، وبايعـــه سراً ، لما خرج على هشام بن عبد الملك من بني أمية ، وكذلك أمد الامام جعفر بمال عظيم ، وكان يحسن اليهما . انتهى .

والامام زيد هو أخو الامـــام محمد الباقر ، وعم الامام جعفر الصادق ، وهو ولد الامام زين العابدين ، بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، وأكرم مثواهم ، ونفعنا ببركاتهم .وكان من أعاظم العلماء ، وأكابر الصلحاء ، ورأس أهل التقوى ، وكان من شدة تقواه يرى ان الغِيبَة تنقضُ الوضوءَ ، وان الصلاة لا تصح في الثوب المغصوب ، والمكان المغصوب . وفضائله كثيرة ومناقبه شهيرة .

حكى عيسى بن يونس ان الرافضة جاؤوا الى زيد بن علي ، حين خرج على هشام بن عبد الملك ، فقالوا له : تبرأ من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، حتى نكون معك ، فقال : لا أتبرأ منهما ، بل أتولاهما رضي الله عنهما ، وأتبرأ ممن تبرأ منهما . فقالوا : إذاً نرفضك ؛ فسميت الرافضة .
وكان خروجه بالكوفة سنة اثنتين وعشرين ومائة ، وتبعـــه خلق كبير من الأشراف والقواد ، وأهل القرى والسواد ؛ فبعث اليه والي العراقين ، يوسف ابن عمر الثقفي ، جيشاً مقدمه العباس المُرّي ، فتـــلاقى الجيشان خارج الكوفة ، في صفر سنة اثنتين وعشرين ومائـــة ، فانهزم أصحاب الامام زيد ، وبقي هو في جماعة قليلة ، فقاتل أشد قتال ، وتمثل بقول من قال :

ذلُّ الحياةِ وعِزُّ المماتِ وكلٌّ أراه طعاماً وبيلا
فإنْ كان لا بُدَّ من واحدٍ فسيري الى الموت سيراً جميلا !!

وحال المساء بين الفريقين ، فانصرف الامام زيد ، مثخناً بالجراح ، وقد أصابه سهم في جبهته ، فطلبوا من ينزع النَّصْل ، فأتي بحجام من بعض القرى ، فاستكتموا أمره ، فاستخرج النصل من جبهته الشريفة ، فمات في ساعته شهيداً رحمه الله تعالى ، فدفنوه في مجرى ساقية ، بعد أن نحوا مجرى الماء عن قبره ، وحثوا عليه التراب ، ثم أعادوا الماء كما كان يجري ، ولما أن واروه حضر معهم الحجام ، فلما أصبح نمَّ عليهم ، ودلهم موضع قبره ؛ كما قال القائل :

أرادوا ليُخْفوا قبرَهُ عن عَدُوِّه فطيبُ ترابِ القبر دَلَّ على القبر

ولما دلهم الحجام على قبره الشريف ، نبش عنه يوسف بن عمر الثقفي ، قاتله الله تعالى ، وبعث برأسه الطاهر الى هشام ، وصلب جسده الشريف في كناس الكوفة عرياناً ، فارتخى بطنه الشريف على عورته فغطاها ، وفي ذلك يقول بعض شعراء بني أمية من قصيدة له أخزاه الله تعالى :

صَلَبْنا لكم زيداً على جِذْعِ نخلةٍ ولم أرَ مَهدياً على الجذع يُصْلَبُ

واستمر خمسة أعوام مصلوباً ، فلما كان أيام الوليد بن يزيد ، وظهر ولده الامام يحيى بن زيد بخراسان ، كتب الوليد الى عامله بالكوفة ، يأمره بأن يحرق زيداً بخشبته ، ففعل ذلك ، وأذرى رماده في الرياح ، رضي الله عنه ، وأما رأسه الشريف فوصلت الى هشام بن عبد الملك ، وطاف بها البلاد ، فلما وصلت الى مصر ، جعلت بالمشهد الذي بالقرب من جامع طولون ، فقد قيل: ان رأسه مدفونة هناك. كذا ذكره قاضي القضاة شمس الدين أحمد بن خلكان في مواضع متفرقة من كتابه « وفيات الأعيـــان » . وذكر المسعودي في « مروج الذهب » في ولاية هشام بن عبـــد الملك : ان الهَيْثَم بن عَدِي

روى عن عمر بن هاني الطالبي ، قال : خرجت مع عبد الله بن علي وهو عم السفاح والمنصور فانتهينا الى قبر هشام بن عبد الملك ، فاستخرجناه صحيحاً، ما فقدنا منه إلا أَرْنَبَة أنفه ، فضربه عبد الله ثمانين سوطاً ، ثم أحرقناه ، واستخرجنا سليمان بن عبد الملك ، من أرض دابق ، فلم نجد منه شيئاً إلا صُلْبَه وأضلاعه ورأسه ، فأحرقناه ، وفعلنا ذلك بغيرهما من بني أمية ، وكانت قبورهم بِقِنَّسْرِين ؛ ثم انتهينا الى دمشق ، فاستخرجنا الوليد بن عبد الملك، فما وجدنا في قبره لا قليلا ولا كثيراً، واحتفرنا عن عبد الملك، فما وجدنا إلا شئون رأسه ، ثم احتفرنا عن يزيد بن معاوية ، فما وجدنا إلا عظما واحداً ، ووجدنا في طول لحده خطاً أسود بالرماد ، ثم تبعنا قبورهم فأحرقنا ما وجدنا منهم فيها ، وكان سبب فعل عبد الله بقبور بني أمية هذا الفعل ، ما فعله هشام والوليد بالإمام زيد بن علي رضي الله عنه ، لما استشهد وصلب . انتهى .

فليتوقّ الملوك والسلاطين التعرض لأجساد الموتى والمثلة بهم ، حذراً أن يتسلط عليهم بعد دولتهم من يأخذ بالثأر، فإن ذلك بشاعة تبقى على صفحات الليل والنهار .

وممن ارتكب هذه الخطة الشنيعة في أوائل هذا القرن شاه اسمعيل بن حيدر الصفوي الاردبيلي ، وكان خروجه من بلاد العجم في سنة ثلاث عشرة وتسعمائة ؛ فلما ملك بلاد خراسان والعراق ، نبش قبور طائفة من العلماء والأولياء والأمراء ، وأحرق ما وجد فيها من العظام ، فأخذه الله تعالى وما أمهله ، فمات ولم يكمل الاربعين ، وقد قتل من الأنفس ما يفوق مائة ألف نفس ، بل أضعافه ، فإن قتلاه خارجة عن الحَدّ والحَصْر ، وأكثر من علماء الدهر وملوك العصر ، فأخذه الله تعالى في سنة ست وثلاثين وتسعمائة ، ومولده سنة اثنين وتسعين وثمانمائة ، وظهوره من أعظم حوادث القرن التاسع عشر .

واعلم ان زيد بن علي رضي الله عنهما تلمذ لواصل بن عطاء ، وكان واصل معتزلياً ، فمن هنا نسبت الزيدية الامام زيد الى الاعتزال ، وأسندوا اليه — وحاشاه — مقالا يفضي الى الزيغ والضلال ، ولا يلزم من تلمذته لواصل، أن يسلك مسلكه في الاعتزال الباطل ، فمن استضاء بمشكاة النبُوّة والرسالة ، كيف يسلك سبيل أهل الضلالة ، أو يخوض فيما خاض فيه أهل البدعة والجهالة ؟!، حماه الله من ذلك ، وحاشاه مما تلبس به أولئك .

وواصل كان تتلمذ للحسن البصري رضي الله عنه ، فأخذ واصل يتكلم في مسائل القدر والجبر ، وشرع يثبت المنزلة بين المنزلتين ، الى غير ذلك من الاباطيل المبتذلة فأمره الحسن أن يعتزل مجلسه ، فسموا المعتزلة . ومبنى أصولهم على تحكيم عقولهم ، وهم في هذه الآراء الفاسدة ، اتباع الفلاسفة في مذاهبها الكاسدة ، فهم يلحسون فضلات الفلاسفة،ويروجون مذهبهم الباطل، باسناده الى مثل هذا السيد الكبير ، من أهل البيت النبوي ، فينفخون في غير ضَرَم ، ويستسمنون من اعتقادهم الموهون ذا وَرَم ، وقد دلاهم ابليس بغروره ، وأغرقهم من لجج الشك في تيار بحوره ، فهم يتشبثون بأوهى من خيوط العنكبوت ،ويتبعون وساوس إخوان الجبت والطاغوت، ويتمسكون بشبهات نشأت عن رأي عليل ، وصدرت عن فهم قاصر ضئيل ، ويبؤون بالإثم والخسران والثبور ، (ومَن لم يجعل اللهُ لهُ نوراً فما له من نور) .

فأول شبهة وقعت في البرية ، شبهة إبليس ، ومصدرها اتباع الهوى ، وتحكيم العقل في معارضة أمر الله تعالى ، واستكباره بالمادة التي خلق منها وهي النار ، على مادة آدم عليه السلام ، وهو الطين ، فإنه رأى برأيه الفاسد ، وعقله الكاسد ، ان النار لِعُلُوّه أشْرَفُ من التراب ، فحكم العقل ، في مقابلة النص فعصى أمر الله في السجود ، وخالف النص الشريف بإبداء الجحود ، وانشعبت عن هذه الشبهة شبهات رسخت في أذهان الملحدين ، الذين هم اخوان الشياطين ، فصارت بدعة وضلالة ، وإلحاداً في

الدين وجهالة ، وتلك الشبهات مسطورة في شرح الانجيل ، والتورة وصحف التنزيل ، على شكل مناظرة بين ابليس اللعين ، والملائكة المقربين بعد الأمر بالسجود، والامتناع منه لمحض العناد والجحود، فقال كما نقل عنه فيما ذكر انه قال للملائكة : إن الباري تعالى إلهي وإله الخلق ، قادر عالم إذا أراد شيئاً قال له «كن فيكون» إلا أنه يتوجه علىمساق حكمه أسئلة.فقالت الملائكة: ما هي ؟ فقال سبع : **الأول** قد علم قبل خلقي ما يصدر عني ، ويحصل مني فلم خلقني أولاً ؟ وما الحكمة في خلقه اياي ؟ **الثاني** : إذ خلقني على مقتضى مشيئته وإرادته ، فلم كلفني بمعرفته وطاعته ، بعد أن لا ينتفع بطاعة ، ولا يتضرر بمعصية ، فانه الغني القادر على الاطلاق ؟ **الثالث**: إذ خلقني وكلفني ، فالتزمت تكليفه ، واطعته ، فلم أمرني بالسجود لآدم ، وأنا خير منه لأني من عنصر النار ، وهو أعلى العناصر ، وهو من عنصر التراب ، وهو اسفلها ؟. **الرابع** : إذ خلقني وكلفني ، وأمرني بالسجود ، ولم أسجد لمن هو دوني ، فلِمَ لعنني ، وأخرجني من الجنة وأنا لمْ ارتكب قبيحاً إلا عدم التنزل لمن دوني وليس ذلك بقبيح عندي ؟ **الخامس**: اذ طردني ولعنني ، فلم مكنني من الدخول الى الجنة مع آدم ، حتى غررته بوسوستي فأكل من الشجرة المنهي عنها ، فاخرجني واياه من الجنة ولو منعني عن الدخول الى الجنة استراح مني آدم ، وبقي خالدا فيها لم يعص ربه . **السادس** : حيث أخرجني ، وأخرج آدم من الجنة فلم سلطني علي أولاده ، مع ما بيني وبين آدم من الخصومة والعداوة ، ومكنني من اضلالهم ، بعد ان خلقهم على الفطرة ؟ . **السابع** : اني حيث استمهلته لاحتناك ذرية آدم فقلت : انظرني الى يوم يبعثون ، فلأي شيء امهلني وقال : (إنك لمن المنظرين الى يوم الوقت المعلوم ، ولو اهلكني في الحال لاستراح الخلق مني ؟. قال شارح الانجيل : فأوحى الله الى الملائكة عليهم السلام قولوا له: أما قولك اني إلهك وإله الخلق فما أنت بمخلص فيه،ولا مصدق به ، فإنك لو صدقت اني إله العالمين لما احتكمت علي بالسؤال بـ (لِمَ) فأنا الله الذي لا إله إلا أنا ، لا أُسأل عمّا أفعل ، والخلق مسؤولون .

هكذا في الإنجيل مسطور ، وفي التوراة مذكور .

واعلم ان كل شبهة وقعت لبني آدم في أمور دينها واعتقاداتهـــا ، فإنما نشأت من إضلال الشيطان الرجيم ، ومن تحكيم العقل السقيم ، الذي هو غير سليم ، وان إبليس اللئيم لا يكتفي من بني آدم بمجرد العصيــان ، من ركوب الفواحش ومنكرات الأديان ، بل يثابر على توهين عقائدهم ، وانسلاخهم من الدين ، لشدة عدواته لهم ، وبغضه وحسده إياهم ، فتجد أكثر ضلالات الأمم السابقة واللاحقة إنما هي من إلقاء الشيطان مَوادّ هذه الشبهة إلى ذرية آدم ، فلا فرق بين قول الكافر :(أَبَشَرٌ يَهْدُونَنا) وبين قول إبليس:(أأسجدُ لِمَنْ خلقتَ طيناً) وكذا لك قول المتأخر : (أنا خيرٌ مِن هذا الذي هو مَهين) ؛ كما قال : (أنا خيرٌ منه خلقتَني من نار وخلَقْتَهُ من طين) . ولو تتبعت عقائد أهل الضلال ، لوجدتها من شبه إبليس ، التي تقدم ذكرها ، وكلها مبنية على تحكيم العقل ، كما هو مذهب المعتزلة ، وقـــد نهى الله تعالى عنها ، ولذلك قال الله تعالى: (ولا تتَّبِعوا خُطوات الشيطانِ إنهُ لـــكم عَدُوٌّ مُبين) وقال تعالى : (كذلك قال الذين مِن قبْلهم مِثْـــلَ قولهم تشابهتْ قلوبُهُمْ فما كانوا ليؤمِنوا بما كذّبوا به من قبلُ) فاللعــين الأول لما أن حكــمَ العقل على من لم يحكم عليه العقل ، لزمه أن يجري حكم الخالق في الخَـلْق ، أو حكم الخَـلق في الخالق . والأول : غُلـُوٌّ ، والثاني : تقصير . فالمعتزلة غَلـَوا في التوحيد بزعمهم ، حتى وصلوا الى التعطيل بنفي الصفات ، والمشبّهة قصّروا حتى وصفوا الخالق بصفات الأجسام،وكذلك تشبثت الفرق الضالة ، كل فرقة بشبهةٍ من شُبَه إبليس ، فتشعبت الفرق الى ثلاث وسبعين فرقة ، كما في الحديث الشريف ، كلها في النار إلا الفرقة الناجية ، وهم أهل الحق الذين اتبعوا النبي ﷺ في أقواله وأفعاله ، جعلنا الله منهم ، ولا عدَل بنا عنهم ، وكفانا شر الشيطان ، وثبتنا على محافظة القرآن .

ذكر محاربة شرف الدين للناخوذة أحمد

ثم في سنة أربعين وتسعماية أرسل الامام شرف الدين أولاده مَطهّر وشمس الدين علي ، بجيوشه من أهل البلاد ، لأخذ زبيد من الناخوذة أحمد ، وحط على زبيد عدة محطات، واستمال مشايخ العرب ، وأرسل اليهم بالإحسان، ليكونوا معه ، فمنهم من مال اليه ، ومنهم من لزم نفسه ، ومنهم من انتمى إلى أحمد الناخوذة ، وأعانه بالعدد والمدد ، انتصاراً لأهل السنة ، وفراراً من أهل البدعة ، وهم أكثر عربان أهل زبيد ، ولحْج ، ومن والاهم ، وجميع رعية هذه البلاد ، فإنهم شافعيُّون سُنيون ، فحشد أحمد الناخوذة ، وجمع ما عنده من الترك والأرْوام ، والمغاربة والعرب ، فجمع سبعمائة فارس ، وكان الزيديون ألوفاً مؤلفة ، لا يحصرهم عدد ، بحيث كان المعروف من رجال قبائل أهل الجبال الزيدية ما يفوق عن عشرين ألف نفر ، فخرج الترك وأتباعهم من زبيد ، على متون الخيل ، غارقين في الحديد ، في عزم حديد ، وعز جديد ، وبأس شديد ، وبرز الأمير أحمد والعساكر الاسلامية في خدمته ، وأحزاب الايمان تحت ألويته ، قد تأهبوا للقيام بفرض الجهاد ، وقمع أهل البدعة والإلحاد ، وظهرت لأهل السنة علامات العلو والاستظهار ، وبدت أعلام بشائر الظفر والانتصار ، ووثقت القلوب بأن هذه مواعيد نصر لا بد من إنجازها ، وفرصة ظفر لا بد من انتهازها ، فجردت للقتال سيوف الهِمَم ، وقامت الحرب على ساق ، ونهض القوم على قَدم ، وتسابقت الفرسان ، وكل منهم يود أن يكون أول سابق ، وأعملوا أسنّة الرماح ، وأطلقوا أعنّة الخيل للكفاح ، فأبدوا مجرّ العوالي ، ومجرى السوابق ، وأشرعت الأسنة من

الجانبين ، ورأى كل خصمه رأي العين ، فصدق الترك في القتـــال ، وثبتوا للحرب ثبات الرجال ، وحملوا حملة واحدة على الزيدية ، ففرقـــوهم شَذَرَ مَذَرَ ، وذهبوا أيدي سبا في البر الأقفر ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، بالرماح والبنادق والنبال ، وفرّ الباقون يطيرون طيران الأغربه الى الجبال ، وظفر الناخوذة أحمد بوطاقهم وأثقالهم وأحمالهم ، وغير ذلك مما عجزت الزيدية عن الفرار به معها على جمالهم ورحالهم ، وحصل له اسم عظيم في الجبال ، وشأن كبير بين الرجال ، وفرّ أولاد شرف الدين الى أوكارهم ، بعد انهزامهم وانكسارهم ، وما أغنت عنهم أسلحتهم وأموالهم ، ولا استبقتهم خيلهم ورجالهم .



الباب الثاني

في ابتداء الفتح العثماني ، واستيلاء الملك السليماني ، المستوعب لآخر الزمان ، باذن الملك الديان

وفيه سبعة وثلاثون فصلا

الفصل الاول

في ذكر توجه سليمان باشا الخادم بالوزارة الى الهند، ولدفع الفرتقال اللعين، وعدوله عن ذلك الى أخذ بلاد اليمن، وفتكه بكثير من المسلمين

لما وصل الى المقدس المرحوم ، السلطان سليمان خان ، تغمده الله تعالى بالرحمة والرضوان، استيلاء الفرنج على بلاد الهند وعجز أهل الهند عن مقاومتهم، وكثرة ضررهم ، وإذا هم للمسلمين ، بحيث غدروا بالسلطان السعيد الشهيد ، صاحب كجرات السلطان بها درشاه، ففتكوا به مكرا، وقتلوه غدراً، تحركت حمية الاسلام لديه، وصعب ذلك عليه ، وأمر بترتيب عمارة كبيرة في مصر ، يتوجه فيها عسكر جرار، وليوث يحمون الديار ، ويأخذون بالثأر من الكفار الفجار ، ومدافع كبيرة ، والات كثيرة ، وجعل (بكلاربكى) مصر الخادم سليمان باشا رأس هذا العسكر ، وولاه منصب الوزارة ، وأطلق له السيف والقلم ، وعقد له البند والعلم ، وكان فتاكا ، للدماء سفاكا ، ضعيف منة العقل ، عديم الرأي والفضل ، غير انه من خواص مماليك السلطان ، سليم خان ، بن بايزيد خان ، لم يتعلم من اخلاق سيده غير الفتك ، ولم يستقر في باله مما شاهده منه غير اراقة الدماء والسفك ، وكان السلطان سليم رحمه الله تعالى يفعل ذلك لمصالح ملكية ، واسرار ملكية خفية ، وهذا يفعله تقليداً

لسيده، ومن غير أن يميز بين رديئة وجيده، كما يحكى عن مسرور خادم هرون الرشيد ، انه فصد مرة فوزن دمه وسئل كم جاء وزنه ؟ فقال : لا أدري غير اني رأيت الخليفة اذ فصد كان يأمر الفصاد أن يزن دمه .

وكان سليمان باشا ربى في حجر السعادة في سرايا السلطان ، وحصل من كيمياء نظر السلطنة اليه ما يفوق النضار والعقيان ، وتقلب في المناصب ، وترقي الى ذرى المراتب، فكان عضد الدولة العثمانية ونصيرها ، ومدبر المملكة السليمانية ومشيرها ، نافذ الأوامر والأحكام، مطاعاً فيما يقوله ، وإن كان من أوهى الأوهام ، وكانت مصر في أيامه عروسا تجلى ، ومحاسن وجه ملاحتها كالنهار اذا تجلى ، لم يشقق جلبات شبابها القشيب ، تمزيق خراب المشيب ، ولا وصلت الى قصورها المعمورة يد الحوادث بمعاول التخريب، وكانت (قاهرة) كاسمها لا مقهورة كما تراه الآن من رسمها والناس بعد في خير ونعيم ، وعيشة راضية ومقام كريم ، فعمل سبعين غراباً وثلاثين برشة ، وشحنها بالمدافع والمكاحل، وملاها بالعدد والسلاح الكامل ، وجند الجنود والأبطال ، وحشد العساكر والرجال ، وأخذ من (الكوركجية) والريسا والنوتية ما يسدون عين الشمس في كبد السما ، واعد لهم من الأزواد ما يملأ الفضاء ونادى بالجهاد في سبيل الله ، على الفرتقال ، وتهيأ للغزو والقتال ، وخلط هذا العمل الصالح بأشياء غير صالحة من الأعمال ، الى أن غلبت الأعمال السيئة ، واضمحل ذلك القصد الجميل غاية الاضمحلال .

فمن ذلك قتل الامير جانم الحمزاوي ، وولده يوسف أمير الحاج ، بمجرد الحسد وسوء التدبير والاعوجاج ، وكان الامير جانم من أعظم الناصحين في خدمة السلطنة الشريفة ، مع حسن التدبير ، ودقة الرأي والاحسان الى الصغير والكبير ، وكان هو من أعظم أسباب إصلاح المملكة في أيام عصيان أحمد باشا ، ولم يطاوعه في العصيان ، فحبسه ثم احتال الامير جانم حين خرج من الحبس ، ودبر الحيلة في قتل أحمد باشا ، الذي عصى على السلطنة ،

و (لما) خرج أعـاد مصر على السلطنة العثمانية ، فجازاه سليمان باشا بشرّ الجزاء ، وعرض على الحضرة السلطانية : (اني شممت من جـــانم الحمزاوي وولده رائحة العصيان ، وأخشى ان العسكر يطيعونه لإحسانه اليهم)وذلك كذب عليه لا أصل له ، وإنما حمله على ذلك الحسد والبغض ، وعند الله يجتمع الخصوم ، فكتب اليه السلطان : (ادفع شرهما) ؛ فلما وصل اليه جوابه أرسل اليهما ، يطلبهما الى القلعة ، وكانا قد تهيأا للسفر معه ، فـــوصل اليه يوسف قبل والده ،فأمر أن يجلس به في بيت سليمان الكيخيا،وأمر الكيخيا أن يلاهيه إلى أن يصل والده ، فأخذه عنده ، وجعلا يلعبان الشطرنج ، وكان لوالده معرفة في علم النجوم ، ورأى في طالعه ان يصيبه في ذلك اليوم حادث كبير ، فمضى الى بستان له ، ومنع الناس عنه في ذلك اليوم ، فأرسل اليه سليمان باشا جاويشاً يأتي به ، فلم يجده في بيته ، فصار يتطلبه ، الى أن عرف محله ، الى آخر النهار ، فدخل عليه ، وأخذه معه الى سليمان باشا في القلعة فطلبه ، فوصل له ، فلما رأى فرس ولده الامـــير يوسف على الباب ، ازداد تخيله ، وما أمكنه الرجوع ، فطلع الى سليمان باشا ، وجلس عنده ساعة ، فقال له : هل تهيأت للسفر ؟ فقال : نعم . فقـــام عنه ، فتسلمه الجلاد ، فلما رأى الموت تشهد ، واستقبل القبلة وصلى ركعتين ، وأمر الجلاد أن يضرب عنقه بسيفه الذي كان معه ، فإن سيفه كان حاداً ، وسيف الجلاد كان كليلاً ، فقطع رأسه بسيفه ، ووقعت رأسه على الأرض عند قوله (الله) من (أشهد ان لا إله إلا الله وأشهد ان محمداً رسول الله) . وختم الله تعالى له بالشهادة . وجاء سليمان الكيخيا الى سليمان باشا وكان مدلاً عليه ، وكان له بالامير يوسف محبة فقال له : قد كفيت همّ جانم بقتـله ، وليس لك نفع في قتل ولده فاتركه . فسبّه وقال : ائتني برأسه الآن وإلا ألحقتك به ، فمضى اليه ، وأدخل عليه الجلاد ، مع نفرين من غلمانه ، فدخلوا عليه وكان مهيباً فوقفوا بين يديه ، واستنكر دخولهم ، وتخيل منهم ، فمد أحدهم يده إلى عمامته ، فقال : كأنكم أكلتم الشيخ ؟! يعني والده . وكان قويا ، فعافسَرَهم

قليلاً ، فضربوا وجهه بالسيف ، وصرعوه ، ثم قطعوا رأسه ، ومضوا به الى سليمان باشا ، فأمر بسلخهما ، فسلخا وحشيا تبناً ، وعلقا على باب زُوَيْلَة فارتجت البلد ، وغلقت الاسواق ، وكان عصر يوم الاربعاء ، آخر يوم في ذي الحجة ، سنة أربع وأربعين وتسعمائة ، وبعد التعليق ، دفعوا أجسادهما ، وجماجم رؤوسهما ، والمسلوخ من جلد رأسهما ، لأهلهما ، فما عرف احدى الجمجمتين من الاخرى ، فوضعوا احدى الجمجمتين في احدى الجلدين ، والثانية في الثاني ، ودفنا بالقرافة ، عند تربة الامام الشافعي رضي الله عنه ، وترحم الناس عليهما ، وأسفوا على فقدهما رحمهما الله تعالى ، وكان وقوع هذا الفعل بالامير جانم جزاء وفاقاً ، لما فعله الأمير جانم بالقاضي شرف الدين الصُغَيِّر بضم الصاد المهملة ، وفتح العين المعجمة ، وتشديد الياء التحية المكسورة ، والراء المهملة. وكان رئيس الدولتين من أكبر المتعممين بمصر ، وأعرف المباشرين في فن المباشرة ، وأحفظهم للمقاطعات الديوانية ، والجهات المصرية ، بحيث انتهت اليه الرئاسة في حفظه ، وإملائه لها عن ظهر الغيب ، بدون دفتر ، فعظم عند حكام مصر من (البكاربكية) والوزراء ، وكان بمثابة (دفتردار) وحسده جانم الحمزاوي على مرتبته ، وخاف منه ، وسعى في قتله ، وتوجه إلى الباب العالي وبتّ أمره فيه ، وأخذ أحكاماً في شأنه بما أراد ، فتخيل القاضي شرف الدين الصُغَيِّر ، وتوجه عقبه الى الباب ، ليدفع شرّه ، فصادفه في (اسكودار) راجعاً من الباب ، ولقي القاضي شرف الدين بسن ضاحك ، وإظهار تودد وتطمين ، ومعاقدة أيمان وتأمين ، وقد خبأ له السم في الدسم ، ودس له أنياب الافاعي في لين جلد الأرقم ، وقال له : الى أين تذهب ؟ وفيم تنفق كنوز الذهب ؟ احفظ مالك ولا تنفقه سدى ، ولا تشمت بك العدى ، وهلم بنا الى الصلح فالصلح خير ، وارجع لنتعاقد على أن لا ضَرر ولا ضَير ، ونكون كروح في جسدين ، ونرفع ما بيننا من الخلاف والبَيْن ، ففرح القاضي شرف الدين بذلك وتلقاه بالقبول ، وما فطن انها خديعة تذهب بالعقول ، وغره كلامه الرائق ، وخدعه حلاوة منطقه وظن انه بالنصح له ناطق ، ورجعا مصطحبين ، وعادا كروح في جسدين ، بعد أيمان كثيرة ، كلها من

جانم كذب غموس ، وغِلٌ كامن في النفوس ، ودفع الأمير جانم مالا كثيراً الى شرف الدين ، أعانه له على الرجوع عن الغش والغدر ، وتصفيـة للسر وإزالة الغل من الصدر ، فرجعا الى مصر ، ووضعا عن جيد البسط والسرور اعباء المشاجرة والأصْر ، فما استقر بالقـاضي شرف الدين قراره ، ولا فرح به أهله ولا تمّ مزاره، حتى أخرج له مراسيم كالعقارب تسعى اليه ، وأحكاماً تدب كالأفعوان عليه ، فأخذه بمقتضى تلك الاحكام ، وسلمه الى (الصوباشي) فعذبه بالاسكنجة وأنواع الآلام ، ليستصفي ماله أولا ، ثم يقتـله حقيراً مذللا ، فصبر على العذاب ، وقال له في الجواب : الأولى بمالي منك بطن التراب . وباع عليه بالجبر أوقافه وعقاره ، وسقاه من كؤوس العذاب عقاره، واستمر يعذّب ويقرع بالمقارع ، وما له في ذلك من دافع ، وصار يضرب الى ان رجع الشرف الى الهبوط ، وانقطع رجاء الحياة بالقنوط ، الى أن مات الى رحمة الله الكريم ، وقدم على ما قدم ، من عمل صالح أو سيء تقدم ، ثم تسلم الامير جانم من أقارب شرف الدين شاباً فاضلاً ، ذكياً ، لوذعياً ألمعياً، كأنما صور من نور ، أو تفلت على رضوان من الولدان والحـور ، يقال له القاضي منصور ، فَضُلَ بين أقرانه وأترابه ، وفاق في حسن الخط وضبط الدفتر وحسابه ، ونظم الشعر الفائق ، ونثرَ النثر الرائق ، وتأدب بالآداب، وأعرب شكله عن مليح الإعراب ، أحفظُ له مطلع قصيدة ، عملها في مدح القاضي شرف الدين ، وقد عوفي من رمد أصابه . وهي :

بِبُرْئِكَ يا عينَ الزّمان وناظِرَه وجوهُ الورى أضحتْ من البشر ناظره

وله قصيدة نظم فيها أسماء الله الحسنى مطلعها :

اللهُ أكـبر مسؤولاً ، وأوفاهُ يجيب إن أضمر الدّاعونَ ، أو فاهوا

هذا وما تمم بعد عذاره وما اكتسى بالآس المخضر جلناره ، وهو في برد الشباب القشيب ، يهتز كالغصن الرطيب ، فخطفه خطفة الذئب ريم الغزال ، واذاقه سوط العذاب بعد ذاك الدلال، وعذبه بشديد النكال بعد تِيه الجمال،

وكانت له والدة حنونة ، مولعة بحبّه مجنونة ، ما لها سواه ، ولا ولدت الا إياه ، فدارت على العلماء والصلحاء ، وتوسلت بالمشايخ والاولياء ، وحملتهم على الامير جانم ليدفع لها ولدها ، ويبرد بذلك كبِـدَها ، فاظهر لهم اجابة سؤالهم ، ووعدهم الى الليل بنجح آمالهم ، وقال لها : اسلمه اليك في هـذه الليلة ، وعقد على ذلك أيماناً جليلة ، وارسل اليه سماً مجـولا في (سنبوسك) فلما أكله أحس بالسم ، فاستعمل له(بازهْرا) كان معه ، يدفع السم لساعته وينجى من أكل السم وآفته ، فدفع عنه السم ، فدرى الأمير جانم بذلك فأمر الصوباشي أن يخنقه ، فخنقه ، فلما جاء الليل سلمه الى والدته ميتاً ، فدعت علنه وعلى ولده يوسف ، بقلب مقروح ، ودمع مسفوح ، دعاء المظلوم المقروح ، على الظالم المغرور الجموح ، فاستجاب الله لها دعاها ، وانفذ سهام بلواها ، ولم يمض حين إلا وبلغها ان رأس جانم وولده في هذه الليلة، معلقان في باب زويلة ، فتخلقت بالزعفران سروراً ، وجاءت ووقفت تحت رأسها ، واظهرت فرحاً وحبوراً .

ثم إن الأمير جانم ما اكتفى بقتل هذين الرجلين ، حتى عززهما بثالث ، وكان ذلك من أعظم الحوادث الكوارث ، وهو أن الشيخ الفاضل الأديب ، الشاعر اللسن الاريب ، شمس الدين محمد الدمياطي ، قتله الأمير جانم بغير ذنب يوجب قتله ، غير انه كان مصاحبا للقاضي شرف الدين ، وبلغه عنه انه قال له ، كيف اغتررت بكلام جانم وأنت في (اسكودار) ؟ وهلا دخلت الى الباب العالي واتقنت أمرك واتقنت الفرار ؟ ! فحمله على ذلك أن أخرج فيه حكما بصلبه ، على شجرة جميزة على باب مدرسة السلطان حسن ، في سوق الخيل ، بالرميلة ، والناس راجعون من دفن القاضي شرف الدين ، وكان جليلا فاضلا ، عالماً كاملا أديباً ، اريبا عاقلا ، لبيبا ، احفظ له من شعره هذا البيت من قصيدة له في الفخر والحماسة :

لو شِئتَ أطلقتَ لا دعوى ولا كذبا   وقـُلتَ: كلالورى في الشّعر لي تبعُ

وله أيضـــاً :

لقد فتحت باب الرضا بعد هجرها شقيقة بدر التمّ والجبر الكسرُ
فسكّنت بعد الضم مـا قد نصبته وقلت: ارفعي جزماً، فقدطاب لي الجرُّ

جمع فيها ألقاب الإعراب ، والقاب البناء ، وله أيضاً :

الحق أقرب من أن تستعدّ لهُ بعدة ، أو ترجى دونه سببا
إذا اصطفاك لأمر هيأتْكَ له يد العناية ، حتى تبلغ الأربا

ونظم « متن المنهج » لشيخ الاسلام زكريا ، وله محـــاسن غزيرة ، وفضائل شهيرة ، ورسائل في الفقه والتصوف والادب كثيرة ، وكان مهيباً ظريفاً ، حسن البزة ، نظيفاً قنوعاً لطيفاً ، رحمه الله تعالى وعوضه غرفات الجنان وبلّ مضاجعه بزلال الرحمة والرضوان .

وهذه حوادث ذكرناها استطرادا ، وزينا باطواق مواعظها من الدهر اجيادا ، وان خرجت بنا عن المقصود ، وزادت على المطلب المعهود ، لما في ضمنها من التجاريب والأعاجيب ، والوعظ المفيد ، والنصح السديد .
ثم إن سليمان باشا بعد قتله لجانم الحمزاوي ، تملح أيضاً بصلب الأمير داود بن عمر ، امير الصعيد ، من غير ذنب أتاه ولا ذنب سواه غير كثرة ماله ، وبذل يده وسعة حاله ، فطمع الباشا سليمان ، فطلبه الى الديوان ، فلما جاء اخذ هداياه أولا ، ثم عاتبه لقصد قتله معللا ، فقال : كيف ترسل الينا قمحاً غير نظيف ؟ فقال : انا ما جئت الا بقمح مثل الجوهر اللطيف ، فأمر به الى باب زويلة وعلق في عنقه منديلا فيه قليل قمح ، وصلبه هناك ، وأحاط بجميع أمواله وخزائنه، وظفر بكنوزه ودفائنه ، وقتله وهو مظلوم ، وعند الله تجتمع الخصوم ، وكان من أحسن أمراء الصعيد ، كثير البر والصدقات ، محباً للخيرات والحسنات ، يحسن في كل عام الى كل واحد من علماء جامع الأزهر والمشـــايخ المسلكين في ذلك القطر الأزهر ، بالخمسمائة الذهب فما

دونها ، ولا يعهد ذلك لغيره من أمراء الصعيد ، حج في سنة سبع وثلاثين وتسعمائة ، وأغدق على أهل الحرمين ، واوصلهم احسانا عميما ، وتصدق بصدقة كبيرة من الدراهم والقمح عم بها أهل الحرمين تعميما ، رحمه الله تعالى، وضاعف رحمته عليه ووالى ، وكان محسناً للوافدين ، ملجأ للقاصدين ، كهفا للواردين ، ختم الله له بالحسنى ، ومنحه الشهادة مقاماً أسنى ، فلقد رزقه الله تعالى العلوّ في الحياة وفي الممات ، وأقدمه على ما قدم من الحسنات ، فكان كما قيل في بعض المرثيات :

علوٌّ في الحياة ، وفي المماتِ لحقٌّ أنتَ إحدى المعجزات

وما اكتفى سليمان باشا بقتل من ذكرناه ، بل صلب بعدهم عدة من أمراء العرب ، منهم ابن ابي الشوارب ، وزُعَيرْ ، من أمراء الصعيد . وكان سفاكا للدماء ، بسبب قريب أو بعيد ، وان الله على كل شيء شهيد .



الفصل الثانى

في ذكـــر وصول داود باشا الى مصر ، وتوجه سليمان باشا من مصر الى السويس ، ووصوله من البحر الى جدة

لما قضى الوطر ممن أراد قتله سليمان باشا ، وقرب سفره الى الهند ، وصل الى مصر ليستلمها عنه ، داود باشا الخـادم ، وكان رجلاً حليما ، باذلاً كريماً، تربى في السراي العالي، وتقلب في المناصب والمعالي، الى أن صار خزينة (دارباشي) وله فضيلة ومعرفة باللسان الفارسي ،ومحبة للفضلاء والعلماء ، وإحسانا اليهم ، وحنواً عليهم ، وكان دفترداره محمـــد بن سليمان ، جركسي الأصل ، كثير الفضل ، يجالس العلماء ، ويحب الفضلاء ، ويحسن اليهم ، ويتعطف عليهم ، ويتفقد أحوالهم ، ويزيـــل مِلالهم ، وكانا من تنفسات الزمان ، وحسنات الدوران ، وكانت مصر في أيامهما تضاهي الجنان ،مشحونة بالحور والولدان ، محفوفة بالروح والريحان ، رحم الله روحيهما، وبَلّ بصَيِّب الرحمة ضريحيهما.

وبعـد تسلم داود باشا البلاد ، من سليمان باشا ، سافر سليمان بجنوده الى السويس ، وركب البحر ، فسخر الله له الريح ، كما سخر له مردة الانس من ذلك العسكر الفسيح ، فوصل الى بندر جدة ، بعد سبعة أيام ، مع عساكره وجيوشه ، وأسوده في الحرب ووحوشه ، فأهال أهل جدة مـــا رأوا من الأجناد ، واضطربت لخشيته البلاد ، غير انه ضبط العسكر أقوى ضبط ،

ولم ينزل هو ، ولم يمكن أحداً من عسكره من الـــنزول ، فشكر على هذا الضبط والوصول ، وطلع اليه جماعة مولانا السيد الشريف بجدة يومئذ ، وهم يرتعدون فـَرَقاً ، وينتفضون خوفاً وقلقاً ، فتلقاهم بالإكرام ، وألبسهم الخلع والتشاريف ، ولم يصدر منه شيء من الارعـــاب والتخويف ، ومضى عنهم شاكراً حميداً ، ورجعوا عنه حائزين في اعتقادهم عمراً جديداً ، وذلـــك لما عهد من بطشه وفتكه ، وحبه لإراقة الدماء وسفكه ، فذعر لذلك من ذعر، وسلم الأمر الى خالق القوى والقدر، من احتسب وصبر.



الفصل الثالث

في ذكر توجه سليمان باشا الى عدن
وقتله لصاحب عدن غدراً ، وأخذها منه جبراً وقهراً

لما توجه سليمان باشا من جدة ، قصد المرور بعدن ، وكان صاحبها يومئذ عامر بن داود ، بقيـة بني طاهر ملوك اليمن سابقاً ، ولم يبـــقَ في يده من مملكة أسلافه بني طاهر إلا قلعة عدن ، من سائر ممالك اليمن ، وكان شاباً كريماً ، جواداً حليما ، محسناً الى الناس ، باسطاً لهم وجه اللطف والايناس ، يعظم الشرع الشريف ولا يخرج عن حكمه ، ويوقر من وفد اليه من العلماء ويكرمه لعلمه ، الى غير ذلك من الخصال الجميله ، والخلال الحسنة الجليلة ، الشاهدة له بكرم أصله ، وجودة فضله ووصله ، فلما بلغه وصول سليمان باشا ، للغزو في سبيل الله ، وقطع جادرة الإفرنج عن الإضرار بعباد الله ، فتح له باب عدن ، وأمر أن تزين ، وجمع له من البلاد ، ما أراد ، من الأزواد ، وتوجـــه هو ووزيره للسلام عليه ، الى الغراب الذي هو فيه ، فبمجرد أن رأى سليمان باشا باب عدن قد فتح ، امر عسكره بدخول عدن ، وأخذها ، فلما وصل اليه عامر ألبسه ومن معه خلعاً ، ثم أمر بصلبهم على الصاري ، في الغراب الذي هو فيه ، ونهب العسكر داره ، وشرعوا في نهب البلد ، فأمر مناديا يمنعهم عن نهب الناس ، ونادى في البلاد بالأمان ، واستناب في البلاد بهرام بك ، سنجقاً

كبيراً ، ونائباً أميراً ، ورتب لديه عسكراً وعدة من المدافع والمكاحل ، ووضع فيها (نوبتجية) ودَزدارا في القلعـــة ، وحصارية ، وضبط البلاد بذلك ، وعدّ ذلك من فتوحاته ، وكتب الى الابواب : انه أخذ عدن قهراً ، وانه افتتحها قسراً ، وشاع غدره بصاحب عدن ، في أطراف البلاد ، وأكناف العباد ، وسبقه خبر هذا الغدر الى بنادر الهند ، ونفرت خواطر الناس منه لذلك ، ولما بلغ أهل الهند فعله بعامر ، زاد نفورهم منه ، وكان ذلك سبباً لعدم مساعدتهم له على الفرتقال. وكتب على باب عدن : انه افتتح هذه البلاد في سنة خمس وأربعـــين وتسعمائة ، وتوجه الى الهند لقتال الفرنج الذين في الدّيو .



الفصل الرابع

في ذكر توجه سليمان باشا من عدن الى الديو ورجوعه منه

كان الخواجا صفر الملقب من سلطان الهند بخداوندخان ، مملوك المرحوم سلمان القبطان ، موجوداً إذ ذاك ، فلما بلغه توجه سليمان باشا إلى الهند لقتال الفرنج ، شمر ساعد الجد ، وضيق على الفرنج من جهة البر ، وهيأ العسكر لقتالهم معاضدة لسليمان باشا ، ومناصرة له على الكفار الملاعين ، فلما وصل نزل بموضع يقال له (مظفر آباد) بقرب (الديو) ، فأرسل اليه الخواجا صفر بأنواع التقادم والهدايا ، وأراد أن يأتي اليه فنصحه شخص من أصدقائه ،من جلساء سلمان كيخيا اخص الخواص لدى سليمان باشا، فقال له : ان لك علي حقاً واجباً ، وان لي نصيحة ، أبذلها لك . فاختلى معه ، وقال له : ان سليمان باشا فتاك قتال، لا يبقي على أحد، وانه قتل عند بروزه من مصر جانم الحمزاوي ، وولده يوسف ، وقتل الامير داود بن عمر ، وعند وصوله الى عدن ، برز الى ملاقاته عامر بن داود صاحب عدن ، وفتح له الابواب ، وظهر السرور بقدومه ، فصلبه بمجرد الوصول اليه ، وأنا أنصحك فلا تقابله . فتخيل خداوندخان من ذلك ، وعرف انه متى وقع في يديه لم يسلم منه ، واستمر يخدمه على بُعد ، ويرسل اليه الهدايا والتحف ، وكلما طلبه الى عنده تعلّل بنوع من الاعذار ، ثم ان السلطان محموداً أرسل اليه خانا كبيراً

من خوانينه ، مثل البكلربكي عندهم ، يقال له (شق دار) يعني حافظ شق المملكة ، وكان له نحو خمسين ألف فارس ، وقال له : قم في خــدمة سليمان باشا ، وأعنه بعسكرك على الفرنج ، وآتهم بالذخيرة ، وبكل ما يحتاجون اليه . وكان اسمه (اولوخان) وكان حقير المنظر قصيراً ، في لباس الهنود ، فلما رآه سليمان باشا احتقره ، عن أن يقــوم له ويعظمه ، فاستمر واقفاً الى أن أدى رسالته ، ولم يأذن له في الجلوس عنده ، وبرز من عنده ، فلم يعد اليه ، ومضى الى السلطان محمود ، واشتكى اليه ازدراءه له ، وعدم مقابلته بالإكرام ، فتكدر منه السلطان محمود لذلك .

ثم ان سليمان باشا ارسل جاويشاً معه قفطان وسيف مسقط ، الى السلطان محمود ، فلما وصل اليه تعجب من فعله ، وطلب الجاووش ، وقال له : قل لأستاذك إن كانت هذه الخلعة والسيف من عند حضرة السلطان سليمان ، نلبسها ، وإن كان من عندك فليس من مرتبتك إرسال الخلعة الينا . ورجع الجاووش وأخبره فامتلأ غيظاً ، وتأسف على فوات (اولوخان) وخلاصه من يده ، وأضمر السوء لأهل الهند ، وأضمروا له السوء ، وتشاحنت الانفس ، وأرسل السلطان محمود الى (خداوندخان) يأمره بالحيلة في هروب سليمان باشا ، فدبر الحيــلة في ذلك ، وزوّر كتاباً بخط الفرنج ، من عند كبيرهم (ورندور) الذي في (كوه) الى كبير الفرنج في (الديو) فيه : انا قد جمعنا الجموع، وتهيأنا في ثلاثمائة غراب، وخمسين بَرْشة، وقد فرغنا من مصالحنا، ونحن متوجهون الى دفع عسكر الروم ، فإذا ظهرنا من البحر ، فابرزوا انتم ايضاً من قلعة (الديو) للقتال . وأشاع (خدواندخان) أنه أمسك قاصد الفرنج، وأخذ كتبهم، فأرسل سليمان باشا اليه، يتحقق منه هذا الخبر، فأرسل اليه المكتوب الذي اصطنعه ، وقال : قد صح عندنا من طريق البر صحة ذلك أيضاً ، ولكن سيف السلطان طويل ، وأنتم في قوة وشوكة ، ونحن معكم ؛ ونحو ذلك من التطمينات . وكان سليمان باشا خوّاراً خوّافــاً لم يعهد منه شجاعة ولا إقدام ، وإنما كان يفتك بمن وقع في يده مأسوراً مربوطاً، فركبه

من ذلك خوف عظيم ، وتفرقت عساكره ، وصاروا يخدمون خوانين الهند ، طمعاً في كثرة العلوفة ، فإن واحداً من أفراد العسكر ، اذا كانت علوفته عشرة عثامنة كل يوم ، يحملون له ديناراً ذهباً كل يوم ، فازداد بذلك خوف سليمان باشا ، وترك المدافع الكبار ، لخداوندخان ، وركب في أغربته ،وعاد الى اليمن ، وفرح بخلاصه من الهند ، وقرّت عينه بذلك وناظره ، واطمأن خاطره .



الفصل الخامس

في ذكر وصول سليمان باشا الى المخا ، وطلبه للناخوذة أحمد ، والغدر به ، وولاية مصطفى بك ، نائب غزة في زبيد وأعمالها

لما برز سليمان باشا من الديو ، أقلع الى أن وصل بجميع الأغربة والبرشات ، وما فيها من المدافع وآلات الحرب ، الى بندر المخا ، ما عدا ست مكاحل كبار ، استعجل عن تحميلها ، الى البرشات ، فتركها في (مظفر آباد) وما عدا من تسحّبَ عن العسكر والكوركجية ، الذين تأخروا في الهند طمعاً في العلوفات الكبيرة ، ولم يكن معه شيء من الخيل غير طويلة واحدة ، وهي ثمانية رؤوس من الخيل ، فنزل في بندر المخا ، وضرب وطاقه ، وأرسل الى الناخوذة احمد بخلعه ومرسوم فيـــه الامان ، وأن يكون نائباً عن السلطنة بمملكة اليمن ، كما كان ، وأن يصل بنفسه ، يدوس البساط ، ويحصل له كمال الشرف والانبساط ، فلمـــا وصل اليه المرسوم ، استشار أخصاءه ، فكلهم أشار عليه بعدم المواجهة ، وقالوا له : انه لم يكن عنده شيء من الخيل ، ونحن عندنا سبعمائة حصان ، ومعنا نحو ألف عبد أسود ، فإن قاتلنا قاتلناه ، وإن رضي منا بالإطـــاعة أطعناه . فلم يستصوب هذا الرأي ، وركب اليه لملاقاته ، هو وخاصّة عبيده وكانوا نحو الخمسمائة ، ووصل اليه طائعاً ، لابساً خلعته ، هو وولده ، وولد اسكندر موز ، وهما صبيان ، دون المراهقة ، وقدم اليه من هدايا اليمن ما قدر عليه ، فلما دخل عليه أمر

بقتله في الحال ، وذلك في ثامن شوال ، سنة خمس وأربعين وتسعمائة ،فتشتت عبيده ، فنادى فيهم مُنادي : من أراد من العبيد السود العلوفة السلطانية عند الوزير فليأت ؛ فاجتمعوا بأسرهم ، ودخل معهم من ليس منهم ، طمعاً في العلوفة ، وأدخلوا حـوشاً كبيراً ، له باب واحد ، وصاروا يخرجونهم اثنين اثنين ، ويكتب اسمها الكاتب بحضوره ، ويبرز بهما الى خارج الباب ، فيرمي رقابهما، ولم يشعر بهما أحد منهم ممن داخل الحوش، ولم يعلموا ما يفعل بهما عند الباب ، الى أن قتل الجميع . وكان عنده من امراء السناجق مصطفى بك نائب غزة ، فكتب له طُغْراء سلطانياً ، وولاه زبيد ، وجميع ضواحيها ونواحيها ، واستمر بزبيد يتبع أموال الناخوذة أحمد ، واسكندر موز ، وأخذ ولديها عنده ، وعمل لهما علوفة ، وجهزهما الى مصر ، ونصب الأمناء والكشاف ، وكتب علوفة لمن بقي من عسكر اليمن ، وأمر عليهم مصطفى بك المذكور ، وأرسل جاووشاً بمكاتبات ، الى الامـام شرف الدين ، في الجبال ، يداريه ، ويطمن خاطره، وجاءته أجوبة بالتهنئة ، واظهار الملاءمة، وقرر أمر المملكة ، وأقام فيها من أراد من العسكر ، وعاد ، هو طالباً بندر جدة ، بما معه من الأغربة والبرشات، وأرسل إلى الباب العالي جاووشاً مبشراً بفتح اليمن ، وانه أخذ من البلاد ما لا يمكن حصره ولا عده ، وكتب اسم كل ضَيْعَةٍ وقرية ، ليس فيها الا بقرتين ، وعظّم الأمر جداً كيلا يقال : ضاع سفره سدى، والقى في سمع السلطنة من ذلك شيئاً كثيراً ، تمويهاً وتزويقاً ، والله تعالى يسامح الجميع ، ويدخلهم في بحر فضله الواسع وغفرانه الوسيع .



الفصل السادس

في ذكر عود سليمان باشا من اليمن الى جدة ، في الإياب وادائه الحج ، وعوده الى مصر ثم الى الباب

لما قرر سليمان باشا امر اليمن ، على الوجه الذي تقدم شرحه ، جمع ما كان صحبته من الأغربة والبرشات ، وشحنها بمن بقي من العسكر والآلات ، وركبها قاصداً الى جدة ، ومر بطريقه على جـــازان ، وكان مولانا السيد الشريف ابو نمي ادام الله سعده ، واسعد جده ، اخذ جازان في سنة اربـــع واربعين وتسعمائة ، من عامر عزيز ، بعد ان حاصرها واقتلعها منه ، وسبب ذلك استطالة عامر عزيز على شرفاء مكة بلسانه ، وادعاء الافتخار بحسامه وسنانه ، وذكر ما لا يليق بشأنهم الشريف ، والسفه عليهم بكل كلام قبيح ووضع سخيف ،وتكرر منه هذا الوضع الشنيع ، وبالغ في الاحتراش والتبشيع ، فحركتهم النفس الأبيَّة ، وشمخ انفهم بالعُصْبة والحمية ، وعاملوه بالكِلام بدل الكَلام ، وخاطبوه بالسنة السيوف عن السنة الاقلام ، وانشدوه على أجنحة السهام قول ابي تمام :

السيفُ أصْدَقُ انباء من الكتب ... في حده الحَدُّ بين الجِدِّ واللعِب

بيضُ الصفائحِ ، لا سُودُ الصحائف في ... مُتُونِهن جَلاء الشكِّ والرِّيَب

فتوجه لقتالهم سيدنا ومولانا السيد الشريف ابو نُمَيّ ادام الله تعالى عزه

ونصره ، ونفذ في الخافقين نهيه وامره، وجمع الجموع ، وسرى بربعه الى تلك الربوع ، واراهم مقدارهم في ديارهم ، واحاط بقلعتهم وحصارهم ، فما اطاقوا جلاده ، ولا حملوا قواضبه وصعاده ، وخرجوا فارين من الحصن، على الحُصُن الجياد ، طائرين من المهاد الى الوهاد ، فهرب عامر الى اقصى البلاد ، وتسلم مملكة جازان عسكر مولانا السيد الشريف ابي نُمَيّ واقام فيها من جانبه مقدماً يضبطها ويعُولها ، وصار اليه محصولها ، فلما احــاط سليمان باشا علما بذلك ، أخرج من جازان نائب السيد الشريف ، وقرر فيها نائبا من جانبه ، وجعلها من مضافات صاحب زبيد، ورتب فيها عسكرا من الاجناد، وزعم انها مما افتتحه من البلاد، وتعدى الى ان وصل الى جدة في العشرين من ذي العقدة، سنة خمس واربعين وخمسمائة ، وضرب مخيمه في ساحل جدة ، وجهز جميع الأغربة والبرشات ، والآلات التي معه الى جهة مصر ، وصار في فئة قليلة ، وتوجه الى مكة لأجل الحج ، وكان مولانا السيد الشريف أبو نُمَيّ دامت سعادته ، غائباً في نواحي الشرق ، ودخل سليمان باشا الى مكة ، وطاف وسعى ، ونزل في قرب باب العمرة ، في الموضع الذي كان مدرسة للمنصور الغساني ، من بني رسول ، سلاطين اليمن فيما قبل ، وصار الآن رباطاً للمرحوم داود باشا ، في القاعة المطلة على المسجد الحرام ، من جهة باب العمرة ، وأتى مولانا السيد الشريف أبو نُمَيّ — دامت سعادته — من البر للسلام عليه ، فلم يشعر به الا وقد لاقاه ، بعد أن فرغ من الطواف ، وهو يصلي في حجر اسمعيل ، وقــد احدقت بالطواف ، وأبواب المسجد ، عساكر مولانا السيد الشريف ، وازدحموا عليه في الحِجْر ، فأهاله ذلك ، فلاطفه مولانا السيد الشريف ، وتحادثا قليلا ، ثم ذهب مولانا السيد الشريف عنه الى البر ، فوصل في ثاني ذلك اليوم أمير الحاج المصري ، وكان في ذلك العام ، مصطفى بك ، المعروف عند الأرْوام (صغصغان مصطفى) وعند العرب مصطفى النشار ، لأنه نشر بعض قطاع الطريق نصفين ، بالمنشار ، وكانت العادة دخول أمير الحاج في موكب عظيم ، ومشاعل بكثرة ، ليلا فيطوف طواف طواف القدوم ، ويعود الى الزاهر ، ويدخل في الصبح في موكب آخر ،

يلاقيه فيه صاحب مكة ، بخيله ورجله ، والقضاة والأعيان ، ويوصلونه الى محل سكنه المعتاد ، وهو مدرسة الأشرف قايتباي . فترك مصطفى أمير الحاج جميع ذلك النظام ، ودخل وحده وخلفه مملوكان ، وبدأ بالسلام على سليمان باشا قبل الطواف ، وهو خائف يرتعد منه ، وقدم له هدايا ، وهو غير آمن منه ، لأنه هو وجميع من بمصر من الأمراء وغيرهم، ما كانوا يتوقعون عود سليمان باشا من الهند ، خصوصاً مع هذه السرعة ، وظنوا أنه يصير نَسياً مَنسِيّاً هناك ، فتقرب أكثرهم الى خاطر داود باشا ، لا سيما مصطفى النشار ، فانه انتدبه لأمور مهمة، وصار من أعظم خواصه ، فلم يطب خاطر سليمان باشا ، وأدرك مصطفى النشار بذلك ، وصار في غاية الخوف منه ، والمداراة له ، وأظهر سليمان باشا جبروته بمكة، وعمل ديواناً في مقام الحنفي، ونُصِب له كُرْسي وجلس عليه ، وكان قاضي مكة يومئذ مصلح الدين افندي ، المعروف بمصدر مصطفى ، وهو أول قضاة الأروام ، الذين تولوا قضاء بلد الله الحرام ، فطلبه الى ديوانه بمقام الحنفي، وأجلسه تحت الكرسي، في الأرض ، ووقف بين يديه شخص من الاورام صوفيٌّ يقال له : موسى ، وينبز بقِزل آشك، فقال له سليمان باشا : أنت الذي يقال له (قزل آشك) فقال : سود الله وجه من لقبني بذلك. فأمر به ان يفرش ويضرب ، فقال له : هذا بيت الله الحرام لا يضرب فيه احد ، فأمر باخراجه الى باب السلام ، وضربه هناك ، فأخذ الى باب السلام ، وكان الذي أمره بضربه عنده لُطْف، وخوف ، من الله تعالى فضربه نحو العشرين سوطاً واطلقه، ورجع الى سليمان باشا وقال له : ضربناه ضرباً مبرحاً الى ان انقطع انينه ، وحملوه في بساط . واستعظم الناس بعض اوضاعه الجبروتية ، وطلع الى عرفات للحج ، مع سائر الحجاج ، ووقف بذلك الموقف الشريف ، وهو في غاية الاعوجاج ، والتحريف ، وما رأى احد منه صدقة ولا ضراعة، ولا اطعاما لفقير يدفع عنه المجاعة ، بل يقال : انه دار في أرض عرفة ، وطاف بخيم الناس ومضاربهم ، فمها اعجبه منها كتبها عنده ، وكتب اسم صاحبها في دفتر ، فلما عاد من الحج ارسل الى اصحابها لطلبها منهم ، فأخذ ما

راد منها ، بعضها بغير ثمن ، وبعضها بأبخس ثمن ، فهذا من جملة اعماله في ذلك اليوم الشريف ، بذلك المحل الاطهر المنيف ، ولعل الله تعالى غفر له جرائمه ، وعفا عنه مظالمه ، ببركة الحج الشريف ، ووقوفه بذلك الموقف المكرم المنيف ، فقد ورد في ذلك آثار كثيرة ، واحاديث كريمة أثيرة ، تُطمِعُ في رحمة الله تعالى ، يرجو بها العَبْدُ غفران ذنبه وان عظم وتوالى ، ويُرْضي الله تعالى الخصوم ، ويبريء بمراهم الفضل والانعام ما سبق لهم من الجراح والكلوم .

ثم ان سليمان باشا بعد اداء الحج ، توجه برا الى مصر ، واخذ من امير الحاج المصري والشامي ما اراد من الجمال والدواب ، وتقدم على ركب الحاج ، وصار هو ومن معه ركباً وحده ، وتوجه معه المرحوم المقدس مولانا السيد احمد بن سيدنا ومولانا المقام الشريف العالي ، نجم الدنيا والدين ، السيد الشريف ابو نُمَيٍّ ، وهو مراهق بعد ، لأن يدوس بساط السلطنة العظمى ، ويتشرف بلثم ركابها الأسمى ، واستدعى له والده ان يكون امير مكة المشرفة ، وان يخفق على رأسه اللواء الشريف السلطاني ، ويبلغ بذلك نهاية السُّول وغاية الأماني ، وصحبه من اعيان مكة وكبرائها ، وساداتها وقضائها وعلمائها ، جمع كبير ، اختاروا السفر معه والمسير .

منهم قاضي القضاة ، شيخ الاسلام واسطة عقد الليالي والأيام ، رئيس مكة وكبيرها ، ومشيد أركانها ومشيرها ، من له أصل أصيل ، له في السيادة سمو ، وبيت كبير له في الرياسة نمو ، وعرق عريق لفروعه في المكارم رواحٌ وغدو ، مولانا القاضي عبد الوهاب تاج الدين ، بن نجم الدين المالكي الشهير بابن يعقوب ، نسبة الى جده الأعلى .

ومنهم قاضي المسلمين ببلد الله الأمين ، أحسن الناس وجهاً وقداً ، وشكالة ، وهيكلا يملو العيون قبولاً وجلاله ، ذو الأصل العريق ، والأرومة الشامخة غصنها الوريق ، القاضي ابراهيم بن أحمد بن أبي السعود بن ظَهِيرة الشافعي .

ومنهم السيد المثيل ، والشريف المكرم الجليل ، سفير الدولة الحسنية ولسانها ، وترجمان كلمتها الى سلاطين زمانها ، نقاوة السادة النُّمَوية ، وخلاصة الغرة النَّبَوية ، السيد عَرار ، بوأه الله جنات تجري من تحتها الأنهار ، ومن انضم اليهم في لفيفهم ، ونظمه سلك عقدهم بواسطة شريفهم .

وكان جل المقصود من هذا السفر عود مناصب القضاء الى قضاة العرب ، كما جرت به العوائد السابقة ، من الأزمان السالفة ، فما أنجح مرامهم ، ولا أصاب مرمامم سهامهم ، وبعد التعب والأين ، وقطع شقة السفر ومشقة البَين ، عادوا بخُفّي حُنين .

ووصل سليمان باشا الى مصر ، ثم توجه الى الباب العالي ، ومعه الجماعة المذكورون ، وكان الوزير الأعظم يومئذ لطفي باشا ، زوج اخت حضرة السلطان ، سليمان خان ، تغمده الله تعالى بالرحمة والرضوان ، فأظهر لهم أنه افتتح عدن ، وألحقها بإقليم اليمن ، وعظم شأن ذلك القطر الواسع ، وكبر قدر ذلك المكان الشاسع ، وسمى لهم أسامي بلدان ، وأمصار وحصون ، كبيرة المقدار . واسعة المجال والمدار ، وهم لا يعرفون شيئاً مما ذكره ، ولا الأسماء فضلاً عن المسمى ، ولا يحلون ما عقده لهم من ذلك المُعَمّى ، وقال لهم : افردوا لي ديواناً يعطى فيه المناصب ، في البلدان التي افتتحت عنوة بسيفي القاضب ، وبين لهم بذلك نتائج سفره ، وتبَجّح عندهم بنصرته وظفره ، ولو نظروا في حقيقة الحال ، وتدبروا ما سيؤول اليه في المآل ، علموا انهم كانوا في غنى عن هذا العنا ، وتيقنوا انه جرّ اليهم مِحَناً وإَحناً .

ولقد سمعت المرحوم أحمد حلبي المقتول ، دفتر دار مصر ، يفاوض المرحوم داوود باشا في حدود سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة ، فقال : ما رأينا مَسْبكاً مِثْل اليمن ، لعسكرنا كلما جهزنا اليه عسكراً ذَاب ذوَبان المِلح ، ولا يعود منه الا الفرد النادر ، ولقد راجعنا الدفاترَ في ديوان مصر من زمن ابراهيم باشا الى الآن ، فرأينا قد جهز من مصر إلى اليمن ، في هذه المدة ثمانون ألفاً من العسكر ، لم يبقَ منهم في اليمن ما يكمل سبعة

آلاف نفر ، انتهى كلامه .

قلت : وقد تجهز بعد ذلك الى هذا الزمان ، أضعاف ما ذكر محمد بيك رحمه الله تعالى، وهلم جرا الى آخر الزمان ، وهذا سر إلهي ، لا يعلم حقيقته إلا الله تعالى ، والذي يلوح للخاطر أن سبب نقصان بركتهم ، وتقهقر عددهم ، ما يرتكبونه من ظلم العباد ، وما يتصاعد من المظلومين من الأدعية، التي تصدر عن قلوب منكسرة ، وليس لها ناصر الا الله تعالى ، والله سبحانه وتعالى يلهم حكامنا وأمراءنا العدل والانصاف ، ويعدل بهم عن الجور والاعتساف ، انه مجيب الدعوات ، ومقيل العثرات .

وكان من أمر سليمان باشا أنه استمر وزيراً بالباب العالي ، الى أن وقعت مناقشة ومنافسة بينه وبين خسرو باشا الوزير الثاني ، في الديوان العالي ، بسبب وقائع فعلها بمصر ، واسند كل منهما الى الآخر ما لا يليق ، فأدى الحال الى عزلهما ، فاستمر معزولاً الى أن مات في (جفتلكة) في سنة بضع وستين وتسعمائة .

وأما من توجه معه الى الباب العالي من أهل مكة شرفها الله تعالى ، فبعضهم مات بالطاعون ، ومنهم السيد عرار بن عجل ، في اسطنبول ، وأنشد للمرحوم السيد أحمد ، وهو يجود بنفسه .

تمتع من شميم عرار نجد   فما بعد العَشِيّة من عرار

وُقرر لمولانا القاضي تاج الدين المالكي ثلاثون عثمانياً من جوالي مصر ، تحمل إلى مكة في كل عام، واستقرت له الى أن مات، في يوم عاشر محرم، سنة ستين وتسعمائة .

وقرر للقاضي ابراهيم بن أحمد الشافعي أيضاً ثلاثون عثمانياً من الجوالي أيضاً، تحمل الى مكة، استمرت له الى أن مات في سنة ثلاث وستين وتسعمائة.

وعاد مولانا السيد أحمد بالسَّنجَق الشريف السلطاني الى مكة ، واستمر أمير مكة الى أن توفي الى رحمه الله تعالى في سنة احدى وستين وتسعمائة ، ودفن عند أسلافه ، وعملت له قبّة عظيمة بالمعلاة ، رحمه الله تعالى .

الفصل السابع

في ذكر ولاية مصطفى بك زبيد وأعمالها ، وبيان مدة ايالته

كان مصطفى بك المشار إليه ، عارفاً ضابطاً ، مائلاً الى الرعية، ينصفهم ويعضدهم، ويساعدهم ولكنه كان سفاكاً للدماء ، أقام سنة في زبيد، وحدثته نفسه بأخذ تعز،وجرد اليها عسكراً،وتوجه لأخذها،وقاتل اهلها أشد مقاتلة، فما تمكن من فتحها ، ورجع الى زبيد ، واستمر بها الى ان عزل منها ، ولم يؤثر عنه شيء من الآثار لقلة مدته وقصرها، وسرعة انقضاء ايامه وغررها، وما كان يلقب بكلربكيا ، ولا يطلقون عليه باشا ، وما كان يطلق عليه إلا اميرا،حاملا للواء السلطنة ولا يذكر في خطبة ولا في سكة لا هو ولامن بعده الآن .



الفصل الثامن

في ذكر ولاية مصطفى النشار في المرة الاولى ، وبيان نبذ من احواله

كان مصطفى هذا مرّاجاً عند دخول السلطان سليم الى مصر ، ولما رجع السلطان سليم الى الروم رتب طائفة من العسكر ، اختاروا الإقامة بمصر ، وكان هذا ممن اختار الاقامة بمصر ، وكان في ايام فتنة احمد باشا وعصيانه ممن نهب خزينته ، وحصل مالاً له صورة ، ولا زال يترقى الى ان صار كاشفا بمصر ، ثم ولي امرة الحاج سنين متوالية ، وكان في طريق الحج ، اذا وقع في يده سارق او قاطع طريق ، نشره ، فسمي مصطفى النشار ، وكان خصيصاً بداود باشا ، فعرض له داود باشا مملكة اليمن في سنة سبع واربعين وتسعمائة ، فأعطاه السلطان إيالة مملكة اليمن ، فتوجه الى اليمن ، ووليها عوضاً عن مصطفى بك ، واظهر فيها العدل ، وضبطها ، ومهد امورها وغمطها ، وكان احد المشكورين سيرتهم باليمن ، وهو اول من اطلق عليه لفظ الباشا ، والبكلربكي وكان قبل ذلك يطلق على كل واحد منهم فلان بك وهذا قيل له مصطفى باشا ، وسار سيرة حسنة ، وظهرت منه احوال مشكورة مستحسنة ، واستمر ببلاد اليمن والياً على زبيد وضواحيها وبنادرها الى ان عزل عنها سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة .

الفصل التاسع

في ذكر ولاية أويس باشا ، ممالك اليمن ، واغتيال البهلوان حسن له

عُزل مصطفى النشار في سنة اثنين وخمسين وتسعمائة، وولي موضعه أويس باشا، فوصل بحراً إلى جدة ، ثم توجه الى اليمن، فخرج منها مصطفى باشا ، في سلخ رجب : من السنة المذكورة ودخلها أويس باشا في اول شهر العقدة منها ، وهو من مماليك المرحوم السلطان سليم ، وكان له أخ شجاع ، يقال له (بُبيِوْقلُو باشا) ولاه السلطان سليم ديار بَكر ، وقتل هناك، فيحرب بينه وبين بعض ملوك التتار، وبقي هذا أويس باشا يتقلب في المناصب، الى ان ولي اليمن، وكان أويس باشا شجاعاً، متهوراً مقداماً، وكان الامام شرف الدين استولى على الجبال، واستقل بها في جيوش عدد الرمال، وجبا خراجها وحصن قلاعها وأبراجها، وسلمت اليه طوائف الزيدية منصب الإمامة وسلمت عليه بإمرة المؤمنين ، وسلم كل واحد منهم ان يكون إمامه ، وجعل ولي عهده من بعده ولده علي ، وعهد اليه ان يكون اماماً بعده ، وأكد مواثيقه بذلك وعهده ، وقدمه على جميع أولاده حتى على مطهر وهو أكبرهم ، وأشجعهم وأفطنهم وأمكرهم ، لنقصان خلقته بالعرج ، واتصافه بالجهل والعوج ، وهو ينافي منصب الامامة في اعتقاد الزيدية ، ولا يتأهل للإمامة عندهم ذو عاهة بدنيّة ولا جاهل بالأمور الدينية ، ولا متّصف بالخصال الدنيئة الردية ، فنابذ مطهر والده لذلك ، وعقه ، وزعم انه ظلمه حقه ، وأرسل الى أويس باشا

بطمعه في أخذ الجبال ، ووعده بالمعاضدة والمساعدة بالمال والرجال ، فاغتنم اويس باشا هذه الفرصة ، وأخذ لنفسه من هذه البشرى أعظم حصة ،وجند الجنود ، وكتب الكتائب ، وعقد الألوية والبنود ، وجنب الجنائب ؛ فبرز من زبيد أول ذي الحجة سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة ،الى تعز ففتحها،في أواسط الشهر المذكور ، ثم استمر متوجها بعساكره وجيـــوشه الى صنعاء ، وفتح حصون الجبال ، وحصّنها بالعُدَد والرجال ، وضبط البلاد ، وساس العباد ، وكان قد ضيق على البلاد بشدة الضبط والقهر ، وحصرهم بالاستيلاء والقسر ، فضاقوا ذرعاً بايالته ، واستثقلوا ايام دولته ،فأضمروا أن يفتكوا به،ويغتالوه غدراً ، وأن يهجموا عليه ويقتلوه صبراً ، وكان أكبر المتحركين عليه في هذا الشأن،شخص من اللوند يقال له حسن البهلوان،فاتفق مع طائفة ان يهجموا على وطاق اويس باشا ، في حال سكره ، وكان كثير السكر ، وأن يقتلوه ، وأن يتولى حسن البهلوان موضعه،وأن يبذلوا للعسكر ما وجدوا من الاموال والخزائن ، وظنوا ان ذلك يتم لهم ، فنزل اويس باشا في أواخر ربيع الآخر سنة أربع وخمسين وتسعمائة في وادي "خبّان ، وأعجبه خضرة ذلك الوادي، ونضرة سفحه البادي ، وتكسر المياه على جنبات ذلك النادي ، والأطيار تخطب على منابر الأشجار ، والأزهار والأمطار ما بين ضاحك وباك لصروف الليل والنهار ، فأنشد لسان حاله ، وقد أخذ الطرب بطوقه وأذياله :

وإذا البلابل أفْصَحَتْ بلُغاتِها فانْفِ البلابل باحتساء بلابل

فأمر بنصب مجلس الشراب ، وتعاطى إدارة الأكواب ، وتذكر في صبح المشيب عهد ليل الشباب ، فلما عز عليه عود شبابه المستطاب ، استبدل عنه بتناول الشراب ، والكباب ، وأنشد حوله الأتراب والأحبـــاب ، وأنشد بصوت الرباب ، يرثي أيام الشباب :

قد كان لي في شبيبتي طربُ يحدث لي بغتة بـــلا سببِ
فمـــذ تولى الصبا تبَيَّنَ لي ان الصبا كان موجب الطرب

حظٌّ تولّى فلستُ أدركه إلا بِعَونٍ من ابنة العِنب
فهاتِها عن شبيبتي بدلاً أقْضي به بعضَ ذلك الأرَب

وأنشد بصوت العود ، يستدعي ابنة العنقود :

هاتِ اسْقني الصَّهباءَ يا مؤنسي قد طاب عَرْف الوَرد والنرجس
والوقت قد راق ، ورقَّ الهوى وجاد بالوصل الزمانُ المسى

فسكر حتى ثمل من الراح ، وأدار في الصباح كأس الاصطباح ، ونام وهو مغرور مخمور ، فاستيقظت له عين الدهو الغيور ، وأنشد له طارق الحدثان حتى مَ هذا الغرور ، وقد انقضت ساعات البسط والسرور ، واستيقظ له الدهر الغيور :

يا راقِدَ الليل مسروراً بأوّله ان الحوادث قد يطرقنَ أسحارا

فدخل عليه حسن البهلوان ،فجلله بسيف العدوان ،وأدخله في خبر كان، وأذاقه بعد العز كؤوس الهوان ، وسقاه بعد العقار ، ماء الصارم البتار ، وأنشبت المنية فيه المخالب والأظفار ، فانتقل من هذه الدار الى دار القرار ، وأقدم مُزَمّلًا بكلومه ودمائه على ربّه الكريم الغفار .



الفصل العاشر

في ذكر قيام ازدمر باشا ، بعد اويس باشا ، وأخذ ثأره من حسن البهلوان

كان ازدمر باشا جركسي الأصل ، فلما انتقلت دولة الجراكسة الى الاروام خدم البكلربكية بمصر ، وتنقل في الاطوار الى ان صار (شادّ النطرون) بمصر ، ثم ولي كاشفاً بنواحي مصر ، ثم توجـــه مع سليمان باشا الي اليمن ، واستمر في اليمن أميراً ، وكان من الفرسان المذكورين ، والابطال المشهورين ، وكان ذا رأي صائب ، وتدبير في الحروب ثاقب ، وشجاعة وإقدام ، وصبر على نوائب الليالي والأيام ، وصدق لهجة مع العربان ، قدمه صدق لهجته على الاقران ، مع حسن عهده ، وكال نصحه في خدمة السلطان .

فلما رأى هذه الفتنة قامت ، واختل لها مملكة اليمن بعد ان انتظمت واستقامت ، شمّر عن ساق الحزم ، وادّرَع لَبُوس الهِمَّة ، وركب جواد العزم ، وسعى في إطفاء ثائرة الفتن بأرض اليمن ، وتيقـّظ لذلك بعد ان حرّم على جفنه الوَسَن ، وأظهر اليد البيضاء في إعادة الدولة العثمانية ، وحبس شياطين الفتن بالعزائم السليمانية ، وعندما تحقق موت اويس باشا اقام سنجقاً سلطانياً ، ونادى في العسكر : من أطاع السلطنة الشريفة ، وانقاد لأوامرها المنيفة ، فليقف تحت هذا اللواء الشريف السلطاني ، وليدخل تحت الظل الممدود

الخاقاني ، ومن خان وسعى في الأرض بالفساد ، قاتلناه وجاهدناه في قتاله أعظم جهاد . فانحاز اكثر العسكر اليه ، ورتبهم للقتال واللواءالسلطاني يخفق عليه ،فلما رأى حسن البهلوان ذلك المصاف ، تحقق ان مصيره بعد هذاالغدر الى التلاف ، سيا وقد شاهد أخصّاءه قد خانوه ، وشانوه بعد ان زانوه ، ففعل كما فعل الحارث بن هشام ، ونجا برأس طِمِرَّةٍ ولجام ، ففرّ هارباً ، وقطع مَهامِهِ وسباسباً ، وهرب معه من خواصه شرذمة قليلون ، والخائن خائف ولا أفلح من يخون ، فتبعه من جماعة ازدمر باشا فوارس لوابس ، فتتبعوه في النهار الواضح والليل الدامس، فأدركوه في اليوم السابع ، في ظل جامع من الجوامع، فقطعوا رأسه ، وأخمدوا أنفاسه، وسقوه بكأس سقا بها، وخضبوا لحيته من دمائه لخضابها ، وأتوا برأسه الى ازدمر، فطاف بها البلاد، ونادى عليه : هذا جزاء من سعى في الارض بالفساد فسكنت نيران الفتن وانطفت، وانمحت بواعث الفساد وانتفت،واستمر فيجنوده وجيوشه وجنوده العظام ، الى أن خيم على صنعاء وحاصرها سبعة أيام ، وفيها المطهر بن شرف الدين ، فتركها لهم، فدخل الى صنعاء وضبطها، وضبط ما في البلاد، وأرسل قاصداً الى الباب العالي ، يخبر بوفاة اويس باشا على الوجه المشروع ، وبقتل غريمه حسن البهلوان ، وبأخذ صنعاء ، وضبط البلاد ، وإطاعة العساكر السلطانية، وعدم عصيانها، وعدم مخالفتها ، وان الفساد والخلاف ما صدر الا من حسن البهلوان ، وقد أخذ بالثأر منه ، وانهم منتظرون (بكلربكياً) يضبط العسكر والبلاد،ويكونون في طوعه وتحت امره. فلما وصلت العروض الى الباب العالي، برز الأمر الشريف السلطاني إلى فرهاد باشا ، أن يتوجه الى اليمن ، ويكون (بكلربكياً) بتلك الديار . وفي أثناء هذا الهول الشديد ، وقعت فتنة عدن وزبيد ، كما نذكرها ان شاء الله الحميد المجيد .



الفصل الحادي عشر

في ذكر فتنة أخذ علي بن سليمان البدوي لعدن ، ووثوب حيدر على زبيد ، وكيف كفى الله تعالى شرهما

ولما توجه ازدمر الى صنعاء لأخذها ، ومعه جمع العساكر السلطانية ، اضطربت التهائم ، فوثب على عدن شخص من العربان ، يقال له علي بن سليمان البدوي ، على حين غفلة من أهلها ، وأخرج من فيها من الترك والروم، واستولى عليها ، وحصن حصونها ، واستمر فيها بسيفه ، وظن انها من أكفائها ، وعدّ نفسه من ولاتها وأمرائها .

وعلي بن سليمان هذا من طائفة من بني مبارك ، فخذ من آل فضل ، وهم عرب سكان البادية ، يسكنون وادي أبْيَن الذي تنسب اليه عدن ، فيقال : عَدَنُ أبْيَن ، احترازا من عدن أخرى بقرب مدينة صنعاء ، وهم طائفة قطاع طريق أشرار ، كان عامر بن عبد الوهاب يقول : ضربت العربان والبوادي إلا عرب وادي أبين . ويصلون برّاً الى الشّحْر ، ويكاد صاحب الشحر يستجيش بهم ، على من يخالفه من امراء زبيد .

وأما زبيد فوثب عليها الامير حيدر، من جماعة البهلوان، وحصنها وجلس فيها متأمراً، ومعه عدد قليل من داعية الفساد، اجتمعوا عليه وأطاعه بحسب الظاهر من كان بزبيد من النوبتجية . فلما وصل علم ذلك الى ازدمر، وهو محاصر صنعاء ، ما أرعبه ذلك ، ولا أخافه ، بل ثبت جأشه ، وأرسل من عنده

عدة فرسان ، وأمر عليهم موسى بك ، وأمرهم بسرعة التوجه الى زبيد ، وعلم ان النوبتجية الذين بزبيد ما أطاعوا حيدر إلا قسراً ، ولا دخلوا تحت طاعته إلا قهراً ، وانهم إذا شاهدوا من يقوم عليهم مَن عيَّنه العسكر السلطاني تركوه ، وانضموا اليهم وكان كما حدس ؛ فبمجرد وصولهم الى زبيد ، تكاثروا ، واجتمعت عليهم النوبتجية والعربان ، فقتلوا حيدر ، وملكوا زبيداً ، وضبطوها ، واستمر الامير نائباً عن ازدمر بزبيد .

وأما عدن فاستمرت في يد علي بن سليمان البدوي ، الى ان جهز عليها نائب مصر داود باشا عسكراً من بلوكات مصر ، وأمدهم فرهاد باشا بعسكر من بندر المخا ، بعد وصوله الى اليمن ، ففتحوا عدن ، فقتلوا علي بن سليمان البدوي ، في أوائل سنة خمس وخمسين وتسعمائة .



الفصل الثاني عشر

في ذكر وصول فرهاد باشا بكلربكيا على اليمن

كان فرهاد باشا رجلا كاملا عاقلا فاضلا ، له اليد الطولى في علم التاريخ ، يحفظ كثيراً من الوقائع والتواريخ ، يقال له (صولق فرهاد) يعني الأعسر ، وكان يسرد أسماء الملوك سرداً ، ويضبطها بكل لغة فرداً فردا ، ويذكر وقائعهم ونوادرهم ، ويَعُدُّ مواردهم ومصادرهم ، ويستحضر من ذلك شيئاً كثيراً ، وينثر على جلسائه من خزائن صدره درراً نظيماً ولؤلؤاً نثيراً ، مع استحضار مباحث فقهيّة ، ومسائل شرعية ، وأبيات أدبية ، ومفاكهة في الفنون العربية ، وكان متــين الديانة ، شديد الصيانة ، معروفاً بالصدق والأمانة ، يلازم تلاوة القرآن ، وإذا مر بآية سجدة دار وجهه وسجد ، ولو في الديوان .

اجتمعت به في حلب وهو متوليها ، في رحلتي الثـــانية القسطنطينية الكبرى ، عام خمس وستين وتسعمائة ، فأكرمني وأضافني ، وأحسن الي ، ورأيته مستحضراً لما ذكرته من الفنون ، مسترسلاً في استطراد فوائد ، كلها غرر وعيون ، يملأ بذكره الاسماع كما يملأ بوجاهته العيون ، يباسط كل أحــد بحسب مقامــه ، ويتلطف في نكته وكلامه ، أنشده بعض الظرفـــاء قول قول القائل ، متأسفاً على شبابه ، غير راض برداء المشيب وأثوابه :

وقالوا المشيبُ وَقارُ الفتى فقلتُ اصْفَـعوني، ورُدّوا شَـبابي

فقال له : أما الأولى فنقدر عليها الآن ، وأما الثانية فما يقدر عليها إلا الله تعالى . فضحك الحاضرون لذلك ، وهذه نكتة لو صدرت عن ماهر في فنون الأدب ، لسطرت بماء الذهب ، فضلاً عن تركي تكلف لسان العرب ، ولم يكن له فيه نسب ولا نشب ، وبالجملة فقد كان حسنة من حسنات زمانه ، فريداً بين أسلوبه الفائق واقرانه ، وكان ميمون النقيبة ، مبارك الطلعة ، على أهل اليمن ، انتظمت به أمور المملكة وسكنت مواد الفتن .

وكان دخوله في أول أرض اليمن، في شوال سنة أربع وخمسين وتسعمائة، فكان لأهل اليمن عيدٌ بوصوله ، وكان دخوله الى زبيد في شهر ذي القعدة ، من السنة المذكورة ، وبمجرد وصوله افتتحت صَعْدَا [1] ، وكان مقدمه على أهل السنة مباركاً سعداً ، وجهز عسكراً إلى عدن لافتتاحها ، وارسل اليه داود باشا من مصر عسكراً أمدّه بها ، فحاصروا عدن ، وقتلوا علي بن سليمان البدوى ، الذي وثب على عدن ، ودخلوها وملكوها ، في افتتاح سنة خمس وخمسين وتسعمائة فعصت عليه اشراف صَبْيَة ، وصاروا مع صاحب جازان، ابن مهدي عصبْة عليه، فدار لهم وصبر عليهم، ثلاثة أشهر، وأرسل ينصحهم ويعظهم ، ويخوفهم وخامَةَ العِصْيان ، ويحذرهم مخالفة السلطان ، طمعاً في دخولهم في الطاعة ، بدون اراقة الدماء ، فازدادوا جهلاً وعمى ، واستمروا في طغيانهم يعمهون ، وفي ثوب خيلاء الغرور يتبخترون ، فجَيَّش عليهم ، وساق جيوشه اليهم ، وقاتلهم أشد قتال ، وأذاقهم شديد النكال ، بحديد النّصال ، وصب عليهم سوط العذاب ، بوَبْـــل النّبال ، وبرزت البيضُ لمعانقة الأعناق ، وأحدقت السهام كالأهداب بالأحداق ، وتصافحت الصفائح الرقاق بالرقاب ، وانهزم القوم ، وتقطعت بهم الأسباب ، فقتل منهم جماعة كثيرة من الشجعان ، وفرسان الميدان ، منهم ابن مهدي صاحب جازان ، وكانت تلك وقعة كبيرة ، وواقعة هائلة شهيرة ، وقعت في أبي

---

(١) « صَعْدَة » : ولعل السجعة أو العجمة هي التي حملت المؤلف على تحريف اسمها ، فهو ينقل عن كتاب أعجمي تركي .

عريش من أعمـــال جازان ، في سلخ شعبان ، سنة خمس وخمسين وتسعمائة فاطمأنت الخواطر ، واستقرت النواظر ، وانتظم الحال ، وزال الملال ، وطابت التهائم والجبال، وانتصر أهل السنة على المبتدعة أهل الضلال، وظفر حزب الايمان بحزب الشيطان ، وطابت البلاد وراشت ، وانتعشت الرعية وعاشت ، وانتشرت ألوية الامن والامان ، واطمأن القلب والجنان ، تحت ظلال معدلة السلطان .

وأقام فرهاد باشا مدة اقامته باليمن ، وهو يسلك بأهلها المسلك الحسن، بحيث صارت أيامه من غرر الأيام ، ودولته مشكورة في ألـسِنَة الأنام ، وسيرته من أحسن السير في العدل والانتظام .



الفصل الثالث عشر

في ذكر ولاية ازدمر باشا المملكة اليمنية ، بعد عزل فرهاد باشا، وعودته منها الى الأبواب

كان ازدمر سبق منه معاضدة ، ونصح للسلطنة الشريفة ، عند انفصام عقد النظام ، وانقطاع سلك النظام ، في زمن قتل اويس باشا ، وارتعاش المملكة اليمنية ارتعاشا ، وكان ذلك يداً عند السلطان قدمها ، وخدمة مشكورة خدمها ، يتوقع عليها حسن الجزاء ، ويظل لاغتنام فرصها منتهزا، فأرسل اكبر اصدقائه احمد جقل ، وهو جركسي أصيل شجاع بطل ، بهدية من الجواهر واللآلي ، الى الباب الشريف العالي ، يطلب ايالة ممالك اليمن ، ويعدهم على حصول ذلك له بَذْل اعظم الثمن ، فتلطف احمد جقل في حسن الطلب ، ونال بذلك ما أمله وطلب ، الى ان قبلت هديته ، ونال أمنيته ، وعظمت مرتبة صاحبه ومرتبته ؛ والهدايا تستجلب العطايا ، وتدفع الرزايا، وتزرع بذر المحبة في ارض القلوب ، وتنيل كل مرام صعب ومطلوب ، فبلغ مراده المرغوب ، ورجع الى اليمن ومعه احكام سلطانية ، ومراسيم شريفة خاقانية ، بأن يكون ازدمر (بكلربكياً) بممالك اليمن ، ويبدي للناس صفحة وجهه الحسن ، ويزيل مواد الفتن والمحن .

وكان وصوله الى استاذه بتلك المراسيم ، في ثامن عشر جمادى الاولى ، سنة ست وخمسين وتسعمائة ، فخرج فرهاد باشا من اليمن ، وتوجه الى الباب

العالي ، فأعطي حلب ، ثم عزل من حلب ، وأعطي بغـــداد ، ثم توفي في بغداد في سنة بضع وستين وتسعمائة .

واستمر ازدمر باشا في اليمن حاكما على الإطلاق ،ضابطاً لقبائلها وعربانها من غير عصيان ولا شقاق ، ألِفوه وألِفهم ، وعرفوه وعرفهم . وكان كثير الغارات ، لا يستقر له قرار ، ولا يقيم بمكان ساعة من نهار ، الى أن احكم إمرته ، وأثبت حكومته ، وشيد دولته ، وعمر مملكته ، وكان يعـــامل أعداءه وأصدقاءه بالصدق في مقاله وعهده ، والوفاء بقوله ووعده ، فانثالت عليه الناس ، وأقبلوا عليه بغاية المحبة والايناس ، وأحبهم وأحبـوه ، ودَرَّبهم ودربوه ، فقصد ان يقطع جادرة المطهر وذويه، ويطهر وجه الارض من مقابحه ومساويه ، ففهم مطهر منه هذا المطلب ، وصار من قهره خائفاً يترقب ، ويتحصن في قلعة (ثُلا) ، وانزوى فيها واهماً وجلا ، وهي قلعة حصينة ، ذات أبنية مكينة ، ينقطع السحاب دون علوها ، وإذا وقع النسر الواقع في ذروتها طار النسر الطائر في جوها ، فرام ازدمر باشا اخذ هذه القلعة ، وقطع جادرة مطهر منها وقلعه ، واستقل بمن معـــه من الجنود ، لتحصيل هذا المقصود ، فأرسل ازدمر باشا الى الباب العالي ، يستعين عليه، بجيش يصل من مصر اليه ، لإتمام هذا المعنى على يديه ، فما تم له هذا المرام ، بل جلب على نفسه ما اتعبه في ذلك المقام ، ووصل اليه من خالفه وعكس عليه مراده ، وما تم له إلا ما شاء الله وأراده ، ولا ريب ان الأمر لله، وله الارادة ، وسنشرح تفصيل هذا الشقاق ، ان شاء الله تعالى الملك الخلاق



الفصل الرابع عشر

في ذكر وصول مصطفي النشار ، بالعسكر الجرار ، الى تلك الديار ، وميله مع مطهر المكار ، بعد اشراف ازدمر على أخذه لو وافق المقدار ، وساعات الأقدار

لما وصلت عروض ازدمر باشا الى الباب العالي، تحركت الحمية السلطانية وتوجهت الهمة الخاقانية السليمانية ، إلى اخذ مطهّر واراحة البلاد والعباد منه ، فبرز أمرها الشريف ، الى دارد باشا ، ان يجهز نحو ثلاثة آلاف بندق والف فارس ، الى اليمن ، ويجعل عليهم باش العسكر مَنْ يرتضى به ، فعين لذلك داوود باشا ، مصطفى النشار ، وأعطاه الحكم السلطاني ، الوارد من الباب العالي ، الى مطهّر،وامره ان يؤمنه اذ أطاع ، وداس البساط السلطاني وإلا فيأخذه ، ويأتي به أسيرا اليه ، وجهز العسكر على دفعات الى اليمن ، من طريق البرّ ومن طريق البحر،وارسل مصطفى النشار اميراً للحاج المصري على عادته، الى مكة، فحج سنة سبع وخمسين وتسعماية، وتوجه من مكة الى اليمن،وعاد الحجاج مع امير اسمه مراد بك، وتوجه مصطفى النشار الى اليمن، في سنة ثمان وخمسين وتسعماية ، فلما ورد الى اليمن ، واجتمع بازدمر باشا ، ونزلا بعساكرهم اليمنية والمصرية ، على (ثُلاَ) وَضيّقوا على مطهر ، الى ان عاين الموت ، وتحقق الأسر أو القتل ، والفوت ، ولكن كان له فسحة في

الاجل ، ومجال بعد في العمر والأمل ، فقدر الله تعالى بالمنافسة بين مصطفى النشار ، وازدمر باشا ، وهكذا شأن كل كبيرين اجتمعا على مطلب واحد ، وكل أميرين جمعهما مشهد من المشاهد ، وفي أمثال الفرس ما معناه :ان زاوية من زوايا المسجد يسع عشرة من الفقراء،ولا يسع اقليم واسع اميرين من الامراء واشار الى ذلك قول الله تعالى : (لَو كان فِيهِمَا آلهَةٌ الا الله لفَسَدَتا) وجرت لذلك نظائر كثيرة فيما مضى من الزمان ، وشاهدنا منها ايضاً ما هو غني عن البيان ، منها قضية غزوة (مالطة) في ايام المرحوم السلطان سليمان في سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة ، وهي شهيرة بين الناس بكل لسان ، غنية عن التبيان في هذا المكان ، ففرح مطهر بهذا الشنأن ، وتنفس بعد ان ضاق عليه الخناق ، وتحقق الهلك والمحاق ، وارسل الى مصطفى النشار يَعِدُه بمال عظيم ، وطلب منه الصلح على وجه واضح وسيم ، وقد اشرف ازدمر على أخذ (ثلا) وما بقي إلا افتتاحها عجلا ، فعانده مصطفى النشار ، وكفّ عن القتال والطعان ، وارسل الى مطهر بالامان ، وتعاقدا على الصلح على ان يطيع السلطان ، ولا يظهر الخلاف والعصيان ، ولا يَفعَلُ شيء من البغي والعدوان ، ففرح مطهر بذلك وعده عمراً جديداً ، ونعمة غير مترقبة وسعدا سعيدا، وانتكى لذلك ازدمر باشا اشد الانتكاء، واشتكى الى كل أحد تلك الحال فما نفعه المشتكى ، وما اكتفى مصطفى النشار، بمجرد الصلح بل أظهر للمطهر شأنا ، وعقد له لواء سلطانيا ، واوثقه عهداً وامانا ، وطلع بنفسه الى (ثلا) واجتمع بمطهر ، والبسه الخلعة الشريفة السلطانية، ومد له سماطا ، وقلده من درر المفاخر اسماطا،وعرض له الى الابواب السلطانية، عرضاً طنانا، وجعله من المطيعين للسلطنة الشريفة ونفى عنه خروجاً وعصيانا ، وسلب عنه بغيا وعدواناً ، واثبت له طاعة واذعانا، فجاءه من الابواب السلطانية خطاب شريف ، وكتاب مكرم منيف ، رفعه من حضيض الذل الى اوج الرفعة والتكريم ، وقلده عقداً فاخراً ابهى من الدر النظيم ، وازهى من الكوكب الدُّرِي يضيء في حِندِس الليل البهيم .

صورة المرسوم الشريف السلطاني ، الوارد من الباب العالي الخاقاني الى مطهر بن شرف الدين ، علي يد مصطفى النشار ، لما عين من مصر الى اليمن ، لقتال مطهر : —

هذا مثالنا الشريف السامي السلطاني ، وخطابنا المنيف العالي الخاقاني ، لا زال نافذاً بالعون الصمداني، واليُمْن الرباني، الى الاميري الكبيري الهمامي الظهيري العوني ، النصيري ، الحسيبي النسيبي ، فرع الشجرة الزكية ، طراز العصابة العلوية ، نسل السلالة الهاشمية ، السيد الشريف مطهر بن شرف الدين نخصه بسلام اتم ، وثناء اعم،ونبدي لعلمه الكريم أنه لا يزال يتصل بمسامعنا الشريفة اخلاصه لأعتابنا وقيامه بقلبه وقالبه في مرضاة سلطاننا ، وبمقتضى ذلك كان حصل شكرنا التام على مناصحته ، ورضانا الشريف العام على حسن خدمته ، ولما برزت اوامرنا الشريفة بتعيين وزيرنا الاعظم، الى البلاد الهندية لافتتاح ممالكها من ايدي ظلمة الرعية ، احياء لسنة الجهاد ، وقطع دابر الكفر وأهل الفساد ، استبشر بذلك كل مسلم وصار فرحاً مسروراً ، وكان امر الله قدرا مقدوراً، فرجع وزيرنا المشار اليه،فوجد طائفة من اللوند العنيد يتصرفون في قطر زبيد، زاد ظلمهم على الرعية وأهل البلاد، وعم ضررهم كل باد وناد ، وسعوا في الارض بالفساد ، فاستنقذ الرعايا من يديهم ، واوجف بخيله ورَجله عليهم ، واضاف تلك الممالك الى ممالكنا المعمورة ، وادخلها في في سلك امصارنا الواسعة الموفورة ، وعاد الى اعتابنا الشريفة ، ومعه منكم ومن والدكم مكاتيب ، تتضمن الطاعة لسلطاننا ، والاخلاص لاتباع مرضاتنا ، وتعاقبت بعد ذلك مكاتبات والدكم باظهار الطاعة ، وبذل الاخلاص والصدق والاستطاعة ، الى ان بلغنا بعد ذلك عنهما اظهار الخلاف ، وركوب جادّة مادة البغي والاعتساف،وصار يقع بينهما وبين امرائنا الخلف الكبير، والاوضاع التي يعم ضرَرُها المأمور والأمير ، وهذا عين الخطأ الذي يترتب عليه رواح الارواح ، ويؤول الى الخسران بعد النجح والفلاح ، ولا يخفى على من عقل وفهم (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم) وان مقامنا الشريف

السلطاني ، قد ملك بعون الله ولطفه الصمداني، بِسَاطَ بسَيط الارض شرقاً وغرباً ، وضبط الاقاليم الواسعة بُعْداً وقُرباً ، وصار سلطاننـــا القاهر كالإبريز المُصَفّى ، وخُلاصةالعَسْجد المستصفى، ورقم سجلات سعادتنا بآيات العز والنصر ، وعقد لنا لواء السلطنة على كافة أهل العصر ، وادام الله تعالى فخرنا على سائر الملوك باقامة فرض الجهاد في سبيل الله الى يوم العرض، وذلك فضل الله يوتيه من يشاء ، وأماما ينفع الناس فيمكث في الارض، وعساكرنا المنصورة حيث ما سلكت ملكت، وأينما حلت عَقَدت وفتكت وسفكت، لا يعجزهم ديّار، ولا يبعد عليهم ديار،فان أشرنا امرنا ان يتوجه من عساكرنا شرذمة قليلون، نحوماية الف أو يزيدون، بكمال الاستعداد من الآلة والزاد، ونتبع العساكر بالعساكر ، والجيوش بالجيوش الكواسر، يكون اولهم بالبلاد اليمنية، وآخرهم بمملكتنا الحمية السنية، ولا نحتاج الى ان نعرفكم قوة سلطاننا وسديد عزمنا وشديد أركاننا ، فان أكابر الملوك ذوي التيجان ، وأهل القوة والإمكان ، خاضعون لدولتنا الشريفة قهراً ، مطاطؤون برؤوسهم في اعتابنا جبراً وقسراً ، وذلك ظاهر لكل احد معلوم ، مشهور بين النـــاس غير مكتوم ، لكن غلب جانب حلمنا عليكم ، وعطفت مراحمنا بالالتفات اليكم لأنكم من سلالة خير البشر ، ومن آل بيت النبوة الميامين الغُرر ، فلزم على ناموس سلطتنا العلية ، ووجب على ذمم هممنا السُّنِية السنية ، ان نعرفكم بعقبى الامور قبل اتساع الخرق وانتشار الحال ، ونعلمكم بما يؤول اليه الحال في الاستقبال بحسب المآل ، وان الجبل الذي تحصن به ، وظن انه يُنجيه فهو محض الخيال وعين المحال ، وأن تدميره في تدبيره ، جهل أو علم إذ لا عاصم اليوم من أمر الله الا من عُصم :

أيْنَ المفَرُّ ولا مَفَرَّ لهارب   إلا ظِلالَ البِيْضِ والأرماح

وقد برزت اوامرنا الشريفة السلطانية،بتعيين أمير الامراء الكرام صاحب العز والاحتشام،المختص بمزيد عناية الملك العلام،مصطفى باشا،دامت معاليه،باشا

على العساكر المنصورة ، وصحبته ثلاثة آلاف من المشاة الرماة ، المجهزين معه بحرا ، وألف فرس تجهز بين يديه برّاً ، ويسير معه أمير الامراء الكرام ، المختص بمزيد عناية الملك العلام ، ازدمر باشا ، دامت معاليـــه ، بالجيوش اليمنية ، والجنود (النوبتجية) فعند وصول عساكرنا المنصورة الى تلك الديار ، وتوجههم الى حط المحطات وترتيب الحصار ، إن وصلتَ بنفسك الى مصطفى باشا ، وقابلتـــه بقلب منشرح ، ودُسْتَ بساط سلطنتنا بصدر منفسح ، فلك الأمان، وتكون من الفائزين، وتتلو مراحمنا عليك : (لاتخف ولا تحزن ، انك من الآمنين) وتنعم عليك عواطفنا بما تستحق من الممالك ، غير مُعارَض في ذلك ، ولا منازع فيما هنالك ، وإن تكبرت واستأنفت ، وجهلت وما عرفت ، أتينا بجنود لا قبل لك بها ، وأخرجناك من حصنك ذليلا، وأخذناك أخذاً وبيلا، ودخلت في قول أصدق القائلين: (يخربون بيوتهم بأيديهم ، وأيدي المؤمنين) وصرت بعد الوجود الى العدم ، وندمت حيث لا ينفع الندم ، وقد حذرناك حنوّاً وتعطفاً عليك ، وأنذرناك تلطفاً وإحسانا اليك ، وخاطبناك في هذا الباب ، بألطف خطاب ، فاختر لنفسك ما تراه، ومثلك لا يدل على صواب ، وعلامتنـــا الشريفة أعلاه حجة ناطقة لاعتماد مضمونه وفحواه . حرر ذلك في دار الاسلام ، قسطنطنيـــة الكبرى ، في عاشر شوال المكرم ، سنة سبع وخمسين وتسعمائة .

صورة ما كتبه مطهر بن شرف الدين ، الى الباب العالي ، جوابا عن هذا المثال الشريف

نوّرَ الله شمـــوس الاسلام وأطلعها ، وفجّر عين مَعِين الشريفة النبوية وأنبعها ، ولألأ كواكب الدين الحنيفي وأسطعها ، وأعلا مراتب الملة البيضاء ورفعها ، وأزال جموع الظلم والعدوان وزعزعها ، وآلف بين قلوب المسلمين

وجمعها ، بدوام أيام مولانا السلطان العظيم ، والملك القاهر البـــاهر الحليم ، القاطع بسيوف عزمه عنق كل جبار أثيم، الهادي بأوامره ونواهيه الى الصراط المستقيم، بتقدير العزيز العليم، المتسم بحماية آل الرسول، وأبناء فاطمة البتول ، وسلالة النبي الكريم ، الباسط عليهم عدله فلا ينالهم حر الجحيم ، فهم راتعون في ظلال إحسانه ظلا من النعيم ، له نبت وسيم ، الذي أوتي الحكمة ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ، والله يؤتي ملكه من يشاء من فضله العميم ، شمس الخلافة وقمرها المضيء في الليل البهيم ، ظل الله في أرضه ، القائم بسنته وفرضه ، ودينه القويم ، والحجة الواضحة للخلق على التعميم ، أمين الله على خلقه ، وخليفته القائم بحقه ، فهم راتعون في رياض أمانه ، وكارعون في حياض امتنانه ، التي لا يشوب صفوها الدهر السليم ، سامي الفخار ، وزاكي الأصل والثمار ، السابق في الحسب الصميم ، الكافّ لأكف من تجـــافى عن الهداية ، وسلك مسالك الغواية ، وكان له في الجلالة تصميم ، التي لا تحصى صفاته بتعداد ، ولو كان الشجر اقلاماً ، والبحر مداد ، واسئل بذلك كل خبير عليم ، الخندكار الكبير ، والخاقان الشهير ، السلطان الاعظم ، سليمان ابن سليم .

يهدي الى مقامه الشريف نجائب ركائب التحية والتسليم ، من الله الكريم، ورحمته الطيبة ، وبركاته الصيبة ، الموصولة بنعيم دار النعيم ، حرس الله تعالى جنابه العالي ، وحرمه المحترم من صروف الايام والليالي ، بما حفظ به الآيات والذكر الحكيم .

وبعد ، فإنه ورد من تلقائه ، أطـــال الله للمسلمين والإسلام في بقائه ، مرسومٌ سطعت بالمسرات أقماره ، وتضـــاحكت في عرصات المجد كمائمه وأزهاره ، وجرت في جداول رياض السعد أنهاره ، وتحاسد على شرفه ليل الزمان ونهاره ، فوجدناه أشفى من الترياق ، وأشهى من الأثمـــد في دُعَج الأحداق ، يتبلج بالمسرات تَبَلُّجَ البرق ، ويتحلب بالخيرات تحلب الودق ،

يفوق اللؤلؤ المنثور منثوراً ، ويفضح شقائق النعمان زهوراً ، ويجعل ممدود الزمـــان عليه مقصوراً ، فتمطرت الأندية بنشره ، وأعلنت الأنفس بحمده وشكره ، وهبت في البوادي والامصار نسيم ذكره ، ودخلت الناس أفواجاً تحت نهيه وأمره :

حبذا مُدْرَجا كريما جليلا زانه مُنشِىءٌ كريم جليـــل
لفظـــه الدر في السمو ، وفحواه ، ومعناه سَلسلٌ سلسبيل
واذا المدرجات كانت ملوكاً فهو فيها ، وبينهـــا إكليل
مدرج فيــــه للعقول غُدُوٌّ ومراحٌ ومسرحٌ ومقيـــل

فلِلّه أنامل رصعته بجواهر البلاغة ، وضمنته ما يعجز عنه «قدامة» و« ابن المراغة » ، فلو رآه الملك الضلّيل لطأطأ خاضعاً ، أو لَبيدٌ ، البليغ لخر ساجداً وراكعاً .

وعرفنا ما ذكره سلطاننا سلطان الأمم ، ومالك رقاب العرب والعجم ، المختص بحماية الحرم المحترم ، من الإحاطة بطاعتنا لِجلالِهِ ، وجولاننا تحت لواء قوله وأفعاله ، فالحمد لله الذي وفقنا لطاعته ، وذادنا عن السلوك في مخالفته ، وأنالنا بذلك الحظ الأسنى ، والنصيبَ الأوفر الأهنى ، في الخيرات والحسنى ، ونرجو ان شاء الله نيل الشرف الكامل والمآرب ، ونُجْحَ المُنى والمطالب ، ومن استمسك بعروتكم الوثقى فاز بمطالبه ، وحاز غاية القصوى في مآربه ، ورفع له الدرجات السامية العالية ، ويتم له كل سؤلٍ ومأمول وأمنية ، ويحضى بكل عيشة هنية ، راضية مرضية ، وهذه طريقة معروفة ، وسنة مألوفة ، لا تميل عن الوفاء ، ولا تكدر عن ذلك الشرب ما صفى ، كيف وطاعتكم من طاعة الملك الخالق ، ومعصيتكم تُظلِمُ منها المغاربُ والمشارق ، ونحن من مودتكم على يقين ، ونرجو انكم لا تصغوا أذناً لكلام الفاسقين ، ولا تهملوا رعاية الصالحين المتقين ، ولا تقطعوا حقاً لذرية النبي الأمين ، وأبناء عليٍّ الأنزع البطين ، كرم الله وجهه في عليين (قل لا أسألكم عليه اجراً الا

المودة في القربى) وذلك هدي الكتاب المبين ، وانتم أولى برعاية ما أمر الله به ان يُرْعى ، ويُقِرُّ من عين النبي الكريم عيناً وسَمْعاً ، فلكم مالكم من محامد مذكورة ، ومفاخر مشهورة ، ومعالى حميدة منشورة ، تؤمل أن تسقوا بحسامها يوافيخ الوشاة ، وتقطعوا طرق الواصلين بالأكاذيب والوشاة ، وتردوا كل كايد لا يراقب الله ولا يخشاه .

والذي نقله اليكم أرباب الزور ، ذوو الأفك من الناس والفجور ، من تحوُّلِنا عن طاعة السلطان الأعظم ، ومخالفتنا لما سبق من مودتنا وتقدم ، كَذِبٌ ، يعلمه الداني والقاص ، ومن المَيْن الذي لُبابُه قِلَّةُ الاختصاص ، وحاش لله وكلا أن نرضى مخالفة ، أو نميل عن الأحوال السالفة ، أو ننكر تلك المعارف العارفة ، نعوذ بالله من الحَوْر بعد الكَوْر ، أو نكون ممن تعدى الحدّ بعــد الطوْر ، ان تقاعدنا عن طاعتكم يجب علينا السعي اليها بالفور ، وإن تأخرنا عن أوامركم نكون كمن اشترى الضلالة بالهدى، وتحول عن موافقة الاسلام الى الردى ، وآل الرسول « صلى الله عليه وسلم » اعرف الناس بالصواب ، وأدراهم بمعاني السنة والكتاب (اطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) ومن نسب الينا خلاف ما ذكرناه فهو خبيث نبيث ، فثقوا منا بالمودة الراسخة أطنابها ، والمحبة الشامخة قبابها .

والذي أشرتم إليه في شأن الخطاب ، وبطاقــة الكتاب ، فمخالفتنا لعساكركم المنصورة ، وكتائبكم الواسعة الموفورة ، ليس له صحة ولا ثبات ، ولا كان لنا الى حربهم تَعَمّدٌ ولا التفات ، بل قصدونا الى هذه الأقطار والجهات ، وجلبوا علينا أتراكا وأرواماً ، وهتكوا أصلاحاً كانت بيننا وبينهم وذماما ، وما رعوا لأوامركم الشريفة فينا أحكاماً ، وضيقوا علينا مسالك المعيشة خَلْفاً وأماماً ، ورمونا بمدافع لا يرمى بها إلا الذين يعبدون اصناماً ، ولم يعلموا انا ممن أوجب الله لهم رعاية واحتراماً ، ومــن الذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ، فدافعنا عن أنفسنا وأولادنا ، ما أمكن من

الدفاع ، ودرأنا عن محارمنا وترك الرد عنها لا يستطاع ، ونحن في مهاجر يسير ، ومكان يأوى إليه الضعيف البائس الفقير ، لا ينافس من اعتصم به، واعتصم على طاعة رَبّهِ ،ولو أن عساكركم المنصورة الألوية، المسَلّمة عن صروف الأقضية، وجهوا هممهم العلية، وعزائمهم الصليبة القوية، الى الجهات الكُفْرية، لنالوا من الخير نيلاً عظيما، وسلكوا الى سبيل السعادة صراطاً مستقيماً، وأصلوا أفئدة الكفار ناراً جحيماً ، وأدركوا من فضل الله جنة ونعيماً ، بيْد أنهم تشاغلوا بحربنا عن جميع الحروب، وفوتوا بذلك كل غرض مطلوب ، وأهملوا جهاد الكفار حتى سقط الجنوب، وهبت من ديار الاسلام للشر صباً وجنوب، وحين وصل المرسوم الشريف ، والمثال الكريم ، والخطاب الوسيم ، طبنا به نفوسا ، سلكنا به من الانس محلا مأنوساً ، وخمدت نيران الحرب ، وغلت أيدي الطعن والضرب ، فقر منا بما قروتموه لنا كل قلب ، فان امتثل من حوالينا من الامراء والأكابر ، لما صدر منكم من النواهي والأوامر ، وثبتوا فيما ذكرتموه مر الموارد والمصادر ، فذلك البغية المقصودة، والضالة المنشودة ، والدرة الثمينة المفقودة ، والغنيمة العظيمة الشاملة المحدودة ، وان خالفوا أوامركم الكريمة المطاعة ، وقابلوا نواهيكم اللازمة بالاضاعة ، فحَسْبَهُم من عذابكم الوبيل ، ما تعدونه لمن خالفكم من التنكيل ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وكنا نود أن نرسل إلى الأبواب الشريفة ، والأعتاب الفخيمة الزليفة ، رسولاً ينهي اليكم حقائق الأمور ، ويرفع إلى مسامعكم الكريمة من عين المقدور ما تكن القلوب منا والصدور ، إلا أن هؤلاء الذين يَلونا سدوا علينا وقطعوا من التواصل أوصالاً ، وقعدوا لرسلنا كل مقعد بكرة وآصالاً ، وصدوهم عن الوصول الى أبوابكم العالية عن الأبواب، ومنعوهم عن مناهج الذهاب والإياب، فلو كان منهم ما نريد لكان صدر الى أبوابكم الشريفة ، منا في كل حين من نريد ، وحين وصل وكيلكم الباشا مصطفى ، الى هذه الجهات اليمنية ، والديار التي هي لسيوف قهركم محمية ، بسط عدله في أهل اليمن ، وأخمد

نيران الفتن ، وأصلح الأمور ما ظهر منها وما بطن ، واطّلع على الحقائق ، وهو يعرفكم من حالنا السابق ، وما نحن عليه بحمد الله من حسن المساعي والطرائق ، وكرم الأصول الشريفة والمعارق .

وقد ارسل الينا قصاداً بالظاهر منها والمستور ، ولعل الله سبحانه يهيء قدومه الى صنعاء ، ويحيى به دينا للاله وشرعاً ، ويقطع به دابر من خالفكم وخالف امركم قطعاً ، ولعمري انه لرجل عظيم ، وذو شأن فخيم ، قد فاقت شمائله ، وراقت اوصافه ومخائله ، فهو بكل خير يجود ، ويحمل من طاعتكم ما يشق على غيره ويؤود ، فالله تعالى يجعل سعيه مشكوراً ، ويشرح باعماله من الأمة قلوباً وصدوراً ، ويدفع بعنايته عن الاسلام والايمان شروراً ، ويملأ الافئدة والنفوس حبوراً، ان شاء الله تعالى وسروراً، جرى ذلك في شهر الله الاصب ، رجب المرجب ، سنة ثمان وخمسين وتسعمائة .



الفصل الخامس عشر

في استقلال ازدمر باشا بمملكة لليمن الى ان عزل بعد هذا الصلح ، وعود مصطفى النشار الى البـاب العالي

لما رأى أزدمر باشا ميل مصطفى النشار الى مطهر ، والصلح معه وتركه على حاله ، لم يجد بدأ من موافقته على ذلك ، فوافق وصالح ، ولوتحلوا عن (ثلا) وعاد مصطفى باشا الى مكة في آخر سنة تسع وخمسين وتسعمائة ، وحج وعاد الى مصر .

واستمر ازدمر باشا حاكماً ضابطا في اليمن وتخلف عنده جميع العسكر الذين جهزوا من مصر مع مصطفى باشا فقوى بذلك وافتتح عدة من البلاد ، ونشر بها ألوية العدل على العباد ، فمما افتتح أزدمر من بلاد اليمن : كحلان وحُبَيش ، والشوافي ، وعُتمة ، والمخلاف ، وخنفر .

ورتب في كل منها رتبه من العسكر ، وضبط سائر طرقات البر وبنى في بعضها حصونا وقلاعاً محكمة ، وعاهد العربان وعاقدهم عقوداً مبرمة ،واحبته أهل اليمن واحبوه ، واختبروا صدق كلامه وجربوه ، فوجدوه ثابتاً في اقواله ، صادقاً في مواعيده ومآله ، فاستمر سبعة اعوام ونصف (بكلربكيا) في ارض اليمن ، سلك معهم فيها بالسيرة الحسنة ، والسلوك الحسن ، مع الرضا التام ، من الرعايا ، وميل الفقراء والمشايخ اليه في المساجد والزوايا ، وشكر

العسكر من حسن مقابلته، ولطف مكالمته ومجاملته، وطرح عنه التكلف في مأكله وملبسه ، ولزم التقشف التام في مقامه ومجلسه ، بحيث كان يلبس فروة من جلد الذئب ، عليها جوخ مجرود لا يُبدّله صيفا ولا شتاء ، ويأكل خبز الذرة من غير ادام ، كيف ما اتفق له ، من غير تأنّق ولا تكلف ، وينام على الارض بدون فرش ، ويشرب من ركوة عتيقة ، أو شن بال ، ولا يفـــارق ظهر حصانه ، ويغير في ليلة واحدة من مسافة ثلاثة أيام الى غير ذلك من التقشفات.

واستمر (بكلر كبيا) في مملكة اليمن كذلك، الى ان بلغه ان مصطفى النشار يريد اليمن ، ويسعى في الأبواب السلطانية فيها ، فبادر هو الى طلب العزل عن اليمن ، اختياراً منه لذلك ، وأرسل كيخيته جقل أحمد ، إلى الباب العالي ، واستعفى عن اليمن واستأذن في الرصول الى الاعتاب السلطانية ، فاجيب على سؤاله ، وعاد اليه جقل أحمد ، ومعه الاذن له على الوجه الذي أراد ، فحصل المرام والمراد .



الفصل السادس عشر

في ذكر بروز ازدمر باشا ، وتوجهه من سواكن الى مصر ، ثم الى الباب العالي ، ثم الى الحبشة .

لما وصل لازدمر باشا الإذن في الوصول الى الباب العالي ، اختار أن يجعل طريقه إلى مصر على سواكن ، ولم يمر بمكة ، وسبب ذلك ما اشيع عنه انه كان سبب الفتنة التي وقعت في أيام علي باشا الوزير نائب مصر ، وانه كان عرض الى الأبواب ان الشريف أمير مكة يوالي المطهر ، ويكاتبه ، وذلك باطل لا أصل له ، فان مولانا السيد الشريف ما أهل مطهرا قط لأن يكتب اليه مكتوبا يراسله ، وليس بينهما موالاة ولا تعارف ، بل كان بينهما عداوة قديمة ، وما كتب الى مطهر مدة عمره مكتوباً غير مكتوب النصيحة بعدما أظهر العصيان ، فيما بعد هذا التاريخ في سنة خمس وسبعين وتسعمائة ، كما سيأتي تفصيله إن شاء الله تعالى، وما أقدم ازدمر باشا أيضاً على هذا العرض، ولكن لما شاع ذلك عنه اختار ان لا يمر بمكة ، فما وجد طريقاً إلى مصر غير سواكن ، وكانت عامرة إذ ذاك ، فاضمر أن يطلب إيالتها ، ويسوق إليها عسكراً من مصر ، ويفتتح ارض الحبشة ، ويظهر فيها شجاعته ، ويقيم سنّة الجهاد في سبيل الله هنالك ، فتوجه من البر من سواكن الى مصر ، فوجد بها علي باشا الوزير ، فوصل الى الأبواب العالية ، وكان أيام وزارة أحمد باشا ، فقدم هدايا كبيرة سنية ، وتحفاً كثيرة بهية ، واجتمع

بحضرة المرحوم السلطان سليمان رحمه الله تعالى ، وما وقع ذلك لأحد قبله من بكلربكية اليمن، وركب مع المرحوم السلطان سليمان في ركابه، وتكالما ، وتحادثا على ظهر الفرس ، وخاضا في شؤون الكلام ، فعرض عليه أن يفتح له مملكة الحبشة ، وكان المرحوم السلطان سليمان يحب الجهاد كثيراً ، ويهمه دائماً اعلاء كلمة الله تعالى ، فإنه دأبه وهجيره ، هو وأسلافه الكرام ، تغمدهم الله تعالى بالرحمة والاكرام، وبوأهم مقعد صدق في دار السلام، فأعجبه ما ألقاه اليه ، وقبل في هذا الباب كل شيء عرض عليه ، وأمر له بعسكر جرار يجهز معه من مصر ليتوجه الى مقصده، ويفتتح بلاد الحبشة كلها بسيفه ويده ، ويظهر فيها عز الاسلام ، وينكس ألوية الصليب والاصنام، فجاء بالاحكام السلطانية الى مصر، وجمع فيها نحو الثلاثة آلاف من العسكر، كتبهم في العلوفة ، وتوجه بهم براً الى سواكن ، وتعب أهل مصر لذلك ، وضاقوا ذرعاً بهذا العسكر المجتمع من كل مكان ، وصاروا يختطفون ما ارادوا ، ويتعدون ويفسدون ، الى ان رد الله تعالى شرهم ، وسافروا الى الصعيد ثم إلى سواكن ، فمهد تلك البلاد ، واقام فيها سنة الجهاد ، وبنى بها القلاع وغزا عدة غزوات ، ظفر في كثير منها ، وانكسر في بعضها ، والحرب سجال ، وكانت سواكن قبله يتوجه اليها الأمناء من مصر ، فصارت من بعده للبكلربكية ، وكانت من قبل اطيب حالا منها الآن ، لأن البكلربكية في الاكثر يظلمون ويغشمون ، وعن نهج الحق يعدلون ، ولا يعدلون ، والمنصف فيهم قليل جداً خصوصاً اذا كانوا في اطراف الممالك .

واستمر أزدمر باشا في بلاد الحبشة ، مجاهداً في سبيل الله افتتح عدة من البلاد، هناك الى ان توفاه الله تعالى في عام سبع وستين وتسعمائة في (دوارروه) ودفن بها ثم نقلت رمته الى مُصَوَّع ، ودفن بها ، وبنى عليه قبة ولدُهُ عثمان باشا ، لما ولي بعده بكلربكي الحبشة .



الفصل السابع عشر

في ولاية مصطفى النشار بمملكة اليمن الى ان توفي بها

لما عزل أزدمر باشا عن اليمن بطلبه ولي مكانه مصطفى النشار فوصل الى مكة في موسم سنة اثنين وستين وتسعمائة ، وهو امير الحاج المصري ، فوقف بعرفات ، واكمل حجّه ، ورجع بالحاج المصري الامير مراد بك الى مصر ، وتوجه هو براً الى اليمن، وكان دخوله زبيدا في العشرين من شهر صفر سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة ، فاستقبله أهـــل بلاد اليمن ، بالبشر والوجه الحسن ، وعاملهم باللطف والاسعاف ، وتلقاهم بالعدل والانصاف ، ونفى عنهم الجور والاعتساف ، وهو احد البكلاربكية المشكورين ، عند أهـــل اليمـــن ، المذكورين في السنتهم بالمعنى الحسن ، وله مآثر أثيرة ، ومحاسن كثيرة .

منها أنه احدث لحجاج اليمن محملا ، مثل محمل الحاج المصري ، والشامي ورتب لهم امير الحاج ، وقاضي المحمل ، وعَرْضة مثل عَرْضة امير الحاج المصري والشامي ، فيبرز السيد الشريف صاحب مكة لملاقاة امير الحاج الـــيماني بعسكره ، الى خارج مكة في بركة الماجن ، ويلبس الخلعة الشريفة السلطانية ، من يد أمير الحاج اليماني ، ويدخل معه الى مكة كما يفعل ذلك مع أمير الحاج المصري والشامي ، ريفارقه مولانا السيد الشريف عند المرور على دار السعادة ، ويتوجه أمير الحاج اليماني بمحمله الى أن يصل الى المعْـلاة فينزل عن

يمين النازل الى المعلاة في سفح جبل عند البستان المعروف الآن ببستان المدني، بقي منه شجيرات سدر ، وبطلع المحمل مع جماعة المحامل ، يوم الصعود الى عرفات ، فينزل قبل الوصول الى محطة أهل مكة ، على يمين الصاعد الى عرفات ، ويحمل وقت الوقفة بعَلَمه وطبله وزمره ، ويسير الى نحو جبل الرحمة ، فيقف بجبل عرفات بين يدي من يخطب خطبة عرفة ثلاثة محامل : المصري ، ثم اليماني ، ثم الشامي .

وأفرد لذلك مالاً يصرف عليه من الخزائن السلطانية ، التي تحصل في اليمن ، واستمر ذلك قانونا جاريا الى الآن ، وكان من قبل ذلك يأتون للحج من بلاد اليمن ، بدون أمير الحاج ، وبدون المحمل ، بل تأتي قافلة يكون لها شيخ من بني مرزوق السادة المشايخ ، نفع الله تعالى ببركتهم ، وهذه من مآثر مصطفى باشا النشار ، بأرض اليمن ، رحمه الله تعالى . وله مدارس ، ومساجد ، ومآثر ، ولم تطُلْ مدته هذه في اليمن ، بل كانت أسرع من غمض الوسن،فما استقر قليلاً،ولا ردّ طرفاً كليلاً،إلا سقاه صروف الدهر كأس الحِمام ، ومضى الى دار السلام بسلام ، ومضى النشار الى يوم النشور ، رهين جنادل وصخور ، وكانت وفاته في عام سبع وستين وتسعمائة،وله تربة هنالك وعليها أوقاف لوجوه البر .

وكان كيخيته يوسف ضبط المملكة الى أن وصل اليها متوليها الجديد ، نائب غزة ، قره شاهين مصطفى .



الفصل الثامن عشر

في ولاية مصطفى باشا قره شاهين

كانت نيابة غزة طريقاً لبكلربكية اليمن ، وكان في ذلك الزمان نائب غزة هو قره مصطفى بك ، الملقب قره شاهين ، لحذقه ونجابته في صغره ، وسمرة لونه ، وهو من قدماء مماليك المرحوم المقدس ، السلطان سليمان خان، وربي في سراي السلطنة ، وتقلب في المناصب ، وترقى في المراتب ، الى ان صار لالا المرحوم السعيد،السلطان بايزيد ، وعزل حيث كتب الله له السعادة، وولي نيابة غزة ، وانتقل منها الى البكلربكية اليمن ، ووصل من مصر بحراً الى جدة ، في عدة أغربة .

ولاقيته الى جدة ، وجاء الى مكة محرماً بالعمرة وطاف معي وسعى ، وعاد الى جدة ، وتوجه بحراً الى أن دخل اليمن ، وكان معه ولده بهرام ، الذي صار بكلربكيا اليمن ، فيما بعد ، وولد اخته محمود بك الذى كان دفترداراً فيأيام مراد باشا ، فاستمر مصطفى باشا في اليمن بكلربكياً، وسلك طريقاً وسطى ، ولم يمـــل الى الظلم ، ولم يسفك الدماء ، فشكروا سيرته ، وحمدوا حكومته ، إذ طابت سريرته وصفت طويته ، وخلصت نيته ، ولم يُعَبْ بشيء سوى حب المال ، وجمع التراث والأموال ، مع القصد في البذل والإفضال ، وبالجملة فكان خيراً من كثير من البكلربكية ، ومن أحسن ولاة الممالك اليمنية ، وعزل عن اليمن في سنة سبع وستين وتسعمائة ، ووصل من

اليمن بَرّاً الى مكة ، وقدمها في ثاني ذي الحجة من العام المذكور ، ولاقاه المرحوم السيد عِجْل بن عَرار ، في نحو مائة خيّال ، وخرجنا الى ملاقاته، فدخل محرماً بالحج ، فطاف معي طواف القدوم ، ونزل في مدرسة قايتباي، واتفق في هذا العام ان ولده رضوان بك ، الذي صار بعد ذلك بكلربكياً في اليمن ، وصل من الشام ، وهو أمير الحاج الشامي ، وخرج هو للقاء ولده الى التنعيم ، فتلاقيا واعتنقا وبكيا، وكانت ساعة رقّت فيها قلوب الحاضرين وكنت معهم ، فحصلت لي عَبرة معهم ، وحجا معاً ، وكانت الوقفة يوم الاحد ، وحصل ذلك العام رَجّ في إثبات هلال ذي الحجة الحرام ، وكانت الناس قد بَنَتْ على ان أول الحجة يوم الأحد ، فلما كان ليلة السبت وهو السابع ، في ظن الناس ، وصل الحجاج الشاميون ، وشهدوا عند قاضي مكة الأفندي عبد الباقي بن علي العربي ، انهم رأوا هلال ذي الحجة ليلة السبت ، وان هذه ليلة الثامن ، وهي ليلة صعود أهل مكة الى جبل عرفات عادة ، فإنهم يقدمون الطلوع الى عرفة بيوم ، ويستمرون اليوم الثامن واليوم التاسع في عرفة ، وهو خلاف السنة ، فإن السنة الطلوع بعد صبح الثامن الى مِنى ، وأن يصلى فيها الظهر والعصر ، والمغرب والعشاء ، والصبح ، ثم يتوجه الى عرفات . وقد ترك الناس هذه السنة إلا قليلاً ممن يقصد إحياءها ، وفقنا الله تعالى لذلك ؛ فلما ثبت ذلك عند القاضي ، أرسل في الحال ،ونادى بعد صلاة العشاء ، في شوارع مكة ، بأن أول الحجة يوم السبت ،وان هذه ليلة الثامن، فاضطرب الناس لذلك ، لأنهم ما كانوا تهيأوا للرحيل الى عرفة ، ظناً ان في الوقت فسحة ، وتزاحموا على تحصيل الجمال ، وطلع كِرا الجمل نحو الدينارين، وكانت العادة دون الدينار الواحد ،وحج الناس حجة هنية من غير رعب ولا فزع ، والحمد لله .

وعاد مصطفى باشا مع الحجاج المصريين ، بعد اداء الحج ،الى مصر، وكان أمير الحاج عثمان بن ازدمر ، الذي كان والده بكلربكياً في اليمن، ثم نقل الى الحبشة ، وولي بعد ذلك عثمان هذا بكلربكياً في اليمن – كما يأتي شرحه إن

شاء الله تعالى – وتوجه أمير الحاج الشامي رضوان مع الحجاج الشاميين بعد الحجاج المصريين بسبعة أيام على العادة ، فلما وصل مصطفى باشا الى مصر ، سنة ثمان وستين وتسعمائة ، صادف بها وفاة علي باشا الخادم ، صاحب مصر، وكان من أحسن من ورد الى مصر من البكلربكية ، لطفاً وإحسانا وعدالة ، وعدم طمع ، ورعاية للعلماء وللصلحاء والرعايا ، رحمه الله تعالى ، بحيث لم يرد الى مصر له نظير ، يقاربه في هذه الخصال ، أو يناظره في بعض هذه الخلال ، فصار مصطفى باشا بكلربكياً بمصر ، بعد المتوفي المذكور ، وكان أيضاً من أصلح من ولي مصر بعده .



الفصل التاسع عشر

في ولاية محمود باشا ــ سامحه الله

ثم ولى مملكة اليمن محمود باشا ، وهو عتيق محمد باشا نائب الشام ، ثم نائب مرعش المتوفي بهـــا ، حوالي سنة اثنتين وأربعين أو ثلاث وأربعين وتسعمائة ، وكان داود باشا خرج من سراي السلطان وهو (خزينة دارباشي) الي (بكليربكية مصر) ومر وهو متوجه الى مصر بالشام ، فوجد محموداً هذا في طريقه ، فخدمه ، وصار كتخداه ، فلما وصل داود باشا الى مصر أرسل محموداً هذا بخلع السيد الشريف صاحب مكة، ومراسيمه ، على جارى العادة ، من قبل من يتولى إيالة مصر على العادة ، فلما وصل الى مكة لم يرض بما قوبل به من جانب مولانا السيد الشريف ، فعاد وهو متحمل في خاطره الى مصر ، فصار امير الحج المصري ، في سنة سبع وخمسين وتسعمائة ، ثم في سنة ثمان وخمسين وتسعمائة ، فوقعت منه فتنة عظيمة بِمِنى ، سلمه الله تعالى منها وسلم الناس منها ، وهي مشهورة الى الآن وتسمى « سنة الهَبّة » وسنة الفتنة ، وقد كفى الله شرها ، فلا نطيل بذكرها ، واعتنى به الوزير علي باشا ، وجعله سنجقاً من الأمراء المحافظين بمصر ، وصار لا يزال يرقيه الى ان جعله بكلربكيا في اليمن ، عوضاً عن قره شاهين مصطفى باشا ، فوصل بحراً الى جده ؛ في أوائل محرم الحرام ، سنة ثمان وستين وتسعمائة ، وكان سفاكاً ، كثيرا القتل ، نهّاباً وهّاباً ، يحب الزينة واللباس الفاخر ، وآلات الذهب والفضة ، والخيول المسمومة ، والأساكف المذهبة ، والمناطق المرصعة وسروج الذهب ، ولُجُم الذهب والفضـــة ، بذولاً ، كثير السخط ، عظيم

الغضب ،تزوج زوجة الأمير خوشكلدى ،نائب جدة ،- كان -وانبسط بامواله ، وتوسع فيها ، وظهر فيها ، وظهر من ذلك اليوم نظامُه وترتيبه ، ولكن لما توجه الى اليمن كان مديوناً بنحو مائة ألف ذهب ، واستقرض بمكة أيضاً مبالغ على ذلك ، ولما قرب من جدة أمر بتغريق ثلاثة أنفس في البحر ، كتخداه ، وكلارجيه ، وجاشنكيره ، لأنه تخيل منهم بوهمه أنهم يريدون الهروب ، فغرق منهم اثنان : همـــا الكيخيا والكلارجي ، وأما الثالث فنزلوه في البحر ، مربوط اليد والرجل ، وفي عنقه حجر كرفيقيه ، فانحل حبله جوف البحر ، وكان عواماً ، فخرج ولم يشعروا به ، وتعلق ليلة كاملة في سكان المركب ، ولم يشعر به أحد ، الى أن قرب المركب الى البر ، فخرج هارباً الى العرب ، وسلمه الله .وهذا من أعاجيب فرج الله لمن أراد من عباده ، بعد نزول البلاء واشتداده .

فلما وصل محمود باشا الى جدة لم يحتفل باكرامه جماعة مولانا السيد الشريف بجدة ، لما كان منه سابقاً ، فأرسل الى مولانا السيد الشريف يعتذر عما وقع منه ، وانه كان بغير اختياره ، وحلف أيماناً غلاظاً ، مؤكدة انه ليس في خاطره غِلٌ ولا غش ، وانه لم يزل في غاية المحبة والمودة ، فأوسل مولانا السيد الشريف اليه وقبل عذره ، وأظهر له المحبة والمودة ، وأمر أن يساعدوه بالجمال ، وأن ينزلوه في جدة ، في بيوت عظيمة ، في جانب اليمن ،من بيوت الخواجا الطاهر ، فخرج من جدة الى مكة لأجل الطواف .

وخرجت أنا لملاقاته لِسابقةٍ بيني وبينه في مصر ، ففرح بذلك ، لأنه لم يواجهه أحد إلى ذلك الوقت ، وبشرته بأن السيد الشريف مولانا السيد حسن يَبْرُزُ الى ملاقاته ، فازداد فرحه بذلك ، وركب له ؛ فلما قرب من تربة الشيخ محمود بالشُّبَيْكة ، لاقته خيول مولانا السيد الشريف ،ثم هو واخوته ، ومعهم مولانا شيخ الإسلام ، السيد القاضي حسين الحسيني المالكي ،فاجتمعوا وحصلت المصافاة بينهم ، واستمر بعد ذلك على الوفاء ، والصفا مع غاية تخيل ساداتنا الشرفاء منه ، ونزل في مدرسة الأشرف قايتباي ،ومُدَّ له من جانب

سيدنا ومولانا السيد الشريف بسماط حافل ، قدمه اليه الخواجا كال الدين أبو الفضل ابن عبد الرحمن بن أبي علي ، فألبسه محمود باشا خلعة ، وأقام بمكة يومين ، وبرز في الثالث ، فودعته .

وتوجه الى جهة اليمن بعد أن أكرم كثيراً من الناس ، وأحسن اليهم .

ذكر دخول محمود باشا الى اليمن

دخل في شهر صفر سنة ثمان وستين وتسعمائة ، الى اليمن ، ونزل من بندر جازان ، وقد لاقاه جميع الامراء والعساكر التي باليمن ، والعمال والأمناء والكشاف ، وقدموا له التقدمات الكثيرة ، والخيول المسومة الذخيرة .

فأول ما فعل من الظلم أن صلب أمين دار الضرب ، وهو الفقيه عبد الملك اليمني ، وكان مثرياً ذا أموال كثيرة ، وجعل ذنبه اختلال السكة ، بغلبة النحاس على الفضة ، ولم يكن ذلك بفعله ، بل بفعل البكلاربكية السابقة ، للطمع وجمع المال ؛ فإن الدينار الذهب السلطاني ، الذي وزنه الآن درهم وقيراطان ، هو الآن في الروم بستين عثمانياً ، وفي مصر بثمانين عثمانياً ، وصار في اليمن بثلثمائة عثمانياً ، ولا زال يتزايد الى ان صار الدينار بألف عثماني ، وصار وَقْدُ ذلك مأكلا للبكلاربكية ، فأمر بصلبه ، واستولى على جميع أمواله وذخائره ، وكان ذلك ابتداء تموّله وتوَسّعه ، وتلِفَتْ السكة بعد عبد الملك المذكور ، الى أن صار الدينار الذهب بألفين من العثامنة ، وكان ذلك سبباً لخراب العسكر وفقرهم ، فان علوفة العسكر من عشرة عثامنة ، الى مائة عثماني ، فصار الذي له مائة عثماني علوفة في كل يوم ، يأخذ في الشهر ثلاثة آلاف عثماني ، وهذه درجة علية ، يرتقى منها الى السنجق ، فيصرف له من الديوان عن الثلاثة آلاف عثماني دينار واحد ونصف ، وذلك لا يفي بثمن القهوة التي يشربها ، فضلاً عن سائر حوائجه وضرورياته ، فشرعوا في

ظلم الرعايا لضيق معاشهم ، وصارت الحكام تتغافل عن إنصاف الرعايا من العسكر ، لعلمهم بشدة ضرورة العسكر ،الى أن دهكوا الرعية وأضعفوها .

ثم لما ضعفت الرعية وانكسرت ، ولم يبق معهم شيء ينهبه العسكر ، أو يأخذونه بالقهر منهم ، صار العسكر يبيعون السروج المذهبة ، والحياصات ، والسيوف المُسقَّطة الى أن أفنوها ، وصاروا يبيعون أثواب بدنهم ، إلى أن أفنوها ، فباعوا أسلحتهم وما أبقوها ،فشرعوا يهربون الى مطهر، وافتقروا، وامتلأت بهم البلاد ، وضعفوا عن قتال العدو ، الى أن استولى العدو على بلادهم شيئاً فشيئاً ، وكان ذلك في الكتاب مسطوراً .

ثم ان محمود باشا جدد داراً في تعز كانت دار السعادة لملوك بني غسان ، وسكنها ، وجعلها تخت المملكة ، وكانت مملكة بَعدان قريبة منه ، وفيها حصن حِبّ الذي يضرب به المثل في الارتفاع والشهوق ، يكاد يلامس ذروته نجوم الثريا والعَيُّوق ، فكأنه هامة ، لها الغمامة عمامة ، او انملة اذا خضبها الأصيل كان الهلال لها قُلامة ،وحاكمها يومئذ الفقيه المثيل ، الأمير الجليل، الكامل النبيل ، نور الدين علي بن عبد الرحمن بن محمد النظاري ، ورثها عن أبيه ، وورثها أبوه عن جده الأمير شمس الدين محمد النظاري ، أحد أمراء السلطان عامر بن عبد الوهاب ، كان تغلب عليها عند انكسار عامر ، من الأمير حسين الكردي ، وأراد عامر ان يلتجيءاليها ، ويتحصن فيها، فسبقه اليها شمس الدين النظاري ، ومنع عامراً عنها ، واستمرت في يــده ويد أولاده ، الى ان صارت للفقيه علي النظاري ، وكان يهادن البكلربكية ، ويداهنهم ويهاديهم ويهاودهم ، وكانوا ينتفعون به وينتفع بهم ، الى ان استقر محمود باشا في تعز، فهاداه أكثر ممن مضى ، وقدم اليه ما ادخره من النفائس، طالباً للود والرضا، فابى محمود باشا الا نفورا، وكان أمر الله قدرا مقدورا .



الفصل العشرون

في ذكر أخذ حصن حب وقتل علي بن عبد الرحمن النظاري

لما عجز الأمير علي النظاري عن استرضاء محمود باشا حصّن قلعته ، وسد طرقها ، وتهيأ للقتال فنزل محمود باشا بجنوده ، تحت حصن حب وكان جباراً عنيداً ، فتاكا مريدا ، لا يستمع إلى رأي أحد ، ولا يصغي إلى نصح ذي رشد ، وكانت مملكة اليمن مشحونة بعد الأمراء الأبطـــال ، والسناجق السلطانية أهل الرأي والقتال ، فتقدم اليه الأمير اسكندر ، وكان من أعظم السناجق ، ذا رأي رائق ، وثراء فائق ، وشجاعة واقدام ، وبصيرة نقادة وتدبير تام ،وقال له: إن النظاري لم يظهر منه عصيان،ولم يبد منه مخالفة ولا شنآن، فالأولى ابقاءه على ما كان ، فان حصنه حصين ، وبرجه ثابت مكين، لا يتصور أخذه بالقتال ، ولم يعهد فتحه بالسيف فيما تقدم إلى هذا الحال ، فالأحسن أن يجعل عليه مال كثير ويترك على حاله . فما استتم هذا الكلام ، الا وأمر بضرب عنقه ، فقتل بين يديه ، واستولى على أمواله ، وذخائره وعبيده وخدمه، وأثاثه ، وكان محمود باشا يتهم بموافقته على هذا الرأي أميراً آخر كان أقوى جأشا،وأكثر مالا ومنالا ورياشا ، وكان من أعاظم السناجق السلطانية ، يقال له ميرزابك ، فطلبه الى الديوان ، فلما جاءه امر بضرب عنقه بين يديه ، فما استطاع بعد ذلك أحد ان يكلمه في أمر النظاري .

وكان للنظاري صهر ، يقال له الخواجا علي الريامي ، كانت بنته تحت

النظاري ، وكان ذا مال وافر ، وثراء عظيم متكاثر ، وله عدة سفائن تجري في بحر الهند ، وتأتيه بأصناف البضائع وكانت له دائرة متسعة جداً ، وكان ذا إحسان وبر الى الناس ، وصدقة مستمرة ظاهرة ، وخفية ، حسنة من حسنات اليمن ، وسبباً لتعمير تلك الجهات ، والايساع على فقرائها وعلمائها ، فطمع محمود باشا في ماله ، وأخذه من بلدة إب واستصفى جميع ما بيده ، ثم صلبه هو وولده ، من غير ذنب يوجب ذلك ، وعند الله يجتمع الخصوم ، ثم انـــه استمر محاصراً لحصن حب ، نحوا من ثمانية أشهر ، الى أن سئم هو والعسكر من طول الحصار ، فطلب الأمير عبد الله الداعي احد أمراء اليمن الباذلين الطاعة للسلطنة الشريفة ، من طائفة لهم اعتقاد غير اعتقاد أهـــل السنة ، من دعاة الاسماعلية ، ولكنهم مخلصون في طاعة السلطان نصره الله تعالى ، وأرسله الى النظاري ليعطيه الأمان ، وكان سئم النظاري أيضاً من طول الحصار، فوافق على أن ينزل هو وأهله ومن يعز عليه، وجميع خزائنه، وان يعطي سنجقاً ويسلم حصن حب ، ويعطى بدله مكاناً آخر يختاره ، ولا يتعرض له في شيء مما معه ، ووقع الاتفاق على ذلك ، وحلف محمود باشا يمينا فاجرة ، ما وفى بها ، على المصحف الشريف ، وضمنه في ذلك الأمير عبد الله الداعي خوفاً منه وجعل الموعد انه ينزل في موكبه إليه في اليوم الرابع والعشرين من شهر رجب ، سنة تسع وستين وتسعمائة ، وفرح بذلك محمود باشا ، وأرسل إليه سنجقاً سلطانياً ، فاغتر النظاري بذلك فنزل من حصن حب هو وولده عبد الرحمن ، وكاتبه الفقيه ادريس ، وخزنداره ابن رصاص ، ومعه جميع خزائنه ، ومـــا يعز عليه ، وحوله نحو المائتين من عسكره ، وعلى رأسه سنجق السلطان ، والطبل يضرب بين يديه ، ومعه الأمير عبد الله الداعي ، فاستمر موكبه الى ان نزل الى مخيم الباشا ودخل عنده ، فقام له وأكرمه ، ووضع له كرسيا، ملبسا بالمخمل ، وأجلسه عليه، فجلس والبسه خلعة عظيمة ، من السراسر، وحادثه ساعة ، واسقاه السكـّر

وجميع العسكر حاضرون في الديوان باسلحتهم وعددهم ، وقد وكّل بكل واحد من عسكر النظاري أكثر من عشرة ، مطيفين بهم ، فاستأذن للقيام فقام ، فلما برز من عنده ، أشار محمود باشا لأوزن علي جاووش ، ان يقتله ، وقال له : أما تريد أن تصير سنجقا ؟ فسل خنجرا ضربه به بين كتفيه ، فصاح النظاري،صيحة واحدة بالسودا على الأمير عبد الله الداعي،فحزت رأس النظاري ، وجميع من معـــه من العسكر ، واستولى محمود باشا على جميع خزائنه ، وسلاحه وخيله ، وكل ما وصل به معه ، وكان هيأ جماعة يدخلون الحصن ، بمجرد خروج النظاري ، وان يضعوا السيف في كل من هو منهم ، ففعلوا ذلك وقتلوا منهم مقتله عظيمة .

وكانت هذه افعلة خيانة قبيحة ، وغدراً فاحشا ، صارت بها العربان لا تستأمن الأتراك ولا تصدقها في أيمانها وعهودها وصاروا يسمون امثال هذا الغدر « محمودياً » .

وتأثل من خزائنه محمود باشا ، وكانت أموالا كثيرة ، وجواهر نفيسة .

وأخبرني حسين بك دفتردار اليمن إذ ذاك أنه من جملة ما شاهد ، كرسياً من الذهب، مكللا بالجواهر الثمينة، لا يوجد في خزائن الملوك ، وعصا مرصعة بالجواهر من ذخائر عامر بن عبد الوهاب ، ومن النقود القديمة المسكوكة من الذهب والفضة حمولا ، ومن كتب العلم والفقه على مـــذهب الشافعي ، وعلم الحديث ، والمصاحف الكبيرة المذهبة ، شيئاً كثيراً .

وكان النظاري شافعي المذهب ، سني الاعتقاد ، يكره طوائف الزيدية ويقاتلهم ، ويحب العلماء والفضلاء ، ويحسن الى الأفاضل .

وكان من أكبر أعدائه مطهر بن شرف الدين ، وطوائف الزيدية كلهم . وكان معيناً لأهل السنة عليهم ، يُمَدّهم بالأموال ، ويعينهم بالميرة والرجال ،

ويخدم السلطان وأمرائه بالنفس والمال، وقد أسند اليه العصيان وليس من أهله، وأضعف بذلك مدد أهل السنة وفرح بذلك الزيدية غاية الفرح ، وعلموا انها تؤول الى الفتنة .

وأما وصمة نقض الامان ، وخُلْف العهد وكذب الايمان ، فتلك ثلمة باقية على صفحات الزمان ، اختل بسببها كثير من الأحوال ، وشرعت عقود تأخذ الذمم في الانحلال ، وصارت العرب تنقض عهودها وتسميها «محمودية»، وأدّى ذلك الى الأمور الردية ، الى أن وقع بسبب ذلك ، ما سنشرحه إن شاء الله تعالى .



الفصل الحادى والعشرون

في ذكر ارسال محمود باشا خبر الفتح الى الباب العالي ، والانعام عليه بالترقيات بسبب ذلك

لما فرغ محمود باشا ، من أخذ حصن رِحبّ ، جهز الى الباب العالي جاووش باشيه اسكندر جاوش ، وسنان جاوش ، بالعروض في شأن النظاري ، وانه كان عاصياً على السلطنة ، وانه كان يضر بالجار والمار ، وانه كان واجب الدفع ، وانه استولى على مملكة بَعدان ، وإبّ وجبْلة ، وأسند اليه أموراً كثيرة توجب قتله ، وانه ظفر به بعد محاصرته ثمانية أشهر قهراً وقسراً ، وأرسل رأسه ورأس ولده ، ووزيره ، وعدة رؤوس سماهم ، قد سلخت وملئت تبناً ، وعرض لأوزن علي جاووش السنجق ، وعرض لكل من أراد ترقيات كثيرة من مماليكه وخاصته ، وأرسل جميع ذلك مع جاوش باشي الى الباب العالي ، فوصل جاوش باشي المذكور الى مكة ، متوجهـــا الى مصر ، ثم الى الباب العالي ، ودخل مكة في يوم الأحد سادس رمضان ، ومعـــه عدة مماليك ، فأسكنه بعض مماليك مولانا السيد الشريف عنده في محله لِسابقة بينهم في درب اليمن ، بقرب رباط بديد ، ووصلت معه مكاتبات الى مولانا السيد الشريف ، بدر الدنيا والدين ، الحسن بن أبي نُمَيّ بأخبار الفتح ، فأظهر كمال السرور بذلك ، وألبس الجاووش خلعة سنية ، وأمر بضرب النقّارة والطبول للفرح بانتصار العساكر السلطانية ، وأرسل اليه بالغَنم والضيافات ، فتوجه هو ومن

معه الى مصر ، متوجهاً الى الأبواب السلطانية ،بما معه من الرؤوس والعروض ، بأخبار الفتح ، فخرج من مكة ثاني عشر رمضان سنة تسع وستين وتسعمائة ، فوصل الى مصر ، وحاكمها يومئذ من قبل السلطنة الشريفة ، قره مصطفى باشا ، وكان يعلم أحوال اليمن ،وان محمود باشا ما أتى بطائل في قتل النظاري ، لكنه لم يعارضه فيما عرضه ، حيث علم ان لا فائدة في المعارضة غير اثارة الضغائن القديمة ، فسكت عن ذلك ؛ فتوجه جماعة محمود باشا الى الباب العالي ، بما على أيديهم ، ففرح المرحوم السلطان سليمان ، سقى الله عهده صوب الرحمة والرضوان ، وظن ان النظاري كان عاصيــاً على السلطنة ، مفسداً كما عرضه محمود باشا ، وانه كان واجب الازالة من مملكة اليمن ، اعتماداً على عروض محمود باشا ، فرأى له بهذه الخدمة ، فرفع مرتبته ، وأنعم عليه بالترقي لأخذ حصن حب ، وأنعم على قاتل النظاري بالسنجق ، بمائتين الف عثماني ، وأمر بالترقي لكل من عرض له محمود باشا ، وأرسل اليه بالخلع السنية ، والسيف المُسقَّط ، والدبوس ، على عادة من يعتنون به ، وعاد جاووش باشي الى محمود باشا معززا مكرماً ، مَقضيٌ المرام ، وزاد بذلك عنوان محمود باشا وعظمته وسلطنته ، فصارت مملكة اليمن لا تسمه ، فطلب العزل ، ليتوجه الى الباب العالي ، ويقدم هدية هائلة هيأها ، ويأخذ إيالة مصر ، فأرسل المرة بعد المرة يستعفي عن اليمن ، ويذكر انه حدث به مرض في رجله منعه عن الحركة ، وانه يطلب علاج ذلك بمصر ، وكرر السؤال في ذلك ، وهيأ نفسه للخروج من اليمن ، وجمع من الخيل والجمال والبغال ، وغير ذلك ، ما قدر عليه ، وأعد نفسه لذلك ، واستعد لورود الجواب عليه ، من قبل بمدة ، وأرسل أولاً جاووش فرهاد آغا ، وجهز معه من الحبوب شيئاً كثيراً من البحر ، تُدَّخر له في جدة ، وأرسل معه ثلاثمائة عَجرة من الذرة ، لمولانا السيـــد الشريف ، وخمسين عجرة لمولانا شيخ الاسلام القاضي حسين ، وكذلك كثير من علماء البلد ، فوصل جاووش باشي الى جدة ، في منتصف شهر صفر ، ثم أتى الى مكة ، وفرق ما معه من التذاكر ، وعاد من يومه الى جدة ، وتسلم كل واحد

ما يتعلق به من الذرة ، ووسع على الناس،ودعوا له ، ثم توجه جاووش باشي بعروضه بسرعة في غراب الى مصر ، بحراً ، وأبطأ عليه جوابه ، فأرسل ثانياً جاووش باشيه ، جعفر جاووش باشي ، فوصل الى مكة تاسع ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين وتسعمائة فحضر ليلة المولد الشريف ، وتوجه من البر على رواحل ، فوصل من مصر الى مكة هَجان ، متوجه الى اليمن ،مخبراً بعزل محمود باشا ، من منتصف جمادى الآخرة سنة اثنتين وسبعين وتسعمائة ، وتوجه الى اليمن مسرعاً فلما وصل اليه فرح بهذا الخبر ، وأنعم عليه بمائتين ذهب ، واسم القاصد : نُعَيْم من بني عُقبة ، وما فرح قاصد قط بهذا المبلغ من أحد ، وهكذا كانت عطاياه ؛ تجاوز الله تعالى عنه وغفر له .



الفصل الثاني والعشرون

في ذكر عزل محمود باشا عن مملكة اليمن ، وولاية رضوان باشا بن مصطفى باشا

لما تكرر سؤال محمود باشا وطلبه للعزل عن اليمن، اجيب من الباب العالي الى سؤاله، وعين عوضه في اليمن رضوان بك نائب غزّة الذي كان امير الحاج الشامي ، وهو شاب فاضل وجيه ، له شجاعة وفروسية ، ومعرفة باللسان الفارسي ، ومشاركة في التاريخ والنظم ، ونحو ذلك ، وهو اخو بهرام باشا، وكان بهرام باشا مع والده مصطفى باشا في اليمن، لما وليها سابقاً ، ولم يكن رضوان باشا معه حينئذ فولّيها من الباب العالي في سنة اثنين وسبعين وتسعمائة وله فضل ومعرفة وحسن اخلاق ، وتوجه الى الله تعالى بالعبادة والطاعة ، واعتقاد في العلماء والصلحاء ، وفعائله مرضية ، وافعاله مشكورة ، غير أنه كان شاباً غراً بالأمور ، لم تحنكه التجارب بعد ، وهذا اول منصب له من البكلربكية ، ولا يكمل الانسان الا بطول التجارب كما قيل :

إن الرجالَ صناديقٌ مقفلة　　وما مفاتيحها الا التجاريب



الفصل الثالث والعشرون

في ذكر توجه محمود باشا من اليمن الى مصر

لما وصل خبر عزله اليه،وكان متهيئاً مستعدا لذلك، خرج من تعز الى زبيد، ثم منها الى جازان،ثم من جازان براً الى جهات مكة،وارسل قاصداً الى مولانا السيد الشريف ، وصل الى مكة في اواخر رجب، سنة اثنين وسبعين وتسعماية يخبر بوصوله من البر ، وكان يعلم ان السيد الشريف لا يلاقيه، مع ما هو عليه من القوة ، وكثرة الخيل ، فبادر الى كتاب جهزه الى الشريف ، يعذره في الملاقاة ، فداخل موالينا السادة الاشراف تخيل من ذلك ، وارسلوا الى الاطراف يجمعون العربان والخيول ، وكان مع محمود باشا الفا بعير ، وثلثمائة وكان معه ثلاثون جنيباً ، فوقع الارتجاج بمكة ، وغلت الاسعار ، وتوهمت الناس الفتنة ، وشرعوا في تخبئة الحوائج .

وبرزت الى ملاقاته لما بلغني قرب وصوله ، ووصلت يوم السبت رابع عشر شعبان الى السّعْدية ، وهي ثالث مرحلة الى صوب اليمن، وأرسل السيد الشريف لملاقاته خمسين فارساً ، فوصلوا الى السّعْدية ، ووصل من عربان اليمن من بني زيد ، وبني العيْر ، وأهل حلي ولفيفهم نحو ثمانين فارساً .

وذكر لي السيد عرار ان مولانا السيد الشريف امره ان يذكر لي ان اقول لمحمود باشا : ان مكة لا تحمل عسكره ، وانها مفلسة ، وان المناسب ان يتوجهوا الى جدة ثم يتوجه من جدة حيث يريد. فامتثلت ما أمرني به السيد

الشريف ، وثقل علي ان استفتحه بهذا الكلام ، وان اواجهه بذلك ، لما اعرفه من جبروته وعناده، وصرت مفكراً في ذلك ، الى ان قبل محمود باشا بمن معه على السعدية عصر يوم الاحد ، خامس عشر شعبان ، فركبت إلى استقباله، وركب السيد عرار بعدي، فلاقيت بركه وبراقه ، وقد امه ثلاثون جنيباً ، تساق بين يديه ، وحوله من بعيد الجاويشية وخلفه مماليكه بأساكف الذهب ، فلما قربت منه نزلت عن دابتي ، فوقف لي ، وأمرني أن اركب الدابة فاركبوني ، فسلمت عليه ، وقبلت يده فسألني عن حالي ، وانا مفكر في اداء رسالة مولانا السيد الشريف باي عبارة اعرضها عليه ، فأول ما بدأني به ان قال لي : اين طريق جدة ؟ فقلت : على جهة اليسار . فقال لي : اني قصدت التوجه الى جدة، فان مكة ربما تضيق بنا. فقلت: هذا عين الصواب وحسنت له ذلك ، وحمدت الله تعالى إذ كفاني مؤونة مفاتحته بذلك الكلام الذي حملته ، وكان ذلك من حذقه ، ولطف فهمه ، رحمه الله تعالى .

ثم سألني عن احوال مولانا السيد الشريف، فقلت له: طيب بخير، يبلغكم جزيل السلام ، وقد ارسل صهره مولانا السيد عرار الى ملاقاتكم . فقال:أين هو ؟ فقلت : ها هو ، واصل بين يديكم ؛ فما أتممت الكلام ، إلا وقد أقبل السيد عَرار فلاقاه ملاقاة حسنة ، وأتى عن جهة اليمين منه، واستمر هكذا الى أن نزل في محلّ عالٍ ، بينه وبين بئر السّعدية المَسيل ، وكان أوطاقاً منصوباً في نفس المسيل فأمر برفعه الى هذا المكان الذي اختاره، فنزل قريب المغرب ، ومضى السيد عرار ، وبقيت معه ، وكان معي قليل حَبْحَب ، قدمته اليه ، فأعجبه وأظهر كال الميل اليه ، وأخذ يحدثني ، ويذكر ما لاقاه في اليمن من الأتعاب ، وانه فرح بالخلاص منها . وأنا أوافقه في كل ما يقول، وأصاقله على مقاصده ، وذكر لى انه وُلـّيَ موضعه رضوان باشا ، وانه سيخرب اليمن ويقع بها فتنة عظيمة ، واني رأيت ذلك في واقعات لاتكذب معي ، فكان كذلك . ثم ذكر : انه لا بد لي من ولاية مصر ، فقلت له : أنتم أهل لذلك وزيادة . وفي خاطري استبعاد هذا الأمر ، فإن مصر مذ

فتُحِتَ ما أعطاها السلطان إلا لخاصة مماليكه ، الذين خرجوا من عنده من السراي ، وتربوا بين يديه،وهذا ما هو من الذين خرجوا من عنده من السراي، وتربوا بين يديه ، وهذا ما هو من الذين خرجوا من السراي ، ففهم من وجهي عدم قبول ذلك من حذقه ، وكان فطناً ذكياً فقال لي : الدراهم مراهم ، والنقود تحلُّ العقود ، والبرطيل حكيم ، يوصل الى المقصود ، وقد رأيت في منام صادق ، اني طرت من شرافة قصر تعز ، ووقعت على شرافة قلعة مصر ولا تأويل لذلك إلا ولايتي مصر ، وسأذكرك بذلك . فقلت : قد أقمتم مدة بمصر ، وصارت لأهل مصر حقوق عليكم بالجوار ، فاستوصوا بهم خيراً ،ولا تنسوا فقراء مكة فانهم بوادٍ غير ذي زرع . فوعد بخير ، واستمر يحادثني الى أن مضى نحو ربع الليل ، فأذن لي ، فانصرفت الى مخيمي ، فلما أصبح أرسل لي بخلعة سراسر عظيمة،وأرسل الى السيد عرار بخلعة سراسر كذلك ايضاً، واستدعاني اليه، فمضيت له فقال : هل يوجد هنا شيء من الغنم؟فقلت : لي هنا ثلاثة ايام انتظر حضرتكم ، وما رأيت شيئاً من الغنم ، فان العربان ارتفعوا متوهمين من العسكر. فقال لي : السيد عرار في جمع كبير ، فما الذي يأكلون؟ فقلت: ذبحوا امس تاريخه جزورين من الإبل اشتووا لحمها على الحصى المحمى بالجمر ، بحيث تدخن ظاهره فقط ، وباطنه نيء بعد ، وأكلوه نتشاً بالأسنان ، وهذا أكلهم الى يومين ، بعد ذلك . فضحك من ذلك ، ثم مد سماطا فيه الرز المفلفل بالقاورمة ، والوان اخرى ، واحضرني عليـــه ، ثم رحل عصرا ، ودخل التختـَروان واستمر الى جهة جدة ، فنزل بموضع يقال له الأطواء ، ورحل عصرا ، وعند رحيله وصل اليه رئيس مكة وكبيرهـــا ومرجع اشرافها ومشيرها ، ثمرة شجرة الشرف، وأنفس دُر نفيس ما حواه الصدف ، شيخ الاسلام ، سيد القضاة والحكام ، مولانا السيد حسين زين الله به الوجود أحسَنَ زين ، وفي صحبته طائفة متعينون ، منهم شاه بندر جدة المعمورة ، العريق الاصيل الفاضل المثيل ، الخواجا محمد بن مجد الدين والشاب الامثل الارشد جمال الدين محمد بن الشيخ مصطفى المنتشوى، وغيرهما، فلاصقه

يجنب التختروان ، وباسطه ، وباسط من وصل معه ، وسأل عنهم ، وأقبل عليهم ، وقدم مولانا السيد حسين اليه عشرين جملا ، محملا من انواع الحلاوات والمربيات ، والفواكه والحبْحب ، وامثال ذلك واستمر يحادثه الى الليـل ، وفرح بوصوله كثيراً ، وكان في صحبته احد عبيـد مولانا السيد الشريف ، ومعه بعض جوارح ، من آلات الصيد ، هدية من مولانا السيد الشريف اليه ، فقدمها اليه فزاد فرحه واعجابه بها ، وتشكر كثيرا ، ثم اذن للجماعة في الانصراف ، ووعدهم ان يصلوا اليه في غد ، في المنزل ، واستمر سائراً الى ان نزل قريباً من الصبح في منزل اسمه العِد ، فلما اصبح ارسل يطلب مولانا السيد حسين ، فوصل اليه ، فأكرمه اكراماً كبيراً ، ودخل بنفسه الى الاصطبل ، فانتقى حصانا من احسن حصُنه ، وكان يغالي في الخيل ، ويولع بجيادهـا ، وكان يرغب اليها ، ويرغب في اثمانها ، بحيث تجلب اليه من كل مكان ، أحسن خيول أهل ذلك المكان ، ثم امر بسرج معرّق من فضة ، بجميع آلاته من الركب واللجام والسلسلة ، كلها من الفضة ، المموهة بالذهب بحيث قومت بخمسمائة دينار ذهبا ، فأركب مولانا السيد حسين عليه ، وأخلع عليه خلعة عظيمة من السراسر العال ، تساوي خمسين ذهبا ، وارسل مماليكه وخواصه يمشون في ركابه ، تعظيما اليه إلى ان اوصلوه الى مخيمه ، ثم استدعى بعبيده والبسهم خلعا من السراسر ، وبالغ في اكرامهم وتعظيمهم ، ورحل بعـد العصر من العِد الى ان اصبح في جدة ، فوصلها ليلة الخمسين تاسع عشر شهر شعبان ، وضرب له أوطاقه خارج سور جدة ، من ناحية الشام ، عند تُربة أمنـــا حواء عليها السلام .

وكان له وطاقان معظمان ، في غاية الزينة يكون هو في أحدهما ، ويتقدم الآخر ، فينصب له في المنزل الذي سينزله ، على اسلوب السلاطين ، وكان ترتيبه في مخيمه ترتيب السلاطين ، وله تخت يجلس عليه ، داخل خيمته في خركاه عظيمة ، وحوله صناديق خزائنه وحول الخركاه مماليكه ، اصحاب الاساكف الذهب ، والمناطق المرصعة المذهبة ، ويحيط بهم داير حوش كبير

ولا يصل اليه في هذا المكان الا افراد، يختارهم من الناس ، وكان طبعه طبع الملوك ، واوضاعه اوضاع السلاطين .

وأما ديوانه فخارج عن ذلك الحوش في خيمة مقصصة عظيمة من عمل العجم ، وامامها اربع سحابات ، وجنبان ، وأخرى امامه ينكسها احياناً بحسب الظل والشمس ، وبحسب ما يعتريه من الأحوال ، فاذا برز جلس في صدر ديوانه ، على (اسْكَملي) ملبس بالسراسر ، وعلى يمينه وشماله اسكمليات أخرى، ملبسه بالمخمل الدوخابه لمن يجلسه عليه من السناجق، ومن في مرتبتهم ، يأمرهم بالجلوس عليها ، وهي نحو العشرين اسكملي، وتقف مماليكه خلفه بالأساكف والمناطق الذهب ، يقلون ويكثرون وهم مائة مملوك، وتقف العسكر سماطين ، عن اليمن وعن الشمال ، وكانوا اذا حضروا ديوانه لبسوا فوق ثياب رتبتهم المعتادة برانس حمر ، مفصلة من الجوخ البندقي العال ، محفوظة عنده في صناديق ، فصلها لهم ، وعين لهم مملوكا يلبسهم ذلك لديوانه فاذا انقضى ديوانه اخذها منهم المملوك ، واعادها الى الصندوق ، كيلا يضيعونه ويبيعونه وديوانه مفروش بالفرش العظيمة والبسط الحرير المثمنة تداس بالدَشْمِق والخجاشير ، وتتبدل بين يديه بأمره، هذا نظامه واسلوبه .

ولما وصل محمود باشا الى جدة كان مولانا السيد الشريف قبل ذلك أمر مقدمه الشرفي ، ابا القاسم بن قرقماس ، ان يهيء لمحمود باشا ، عند قدومه الى جدة سماطا عظيما ، يليق بمثله ، ففعل ما امر به وعمل له سماطا يفوق عن الفي صحن مُدت بين يديه في الأوطاق ، وفضل بَعْد الغرف شيء كثير في القدور ، يصلح ان يمد سماطا آخر ، فجلس وأكل، هو واتباعه ومماليكه ومن معه من الجند ، وحمل من اراد منهم مهما اراد ، ولما فرغ من السماط ، ألبس الشرفي ابا القاسم خلعة عظيمة من السراسر .

وورد عليه من مكة في ذلك اليوم الامير قاسم ، سنجق جدة ، وكان من المماليك السلطانية خرج مع الوزير علي باشا ، وكان سراجاً له ، وأول ما

ولى اغاة بالمدينة الشريفة ، بعد عزل دلو بيري ، ثم الى سنجق جدة ، ثم الى امرة جدة ، فخلع عليه خلعة عظيمة ، واعطاه فرساً من جياد خيله ، وقدم اليه قاسم بك بعض عليق خيل ، وبقسماط ، كان هيأه له ، فالبس الذي وصل اليه بذلك خلعة ، وكذلك البس دزدار جدة الاغا مصطفى ، خلعة ايضاً والبس كيخية القلعة ايضاً خلعة ، وهو حسين اغـــا الذي صار دزدارا ، بعد مصطفى اغا .

ثم في يوم السبت حادي عشري شعبان وصل اليه الامير الكبير ، المعظم الصارمي ابراهيم بك امين عين عرفات، دفتر دار مصر سابقاً، وكانا يتباغضان أشد تباغض ، وكان محمود باشا في ابتداء أمره ، وهو كاشف بمصر ، يتردد على ابراهيم بك ، وهو دفتر دار ، وكان ابراهيم المذكور في مظنة ان يكون بكلربكي اليمن ، فالتمس منه محمود باشا وهوكاشف اذ ذاك ، وما كانحصل له السنجق بَعد ، انه اذا تحقق له البكلربكية في اليمن ، يأخذ معه سنجقاً، ليترقي هناك ، بتربية ابراهيم بك لمحمود باشا ، وما كان يرى ابراهيم لمحمود باشا أهلية ان يأخذه معه ، ويصيره أميرا في اليمن ، فقدر الله تعـالى عزل إبراهيم بك من دفتردارية مصر ، وسبق الى خدمة اجراء عين عرفات ،ليصير من هناك بعد اداء الخدمة بكلربكياً في اليمن ، وكان في خيال ذلك دائمـاً ، وهيأ لذلك أسباباً ويَرَقاً وزرْد خانة ولـُبوساً ، وتجملات ، تليق بذلك . فما قدرها الله تعالى لابراهيم بك ، وكان له إدراك عظيم ، وفهم دقيق ،وهمة عالية ملوكية أيضاً وكان مثرياً جداً ، فسبقه محمود باشا الى البكلربكية في اليمن ، وحرمها ابراهيم بك ، فكان يرى ذلك حسرة وغصة ، وكل ذلك بقضاء الله تعالى وقدره ؛ فطوبى لمن فتح بَصَرَ بَصيرته في حوادث الدهر وعِبَرِه .

ذكر قدوم ابراهيم باشا على محمود باشا ، والباسه الخلعة

لما قدم ابراهيم بك الى جدة للسلام على محمـــود باشا ، قصْدَ المداراة ، واستجلاب خاطره ، جهز له هدية سنية ، وذلك مملوك تركي كاتب ، وآخر خادم ، بما يليق بهما من الثياب الجميلة ، وفرساً ، وبغلين مسرجين ، وثلاثين اردبا فولا ، وثلاثين اردبا شعيراً . وكان الغلاء موجوداً بحيث يساوي كل اردب خمسة عشر دينار ذهباً ،إذ ذاك.وأرسل معها عشرة قناطير سُكّراً، وعدة مراطبين من المربيات ، وخيمة عظيمة مقصصة منقشة ، فقبل هديته ، وألبس الذي وصل اليه بها خلعة من السراسر. وأهدى محمود باشا الى ابراهيم بك ثلاث سيوف مذهبة ، وخوذتين ، وبساطاً مكلفاً من عمل العجم، فألبس ابراهيم بك الذي جاء بها خلعة من سراسر عظيمة .

ولما أراد ابراهيم بك الوصول الى محمود باشا ، وكان يأنف من أن يلبسه محمود باشا خلعة ، أرسل إليّ ، وكانت بيني وبينه مودة سابقة ، فقال لي : إليك حاجة ، وهي اني أظن هـــذا السفيه يعني محمود باشا تحدثه نفسه انه يلبسني خلعة ، والموت عندي دون هذا ، فـأني ألبسته مراراً عديدة ، في أيام فلاكته ، خلعـــاً وثياباً كثيرة ، وقد دار الفلك إلى أن صار كما ترى كما قيل : الدهر الدولاب ، ليس يدور إلا بالبقر . وأقل الأحوال أن يعفيني من لبس الخلعة ، فامض اليه ، وحسّن له عدم الإلباس ، فانه إن أبرم عليّ، لا أوافقه على ذلك ، وربما يؤدي ذلك إلى الكدورة . فقلت له : أبذل لك الجهد في ذلك ، ولعل الله يقدرني عليه . فتوجهت إليه ، ودخلت عليه ، فلاطفني وباسطني وباسطته ، وقلت له في أثناء الكلام : محبكم القديم ، الأمير ابراهيم وصل من مكة الآن للسلام عليكم ، تقرباً الى خاطركم الكريم ، وقد

صار الآن في زي الفقراء ، وقد ترك ملابس الأمراء ، واتخذ الفقر شعاراً ، ولبس الصوف دثاراً ، وذلك المناسب لمن أقام ببلد الله الحرام ، وخدم الفقراء والمشايخ الكرام . ففهم محمود باشا المقصود من فَرْش الكلام ، قبل أن أذكره بالتمام ، وقال : هو أرسلك تمنعني من لبس الخلعة له ؛ والله لا بد أن ألبسه قهراً عليه ، أحبّ أم لا !. فقلت له : ربما تتكدر الخواطر . فقال : تفرّج أنت كيف يكون الحال. فما أتممت الكلام، إلا وأقبل ابراهيم بك فعظمه، وأجلسه الى جانبه على كرسي عظيم ملبس بالديباج المزركش ، وأتى له في الحال بخلعة سنية ، فمسكها بيده ، وصار الأمير ابراهيم يدافعه ، وكلما تأبّى منه ، مسحها محمود باشا على وجهه ، وعينه ، وحلف ايماناً أنها ليس فيها شيء من الذي تظنه – يعني من السم – واني أمسح بها عيني ووجهي ، قبل أن تلامس جسدك ؛ وألبسها له قهراً ، ثم أتى بسيف مسقط ، ربطه في وسطه بيده ، ثم سأله عن حاله وعن حال ولديه . فقال : هما في مكة . فأعطاه سيفين مسقطين صغيرين يصلحان للأولاد باسمهما ، وما استقر به المجلس قليلاً ، حتى قام ، فلما خرج من وطاقه أخرج الخلعة والسيوف ، وناولها بعض الخدم ، وهو يرقبه من خلال الوطاق ، فزاد بذلك البغضاء والشحناء ، الى أن أدى الحال بعض وفاة ابراهيم بك الى أن ضيع أمواله – كما سنشرحه إن شاء الله تعالى – ثم في ثاني يوم وصوله ركب محمود باشا في الصبح ، الى محل إبراهيم بك ، للسلام عليه ، وجلس عنده ساعة ، وأسقاه السُكّر ، هو ومن معه ، ثم برز من عنده ، وقصد أن لا ينفرد ابراهيم بك بسلامه عليه ، وتوجه الى دار قاسم بك ، ولم يكن في عداد من يُتوجّه اليه ، وفهم ذلك ابراهيم بك ، وعلم انها من مقاصد محمود باشا ، فتألم من ذلك ، لأن قاسم بك لم يكن في مرتبة إبراهيم بك ، ولا قريباً من مرتبته ، وجلس محمود باشا عند قاسم بك ، وأطال الجلوس عنده ، أكثر مما جلس عند ابراهيم بك ، وشرب عنده السكّر هو وجماعته ، ثم انصرف الى وطاقه .

ثم توجه في ذلك اليوم ابراهيم بك ، الى مكة ، وأرسل يعتذر اليه بأنه مشغول بعمل العين ، وكل منهما متحمّل من الآخر في الخاطر تحملا مفرطاً ، وراكب في البغض للآخر مَركباً شَطَطاً ، وفي الليل والنهار عجائب ، وفي تقلبهما كل لحظة أنواع من الغرائب ، هي عظة للمتعظ ، وعبرة للفطن الحاذق اليقظ ، وهـذا شأن أكابر الزمان ، وهكذا يكون الى انتهاء الدوران .



الفصل الرابع والعشرون

في ذكر سفر محمود باشا الى مصر

لما وصل المشار اليه من اليمن الى جدة ، ماتت له عدة جمال في الطريق ، وأراد بدلها ، فأرسل الى مولانا شيخ الاسلام ، ناظر المسجد الحرام ، السيد القاضي حسين، وتكلم معه أن يرسل الى سيدنا ومولانا السيد الشريف، يتطلب منه بعض الجمال ، لحمل الأثقال ، فوافقه على ذلك ، وصار يرسل الى مولانا القاضي السيد حسين كل يوم ، ويدخله الى مجلسه الخاص ، داخل وطاقه ، ويجلسه معه على سريره ، ويفرجه على زينته ، ويتنزل معه ، وعمل له الضيافة مختصرة عنده، داخل وطاقه ، في الخركاه الذي يختص به ، وطلبني معه مرة فدخلنا ، وتحدث معنا ، وقدم نفائس الأطعمة في أواني الذهب والفضة ، وأنواع الخوشاب ، في الأواني العظيمة ؛ فرأيت أسلوبه داخل محله أسلوب السلاطين ، مع الشهامة والبذل ، وعلو الهمة ، وعامله مولانا السيد القاضي حسين بما يليق به ، وقدم اليه مراراً من الحلاوات والمعمول والمربيات ، وأرسل هو أيضاً الى مولانا بخلعة سراسر عظيمة ، وأربع قدود كمخا عال وثلاثة أثواب سراسر بلا تفصيل ، وعدة أصناف أنكورى ، وفوطتين حرير مذهبتين ، من عمل اليمن ، واختراعه ، وتسمى : الفوط المحمودية .

وأرسل الى مولانا السيد الشريف قماشاً اشتراه من جدة من اسكندراني ، وسوسي ، وأصواف ، وأثواب من السراسر بدون تفصيل .

وأرسل يطلب من مولانا السيد الشريف جمالاً يشتريها من العرب ،وكتب اليه كتابا بذلك ، وافتتح مكتوبه بقوله : (يقبل الأرض لدى المقام الشريف العالي) وما كتبت هذه العبارة الى أحد قط : فكتب اليه مولانا : (يقبّل الأرض) . أيضاً ، وأجابه الى سؤاله، وأمر العربان بأن تجلب الجمال عليه ، فلم تطمئن العرب بالوصول اليه ، فاستعرض مولانا السيد الشريف من العرب مائة من الأبل ، فصلها منهم بثمن ، وأرسل اليه من عنده أربعين بعيراً ، إعانة على السفر ، وعشرة رواحل ، وأربعة من الجمـــال القوية لخاصة حمل محفته، وجعل ذلك هدية اليه. وجملة ذلك أربعة وخمسون جملاً، وأرسل معها مائة بعير للعربان ، في عنق كل بعير قلادة ، فيها ورقة مكتوب عليها ثمن ذلك البعير ، فقدم بذلك أحد عبيد السيد الشريف، ففرح بقدومه ، وألبسه خلعة واستعرض ما جا به من الابل ، وقبل ما أهدي منها اليه ، وأخذ الأخرى بالثمن المكتوب في القلادة ، فكان أقلها ثمناً عشرين ديناراً ذهباً ، وأعلاها ثلاثين ذهبـاً ، فلم يكتف بذلك ، وأرسل ثانيـــاً الى مولانا السيد الشريف ، يستدعي منه نحو مائة بعير ، يأخذها من العربان بالكراء ، أو بالبيـــع ، فأمر مولانا السيد الشريف عربان بني رِيشة ، ولحيان، وبني جابر، أن يصلوا بجمالهم اليه ، فاكترى كل بعير من جدة الى اليَنْبُع بسبعة دنانير ذهباً ، وكان كراها دون الأربعة دنانير ذهباً في المعتاد ، وكان هذا عادته في الذي يأخذه ، يستجلب بذلك خواطر من يجلب اليه شيئاً .

ولما أبطأت الجمال عليه ضاق ذرعاً ، فصار مولانا السيد حسين يلاطفه ويعِده في يوم كذا ، فيقـع الخلف في موعده ، فيكتب الى السادة الأشراف بالتعجيل ، وكانوا يتهاونون في ذلك ، على عادتهم ، في استغراقهم بالصيد ، ونحو ذلك ؛ فيتعب لذلك مولانا السيد حسين ؛ ولما تكرر منه الوعد ، ولم يحصل المرام ، خرج بنفسه الى السبيل الذي خارج جـــدة ، ينتظر وصول الجمال ، واستمر هناك يومين ، الى أن وصلت ، ففرح بها غاية الفرح ،وتوجه بها الى محمود باشا . ولزم من ذلك تأخر محمود باشا في جدة نحو عشرة أيام ، وحصل الغلاء في جدة بسبب ذلك ، وجاءه قرب سفره من مـــولانا السيد

الشريف الف رأس غنم ، مع تفقده في أثناء ذلك ، غير ما مَرّة ، من الحمول من البطيخ ونحو ذلك . ولما استوعب الجمال ، أرسل يطلب لهـــا عُدَداً ، فحصلوها له ، وتطلب بعض الرماح ، فأعطوا له نحو المائة رمح ، مريشة مكملة ، وشرع في التوجه في سلخ شعبان ، وكان لا يصبر عن القتل ،فضاق ذرعه في هذه المدة ، حيث لم يقتل أحداً ، وكان عنده مملوك اشتراه قريباً بمائتي ذهب ، فَقَـدَ خنجره ، فجعل ذلك ذنباً له ، فلما حمّـــل الحمول ، وأراد الركوب ، والناس وقوف بين يديه ، أمر بصلب هذا المملوك الشاب ، فوُضِع في عنقه حَبل ، وسُحِب من بين يديه ليصلب ، فمر على مولانا السيد حسين ، فرحم شبابه فتقدم الى الباشا ، وتقدمت معه ، وقبلنا يده، وسألنا مراحمه في العفو عن هذا الشاب ، فقال : أنا حلفت برأس مولانا السلطان اني أصلبه ، فما يمكنني أن أقبل شفاعة فيه . فقلت : لو كانت يمينـــاً بالله لوجب الحنث والكفّـارة ، فكيف وهو ليس بيمين ؟! فقال : نحن لا نضبط عبيدنا إلا بالسياسة . ولم يقبل الشفاعة ، وليس مراده إلا إرهـــاب الناس لا غير ؛ فمضوا به وصلبوه ، على جنب تربة الشيخ الزّيلعي ،في ساحل البحر ، وعذبوه في صلبه ، لأنهم لم يعرفوا كيف يصلب ، فانهم كانوا مماليك صغاراً ، ما تعاطوا شيئاً من ذلك .

وركب قرب المغرب ليلة الاثنين ، سلخ شعبان ، وركبنا معــــه قليلاً ، ورجعنا عنه ، فملت أنا مع بعض الجدم، الى ناحية المصلوب ،فنزلناه وكفناه في أثوابه وصلينا عليه ، وحفرنا له حفيرة دفناه فيها ، رحمه اللهتعالى وعوضه عن شبابه الجنة .

وتوجه محمود باشا الى الينبع ، ورجعنا الى مكـة ، وكان كلما انقطع له جمل في الطريق من العليق والزاد ، ونحو ذلك ، لا يسأل عنه ، ويتركه ، ويمضي ، وكان َفضُلَ عنده نحو الخمسمائة من الغنم ، التي أضافه مولانا السيد الشريف بها ، تقطعت في الرحلة الأولى والثانية ، فتركها ولم يسأل عنها ، فأخذها الرعاة والبدو ، وهذا كان شأنه في الطريق .

فلما وصل الى الينبع لاقاه السيد علي بن درّاج صاحب الينبع ، فأخلع اليه ، وأكرمه وأحسن اليه ، وأقام في ينبع ثلاثة أيام ، وتوجه الى مصر ، ووفى للجمالين الذين كان استكرى منهم الجمال الى الينبع ، وأطلق جمالهم ، وأحسن اليهم ، وكل من لاقاه في طريق مصر من العربان من أحد ، أكرمه ، وخلع عليه من الجوخ الأحمر البندقي العالي ، الذي لا يألفون مثله ، بل لا يعهدون من الأمراء (البكاربكية) غير اللبابيد الحمر المصبوغة . فوصل الى مصر ، فخرج الى ملاقاته صاحب مصر ، وهو علي باشا ، وكان يلقب بـ (كيلون باشا) وكان رجلاً من أهل الخير والدين والصلاح ،حسن السيرة، جميل السريرة ، متواضعاً في ملبسه وفي موكبه ، فخرج الى استقباله ، فرأى من تجملاته ما أدهشه ، ففارقه عند الدخول الى مصر ، ودخل محمود باشا في موكب عظيم ، وأفرد السنجق ، وليس ذلك عادة إلا للمتولي ، فصعب ذلك على علي باشا ، ووقع بينهما التنافس ، فلم يُقِم محمود باشا بمصر ، وتوجه الى الباب العالي ، فمر في طريقه على (كوتاهية) على حضرة السلطان الأعظم ، المرحوم المقدس سليم شاه ، طاب ثراه ، وكان إذ ذاك شاه زاده ، فقدم اليه من الهدايا ما لم يره من غيره قط ، فأحبه وأكرمه ، وخالطه مخالطة محبة وتربية ، وتوجه من عنده الى الباب العالي .

وكان الوزير الأعظم إذ ذاك ، عين أعيان أعاظم الوزراء ، تاج مفارق رؤوس العظماء والكبراء ، مدبر الممالك برأيه الثاقب ، ومؤسس القواعد بفكره الدقيق الصائب ، الوزير الأعظم ، والمشير الأكرم الأفخم ، نظام العالم ، محمد باشا ، أنعش الله الملك والملة بتدبيره إنعاشاً ، وكان له قرابة به معلومة بينهما ، من جبال بُوسنة ، سمعت ذلك من لفظ محمود باشا ، في بعض محاوراته ، فاعتنى به ، وقربه من السلطان الأعظم ، الأكرم الأفخم ، المقدس المرحوم السلطان سليمان شاه ، سقى الله ثراه ، وأهدى إلى بابه أعظم هدية ، لم يعهد مثلها ظاهرة وخفية ، فأما الظاهرة فتسعة أعداد من كل نفيس ، كان أولها تسعة أفراس منقادة من خيار الخيل ، سُرُجُها ولُجُمُها مُرَصّعة

بالجواهر ، عليها لبوسها ، وعليها تسعة مماليك ، من أحسن المماليك ، بأحسن الثياب ، كل مملوك بأسكفيه ومنطقته من الذهب ، مرصعة بالجواهر ، وسيفه المرصع ، وخنجره المرصع ، ولبوسه ، ثم من أنواع القماش المذهب ، ثم القطاس ، ثم شمّامات كبار من العنبر ، ولم يترك شيئاً من النفائس ، من كل صنف الا قدمه ، بحيث تعجب السلطان من كثرة ذلك ، ونفاسته ، ثم قدم صندوقاً مختوماً ، والتمس ان لا يُفْتح إلا بحضرة السلطان ، فيه من كل صنف من الجواهر .

ثم قدم للوزير الأعظم ما أبهره ، ثم صار يعطي كل من ورد اليه الى أن نفد جميع ما معه من التحف ، وصار يؤتي اليه من البزستان بجميع ما يوجد من التحف والقماش ، ويعطيها الى أن نفد جميع مـــا في البزستان ، ثم صار يعطيهم من النقد الى أن اقترض ما ينوف على مائتي ألف دينار ذهباً .

فولي مصر ، وعاد متولياً على مصر ، اليها ، فقدمها بحراً في شوكة عظيمة ، فانثالت اليه الناس بالهدايا والتحف ، منذ وصل الاسكندرية الى أن دخل مصر بأنواع الخيول والتحف والأقمشة ، فلما وصل الى مصر ، قَدّمَ اليه صاحب الصعيد ، الأمـــير محمد بن عمر سفينة كبيرة مشحونة بأنواع الهدايا والتحف ، وخمسين ألف دينار ذهباً من النقد ، فبمجرد وصوله اليه أمر بصلبه ، وأخذ جميع ما أتي به ، وأرسل ختم على حواصله .

ثم صلب القاضي محمد العبادي كاتب الروزنامة وكاتب الجوالي ، وكان من أعيان أهل مصر ، ذا وجاهة وتَجَمُّل وتَعَيُّن ، وكان في قدومه قبل ذلك الى مصر لم يحتفل به ، وأخذ في خاطره منه ، فصلبه .

وصلب أيضاً شخصاً مغربياً ، وكان له معرفـــة في علم النجوم ، وعلم الرمل ، ونقل عنه الى محمود باشا في قدومه الأول الى مصر ، انه لا يتولى مصر ، فكتمها له ، الى ان وصل متولياً ، فأمر بصلبه .

وأمر بصلب أخي عيسى الجويلي ، وابن بغداد في يوم واحد ، متقابلين ، في باب زويلة .

وكان صلبه للقاضي شمس الدين العبادي كاتب الجوالي ، من غير ذنب يوجب ذلك ، غير شحناء قديمة ، أيام كشوفيته، وكان كاتباً فاضلاً ، عريقاً، جميل الحال ، رحمه الله تعالى .

وأراق دماء كثيرة جداً ، بحيث اذا وصل اليه الصوباشي في الديوان ، وعرض عليه من معه من المتهومين، يشير اليه بمروحة في يده، اما الى الصلب، أو التوسيط ، أو رمي الرقبة ، أو الخازوق ، باشارات خاصة ، من غير أن يتكلم بلسانه .

وكان مع ذلك له عطاء وبذل ، وسماط ممدود ، في غاية التجمل ، بحيث أن الأواني التي توضع بين يديه كلها مـــن الذهب والفضة ، وكذلك أواني (الخوشاف) .

وكان موكبه من أعظم المواكب ، بحيث لم يعهد مثله ولا الوزراء .

وكان لا يلبس إلا أغلى الثياب السراسر ، من كل لون فاخر ، وكانت له حُرْمة وهَيبَة وأنفة وعظمة .

وكان وصل اليه وهو بمصر متوليها ، خبر وفاة الأمير ابراهيم الدفتر دار، الذي كان عين من قبل السلطنة لإجراء عين عرفات المتقدم ذكره ، وكانت وفاته بمكة في ثالث رجب سنة أربـــع وسبعين وتسعمائة ، ففرح بذلك ، وشمت به ، وعامله بعد موته أقبح معاملة في ماله وأولاده ، وأظهر الشماتة بموته فكأنما أنشده لسان حال المرحوم ابراهيم بك :

الموت كأسٌ دايرٌ	وكُلُّنا يَشْرَبُ بِهْ
فقلْ لِمَن يَشْمَتُ بي	لا بُدَّ أن يُشْمَتَ بِهْ

فما دار عليه الحول ، حتى صدق عليه هـــذا القول ، وكان عند وصول هذا الخبر اليه ، وتحققه لذلك ، أرسل الى دار ابراهيم بمصر ، ومماليكه ، وكانت مشحونة بالأموال والتجملات ، فأخذ الأموال الظاهرة، وباعها بأبخس ثمن ، ثم عاقب مماليكه ، ليدلوه على دفائنه ، فدله كبير المماليك عليها، وكان دفن فيها مالا عظيما ، فاستخرجه . وكان تسعين الف ذهب ، وحملها وكمل بها خزينة مصر ، وجهزها مع الخزينة ، وأرسل معها مملوكه مراد بك، وكان كتخداه يومئذ ،وأرسل معه جملة من التحف والهـــدايا ، الى باب السلطنة الشريفة ، وإلى الوزراء ، وإلى أركان الدولة لم يعهدوا إرسالها قبل ذلك .

ولما أرسل مراد بك بهذه الخزينة ، وأظهر ما يقدر عليـــه من التجمل والزينة ، انتظر ما يرد عليه من الأبواب من الترقيات،والعنايات والرعايات، في كل باب ، فأنشد له لسان الدهر مترنماً بالجواب :

إذا تمَّ أمرٌ بَدا نقصُه ... توقّعْ زوالا إذا قيلَ تمّْ



الفصل الخامس والعشرون

في ذكر وفاة محمود باشا

لما رأى الدهر تمكن محمود ، من رتب السعود ، ولحظه وهو يختال من من العُجْب والكـِبْر في حلل سابغة وبرود ، وضحك له ثغر الزمان عن أزهار من أمان وورود ، حسده الدهر الحسود ، وأظهر عليه حقده الزمان الحقود ، وطالما أضمر له افتراش أديمه وتمزيق جلوده ، وافـــتراس جسده بمخاليب أسوده ،وطالما صعد الى الله دعاء مظلوم لا ناصر له إلا الله ،فاستجاب الله دعاه ، وعامله معاملة أصحاب الفيل (وأرسل عليه طيراً أبابيل ، ترميه بحجارة من سجيل) ، ونقله من التخت الى التحت ،ومن البخت الى النحت وتلا عليه لسان الجزاء بعد تلك العناية والرعاية (اليوم ننجّيك ببدنك ، لتكون لمن خلـْفـَك آية) ، فكان مما قدره الله وقضاه ، وأنفذه عليه بالرغم وأمضاه ، انه ركب في موكبه المعتاد ، في كل اربعاء ، كما يفعله نواب مصر في صبح يوم الاربعاء ، وكان آخر اربعاء لا تدور ، وثقل ذلك اليوم معروف مشهور ، في آخر جمادى الأولى ، سنة خمس وسبعــين وتسعمائة ، ومر نازلا من القلعة ، على بركة الناصرية ، في زقاق بين غيطين متهدمين ، وقيض الله له شخصاً مجهولا ، لم يعرف الى الآن ، ولا دري به احد إلا الله تعالى ، وكأنه كان له ثأر عند محمود باشا ، إما قتل له أحداً أو أنكاه ، أو ألقى الله تعالى في خاطره عداوته ، لكثرة ما يسفك من الدماء ، ويهين الأكابر والأمراء ،

فكمن في جُدُر الغيط ، ونقب فيه نقباً يحرر منه على رمي من يرميه، ووضع فيه بندقية محشوة ، صغيرة من بنادق اليد ، ما اطلع عليه غير خالقه أحد، فلما حاذى النقب حرر عليه ، وأوقد الفتيلة ، ورماه واحدة فما أخطأته ، وأصابته تحت كتفه الأيسر ، فعقرته ، ولم ينفذ الرصاص المرمى ،بل احتبس تحت ثديه الايمن ، لكبر جثته ، وسمنه ، وغلظه ، وعظم بدنه ، وما خرج الرصاص عن البدن ، وأما الرامي فترك البندقية في موضعها ، وخرج من الغيط وغاب ، وكان جدر الغيط ممتداً مسافة بعيدة ، فبينما يدخل اليه فات الرجل ، وذهب واختلط بالناس فما عرف ؛ فلما سمع هو ومن معه صوت البندق ، استنكروه فقال : هو انا المضروب . واستمر متجلداً على فرسه أربـع خطوات ، ثم نزل ، ثم أركبوه فرساً آخر ، وتجلد قليلاً ، ثم لم يطق الفرس ، فنزل عنها ، وفرشوا له غواشي السروج ، وأحدقت به الأمراء ، وهجم مماليكه الى الغيط ، حيث النقب الذي جـاء رمي البندقية منه ، فلم يجدوا احداً ، ورأوا بندقية صغيرة من فم النقب ، تركها الرامي ، وفاز بنفسه ، فداروا في الغيط فوجدوا فلاحين فأمسكوهما ، وسألوهما عن الذي رمى بالبندقية ، فقالا : سمعنا صوتاً ، ولم نرَ شخصاً ؛ فرموا رقابهما بغير ذنب ، تكميلاً للظلم والغشم . وأحضر إليه الأمير حمزة تختروان، فركب فيها، ورائد الموت ينشده بلسان حاله :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفـع

فارتجت مصر بموته ، وكادت الأسواق تنهب ؛ فعند وصوله الى القلعة ، ارسل الى الاسواق من يحفظها عن التخطف ، وشرع في الوصية ، فأوصى لجميع مماليكه بالعتق ، وأن يكون اسكفه للسلطان ، وحياصته وسيفه ومركوبه لنفسه، وان جميع ما حوزة زوجته حق وملك لها ، وان الباقي في خزائن السلطنة محفوظ في الديوان بختمه ، تحت يد أهل الديوان .

ثم اخذ يخلط ، فنزل من عنده الأفندي قاضي مصر ، وهو شاه جلبي ؛

ودفتر دار مصر وهو المرحوم محمد جلبي اكمكجي زاده ، وبقيـــة الأمراء والسناجق ، وشرعوا في ضبط المملكة ، ودخل اليه نساؤه، فتوفى الى رحمة الله تعالى ، سامحه الله تعالى وغفر له ، وعامله بلطفه وحمله ، واكرم نزله ، ففي سعة رحمة الله تعالى وواسع فضله الكبير ، ما يسع امثال هذا البائس الفقير .

وقد كان رحمه الله تعالى عين لنفسه مدفنا من حياته،بقرب سبيل المؤمنين قرب الرملة ، فغُسّل وكفِن وصلى عليه ناس قليلون ، ودفن بالموضع المعد له ولم يكثر المتأسفون عليه ، والله تعالى يمحو عنه الآثام ، ويرضى عنه الاخصام هذا كله ذكرناه استطراداً ، لتضمنه فوائد جيادا ، وفرائد تزين بعقودهـا الايام نحوراً منها واجيادا ، خلت فيما اعلم عنها كتب التاريخ ، وكاد أن يصيخ الى سماعها عطارد والمريخ ، لتضمنها زبد المواعظ والعبر ، ومشاهدة تصاريف الحوادث والغيران في ذلك عبرة لمن اعتبر .

ونعود الان الى اخبار اليمن ، ونقرط الآذان بالدرر المجتلبة من عدن .



الفصل السادس والعشرون

في ذكر ولاية رضوان باشا بن مصطفى باشا بكلربكية اليمن ، بعد عزل محمود باشا

كان رضوان باشا سنجقا في غزة ووصل اليه الامر الشريف السلطاني ان يتوجه الى اليمن بكلربكيا عوضاً عن محمود باشا ، وورد الامر الشريف اليه بذلك ، في رجب سنة اثنتين وسبعين وتسعمائة واستعد من غزة ووصل الى مصر، ونزل من السويس الى البحر ، في غرابين ، ووصل الى جدة في اوائل ذي الحجة . وكان بيني وبينه سابقة معرفة من والده رحمه الله ، فبرزت لملاقاته ربع مرحلة من مكة، ولاقاه الامير ابراهيم الدفتر دار أمين عين عرفات، وكان ساكنا في مدرسة الأشراف قايتباي ، واراد ان يسأل منه رضوان باشا نزوله فيها ليسمح له بذلك ، فتغافل عن ذلك رضوان باشا ، وانفت نفسه ، فتكدر ابراهيم بك من ذلك ، ولم يمكنه الوصول اليها .

وايضاً فقد كانت اليمن عينت لإبراهيم بك ، فسبق الى ذلك رضوان باشا وطلب ايالتها ، وبذل في ذلك خمسين الف ذهب ، كما يقال، وذلك ايضا كان سبب زيادة الوحشة بينهما .

ولما قرب من مكة تطلب من مولانا السيد الشريف محلا يسكنه ايام الحج فعين له بيت الخواجا بخشي ، الذي هو في باب الزيادة ، وصار الآن من جملة اوقاف المدارس السلطانية السليمانية بمكة، وكان متهدماً اذ ذاك غير مستكمل

المرافق ، فصبر عليه ، وسكنه ، وكان محرماً بالعمرة فطاف وسعى وحلق ثم احرم بالحج ليلة الصعود ، وصعد الى عرفات ، وتوجه متجرداً ، فمنعه ولده احمد بك من ذلك ، وهو شاب فاضـــل ، لا بأس به ، حسن الخلق قريب الى القلوب ، معتدل الأحوال ، ذكي فهيم ، لوذعي حاذق الطبع السليم تقلب في المناصب السلطانية ، وتصرف في السناجق الخاقانية ، وسيؤول الى المراتب العلية ، والمناصب السامية السنية ، ان شاء الله تعالى ، فأبى منه والده ان يلبس ويفدي ، كما يفعله الناس ، فسألني احمد بك المذكور ان امنع والده من التجرد خوفاً عليه من التوعـــك ، فمنعته وحذرته من التمرض ، خصوصاً وهو على جناح سفر ، لا سيما وفي الشرع الشريف مندوحة عن ذلك بالفداء ، فلم يوافق على اللبس ، واستمر متجرداً ، قصداً للتقشف، فما وصل الى عرفة الا محموماً ، فلمته على ذلك ، والبسته المخيط : فوقف بعرفة وكانت هذه ثانية حجة له ، وقد حج متعدداً فيما بعد ، معزولا عن اليمن، متوليـاً سنجقاً من غزة ، سنة ثمان وسبعين وتسعمائة ، وما بعدها .

وقد وردت احاديث شريفـــة نبوية على قائلها افضل الصلاة والسلام ، فيمن حج ثلاث حجج ، مذكورة في كتب المناسك ، يرجى له بها رفـــع الدرجات ، والله يتقبل منا ومنه ان شاء الله خالص العبادات ، ويضاعف لنا وله الحسنات ، ويغفر لنا وله جميع السيئات .

ولما تم حجه استمر متوعكا، فعاده سيدنا ومولانا السيد حسن ادم الله عزه الى محله ، وكان ذكر لنا رضوان باشا ان مولانا السيد الشريف إذا وصل الى عيادته ، يتوجه هو عقيبها اليه ، ولو عند خروجه من مكة، وان لم يمكنه الركوب اليه ، مضى بتختروانه اليه ، فما وفى بهذا الوَعد فيما بعد ، وتكدر سيدنا ومولانا السيد الشريف منه، بسبب ذلك في الباطن، ولكنه لم يظهره ، وحصلت لنا بذلك بعض الخجالة ، وستر الله علينا تلك الحالة ، وتوجه عقب الحج الى جدة وركب بحراً ، وتوجه الى اليمن ، وجعل مقره في صنعاء .

ومات في أيامه من الأمراء العظام باليمن ، كوسه بهرام ، وكان سنجقا شجاعاً فاتكا ، يخاف أهل الجبال منه ، وكان له اقتدار عظيم ، ومال كثير، وحرمة وافرة وهيبة في القلوب ، وبعد موته ظهر تجبّر أهل الجبال وابتدأ فيهم الغل والخيانة ، والغدر وكثرة الفتن .

الفصل السابع والعشرون

في تصنيف مملكة اليمن الى بكلربكيين وشروع الاختلال بسبب ذلك

لما وصل رضوان باشا الى اليمن ، شرع بتعقب احوال محمود باشا ويظهر عواره ، ويعرض تقصيراته الى الباب العالي ، في مدة اقامته باليمن .

ولما فطن لذلك محمود باشا عرض ان اليمن مملكة واسعة ، وانها تحتاج الى بكلربكيين ، لضبطها وسعة اطرافها، وان ذلك امكن للملك، واهيب في عين العدو ، فما زال يحسن هذا الرأي ويُشـَافِه به أركان الدولة ، ويكاتبهم به الى ان تقرر ذلك عندهم ، مع مصادفته غرضهم وهو اهم من توسيع الملك وتكثير المناصب ، كما فعلوا ذلك في مناصب القضاة وغيرها .

وكان الامير مراد ، وهو المشهور بكون مراد ، سنجقا ولى غزة وصار امير الحاج ، وللوزير مصطفى باشا الاعتناء به ، ولم يكن اذ ذاك وزيراً فسعى له في الباب العالي ، فقسم مملكة اليمن نصفين ، كما اشار به محمود باشا وجعل التهائم كلها نصفا ، وصنعا وما والاها نصفا ثانيا ،وولى مراد باشا نصف التهائم ، وفيها البلاد والمال اكثر ، وابقى النصف الاخر وهو الجبال محل الحرب والقتال بيد رضوان باشا ، وقصد محمود باشا بذلك نكاية رضوان باشا ، وكان ذلك فيما بَعدُ سبباً لاختلاف رضوان باشا ومراد باشا، وصارت العساكر فرقتين وغرضين مع ضعف العسكر، وقلة العلوفة ، وتلاشيها بتلاشي السكة وصيرورة الدينار الذهب بالفي عثماني فصاعدا ، وضعفت الرعية عن

احتال بكلربكيين ، وتفرقت العربان المطيعون، وصارت شيوخ العرب يختار بعضهم رضوان باشا ، وبعضهم يختار مراد باشا ، واذا حصل لهم نوع جفاءٍ من أحدهما يميل الى الآخر ، وهكذا العسكر فأدى هذا الحال الى الفساد والاختلال قال الله تعالى : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفَسَدَتا)

ومن لطيف حكايات ما حكاه المؤرخون ان اسكندر ذا القرنين لما قاتل دارا بن دارا ملك الفرس ساعده التقدير عليه فسطى على دارا حاجباه فقتلاه، وتقربا الى اسكندر بذلك ، فكان من انصاف اسكندر انهما لما وصلا اليه عمل ديواناً وامر ان يفعل السياسة مع الحاجبين ، ونادى عليهما هذا جزاء من خان ولي نعمته ، وسطى على سيده ، ودار بهما في معسكره ثم صلبهما، ولما وقع في يده امراء دارا واركان دولته واقاربه من ملوك الفرس ، رأى منهم كال العقل والتدبير ، وحسن الرأي ، وملاحة الأشكال ، وصباحة الوجوه ، فأدهشه ذلك ، فتحير بين أن يقتلهم ، حذراً من طلبهم بعد ذلك بالثأر ، وبين أن يطلقهم ابقاءً عليهم لما أُعْطُوهُ من الكمال ، والحسن والجمال ، في الظاهر والباطن ، ولكن توهم منه وقال : لا يؤمن من أمثال هؤلاء أن لا يأخذوا بثأر داراً ، ولو بعد حين ، فأرسل الى استاذه ارسطاليس الحكيم ، وكان لا يقطع أمراً دون أن يشاوره فيه ،وكان معه اربعمائة نفس من الحكماء أرباب الرأي والتدبير ، ومعرفة الأمور ، يجالسهم ويستفيد منهم ، وكان رئيسَ الكُلّ أرَسْطَاليسُ لا يقطعون أمراً دونه .

وهو أول من دَوَّنَ الحِكمَة ، تقريباً الى الافهام ، وتسهيلاً لتناولها على الأنام ، يقال له : المُعَلِّم الأول ، ويسمى الامام أبو نصر الفارابيُّ المعلم الثاني ، لأنه نقل الحكمة من اللسان اليوناني الى اللسان العربي ، وكان قبلهما لا تدون الحكمة ، بل تؤخذ من الصدور إلى الصدور ، صونا لها عن أن يتلقاها من الكتب من لا يتأهل لها ، من أرباب النفوس الرذلة الساقطة ، فلا يتشرفون بشرف العلم لخساسة نفوسهم ، ودناءتها ، بل يرذل العلم برذالتهم ، وسقوط أنفسهم ، وكان استاذ ارسطاليس أفلاطون الحكيم الإشراقيّ ،

إن أفلاطون الحكيم الاشراقي لامَ أرسطاليسَ على تدوين الحكمة وافشائها ، وتسلط غيرْ أهلها عليها . فقال : إني رَمَزْتُ رموزاً ، وجعلتها كنوزاً ، لا يصل الى فهمها غير الفطن الذكي الحاذق الفاضل ، ويقصر عن إدراكها الغبيُّ الجاهل .

فلما ورد كتاب الإسكندر على ارسطاليس كتب إليه : أما بعد : فإنك إن أتلفت هذه النفوس الشريفة ، وأزلت الملك من بينهم ، لزم أن تنصب في محلهم غيرهم ، ممن لا يكون من بيت الملك والرئـــاسة ، وليس على الرعية والمملكة أضرّ من ولاية السفل والأراذل ، ممن ليس له أصل عريق في الرئاسة ، ويلومك كل أحد ، على إراقة دماء مثل هذه الأنفس الشريفة ، معما يتضمن ذلك من الظلم ، ومؤاخذة المبدأ الفياض لك بسببهم ، وحصول الجزاء عليك من خالقك ومن خالقهم الذي فطرهم ، ويشتد لوم الناس بعد ذلك عليك في ولايتك الأراذل والأسافل في محلهم ، ولا يستقيم لك الملك بذلك ، والذي أراه أن تختار الكُمَّلَ منهم ، وتوزع مملكة العجم بينهم ، وتعقد لكل واحد تاجاً تسميه باسم الملِك ، وتعين له جهة من المُلْك يستقل بها دون الآخرين ، وتمُنّ على الجميع ، وتخلع عليهم وتطلقهم ، فإنك إن فعلت ذلك انقادوا لك ، واعترفوا باحسانك ، وتأمَن كيدهم وشرهم بعد ذلك ، فإنهم لا يتفقون ، ويرى كل واحد انه مستقل بمملكة ، وتأنف نفسه عن إطاعة غيره ، ويكبر عليه أن يتفق مع غيره ، فلا يزال بأسُهُم بينهم ، وتكون أنت في في راحة منهم .

فلما وصل كتاب ارسطاليس إلى الإسكندر استصْوَبَ رأيه ، وفعل ما أمره به ، وعقد لكل واحد منهم تاجاً ، وخصه بمملكة مستقلة ، وخلع عليه ، وأرسله إلى مملكته ، فاستمالهم بذلك ، وصار بأسُهُم بينهم ، واستمر القتال بينهم أربعمائة عام ، الى ولاية أزْدَشير بن بابك ، ويُسَمّون ملوك الطوائف ، وصار يضرب المثل بكلمة ارسطاليس ، ويقال : يا لها من كلمة فرّقت بين

ملوك الفرس أربعمائة عام. ولما ضعفت ملوك الطوائف بعد هذه المدة، استولى عليهم أزدشير ، واستقل بالملك في جميع ممالك العجم .

وإنمـــا سقنا هذه الحكاية ، للاستشهاد على ان تفريق الكلمة ، وولاية الأسافل ، من أعظم أسباب ذهاب الملك ولهذه الحكاية نظائر كثيرة تركناها خوف الإسهاب .



الفصل الثامن والعشرون

في ذكر ولاية مراد باشا للتهائم ، من أرض اليمن

كان مراد باشا من خواص المماليك السلطانية ، من طائفة دُوْشَرْمَهْ ، دخل إلى السراي ، وخدم الحضرة السلطانية السليمانية ، تغمدها الله تعالى برراحمه السَّنية ، وتنقل في المناصب الى أن صار سَنجقاً ، وكان بطلاً شجاعاً ، رامياً مجيداً ، وكان يقال له (كور مراد) لخلل كان بإحدى عينيه يسير ، وقع مرة في أسر عربان البصرة والحَسا ، في حرب وقع له هنالك ، فاستنقذته زوجته بالفداء ، وخلصته ، وعاد الى سنجقه ، إلى أن صار أمير الحاج الشامي ، ثم ولي غزة ، ثم نقل منها بكلربكياً النصف الأدنى من اليمن ، شريكا لرضوان باشا ، وأبقوا لرضوان باشا صنعاء وعدَناً ، وجبال اليمن ، وتوجه بحراً من مصر الى جدة ، ثم وصل الى مكة وحج في سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة ، ونزل الى جدة وتوجه بحراً الى اليمن ، إلى أن نزل من البُقعة في محرم الحرام ، سنة أربع وسبعين وتسعمائة ، وتلقاه سناجق اليمن بالتقادُم والهدايا .

فيما يُشاع عنه ، ولا يَعلم حقيقة الحال فيه غير الله تعالى ، أنه سقى السُمّ أميرين من أمراء اليمن ، أحدهما : الأمير محمد بن يحيى ، سنجق عدن ، والثاني : محمد بك سنجق جبلة ، وكانا معروفين بالمال الكثير ، والتجملات ، فوضع يده على مُخَلَّفيهما ، وقَوَّم له ذلك بأبخس ثمن ؛ حتى يقال : انهم قوّموا له خيلهما

وبغالهما ضريبة، خمسة دنانير ذهب، كل واحد، فما وصل إلى زبيد إلا وهو متأثل متجمل، ولم يبارك الله تعالى له في ذلك ، كما ستسمع ما سيقع له ، واستقر في تعز ، مستقلاً بها وبزبيد ، وما والاهما .

واستقل رضوان باشا بصنعاء وصعدة ، وما والاهما ، وشرعت عقارب الفتنة تدبّ بينه وبين رضوان باشا، وفرح العدو لذلك ، واتخذ أهبة العصيان، فكان من قضاء الله ما كان .



الفصل التاسع والعشرون

في ابتداء الفتن ، وشروع مطهر للعصيان بأرض اليمن

لما وصل رضوان باشا الى زبيد ، ثامن محرم ، سنة اثنتين وسبعين وتسعمائة ، أظهر العدل ، وأنصف الرعية من الكشاف ، وخيّم بها اياماً ، ثم توجه الى تعز ، وخيم فيها أيضاً أياماً ، وشنق فيها ابن مكرد ، مع انه لم يصل إليه إلا بعد الأيمان ، وأرسل منديل الأمان اليه .

ثم توجه إلى صنعاء واستقر بها ، وطالب أهل تلك البلاد ، وطالب الدعاة الإسماعيلية بالتسليمات ، وكان ذلك معافاً عنهم ، لكونهم من الجند وأعداء الزيدية ، وخدام السلطنة العلية ، فقبض بعض قلاعهم ، واشمأزت قلوب الرعايا من فعائله .

ولما كان شوال ، سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة ، وصل قاصدٌ بأن البلاد قد قسمت قسمين ، وأعطي مراد بك سنجق غزة سابقاً بكلربكية زبيد والتهائم ، وأبقي لرضوان باشا بكلربكية صعدة وصنعاء وإبّ وجبلة وعدن ، وذلك في جمادى الآخرة ، سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة ، فلما وصل الى رضوان باشا هذا الخبر ، تنغص عيشه ، وتكدر مشربه ، وهَمّ بجمع المال ، فشرع أولا بتضمين بلاد الاسماعيلية ، وزاد في جهات السر ، من التزام علي بن الإمام ، وأرسل اليها كاشفاً يجبي خراجها ، ويضبطها ، يسمى اسكندر آغا ، فشكت الرعية من ظلم الكاشف ، الى علي وأخيه مطهّر ، فأرسل رسولا الى الباشا رضوان ،

بأن هذه الجهة ضعيفة ، قليلة الخراج ، وقد كنا اشتكينا الى محمود باشا ، فنقص عشرة آلاف عثماني ، والمناسب إبقاء هذه البلاد على ذلك.

فلم يلتفت إلى شكواهم ، فاجتمعت الرعية ، وقتلوا الكاشف ، اسكندر آغا ، غيلـةً وأظهرت العصيان ، وشقّت العصـا ، وتظاهرت الزيدية ، وتحالفوا على الخروج على الأروام .

فلما سمع رضوان باشا بقتل الكاشف اسكندر ، خيّم في موضع يقال له (عُمْرانَ) في ذي القعدة سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة .

فلما وصل مراد باشا الى (بندر الصُّلَيْف) في أواخر محرم ، سنة أربـع وسبعين وتسعمائة ، ودخل (زَبيد) في أوائل صفر ، أرسل إليه رضوان باشا ، يستحثه في الطلوع والوصول اليه ، ويطلب منه العسكر ، ودراهم من الخزينة الكائنة في قاهرية تَعِزّ ، فقابل ذلك بالاصغاء والقبول ، وكان في نيته العزم بعد أن يصل الى تعزّ ، فوصلها في ثاني شهر ربيع الأول ، فوصل من الباب العالي جاووش باشي رضوان باشا ، براسيم وسناجق وغيرها ، ومن جملتها : أن سنجق جِبْلَة أعطيت لولده أحمد بك ، واستخرج صورة دفتر من دفتر الروس ، وعليه خط قاضي العسكر ، بجهات أناظولي ، أن جِبْلَة وذي سَفال، والقاعدة،من أعمال صنعاء، وسبب ذلك ان البلاد كانت قسمت قبل تقرير الأمر على هذه الصفة ، ولما اطّلع محمود باشا ما أعجبه ذلك ، وقال : لم يبق لباشات التهائم محصول ، وتضعف جهاته ، فقسموها بمعرفة محمود باشا على قسمة أخرى ، ادخلوا سنجق جِبْلَة وذي سَفال وغيرها ، في حصة التهائم، وجُعِل كلُّ قسم اثني عشر سنجقاً ، وجعل بها دفتر ، عليه مهر مولانا السلطان الأعظم .

وأعطي لكل واحد من البكلربكيَّين نسخة ، وعلى كلاهما مهر مولانا السلطان الأعظم .

ولما ان أرسل رضوان باشا الى مراد باشا صورة دفتر الروس ، أخرج له

مراد باشا الدفتر الذي عليه مهر السلطان الأعظم ، فترجَّحَتْ حُجَّةُ مراد باشا ، بالمهر الأعظم ، وهذا كان سبب الشنآن فيما بينهم ، فتأخر مراد باشا عن الطلوع ، وأظهر ذلك ، وأرسل اليه العسكر مع الأمير شهلا محمد بك ، وأرسل معه ما كان بقى في القاهرية من الخزينة ، بعد استيعاب (ساليانته) وافتتح بينهم القال والقيل ، والكلام العريض الطويل .

فلما تحقق مُطهّرُ ما وقع بينهم ، أظهر الطاعة والوداد لمراد باشا ، وأرسل إليه يشتكي من رضوان باشا ، وانه خالف علينا ، وان مُطهّراً من أقل مماليك السلطان الأعظم وهو مطيع ، ماشٍ على القواعد القديمة ، التي قررها ازدمر باشا ، ووقع الاتفاق عليها ، فكان على تلك الطريقة من زمان ازدمر باشا ، الى زمان محمود باشا، وقد شرع رضوان باشا في نقضها، بل نقض بعضها ، وطالبهم بخلاف ذلك ، وانه كان في التزام الصنو عليّ بن شرف الدين التزام وادي السّر، بكيسٍ روميٍّ ، وهو خمسون ألف عثماني .

ولما وصل محمود باشا انقص من الالتزام عشرة آلاف عثماني ، وجعلها بأربعين ألفاً ، فلما وصل رضوان باشا جعل فيها كاشفاً بثمانية أكياس ، فأرسل منقديم أخونا عليبن شرفالدين يذكر لنا ذلك،فأرسلنا اليه :أنالجهات لا تعتاد كُشّاف أروام ، ولا يحملون الالتزام ، وربما انهم يُقدّمُون على الكواشف ، لأن أغلبهم شُرَفاء ، وأقرباء ، والأخ علي كان يُسَلّمُ المبلغ من عنده ، لكي يشتري أقاربه ومن يلوذُ به ، فلم يَرُدّ لنا جواباً ، فقام بعض جهلة الرعايا ، وقتل الكاشف ، وهو اسكندر آغا ، لكثرة ظلمه وجَوْره ، فجعل أن ذلك بمعرفتنا ، وحاشا أن نرضى بقتل مسلم ، وإنا لا نعتاد تسليم شيء لأنه قد تصدق علينا مولانا السلطان الأعظم بذلك ، ولم يكلفنا بشيء من المطالب ، التي يعتادون أخذها من الرعايا ، من السمن والعسل ، والبر ، والشعير والتبن ، وغير ذلك ، ومن وصل من اخوانكم البكلربكية أجرانا على عوائدنا القديمة ، غير رضوان باشا ، لما وصل الى صنعاء تطلّب من أخينا علي بن شرف الدين من التّبن ، فثقل ذلك على

الرعايا ، ومن يوالينا ، فلما شكونا اليه ذلك استحقره ، وقال : لو ساعدتم عسكر مولانا السلطان الأعظم بقليل من التبن ، ما كان يضرُّكم ، وهو نزرٌ حقير ، أحقر من أن يذكر ، وأمثال هذا من الغلظة والجفاء ، لا يخفاكم ما يترتب عليه . ثم انه أرسل علينا مَحَطةً فما أمكننا الا التوكل على الله تعالى، والمُصابرة إلى أن يصل خبرُنا الى أحد من عقلاء الأمـــراء ، فيوصله الى مولانا السلطان الأعظم .

فلما وصل رسول مطهر الى مراد باشا بهذه الرسالة اغتر بمثل هذا الكلام من مطهر ، وخفي عليه مكره وحيلته ، ورأى فرصةً في عرض تقصير رضوان باشا ، يكون سبباً لعزله ، وعرض الى الأبواب العاليـــة : ان مطهراً مطيع لكم . وأرسل بنفس كتابه ، بعد أن أثبته على القضاة أن هذا توقيعة بيده ، وكذلك رضوان باشا عرض في مراد باشا : انه لم يعاونني ، ولم يرسل إلي العسكر والمال ، بل خذلني ، وقوّى العَدُوّ عليّ . وأرسل كل واحد منهما عروضه إلى الباب،يشكومن الآخر،فسبقت عروض مرادباشا، لمساعدة أمير الأمراء بمصر محمود باشا ، فكان سبباً لِعَزْل رضوان باشا قبل وصول عروضه الى الباب العالي ، فاستفحل أمر مطهر ، وضعف عن مقاومته رضوان باشا ، لموافقة مراد باشا مع مطهر ، وعدم إعانته لرضوان باشا ، وكان ذلك في الكتاب مسطوراً .

وأيضاً من جملة أسباب قيام مطهر في القضية ، ومناصبته للأروام ، أن طائفة من الإسماعيلية التي يقال لها (الدُّعاة) وهم في شوكة ومنعة ، وجهاتهم متاخمة لجهات مطهر ، وبينهم العداوة الدينية ، من قديم الأيام ، ولما استولى الإمام شرف الدين ، في الزمن السابق ، على إقليم اليمن ، فكان أول استقامته بصنعاء سنة اثنتين وعشرين ، جلـّى الاسماعيلية ، وأخرجهم من البلاد ، إلا من جاء وأطاع ، وتاب من (السَّمْعَلة) وأشهد على نفسه بذلك .

وكان مطهر في زمن أبيـــه الامام شرف الدين محتسِباً ، أعني أمير العسكر ، والمتكلم على الحروب ، فجعل لهم طابعاً مكتوباً فيه : (المطهر

ابن أمير المؤمنين) فكلٌ من وصل اليه تائباً من (السمعلة) وَسَمَه في زنده بهذا الطابع ، ويكون من جنده ، فمنهم من رضي بالتقيّة،والدخول في طاعة الزيدية ، واختار هذه الفعلة الشنعاء ، ومنهم من لم يرضَ ، وخرج من البلاد، وتفرقوا في الجهات ، وجاء منهم نحو مائتين ، وسكنوا زبيد ،وكان داعيهم الكبير ، الذي اليه يرجع العسكر ، من جملة من وصل الى زبيد ،وتوفي فيها، فأسند أمر الزكاة والأمور الدينية الى واحد من (اللُونْتيا) يقال له الشيخ يوسف ، واللونبا طائفة من ملاحدة (كُجْرات) كانوا يعطون الجزية وأسند أمر العسكر والحروب الى محمد بن اسمعيل الداعي ، وذلك في سنة خمس وثلاثين وتسعمائة .

ولما وصل أويس باشا إلى زبيد ، كان الشيخ محمد بن اسمعيل الداعي ،هو المحرك له في أخذ صنعاء ، وقال له : دَرْكي أخذ صنعاء ، فمعي خمسون ألف مقاتل ، كل واحد منهم يرى انه يجب إطاعة أمري تديناً، وإلا يكون عاصياً . فتم على ذلك ، وشمر واجتهد ، خصوصاً بعد أن قتل أويس باشا .

وكان أزدمر باشا كتب لهم خطوطاً واستخرج لهم مراسيم سلطـــانية، وأعطى الشيخ محمد بن إسمعيل سنجقاً سلطانياً ، وكان لهم الاعزاز والإكرام الكلي ، لأنه لم يكن للزيدية غريم سواهم .

ولما وصل رضوان باشا ، ورأى ان محمود باشا لما أخذ حصن حب ، استخلص بواسطته كذا وكذا سنجقاً ، وترقيات ، اقتضى رأيه ان يظهر انه افتتح أيضاً عدة جهات ، من جهات الاسماعيلية الطائمين ، وعرض لأبن الشيخ اسمعيل ، الذي يقال له محمد بن عبد الله في سنجق ، وأعطاه بلدة من بلادهم ، وأوقع بينه وبين ابن عمه ، فوقعت الفتنة بينهم ، وتشتت كلمتهم ، وصاروا طوائف ، واغتنم مطهّرُ هذه الفرصة ، واستبشر بها ، وقيل : انه أمر بإيقاد النيران في جهاته للفرح والسرور، لما بلغه ما وقع بين الدُعاةِ وبين الأروام من الاختلاف ، وانتهز الفرصة ، وجرّ اليه منهم من أمكنه على ما أراد وأجابهم إلى ما اقترحوا عليه .

فانقسمت الدعاة على خمسة أقسام :

قسم مع الأمير اسمعيل الداعي ، وهم الأكثر ، لأنه داعيهم ، وكل من خرج عن طاعته كان عاصياً ، لا يقبل اللهُ منه صوماً ولا صلاة ، حتى يرجع إلى طاعته ، ويمكنه من أمواله ، يأخذ منها ما شاء تعزيراً له ، لكونه خلع ربقة الطاعة ، ثم يستغفر له ، هذا اعتقادهم .

وقسم آخر مع الأمير محمد بن عبد الله ، وهو ابن اخي الداعي الكبير ، ووقعت بينهم المُنَـافرة أيضاً ، لأجل انه خطب ابنة الداعي الكبير ، فقال : لم تكن لها كفوءاً، لكونك فسَقْت ، ووقعت منك أمور أخرجتك عن دائرة الاسلام ، — على قاعدة مذهبهم ، فان الانسان يَكفُر بارتكاب الكبائر عندهم ، فاذا تُبْتَ إلي الله تعالى ، وصحت نيتك بشرائطها ، أنكحتك إياها . فوقع في نفس الداعي الصغير ما وقع ، وصادف هذا وصول رضوان باشا ، وارادته الفتح على الدعاة كما تقدم ذكره ، فأعطاه عسكراً ، وأرسله لقبض القلاع من الداعي الكبير .

والقسم الثالث : جلسوا في بيوتهم ، ولم يساعدوا أحداً منهم ، كما أفتاهم به سيدهم الشيخ يوسف المذكور أولاً .

والقسم الرابع : اتفقوا مع مطهر ، وساعدهم على ما أرادوا .

وقسم آخر : تشتتوا في البـلاد ، حتى ان بعضهم عزم الى الهند ، وذلك بعد أن طلب رضوان باشا الشيخ يوسف وحبسه ، وقيده ، ومات في القيد .

فلما رأى الدعاة ان الامر يزداد ، ما أمكنهم إلا أن اتفقوا فيما بينهم أن يُسلّموا لهم (قلعة مَسار) التي هي عندهم في مرتبة عظيمة ، لأن أول ظهور (السمعلة) كان بها على يد علي بن الفضل ، وتقبلوا ضمان الجهات بمائة وثمانين كيساً ، بزيادة عشرة أكياس عما جعله محمود باشا على (بَعدان) بعد أن أخذ حصن حب ، وأرسل رضوان باشا بالعرض : أنه أخذ ثلاثا وثلاثين

قلعة ، واستخرج سبعة عشر سنجقاً ، وهـــذا الذي نشط مطهراً للخروج عن الطاعة .

وأما أهل إبّ وجبلة ، وتلك الجهات ، فسببُ إقدامهم على العصيان ، ومباشرتهم لذلك،ان القاضي أحمد بن محمد بن أبي بكر اليافعي، نائب الشريعة بالشوافي الأعلى ، الشهير بالقاضي عَبقرة ، كان يذكر لهم دائماً ، انه إذا وقع كسوف النـَّيـّرَيْن معاً ، في شهر رمضان ،انقرضت الدولة العثمانية ، حاشاها من كذبه وزوره وبهتانه ، بل هي دولة خالدة على صفحات الدهر وزمانه . وكان وقوع ذلك الكسوف في رمضان ، سنة أربع وسبعين وتسعمائة ، فمن يوم عيد الفطر شرع في المكاتبات ، والارسال الى الجهات ، حتى انه أرسل واحداً يقال له عُبيد الشوافي ، من بلده الى عند مطهر في شوال ، والتزم له أخذ الجهات بأجمعها عَرْضاً وطولا ، (ليقضي الله أمراً كان مفعولا) .

ولما طال مدة الخلاف ، رأى رضوان باشا انه مغلوب ، والجهات اضطربت .

وعصى عيسى بن المهدي في جازان ، فأرسل مراد باشا عسكراً اليه ، واسترد جازان منه ، فقبل وصول الخبر ، خرجت بنو حبيش ، وأخذت صعدة ، ووصل اليــه الأمير شاه علي ، من صعدة ، هروبا من بني الناصر ، فاحتال في صورة صلح ، ليخلص نفسه من البلاء .

وكان مولانا السيد الشريف حامي الحرمين ، وراعي القبلتين ، أدام الله تعالى عزه وعلاه ، أرسل ملك التجار بجدة الخواجا محمد المكي ، ابن الخواجا محي الدين اللاري،رسولا من قبله إلى سلاطين الهند،لأمر اقتضى ذلك،وتوّهَ في بندر عدن لاختلاف الريح عليه ، فأرسل اليه رضوان باشا طلبه من عدن ، وجعله واسطة في الصلح بينه وبين مطهر ، وكان ممن يصلح لحـــل العقود والمشكلة،ويدخل في رفع الأمور المعضلة،فارسله رضوان باشا رسولا من جانبه الى مطهر ، فوصل اليه وأكرمه ، وسعا بينهما في الصلح ، فوقع الصلح على

يده ، بان يعطى مطهر بلد عمران وجهاتها ، وكتب بينهم محضر بذلك . ووصل الخبر في ثاني رجب،الى اليمن ، ان مولانا السلطان الأعظم ، والخاقان الأكرم الأفخم ، الغازي في سبيل الله ، السلطان سليمان شاه ، طاب ثراه ، انتقل الى رحمة الله تعالى ، في سابع عشر صفر ، وهو في غزوة بيح .

وجلس نجله السعيد ، صاحب السعد الجديد ، والعز المشيد ، والمجاهد في سبيل الله، مولانا السلطان سليم شاه ، رحمه الله،على سرير الملك ، تاسع ربيع الأول ، بدار السلطنة ، قسطنطينية المحمية ، وكان أول خطبة قرئت باسم السلطان سليم شاه في تعز وإب وجبلة أول جمعة من رجب ، سنة أربع وسبعين وتسع مائة ،وكان ذلك أيضا سبباً لغرور مطهر والزيدية ، وخروجهم عن الطاعة السلطانية ، وطمعهم في بلاد أهل السنة السنية ، ويأبى الله الا ان يتم نوره ، ويدحض الباطل وغروره .



الفصل الثلاثون

في عزل رضوان باشا وبروزه من اليمن، وولاية حسن باشا وظهور الفتن ، وشهادة مراد باشا ، واضطراب المملكة ، وحصول المحن .

وصلت الى اليمن الأخبار في أواسط شوال ، سنة اربع وسبعين وتسعمائة ، ان رضوان باشا عزل من جهات صنعاء بالأمـــير أروس حسن ، من أمراء السناجق المحافظين بمصر ، وسبب ذلك أن مراد باشا أرسل الى الباب العالي ، بمكاتبات مطهر اليه ، متضمنة لغاية التنصل عن العصيان ، وان الخلاف إنما هو من رضوان باشا ، لتكليفهم بما لا يطيقونه من الأطماع الزائدة ، وصار مطهر بعد إرسال مراد باشا هذه العروض ، يتحرش برضوان باشا، ويخالف عليه، فحاربه مراراً رضوان باشا، وصار يحتاج إلى المدد وإلى الخزينة، للصرف على العسكر ، فيطلب ذلك من مراد باشا ، فيتهاون في إمداده ، ولا يرسل اليه لا بالخزينة ، ولا بالعسكر، ويعتذر له أعذاراً واهية ، ويقول : أنا أيضاً أخاف من العدو ، وأحتاج الى الخزينة؛ فسكّن رضوان باشا ذلك الارتجاج، مدة إقامته بصنعاء بقائم سيفه ، وبذل ماله لعسكره ، الى أن حموه ، وحموا البلاد من مطهر وتوابعه ، واستمر على ذلك الى أن وصلت عروض مراد باشا إلى الباب العالي ، وأيدها محمود باشا ، وهو بمصر ، بعروض من عنده ، تؤكد ما عرضه مراد باشا الى الباب العالي ، وأيّدها محمود باشا ، وذلك لأجل

بغض رضوان باشا ، وبغض والده ، لمجرد الحقد والحسد ، فأدى ذلك إلى عزل رضوان باشا ، بحسن باشا .

ووصل مرسوم سلطاني الى الباشا مراد ، بأن يحفظ جهات صنعاء ، حتى يصل اليها متوليها حسن باشا ،فأرسل مراد باشا مرسوماً الى محمد بك قزل باش ، أن يحفظ صنعاء ، وكتب الى رضوان باشا أن يعزم الى باب السلطان ، ويسلم المملكة ، الى أن يرد متوليها حسن باشا ، وكتب خطّه بذلك ، وكتب له له الوثائق بخطّ قضاة الممالك : أن المملكة في تسلم مراد باشا ، وتحت ضبطه وتكلمه ، الى أن يصل متولي البلاد ، ففرح رضوان باشا بذلك ،وجمع الأمراء والقضاة والاغوات الذين بصنعاء ، وكتب محضراً أخـــذ عليه خطوطهم وأمهارهم ، بأنه خرج من البلاد بإذن مراد باشا ، وقد سلمها الى محمـــد بك قِزل باش ، ولم يختلّ من البلاد شيء .

وخرج من صنعاء في أواسط ذي القعدة ، سنة أربع وسبعين وتسعمائة ، ومرّ على تعز ، ومراد باشا مخيم خارجها ، فلم يجتمعا ، لتشاحن النفوس .

ثم وصل الى زبيد ، وركب من البُقعة ، في أوائل ذي الحجة ، من السنة المذكورة ، وتعب في الطريق من الطوفان ، ومخالفة الريح ، وخرج من بندر القـُنْفُذَة ، وتوجه منها الى مكة ، ودخلها في أواسط محرم الحرام ، سنة خمس وسبعين وتسعمائة ، ونزل بمدرسة قايتباي ، والتمس من مولانا السيد الشريف أن يعينه بشراء بعض الجمال من العربان ،ليتوجه عليها براً الى مصر ، فأعانه بما منها شِراء وهِبَة ، الى أن كمل له ما يحتاج منها .

وسافر من مكة بَرّاً الى البَقَبَة ، ولم يدخل مصر ، لأن محمود باشا كان حياً بها إذ ذاك ؛ بل عرج الى غزّة ، ومنها الى باب السلطان ، وحصل عليه نوعُ غضبٍ من السلطنة الشريفة ، حيث خرج من بلاد اليمن وهي متخبطة ، ولم يُلتفَت الى ما بيده من العزل والإذن بالسفر ، وحبس في (يدي قُلـّة) أعواماً الى أن فرج الله تعالى عنه بظهور حقيقة حـــاله ، وصدق مقاله ،

لدى الأعتاب الشريفة السلطانية ، ووزراء الدولة العثمانية ، خلد الله تعالى ظلالهم ، وأبَّدَ في العالمين مَعْدَلَتَهم وأفضالهم ، وكان في الصدق نجاة للصادقين ، وخلاص من البلاء ولو بعد حين ، فادركت عناية الله تعالى عبده رضوان ، ونقلته من مالك الى رضوان ، وأخرج من الحبس ، بعد أن أيقن الناس له بالهلاك والفوات ، وأعيد إلى نعيم الدنيا بابقاء الحياة .

وانعمت عليه السلطنة الشريفة بسنجق غزة. ثم ببكاربكية الحبشة ، ولله الحمد والمنة ، وهوجدير بعد ذلك ،إلى اعادته للمناصب العلية ان شاء الله تعالى.

هذا ولما خلت اليمن من رضوان باشا ، ومماليكه وخواصه ، وعلوفجيته ، وهم من شجعان العسكر العثماني ، وسباعهم ، وشجعانهم وفرسانهم ، ولم يبق في صنعاء الا عسكر ضعيف ،لا تقوم علوفته بصرفه ، نزل مطهر على صنعاء ، وقطع عنها الميرة ، فضاق على العسكر معاشهم ، وجاعوا ، بحيث كانوا يصيدون الغربان بالبنادق ويتقوتون بها ، وشرع جميع عربان النواحي في قطع السبل ، فتحرك مراد باشا من تعز ، وأقام فيها من أمراء السناجق قاسم الهلالي ، وبعض العسكر ، وترك فيها بعض خزائنه ، وبرز متوجها الى صنعاء ، وعرف حينئذ مكر مطهر وكذبه وحيلته في اظهار الاطاعة والمحبة ، وندم حيث لا ينفعه الندم ، واحتار في امره ، واضطربت البلاد عليه ، ووصل الى ذمار ، ومعه سبعمائة فارس ، وما ينوف عن الألف من المشاة ، وخيم في ذمار ،لثلاث ليال بقين من ذي القعدة ، سنة أربع وسبعين وتسعمائة ، وتوجه الى محاربته علي بن الشويع من أشراف الجوف ، وكان معه سنجق السلطان فعصى ، ونبذ العهد ، وصار من اتباع مطهر ، ومعه حسين بن شمس الدين ، وكانا من أشجع جماعة مطهر ، وصارا يقطعان الميرة عن مراد باشا ، وكلما خرج طائفة من العسكر لجلب الطعام ، انفردوا بها ، واستأصلوها . وتوارد الكتب من صنعاء من قزلباش محمد بك ، وباقي الامراء ، بانهم محصورون ،

وضاقت معايشهم جدا ، فدبر مراد باشا ان يرسل ميرة الى أهل صنعاء ، يتقوتون بها إلى أن يصل اليهم هو بنفسه ، فامر أحمد بك القزلباش ، وهو أخو محمد بك القزلباش المحصور في صنعاء ، وكان كل منهما في أعلى درجات الشجاعة والجلادة ، فقال له أحمد بك : الطرقات متخبطة ، وحول صنعاء عسكر كثير ، لا يمكن الوصول اليها ، فلو تربصنا الى ان يوافقنا بعض العربان لكان احسن. فسبه مراد باشا، وقال له: هذه شجاعتك ؟! فقال: أنا أبذل رأسي ، ولكن يقتل معي كثير ممن معي، والأمر لله تعالى، فحمل نحو اربعمائة حمل من الحبوب ونحوها ، وأخذ معه نحو مائة فارس ، وتوجه الى صنعاء ، فانتدب لهم علي بن الشويع ، وأحمد بن حسين اليافعي ، وحسين ابن شمس الدين ، في عسكر من الزيديين ، وكمنوا في مضيق بين جبلين ، وساق خلفهم بعد تورطهم في الوادي ، فانفرد أحمد بك عن عسكره ، فقتل هناك ، وقتل عسكره واحداً بعد واحد ، في ذلك المضيق ، وظفر بن الشويع بالميرةوالخيل ، ورؤوس المقتولين .

وكانت هذه أول كسرة لمراد باشا ، وساق الزيديون الأحمال الى مطهر، وكان ذلك اليوم التاسع من ذي الحجة ، سنة أربع وسبعين وتسعمائة ، وكان يقول لهم مطهر قبل ذلك : أول حرب يقع بيننا وبينهم يوم عرفة ، فإن غلبناهم كانت الدائرة لنا عليهم ، وكنا نحن الغالبين . وكذب فيما قال ، وإنما الأمر لله، وهو أحكم الحاكمين . فلما وقع الأمر على ما أسلف لهم سابقاً ، استبشر بذلك ، وكاتب العربان بالعصيان ، وصار يعِدُهم ويمنّيهم (وما يعدهم الشيطان إلا غروراً) .

وأما مراد باشا فإنه أمر كاشف جبلة أن يقتل عبد الله اليافعي ، أحد مشايخ العرب،لما بلغه عنه منظهور آثار ظهور الخلافمنه،وكانشجاعاً مطاعاً في قومه ، وعربه ، فأحس بذلك عبد الله .

وسمعنا ان الكاشفورد اليه المرسوم من مراد باشا بقتل عبدالله اليافعي،

وهو جالس عند الكاشف ، والمرسوم بالعربي ، والكاشف لا يعرف قراءته ، ولا يعلم ما تضمنه، فأعطى المرسوم الى يد عبد الله المذكور ، وقال له . إقرأ لي هذا الحكم . فتأمله عبد الله وعرف ما فيه ، وقال للكاشف : هذا فيه سرٌ ، أخبرك به في الخلوة . فلما أراد الكاشف إخلاء المكان ، قام عبد الله إلى بيت الماء ، وأظهر انه يزيل ضرورة الانسان ، وخرج من باب الدار ، وركب فرسه وهرب ، وجمع الجموع ، وجاء في نحو أربعة آلاف مقاتل ، وأظهر العصيان .

وفي هذه الأثناء وصلت كتب مطهر الى العربان ، يأمرهم بالخروج عن طاعة السلطان ، وإظهار البغي والعصيان ، فأول ما أجاب من (بَعدان) أحمد العَتَلة وكان كاتباً ، ومن الشوافي القاضي عَبقرة أحمد اليافعي المذكور أولاً ، فتوجه اليافعي الى عند العتلة ، وتحالفوا يوم السبت ، رابع ذي الحجة الحرام ، سنة اربع وسبعين وتسعمائة ، واتفقت أهل (بعدان) والشّعر وصهبان والعرنين ، ثم في ثاني يوم اجتمعوا في دار القاضي عبقرة أحمد اليافعي ، وأكدوا الأيمان ، واتفق أهل الشوافي وحُبيش وبعض أهل التَّعْكر ، فاقتضى رأيهم الابتداء بالعسكر الذي في إبّ ، لأن أهل البلد اتفقوا مع أهل (بعدان) بخلاف أهل جبلة فانهم لم يتفقوا إلا بعد أن اجتمعت العربان كلها على الخلاف ، فما أمكنهم إلا الموافقة ، فاجتمعوا ليلة الثلاثاء ، وأوقدوا النيران ، وأخرجوا العسكر منها ، فخرج العسكر الى جبلة ، ونهب من نهب ، وكان وصول العسكر المنهزم الى جبلة صبح الثلاثاء ، فلما كان يوم الاربعاء ، اجتمعوا مع أهل إبّ وبعدان ، والشوافيين وحُبيش ، وأهل الشعر ، وصهبان والعرنين ، نحو عشرة آلاف ، بل خمسة عشر الف محارب ، وقصدوا جبلة ، وأهل جبلة خامروا معهم ، لما رأوا غلبتهم ، فدخلوها بالقهر والغلبة ، بعد الظهر من يوم الاربعاء بعد أن حارب العسكر الموجود بها ، وانهزموا لقلتهم ، ومخامرة أهل جبلة معهم ، وكانوا واثقين بهم ، ولولا مخامرتهم ما تمكنت الخوارج من دخول جبلة، لأن كل بيت من بيوتها كالحصن

الشاهق ، ولكن مال بهم قاضي عبقرة ، وغرهم بقوله : انه لم يبقَ للأروام دولة ، وقد انقرضت دولتهم . والرعايا يميلون إلى قوله لكونهم يتهمونه بعلم النجوم ، وهو أجهل من حمار ، ولكن أراد الله ذلك (ليقضي الله أمراً كان مفعولا) ولما دخلوا جبلة نهبوا بيوت العسكر .

وكان من المنهوبين بها ،قاضي جبلة الأخ الصديق الشقيق القاضي محب الدين ابن علاء الدين الحنفي رحمه الله تعالى ، وعوضه غرف الجنـــان ، عن محن الزمان ، فأصيب بطارفه وتليده ، وكتبه وأثاث بيته وعبيده ، وما كان لي من الكتب النفيسة وغيرها عنده ،وكان من لطف الله تعالى به انه نجا بنفسه ولله الحمد ، عريانا حافياً ، هارباً من قرية إلى قرية ، ومن جبَل الى جبل ، الى أن وصل الى زبيد وحده بهذه الحال ،وسلمه الله تعالى بنفسه ولله الحمد من تلك الأهوال ، وفدى نفسه النفيسة بما ملكه من الأموال ، وأنعِمْ بها سلامة إذا بقي الرأس وذهب المال ، وفي ذلك يقول من قال :

لا تعْتَبِ الدهر في خطب رماك به	إن استردّ فقدْماً ، طال ما وَهبا
حاسِبْ زمانك في حالَيْ تصرُّفِه	تجدْهُ أعطاكَ أضعافَ الذي سَلَبا
ورأسُ مالِك ،وهيَ الروحُ قد سلمتْ	لا تأسفنّ لشيءٍ بعدَها ذهَبـــا

ولما رأى العسكر الغلَب ، دخلوا في الدار ، والتجأوا اليه ، فحوصروا وقطِع عنهم الماء ، فتعب العسكر وطلبوا الصلح ، فوقع بينهم الصلح ،على أن يحلِف العسكر جميعهم أنهم لا يسألون عما وقع ، ولا يطالبون أحداً بما أخذ من حوائجهم ، وأن يحلف من العربان نحو خمسين شخصاً انهم لا يضرّون العسكر ، ويوصلونهم الى تعز ، بشرط أن لا يحملوا شيئاً من السلاح والحوائج ، غير ثيابهم التي على أبدانهم ، وأذِنوا لأربعة أن يأخذ كل واحـد منهم بغله ، فوافقهم العسكر على جميع ما اقترحوه ، ودخل بينهم الشيخ أحمد بن سالم ، وحلف العسكر وحلف النقباء ، وتمّ ذلك عصر يوم الأحـــد ثاني عشري ذي الحجة .

فلما كان صبح الاثنين خرج العسكر من الدار ، على مـــا كانوا اشترطوه عليهم ، وعِدّتهم مائتان واثنان وسبعون رجلاً،فلما خرجوا الى البر،خرجت عليهم العربان ، وقالوا : هي مواثيق محمودية،فنغدر بهم كما غدروا بالنظاري، فقتلوهم على بكرة أبيهم ، ولم يبقَ منهم إلا غلامين ، فرجعوا وضبطوا خيل العسكر وجمالها ، ودوابها وبغالها وأسبابها ، وقسم بينهم القاضي عبقرة، فلما تم لأهل إبّ وجبلة ما تم ، طمعت العربان في الأروام ، وأظهرت العصيان وقطعت الطرق ، وزحفت القبائل على محطة مراد باشا ، بذمار ، وضيّقوا عليه بعد أن خرّبوا الطريق ، وسدّوا العقاب والنُقُل ، فاقتضى رأي مراد باشا الرجوع الى تعز، وأشار عليه العسكر والأمراء الذين كانوا معه : إن راوحنا الى صنعاء أولى . فلم يوافقهم على ذلك بل حلـّفهم انهم معه إلى أي موضع عزم ، فحلفوا له ذلك ، فتشاور هو وبعض من يعتمد عليه ،أن مراده الوصول الى تعز . فذكروا له : أن نَقِيل ُسمار قد خرب ، وفي أطرافها طوائف من العربان ، رتبها مطهر كامنة، لم نصل اليها. فذكر له بعضهم : أنه يعلم طريق َشلـَلة ، وأنها لم تخرب ، لكونها على خلاف السمت ، فاقتضى رأيه النزول منها ، ونادى الشيخ أحمد بن الحسين الفايقي شيخ فايقة ، واستسرّه وعين له خمسة آلاف أشرفي ذهب ، على أن يوصله الى السلمى ، فأجاب إلى ذلك وخامره ، وأخبر حسين بن شمس الدين بما وقع منه ، فأمره أن يرسل الى جماعته أن يتهيأوا للحرب ، وأن النقيل ُيحدّر ويخرّب ، ففعل ما أمره به ، وأرسل للعربان أن يتهيأوا على نقيل السّوْد، ليلة الاثنين حادي عشري محرم الحرام ، سنة خمس وسبعين وتسعمائة ، وهي الليلة التي وعده مراد باشا بالعزم فركب بعد المغرب ، وقصد طريق صنعاء للمغالطة ، فكان هذا أول اختـــلاف العسكر وافتراقهم ، فمنهم من توجه الى صنعاء ، ومنهم من رجع وتوجه الى نقيل سمار ،ومنهم من توجه الى أرياب. وأما مراد باشا فسار بالعسكر الذي معه الى مضي شيء من الليل ، ثم رجع الى طريق الشللة ، ونقيل السود وبيت الوَعْوع ، فلما وصل الى النقيل رآه مسدوداً ، فأمر بهدمه ، وكلما

قال له العسكر : نحن ما نحتاج الى هدم النقيل ، إلا لأجل الجمـــال ، وأما الخيل والبغال فتعزم من غير هذا الطريق أيضاً . فاستنكف عن ترك الجمال، ومضى ليله في هدم النقيل وإصلاح الطريق للجمال ، فما أصبح إلا والعرب على الجبال ، قد أحاطت به كالجراد المنتشر ، فنهبت الجمال ، وقتلت من العسكر من شهر سلاحه .

ولما وصلوا الى وادي خبان وكان الأمير أحمد البعداني أمر أن يجرف الماء ليصير الطريق وحلاً ، فكان الخيّال إذا دخل في الوحـــل ما أمكنه الخروج ، فتأتي العرب الى الرومي ، وينظرون إن شهر سيفاً قتلوه ، وإن استسلم لهم سلبوه ، وأعطوه قطعة خرقة يستر بها عورته ، وكان الباشا ومن معه حاربوا ساعة بالسهام ، وكان لم يُخْطِ له سهم ، ولكن سهم السعادة قد فارق جعبته ، وسهم المنية صوّب وجهته؛ فكان يرميهم بالسهام الى أن يبعدوا عنه ، ويسير الى جهة تعز ، ثم تأتيه جماعة أخرى ، فيدركونه ، فيقف لهم ويرميهم الى أن يهربوا عنه ، وكان هذا عمله ، حتى نفد ما عنده من السهام ، ووقفت الخيل ، وكلّ ومل ، وعطش ، فلم يجد من يسقيه ؛ حتى يقال انه اشترى شربة ماء في آنية مكسورة ، بثمانية وعشرين ذهباً ؛ فأقبل عليهم الليل، وهم في موضع يقال له بيت الوعوع، وهم نحو خمسين، فلما أظلم عليهم الليل ، أحاطت بهم للعربان ، فسلبوهم وعرُّوهم ، حتى أخبرني من رأى مراد باشا ، في خلق لباس ، ورأسه وجسده مكشوف . ونهبت العربان ما وجدت من العسكر من الآلات ، والأسباب والسلاح ، والدروع ، ما لم يسمع به في تاريخ قط ، وصار البدوي الذي كان لا يستره غير طِمره من كِرباس خشن يخب في الأطلس والكمخا والثياب المذهبة ، ويركب الخيول المسومة ، وقليل منهم من يختار لبس الجوخ والصوف .

واستمر مراد باشا ، ومن سلم من الموت في تلك الليلة الى الصباح، يقاسون هذه الآلام ، ويشاهدون الموت الزؤام ، فلما أصبحوا خرج مراد باشا ، ومعه سبعة عشر نفس من وادي خبان ، وعرّتهم العربان ، وأخذت خيلهم

ولباسهم ، وسلبتهم قوتهم وبأسهم ، فمشوا طول نهارهم ، في عرض الفلاة ، جياعاً عطاشاً حفاة عراة ، في برد شديد ،وتعب ما عليه من مزيد ،فطرحهم الله تعالى الى مكان يقال له المضرح ، وعيون المنـــايا تسرح اليهم وتطمح ، فرأوا مسجداً خراباً فأووا الى ظله ، وقد غشيهم مطر الهم والذل بوبله وطله ، وأحاط بهم العرب يسألونهم : من أنتم ؟ وكيف نزلتم من ذروة العزّ الى حضيض الهوان وهنتم ؟ ، فأخذوا يغربون عن أنفسهم، ولا يعربون،فقال لهم مراد باشا : صرّحوا لهم بالأمر المكتوم ، وماذا عسى أن يكون ، أنا مراد باشا ، وهذا دفتردار اليمن كيلان بك ، وهذا أوزن عـــلي بك ، ومصطفى بك ، وحسين بك ، وسنان بك ، ومحمد بك ، فـإن أمنتمونا من العربان ، وأوصلتمونا الى دار الأمان ، وقربتمونا الى تعز وزبيد ، بذلنا لكم الطارف والتليد ، وملأنا حجوركم فضة وذهباً ، وأعطينـــاكم ثروة ونشباً ، فطمعوا في ذلك ووافقوهم ، وأمنوهم من العربـــان ورافقوهم ، فسمع شيخ مضرح بذلك ، فطرد العربان عنهم ، ووضع اليد عليهم .

وكان سليمان باشا ، لما وصل الى عدن سابقاً ، قتـــل صاحب المضرح ، وصلبه في جملة من صلب عبثاً ، مع صاحب عدن عامر بن داود ، عند توجهه الى الهند ، سنة خمس وأربعين وتسعمائة . فصاح صاحب المضرح حينئذ : واثأراه !! واجدّاه !! فقطع رأس مراد باشا بيـــده ، وأسر من معه من الأمراء ، وكان ذلك في الكتاب مسطوراً،(وكان أمرُ الله قدَراً مقدوراً).



الفصل الحادي والثلاثون

في ذكر اخذ مطهر صنعاء ، وأسر من بها من الأمراء ، وطرحهم في غيابة الجب

لما قتل شيخ المضرح مراد باشا ، جهز رأسه ، والأمراء المأسورين الى مطهر ، وهو محاصر لصنعاء ، مضيّق على العسكر الذين بها ، بحيث نفدت أزوادهم ، ونجحت أقواتهم ، وفقدوا الحطب لطبخ ما يأكلون ، وصاروا يخربون أسقف البيوت لينضجوا بها خبزهم ولم يبقوا بها الأبواب ، وصناديق الخشب ، ونحو ذلك ، وهم مع ذلك يقاتلون عن أنفسهم ، ولا يسلمون البلد ، إلى أن أرسل اليهم مطهر برأس مراد باشا ، والأمراء المأسورين ، فنظروا اليه ، واستخبروا عن أحواله ، فتحققوا أن هذا رأس مراد باشا، فتشاوروا فيما بينهم ؛ فمنهم من أشار بالثبات الى المات ، ومنهم من أشار بطلب الأمن للنجاة ، الى غير ذلك من الإشارات ، فاتفقوا على طلب الأمان من مطهر ، وتسليم البلد اليـــه ، ووافقوا بأجمعهم عليه ، فأظهر لهم البشاشة ، والبغض كامن في الحشاشة ، ودخل صنعاء في موكبه وهو راكب ظهر حمار ، لعرج في رجله اليسار ، يمنعه عن ركوب الفرس إذا سار ،وخطيب الزيدية يمشي قدامه ويقرأ بصوت عال : (الذين إن مكـّناهم في الأرض ، أقاموا الصّلاة، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبـــة الأمور) . ولكنها فرحة ما تمـّت في المـآل ،بل شردوا آخر الأمر كالقردة الى رؤوس

الجبال، ولم يعملوا بما تمثلوا به من كلام الله المتعال، ونهوا عن المعروف، وفعلوا المنكر ، فجاءهم من الله تعالى أشد النكال .

ودخل الاعرج الى صنعاء ، وقدامه سبعة عشر أميراً من أمراء السناجق الأروام ، وأربعة وعشرين من الأغوات ، ونحو الف وأربعمائة من جنس الأروام خاصة.

فلما دخل صنعاء نقض العهد ، وأمسك الامراء والعسكر ، وفرّقهم في الجبال ، مقيدين بالأغلال .

وكان أمير صنعاء يومئذ قزل باش محمد بك، وهو من الفرسان الشجعان ، ومحمود بك الدفتردار ابن اخت قره مصطفى باشا ، وأمر بنهب بيوتهم وأموالهم وسلاحهم ، وجعل كل أمير في وسط بئر على فمه عدة من الرقباء والحراس ، ومنع عنه الناس ، وصار يدلى اليه بنزر قليل من الطعام والماء ، بقدر ما تقوم به بنيته فلا يموت ، فاستمر معذباً في حكم الموتى ، يقاسي شدة وألماً .

واجتمع عنده في مجلسه نحو العشرين من أمراء السناجق ، وكثير من كبراء العسكر في تلك الجهات، وهذه بلية أصيب بها المسلمون ،ونازلةعظيمة لم يعهد مثلها في القرون ، والله يقضي في ملكه ما يشاء (إذا قضى أمراً فإنما يَقُولُ له كنْ فيكون) غير ان مطهّراً المزبور ما قتل واحدا منهم ، ولا اطلقهم ، ولا صفح عنهم ، وما أخذ واحداً منهم بالقوة والقهر ، بل على وجه المكر والغدر ، فاذا اعترض عليه في ذلك قال : نجازيهم بفعلهم جزاء وفاقاً وكذب فيما قال ، واتى بالزور والمحال ، فإن هؤلاء المحبوسين،ما خانوا وما غدروه غدراً وان وقع من غيرهم في السابق شيء فلا تزر وازرة وزر أخرى ، وعند الله يجتمع الخصوم (يوم لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلبٍ ينقلبون) .

ولما اخذ مطهر بلاد صنعاء ، احسن الى من بها من الزيديين صنعا، واهان اهل السنة وضاق بهم ذرعا ، وأمر ان يخطب على المنابر باسمه ، وغيّر شعائر المسلمين بما أبدى من أباطيل رسمه ، وكم أقام باطلا ، وابطل حقوقاً، وأظهر شقاقاً وعصياناً ، وابدى عقوقاً، وظن انه ثبت في الملك، وما علم أن الباطل كان زهوقاً .

ومحصل صورة خطبة خطيبه يوم الجمعة أنه يأتي بحمد الله تعالى ، والصلاة على نبيه ﷺ ، ثم يذكر سيدنا علي بن ابي طالب رضي الله عنه، ويصلى عليه ثم يذكر السيدة الجليلة فاطمة البتول ، رضي الله عنها ، بلفظ الصلاة عليها ، ثم يذكر والده شرف الدين بلفظ الصلاة عليه ، عليه ما يستحقه ، ثم يذكر من الخلفاء الاربعة سيدنا ابا بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان رضي الله عنهم ، بلفظ الترضي، لا الصّلاة ، ثم يذكر حمزة والعباس رضي الله عنهما ، ويذكر بقية العشرة المبشرة رضي الله عنهم بلفظ الترّضي، ثم يترضى عن امهات المؤمنين إجمالا وعن بقية الصحابة والتابعين اجمالا .

فانظر الى جهله وجهل طائفته إن كانوا على اعتقاده ، في تقديم والده في الخطبة على سيدنا ابي بكر وعمر وعثمان ، وبقية الصحابة رضوان الله عليهم اجمعين ، هل هذا إلا جهل غليظ من جاهل فظ أحمق ؟

ثم يذكر مطهرا بالقاب الخلافة ، ويدعو له، ثم يدعوا للمسلمين من الحجاج والغزاة والمسافرين .

ويزيدون في اذانهم : (حي على خير العمل) على طريق أهل التشيع ولم ترِد به السنة الشريفة الغراء .

وشرط صحة الجمعة عندهم الإمام العادل .

وليت شعري : أين العدل من ذلك الظالم الجاهـــل ؟ ولكن هي عقول أضلها باريها ، فأحدثت بدعاً شنيعة ، تخالف الشريعة النبوية وتنافيها ، والله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون .

وكان استلام مطهر لصنعاء في ثاني صفر ودخلها ثالث عشر صفر ، سنة خمس وسبعين وتسعمائة .

فلما استقر مطهر بصنعاء أرسل بتسلم الحصون ، في خامس صفر، فاعطى حصن حب لأخيه علي بن الإمام، واعطى ولده الهادي حصن التعكر، واعطى ولده لطف الله ، مملكة (بَعْدان) واعطى ولده حفظ الله حصن خُدد .

وأرسل علي بن الشويع إلى تعز وفيها الأمير قاسم الهلالي ، والأمير فائق بك ، واستمر يحاصرهم ، وهم يقاتلونه إلى أن وصل حسن باشا إلى زبيد ، كما يأتي شرحه ان شاء الله تعالى .



الفصل الثاني والثلاثون

في وصول حسن باشا الى زبيد ، وما وقع في أيامه من الهول الشديد

لمـــا استشهد مراد باشا كما تقدم ذكره ، صارت مملكة اليمن خالية من بكلربكيا ، وكان سنجق زبيد يومئذ محمد بك المعروف بشهلامي ، وكان جاويشا في الأصل،إلى أن صار سنجقاً، وأرسل إلى اليمن في أيام مراد باشا، فاعطاه زبيدا ، وكان لا يخلو من كرم وشجاعة ، وصار ملجأ في زبيد لمن يرد اليه من العسكر المنكسر،فكان يكسوهم ويركبهم، ويكرمهم ويواسيهم، وصار له اعتبار بين من بقي في زبيد من العساكر السلطانية .

وفي هـــذا الأثناء وصل حسن باشا في أواخر صفر سنة خمس وسبعين وتسعمائة ، وهو متولي نصف مملكة اليمن ، صنعاء وتوابعها ، وقد أخذها مطهر ، ولم يبق الا زبيد ، بيد شهلا محمد بك المذكور ، فجاء الى زبيد ، واستولى عليها ، ورأى توجه العسكر ، وميلهم الى شهلا بك ، وفهم شهلا بك منه ذلك، وصار في غاية الحذر منه ، وسمع أهل تعز وصول حسن باشا، الى زبيد ، فقوي قلبهم بذلك ، وظنوا انه يقوم بنصرهم ، وصاروا يرسلون اليه يستنجدونه على العدو ، ويطلبون منه الوصول إما بنفسه أو يجهز لهم عسكرا وهو يتوانى في ذلك ويتساهل، فقام شهلا بك في ديوانه، وقال له : أهل تعز في ضنك ، ونخاف أن يأخذهم العدو ، فأرسلني لنصرتهم ، فإني أخرج من عهدة ذلك . فسبه وقال له : إجلس في حالك ، وان كنت رجلا

فاحفظ زبيد. فاحتال قاسم الهلالي في ارسال أحمد جاويش كيخية الجاويشية، من تعز الى حسن باشا يطلب منه النجدة ، فوصل الى ديوانه واغلظ عليه في تخلفه عن نصرة أهل تعز،وذكر له ما هم فيه من الضنك والضيق ، ومحاصرة العدو ، فلم يلتفت الى كلامه ، بل أمر بضربه وحبسه ، وما أخرجه من الحبس الا بعد أن ايس من الحياة ، فاستولى ابن الشويع على تعز ودخلها في ثالث عشر ربيع الثاني ، سنة خمس وسبعين وتسعمائة ، ونهب تعز وقلعتها ، واستصفى ما في الدار لنفسه ، وأرسل ما وجد في القاهرية الى مطهر كما كان وقع بينهما الاتفاق في ذلك ، وارسل الى مطهر الامير قاسم الهلالي ، وفائق بك ، مأسورين ، وأركبهما على جمل واحد ، وفي أرجلهما القيد ، فتوفي قاسم الهلالي في الطريق ، مغموماً مهموماً ، ووصل اليه فائق بك مع بقية الأسراء فوضعهم مطهر في الحبوس عنده .

وتوجه علي بن شويع لأخذ عدن ، واستمر حسن باشا في زبيد ، خائفاً يترقب ، ولم يكن معه خزنة يصرفها على جوامك من بقي من العسكر ، فلزم من ذلك مد يده على أهل زبيد ، ومصادرة من بها من التجار والمتمولين، وقدم لذلك شخصاً عوانياً يقال له الشيخ محمد البسكري ، كان والده رجلاً من أهل العلم بمكة ، يقال له الشيخ علي البسكري ، توفي بمكة ، وتربى هذا يتيماً ما وجد من يربيه ، فعاشر من لا يصلح ، فتوجه الى مصر ، فحصل له معرفة بالأكابر ، وكان على سيرة قبيحة ، فمضى الى الباب العالي ،ورباه بعض من يعرف والده ، فأخذ له قضاء بندر المخا ، فجـــاء من مصر الى الحبشة ، وخدم عثمان باشا صاحب الحبشة إذ ذاك ، ووصل من الحبشة الى المخا في أيام هذه الفتنة ، ووصل الى حسن باشا، فرأى له قابلية في الظلم والعوانية، فقدمه لذلك ، فكان هذا الفعل من أكبر سيئات حسن باشا في اليمن ،فصادر الكبير والصغير ، وأخذ من الناس كلهم مبلغاً باسم القرض ، أخذ لنفسه شيئاً كثيراً ودفع الباقي الى حسن باشا ؛ فأطلق في زبيد ناراً ، وهدم للدين مناراً ،وجلا أهل زبيد الى أطراف البلاد ، وبذلوا الطارف والتلاد ، وكثر على أهل زبيد

بلاؤهم وأوصابهم ، ووهنوا لما أصابهم لمّا عظم مصابهم ، وصار كل من يظن به سعة في المال ، أو رأوه في معيشه منتظم الحال ، افتروا عليه بأنه يكاتب جماعة مطهر ، أو عنده سلاح يحتاج اليه العسكر ، أو في بيته طعام وافر مدّخر ، الى غير ذلك من التهم الباطلة ، والأكاذيب الواهيــــة السافلة ، فيهجمون على داره وينهبون أمواله ،ويهتكون عياله ؛ ثم يأمر الباشا بحبسه، الى أن يأتي على ماله ونفسه .

وممن قتل في أيام حسن باشا عدوانا وظلما،وأخذت أمواله قهراً وغشما ، الفقيه عبد الوهاب المحرقي ، وكان من أعيان الموقعين في بلاد اليمن ، وكانت له فضيله متوسطة ، وكان من الموسرين في الدنيا ، فحسد على ذلـك المحيا ، وأُوريَ له زناد الافتراء وَريّا ، واتهم بموالاة مطهر ومكاتبته ، وهو بريء من ذلك لحسن إسلامه وصحة عقيدته ، وأُخذ من بين أهله وأصحابه ،وصلب على بابه ، في ثاني عشري ربيع الأول ، سنة خمس وسبعين وتسعمائة ، وترك أولاده فقراء لا يملكون نقيراً ولا قطميراً ، وتقدم على أخصامه الى الله تعالى وكان الله سميعاً بصيراً .

ومن أعظم الحوادث والفوادح ، التي أحدثها الزيدية في تعز ، أنهم نادوا في الاذان : (حي على خير العمل) ، كما هو مذهب الشيعة . والحال ان أهل تعز كلهم شافعيون ، وكان شرف الدين لما استولى على تعز في أيام (اللوند) ما تجرأ على هذه البدعة ، مداراة لأهل السنة ، واستجلابا لخواطرهم ، مع تصلبه في مذهبه ، ودعواه الاجتهاد . وتجرأ على ذلك علي بن شويع ، جهلاً منه وجرأة وإقداما، فعظمت هذه المصيبة على أهل تعز ، بل على كل من سمع ذلك من المسلمين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وفي أواخر شهر رمضان من السنة المذكورة ، وصل من البـــاب العالي زهكير جي حسن آغا ، على يده مراسيم سلطانية ، أن يستمر حسن باشا بكلربكياً في التهائم : زبيد وأعمالها ، عوضاً عن المرحوم مراد باشا ، وأن يضبط العساكر السلطانية ، ويحفظ الممالك العثمانية ، إلى أن تصل العساكر المنصورة الخاقانية ، مع الوزير المعظم مصطفى باشا الـــلالا ، ففرحت أهل زبيد بذلك ، وصاروا ينتظرون فرج الله تعالى .



الفصل الثالث والثلاثون

في أخذ علي بن شويع لعدن ، وايقاع نيران الفتن والمحن

لما رأى مطهر واتباعه ضعف من بقي من العسكر السلطاني بزبيد وعدم نجدتهم من مصر ، الى ان يشاء الله ويريد ، عظم بأسهم ، وكبرت انفاسهم، وركب علي بن شويع في عسكر من الزيديين الى عدن ، وكان فيها دزدار اسمه مصطفى اغا ، ونحو المائتين من العسكر قد ضعفوا بانقطاع العلوفات عنهم ، في ايام الفتن ، وضعفت علوفاتهم بهذه الدراهم السكة التي صارت الفلوس النحاس خيراً منها ، وفقدوها مع ذلك من ايديهم ، فصاروا لا يجدونها وان فحصوا عنها ، وانقطع عنهم الجلب ، براً وبحراً ، وحوصروا مع ذلك دهرا ، ومنعوا عن وصول شيء اليهم من البر وسائر الجهات، بحيث أداهم ذلك الى أكل الكلاب والميتات ، ومضغوا الجلود وهم محصورون، ليس عندهم ما يأكلون ، ولا عندهم علوفة ولا خزينة ، غير عيون باكية وقلوب حزينة .

فرأى السلطان بدر صاحب الشحر وحضرموت ضعف حال العسكر ، واستيلاء الزيديين عليهم ، وهو شافعي المذهب ، لا يحب الزيديين ، فأمر أهل الشحر أن يجلبوا عليهم الميرة ويدخلوا الى عدن من البحر ، سَفائن الباعة والتجار مشحونة بالتمر ، وهو اكثر ما يوجد في بلاده ، وان يبيعوا

ما عندهم من المأكوت على العسكر ، المحصورين بعدن ليتقووا بذلك ويحفظوا البـــلاد .

فلما وردت عليهم الجلاب من الشحر مشحونة بالتمر الى عدن ، لم يكن عند العسكر نقد يشترون به التمر المجلوب اليهم ، فاستولوا عليه بدون ثمن وتوازعوه وتقووا به مدة ، وامتنع اهل الشحر من التردد اليهم ، وفرغ مـا عندهم ، فجاعوا ، وارسلوا الى من بقي في زبيد من العسكر يستنجدونهم على العدو ، ويطلبون منهم الطعام والمدد ، وكانوا هم عاجزون بانفسهم ، فما ورد اليهم جواب عن استصراخهم ، فاضطروا الى طلب الأمان ، وتسليم البلاد، فاعطاهم على بن شويع الأمان على أنفسهم، فخرجوا في جلبة، وتفرقوا في البلاد ، ومنهم من توجه الى الهند فاستولى ابن شويع على عدن ، ودخلها وضبطها واقام فيها نظامه ، وامر ببناء مدرسة في عدن للزيدية؛ باسم مطهر صارت بعد ذلك مزبلة للكلاب ، بعد ان هدمت حجراً حجراً عند استيلاء العسكر السلطاني عليها ، كما سيأتي بيانه ان شاء الله تعالى .

ثم لما استولى عليُّ بن شويع على عدن ، واحكمها ، جعل أخـاه قاسم بن شويع حاكما في عدن ، وترك عنده من عسكر الزيدية أهل الجبال عِدةً وعاد الى تعز، وحدثته نفسه بأمور يصغر هو عندها ، ويحتقر دونها غير أنه اراد بذلك الارهاب والاعجاب ، وابداء العجب العجاب ، وما افاده ذلك غير فضيحته ، وظهور جهله وجنونه ، وتبين حمقه وضعف عقله في سائر شؤونه .

منها أنه زف أطباقا من الحرير،في الاسواق على رؤوس خدامه،ونادى عليها انها كسوة الكعبة الشريفة في أيامه ، واظهر انه قصد ان ينسج ابراداً حريراً يمانية ، يكسو بها الكعبة الشريفة ، بيت الله الحرام ، كما كانت التبَّعَ بعَة تكسوها قبل الإسلام ، فضحك من ذلك الخاص والعام ، وعلموا قلة عقله وجُراءته على الله تعالى وعلى الأنام، وما أفاده ذلك غير سبّه وشتمه ، ومآله الى خِزْيه وإثمه كما قيل :

وإذا بَدَتْ لِلنَّمْلِ أجْنِحةٌ حتى يَطِيرَ فقدْ دَنَا عَطَبُه

وصدر منه من هذه المقولة من الجرآت المهلكة ، بل الخرافات المضحكة والأمور الفاضحة المنهكة التي يضحك منها العاقل ، ولا يقدم عليها غير السفيه الجاهل ، وهو معذور في ذلك لشدة سفاهته وجهله ، وكثرة حمقه وانطفاء مشكاة عقله .

ولقد قيل :

ما وَهَبَ اللهُ لامرِئٍ هِبَــــةً أشرَفَ مِنْ عَقلِهِ ومِنْ أدَبِه
هُمَا جمالُ الفتى ، فإنْ فُقِدَا فَمَوْتُ ذاكَ السَّفيه أجمَلُ بِه



الفصل الرابع والثلاثون

في استيلاء علي بن شرف الدين على حصن حب ، الذي كان للمرحوم علي بن عبد الرحمن النظاري

لما استوفت الزيدية أخذ معظم بلاد اليمن وقلاعها وحصونها ، ومدنها ، بالحيلة ، وبتجويع العسكر ، وقطع الميرة عنهم ، ما عدا زبيد فان الله تعالى حرسها عنهم ، دبروا الحيلة في أخذ حصن حبّ ، وقد تقدم بيان حصانتها ، ومكنة بنائها ومتانتها ، ولحوقها في الارتفاع والشهوق ، الى مناط الثريا ونياط العَيُّوق ، فنزل علي بن شرف الدين ، وكان رجلا سميناً بديناً ، فظاً متيناً ، له فضل تام ، وفهم يباري به أصحاب الأفهام ، وكان أبوه شرف الدين عهد اليه بالإمامة بعده ، والقى اليه حل زمامه وعقده ، وكان هو سبب مشاجرة أخيه مطهر مع أبيه شرف الدين ، وعقوقه له ، وخروجه عليه في بعض الأحايين ، وصار علي بعد والده حنفياً ، وترك مذهب الزيدية نسياً منسياً ، فنبذته غلاة الزيدية ، وتشبثت بمطهر مع جهله وبخله ، لغلوه في مذهب الزيدية ، ورعاية نسبه أصله ، فحط علي المذكور المحطات على حصن حب ، ومنع عنها الميرة من كل حدب ، واستولى على إب وجبلة وبعدان ، وجمع عليها قبائل العربان ، واستمر يحاربهم مدة من الزمان ، الى ان نفد زاد العسكر السلطـــاني ، وكَلّ كُلُّ

واحد منهـــم ، وهو من تعب الحرب والجوع واني ، فاضطروا الى طلب الأمان بالاستسلام ، وسلموا الحصن الى علي ابن الامام، وخرجوا طالبين النجاة بأنفسهم في البراري والقفار ، وفروا الى زبيد طلباً للقَرار بالفِرار ، فدخل علي ابن الإمام الى الحصن المذكور ، وتم له الانس والسرور ، وظن انه اعتصم بحبل أقوى من الحديد ، وانه آوى الى ركن شديد ، وما علم أنه لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من عُصِم ، وان البغي والعـــدوان يصمي صاحبه ويُصِم ، وسيأتي بيان أخذه وهلاكه ، وانتثار عقد حياته وانفصام أسلاكه ، إن شاء الله تعالى .



الفصل الخامس والثلاثون

في أخذ علي بن شويع موزعاً ، وطمعه في أخذ زبيد ، ووصوله اليها ، وانكساره ، وانهزامه عنها وهو طريد شريد

لما انتفخت أوداج علي بن شويع ، وفار تنور فتنه وماع بنيرانها أقوى ميع ، حدثته نفسه الكاذبة بأخذ زبيد ، مستضعفاً أهلها الصيد الصناديد ، وهي وإن خلت بحسب الظاهر فما خلت من أهل الباطن ، وإن تخلت جموعها ومال عمودها فهي محمية بأسرار أهل البواطن ، كم فيها من ولي كبير ، وناحر للخصم نِحْرير ، ومزارات مباركة شريفة ، بها أرواح أولياء الله مطيفة .

ومن أوهى عقائد الزيدية ، وأدنى عثراتهم الردية ، إنكار كرامات أولياء الله تعالى الصالحين ، وجحد ما يشاهد منهم بالحس من بركة أنوار اليقين ، نفعنا الله بها وأحرمهم عامة بركاتها ، ومزقهم كل ممزق بسيف حميتها .

ففي سابع عشر الحجة ، من سنة خمس وسبعين وتسعمائة ، استولى علي بن شويع على مَوزع بعد أن صدر من الرعية قتل الكاشف خَسرو ، لظلمه ، فأرسل حسن باشا الأمير شهلا ممي في رأس العسكر ، ومعه جمع من الامراء والاغوات فانهزموا الى المخا ، وركب بعضهم إلى دَهْلَك وزَيلع .

وكان الأمير شهلا ممي ممن انهزم وعزم الى دهلك ، وكذلك الاغا عبدالرحمن بن يحيي المغربي ، فباع الامير شهلا خيله بدهلك ، وأخذ بها رقيقاً ، وعزم الى جدة .

ولما أخذ علي بن شويع موزعا قصد أخذ حيس ، فأرسل حسن باشا يستحث العسكر بالوصول ، لحفظ زبيـــد ، فتراجع بعض العسكر ، منهم الأمير خضر وغيره .

ولما سمع القبطان بوصول علي بن شويع الى المخا أمر التجار وأهل البلد أن يمسّوا ويحفظوا البلاد . ثم لما تحقق أنه لا قدرة لهم عليهم أمر التجار بتطليع حوائجهم في الجلاب والزعائم ، فيقال : ان البلاد خلت عدة ايام ، وما فيها أحد لا من الأروام ولا من الزيدية . ثم وصل إليها ابن الشويع ، وجعل أمرها الى الحاج محمد جلبي ، فإنه كان ملتزمها .

ولما أراد حسن باشا ان يقبضه ويحرمه هرب الى الزيـــدية ، وكان في خدمتهم ، فضبطها من قبـــل الزيدية ، ثم ان ابن الشويع صمم على أخذ حيس ، وأخذها في صفر ، وقتل من ظفر به من الترك ، ولو كان في الجورة ، فأخرج امر الله الكاشف ، وأحمـــد كيخيا من داخل تربة الشيخ عمر الخامري ، وأمر بقتلهم صبرا ، ثم قصد زبيداً ، وخيم في موضع يقال له تربة الخليفي ، وحط على زبيد المحروسة بحراسة الملك المبين ، علي بن شويع ، وحسين بن شمس الدين ، وساقا اليها ما ينوف عن عشرين ألف مقاتل، ما بين فارس ومبندق وراجل، ولم يبق في زبيد إلا شرذمة من العسكر المنصور السلطاني ، وفئة قليلة ما بين جريح وسليب وشيخ فاني ، لا يكادون يبلغون مائتي خيّال ، هياؤوا أنفسهم للجلاد والقتال ، فأرسل علي بن شويع الى حسن باشا مندوباً ، يعرض له بأن يترك البلد ، وينجو بنفسه وماله ، وله الأمان ، فزجر حسن باشا ذلك المندوب ، فلما برز من عنده ، وعلم العسكر ما أتي بسببه ، مالوا عليه بالسيوف ، وقطعوه إرباً إرباً ، وأحرقوا جثته وذروا في الهوى رماده ، استحقاراً به وبمن أندبه، وخرجوا من زبيد ، على ظهور خيلهم ، طالبين الموت ، وحملوا حملة واحدة على علي ابن شويع وجنوده ، وهجموا على كلابه وقروده ، وأروهم وجوه المنايا في مرايا غرر الجياد ، ونزعوا عنهم لباس الجلس لباس الجياد ، وفلقوا البيض

بالبيض ، وصدموا الحديد بالحديد ، وأشعلوا نار الحرب في ماء الوريد ، وصبروا وصابروا ، وجاهدوا وجاهروا ، وثبتوا للإسلام وناصروا ، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، وكم من خميس عرمرم للخصم أرداه الغرور وأصماه ، وسمع كثير ممـــن حضر هذا القتال ، صوت المدافع الثقال ، يخرج من صوب تُرَب الاولياء ، فتصيب عساكر الزيديين الأشقياء ، الى أن فُلّت جموعهم ، وخمدت نيرانهم وشموعهم ، وثبت ذلك اليوم علي بن شويع وكابر ، وثابر على الثبـــات وصابر ، الى أن قتل حصانه ، وتزلزلت أركانه ، فقدّم اليه عبده حصاناً آخر فوثب عليه ، والسهام كالمطر تنثال عليه ، ورؤوس فرسانه تدحرج كالأكر بين يديه ، وجرح عدة جراحات ، وأصيب من جميع الجهات ، ففر هارباً ، وذل حائباً ، ورجع خائباً ، وولى هو وجنوده مدبرين ، وخابوا وخسروا مكسورين صاغرين ، وصارت السيوف في أقفيتهم ، والسهام تغوص في صدورهم وأدمغتهم ، وهم ما بين هارب وربيط ، ومزمّل بكلومه بدم عبيط ، (والله من ورائهم محيط) وغنم العسكر السلطاني زملهم وأوطاقهم ، وسلبوا مخيمهم ورواقهم ، ومزقتهم أيدي سبا ، وذهبوا جفاء لا يجدون ملجأ ولا سببا ، وكانت هذه بحمد الله نوبة بغير نبوة ، وكرّة بغير كبوَة ، ووقعة أذنت بأوفر حظوة ، والحمد لله الذي نصر الدين بأهله ، وعجّل بأنصاره جمع شمله ، وأسفر لمرتقبي صباح النصر فجرا ، وجلا وجوه المؤمنين ببشير له نور وبشرى ، وأعظم لهم ثواباً وأجرا .



الفصل السادس والثلاثون

في ذكر وصول أخبار هذه الفتن الى باب السلطان

وبروز الأمر الشريف ، الى الوزير مصطفى باشا اللالا ، بدفع اللأواء

أول مـــا ظهر اختلال أحوال اليمن ، بتفريق الكلمة بها ، ونصب بكلربكيين كان محمود باشا موجوداً ، وعلم انه أخطأ في عرض ذلك على الأبواب السلطانية ، وعلم انه يؤمر بدفع هذه الفتن ، بتوجهه بنفسه الى اليمن ، وكان يرسل كل قليل بعسكر الى اليمن ، ويخفي أحوال اليمن عن السلطنة الشريفة ، كيلا يلام على وقوع هذه الأحوال ، الى أن مات على الوجـــه الذي ذكرناه سابقاً ، فوجدت في مخلفاته عروض ، وصلت اليه من أهـل اليمن ، بابتداء وقوع هذه الفتن ، فجهزت العروض بعينها الى الابواب السلطانية ؛ فلما أحاطت السلطنة الشريفة علماً بذلك ، فار تنور غضبها ، وتوقدت نيران سخطها مشتعلة بلهبها ، وبرزت أوامرها الشريفة الى الباشا مصطفى اللالا ، أن يتوجه بنفسه الى بلاد اليمن ، ويطفىء بماء سيفه الباتر نيران الفتن ، ويقطع دابر مطهر ، وجادرته ، وينقض بأجنحة قهره عليه كما ينقضُّ البازي علي فريسته ، فأراد اللالا أن يقول : لا ، لا ، ويبدي أعذاراً وأعلالا ، لبعد الشقة ، وطول المسافة ، وارتكاب المشقة ، واحتمال المخافة ، فلم يجب في الباب العالي الى سؤاله ، وتكرر الأمر الشريف السلطاني إليه بالسفر والاخذ في اعماله ، فما امكنه غير القبول والاذعان ، لما شاهد ثوران غضب حضرة السلطان ، خليفة الزمان ، وما

وَسِعَه غير امتثال الأمر الشريف السلطاني ، من غير تخلف ولا تواني، فشرع في أسباب ذلك وورد الى مصر ، وساق إليها أتباعه وجنوده من كل حكر ، وشرع في اتخاذ السفائن ، وسبك المدافع والغلائن ، وكتب عسكراً من جنود مصر وأمرائها،وسناجقها وكبرائها،فصار جنود مصر وأمراؤها يتراككون ، ويعتذرون ويبكون ، ويتعللون في السفر ويتضرعون ويشكون ، لأنهم ألفوا في هذه السنين الراحة والدعة ، وتنعموا في مصر بـأنواع اللذات المتنوعة ، وأكثروا فيها المنشب ،وتعلقوا فيها بكل سبب ، وكثرت أولادهم وأحفادهم، فصار يكبو عند قصد السفر جوادهم،وصارت مصر وطناً لهم ودياراً ألِفوها، وألِفوا أهلها دهراً طويلا ، والله تعالى يقول : (ولو أنّا كتبنا عليهم أن اقتلوا انفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليلا) .

فلما شاهد الوزير مصطفى باشا هذه الأحوال ، ورأى تواني جند مصر في السفر عن الارتحال ، أرسل قصاده الى مطهر يطرق باب الصلح ، ويقبح له العصيان أعظم قبح،ويدعوه الى الطاعة ، والدخول في عداد السُنّةوالجماعة، ولو فعل ذلك مطهر لصان دماء المسلمين وأموالها ، ونال من السعادة ما لم ينلها من قبل ولن ينالها ، ولكنه أبى واستكبر ، وعدل عن السعد ونفر ، وسعى بالفساد في الأرض ، وأهلك الحرث والنسل ، وكان ذلك في الكتاب مسطوراً (وكان أمر الله قدَراً مقدوراً) .

وعين الوزير ، مصطفى باشا لرسالة مطهر من جواويش مصر ، مصطفى جاووش ، وقولاق سليان جاووش ، وأرسل معهما كتاباً إلى مطهر ، يتضمن ما قدمناه من نصيحته واستدعائه إلى الطاعة السلطانية ، وابداء الاعذار عنه مما وقع ، بانه إنما صدر من رعاع الرعايا ، وقبائل العربان الجهلة ، وانه لا يصدر من مثله عصيان السلطنة الشريفة لكمال عقله ، ووفور رأيه وبصيرته ، مغالطة بذلك ، وتلقيناً له بعذر في الظاهر ، اكتفاء به لصون دماء المسلمين، ورضاء منه بهذا القدر من اظهار الطاعة كما قال القائل :

إقبل معاذير من يأتيك معتذرا   إن برّ عندك ، فيما قال، أوفجرا
فقد أجلك من يرضيك ظاهره   وقد أطاعك من يعصيك مستترا

وهذا غاية اللطف من هذا الوزير المعظم ، لهذا المغرور الأبله الأبلم .

وأرسل حضرة الوزير المشار اليه ، مع الجاويشيين المذكورين ، كتاباً إلى المقام العالي ، سيدنا ومولانا ، السيد الشريف ، الحسيب النسيب ، بدر الدنيا والدين ، الحسن بن أبي نُمَيّ أدام الله سعدهما ، وأنجح قصدهما ، يلتمس منه إرسال قاصد من قبله أيضاً إلى مطهر بمكتوب إليه من جانبه ، يتضمن النصيحة له ، وتخويفه من عاقبة هذا الأمر ، لعله أن يهتدي .

فلما وصل مصطفى جاووش، وسنان جاووش، الى بين يدي حضرته الشريفة بمكة ، عيّن من جانبه من الترك الذين عنده ، عثمان آغا ، وأصحبه معهما ، وكتب معه إلى مطهر كتابا صورته :

بسم الله الرحمن الرحيم :

العزة لله تعالى

مُحِبُّهُ حسن بن أبي نمي

أما بعد إهداء سلام يَهدي إلى السلامة والإرشاد ، ودعاء يدعو إلى الطاعة والاعتصام والانقياد ، مرفوع من بلد الله الأمين ، وبيته المكرم الذي هو قبلة العالمين ، ومعفر جباه الطائفين والعاكفين ، الى الجناب العالي ، صاحب المفاخر والمعالي ، السيد الجليل ، النبيه النبيل ، المثيل الأصيل ، الاميريّ الكبيري ، المعظمي المكرمي ، الأمجدي الارشدي ، سلالة الأشراف ، وعنصر بني عبدمناف ، سليل السادة الأكرمين ، الشريف مطهر بن الإمام شرف الدين ، ألهمه الله طريق السداد ، وأرشده إلى الانقياد ، وترك العناد ، وأبعده عن الغي والبغي والفساد ، فالذي نبديه لعلمه الكريم ، ونلقيه الى محله الجسيم ، انه لا يخفى على العاقل اللبيب ، والفطن المتيقظ الأريب ، ان الاتّسام بسِمَة العصيان ، والخروج عن طاعة سلطان الزمان ، وخليفة الوقت والأوان ، من خدع

الشيطان ، وإن مخالفة ولي الأمر ، ومنابذة سلطان العصر ، من سمات أهل الغرور ، وصفات كل غبي مغرور، غير مشكور ،سيا مخالفة سلطان البسيطة، والملك الذي أوامره المطاعة بأطواق الآفاق محيطة ،صاحب العسكر الجرار كالجراد المنتشر،والجنود الغالبة والجيوش المنصورة التي لا تُعَدُّ ولا تنحصر ، فمثل هذه الوقائع الواقعة بديار اليمن لا تصدر عن عاقل ، ولا يتجرأ عليها بالإقدام عليهاأحد ظناً أن تنجيه الحصون والمعاقل،ونحن نبرؤكم أن يقع منكم شيء من هذه الشوائع ، وننزهكم عن أن يسند إليكم صدور هذه الشنائع ، كيف وقدشملتكم العنايةالشريفة السلطانية مراراً،ودخلتم فيرقبةالطاعة الخاقانية كراراً ، وأنعمت عليكم السلطنة الشريفة باللواء الشريف السلطاني إكراماً لكم وإكباراً ، وتقلبتم في النعم السلطانية العالية ، وشملكم من السابق سوابغ الألطاف المتوالية ، فلا يليق بعد ذلك منكم الشقاق ، ولا يناسب مع ذلك خلع ربقة الطاعة والوفاق ، وقد قرن الله تعالى في كتابه المجيد ، الذي لا الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد، الأمر بطاعتهوطاعة رسوله ﷺ باطاعة ولاة الأمور ، وأبرزه في قالب الأمر العام الشامل لكافة الجمهور ، فقال تعالى ، كما لا يغرب عنكم : (وأطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) . وأمر الشارع ﷺ بقتل من خلع ربقة الطاعة،وخالف الجماعة ، كما قال ﷺ ، وأمره لاحق بأمر القرآن : « من أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهو جميع ، فاضربوه بالسيف كائناً من كان » . وحيث كان الأمر كذلك ، فاللائق منكم التبرؤ من هذه الفتن ، والتنصل عن صدور هذه الشنائع ، وما ظهر منها وما بطن ، والظاهر ان هذه الفضائح ، والقبائح الفوادح ، إنما صدرت عن غوغاء الأشقياء ، وغواة العربان ، ممن استغواهم الشيطان ، واستخفهم البغي والطغيان ، وانكم لما رأيتم اختلال البلاد ،وسعي المفسدين في الأرض بالفساد،قصدتم حفظ المملكة الشريفة السلطانيةوالاستيلاء عليها ، وصونها عمن يريد الإفساد فيها ، بالتوجه إليها ، وحراسة أمراء السناجق السلطانية وحفظهم من العربان ، والإبقاء على مهجهم عن جهلة البدو

وأهل العصيان، ووضعتم يدكم على العُدَد والآلات والحصون والقلاع، حفظاً لها عن الضياع، بتمزقها بأيدي الجهلة والرعاع، وصنتم جميع ذلك، إلى أن يرد من يعتمد عليه من الحضرة الشريفة السلطانية، ونواب أعتابها المنيفة الخاقانية، فتسلمون جميع ما صنتموه اليه، ودفعتم له كلما وضعتم من ذلك يدكم عليه، فبادروا بالعجل الى التنصل والاعتذار، فالعذر مقبول عند الكرام الأخيار، واغتنموا الفرصة في ذلك قبل الضنك والاضرار، وقد برز الأمر الشريف السلطاني، والحكم المنيف الخاقاني، الى المقام الشريف العالي، ناصب رايات الآراء الصائبة على مفارق الأيام والليالي، الوزير المعظم، والمشير المفخم المحفوف بصنوف الاجلال، سعادة واقبالا، حضرة مصطفى باشا اللالا، لا زال مخيمه الشريف أمانا لكل خائف، وملجأ يتشبث بملتزم مقامه كل طائف بان يكون رأس العساكر المنصورة، وسردار الجيوش الموفورة، وان يصحب معه من خاصة عسكر الباب الشريف السلطاني، خمسة آلاف ينكشاري، وخمسة آلاف اصباهي غير واني، وان يصحب معه عسكر قرمان، وديار بكر وحلب، وكذلك عسكر مصر، ينسلون اليـه من كل حدب، ويسوق عسكر مصر وجنودها، واثني عشر سنجقاً ترفرف عليه ألويتها وبنودها، ويقدم قبله عثمان باشا بن ازدمر باشا، وجنودا يتخذون اوراق الشجر غطاء، والارض وطاء وفراشا، وصحبتهم الوف من الخيول الصافنات، والدروع السابغات، والمدافع والمكاحل والضربزنات، والبارود والحديد والزردخانات، وكلما يحتاجون اليه من المـيرة والخزانة، وسائر ما يلزمهم من المؤونة ثلاثة اعوام، وان يتواصل العسكر السلطاني بتواصل الليالي والايام، من آخر بلاد الروم، الى اقصى حجر باليمن، متصلا بدون انفصام، ونحن ايضاً عازمون، ومصممون على تشمير ساعد الجـد والاجتهاد، والمبادرة بالنفس والاولاد، والعسكر والأجناد، إمداداً للعساكر الشريفة السلطانية، وقياما بما يلزم من طاعة سدتها السنية، ولا يخفى عليكم ما يترتب على هذه الأمور من دهك البلاد، وهلاك الضعفاء من العباد، واتلاف

النفوس والأموال ، واختلاف الأمور والأحوال ، والله تعالى يقول في كتابه العزيز المصون : (إن المُلوكَ إذا دخلوا قرية افسدُوهَا وَجعَلوا أعِزَّةَ أهلهـا أذِلة ، وكذلك يَفعَلون) فإن تداركتم هذا الامر العظيم ، والخطب الفادح الجسيم ، قبل ان يَدلهم ، وتلافيتم البَلاء قبل ان ينزل فلا ينفع حينئذ الندم لمن يندم ، وصنتم انفسكم واموالكم واتباعكم واشياعكم ، فهذا دأب العقـلاء الكاملين ، وشأن النبلاء العارفين، فبادروا الى تسليم الحصون والقلاع،والجهات والبقاع ، والاسلحة والالات ، والمدافع والمكاحل والضربزنات ؛ ونحن نبادر حينئذ الى ارسال قصادنا الى الابواب الشريفة السلطانية ، والاعتاب المنيفة الخاقانية ، معتذرين عما اسند اليكم من هذه الشنائع ، مستعفين عما صدر من غوغاء الناس بغير اختياركم من هذه الوقائع البشائع ، فتفوزون بالحظ الأوفر، واللحظ الشريف السلطاني الاكبر ، الذي هو الإكسير الأحمر ،ويحصل لكم ما ترومون من الأعتاب الشريفة السلطانية ، من المطالب ، وتأملونه من الأبواب المنيفة الخاقانية من المآرب،وينام الأنام في الامان ، وتشملهم عناية السلطان ، نصره الله تعالى مَدى الأزمان، وتستريح الرعايا في ظل الامن السلطاني،وتسلم تلك الاقطار اليمنية مشمولة بمعدلة العطف الخاقاني ، ويأمن ضُعفاء الرّعيـة الذين هم ودائع الله عند حكام البرية من الدّهك والفتك ، والقتـل والاسر والسفك والهتك ، فإن أبيتم ونأيتم ، وخالفتم وعصيتم، ظناً ان تنجيكم الجبال والحصون، ومتون الحصون ، فهذا ظن واهي ، ورأي مُتناه في الغباوة غاية التناهي ، والأمر حينئذ عظيم ، والخطب جسيم ، ومن حذر فقد أنذر ، ومن أنذر فقد أعذر ، وليس الخبر كالعيان ، وما كل عيان يستوى في الحسبان ، وسيظهر لهذا البناء العظيم شأن وأي شأن،يشيب منه الولدان، وتهرم الشبان، ومن سلم منه فقد أخبر عنه ولا ينبئك مثـل خبير ، والله تعالى هو العلي الكبير ، والله تعالى يلهمكم رشدكم ، ويصونكم عمن يوقع في الأمر الخطير ، وصلى الله على سيدنا محمد البشير النذير وعلى آله وصحبه المقررين لطرق الصواب أوضح تقرير ، والحمد لله رب العالمين .

حرر في يوم الخميس حادي عشر رمضان المعظم سنة خمس وسبعين وتسعمائة

وجهز السيد الشريف الى مطهر كتابه هذا مع مملوكه عثمان آغا، وارسله مع مصطفى جاووش، وسنان جاووش فتوجهوا الى اليمن، ووصلوا الى تعز، وفيها يومئذ علي بن شويع من قبل مطهر ، واخذ منه المكاتبات وجهزها الى صنعاء الى مطهر، وأمر ان يكتب عن ذلك جواباً لا محصل له، ليس فيه إطاعة ولا استمرار على عصيان .

وهذا صورة الكتاب الذي ارسله الى سيدنا ومولانا السيد الشريف ، بدر الدنيا والدين حسن بن ابي نمي : —

الحمد لله على الهداية والرشاد ، ونعوذ بالله من البغي والعناد ، والصلاة والسلام علي نبيه المصطفى ، وآله وأصحابه الذين اجتباهم واصطفى ، والسلام العاطر ، والدعاء المتواتر ، يهدى الى السيد الكبير ، العظيم الخطير ، زبدة السادة الاكرمين ، وحامي حمى بلد الله الأمين ومدينة خاتم النبيين ، بدر الدنيا والدين ، مولانا السيد حسن ، اسبغ الله نعمه عليه على الوجه الأكمل الأحسن .

والذي يقرر لديه وينهي إليه وصول مثاله الكريم العالي ، المزري بعقود الدر النظيم واللآلي ، وعلم مضمونه وفهم مكنونه ، ونحيط علومكم الكريمة انا منذ كنا لم نسع في الأرض بالفساد ، ولم يصدر منا شيء من البغي والعناد ، وهكذا جرت الأقدار ، وجرت اليه سوابق المقدار ، ولا نبدي ولا نعيد في ذلك عذرا ، ولعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وكتب بيده اسمه في هامش الكتاب: (المطهر لطف الله به) وكتب جوابه الى الوزير مصطفى باشا اللالا من هذه المقولة .

فعاد مصطفى جاووش ورفيقه الى مصر، ثم توجها الى الباب العالي بمضمون جواب مطهر ، فبادر مصطفى باشا بارسال عثمان باشا .

الفصل السابع والثلاثين

في ذكر بروز عثمان باشا بما معه من العسكر والامراء ، من مصر بحراً ومرورهم بجدة المعمورة،وبمكة المشرفة ، ووصوله الى اليمن واخذه لتعز

لمـــا اطلع الوزير مصطفى باشا على مكتوب مطهر ، المستمر على الظلم والحيف ، علم تمكن الفساد من دماغه المحشو بالباطل والزيف ، وانه لا يزيل هذه السكرة من رأسه غير حد السيف ، أخذ في تدبير من يجهز عنه الى اليمن ، ويسد في اصلاح هذا الخلل الذي ثبت وتمكن ، ويريحه من هذه السفره الشاقة ، ويتحمل عنه متاعب هذا المسير ومشاقه ، فبادر عثمان باشا الى قبول تحمل هذه الاعباء لعلاقة سابقة لوالده بتلك المملكة مددا وحقبا ، وحثه على ذلك كتخدا أبيه جقل احمد، ورغبه فيه اتباع والده باليمن،لما كان ملجأ فيها يقصد ، وتوجه من مصر الى السويس ، وركب بحرا ، ومعـــه عسكر جرار ، كأنهم قطعة نار ، وأشد حراً ايان سلكوا دهكوا وأيناً ما صادفوا سفكوا وفتكوا ، واذا صادموا طحنوا واهلكوا .

وكان معه من امراء السناجق المشهورين ، وأصحاب الالوية السلطانية المعروفين، قورت أوغلي خير الدين بك، وأمير الحاج سابقاً احمد بك،وسليمان بك، وعلي بك، وأغوات البلوكات الأربعة، وطائفة من الجاوشية ، والمتفرقة زهاء ثلاثة آلاف نفس ، من العسكر النظيف ، غير الاتباع واللفيف .

ووصل الى جدة المعمورة في أربعة عشر غرابـــا ، وثلاث مسمارية ، مشحونة بخيله ورجله ، وما يحتاج اليه من برقه وحمله ، ودخل الى جدة في موكب عظيم ، ونزل من الفرضة السلطانية ، وكان مولانا شيخ الاسلام ناظر المسجد الحرام ، رئيس مكة على الاطلاق ، بل رئيس العالم بالفضل والاستحقاق ، القاضي السيد حسين الحسيني ، يومئذ في جدة قصداً لملاقاته ، لما أحس بقدومه ، ومعه سيدنا ومولانا السيد حسين بن حسن بن أبي نمي ، والسيد عرار بن عجل ، وعدة من بني حسن ، والترك ، فلاقوه عند نزوله من القارب أمام الفرضة ، فالبسهم الخلع والتشريفات ، وأوصلوه الى محل عينوه اسكناه ، في بيوت المرحوم الخواجا الطاهر ، في شق اليمن ، ومد له سماط في ثاني يوم وصوله ، أمام محل نزوله ، قام باعبائه الشرفي أبو القاسم بن قرقماص ، احد المتكلمين في جدة عن السيد الشريف ، يزيد على الفي صحن، جلس عليه هو والأمراء وجميع العسكر وحملوا منه .

ثم استدعي بجمال يرحل عليها إلى مكة للطواف ، فأحذوا له نحو مائتي حمل ، وتوجه الى مكة في فئة قليلة ، دون المائة ، من خواصه ومماليكه ، ونزل حدة –بالحاء المهملة– وتوجه منها الى مكة فلما جاوز بير شميس وكان بعد مضي ثلث الليل لاقاه سيدنا ومولانا المقام الشريف العالي ، بدر الدنيا والدين ، الحسن بن أبي نمي ، في موكب جميل ، ومعه اخوانه وأولاده ، وأكثر السادة الاشراف فانبسط بوصوله ، وفرح بملاقاته،وتحدثا ساعة طويلة، ثم توجه مولانا السيد الشريف الى ناحية عنه، وترك ولده مولانا السيد مسعود يحادث عثمان باشا ، وينعشه بلطف مقاله انعاشاً ، الى ان طرق طارق النوم، وغشيت بالوسن أعين القوم ، فتفارقا ، ونزل كل منهما ناحية ، وضرب على آذانهم سلطان المنام ، ولم يكن لهم من دونه واقية ، فاكتحل كل جفن بأثمد منامه ، الى أن ظهرت عساكر الصبح باعلامه ، وهزمت جيوش الليل فولى بظلامه ، فركب حضرة عثمان باشا ، ورتب موكبه ، وركب معه السيد الشريف وصحبه ، ودخلا بموكبهما الى مكة ضحى ، واطمأن خاطر

الناس بذلك وصحا ، بعد رجة في الناس وضجة ،وهرجة بين الرعاع ومرجة ، ونزل مدرسة قايتباي ، ومدوا له سماطاً ، ونثروا عليه من درر الثناء عقوداً أسماطاً ، وعمل هو بالحرم الشريف مولداً شريفاً ، جمع فيه الأعيان ، وأوقد لهم السرج والشموع ، ومد لهم من الحلوى والسكر ألواناً بعد ألوان ، وخلع على قارىء المولد الشريف ، وأحسن الى كل فقير وضعيف ، وتصدق على بعض الفقهاء ، ونال من احسانه العلماء والصلحاء ، وكان معه حكم سلطاني ، وأمر شريف خاقاني ، بتوجه أمير السادة الأشراف معه ببعض عسكر ، من جهة مولانا السيد الشريف ، الى اليمن ، للمساعدة في دفع ما وقع بتلك الديار من الفتن ، وكان مولانا السيد الشريف قد عين بعض أولاده لهذه الخدمة ، وتهيأ للامتثال للأمر السلطاني ، وشدّد لذلك عزمه وحزمه ، ووأى عثمان باشا أن الاعانة بالخيل والجمال ، أولى من الاعانة بالرجال ، فتكلم الوسائط في ذلك ، فحصل الاتفاق على أن يدفع السيد الشريف الى عثمان باشا مائة وخمسين حصاناً ، وألف جمل ، عوضاً عن توجه نجله السعيد ، ورأى كل واحد منهم أن ذلك هو الرأي السديد ، وان ذلك أنفع وأنجح ، وأولى للعساكر السلطانية وأصلح ، فسلم مولانا السيد الشريف ما وقع عليه الاتفاق ، فتسلمه عثمان باشا ووقع الرضا والوفاق ، فعاد عثمان باشا الى جدة وركب بحراً ، وسايرته الخيل والجمال براً ، واستمر كذلك الى أن نزل البقعة ، والحديدة ، من بنادر اليمن ، فلاقته الخيل والجمال ، فارتفق بها على الوجه الأتم الأحسن ، ودخل زبيدا ، وما لبث أن صعد الى تعز بعسكره ، وحاصرها وأقدم على من بها من الزيديين فهزمها وكسرها ، وفل جموعها وزلزل ربوعها ، وفتح تعزاً ودخلها ، وأقام ميدها وأزال خللها ، وكان ذلك أول الفتوحات السلطانية ، ومبدأ انكسار الزيدية ، وفتنها الشيطانية .

وكان دخوله الى تعز في أواخر رجب ، سنة ست وسبعين وتسعمائة ، وبقى عليه أخذ القاهرية ، وهي من أعلى الحصون الشاخصات ، فاستمر في محاصرتها ، فأبت عليه ، وما ألقت زمام الانقياد اليه ، وصار باقدامه يقدم

عليها ، ويهجم بالعسكر السلطاني اليها ، فيصيبونهم من القاهرية بالمدافع الكبار ، ولا يصيبهم شيء من مدافع العسكر ذوات الحديد والأحجار ، الى أن فني كثير من العسكر السلطاني ، وقطعت عليهم الزيدية الميرة من الأطراف والحوالي ، وكادت أقدامهم أن تتزلزل ، وأشرفوا على أن يتبدد شملهم وينحل ، وحولهم محطات من الزيديين ، فيها علي بن الشويع ، وأولاد المطهر وحسين بن شمس الدين ، وهم في كر وفر وشر وحر ، تارة يتوجهون الى قتال العدو ، وهؤلاء على حمية ، وتارة يحاصرون قلعة القاهرية ، إلى أن جاءهم : (نصر من الله وفتح قريب) وقوي قلبهم بوصول أخبار تسرّ المحب والحبيب ، وتخلع قلب العدو المريب ،وذلك خبر وصول حضرة الوزير المعظم ، والبحر الغطمطم ، والليث الغشمشم ، سنان باشا ، طيب الله تعالى للمسلمين به معاشا ، وسقى بزلال أمنه ومعدلته اناساً في أودية المخاوف عطاشا .



الباب الثالث

في الفتح الثاني ، وعود الممالك اليمنية في سلك الملك العثماني ، وهو المقصود بالذات من تأليف هذه المباني ، وترصيف درر هذه الألفاظ في سلك عقود جواهر المعاني

وفيه ستون فصلاً

الفصل الاول

في ذكر عزل مصطفى باشا وتفويض ذلك الى حضرة سنان باشا ، وبروز الأمر الشريف اليه ، بالتوجه بنفسه الى اليمن ، وتشريفه بمنصب الوزارة ، ووصوله مكة بالعسكر المنصور

لما فهمت الحضرة السلطانية ، خلد الله تعالى خلافتها وأيد سلطنتها على البرية، تأخُّرَ مصطفى باشا ببعض الامراء بمصر عن السفر الى اليمن بأنفسهم، عزل حضرة مصطفى باشا ، وولى سنان باشا الوزارة ، وأمر أن يكون سرداراً على العساكر السلطانية إلى اليمن ، وأمر بقتل مصطفى بك أحد أمراء السناجق بمصر ، والنجمي محمد بك أمير اللواء بمصر ، وأمر جميع عسكر مصر أن يتوجهوا إلى اليمن ، وأمر بارسال الأحكام الشريفةالسلطانية في هذه المواد على يد قابجية الباب العالي ؛ فلم يشعر الناس إلا بوصولهم إلى مصر ، فارتجت لهم البلاد ، وطلعوا إلى حضرة سنان باشا في ديوان مصر ، وأوصلوه الأحكام الشريفة السلطانية ، فأجاب بالسمع والطاعة ، وانه يبذل ماله ونفسه في الرضا الشريف السلطاني ، ولا يترك شاذّة ولا فاذّة في إنفاذ الأمر الشريف الخاقاني . وطلب الاميرين مصطفى بك ومحمد بك وسلمهما الى القابجية ، فنفذوا فيهما الأمر السلطاني ، وخنقا بالوتر ، وسلم جسدهما إلى أهلهما فدفنا ، وضُبطت مخلفاتهما للديوان.

وتوجه من حينه مصطفى باشا إلى الابواب الشريفة السلطانيـــة ، خائفاً يترقب ، إلى أن وصل إلى الباب ، وتشبث بأذيال العواطف السلطانية ، والخِدَم السالفة لتلك الحضرة الخاقانية ، فأعيد إلى الوزارة ، وقوبل بالعفو والصلح ، وبسط القول في ذلك الذيل والشرح .

وأما حضرة الوزير سنان باشا فشمر عن ساعد العزم ،وتقلد سيف الحزم، وشرع في الحال ، الى الاذعان والامتثال ، وبادرت عسكر مصر كلها إلى القبول ، والإذعان بعد أن شاهدت ذلك الأمر المهول،وصار كل من لا يتصور خروجه من مصر ، يسابـــق إلى طلب السفر ، وبادر كل يعرض نفسه في الديوان السلطاني ، ووقف لذلك وحضر ، إلى أن كتب غالب عسكر مصر من الأقوياء والمتمولين، والكُشَّاف ، والمتفرقة والبلوكات ، والمتجوهين ، ولم يبق بمصر إلا نفل ، كشيخ هرم وطفل ، أو نحو ذلك وخرج من مصر بهذه العساكر ، من طريق البر ، بالخيل والجمال ، والبغال ، وأرسل الأثقال من البحر ، وأخذ من الزاد والمؤونة ما فوق الكفاية، وتوكل على الله تعالى القوي القدير ، وشرع في السفر وأخذ في المسير .

وكان بروزه من محروسة مصر في سابع عشر رجب سنة ست وسبعين وتسعمائة .

ووصل ركابه الشريف إلى الينبع في ثاني عشر شعبان من السنة المذكورة، وقام بخدمته وخدمة العسكر المنصورة ، ونقل الحمول والأثقال من ينبع الساحل إلى الينبع على ظهور الجمال السيد نور الدين علي بن دراج بن هجار الحسني ، وكان شيخ الحرم الشريف المكي مولانا شيخ الاسلام ، ملك العلماء الأعلام ، صفوة السادة الكرام قاضي القضاة ببلد الله الحرام ، مولانا القاضي السيد حسين المالكي ، برز من قبل ذلك إلى ملاقاة حضرة الوزير المشار اليه ، وتوجه إلى المدينة ، وكنت في صحبته فلما شاع خبر وصوله ، برزنا لملاقاته ، ففاتنا ادراكه في منزلة بدر ، وكان رحل عنها ، ونزلنا بهـــا ، فتبعناه

فادركناه في تَخبْتِ كُلَيّة ، بعد العشاء ، سابع عشر شعبان ، سنة ست وسبعين وتسعمائة ، وحصل منه الاقبال التام ، على مولانا شيخ الاسلام ، ولاطفه وحادثه ، واستمر معه إلى أن وصلنـــا رابغ ، فمدّ حضرة الوزير سمـــاطاً عظيماً جميلاً ، وطلب مولانا ناظر الحرم الشريف وخلع عليه خلعة عظيمة فاخرة ، وصحبه إلى أن دخل إلى مكة وأرسل مولانا الشريف بدر الدنيا والدين الحسن بن ابي نُمَيّ ، دامت دولته ، لملاقاة حضرة الوزير ولده الأكبر ، مولانا السيد حسين في خيل ورجل ، فوصل اليه بعد بروزه من عُسفان ، وخلع عليه خلعة سنية ، فلما وصل إلى العمرة ، دخل ليـــلة الاربعاء ثاني عشري شعبان إلى مكة ، وطاف وسعى ، ولاقاه افندي مكة عند الطواف ، ثم عاد إلى العمرَة ودخل بمكة صبح يوم الاربعاء .

ولما وصل إلى سبيل الجَوْخي وصل لملاقاته قاضي مكة المشرفة يومئذ مولانا الأفندي عبد الرحمن بن سيدي علي ، قاضي عسكر روملي سابقاً ، وأمر أن يُنصَب وِطاقه في بِركة ماجن ، وخرج أهل مكة عامة للفرجة ، فرأوا من العساكر السلطانية ما لم يروه ، ولم يسمعوا بمثله في هذه الأقطار الشريفة، مع الزينة التامة، والبراق العظيم، والخيول المسومة المذهبة، وركب الذهب والفضة والأسلحة والدروع والخوذ .

وأخبرني من عد الفرسان في ذلك الموكب فكانوا بين ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف ، وانه عد الجمال فقاربت عشرين ألف جمل .

وكان موكباً أدهش النواظر ، وملأ العيون والخواطر ، وبهر الأبصار ، وعظم في اللواحظ والأنظار .

وكان قبل وصول حضرة الوزير نصره الله تعالى حصل في مكة أراجيف ومساوىء ارتجت لها البلاد ، واضطرب لها الفؤاد ، ودفن كل أحد ما يعز عليه من الذخائر،وخافوا من النواهب والفواير، فسلم الله تعالى من ذلك جميعه، بحسن تدبير حضرة الوزير ، وضبطه وحفظه لهذا العسكر الكبير ، وكثرة

إحسانه الى الفقراء ، وتوقيره للأعيان والكبراء ، واستمر في مخيمه المنصور، درن بركة ماجن ، ودخـــول ذلك الجند الكثير المعروف بالمحاسن ، وأكبر الامراء الذين معه يومئذ الامير حمزة ، وبعده الامير مامِي ثم بقية الامراء السناجق ، وهم : كوله محمود بك وعلي بك ، وكرد محمود بك . ومن أمراء عرب مصر : الامير سلامة بن الخبير ، ومعه الاغوات والكشاف والمتفرقة وكثير من البلوكات والجاووشية .

وبالجملة فكأن ديوان مصر بجميع عساكره انتقل إلى مكة، مع ما أضيف إلى ذلك من عسكر الشام ، وحلب ، وقرمان ، وآمد ، ومرعش ، وغير ذلك من الممالك الشريفة السلطانية بحيث لم يسمع مثل ذلك في عم سابق ؛ فسبحان مالك الملك والملكوت ، وتعالى الله ذي العزة والعظمة والجبروت .

ثم ان مولانا السيد الشريف – أدام الله تعالى عزه – توجه بنفسه النفيسة الى جدة المعمورة للأمر بنقل أحمال حضرة الوزير والعسكر إلى مكة ، بما وصل اليها بحراً ولأداء جميع الخدمة الشريفة السلطانية ، ولم يعتمد في ذلك على مقدميه وخدامه ، لاحتمال القصور منهم ، وأمر أن يُمَدّ بمكة لحضرة الوزير سماط كبير ، يليق بشأنه العالي ؛ فمدوا بين يديه ذلك . وكان حضرة الوزير يتوقع وصول حضرة السيد الشريف بنفسه اليه ،فلما تأخر عن الحضور بنفسه ، حصل من العامة أنواع من القيل والقال ، وتغيرت خواطر حضرة الوزير نوع التغير ، وأراد أن يمتنع من تناول طعام السيد الشريف لمّا مُدّ بين يديه، فاعتذر عنه مولانا شيخ الاسلام، القاضي السيد حسين ، بأن حضرة السيد الشريف لما رأى احتياجكم إلى وصول الأمتعة الواصلة لكم من البحر ، توهم انه إذا وكل هذا الامر الى خدامه،ربما يقصرون في المبادرة إلى الامتثال، توجّه بذاته الكريمة لأجل أداء هذه الخدمة لكونها أهم من وصوله إلى بين يديكم لشدة احتياجكم إلى ذلك ، فإن البلد ليس بها ما يكفي هذا العسكر الكثير ، وربما يقع القحط فيتضرر العسكر والناس ، إلى غـــير ذلك من الاعذار . فقبل حضرة الوزير ذلك العذر ، وتناول بيده الشريفة من الطعام،

وأمر بتفريقه على العسكر ، مجابرة وتلطفاً ، وألبس الخواجا كال الدين أبي الفضل بن أبي علي خلعة لكونه هو الذي تعاطى مد السماط ، من قبل مولانا السيد الشريف ، وحصل بذلك ولله الحمد كال الإلتئام والمودّة .

وأرسل السيد الشريف اليه نحو مائة من الخيل ، وألف بعير ،إلى غير ذلك من التحف والهدايا اللائقـــة ، وانسجم بينهما الود الأكيد ، وفرح الناس بذلك ، وأمنت البلاد ، واطمأنت العباد ، ولله الحمد والمنّة على ذلك .
وبالجمـــلة كانت جميع حركات حضرة الوزير سعيدة ، وأفعاله مشكورة حميدة ، ورأيه صائب ، ونظره ثاقب ، وتدبيره في غاية الاتقان والاحكام ، وفكره سديد محكم في جميع النقض والابرام ، زاده الله عزة وجـــلالاً ، وضاعف له بسعادة واقبالاً ، وبلغه أعلى مراتب العز حتى يقول محبوه : هكذا ، هكذا وإلا فلالا .

وفي أثناء هذه الاقامة توجه إلى المفجر للكشف على عمل عين عرفات المأمور باجرائها إلى مكة المشرفة ، وأمينها يومئذ قاسم بك سنجق جدة ، أميرا خور ، المرحوم علي باشا الوزير ، فخرج في موكب عظيم من الامراء والفرسان ، وصاروا يطردون الخيل أمامـــه ، وحوله في ذهابه وعوده ، وظهرت للناس فروسيتهم وكمالهـُم فيها ، ومد لهم في المفجر الامير قاسم ، سماطاً عظيما ، بلغ فيه مقدوره وجهده ، وقدم اليه ثلاثة روس من الخيل مكملة بعدتهـــا من السيف والدبوس والدرع والخوذة ، والسرج والمذهب ، واللجام والركاب من فضة ، وأخلع هو على الأمير قاسم خلعة سراسر ، وأعطى للمعمارية الترقيات من عثمانيين ، إلى خمسة عثمانية ، وعاد في موكبه إلى أوطاقه ، بغاية العزة والعظمة ، والأمور كلها بحمد الله تعالى منتظمة .

ثم دخل عليه شهر رمضان ، الكثير الخير والفيضان ، وهو بوطاقه المعظم ، في عسكره المحبور ، وجيشه المنصور المنظم ، وهم مضبوطون بضبطه ، مربوطون بربطه ، لا يقدر أحدهم أن يظلم حبة خردل ، ولا يؤخذ شيء من

أحد من السوقة دون أن يعطى مراده ويبذل ، فأقام أربع ليال من رمضان أقام فيها نظامها ، ومد سماطها ، وأطعم طعامها ، مع البذل والاحسان للعلماء ، وتقرير الوظائف والصلات للفقهاء ، والفقراء، بحيث قرر لكثير من الفقهاءالمجاورين من الخزائن السلطانية،ما يوجب له التحسين،ولم يقدم على ذلك غيره من الوزراء القادمين ، مستجلباً بذلك خالص الدعاء من أهل الحرمين ، بنصرة سلطان الاسلام في المشرقين والمغربين ، مستكثراً من جنود الدعاء ما يفوق جنود القتال ، ومن عسكر الضراعة في الأسحار ، بين يدي الكريم المتعال ما يفوق على عسكر الجلاد والجدال ، فإن سهام دعاء هؤلاء يصيب ، وتأثير أسلحتهم تظهر في الحضرة والمغيب ، إلى أن رحل مع عسكره السديد الشديد ، مصحوباً ان شاء الله تعالى بالنصر والتأييد .



الفصل الثاني

في ذكر ارتحال حضرة الوزير المشار اليه من مكة برّاً الى اليمن الأيمن

لما كان رابع رمضان ، عزم حضرة الوزير على المسير ، وأمر الجند بالسفر من غير تأخير ، فكــثر الرهج والعجيج ، وتزايد الصخب والضجيج ، وتسابق الجند يلمون شتاتهم ، ويقوضون خيمهم وأبياتهم ، ويرفعون بنداء بعضهم بعضاً أصواتهم ، وزعق النفير فكان كنفخ الصور ، وانتشرت العساكر فشوهد يوم الحشر في البعث والنشور ، وعلم حضرة الوزير بفكره المنير ، أن أطراف العسكر عند الرحيل ربما خبطوا وفعلوا ما أرادوا من الأفاعيل ، فتقدم هو بنفسه في أول العسكر وضبطهم ضبط الراعي غنمه اذا توحش واستنفر ، فتوجه في عسكره ، وأبيضه وأسمره ، ولامتــه ومغفره ، وبيارقه ويَلبهِ ، وبوارق بيضه وسحبه ، ورماحه وقواضبه ، وقعانبه وسلاهبه ، وقد زُين ليل النقع من أسنة العوامل بكواكبه ، بسيل خيل ترد دَأماء الدماء ، وغمام سهام تنسكب على أهل ثلا وكوكبان من الأرض والسماء .

وأمر الأمير حمزة أحد الأمراء الكبار ، ذو البطش والأيد والاقتدار أن يتأخر بمكة ، ويمنع العسكر من العبث والعَيْث ، ويسوقهم اذا تأخروا عن اللبث والرّيث ، فكان ذلك رأياً صائباً . وفكراً صحيحاً ثاقباً ، فلولا هذا الفكر والتدبير ، لدمر من بقي من الغوغاء أشد تدمير ، فسلم الله تعالى

من العطب ، واستراح كل أحد من النصب والتعب ، فمضى مشكوراً ، وتوجه مظفراً ، ان شاء الله تعالى مؤيداً منصورا .

وكان رحيله المبارك يوم الاثنين ، رابع شهر رمضان المبارك ، سنة ست وسبعين وتسعمائة ، فلما زُمّت الزمول ، وزفت الحمول ، وسيقت الركائب ، وقيدت الجنائب ، تأخر عن العسكر المنصور من أبق من أرقائهم ، وتأخر من آثر الهروب على التوجه معهم ، نافراً من لقائهم ، فجمعهم صوباشي السيد الشريف بمكة ، القائد محمد بن عقبة ، وأرسلهم خلف حضرة الوزير ليلحقوه به في أول منزل ، فلحقوه في منزل السعدية ، وقد أقام بذلك المنهل ، ليستريح به العسكر وينزل ، فشكر سعي القائد ، وألبس رسوله قفطاناً ، وسلمه بعض العبيد ، الذين هربوا من مكة صحبة عسكره ، بعد أن جبذهم منهم ، وأمر الرسول أن يوصلهم الى أصحابهم ، وأكرمه وأحسن إليه ، وأعاده إلى مرسله ، وشكر الناس صنيع حضرة الوزير فيما فعل ، وأصحبوه دعاءهم الجميل حيثما حل وارتحل ، واستمر يُطمّن العربان في المنازل والمناهل ، ويحسن إليهم ويكسوهم في جميع المراحل ، ويطوى المنازل طياً ، ويفري أديم المهامه والمفاوز فرياً ، ويرفق بعساكره في أثناء ذلك ، ويتأنّى بهم في المسير في بعض المسالك ، ويصونهم بحسن نظره ، ولطف تدبيره من المضار والمهالك ، إلى أن قطعوا البطاح والرمال ، وسلكوا الفجاج والجبال ، وأضنوا ظهور الخيل والجمال ، وحثوا الخيل والبغال ، وزرعوا رمم الدواب في طول طريقهم زرعاً ، ودهكوا ما وجدوا في عرض الأرض من هشيم ومرعى .



الفصل الثالث

في ذكر وصول حضرة الوزير بعساكره المنصورة الى جازان ، وأخذها ، وترتيب الرتبة بها

لما قرب حضرة الوزير المعظم من جازان ، فرَّ من كان بها من داعية العصيان ، وتركوها خاوية على عروشها ، خالية ما بين عِتْوِدِها وبَيْشها ، وكان السراج ، نقيب من أعوان مطهر ، هو الذي استولى عليها فيما مرّ ، فهرب على وجهه الى البر ، وفي عينه التراب وفي رأسه الحجر ، فوصل حضرة الوزير إلى جازان ، في آخر شهر رمضان ، ولحقه عيد شوال، وقد نصب مخيمه الكبير في ذلك المكان ، ودُقّت له بها البشائر ، فكان للناس عيدان ، ونادى لهم بالأمن والأمان ، فازداد لهم المسرة والاطمئنان . وهذا اول فتح حصل على يديه دون قتال ولا ترهيب ، فاستبشرت العساكر المنصورة له بالفتح والنصر القريب .

وفي إقامة حضرة الوزير بذلك المقام ، أقبلت عليه العربان من خلف وأمام ، يطلبون الطاعة ، ويبذلون الاستطاعة ، فمنهم أهل صَبْيَا قدموا عليه ، وألقوا أزمّة الطاعة اليه ، وامتثلوا أوامره وتمثلوا بين يديه،فأكرمهم وخلع عليهم ، وكساهم وأحسن إليهم ، فرجعوا شاكرين لقاه ، حامدين لطفه في مواجهته ومَلقاه ، وأقبلت عليه عربان اليمن أرْسالا ، وأقبلوا إليه إقبالا ، وبذلوا الطاعة طالبين الامان ، مستسلمين مسلّمين بغاية الاستسلام

والإذعان ، وارتجت بخبر وصوله جبال اليمن وقلاعها ، وتزلزلت حصونها ويَفاعُها وبقاعها ، واضطربت لوصول هذه العساكر أصقاعها .

وكان عثمان باشا لما وصل الى زبيد ،وشاهد ما فعله حسن باشا من مصادرة أهل زبيد ، وأخذ أموالهم ، ووضعهم في الحبوس ، أمر بالتفتيش على حسن باشا ، فخلص منه كثيراً من حقوق الناس ، وردّها على أصحابها ، ففرحت أهل زبيد بذلك ، وضاق حسن باشا ذرعاً بما حصل عليه من التفتيش وغرامة المال ، وصار يستغيث فلا يُغاث ، ثم انه أراد العود الى مصر ، وركب غراباً ليتوجه الى كمَران ، فلما بلغه وصول حضرة الوزير الى جازان ، وصل اليه ، وتشبث بأذياله ، واستجار به ، فقابله حضرة الوزير بالقبول ، واغتفر له ما فعله فيما مضى أيام الفترة من الاختلال ، وصار ملازماً للخدمة ، فأقبل عليه الوزير غاية الاقبال ، وعامله بالترحيب والاجلال ، وصار يندبه في الأمور المهمة ، ويستخدمه في المهات من الخدمة .

وفي الحقيقة فنظر الكبير يَفعل ما لا يفعله الإكسير ، ولو لم يفعل حسن باشا ذلك ، لما سلم من هذه المهالك . ولله عاقبة الامور .



الفصل الرابع

ذكر توجه حضرة الوزير من جازان ، الى تعز لدفع المضايقة عن عثمان باشا

لما فرغ حضرة الوزير من ضبط جازان ، وإحـــكام أمرها ، أسرع في التوجه بالعساكر المنصورة إلى تعز لمـّا بلغه ان عثمان باشا ومن معه من العسكر السلطاني ، في مضايقة شديدة في تعز ، بسبب قطع عرب الجبال عليهم الميرة من كل جانب ، وحصل عندهم القحط ، وعدموا علف الدواب وعليقها ، وصاروا في غاية الحيرة ، لا يمكنهم العود إلى زبيد ، ولا يمكنهم استكمال أخذ ما حوالي تعز ، فإن قلعة القاهرية صَعُبَ أخذها ، وهي حوالة على تعز وعلى باب تعز ، فلا يتركون أحداً من الترك يدخل إلى تعز أو يخرج منها إلا ضربوه بالمدافع من أعلى القلعة ، وقتِل كثير من شجعان العسكر السلطاني، منهم حسين آغا، رئيس الطائفة الكوكلية بمصر ، وعدة من شجعانهم، وضعفوا بسبب ذلك ، وهم منتظرون الفرج القريب ، من الله عز وجل ، حتى سمعوا بوصول حضرة الوزير ، فعادت أرواحهم إلى الاجساد ، ودَبّ في أجسادهم دبيب الحياة بعد الهلاك والانكماد ، وتخوفت العربان العصاة ، وأخذ كل منهم للهروب نعله وعصاه ، فقطع حضرة الوزير بغاية السرعة والعجلة طوي المراحل ، وطوى البيد طيّ السجل للكتاب معرضاً عن المنازل والمناهل ، الى أن خفقت بالنصر راياته ، وظهرت للعين آياته ، وطلع عليهم طلوع الفجر

في غسق الليل الدامس ، وسطع نور وجهه فضحك ثغر الزمـــان العابس ، وفرح المؤمنون بنصر الله عند قدومه الميمون ،وصار بعد ذلك الفزع لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فنزل بجيوشه في ذلك الفضا ، وعين الله ناظرة اليه ناظرة إليه بغاية الرضا ، فدكت عساكره المنصورة جبال تعز ومهادهـــا ، وملأت جنوده المجبورة أغوارها وأنجادها ، وقد سترت بسواد عُددها بياض النهار ، ولمعت ببوارق بيضها وبَيضها سواطع الانوار ،وضُرب المخيم الكريم ، والوطاق المكرّم العظيم ، في تلك المهامه الفيح ، والبرّ الواسع الفسيح ، فكأن السبع الطباق أحد قبابه ، وحبال الشمس والقمر من بعض خيوط أطنابه ، وبروج السماء داخلة في زوايا خزائن مضاربه ، وخيام السحاب سحابة من بعض سحائبه .

فلما شاهد الزيديون هذا الخميس العرمرم ، ونظروا إلى تلاطم أمواج هذا البحر الغطمطم ، آووا إلى جبل يعصمهم من الما ، واتخذوا إلى التحصن بجبل الاغبر سُلـَّما ، وما علموا ان الفرار الى الجبل الأغـــبر لا يعصم ، لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من عصم .

وكان سبب اجتماعهم في جبل الأغبر ، وعدم فرارهم بالكلية إلى البر ، انهم أرادوا أن يقوى قلب أهل القاهرية ، برؤية ثباتهم للعساكر السلطانية ، فلا يسلمون القلعة طمعاً في المظاهرة والمناصرة ، والمعاضدة والمكاثرة . ومن عادة أولئك العربان ، إيقاد النيران ، ليكونوا بمرأى من أهل القلاع ،وكذلك أهل القلاع ، توقد النيران لأهل البقاع واليفاع ، لإعلامهم بحصول العلم لهم بذلك الاطلاع ، فأوقد الطائفتـــان كل منهما شعل النار ، ليقوى كل منهما برؤيتها على القرار ،وعدم الفرار ، كأنهم لما استبطأوا جهنم بادروا اليها أشد البدار واستمروا كذلك إلى أن طلع النهار ، وهم يتخاطبون على البُعْدِ بلسان أهل النار ، وبئس القرار .



الفصل الخامس

في ذكر بروز أمر حضرة الوزير لجمع من الأمراء، بمحاربة أهل جبل الأغبر ، وأمره لعثمان باشا أن يتوجه معهم رأساً عليهم

لما استقر مُخَيَّمُ حضرة الوزير فيما بين تعِزّ وجبل الأغبر ، وانحازت طوائف الزيديين إلى الجبل المذكور ، أراد حضرة الوزير أن يترك محطته في محلها ، ويأخذ من يختار من شجعان العسكر ، ويصبح مغيراً على الزيديين في جبل الأغبر ، ويأخذهم على غرة وهم لا يشعرون ، وصمم ذلك في ضميره المنير ، وأخذ يشرع في أسباب ذلك المسير ، إذ خطر بخاطره الخطير ، أن يعقد مجلساً مع الأمراء ، يأخذ رأيهم في ذلك ويستشير ، عملاً بقوله تعالى : (وشاوِرهم في الأمر) . ولقد قيل :

الرأيُ قبلَ شجاعة الشجعان هو أولٌ ، وهي المحلُ الثاني
فإذا هما اجتمعا لنفسٍ مرةً بلغتْ من العلياءَ كلَّ مكان
لولا العقولُ لكان أدنى ضيغمٍ أدنى إلى شرف من الانسان

وقيل أيضاً :

أقرن برأيك رأي غيرك واستشر فالحق لا يخفى على رأيينِ
المرءُ مرآة تريهِ وجهَــهُ ويرى قفــاهُ بجمع مرآتين

وقيل أيضاً :

شاور سواك إذا نابتك نائبة يوماً، وان كنت من أهل المشورات
فالعين تلقى كفاحاً ما نأى ودنى ولا ترى نفسها إلا بمرآة

فطلب الأمراء والأغوات ، ممن يعتمد عليهم في حسن الرأي والثبات ، واستشارهم فيما خطر ببـاله ، وأراهم صورة نقش ضميره في مرآة مقاله ، وتفاوضوا في ذلك وتراوضوا ، إلى أن اتفقت الآراء أن يستمر حضرة الوزير في محطته ، ويستقر في مخيمه لحفظ رتبته ، ويعين لهذه الخدمة من شجعان أمرائه وجماعته ، من يعتمد على إقدامه وشجاعته ، واستصوبوا هذا الرأي التام ، وعولوا عليه بعد تمام الاهتمام ، واختاروا لذلك الأمـير حمزة ، الكاشف سابقـاً بمصر ، والأمير محمود المعروف بكوله ، وهما يومئذ من أشجع الفرسان ، وأعرفهم بمكائد الحرب والطعان ، فخرجا في نحو خمسماية فارس ، مكملين بآلات الحرب والخيول اللوابس ، يهدّون الجبال هدّاً ، ويدكون الأرض دكاً ممتدّاً ، لا يعرفون القرار ، ولا يدبرون خوف السيف والنـار .

وأرسل إلى عثمان باشا ليكون سرداراً عليهم ، فإنه بكلاربكي اليمن ، وأمير الأمراء بتلك الأقطار ، وقد سبق له ولوالده محاربات مـع أولئك الزيدية الفجار ، والعسكر لا بد لهم من رأس ترجع اليه ، وكبير تدب حوله ، وتقاتل بين يديه ، ورأى حضرة الوزير أنه أولى بهذه التقدمة من غيره ، متيمناً بحسن طالعه ويُمـن طيره ، فامتثل عثمان باشا أمرْ حضرة الوزير ، وركب بمن معه جواد العزم ، وشرع في المسير ، وسبق الأميران ، مع من ركب معهما إلى جبل الأغبر بالعاديات ضَبْحا ، وأغاروا على الزيدية بالمغيرات صُبحا ، ورشقوهم بالبنادق الموريات قدحا ، وأثاروا من دخان البارود ، وسنابك الخيـل ، نقعا صيَّر النهار في ظلمة الليل ، وكان أمراء عسكر الزيديين : الهادي ولطف الله ابنَـيْ مطهَّر ، وعلى بن شويع ،

وحسين بن شمس الدين ، وهؤلاء أركان الفتنة والفساد ، ومنشأ العصيان والبغي والعناد ، ومعهم زهاء خمسين الف مقاتل ، ما بين فارس وراجل ، ومبندق ونابل ، وسواد كثروا به سواد الباطل ، وكان العسكر السلطاني ، والجيش المخبور الخاقاني ، زهاء الف مجـــالد مجادل ، يحطم بعزمه صُمّ الجنادل ، صادق في عزمه ، جازم في حَزْمه ، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والحق يَعلو ولا يُعلى ، والباطل تزهق قواه .



الفصل السادس

في ذكر انهزام الزيديين ، وانتصار عسكر أهل السنة الموحدين

لما رأى الزيديون كثرة عُدَدِهم وعَدَدهم ، وتمكنهم من جبل الأغبر وتواصل مدَدِهم ، وقلة العسكر السلطاني المقدمين عليهم ، وانهم كالشامة البيضاء في الثور الأسود بالنسبة اليهم ، نزلوا من الجبل إلى ذيله ، مستعدين للقتال ، شارعين اليهم أسنّة الجلاد والجدال ، ومع كل فارس منهم عدة من رماة البندق مشاة ، يحمون ذلك الفارس من أمامه وقفاه ، فما يقدم على فارسهم إلا ورماهم بالبندق اولئك المشاة ، فلا يصل الفارس اليهم إلا وقد صرع بتلك البنادق ، ولا يقرب أحد اليهم ولو كان جواده أقوى سابق ، وهذا دأبهم في القتال وشأنهم في مقاتلة أبطال الرجال .

فلما رأى العسكر المنصور السلطاني نزولهم عن الجبل ، توقفوا ليكمل نزولهم ، ويتم عليهم المكر والحيل ، فما استكمل نزول بعضهم إلى السفح ، إلا وأطلقوا عنان جيادهم لهبوب النفح ، وهجم عليهم كل خواض للغمرات ، نهاض بالعزمات ، روّاض بالجامحات ، على صواهل ينقلن الاطواد على صهواتها ، ويقذفن الزبد كالحمام من لهواتها ، ويكشفن ظلام النقع بكوكب غرة جبهاتها ، ويعانقن بيض الصفائح بسود ذوائب صفحاتها ، وطيور السهام تقصد من الأحداق أوكارها ، والأوتار تطلب من الفئة الباغية أوتارها ، والحديد قد سد على النبال المنافذ ، والنصال تكسرت على النصال فكأنهم قنافذ ، وتثلمت

الصفاح ،وتحطمت الرماح،وانهارت أنهار الجراح ، وذهبت الأنفس والارواح، وحال بين العسكر السلطاني والعدو حجاب الليل ، فانهزم العدو على جرائد الخيل ، ونادوا بعد الحرب بالحَرَب والويل ، وطلعوا الى الجبل وولوا مدبرين ، وتركوا أوطاقهم وتولوا هاربين ، وتدحرجت رؤوس قتلاهم كالأكر في تلك الميادين ، فظفر العسكر المنصور برحالهم ، وغنموا كافة أحمالهم وأثقالهم ، وارتفقوا بما وجدوا من اللباس والرياش ، وتوسعوا بتلك الغنائم بعد القحط وضيق المعاش ، ورجعوا الى حضرة الوزير سالمين غانمين ،حامدين لله شاكرين ، وملأوا الفضاء بما ظفروا من البارود والسلاح ، والسيوف والرماح ، والدروع والصفاح ، وحصل من حضرة الوزير إنعام عام ، لجميع العسكر السلطاني في ذلك المقام ، ورقى كل واحد من العسكر بانفراده ، ما يليق به ويناسبه من الترقي ، فأقل ما حصل لآحاد العسكر عثماني واحد ، ولم يحرم أحداً منهم شيئاً من فيض الإنعام ، ونالوا أجمعين ما أرادوا من المرام .

وخلع حضرة الوزير على عثمان باشا خلعتين فاخرتين ، من أغلى السراسر الخاص من السمور ، وحصل كال الفرح والسرور ، وتمام البهجة والحبور ، في مخيم العسكر المنصور ،ورجع العدو بالويل والثبور ، ودقت البشائر ، ونصبت الاشائر ، ورفعت الستائر ، وزينت البلاد ، وفرحت العباد ، وسكن الفؤاد . وكان هذا الفتح الميمون في يوم السبت ثالث عشر ذي القعدة سنة ست وسبعين وتسعمائة .



الفصل السابع

في ذكر فتح حصن القاهرية ، بالآراء الشريفة الآصفية [1]
وطلب أهلها الأمان ، عند مشاهدة الموت بالعيان

حصن القاهرية من أحكم القلاع ، وأطولها في العلو والارتفاع ، مع كمال الاتقان والإحكام ، وتمام المكنة والاستحكام ، لا يحلق عليها الطير إلا النسران ، ولا تصل اليه السهام ولو طارت بأجنحة الريش أشدّ طيران ، وفيه من المدافع والمكاحل ، ما لا يمكّن من القرب اليه الواصل ، وفيه من الرماة من يَرمي على الحدق ، ويحرّر فلا يخطىء من الدروع الحلق ، وكان حضرة الوزير ، لما جهز العسكر إلى جبل الأغبر ، قام بالليل وحده ، منفرداً عن الخدم والحشم والعسكر ، ودار حول القاهرية ، ولاحظها بالفكر والنظر ، وتفكر من أي موضع يمكن أن تؤخذ ، ودبر في تحصيل الطريق اليها والمنفذ ، فرأى موضعاً تصل منه المدافع إلى بيوت القلعة ، ومكامنها ، ومواضع مكشوفة من أماكنها ، يمكن أن يُصَوَّب بالمدفع من يلوحُ فيها ، ويهدم عليه جوانب من ذروة القلعة وأعاليها ، وأمر بالليل أن تحمل المدافع الكبار ، على أعناق الرجال الأحرار ، وتوضع في تلك المخالس بالليل إذ لا يمكنهم ذلك بالنهار ، لأن مدافع القاهرية حوالة عليهم وأحجار رماتها تصل اليهم ، فحُوّلت ليلاً إلى هنالك ، وعمل لها حجاب من الصخور يمنعهم

(١) نسبة الى آصف بن برخيا ، مستشار سليمان النبي ـ كما في أخبار بني أسرائيل ـ .

من المهالك ، وهيأ فيها رجالاً يحررون على أهل القاهرية بالمدافع ، ويضربونهم بها فلا يلوح منهم أحد في تلك المطالع ، ورأى أهل القاهرية انهزام عسكر الزيدية ، وانطفاء نيرانهم بماء السيوف الهندية ، فخابوا وخاروا ، وخافوا وحاروا ، وزلزلت المدافع السلطانية من تلك الأماكن المذكورة حصونَهُم ، وخرّبت دورهم ، وهدمت أماكن أهل القاهرية ، فصارت بيوتهم قبورهم ، وتوجهت العساكر السلطانية بعد فتح جبل الأغبر لقهر القاهرية ، وحطوا حولها عدة محطات ، وصارت كل محطة أعظم قرية ، وكان حافظ القاهرية شخصاً من الدعاة الهمدانيين ، يقال له الصلاح ، سلب منه اتباعه لمطهر معنى الصلاح والفلاح ، فتركه اسماً بلا مسمّى ، ولفظاً مهملاً بـــلا معنى ، وبنو جِلدَتِه من الدعاة الهمدانيين ، من أكبر أعداء طوائف الزيديين ، ومن أعظم المطيعين للسلطنة كالجعفريين ، وما أوقعه في اطاعة مُطهّر غير عداوة الأهل وحسد العشيرة ، ونافس قومه ونابذهم ، حيث لم يكن ذا رأي وبصيرة ، ففرح مطهّر باتباعه ، وأدخله في خواص أتباعه ، وندبه إلى مهماته الضرورية ، ووكل اليه حفظ القاهرية ، وكان أيضاً من أكبر أسباب التجاء الصلاح إلى مطهّر ما رآه من جفاء بكلربكية اليمن ، وطمعهم فيه ، وطلبهم ما لا يقدر عليه ، وعجزه عن ارضائهم بالمـــال ، فاضطر إلى خدمة مطهّر ، وأظهر الاختصاص به ، والصداقة له ، والرضا لأن الضرورة ألجأته إلى ذلك ، وللضروريات أحكام تُلجىء إلى ما لا يُرضي ، ولقد قيل :

وعندَ الضرورةِ يؤتى الكنيفُ ولولا الضرورة لم آتِـــهِ

وقيل أيضاً :

لولا الضّروراتُ ما جئنا بأرجلنا إلى وجوهٍ لها بالكفر إلمامُ

وكان الأمير العفيف ، عبد الله الداعي الهمداني ، من أكابر أمراء الدعاة وكان له لواء سلطاني ، وسنجق شريف خاقاني ، وهو في غايـــة الصداقة للعسكر الشريف السلطاني ، إلا أن مطهّر لما أخذ صنعاء بالأمان كان الشيخ

عبد الله الداعي من جملة الأمراء ، الذين أعطاهم مطهر الأمان، بالعقد والأيمان ثم غدر بهم ، وحبس ومكر، ولكنه لم يحبس عبد الله الداعي لزيادة اعتباره في قومه ، استجلابا لخاطره ، واستمالة له أن يصادقه ، ويكون من خواص أمرائه ، وأنفت نفسُ عبد الله الداعي من ذلـــك ، ولم يستأمنه ، وصار يترقب الفرصة للهروب منه ، ويعطيه من ظاهره المحبة ، ويطمعه في أنه صار من أكبر محبيه ، ومطهّر فرحان بذلك ، مجتهد في تطييب خاطره ، لكنه جعل عليه حرساً يحرسونه ، ورسّم عليه من بُعدٍ ، ترسيم حِشمة ، وعرف عبد الله ذلك ، وهو يدبر الحيلة في الهروب إلى أن استحضر تحت جدار صنعاء حصاناً جيداً سبوقاً ، يدرك لمح البصر ويسبق في اللمحة بروقـــا ، تتلعب باعطافه نشوة الصبا ، ويلتفت في انعطافه رحمة للصبا :

مِكَـرٍ مِفرٍ، مقبلٍ مدبر معاً كجلمود صخر حطـّه السيل من علِ

ربطه في محل خاص يعرفه ، وتدلى في الليل من الحصن في حبل إلى أن نزل إلى الأرض ، وركب حصانه ، وفر عليه طول ليلته ، فقطـــع مسافة بعيدة ، وأصبح حراسه لم يروه ، وعرفوا انه هرب ، فأعلموا مطهراً بذلك ، فعرف انه فات ، وانه لم يمكن أن يلحقه أحد ، فندم على عـــدم حبسه ، وصار يقول : بخلنا على عبد الله الداعي بعشرة أرطال حديد . يعني تركناه بلا قيد ، وصار يعضّ الظالم على يديه ويتأسف غاية الأسف عليه ، وشدد حينئذ على بقية الأمراء المحبوسين ، وفرقهم في الحصون ، وثقل قيودهم ، فصار قيد كل أمير نصف قنطار من الحديد الموزون ، ومنع عنهم خدامهم ، ومن يجتمع بهم ، وزاد في ظلمهم ، والتضييق عليهم (وسَيَعْلم الذين ظلموا أيّ مُنقلَبَ ينقلبون) .

واستمر الشيخ عبد الله الداعي مختفيـــاً من قرية إلى قرية ، مغيراً هيأته وصورته ،إلى أن دخل بلاد الجعفريين،وهم طائفة كبيرة ، مطيعون للسلطنة، ما عُهد منهم العصيان ، وما أطـــاعوا المطهر في تلك الفتنة ، أيام البغي

والطغيان ، وهم شافعيون سنّيون لا يعرفون الإلحاد ، ولا يميلون إلى البغي والفساد ، وأميرهم يومئذ الشيخ أبو بكر الجعفري ، وكان وقع أخوه وولده في أسر مطهر ، فقال لهما مطهر : ارسلا الى الشيخ أبي بكر ليطيعني ، وأنا أرفع قدره ، وأعلي شأنه ، وأضيف اليه بعض البلاد ، وأسعده غاية الإسعاد، فواعداه أنهما سيكتبان اليه بذلك ، فكتبا الى الشيخ أبي بكر : تحصن في قلاعك ، ولا تطع المطهر ، ودعه يقتلنا ، ويسلخ جلودنا ، فقد وهبنا أنفسنا في سبيل الله تعالى. وعجز مطهر أن يرغبهم ، ويدخلهم في حوزته ؛ فلما لجأ الشيخ عبد الله الداعي إلى الشيخ أبي بكر الجعفري أكرمه ، وقام بما ينبغي له ، وأرسله الى حسن باشا بزبيد ، ففرح أهل زبيد وجميع من بقى بها من العساكر السلطانية ، بوصول الشيخ عبد الله الداعى اليهم ،وخرجوا إلى لقائه، وأدخلوه الى حسن باشا ، فأكرمه وألبسه خلعة شريفة سلطانية ، وقويَ جأش أهل زبيد به ، إلى أن وصل حضرة الوزير ـ أيده الله تعالى ـ فكان في خدمته ، وتحت طاعته ، ويستشيرهما في الأمور المهمة ، ويستضيء برأيهما في كشف ظُلَم المشكلات المدلهمة ، فاستشارهما في أخذ القاهرية، فاستأذنا منه أن يطلعا الى الصلاح برسم الإصلاح، فأذن لهما، فطلعا بالإذن الى قلعة القاهرية وبذلا النصح للصلاح ، وأخبراه بأنه يجب عليه التسليم والانقياد ، وطلب الأمان من حضرة الوزير وإلا يؤخذ أخذاً ذريعاً ، ولا يفيده تحصنه ، ولا تمنعه قلعته وحصنه، إذ كل محاصر مأخوذ ، وان مطهراً لا يمنع نفسه، الآن، فكيف يمنع أتباعه ، وانه لا خير في إتباعه ، إلى غير ذلك من الكلمات . فرأى ان ذلك هو الصواب ، وانه لا فائدة في ذلك المكابرة والعناد ، فمال الى ذلك ، فاستوثقا له في بذل الأمان من الوزير ، فأعطاه العهود والمواثيق.

وكان من أحسن خصال الوزير الوفاء بعهده ، والوقوف عند كلامه ووعده .

فنزلا به الى الوزير فقبّـل أقدامه ، وأظهر إطاعته واستسلامه ، وسلمه مفاتيح القاهرية ، وتبرأ عما تقدم من الماجرية ، فعاتبه الوزير على ما تقدم منه

من العناد ، وعلى سلوك طريق العصيان والفساد ، وعلى التسبب في إتلاف الأنفس والأموال من الجانبين ، وعلى عضّه بالنواجذ على الباطل ، وقبضه عليه باليدين ، فأجاب باعتذارات عدة أجلها : ظلم البكلربكية له ولطائفته ، وشدة طمعهم وتكليفهم له بما لا يطيقه ، وعدّد من ذلك أموراً عديدة محصلها : انهم هم الذين ألجأوا الى التشبث بالغير ، والخروج الى شمر العصيان عن الطاعة التي هى محض الخير ، وانه إنما بذل الطاعة الآن لما سمع عن حضرة الوزير بذل اللطف والعدالة ، وخلوه عن الجور في الحكم والإيالة ، فأحبه بقلبه ، وتمسك بولائه وحبه ، وإلا فعنده في قلعة القاهرية من السلاح والآلات والعدد العديدة ، ومن الطعام والرجال ما يكفيه مدة مديدة ، مع حصانة القلعة وامتناعها ، وشهوقها في السماء وارتفاعها ، وانه الآن قد بذل جميع ذلك محبة للوزير ، وإيثارا لطاعته من المخالفة والتكدير ، وتمسكاً بحسن عهده ، والتزاماً بصدق وعده . فقبل منه الوزير تلك الأعذار ، وقابله بالإكرام والاعتذار ، وأعطاه الامان هو وجميع من في القلعة ، وألبس منهم من كان يستحق إلباس الخلعة ، وكانوا زهاء خمسمائة نفر ، فأحضر الجميع وأنعم عليهم وكساهم ، وخلع على الصلاح خلعة فاخرة ، وكتب له ولهم علوفات تناسبهم ، وصار يحاسنهم ويخاطبهم ، وأدخلهم في عداد العسكر المنصور السلطاني ، وكثر بهم سواد الجيش المؤيد الخاقاني ، واستلم المواقع ، فوجد بها من المدافع ، وآلات الحرب ، والطعام ، والبارود ، أضعاف ما كان يظن فيه ، وتخلصت حينئذ تعز وأطرافها وجوانبها وحصونها وقلاعها ، وجبالها ووهادها وبقاعها ، وعادت الى الممالك المحروسة السلطانية ، وانضافت كما كانت الى الاقاليم المأنوسة العثمانية ، وفرح المسلمون بهذا النصر العظيم ، واطمأنت الرعايا في ظل عدالة السلطان الأعظم ، بحسن آراء هذا الوزير المعظم المكرم .

وكان ذلك الفتح المبارك في صبح يوم الاربعاء سابع عشر ذي القعدة الحرام ، سنة ست وسبعين وتسعمائة .

الفصل الثامن

في ذكر ارسال حضرة الوزير الامير خير الدين القبطان من البحر والأمير حسين من البر ، لأخذ عدن من قاسم بن شويع ومن به من الزيدية

قد تقدم كيفية أخذ علي بن شويع لعدن ، أيام الفتنة ، وإقامته شعائر الزيدية بها ، وإنابة أخيه قاسم بن شويع فيها عن المطهر .

وكانت الحضرة الشريفة السلطانية ـ خلد الله تعالى ظلال سلطنتها، ونصر جيوشها وأعوانها ـ لما بلغها أخذ الزيديين لعدن ، تكدر خاطره الشريف لذلك ، خشية أن يستولي عليها الفرنج اللعين ، فان ثغرها في غاية الامتناع والتحصين ، وبها من العدد وآلات الحرب والمدافع والمكاحل ما يفوق العد والحصر ، وانها إذا وقعت في أيدي الفرنج اللاعين يصعب استردادها منهم، لمعرفتهم برمي المدافع والمكاحل ، وحفظ الثغور والقلاع ، بخلاف العرب ، حيث لا معرفة لهم بها ، كما ينبغي لها ، وان الفرنج اللاعين إذا تمكنوا من هذا الثغر الحصين ، أضروا المسلمين ، ومنعوا سفائن الهند من الوصول إلى بنادر الحرمين الشريفين ، وربما طمعوا في أخذ جدة ونواحيها ، وأضروا

بتلك البقاع الشريفة وضواحيها ، فأكد على حضرة الوزير أشد تأكيد ، أن يبلغ الجهد الجهيد ، والسعي الشديد ، ويبادر أشد المبادرة إلى أخذ عدن ، واستنقاذها من الزيديين ، قبل أن يصل اليها الفرنج الملاعين . وذكرت له الحضرة الشريفة السلطانية ان استردادنا لمملكة اليمن ، وإن كان ذلـــك مما يتعين علينا ، لأنها ميراث ابينا المرحوم المقدس ، ولكن ُجلّ قصدنا من ذلك انما هو حفظ ثغر عدن ، صونا للحرمين الشريفين ، عن الكفار الملاعين ، وملاحدة الزيديين ، وحفظ عامة المسلمين عن الملحدين في الدين ، فكان ذلك الكلام المتين ، الذي هو أعلى وأغلى من الدر الثمين ، شِنفا في اذن حضرة الوزير الكريم ، وقُرْطاً معلقاً في سمعه المكرم العظيم .

فأول ما وصلت ركائبه الكريمة إلى مَوْزَع ، وهو متوجه إلى تعِزّ ، عدل إلى بندر المخا وجهّز ما فيها من الأغربة ، وشحنها بالآلات والعدد والعسكر ، وأرسلها بحراً إلى عدن ، وجعل رأس العسكر الأمير خير الدين القـُبطان ، المعروف بقورت أوغلى ، وهو ذو بأس شديد ، ومعرفة ورأي سديد ، سيما في أحوال البحر وحروبه ، وطريق أخذ الحصون وضروبه ، وكانت له تجارب في ذلك وبصائر، وله مع الفرنج حروب وكسائر ، ووجهه وبَدَنه ملآن من الكلوم ، وشجاعته معروفة وإقدامه معلوم ، وأسر عند الفرنج مراراً ، وتخلص ، وأسر منهم رؤوساً وكبـــاراً ، فتوجه في تلك الأغربة إلى عدن ، وخرج من بندر المخا ، في يوم السبت الثامن والعشرين من شهر شوال سنة ست وسبعين وتسعمائة،وعاد حضرة الوزير بعد تجهيز القبطان إلى عدن ، نحو معسكره المنصور ، إلى مَوزَع ، واشتغل بقتال أهل جبل الأغبر ، وافتتح القاهرية ، وبعد الفراغ من ذلك جهز عسكراً من البر إلى عدن أيضاً ، لإعانة القبطان ، وعين لذلك من شجعان الفرسان أهل الحرب والطعان ، طائفة معروفين بهذا الشأن ، وجعل رأسهم الأمير تَمّي ، وكان شجاعاً فاتكاً ، مريقاً للدماء سافكاً ، اشتهر أيام كشوفيته بمصر بين العربان

العصاة بالحزم والشجاعة ، والبأس الشديد على تلك الجماعة ، بحيث دوخ تلك البلاد ، وقطع جادرة أهل الفساد ، ويَستهْوِن قتل النفس على شرب الماء ، ولا يتلذذ إلا بالقتل وسفك الدماء ، قتل الوفا من النفوس ، وشهد حروباً أعظم من حرب البسوس ، فامتثل الأمير مَمتّي الأمر المطاع، وحــــلّ عَقد رايته ، وركب بخيله ورجله وجماعته ، وتوجه برّاً إلى ناحية عدن ، لأخذها من العدو الممتهن ، وكان بروزه من عند الوزير في يوم السبت العشرين من ذي العقدة ، سنة ست وسبعين وتسعمائة .



الفصل التاسع

في ذكر عزم حضرة الوزير الى جانب صنعاء واستشارته مع الامراء في ذلك

لما قرر حضرة الوزير أمر تعِزّ ، والقاهرية ، وحواليها ، ومهد أحوالها وعيّن فيهـــا من يعتمد عليه من الأمراء والنوبتجية ، ركب جواد العزم ، وتدرع بدروع الحزم ، وقصد التوجه إلى أخذ صنعاء ، فإنها أمُّ البلاد ، ومحل الجيوش والأجناد ، قد أناخ عليها مطهّر بكلكله ، وحصنهـا بعربانه وأهل جبلهِ ،وأكثر في صوْنها منمكره وحيله،واجتمعت عليه الزيدية الهاربون من جبل الأغبر ، وانضاف اليه من شفاليت الجبـــال كلُّ معشر ، بحيث لا يحصيهم العادُّ ، ولا يضبط عددهم العداد ، ومعهم من السلاح الكثير ما نهبوا أيام الفساد ، ومن المدافع والمكاحل مـــا تهد الأطواد ، لكن كثرة الغنم لا تهول الجزّار ،وقلائدها وان كانت نفيسة فهي زيادة في الغنيمة عند أهـــل الاعتبار ، فجمع حضرة الوزير أمراء اللواء الشريف السلطاني ، وكبراء الجيش المنصور العثماني ، ومن يعتمد عليه من أهل البلاد ، العارفين بالطرق المتعددة ، وما يوجد بها [من الماء] والزاد ، وما فيها من سهل واوعار ، وانجاد ، وأغوار ، ومكامن ومخالس ، ومهاوي ومحابس ، ومراحل ومنازل، ومناهج ومناهل ، فلما علم ذلك ، وتحقق أنواع المسالك ، استشارهم حضرة الوزير في الطريق التي تختار ، لسلوك ذلك العسكر الجرار ، يوجد فيه علف

الحيوان ، ويمكن سلوكه للإنسان ، وتسلكه الأبقار بالمدافع الكبار، فأحاط علما بجميع الطرقات وما اشتملت عليه من الجهات .

وكان أشقّ الأمور على العسكر حمل المدافع الكبار ، على أرقابهم ، [ونقلها على متونِ أصلابهم ، حيث] لا تسلك العجلة في المحاجر والتلال ، فضلاً عن شواهق الجبال ، وطرقها كلها أوعار ، وأحجار عظيمة ، وصفار ، وأطواد في الارتفاع والشهوق ، تكاد تلامس بذروتها العَيّوق ، ليس فيها أنس ولا أنيس ، ولا يأويها إلا اليعافير والعيس ، خلف كل صخرة سِرب من القرود ،أو سبع من ضواري السباع والأسود ، والقرى المعمورة في الطريق أخربها مطهّر ومزقها أشد تمزيق ، وفرق أهلها أقوى تفريق ، فلا يتعاوى فيها إلا الذئاب ، ولا ينعق فيها غير البوم والغراب ، ولا يُرى فيها أثر لحوافر الدواب .

فلما أحاط حضرة الوزير علما بهذه الأحوال ، وعرف ما يلزم من مكابدة العسكر المنصور لهذه الأهوال ، قال : الرأي أن نطلب عثمان باشا ، فانه بكلربكي اليمن ، ونستشيره في ركوب هذه الأخطار والمحن ، فربما يكون له رأي سديد، وحزم ثاقب في تهوين صعوبة هذا الخطب الشديد، واستصوب رأيه بقية الأمراء ، ووافقه أعيان العسكر المنصور والاغوات والكبراء ، وباتوا على هذا الرأي القويم ، والفكر الموافق المستقيم .



الفصل العاشر

في استدعاء عثمان باشا للمشورة وتعنته وابائه عن المجيء

لما سل ملك الأشباح صارمه الوضاح على جند الظلام ، وانتشر لواء الصبح الصادق من الأفق فأخذ جيش الظلمة في الانهزام ، وملأ الضياءوالنور ممالك الآفاق ، ولم يبق من السواد غير شعور الكواعب الغيد وما اكتحلت به سود الاحداق ، جلس حضرة الوزير في صدر ديوانه العـالي ، وأحضر الامراء والكبراء والاهالي ، وأمر بجاويشين من جاواويش الباب الشريف ، معروفين بالعقل والرزانة وحسن الأداء والتلطيف ، كل منهما اسمـه علي ، وقدره بين طائفته علي ، وأمرهما أن يتوجها الى عثمان باشا ، ويبلغاه جزيل السلام ، وجميل التحية والاكرام ، وأن يستدعياه الى ديوان حضرةالسلطان للمشاورة فيما يمكن الخوض فيه بحسب الامكان ، فإن الجميع عبيد حضرة السلطنة الشريفة ، متفيئون ظلال نعمتها الوريفة ، مأمورون بدفع الفتنة والفساد ، عن ممالك أرض اليمن وتلك البلاد ، وإذا اجتمعت الآراء ظهر من بينها الخطأ من الصواب ، وتبين الأصوب فيها على اؤلى الالباب ، وفي الهيئة الاجتماعية ما ليس في الانفراد ، والمبدأ الفياض يفيض الخير على الجمع الكثير أكثر من الآحاد .

فتوجه الجاوشان الى تعز لأداء الرسالة ، ووصلا الى مقره قبل أن تأوي الشمس الى كناس الغزالة ، فلما تمثلا في باب عثمان باشا تنكر لهما وأظهر جفوة وإيحـاشا ، وأوقفهما ببابه زمانا مديدا ، ولم يسرع بالإذن لهما أنفة وتبعيدا ، وكان المشار اليه شديد الراس ، صعب المراس ، يعطس بأنف

شامخ ، ويطاول بترفعه على الاطواد الشوامخ ، لم يزل دأبه شدة الإعجاب، ولم يبرح عليه من الزهو والتيه رداء وجلباب ، مع كرم نفس أبية ، وبذل يصغر في عينه أعظم عطية ، وشجاعة وإقدام وفروسية ، وزينة عظيمة في ملبسه ومركبه ،وترتيب انيق في ديوانه وموكبه،يملأ بذلك العيون والنواظر، ويعظم وقعه في القلوب والخواطر .

فلما أذن للجاووشين ووصلا اليه ، وعرضا ما أرسلا بسببه عليه ،وتلطفا في العبارة ، وأحسنا في لطف الاشارة ، كان جوابه : الذي أعطاه الوزارة أعطاني البكلربكية ،وكما انه سردار على من وصل اليه من العساكر المصرية، فأنا سردار على من وصل معي من العساكر السلطانية ، وليس من مقامي الوصول اليه ، ولا يليق بمثلي المثول بين يديه . فنصحه كل منهما بأنواع النصح المقبول ، فأبى إلا نفوراً ، وصمم على عدم القبـــول ، فعادا من عنده الى حضرة الوزير ، وأعـــادا له مـــا وقع من الجواب بالنقير والقطمير، فتحلم حضرة الوزير ، وأوسع له صدراً ، ومهد له فيما تفوه به عذراً ، وقال : كان علينا أن نقيم بتَعز وجهاتهـــا من يلمّ شعثها ويجمع شتاتها ، فليكن هو ذلك الذي نقيمه ، ويتم لنا باقامته ما نطلبه ونرومه ، فكيف وهو موسوم من قبل السلطنة بالبكلربكية ، وعنده الاقبال والهمه والحمية ، فليستمر على حاله في منصبه ، وليقم في تعز لحفظها بموكبه .

وشرع حضرة الوزير في أهبة السفر، وترتيب الجيش والعسكر ، والتوجه إلى قتال المطهّر ، فما شعر إلا وقد نصب عثمان باشا وطاقه في البر ، وضرب مخيمه في مقابـــله مخيم الوزير ، وزلف بموكبه إلى العسكر ، فرأى حضرة الوزير ان هذا العناد يؤدي إلى اختلال ، وربما يؤدي إلى ما لا خير فيه من الجدال ، ويتفرق العسكر عند تراكم هذه الأحوال ، إذ لا يصلح أسدان في غاب ، ولا سيفان صارمان في قراب ، ويسع الحصير الصغير مائة فقير ، ولا يسع ملكين اقليم واسع الرحاب ، ولا يزال الشقاق يحرك من ضغن القلوب عناداً وعَنَتاً ، و (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدَتا) .

الفصل الحادي عشر

في ذكر عزل حضرة الوزير لعثمان باشا واعادة حسن باشا عوضه بكلربكيا في اليمن

لما ضرب عثمان باشا وطاقه في مقابلة وطاق حضرة الوزير ، انضم اليه مماليكه وجماعته ، واتسع مخيمه وكبرت محطته ، وانضاف اليـــه بعض العسكر ، والتمت عليه جماعة من العربان ، وصار عثمان باشا يهدد من لا يأتيه من عسكر اليمن ، وقبائل العرب ، وأظهر السخط على أهل القاهرية ، الذين أعطاهم حضرة الوزير الأمان ، حيث لم يكن صلحهم على يديه ، ولم يسلموا مفاتيح القلعة اليه ، وصار يقول : ان الوزير سيعرد إلى مصر ، وما يقيم عنكم بكلربكيا عليكم أحد غيري ، وأنا أذيقكم بعد ذلك وَبال مـــا صنعتموه ، وجزاء مـــا قدّمتموه، فيخاف العربان ، وبعض العساكر المقيمين باليمن ، فيأتون سراً إلى حضرة الوزير ، ويشكون حالهم عليه ، فيطمّن خاطرهم ، ويسليهم ، ويعيدهم من عنده مجبورين مسرورين ، فلم يزدد هذا الحال إلا فظاعة ، وحصل بسبب ذلك أنواع الفتور والشناعة ، وبلغ الأعداء فسرُّوا بذلـــك غاية السرور ، وفرحوا بتفريق كلمة المسلمين ، وأظهروا بذلك كال الابتهاج والحبور، وكاد الأمر أن يختل ، وشرع في الانعقاد بعدما تسهّل وانحلّ ، وخشي حضرة الوزير أن يقع له ما وقع في غزوة (مالطة) الواقعة في سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة .

وملخصها : ان المرحوم المقدس السلطان سليمان خان ، سقى الله عهده صوب الرحمة والرضوان ، وحف رياض تربته بالروح والريحان ، أرسل عمارة حافلة تفوق مائة غراب ، مشحونة بآلات الحرب ، مملوءة بأبطال الرجال ، لفتح بلاد (مالطة) واستخلاصها من النصارى ، وجعل سردار العساكر (درغود باشا) وأرسل معهم وزيره مصطفى باشا ابن اسفنـــديار ، فوقع بينهما من الاختلاف ، وهم في بلاد العدو ، ما أدى الحال الى افتراق الكلمة ، فانتصرت النصارى بسبب ذلك على المسلمين ، ووجدوا فرصة أهلكوا فيها أمة من العسكر ، واستشهد (درغود باشا) ، وانكسر الباقون لعدم الوفاق ، ومجانبة الاتفاق ، وعادوا إلى اسطنبول مكسورين ، وذهب في ذلك الحرب من الاموال والخزائن ، والانفس والارواح ، مـــا لا يعد ولا يحصى ، وكانت تلك الهزيمة ثلمة في الاسلام ، ووبالا وغصة في صدر المرحوم المقدس ، الى أن توفي رحمه الله تعالى ، ومات المرحوم وصدره الشريف غاص بهذه الغصة ، وقلبه منكسر لوقوع هذه القصة ، بل صار قلب كل مسلم لذلك مجروحا مكسوراً (وكان أمر الله قدَرَاً مقدورا) ، ولو عاش رحمه الله تعالى لما ترك أهل مالطة ، وملكهم يختال في برود غروره ، ولغزاهم بنفسه وجنوده ، ولبذل في استئصالهم كل مقدوره ، وستنالهم السيوف العثمانية ، وسوف يؤخذون ولو بعد حين ، بسيوف آل عثمان الاساطين ، إن شاء الله تعالى .

عدنا الى ما كنا فيه : فلما رأى حضرة الوزير امتداد الحال ، وان مآل ذلك الى الاختلال والانحلال ، دبر برأيه الصائب ، وأمعن بفكره الدقيق الثاقب ، في تدارك ذلك قبل تمكنه ، ومعالجة هـــذا الخطر بأقرب علاج وأحسنه ، وبات يفكر في ذلك وهو ساهر ، ويروض خاطره الشريف ، ويستوعب ما يلوح له من الخواطر ، والعيون قد اكتحلت بكحل المنام ، إلا عيون الزهر فانها غير نيام ، فسبحان الحي الذي لا ينام .

فلما ركب أبيض الصباح ، أشهبه الوضاح ، وطرد أدهم الليل بعد طول الجماح ، ونادى منادي النجاح : حيا على الفلاح ، ونشر الصبح لواءه فطار غراب الليل مُسْوَدّ الجناح ، نصب حضرة الوزير ديوانه ، وشرف بجلوسه الشريف ايوانه ، واجتمعت الامراء لديه ، واصطفت العساكر المنصورة بين يديه ، ووقفت أعوان النصر مذعنين اليه ، فأخرج من خزائنه العامرة كيساً من الحلل الفاخرة ، فيه مرسوم شريف سلطاني ، وحكم كريم خاقاني،وسلمه الى موقع الدست ، وأمر أن يقرأه على الجمع الغفير ، ويرفع بقراءته صوته الجهير ، ويستوفي قراءته الى الآخر ، ويتأنى فيه حتى يتفهمه كل حاضر ، فامتثل أمره الكريم ، وقرأه حرفاً حرفاً في ذلك الجمع العظيم .

وكان محصل ذلك المرسوم الشريف ، والحكم السلطاني المنيف ، ان الحضرة الشريفة السلطانية ، خلد الله تعالى ظلال سلطنتها على البرية ، فوضت سائر أمور اليمن وأحوالها ، وتهائمها ، وجبالها ، إلى حضرة الوزير المعظم ، والمشير المفخم ، نظـام العالم ، مدبر أمور الجمهور بالرأي الصائب ، متمم مصالح الأنام بالفكر الثاقب ، وزير الدولة الشريفة العثمانية ، سنان باشا ، خُلدت وزارته ، وأيدت إيالته ، واقامته وكيلاً عن ذاتهـا الشريفة ، وسرداراً على العساكر المنصورة المنيفة ، يعزل من شاء ، ويولي من شاء ، ويعطي من شاء ، ويرقي من شاء ، لا يشاركه في ذلك أحد من الآحاد ، ولا يدخل معه في أموره فرد من الأفراد ، وان حكمه من حكم السلطنة الشريفة، وأمره من أمرها ، والحذر كل الحذر من مخالفته ومجانفته ، ومن حذّر فقد أنذَر ، والعلامة الشريفة أعلاه ، للاعتماد على العمـل بفحواه ، وهو من الأحكام التي كتبت بأمر السلطنة الشريفة باسطنبول ، لا من العلامات التي أعطيت للوزير ، ليكتب فيها ما أراد عند الاحتياج إلى ذلك .

فلما استوفى الموقّع قراءة هذا الحكم الشريف في الديوان، وعلم الحاضرون فحواه ، سأل الوزير من حضر مجلسه . فقال : من هو سرداركم ؟ فقالوا : أنت . فقال : هل يجب عليكم بمقتضى ذلـك امتثال ما آمر به ؟ قالوا :

نعم ! قال : هل لأحد مِمّن باليمن من بكلربكي أو أمير أو غيره أن يخالفني ؟ فقالوا : لا . فأشار إلى أحد أعيان السناجق السلطانية ، وهو أحمد بك ، وكان أمير الحج المصري ، وأحد الأمراء المأمورين بمحافظة مصر ، ثم أمر أن يتوجه مع العسكر ، ويقال له كوجك أحمد لقِصَر قامته ، فقال له حضرة الوزير : نحن لو أردنا عزل عثمان باشا كان لنا ذلك ، ولكن السلطان نصره الله تعالى قد عزله قبل الآن ، وعندنا حكم سلطاني كتب في البـــاب العالي بعزله ، وطلبه إلى الباب ، وما أخرنا ذلك الحكم إلا طمعاً في اعانته ، وتقوية للعسكر ، وتكثير السواد به ، فحيث لم يحصل منه غـــير الضرر للعسكر [وتفريق كلمتهم] ، لزم علينا اظهار ذلك وأمر باخراج حكم شريف سلطاني في كيس ممهور ، بمهر حضرة الوزير الأعظم ، محمد باشا خلد الله تعالى دولته ، وأيد وزارته ، عليه اسم عثمان باشا ، وسلمه إلى أحمد بك، وقال له : اذهب بهذا الحكم إلى عثمان باشا ، واعطه له ، وقل له : ان كان مطيعاً لأمر السلطان نصره الله تعالى ، فليتوجه الآن ، ولا يقيم ساعـة ، ويترك جميع العساكر السلطانية ، ولا يأخذ معه أحدا منهم . فمضى أحمـد بك بالحكم اليه ، وسلمه بيده ، فامتثـــل الأمر الشريف في الحال ، وشد وِطاقه ، وأظهر الفرح والسرور بذلك ، وعزم إلى زبيد ، ليتوجه منها إلى مكة، ثم إلى الأبواب السلطانية ، وعاد أحمد بك إلى حضرة الوزير، وأخبره بامتثال الأمر واطاعته وانه ارتحل ، وتمزق خدامُه كل ممزق ، فطلب حضرة الوزير البكلربكي السابق ، وهو حسن باشا ، وألبسه قفطاناً ، وأعاده إلى منصبه ، عوضاً عن عثمان باشا . وكانت الرعايا نافرة من حسن باشا ، حيث قرّب في أيام دولته (عوانياً) يقال له البسكري ، وولاه قضاء زبيد ، أيام الفتنة ، ومديده إلى أموال الرعية ، وصادرهم ، ولكن على يد المذكور بالظلم والجور ، لأن الضرورة حملته على ذلك ، للصرف على العسكر ، ولكن ما جعله حضرة الوزير بكلربكيـا إلا صورة كالصفر الحافظ للمَرْتبة ، ولم يمكنه من التصرف ، لمّا عرف أحواله وطباعه ، واستجاب الله تعالى دعاء

المظلومين، في حق البسكري ، فانقصف عود شبابه،وسيق إلى الحكم العدل، ليكون بين يديه حاصلُ جوابه ، ولا يفلح الظالمون (وسيَعلم الذين ظَلموا أيّ مُنقلب ينقلبون) وقبل أن يهلك بالفوت ، ويفترسه سبع الموت ، كان حسن باشا قد ندم على تقديمه وتقريبه ، وقبض عليه وحبسه ، وصادره وبالغ في تأديبه ، ورد من مظالمه ما قدر عليه ، وتدارك بعض ما قدّسه بين يديه ، وأضر ما على الرعية قرب الأشرار ، من الحكام والأخيار ، ويعود ضرره على الملك ، وعلى نفس الحكام ، ويخرب المملكة بعد العمار ، ولهم في الدنيا البوار ، وخراب الديار ، وفي الآخرة عذاب النار وبئس القرار .

اذا كنت في قوم فصاحب خيارَهم ولا تصحب الأردى فتردَى مع الرّدى
عنِ المرء لا تسأل وسلْ عن قرينِه فكلٌ قرين بالمقارِن يَقتدي

وكثيراً ما يستشهد ظرفاء النُّحاة بهذه الأبيات :

عليكَ بأرباب الصدور فمَن غدا مضافاً لأرباب الصدور تصدّرا
واياك أن ترضى صحابةَ ناقص فتنحط قدراً عن عُلاك وتُحقرا
فرَفعُ أبو من ثم خفض مزمل تبـــين قولاً مغرياً ومُحذرا

وقيل :

وجالس إذا جالستَ حُرّاً فإنما يَزينُ ، ويُزرى بالفتى قرناؤه

وقيل أيضاً :

طبع الفتى يَسرق من طبع مَن يصحبه ، فانظر لمنْ تصحبُ

وكان حضرة الوزير بلغه بعض الأوضاع الردية ، عند اختلال الممالك اليمنية ، في أيام حسن باشا ، فلما قرر اعادته الى البكلربكية طلبه ، وبالغ في نصحه، وبيّن له ما فيه خسارته من ربحه ، وقال له : انت تربية السراى الشريف السلطاني ، وزبدة عبيد الباب الخاقاني ، وغيرك من عبيد السلطنة تربية الأمراء من بعيد ، لم يتشرفوا بما فزت به من القرب الى ذلك المحل السعيد ، كنت بمرأى من حضرة السلطان ومسمع ، تشاهد شموس أسرة

وجهه المشرق حين تطلع ، ليس لغيرك هذه المزية ، ولا بلغ كل احد الى هذه المرتبة العلية ، فقليل خطائك كثير ، وصغير عيبك قبيح كبير ، فالواجب عليك ان تتصف بالكمال ومن أكملها : لزوم جادة الاعتدال ، والتبري من الحيف والجور ، والفكر في العاقبة وبعد الغور ، والتنزه عن الظلم والعدوان ، والبعد عن التعدي على شيء من الحيوان ، فضلاً عن بني نوع الانسان ، وأكثر عليه تلاوة آيات هذه النصائح ، وعدد عليه ما في مخالفة ذلك من الشنايع والفضائح ، ولقد اسمع من كان ذا اذن واعية ، وشنف الاسماع بدرر النصائح الغالية ، ولعلها تكون كافية شافية ، ناجحه وافية ، ان شاء الله تعالى .

وأما عثمان باشا فبمجرد ما غاب عن محطة الوزير تأنى في السير وتثبط في المسير ، والرسل من حضرة الوزير تترى اليه ، تحثه في العزم وتحض عليه ، ولا يزيده ذلك الا توانيا ، ولا يؤثر فيه الحث الا تأنيا وتراخيا ، إلى أن مكث الزمان المديد ، ثم وصل إلى زبيد ، فلم يمكن من الدخول اليها ، وضرب مخيمه خارج زبيد حواليها ، وصار يرغي ويزبد ، ويغور في الأفكار وينجد ، والرسل تتكرر بالوصول اليه ، وترد مكاتبات حضرة الوزير عليه ، فيها الأمر بالارتحال ، والتخويف من العاقبة والمآل ، وهو لا يلتفت الى ذلك .

وكان قد أرسل جاووش باشا الى الباب العالي ، لما افتتح تعز ثم اتبعه بجاووش آخر ، لما عزله حضرة الوزير ، وصار ينتظر ما يرد عليه الباب العالي ، ويسوف الرسل في الارتحال ، الى ان يصل اليه الجواب ، فلطول المسافة لزم مكثه ، وزيادة تربصه ، ولبثه ، فجاء اليه الجواب ، يطلبه الى الباب ، وبولاية بهرام باشا ابن مصطفى باشا بكلربكية اليمن فتعين على عثمان باشا حينئذ امتثال الاوامر السلطانية ، وتوجه الى الأبواب العلية ، فأخذ في أهبة السفر من البر ، وحمل اثقاله في الجلاب ، وأرسلها من البحر ، وشرع في الارتحال ، على ظهور الخيال والبغال والهجن والجمال ، بما خف من الأحمال.

وتوجه من زبيد الى جازان ، ثم الى مكة .

فلما وصل الى السعدية ، خرج لملاقاته مولانا شيخ الاسلام ، ناظر المسجد الحرام ، السيد القاضي حسين المالكي ، ومعه مولانا السيد حسين بن مولانا السيد حسن شريف مكة ، أيده الله تعالى وادام عزه ، ومعه عدة فرسان ، من اشراف بني حسن ، منهم السيد عرار بن عجل النموي ، وعدة أفراس من الترك نحو مائة فارس، الى منزل ملكان ، يوم الخميس ثالث رمضان سنة سبع وسبعين وتسعمائة ، فوجدوا وطاق عثمان باشا منصوباً ، وهو على وصول ، فاستمروا على خيلهم إلى أن لاقوه ، وساروا معه الى مخيمه ، واستأنس بهم ، وشكى ما لاقى في اليمن ، من الاتعاب والمحن ، وحمد الله تعالى على خلاصه ، واخلع عليهم خلعاً عظيما من السراسر ،والشيب ،وأقام يومه هناك ثم ارتحل ليلا.

ودخل مكة ضحى يوم الجمعة رابع رمضان ، ودخل في موكب عظيم ، وزينة عظيمة ، وكان خيله نحو المائتين، وجماله نحو الاربعمائة ،إلا انها منقطعة عجزت وضعفت ودخل من أسفل مكة وخرج من أعلاها الي وطاقه ، وكان منصوبا بالمعلاة ، ثم اختار النزول في (مدرسة قايتباى) فاخليت له ، وكان يتردد اليها، ويتصدق كثيراً على الفقراء ، وأقام بمكة الى ان عيد بها ، وعمل سماطا عظيما في الحسينية بالمعلاة ، ووردت عليه الأعيان والأكابر أفواجا أفواجا .

وسافر يوم السبت ثامن شوال الى المدينة الشريفة ، وزار النبي ﷺ ، وتصدق بها كثيراً ،أظنه في بركة تلك الصدقات فان الصدقات تدفع البليات.

ثم عاد الى الينبع ، وتوجه الى مصر ، ثم الى الباب العالي ، وبذل هدايا عظيمة وسلم من العقاب ، واستمر ملازما في الأبواب ، طالبا حسن المآب .



الفصل الثاني عشر

في ذكر أحوال حضرة الوزير بعد انفصال عثمان باشا عن حضرته

لما انتقل عثمان باشا الى السفر عن المخيم المنصور ، وانفرد حضرة الوزير في معسكره، واستقل بالأمور ، واندفع عنه خشية تفريق الكلمة ، وعرفت العسكر مرجعها في الأمور المعظمة ، شرع حضرة الوزير في تدبير المسير ، وجمع أمراء دولته يستعرض اراءهم ويستشير ، فاجمع اراؤهم علي البروز من تعز ، وضرب الوطاق المنصور في موضع يقال له القاعدة ، وهي على مرحلتين من تعز، فقدم أمامه حسن باشا بجميع عسكر اليمن، وعين نوبتجية في تعز ، وفي القاهرية ، وتوجه بمن معه من العسكر المنصور ، والجنود التي تموج موج البحور ، وهي تدك الأرض دكاً ، وتصك بعزمها قلل الجبال صكاً، من كل بطل يزهق عنده الباطل ، وباسل يهتز لخوفه العدو اذا هـز أطراف الذوابل ارتحل عن تعز، وقد جند الجنود والكتايب، وعقد الألوية والذوائب ، وزم الاحمال والركايب ، وجنب أمامه الخيول الجنائب ، واستمر الى ان وصل الى القاعدة ، في الرحلة الثانية ، وقد نصبت خيامه العالية ، وفرشت قبابه السامية ، وزينوها ورتبوها ، وسحبوا المدافع والمكاحل ونصبوها ، وكان وصوله اليها من تعز يوم السبت ، لثلاث بقين من ذي العقدة ، سنة ست وسبعين وتسعمائة ، وأقام بها أياما ، ليختار طريقاً يسلك فيها الى صنعاء وأخذ الزيدية في سد الطرقات وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، فجعلوا

بعضها خاضة بتسليط الانهار ، وبعضها وحلاً بالمياه الجارية بالأراضي الرخوة من تلك الديار ، وسدوا بعض الشعاب بالصخور الكبار، ودحرجوا الى بعض المسالك عظيم الأحجار ، وأخلوا تلك المسافة من القرى والخطار ، وتركوها قاعا صفصفا ، ومحاجر مملوءة بالصفا، خالية من الصفاء، وهل يرد السيل العرم نسج العناكب ، أو يوقف الخميس العرمرم نفش اذناب الثعالب والأرانب .

فأقام حضرة الوزير في القاعدة ، وهو يسبر الطرقات ، وتعرض عليه المسالك والمسافات ، فتحرر عنده ثلاث طرقــات واضحات ، يمكن السلوك فيها إلى تلك الجهات :

الطريق الأول : نقيل أحمر ، وهو فج بين جبال شواهق ، لا يطرق اليه لصعوبته طارق ، ولا يسمع فيه ناعق أو ناهق ، ذو هبوط وصعود ، وتهايم ونجود ، لا يأويه إلا القرود ، ولا يألفه غير الوحوش والأسود ، يصعب فيه سلوك المدافع والمكاحل ، ويثقل حملها فيه على الأعناق والكواهل ،فهو وإن كان قريباً ، لكنه لكثرة متاعبه بعيد ، وحيث كان ذلك الفج صعباً شديداً فاقتحامه غير سديد .

الطريق الثانية : وادي سحبان تلتوي التواء الثعبان ، ويمج على سالكه من آفات مهالكه سموم الأفعوان ، كثير المخاضات والأوحال ، عسير سلوك الأحمال والأثقال ، يخوض فيها الفرس الى البطان والركاب ،في أثنائها هضاب تلامس ذروة السحاب ، وعقاب يقاسي سالكها العقاب،وثنايا ليست بالعِذاب بَل العَذاب ، وهذه الطريق مثل الأولى في القرب ، وأكثر منها في الأتعاب، فيتعين العدول عنها والاجتناب .

الطريق الثالث : تسمى عندهم مَيثَم ، أظنها بالمثلثة من وثم أي دق ، يقال : خف ميثم أي شديد الوطء ، يثم الأرض ، أي يدقها ، وهي طريق مستطيلة ، فيها وعور وسهولة ، يخف على العسكر سلوكهـــا وإن طالت ، وتسلك فيها المدافع وإن بعدت واستطالت ، ومع ذلك كانت سالمة من توعير

الزيدية لها بدحرجة الاشجار ، وسدّ مسالكها بتقليب الصخار ، من ذرى الأطواد الكبار ، ولم يسلطوا عليهـــا لتوحيلها مياهَ الأنهار ، ولم يجعلوها مخاضات يتوقف عن خوضها العسكر الجرار ، فانهم استبعدوا أن يختاروا تلك الطريق ، وأن يعمدوا إلى ذلك المكان السحيق .

فصمم حضرة الوزير على التوجه من ميثم ، وتم بذلك على أعـــداء الدين ما تمّ ، ومن جملة سعد حضرة الوزير وفأله الحسن ، وورود البشير اليه بفتح عدن ، فتيمّن بذلك المكان،وظهرسرور المسلمين وزالت الأكدار والأحزان، والله المستعان وعليه التكلان .



الفصل الثالث عشر

في ذكر وصول بشارة فتح عدن ، وخمود ما توقد بها من نيران الفتن

لما جهز حضرة الوزير لأخذ عدن من البحر ، الأمير خير الدين القبطان ، وأخاه الامير سنان ، ومن البر الامير مامي ، مع جمع من الفرسان،وطوائف من الشجعان ، بقي خــــاطره العاطر ، متعلقاً بتلك العساكر ، وصار قلبه الشريف مشغولا بسماع أخبارهم من كل وارد وصادر .

وكان قاسم بن شويع مولـّى في عدن من قبل مطهر الأعرج، فأظهر برأيه المعوج ، شعار الزيدية وافتخر بذلك وتبهرج ، وخرج من الطريق المستقيم الى العَوَج ، فكرهته أهل عدن لأنهم شافعيون ، ثابتون على الكتــــاب والسنة والسنة سُنـّيون ، وشرع في بناء مدرسة باسم مُطَهّر ، يدرس فيها بعض الزيدية ذلك المذهب المنكر ، وكان عنده من الجبالية الزيدية الف نفر ،منهم أربعمائة حَرّاب ، وستمائة بندقي ، ومع ذلك لم يطمئن بذلك الجمع ، وعرف انه مأخوذ ، فالتجأ إلى الفرنج ، واستدعاهم إلى عدن ، فوصل منهم غراب صغير ، فيه نحو عشرين إفرنجي ، ظن ان ذلك يسعده ويُنجي ، فأطلعهم إلى القلعة ، وأراهم ما فيها من العدد والآلات والمنعة ، وأعطاهم المدافع العظام ، ووافقهم على أن يعطيهم جهة البحر فيحمون البلد من الأروام ، ويكون البر

للزيدية وطائفتهم ، وجهة البحر للنصارى وشيعتهم ، ووافقــه الإفرنج على ذلك ، وتوجهوا ليأتوه بعسكر الإفرنج من (كُوَه) وأرسل يُعَرِّف مطهّرا بما فعل ، فاستحسن رأيه ، وشكره على ذلك وأكرمـــه ، وأعلى مقامه ، وعرف له حسن تدبيره في ذلك الرأي الذي بقي وصمة عليه وعلى ذويه إلى يوم القيامة ، خذل الله تعالى قاسم بن شويع ، وردّ كيده في نحره ، وقلب عليه وعلى عسكره فساد فكره ، وأخذه الله تعالى أخذ عزيز مقتدر ،وأذاقه في الدنيا الهوان ، وفي الآخرة النكال ، فليعتبر بذلك كل معتبر .

فكان من قضاء الله وقدره أن خير الدين بك القبطان سبق إلى عدن ، فلما أشرف عليها رأى على بعد ، في وسط البحر عشرين شراعـــاً لعشرين غراباً من أغربة الافرنج ، قاصدين عدن ، فلما تحقق القبطان ذلك ، توجه بأغربته اليهم وكانت اثني عشر غراباً ، ففهم الفرنج أن هذه أغربة القبطان، وكانوا قد علموا خبره ، فولوا هاربين ، وساق خلفهم يوماً كاملاً ، ففاتوه ، وخاف أن يتجوّن في البحر فيفوته أخذ عدن ، فكر راجعاً إلى عدن ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وهرب نصارى الفرتقال ، وأبقوا للزيديين الوبال والنكال ، وذلك من عجائب لطف الله بالمؤمنين ، وكمال كرمـــه بعامة المسلمين ، فلو سبق الفرتقال اللعين ، ودخلوا حصن عدن الحصين ، لأعز الله الكفر ، وأذل الدين ، ويأبى الله إلا نصرة الدين المتين ، ولله العز ولرسوله وللمؤمنين .

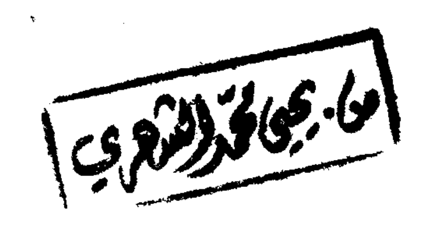
ذكر كيفية أخذ عدن من الزيديين ، وانهزامهم بسيوف المجاهدين

لما وصل الأمير خير الدين إلى ساحل عدن ، واستقر به ، ونزّل مدافعه وتطلب مواضع الحوالة على قلعة عدن ، من جانب البحر ، كان منتظراً وصول العسكر من البر ، لتتم الاحاطة على عدن ، ففاجأتهم السناجق ، ولاحت لهم الأرماح والبيارق ، وإذ بالأمير ميمي ، ممن وصل من البر ، بعسكر نظيف ، وفرسان تحمل أبطالاً من العسكر السلطاني الشريف ، فأحاطوا بعدن من كل جانب ، وصاروا يقربون من أسوار عدن في ظلام الغياهب ، يتطلبون موضعاً يمكن أن ينصب فيه سلم التسليق ، ومصعداً يمكن الصعود منه ويليق ، فاذا بأسوارها أبعد من الثريا ، وطراز حصونها يستعير من الجوزاء حُلياً ، كأن الغمامة لها عمامة ، والهلال من أظفر انملتها قلامة ، تناطح في العلو والشهوق ، قرني الشمس عند الشروق ، وتفوت الرعود والبروق ، فوت السُّها والعَيّوق ، لا ينفذ فيها سهام الحدثان ، ولا يطمث عذرة قلاعها إنس ولا جان ، ومن جملة الطائفين حول تلك القلاع ، والواقفين في يفاع تلك البِقاع ، الريس شكر كد ، خدا ، المرحوم صفر بك ، قبطان اليمن ، فيما سبق من الزمن ، وهو متفكر في خرق يتسع ولو كجُحر اليربوع ، أو نفق يتوصل منه إلى تلك الربوع ، فنام في فكرته ، وطرق النوم أجفان مقلته ، فرأى في منامه السيد الشريف ، العارف بالله تعالى الشيخ أبا بكر العيدروس ، عليه رحمة الملك القدوس ، وهو من الأولياء ببلاد اليمن ، ومستقرُّه في عدن ، مشهور بالكرامات الظاهرة ، والبركات الزاهية الباهرة ، كأنه أخذ بيده وأتى به إلى قلعة من قلاع عدن ، يقال لها (شمسان) ليس لها نظير في العلو إلا القمران ، وأراه مسلقاً وقال

له : اطلع من ههنا ، تبلغ ما أردت من المنى والهنا . فاستيقظ شكر ، وشكر هذا المنام ، وسعي راقياً من المنام ، وسعي راقياً من المحل الذي أشار اليه ذلك الهام ، واصتحب معه من الشجعان كلّ مقدام ، وصعد بسلم التسليق والناس نيام ، ووجد في (شمسان) ثلاثة من العربان ، قفّـــل النوم اجفان عيونهم ، وضرب الوسن آذانهم وجفونهم ، فصاروا باستيـلاء السُّبات ، من عداد أجساد الأموات ، فما استيقظوا الا وأخذتهم السيوف ، ونالتهم الحتوف ، وصرفتهم الصروف، وتكامل الرجال ، وتصاعدت الابطال ونصب السنجق السلطاني ، ورفع اللواء المنصور الخاقاني ، وكبر الجيش المؤيد العثماني ، وطلع شمس الفتح من ناحية (شمسان) ، وحل باعداء الدين الخزي والخذلان ، وفزع قاسم بن شويع الى حصانه ، وجَال مع عصبته في ميدانه وقاتل مكانه بحسب إمكانه ، واذا بالفتح قد ترادف ايضاً من جانب البحر ، فإن الامير خير الدين بجميع عسكره من جانب البحر ، والامير مَمى من جانب البر ، الهموا ان يهجموا على عدن ، من جميع نواحيها ، الهاما من الله تعالى ، وصمموا وعزموا وحزموا وجزموا ، وكان بمساعدة إلهية ، وتأييدات ربانية ، صادف فيها التقدير الرباني ، نصرة الجيش العثماني،ودخل الى عدن من كل صوب العسكر السلطاني ، بالغلبة والقهر ، من جانب البر والبحر ، فلما رأى ابن شويـع ذلك اخذته الحيرة والاضطراب،وتحصن في دار خراب، وصاح يطلب الامان ، ويستغيث فلا يغاث الا بالخيبة والحرمان ، وحل به الهوان ، والبؤس ، والتجأت عربانه الى تربة الشيـــخ العيدروس ، وطلبوا الأمان على مجرد النفوس ، فلما رأى الأمير خير الدين عجزهم عطف عليهم ، ومال بحنوه اليهم ، واعطاهم الأمان ، ورفع عنهم السيف والسنان، وجاؤوا اليه بقاسم بن شويـع وولده وذويه ، ومن ينتمي اليـــه ويرغب فيه ، واذا بشخص منهم (فداوي) كمين ، تقدم ليقبل يد الامير خير الدين ، فضربه بخنجر في بطنه ، فلم يصادف مقتله بطعنه ، الا انه جرح جراحة مثخنة ، وطعنه طعنة متقنة ، فتداركه خدامه وجذبوه، وهبروه بالسيوف وسحبوه،

وتقدم الامير ميمى وقطع رأس قاسم بن شويـع لاتهامه بهذه الخيانة ، واراد قتل ولده وجميـع اتباعه فمنعه الامير خير الدين عن ذلك ، وأمر بحبسهم ، وان لا يقتل احد من عسكر الزيديين ، وان يوضعوا في الأغرَبة ، وان يستخدموا في المقاذيف ، واستمر يعالج نفسه الى ان برىء باذن الله تعالى ، وكان لا يخلو موضع في بدنه من جراحة لكثرة حروبه مع النصارى وأسر عندهم مرارا ، وهو يخلص كل مرة .

وكان فتح عدن هذه النوبة في يوم السبت المبارك ، لليلتين بقيتا من شهر ذي القعدة الحرام ، سنة ست وسبعين وتسعمائة ، وارسلو المبشر الى حضرة الوزير ، وهو في منزلة القاعدة ، يبشرونه بفتح عدن ، وجهزوا معه ولدقاسم بن شويـع ، ورأس قاسم ، ورؤوس اعيان جماعته المقتولين ، بسيوف السلطنة القاهرة ومن معهم من أساراهم ، فوصل اليه الخبر السارّ ، وهو في غاية الترقب والانتظار ، وكان وصول خبر هذا الفتح المبارك الى حضرة الوزير المعظم ، في غرة شهر ذي الحجة الحرام ، وذلك بعد ثلاثة أيام ؛ من وقوع هذه الحادثة ، ثم ترادفت اليه وصول الاسارى والرؤوس ، ففرحت العسكر بذلك فرحـاً عظيما ، وزينوا لذلك بلد زبيد وتعز وسائر الممالك السلطانية ، وقوي جأش العسكر المنصور ، وانخذل العدو المخذول المكسور ، وساعد المقدور ، ودام لحضرة الوزير ومن معه الفرح والسرور ، والابتهاج والحبـور ، والحمد لله الكريم الشكور ، العزيز الغفور .



الفصل الرابع عشر

في ذكر تعيين حضرة الوزير، لنيابة عدن، الامير حسن، وبعض العسكر، وطلب الامير مامي، والامير خـــير الدين، وباقي العسكر الى عنده، وارسال خبر البشارة الى الباب العالي

لما قر عين حضرة الوزير بهذا الفتح والتأييد، وقر عين المسلمين بما أنعم الله به عليهم من النصر المَشيد، تعين عَرْضُ ذلك على الابواب السلطـــانية، والأعتاب الشريفة العثمانية، فإن خواطر السلطنة الشريـــفة كانت في غاية التوجه والاهتمام، ولحضرته الشريفة رغبة عظيمة الى ذلك وميل تام، وكان ذلك خلاصة المقصود من إرسال هذا العسكر المنصور، ولُبُّ المراد من بذل هذه الخزائن على الوجه المذكور، فجهز لذلك من جاويشية الباب العالي علي جاووش، وعلى يـــده مكاتبات، إلى من يمر عليه من حكام البلاد، يبشرهم بحصول المراد، ليفرح المؤمنون بنصر الله، ويضعوا بين يـــدي الله تعالى على الارض لأداء الشكر حرّ الوجوه والجباه؛ فوصل الينا علي جاووش، بمكة في أواسط محرم الحرام، سنة سبع وسبعين وتسعمائة، وأخلع عليه سيدنا ومولانا السيد الشريف، أدام الله تعالى عزه الوريف، وأمر بتزيين الحرمين الشريفين، لذلك، وفرح أهل الحرمين فرحاً عظيما، وكذلك سائر أهل الممالك، فزيّنت البلاد سبعة أيام، ولله الحمد على هذا اللطف والإنعام.

ثم عَيَّنَ حضرة الوزير إيالة عدن ، ولضبطها وحفظها على الوجه الحسن، الأميرَ المعظم ، والليث المكرم ، والشجاع المفخم ، ولد اخته الامير حسين وعقد له لواء شريفاً سلطانياً ، وعلماً منيفاً خاقانياً ، وكتب معه نحو المائتين من العسكر ، ورُقـي جميع العسكر الذين فتحوا عدن ، وأنعم عليهم بأنواع اللطف والمنن ، واستدعاهم الى حضرته ، وشملهم بحسن عنايته ومرحمته ، وولى قاضياً بمنشور سلطاني في عدن ، وأمره باجراء الاوامر الشرعية على الوجه الامكن الاحسن ، فتوجهوا إلى تلك البلاد ، وبلغوا فيهـــا المراد ، وجعلوا مدرسة مطهر سباطة للقاذورات ، وكناسة تلقى فيها النجاسات، وما كملت بعد ، ولا قام جدرانها ، ولم تستقم حيطانها وأركانها .

والعجب ان حضرة الشيخ الكاشف ،المسلك العارف ، السيد العيدروس ، نفع الله به ، وبأسلافه الكرام ، وأدخلنا في زمرتهم الى دار السلام ، مَرَّ في عدن بالمدرسة هذه وقاسم بن شويـع يحفر اساسها ، فقال للشيخ : كيف ترى هذه المدرسة يا شيخ ؟! فقال : تؤخذ إذا وصلت الى الركبة. فما بلغت الى ركبة الواقف حتى صارت من المزابل ، وهكذا أساس كل باطل ، وما مكن الله تعالى للباطل أساساً ولا عروقاً (انَّ الباطل كان زهوقا) .



الفصل الخامس عشر

في ذكر توجه حضرة الوزير مع العسكر المنصور من طريق ميثم الى صنعاء

كانت الزيدية تظن ان حضرة الوزير يختار سلوك طريق نقيل أحمر ، أو طريق وادي سحبان ، لقربهما إلى صنعاء ، وفكروا أن العسكر المنصور إذا صار وسط شعاب تلك الجبال ، سدوا المضيق الذي أمامه ، والمضيق الذي خلفه ، وتسلطوا على العسكر من قلل الجبال، برمي الحجار والصخار ، فلا يمكنهم أن يجولوا بخيلهم ، ولا يُعملوا المدافع والبنادق ، فيستأصلونهم على هذا الوجه ، كما فعلوا بالمرحوم مراد باشا في وادي خبان ، وصاروا مستعدين لذلك بألوف مؤلفة من العربان ، أعدوهم في رؤوس الجبال كالغربان، فرد الله كيدهم في نحرهم ، وخاب فاسد رأيهم وفكرهم ، واختار حضرة الوزير طريق وادي ميثم ، وسلكه بذلك الخميس العرَمرَم ، والجيش الغطمطم، لأنه وادٍ للخيل فيه مجال ، وللأبطال فيه جولان وأعمال، تسلك فيه المدافع والمكاحل ، ويعمل فيه الراكب والراجل ، وهو وإن كان طويل المسافة ، فهو قليل الآفة والمخافة ، والسفر وإن طال فعمره قصير ، وإقدام الأقدام تطوي المسافات البعيدة طيّ الحصير ، وكان سلوك هذا الطريق رأياً سديدا من حضرة الوزير ، وفكراً ثاقبا لا يصل اليه رأي المشير والمستشير ، ولكن الله تعالى الهمه الصواب ، وعلمه في هذا الباب ما يعجز عنه أولو

الألباب ، فرحل حضرة الوزير من القاعدة يوم عرفة ، لتسع مضين من ذي الحجة ، وتبعه العسكر المنصور ، وزعق النفير فكان كيوم نفْخ الصُّور ، فنزلوا ضحى في محـــل يقال له العليق ، ينتظرون وصول المدافع الكبار ، وعُدَدها من البارود والأحجار ، فكانت الحجاج في يوم عرفة يضرعون إلى الله ، وحضرة الوزير مـــع ذلك العسكر الكبير متوجه الى الجهاد في سبيل الله .

ثم رحلوا فساروا طول نهارهم وليلهم، وسلكوا الطريق برجلهم وخيلهم، وشمروا عن ساق الجد أطراف ذيلهم ، وتمنطقوا بالحزم في حطهم وشيْلهم ، إلى أن أصبحوا في واد فسيح ، معتدل الهواء والريح ، واسع الاكناف ، متسع الأطراف ، فأقاموا فيه لعيد الأضحى ، وبكـّر كلٌ واحد إلى اقامة العيد بـه وأضحى ، واستكملت العساكر هنالك ، وحرسهم الله تعالى من الآفات والمهالك ، ثم رحلوا أول أيام التشريق ، وسلكوا جادة الطريق ، وكانت المدافع الكبار تعوقهم بعض التعويق ، فيتربصون إلى وصولها ، ويتوقفون حتى يشرفوا على حصولها ، فيحصل بسبب ذلك بعض المكث ، ويتعاقب لديهم الريث واللبث، إلي أن وصلوا إلى محل يقال له مسجد القاعة، فنزلوا حوله وحلوا ناديه وبقاعه، وذلك في منتصف ذي الحجة من آخر السنة المذكورة ، وتبركوا هناك بمزار يزار ، وتربة لصحابي من الأنصار ، وهو جابر بن عبد الله الانصاري رضي الله عنه ، وهو من أصحاب رسول الله ﷺ وله مناقب ومآثر ، وبركة ظاهرة وفيض ظاهر ، وله أخبار ينقلها الأكابر كابراً عن كابر ، قال : في (مروج الذهب) قدم جابر بن عبد الله الشام ، ووفد على معاوية فحجب عنه ، ثم أذن له ، فقال : يا معاوية أما سمعت النبي ﷺ يقول : « من حَجَبَ ذا فاقة وحاجة حجبه الله يوم فاقته وحاجته »؟! فغضب معاوية رضي الله عنه، وقال له : وأنت سمعته يقول : «إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض » أفلا صبرت ؟! قال في النهاية : الأثرة بفتح الهمزة والثاء المثلثة الاسم من أثر يؤثر ، إيثاراً إذا أعطى ، يريد

انه يستأثر بعضكم على بعض ، في نصيبه من الغنيمة والفيء فقـــال جابر : ذكرتني يا معاوية ما أنسانيه الدهر ، فخرج من عنده ، وركب راحلته ، وعاد إلى المدينة ، فتذكره معاوية فأرسل اليه بستمائة دينار ذهباً ، فردّها وكتب اليه يقول :

واني لأختار القنوع على الغِنى	إذا اجتمعا ، والماء بالبارد المحض
وأقضي على نفسي إذا الأمر نابني	وفي الناس من يُقضى عليه ولا يقضي
وألبس أثواب الحياء وقد أرى	مكان الغنى ان لا أهين به عِرضي

قلت : وهذا ليس جابر بن عبد الله الانصاري ، أحد المكثرين عـــن رسول الله ﷺ ، وإن اشترك معه في اسمه واسم أبيه ونسبته ، فان ذلك معمّر عاش أربعا وتسعين سنة ، وتوفي سنة سبع وسبعين من الهجرة في أيام الحجاج ، وأوصى أن لا يصلي عليه الحجاج ، وهذا صحابي أنصاري آخر ، ذكره أبوالفتح اليعمري في السيرة النبوية فيمن ردّه النبي ﷺ يوم أحد لصغر سنّه ، قال : وليس هو الذي يروى عنه الحديث ، وفي ذيل ابن فتحون وبسنده إلى الامام ابي يوسف ، عن عثمان بن عبد الله بن يزيد بن حارثة ، عن عمه عمر بن يزيد ، عن حارثة عن أبيه قال : استصغر رسول الله ﷺ يوم أحد عبد الله بن عمر ، وزيد بن أرقم ، وأبا سعيد ، وجابر بن عبد الله ، وليس بالذي يروى عنه الحديث، وسعد بن حبنه حكاه الطبرى عن ابن سعد.



الفصل السادس عشر

في ذكر محاربة وقعت مع بعض طوائف العربان الفواجر ، وانهزامهم بين يدي أبطال العساكر

لما استقر استطراق العسكر المنصور من طريق مَيْثم ، وعدلوا عن طريق نقيل أحمر ، ووادي سَحْبان ، خاب سعى الزيديين فيما عملوا في ذلك المسلكين ، وذهب عملهم سدى فصاروا يتبعون العسكر المنصور من جانبيه ، من رؤوس الجبال ، ويترأون لهم مثل الخيال ، ترهيباً وتخويفاً .

فلما نزل العسكر المنصور بقرب مسجد القاعة واستقروا بذلك المقام ، وصاروا يلاحظون الأقوام من خلف وأمام ، وتراءت لهم بعض العربان كالغربان ، ورموا بنادق وصاحوا صياح الثعلبان ، يظنون انهم يرهبون بذلك عسكر السلطان ، ويتشكلون باشكال القردة ومردة الشيطان ، يكاد يفزع لذلك بعض الأطفال ، الأساورة الأبطال ، وانما تعدُّ الرجال تلك الحركات والأفعال نوعاً من الخبال وضرباً من الخيال ، فتربصت العساكر السلطانية ، وتصبرت عن المبادرة إلى القتال ، طمعاً في نزولهم إلى الوادي من قلل تلك الجبال ، فيتمكن الفارس من الجولان ، ويُمكّن عمل السيف والسنان ، في الضرب والطعان ، فلما نزل بعضهم إلى سفح الجبل ، ودلاهم الشيطان بحبل الغرور والحِيل ، وصارت الأعادي في بطن الوادي ، طارت

اليهم الخيول زرافات ووحدانـــاً ، وحملت عليهم أفراد من العسكر مشاة وركبانا ، فما ثبتت الزيدية لمحة الا وتفرقوا ، وذهبوا شذر مذر وتمزقوا ، ودُحرجت رؤوسهم ، وخمدت أنفاسهم ونفوسهم ، وانهزم من نجا منهم إلى قلل الجبال ، وتستروا بالصخار العظيمة في تلك المحال ، فصار لا يصل اليهم الخيّال ، ولا تنالهم المدافع والمكاحـل الطوال ، فعادت تلك العساكر إلى حضرة الوزير برؤوس القتلى ، ونثروها بين يديه فسحقا لها وخيبة وذُلاً ، وضربت طبول الأفراح ، ومرحت خيول المرح في ذلك المراح، وباتوا ليلتهم إلى الصباح ، ولاح لهم نجم السعادة من أفق الفلاح وأداروا من سلاف دم الأعداء كؤوس الاغتباق والاصطباح ، وتهيأوا للمسير عنـد انشقاق الصبح الصادق ، ونصب كل من الأمراء لواء الشريف السلطاني الذي هو في الخافقين بالنصر خافق ، وركبت العساكر والأبطال كل جواد سابق ، يطير بركابه إلى الهيجاء ويسابق .

ذكر افتراق الطريق من ميثم ، واختيار اطولها لسلوك الجيش المعظم

لما رحل العسكر المنصور ، في خدمة حضرة الوزير الدستور ، مقدار مرحلتين ، وقطعوا منزلتين ، نزلوا في ثامن عشر الحجة في واد فسيح ، يفوح فيه نشر الرَّنْد والشيح ، يسمى ذلك الوادي حقيقة وادي الميثم ، ويطلق ذلك الاسم على جميع الطريق مجازاً من باب اطلاق اسم الجزء على الكل ، ومنه تفترق الطريق إلى طريق كله مزارع ، بين جبلين مستطيلين ، وطريق بعيد فيه دورات ولفتات ، وينتهي الطريقان إلى (حصن التَّعْكر) وكان الطريق القريب كله أوحال وأطيان ، يغرق فيه الفرس إلى الركاب والبطان ، والبعير إلى قرب فخذه والماشي إلى نصف قامة الانسان ، وقد أطلقت الزيدية المياه في ذلك الطريق القريب لتزداد فيه الأوحال ، وترصدوا في قلل الجبال ، لأن يرموا على العسكر السلطاني بالأحجار والمقاليع من تلك الجبال ، ليحصل عليهم الوهن والانفعال ، ويعوقهم عن المجال في تلك المحال ، فاختار حضرة الوزير المعظم ، ورأى برأيه السديد أن يسلك بالعسكر من الطريق البعيد ، لخلوه من الأوحال ، وخلوصه من كثرة الجبال الطوال ، والقلاع العوال ، وامكان جولان الخيل فيه بالأبطال من الرجال ، فلما اختار حضرة الوزير سلوك هذا الطريق الطويل للمسير وسلك فيه مع ذلك الجيش الكبير ، وزمت الاحمال للترحال ، وزعق النفير وقد شق الفجر عموده ، وهزم جند الليل جيوش الصباح وجنوده ، ونثرت الانجم دراهمها لما بدت ألوية الصبح وبنوده ، حصل في ذلك الميدان ، تعقب من أهل الطغيان ، باؤوا فيه بالخزى والخسران ، ونصر الله تعالى جنود أهل الايمان ، على حزب الشيطان ، كما نذكره بأوضح بيان إن شاء الله الرحمن .

الفصل السابع عشر

في ذكر مقابلة ومقاتلة ومجالدة ، ومجادلة من الفئة الباطلة

كان من عادة الوزير المعظم في مسيره ارخاء العنان في الزام الجند بالتحفظ في المواضع التي لا خوف بها من العدو ، فيتقدم من أراد التقدم ، ويتأخر من أراد التأخر ، وتبقى بعض الاحمال في المنزل الأول الى أن تعود لها الجمال من المنزل وتحملها الى المحطة ، وانما يفعل ذلك رفقاً بالعسكر لطول الطريق ، وهلاك أكثر الجمال ، بطول الترحال ، وثقل الأحمال ، فلما رحلوا من هذا المنزل صبح يوم الجمعة ، لعشر ليال بقين من ذي الحجة سنة ست وسبعين وتسعمائة التفت حضرة الوزير المعظم فرأى المنزل الذي رحلوا منه فيه احمال كثيرة ، من البارود والنفط والزردخانة ، ورأى نحو مائتي فارس راجل من العسكر المنصور ، تخلفوا لحفظ تلك الاحمال ، وكان مع حضرة الوزير المعظم نحو خمسين فارساً ، فتوقف هو ومن معه عن المسير ، رفقاً بمن تخلف ، وقد سار جميع العسكر المنصور وزلف ، واذا قد تحدر من الجبل عربان كالجراد المنتشر ، وملؤوا الوادي بسحاب من الجيش منهمر ، يوازي سوادهم في التخمين عشرة آلاف مقاتل، ما بين فارس وراجل ، ومبندق ونابل ، دلاهم الشيطان بغرور ، فقصدوا من تخلف بالمنزل من العسكر المنصور ، فتحركت من الوزير المعظم غيرة الغضب ، واشتعل لاعج الحمية في جأشه والتهب ، وأراد أن يحمل بشرذمته القليلة ، على تلك الجيوش الهائلة الثقيلة ، فمنعه من

حوله من الأعيان ، والزموه بالثبات تحت سنجق السلطان وكان معهم ثلاث ضربزانات تخلفت عن المدافع الكبار ، فحشيت بالبارود ، واطلق فيها النار، ورمى به أولئك الفجار ، فأصاب ما أصاب من القوم الأشرار ، وحملت الفرسان على عسكر الشيطان ، وأديرت كؤوس الضرب والطعان في ذلك الميدان،ودارت رحى الحرب أى دوران،فطحنت العربان طحناً ، ودهكتهم بالسيوف والرماح ضرباً وطعناً ، واستمر القتال والجلاد ، والحرب والجهاد بغاية الجد والاجتهاد ، من شروق الشمس الى زوالها ، ومن أول النهار الى ان احرقت الشمس الوجوه باشتعالهـــا ، فكانما أورت الجحيم لورود أولئك الفجار نارها واوصلت بوصول أؤلئك الأشرار شرارها ، وأورت لهم من زند حصباء جهنم اوارها وكاد الباسل يجبن ، والباطل يحسن ، وحضرة الوزير قوي الجنان روى الايمـــان ، صاف يقينه ، واف اعتقاده ودينه ، وشاف نصحه ، كاف نجحه ، مسفر لعين الاسلام صبحه ، مسرف في قلب الملاحدة جرحه ، متوكل على ربه في نصرة دينه متوسل اليه في تأييده وتمكينه، بوجه كلمع البرق في ضيائه ، وصدر كمتن العضب في مضائه ، الى ان اشرق جبين النصر واسفر ، وولى الباطل وادبر ، وانهزمت جيوش الأباطيل ، واخذت البنادق ترميهم بحجارة من سجيل ، وهزم هذا العسكر القليل الوفا مؤلفة من ذلك الجيل ، وولوا ادبارهم هاربين الى الجبال والفلا ، وكم من فئة قليلة غلبة فئة كثيرة باذن الله .

وكان حضرة الوزير قبل أن تحمى حومة القتال ، أرسل جماعة من الرجال الابطال ، كمنوا ببنادقهم في الجبال ، كيلا تنسحب طائفة من اؤلئك العربان، فيلحقوا من تقدم من عساكر السلطان ، فتفجأهم الأعراب بالإرعاب، وتوقعهم في التخيل والاضطراب ، وكان ذلك رأياً سديداً ، وفكـراً حسناً سعيداً ، فان العربان لما انكسروا أرادوا أن يعودوا وأن يسلكوا من ذلك الجبل الى من تقدم من العسكر السلطاني ، فبادرهم الكمين بالبنادق ، فهربوا ثانياً ناكصين

على أعقابهم ، والسيوف نازلة على أرقابهم ، إلى أن قتل منهم من لا يحصى ، وسيق منهم الى الجحيم أعداد كالحصى ، ونصر الله الاسلام ، وارغم أنف الباطل بالرغام ، ولله الحمد على جزيل الانعام .

ذكر من استشهد في هذا الحرب

كان كدوك فرهاد الكاشف بمصر من الشجعان المعدودة ، والفرسان الذين اياديهم لم تزل الى الاعداء والاصدقاء ممدودة ، طالما باشر كل بؤس عبوس ، وقتل وقطع الرؤوس ، مشهور بالشجاعة والنجدة ، معروف بالبأس له والحدة ، قتَلَ في ذلك الميدان ، عدة من العربان ، واقدم على نقيب كبير من نقباء العُرْب ، وعممه بالسيف والضرب ، ونزل عن فرسه ليقطع رأسه ، فأصابته بندقة أخمدت أنفاسه ، فتوافق هو والنقيب في الحمام واتفقا،ولكنهما على طريقي الجنة والنار افترقا ، فارتوى فرهاد الشهيد بماء النعيم ، وصلي النقيب البليد بنار الجحيم ، فمضى فرهاد حميدا ، وشهد مقامه فيالجنة شهيدا، وعاش رغيداً ، وقضى سعيداً .

واستشهد نحو العشرة أنفار من العسكر ، ومضوا كرماء المحشر ، ندماء الكوثر ، حلفاء الذكر الجميل عظماء المفخر .

وأما من قتل بسيف الحق من جنود الفجار ، وسيقوا الى جهنم وبئس القرار ، فلا يدخلون تحت الحساب ، ولا يضبطهم دفتر ولا كتاب ، وهل يعتني احد بعدّ الكلاب أو الذئاب ، وهل يمكن حصر البعوض أو الذباب ، او يحصي حاسب عدد الرمل والحصى والتراب ؟! .

ذكر انعام حضرة الوزير على من حضر من العسكر والتوجه الى أخذ حصن التعكر

لما شاهد حضرة الوزير ما فعله هذا العسكر القليل ، من الإقدام والشجاعة والتهويل ، قوي قلبه بهم فقوى قلوبهم بمزيد الانعام ، وألان لهم القول وبسط لهم الكلام ، وعاملهم باللطف والاكرام ، فرقى جميع الحاضرين معه في ذلك المقام كل واحد عثمانيا في علوفته ، بالانعام العام ، غير ما وهب لاكابرهم واعيانهم ، وفرسانهم وشجعانهم ، من الخيول المسومة والسيوف المسقطة المطعمة ، والخلع الفاخرة المعظمة ، واقام بقية ذلك اليوم في ذلك المنزل ، واستراح هو ومن معه ، وارتووا من ذلك المنهل . وركبوا ظهر البيداء في ظلام الليل ، وانحدروا للمسير انحدار السيل ، ولحقوا بالعسكر المنصور السلطاني ، وادركوا الجيش المؤيد الخاقاني ، واقر الله بنصرتهم العيون ، وسكنت القلوب وحسنت في الله الظنون ، والله تعالى يقول في محكم كتابه المصون : (وان جندنا لهم الغالبون)

ثم ارتحل حضرة الوزير مع العسكر المنصور ، من المحل المذكور ، وساروا مرحلة الى ان ضرب وطاقه العالي ، ورواقه السامي المتعالي ، مع الامراء والاعالي ، في محل بين جبلة وحصن التعكر ، واقام هنالك لتدبير المماليك والعسكر ، وقد حفت ركائبه جنود النصر والاقبال ، وتطأطأت للثم تراب اقدامه جباه الاقيال ، واحدقت باطناب خيمه الكماة والابطال .



الفصل الثامن عشر

في اطاعة اهل جبلة وافتتاح حصن التعكر ؛ واستسلام اؤلئك القبائل ، واخذ قلعة بحرانة وهدمها بالمعاول

لما استقر مخيم الوزير المعظم فيما بين جبلة وحصن التعكر، انقسمت العربان قسمين : فبعضهم اختار طلب الامان والانقياد والاذعان ، واقبل على الوزير داخلا تحت اذيال لطفه ، واستمطر سحائب فضله وعطفه ، واتى بالرهائن الموثوقة ، واكد الايمان والعهود الوثيقة ، فقابله الوزير بالقبول ، وشمله بنظره الكريم اكرم شمول ، والبسه العمايم والتشاريف ، وخلع على كل واحد منهم بما يليق به من التشريف ، واعطاهم الامان على اولادهم وطمنهم على اموالهم وبلادهم، ونادى بين اؤلئك العربان بنداء الأمن والأمان، ومنع العساكر والجنود من الظلم والغشم على الرعية ، واقام من جانبه في الاسواق والطرقات رجالا من (اليساقجية) وامر ان لا يأخذ واحد من العسكر شيئا من الرعية الا بأوفى الاثمان ، ولا يتناول عسكري متاعا من السوق الا بعد دفع الثمن اذا رضي المتبايعان ، ومن خالف وظلم ، وتعدى وغشم ، وضرب ضرباً وبيلا ، وحبس حبساً طويلا، ومنهم من يقصى ويحجب، وبنار الغضب يصلي ويصلب، فاطاعت أهل جبلة وبعض عربان النواحي، واطمأنت تلك الجوانب والضواحي.

وأما أهل الفساد من عصاة تلك البلاد فاجتمعوا في حصن التعكر، وحالفوا

المفسدين ، وخالفوا العسكر ، وظنوا انهم مانعتهم حصونهم ، وصار الى قلة جبل التعكر ركونهم، فحط حضرة الوزير محطته المنصورة على جبل التعكر، واحاط به من كل مدخل ومعبر، واذا به من أعلى الجبال تنقطع دونه مطامع الآمال ، ولا يصل الى ذروته الامن علت همته من الرجال ، وكان في أرجائه ثلاثة أبراج متهدمة على جبال شاهقة ، تصلح ان تكون حوالة على حصن التعكر فأنفذ اليها حضرة الوزير بالليـل رجالاً أبطالا ، ومدافع كبار ثقالا، وامرهم ان يرموا على أهل التعكر من هناك ، ليمنعوهم عمن يقاتلهم من اسفل الحصن، وأمر بالأخشاب الطوال فجيء بها وعمل منها سلالم ، وتعلق فيهـــا الرجال والابطال ، صاعدين الى نحو العدو ، واشتغل العدو عن مدافعهم ، بما ادهاهم من المدافع التي نصبت عليهم من تلك الأبراج المتهدمة ، فشاهدوا الموت عيانا ، وعلموا انهم مأخوذون ، فطلبوا الأمان على أنفسهم ، فأشارت الامراء الى حضرة الوزير، بعدم قبول ضراعتهم، واستئصالهم وقطع جادرتهم فغلبت مراحم حضرة الوزير عليهم ، واعطاهم الأمان ، وكف عنهم القتال ، وأرسل من خواصه من تسلم باب الحصن، وأمر باخراجهم واحدا بعد واحد بدون سلاح ولا متاع ، واطلقهم ليمضوا أين شاؤوا ، وهـــذا كال المرحمة واللطف بهم ، وقل ان يفعل ذلك غيره ، خصوصاً بعد الاستيلاء التـام ، ولكن مقصده جميل ، في ابقاء حياة النفوس ، ونيته جميلة مع الله تعالى ، وافعاله مشكورة عند الله وعند الناس .

وكان هذا الفتح المبارك في يوم السبت ، السادس والعشرين من ذي الحجة سنة ست وسبعين وتسعمائة .

وكانت مدة الحصار خمسة ايام ، والحمد لله على هذه الفتوحات العظام، وله الشكر على انتصار عساكر الاسلام ، وانهزام الملاحدة والعصاة واللئام .

ثم ان حضرة الوزير عين في قلعة التعكر (دزدارا) و(نوبتجيه)وحصنها بالمدافع والسلاح والذخيرة وتوجه لفتح بلاد إدريس الأعور ، لتنظيف تلك

الطرقات من العصاة والبغاة ، ويكمل انتظام الرعيـــة تحت ظلال الحضرة السلطانية ، بغاية الأمن والرفاهية .

وقاعدة بلاد ادريس الأعور قلعة بجرانة .

وكان وقع من ادريس المذكور خيانة في العسكر السلطاني فإن حضرة الوزير لما نزل (القاعدة) في أول بروزه من (تَعِز) أرسل قريباً من مائة وخمسين (تفكجيا) لأخذ (قلعة بجرانة) فلما قربوا اليها التجأ هو بلطف الله بن مطهر ، واتى من عنده بعسكر ، فوافوا العسكر السلطاني ليلا، وهم غارون آمنون ببعض القرى ، في الطريق فهجم عليهم ، وقتـــل منهم نحو الخمسين ، وفر الباقون ، واسند هذه الفعلة الى ولد مطهر المذكور ، ولكنه كان بموافقته فكانت هذه ضغينة في قلب العسكر له ، مع ما وقع منه في ايام الفتنة من اطاعة الزيديين ، والقيام باجراء أحكامهم .

فأرسل حضرة الوزير الى (قلعةبجرانة) من يحيط بها ويقتل من وجد بها ففر ادريس الاعور، وجميع اتباعه ، وتركوا (بجرانة) على ضواحيها خاوية على عروشها ، فدخلها العسكر السلطاني ، في افتتاح محرم الحرام سنة سبع وسبعين وتسعمائة ، واستبشر حضرة الوزير بهذا الفتح الواقع في أول العام وتفاءل الناس أن يكون جميع السنة تتواتر له أنواع الفتوحات والإنعام ، ولما كانت (قلعة بجرانة) قليلة الجدوى عديمة النفع ، مع احتمال ضرر العدوى ، أمر حضرة الوزير بهدمها ونقض اركانها ، وقلع اساسها وجدرانها ، فتركت قاعا صفصفا، ومر عليها نسيم الخراب والعفا، كأن لم يكن بها ديّار،ولم يمر بها مار ، وصارت البوم تأوى اليها ، والعناكب تسدى فيها ، والطيور تعشعش عليها ، وكذلك ديار الظالمين خراب ، لا يسكنها غير البوم والغراب .



الفصل التاسع عشر

في ارسال عبد الله الداعي لأخذ (حصن خدد) وتعرض ولد مطهر له وانكساره ونصره الداعي وأخذه للبلد

كان (حصن خدد) من الحصون المحكمة وقد جعلها مطهر في أيام الفتنة لولده لطف الله ، لا لطف الله به .

وكان عبد الله الداعي له اليد البيضاء في معاضدة العساكر السلطانية ، مقبلاً على ذلك بقلبه ويده واتباعه ، فوقف لدى حضرة الوزير ، وعرض عليه انه يريد اداء خدمة يظهر بها مصادقته للسلطنة الشريفة ، وقال له : انا عندي من (الدعاة) نحو الأربعمائة مقاتل، وأريد ان ترسلوني الى (جبل الحبيش)و(حصن خدد) لاخذهما بسعادتكم واعانتكم؛ فاستحسن حضرة الوزير كلمته ، وقبل خدمته ، وخصه بالمنائح ، وتـلا عليه آيات من النصائح ، خصوصاً من متعلقات الحرب والتكمين ، وما يتعلق فيه من الحزم والرأي والتمكين ، وعدم الخفة، ولزوم الثبات عند الصدمة، الى غير ذلك من آداب القتال ، وما أورده الرجال من ذلك في الامثال ، وعقد له لواء شريفا من الوية السلطان، وضم اليه العربان الذين طلبوا الأمان لما افتتحت (قلعة تعز) فانعم عليهم بالجوامك السلطانية ، وصاروا من الجند اهل العلوفة ، اختار منهم مـائة رجل وكتبهم معه ، فصار معه خمسمائة مقاتل ، وتوجه بهم مستعيناً بالله تعالى الى (جبل الحبيش) .

فلما سمع لطف‌الله بن مطهر بذلك ابرق وأرعد ، وأرغى وأزبد ، وقال: ما يقاتلنا الا عبد الله الداعي ؟ وكيف تحركت له هذه الدواعي، سنذيقه حر السيوف الصوارم ، ونضرب منه القفا واللهازم ، وسنأخذه اسيرا ، ونعيده الى الحبس ليلا حقيرا .

فلما بلغ الداعي كلام ذلك الولد،زأر زأرة الاسد،ونفخ الشوارب واللبد، وهدد الوالد وما ولد وأنشد شعراً :

لأجُرِّدَنَّ العضبَ أوقظ حدَّه من جفنه ، من بعد طول منام
حتى تبيدَ قبائلٌ فقبائــلٌ ويعضُّ كل مثقف بالهــام
ويقُمنَ ربّاتُ الخدور حواسراً يَمسحنَ عَرْضَ ذوائب الأيتام

وتوجه من فوره الى أُخدود (خدد) ورتب جيشه للجلاد ، وأبدى ما عنده للجلد ، وكان معه زهاء خمسمائة مقاتل ، أربعمائة منهم يُعتمد عليهم في أمثال هذه المداخل ، ومائة ليس له عليهم اعتماد ، بل يتوهم منهم الغــدر والفساد ، وقابله ولد مطهر بألفي رجل من خاصة عسكر أبيه ، يختار كل منهم لمثل هذا اليوم وينتقيه،فثبت عبد الله الداعي ، وشكرت منه المساعي، وجعل الأربعمائة نفر الذين يعتمدهم حوله،عن يمينه ويساره ، وأمامه وخلفه، وقدم المائة الذين يتوهم منهم،وجعلهم مقدمة عسكره ، فاذا بالمائة المذكورين بمجرد أن لاقوا مقدمة جيش ولد مطهر ، انحازوا اليهم ، وصاروا من حزب ولد مطهر ، وخــانوا ، فأرسلهم ولد مطهر الى والده ، فعتبهم على تسليم (القاهرية)،وطلب الأمان من حضرة الوزير ، وقبول العلوفة منه، فاعتذروا اليه بأعذار فما قبلها ، فصاروا مردودين عنده وعند الله وعند الناس ، وما اكتسبوا غير سواد الوجه والخزي والانعكاس ، وصار كل واحد منهم يُعَدُّ خائناً سفيها ، وذو الوجهين لا يكون عند الله وجيها .

واستمر يقاتل عبد الله الداعي ومن معه من جنده ، ويضرب هامة الإلحاد بقائم حدِّه ، ويشبعهم طعناً وضربا ، ويضايقهم نكالا وحربا ، الى أن زهق

الباطل وولى مدبرا ، وهرب الزيديون وولوا دبرا ، والرماح والسيوف تعمل في أقفيتهم وهم مدبرون ، فيتصور من وقعها صور الحواجب والعيون ، وهو ينشد في تلك الغضون ، بيت :

خرقنا بأطراف القنا في ظهورهم   عيوناً لها وقع السيوف حواجبُ

وما وقف ولد مطهر إلا على أبيه ، لأن يصونـــه من الداعي ويحميه ، وذهبت عساكره شذر مذر ، وتفرقوا بيد الاصائل والبكر ، فلما ولوا فرارا وأدبروا إدباراً ، أخذ عبد الله الداعي (قلعة خدد) و (جبل الحبيش) ، وتمكن فيها بما عنده من الجيش ، وأرسل الى حضرة الوزير يخبره بما افتتح ، وما منّ الله تعالى به من جزيل المِنح ، واستشاره فيما يفعل بقلعة (خدد) وما فيها من الآلات والعُدد ، فرأى حضرة الوزير أن يهدم أركانها، وينقض جدرانها ، ويقلع سيسانها ، ويخرب بنيانها ،لأن صونها لا يخلو عن الإشكال، لاحتياجها الى جند أبطال ، يصونونها عن الاختلال ، والاحتياج الى الرجال أكثر من حفظ قلعة من تلك الجبال ، فلم يجد بداً من نقض اسوارها ، وفض سوارها ، وتعفية آثارها ، وتطفية نارها .

فأرسل إلى الداعي يأمره بذلك ، وأن يعفى من آثارها المسالك ، فسمع غناء المعاول في مغانيها ، وتُليت سورة الزلزلة على أسوار مبانيها ، ومسحتها المساحي ، وناح الصدى في أطراف تلك النواحي ، وسفتها السوافي ، وعفتها العوافي .

ورجع الداعي إلي حضرة الوزير مظفراً منصورا ، وكان سعيه في هذه الواقعة مشكوراً ، ويمينه صادقاً مبروراً ، فافرغ على كاهله خلعة فاخرة ، وحمدت أياديه الزاهرة ، وشكرت أفعاله الباهرة ، وفـــاز بأنواع الترقي والانعام ، ونال من مطلبه أقصى مرام ، وصار مذكوراً في ألسنة الخاص والعام ، وعرفت مرتبته العلية بين اولئك الأقوام ، وحاز مجداً لا يبلى بـين الأنام ، على اختلاف الليالي والأيام .

وكان انهزام ولد مطهر في ثالث محرم الحرام سنة سبع وسبعين وتسعمائة.

الفصل العشرون

في توجه حضرة الوزير الى فتح (إب) و (بعدان) وحصن (هرّان) وما وقع في ذلك من اعمال السيف والسنان

لما قضى حضرة الوزير أرباً من حصن (خدَد) ، وانهزم العدو وسكن وبرد ، عاد الى أخذ إب ، وهي بلدة ذات بيوت عوالي ، تطاول في ارتفاع بنائها السمر العوالي، وهي واقعة في ذيل جبل (بعدان) جبل ذروته السماك والنسران ، لا يعلوه الا النيران ، ولا يسمو قلته الا القمران ، وفي سفحه واد فسيح ، ذو هواء صحيح ، وعَرْف يعرف منه الرند والشيح ، يدخل اليه من مضيق ، كأنه عنق ابريق ، محفوف بزهر الشقيق ، مفروش بفرش العقيق ، يحوي جنة عالية ، قطوفها دانية ، يسمى ذلك الوادي (الشبكة) لأنها كالشبكة،أشجارها مشتبكة وأزهارها محتبكة ، وانهارها مرتبكة فضرب الوزير مخيمه بذلك الوادي ، وملأ بعسكره المنصور ذلك النادي ، ووجه الى الاعادي اسوده العوادي ، وجنوده العوادي ، قد برزت الفئة الباطلة والعصبة المتحاملة الخاملة ان يأخذواالمضيق على العسكر المنصور، ويركبوا عليهم جبل (بعدان) بالأحجار والصخور ، فلا يجد العسكر السلطاني مجالاً للقتال ، وينفد زادهم في طول المجال ، فيتم لهم ما تصوروه من الخيال المحال .

فركب ولد مطهر ، الذي هرب من الداعي ، وابن عمه محمد ابن شمس الدين ، وعلي بن شويع ، وأمدهم مطهر بما قدر عليه من الجنود ، وعقد لهم

الألوية والبنود ، فكان سوادهم عشرين الفــاً أو يزيدون ، وركبوا الصهوات والمتون ، وأقبلوا إلى مقصدهم يَزفون ، وأرسلوا إلى العربان الذين دخلوا تحت الطاعــة ، وشملهم الأمان بالدخول في سلك السنة والجماعة ، يغرونهم بتزويق الكلام ، ويفسدون عليهم ما تم لهم من الانتظام ، فقالوا لهم : نحن لا نطلب منكم أن تقاتلوا معنا ، ولا تكشفوا وجهكم بمخالفة الأروام اقامة وظعنا ، بل إذا رأيتمونا غالبين ، وصار الاروام منهزمين ، أبرزوا المكتوم، واقتلوا المهزوم ، واكشفوا المُغطا ، ولا تبقوا منهم رهطا ، وان انهزمنا فانتم على أمانكم باقون ، ومعهم كما كنتم ملاّقون .

ثم عطفوا بالليل على (إب) واخلوها من الرعية، ووضعوا فيها الف رام بالبندقية ، وصعد باقيهم جبل (بعدانـ) وسد بعضهم طريق المضيق بفرسان حافلة من العربان ، وشرعوا في ايقاد النيران ، والرمي بالمقالــع والصوان .

فلما شاهد حضرة الوزير ، ذلك الجمع الكثير ، والتجاؤهم بذلك الجبل الكبير ، توجه بنفسه النفيسة الى قتالهم ، ولم يبال باعتصامهم بجبالهم ، ولا تشبثهم بواهي خيالهم، ولا تصورهم باطل خبالهم ، ووجه عليهم البندقيات .

وكان يوم عاشورا المبارك ، لعشر ليال مضين من محرم الحرام، سنة سبع وسبعين وتسعمائة .

فلما رأى العسكر توجه حضرة الوزير إلى القتال ، وبروزه وركوبه إلى أولئك الجهال ، توجهوا بأجمعهم بالأحجار والنبال ، والمدافع الثقال ، ورموا أعداءهم عن قوس واحد ، وهجموا كالأسود والأساود ، على أؤلئك الملاحد، واستمر القتـــال من أول النهار إلى آخره ، وكلّ جفن السيف من مفارقة بواتره ، وحجز الليل بين الفريقين، وستر الظلام سواد كلْ واحد من الرفيقين، وكل منهما على حذر شديد ، وفزع يشيب منه الوليد ، ودخان البارود قــد طبق الجو ظلاماً ، وألبس الليل الحالك جلباباً يزداد به اظلاماً ، لا ينيره

غير خفق البرق من فتايل البنادق ، فيضيء به الأفق كما يضيء بلمع البارق ، ويحذرون من الموت فيجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق ، ويتبع ذلك صوت رعد هائل، ترتعد منه الأركان والمحاجر، وتذوب له القلوب والحناجر، حتى صُمّت بها الآذان ، وصَمَت لها صوت داعي الأذان ، إلى أن تقنع الليل رداء الصباح ، وابتسم الدجي عن ثغر الأقاح ، ونادى منادى الصفاح : حي على الرماح ، مكان حي الفلاح ، واستمرت نار الحرب تشب وتضطرم ، وفوارس الهيجاء تضطرب وتصطدم،ومتون الصفاح تصافح الأعناق وتلتطم، وما زال بينهم حملات وركضات ، وضربات ونفضات ، ولجند الاسلام في كل دفعة من العدو قلايع ، ولأهـــل الألحاد في كل كرة على الأرض مصارع ، والعساكر المنصورة ظاهرون ، وبالمراد ظافرون .

واستشهد جماعة من الشجعان ، استحلوا طعام الطعان ، وشاقهم جنـا الجنان ، فمضوا بالروح والريحان ، رغمرتهم الرحمة والغفران ، وقتل كثير من أهل الألحاد ، يعجز أن يعدّهم العاد ، إلى أن قتل منهم نقيب كبير ، كان يذكر باقدام كثير ، يقال له (أبو النصر) أصيب بسوط القهر ، وانكب على اليدين والنحر، وصار إلى السعير ، وبئس المصير ، فهرب لذلك الزيديون، وانحازوا إلى جبل (بعدان) وأخلوا بلدة (إب) فدخلها عسكر السلطان، وحازوا ذلك المكان ، وباءت الفئـــة الباغية بالخسران ، فكان فتحاً يعقبه الفتوحات ، ونصرة يفوح بها من جانب الحق نفحات .

وكان الفتـــح المبارك في يوم عاشورا ، عاشر محرم الحرام ، سنة سبع وسبعين وتسعمائة .

ورجع حضرة الوزير إلى محطته ، والآراء تزاحمت بفكرته ، ليقطع دابر الطائفة الفاجرة ، ويقطع أشلاءهم بالسيوف الباترة ، فأجمع رأيه الشريف ، وصمم حزمه المنيف ، أن يطلع بعسكره الى جبل (بعدان) ، ويهجم على حزب الشيطان ، ولم يفكر فيما بيدهم من البنادق والأحجار ،ولم يبال بعديدهم

الكامنين خلف الصخار ، واختار ستة آلاف مقاتـــل ، وأعطى حسن باشا ألف بطـــل يدحضون الباطل ، ونادى في العسكر أن لا يتخلف أحد في من المذكورين ، عن الصعود من الجبل الى الزيديين ، وبيّن لهم ست طرق إلى محطتهم بين الصخار ، وأمرهم أن يصعدوا إلى أولئك الفجار ، واختار هو طريقا منها، وسلكها وما نكب عنها ، وسبق العسكر اليهم ، ومال بأسنته عليهم ، فلما رأى العسكر هذا الإقدام من حضرة الوزير ، وشاهدوا جرأته في الجبل كأنه يطير ، تسابقوا إلى الصعود ، وساعدهم اليمن والسعود ، ولم تصدق تلك الفئة الباغية الفاجرة ، أن يقدم العسكر هذا الإقدام ، ويبادر أحدهم هذه المبادرة ، فرموا أول طلق بما معهم من البنادق ، وأطلقوا ما قدروا عليـــه من الضّربزانات الصواعق ، فسلم الله تعالى من كتب له طول الحياة ، وذهب إلى الله تعالى من قدر له الشهادة في الممات ، ووصل العسكر في الأثر ، وكبسوا الملاحدة بالسيوف والخنجر ، واعتنقت الكماة الأبطال ، وأذاقت الرجال جند الظلال شديد النكال ، واعملوا السيف فصرح بالكلم وما ورّى ، وروّى السهم كبـــد قوسه الحرّى ، فتزلزل الأعداء وارتابوا وارتاعوا ، وراموا الثبات فما استطاعوا ، وولوا هاربين ، وصاروا كالقردة طافرين ، والعساكر المنصورة ظافرين ، وتركوا خيمهم ومراحهم ، وأزوادهم وسلاحهم ، وانتشر الأتراك لنيل الغنيمة ، وانهزمت الزيدية أشنع هزيمة ، فتمّت مرحلتهم ، وعمت مقتلهم، وتثلمت الصفاح ، وتحطمت الرماح، وأخذ لواء محمد بن شمس الدين ولبوساته ، ومزاميره وكوساته ، وهرب بمفرده ، وسلم تجمّلاته بيده ، ونجا ابن شويع، على جرائد الخيل، وما كاد أن ينجو ، ولا بلغ في ضميره ما يرجو ، وأدرك ولد مطهر فرمى درعـــه وخوذته ، وسلاحه وجعبته ، ثم نزل عن فرسه ، وعدا على رجليه ، ثم خلع ثيابه ونضاها ، ونبذ صحيفته ورماها ؛ بيت :

ألقى الصحيفة كي يخفف ثقله والثوب حتى نعله القاهـــا

وكان الذي يطرد وراءه يلتهي باخذ ما يلقاه ، ويطرح ما يشناه ، فلما لم يبق شيء يلقيه خلع سراويله ، وولى دبره متخذا سبيله ، وكشف استه القبيح ، وهو يسيح ويصيح ، في تلك القفار الفيح ، الى ان لقيه خادم له بحصان ، فركب متنه وارخى العنان ، ونجى من حد السيف والسنان ، وقد ركبه من الخزي ألوان ، ورجع الذي طرد وراءه بسلاحه وسراويله وردائه ، يفرج عليها العسكر ، ويتحدثون عنه بأن هذا دأبه إذا ولى وأدبر ، وهذا أعجب ما يروى عنه ويؤثر ، ويتحدث عنه في الحقب ويذكر .

والذي قطع من رؤوس الأعداء ستمائة راس ، حصرها اليراع والقرطاس ، غير المجروحين من المهزومين ، ومن لا يلتفت إلى ضبطه من المقتولين ، وملك جبل (بعدان) وأخذ (حصن هران) في يوم واحد والله المستعان .

وكانت هذه الواقعة في ثاني عشر محرم سنة سبع وسبعين وتسعمائة .



الفصل الحادي والعشرون

في انعام حضرة الوزير على العسكر بالترقي في العلوفة ، والانعام من ماله بما يليق بكل واحد منهم

لما حصلت النصرة للعسكر المنصور السلطاني ، وانكسر جيش الباطل من الجند الشيطاني ، بتدبير حضرة الوزير ، وإقدامه ، ورأيه المضيء المنير ، حمد الله سبحانه وتعالى على نعمه ، وتضرع اليه شكراً لبعض إحسانه وكرمه ، واعترف بأنه عاجز في ذاته ، مقصر في آرائه وأدواته ، وان ذلـــك كله بتقدير العزيز العليم ، وان النصر بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده ، والله ذو الفضل العظيم .

وتأمل ما قاساه رجال العسكر ، من معاناة البرد والحر ، ومقاساة الحرب والضرب في البحر والبر ، وبذلهم للأرواح والنفوس ، واستلذاذهم طعم الموت في قيام الناموس ، واستهانتهم في حب سلطانهم ببذل الأموال والرؤوس ، علم انهم مُستحقون لجزيل الإكرام ، ومتأهلون لجميل الفضل والإنعام العام ، فرقّى كل واحد من العسكر عثمانيين في علوفته ، وعين له في تذكرته ، زيادة في الإدرارات السلطانية ، والجوامك الشريفة العثمانية ، يأكلها طول عمره ، ويشيد بها مباني فخره ، وأخرج ذلك من زوائد الخزائن السلطانية ، التي حصلها هو ، زيادة على من قبله من (البكلربكية) بحيث لم ينقص بذلك شيء من الخزائن الشريفة العامرة ، بل يزيد فائضها مستمرة دائرة .

ووجه ذلك ان المال كان يحمل من محصول اليمن كل عام ، الى خزانة حضرة سلطان الاسلام ، في أيام مصطفى باشا قره شاهين ، إلى أن أخذت مملكة اليمن في الاختلال والتوهين ، خمسون ألف دينار ذهباً جديداً ، من ثمن البهار المحمول من اليمن إلى مصر ، برسم الخزانة الشريفة العامرة ، فضبط على هذا الوجه أعواماً وسنين متواترة ، وقد تضاعف ذلك في أيام حضرة الوزير ، إلى أن وصل الى مئتي ألف ذهب جديد من الدنانير ، وذلك فضل كثير ، ومال كبير ، ولا يزال الى النمو والتكثير ، بإذن الله القدير .

وما اكتفى حضرة الوزير بهذا الانعام العـــام ، والاحسان الجزيل التام ، حتى أضاف إلى ذلك من نفس ماله ألوفاً من الدنانير ، قسمها بين هذا الجيش الكثير ، عم بها الكبير والصغير ، والمأمور والأمير ، فجعل لكل نفس ما بين مائة دينار ، الى خمسين وعشرة ، بحسب المرتبة والمقدار ، الى دينارين لكل رأس ، من آحاد الناس ، فرضي عنه الجميع ، وشكروا فضله الوسيع ، وعرفوا لطفه البديع ، وبذلوا له الادعية الصالحة، ونثرو عليه لآلىء الأثنية الفائحة ، وازدادوا فيه محبة ووداداً ، وصدقوا في اخلاصه مودة واعتقادا ، فكان كما قيل ، من احكم قيل ، (بيت :)

يسقط الطير حيث يلتقط الحـــب وتُغشي منازل الكرماء

ومما عكس على (مطهر) مراده، ونفر عنه اجناده ، بخله الشديد ، وتقتيره الذي ما عليه مزيد ، فانه يحسب على جواريه بيض الدجاج ، ولا يأخذ غير الدجاجة البياضة في الخراج ، ويجمع نوى التمر عنده في الجربان والاخراج ، ولم تسمع له هبة جلت أو قلت ، ولا نقل عنه حديث صلة في محلها أو غير محلها حلت (شعر) :

اذا ملك لم يكن ذا هِبَه فدعه فدولته ذاهبه

فكيف بمن لا يكون ملكاً ولا ابن ملك ، ولا هو في سلك ادنى الملوك منسلك ، بل هو عاص من العصاة ، خرج عن الأمر وشق عصاة .

ولقد سمعت انه ورد عليه في أيام هدنته ، وأوقات سلمه واطاعته ، جاووش عظيم بخلعة معظمة سلطانية ، فانعم عليه بخمسين ديناراً، فلما وقف أهل طبله وزمره على الجاووش،بذل لهم الخمسين ديناراً، فلما ارتحل الجاووش من عنده جمع الطبالين والزمارين ، واستعاد منهم الخمسين ديناراً ، وأعادها الى خزينته .

وهذا أقوى ما يكون في السفالة ، والشح المفرط والرذالة ، ولكنه يجمع هذه الكنوز للغير ، وهو بالنسبة اليها خازن لا غير (شعر) .

اذا المال لم ينفعك إلا بخزنه فبرُّ بلاد الله مالك ، والبحر

وقيل ايضا

مالك للحادثات نَهْبٌ أو للذي حازه وراثه
أولك ان تفنه عطاءً فلا تكن أعجز الثلاثة

واصل هذا اثر وارد عن ابي الدرداء، أو عن علي رضي الله عنهما وهو : مالُك إمّا لك ، أو للحاجة ، أو للوراثة ، فلا تكن أعجز الثلاثة .

ونظمه بعضهم فقال :

اسعد بمالك في الحياة فإنما يبقى وراءَك مُصلح أو مُفسدُ
فإذا تركت لمفسد لم يُبقه وأخو الصلاح قليلهُ يتزيَّد
فان استطعت فكن لنفسك وارثاً ان المورّث نفسه لمُسدّد



الفصل الثاني والعشرون

في تعيين محمود بك الكردي وبرويز بك لمحاصرة (حصن حب) واعانتهما من المال والعسكر بما لزم ووجب

قد تقدم بيان (حصن حب) وحصانته وكيف أخذهـــا محمود باشا من النظارى ، وهو قاعدة مملكة (بعدان) ومرجع تلك الأراضي والبلدان .

وكان علي بن شرف الدين في (حصن ذمرمر) فحسن له مطهر أن يستقل بحصن (حب) ويتحصن فيه ويكون حاكمـــاً على (بعدان) ونواحيه ، وقصد مطهر أن يخلو له (حصن ذمرمر) ويبعد عنه أخوه علي في (بعدان) وكان أخذها أيام الفتنة ، واستقل بها .

فلما أخذ حضرة الوزير مملكة (بعدان) بقي عـــلي محصوراً في حصن (حب) وكان أخذ حصن حب" لا يخلو عن صعوبة ، والأهم أخذ (ذمار) و (صنعاء) ولا يمكن اخلاء (بعدان) ، والتوجه إلى أخذ (ذمار) و (صنعاء) لأن عليـــاً ينزل من (حصن حب) ويستعيد أخذ مملكة (بعدان) ويضيع تعب العسكر السلطاني سدى .

فرأى حضرة الوزير أن يعين أميرين من الأمراء، معروفين بالنجدة والبأس ويأمرهما بمحاصرة (حصن حب) ويتوجه هو إلى افتتاح باقي البلاد ، ثم يوخذ (حصن حب) على طول ، فعين لذلك محمود بك الكردي، وكان كاشفاً

في مصر ، شجاعاً مقداماً معروفاً بالجرأة والفتك ، فأعطاه سنجقاً سلطانياً ، وصحبه معه إلى فتح اليمن ، والثاني برويز بـــك وهو من أمراء السناجق قديماً بممالك اليمن ، وله شجاعة معروفة ، واقدام واهتمام ، وشهرة بين عربان تلك النواحي ، وعنده كرم نفس ، وولي أمير الحـــاج اليماني ، وله معرفة بالحروب ، وناصيته سعيدة .

وكان عند علي بن شرف الدين في (حصن حب) نحو السبعمائة نفر من المحافظين فأمر حضرة الوزير الأميرين الكبيرين أن يأخـذا نحو مائتي فارس ويحاصروا (حصن حب) ويحفظوا إياً ، و (جبلة) و (هران) وسائر مملكة (بعدان) وهي مملكة واسعة كثيرة الخير ، فايضة المير ، وقد دخل غالب عربانها تحت الطاعة إلا أنهم لم يعتمد عليهم بعد ، فظاهرهم الاطاعة ، ما دامت القوة للعساكر السلطانية والاستطاعة ، وإلا رجعوا في ساعة وخانوا الجماعة ، وتسببوا للخوف والجاعة .

فتقدم الأميران المذكوران لهذه الخدمة ،وأوصاهما الوزير بكيفية الحصار ، بعد أن دار بنفسه حول (حصن حب) ورأى مخالسها ومداخلها ، ولاحظ أعاليها وأسافلها ، وامرهما بما ينبغي مراعاته في أمر الحصار ، وأعطاهما من المال والمنال القدر الذي يحتاج اليه ، ومن المدافع والمكاحل ما يلزم ويعول عليه ، وكان في مملكة (بعدان) بقرب (حصن حب) قلعتان ليس فيهما كبير فائدة ، بل يحتمل حصول الضرر منها ، وهما قلعة (فند) و قلعـــة (المدورة) فأمر بهدمها فهدما إلى الأرض ، وتركا خراباً يباباً ، وضرب الأميران مضاربها وأوطاقها ورواقها تحت (حصن حب) واستمرا على ما أمرا به من المحاصرة والمحافظة ، وودعها حضرة الوزير ، وتوجه هو وباقي العسكر السلطاني المنصور إلى المسير ، لافتتاح باقي أعالي مملكة اليمـــن ، مصحوبـــاً بالنصر والتأييد ، من الله العزيز الحميد ، محفوفاً بالعز المشيد والمجد المزيد .

الفصل الثالث والعشرون

في توجه حضرة الوزير الى بلدة (ذمار) واخذها من الغزاة الفجّار

لما فرغ حضرة الوزير من أخذ مملكة (بعدان) والأمر بمحاصرة (حصن حب) لزم من ذلك تربصه أياماً ، إلى أن فرغ من هذه المصالح .

ثم توجه إلى (ذمار) في تاسع عشر محرم الحرام سنة سبع وسبعين وتسعمائة ، ونزل مع الجيش والأمراء ، وباقي الأعيان والكبراء ، في موضع يقال له (وادي سهيل) متيمناً بتسهيل الأمور ، وسهولة الطريق إلى المقصد الميسور ، ان شاء الله تعالى ، وأقاموا فيه اليوم المكمل عشرين .

ورحلو منه في اليوم الحادي والعشرين من محرم الحرام ، ونزلوا في ذيل (نقيل سمار) وهو واد فسيح ، يحيط به جبلان شاهقان من أعالي جبال اليمن ، يتصل طرفاهما ، وبينهما الطريق في غاية الوعورة ، ولولا ان الله تعالى القي الذعر والخوف في قلوب أولئك الطائفة الباغية لوقفوا في فجاج هذين الجبلين ، ومنعوا من الصعود اليهما ، والسلوك فيما بينهما ، ولكنهم لما شاهدوا وقعة جبل (بعدان) ذابت قلوبهم من الذعر والخشية ، وعلموا انهم لا طاقة لهم بالجيش المنصور ، وليس لهم ثبات جنان ولا أركان ، على الوجه المشروح المذكور ، فأخلوا الطرقات كلها من صحيحهم ومريضهم ، واجتمعوا على مطهر في صنعاء بقضهم وقضيضهم ، فسلك العسكر السلطاني (نقيل سمار) في غاية الأمن من الأخطار ، وطرقوه على مهل ، من غير مزاحمة ولا عجل .

وأقام حضرة الوزير يوماً كاملاً في أسفل الوادي ، حتى زلف الجيش جميعه كالأسود العوادي ، وخرجوا من المضيق إلى أعلى (سمار) ونزلوا في سطحه ، وقطعوا تلك الأوعار ، ووجدوا في رأس ذلك (الدربند) قلعة في غاية الاستحكام ، والثبات ، ترمي مدافعهـا إلى سائر الجهات ، وتحفظ الطريق بالمكاحل والضربزنات ، فعين فيها حضر الوزير دزداراً ، ونوبتجيه ، وحصنها ببعض المدافع ، وأودع عندهم السلاح التام، وآلات الحرب والبارود ذو الطعام ، وغير ذلك مما يحتاج اليه .

ثم ارتحل إلى (وادي يريم) فيه ماء جاري ومرعى كثير ، وهو محل لطيف جداً ، فأقاموا فيه ستة أيام ، لأن المدافع الكبار ، كانت تخلفت في (نقيل سمار) ، فأقاموا الى وصلت واستراحت دوابهم ، وكانت فيه قلعة تسمى (الدوران) رأى حضرة الوزير أن لا فائدة من إبقائها، فهدمت حجراً حجراً ، ولم يبقوا لها أثراً .

وفي هذه الاثناء وصل أهل (ذَمار) لاستقبال حضرة الوزير ، وبذلوا الطاعة ، وأتوا بأبقار كثيرة ، ذبحوها إكرامـــاً للعسكر المنصور ، وتقسم بعض العسكر لحومها ، وقابلهم حضرة الوزير بحسن القبول ، وشملهم بالنظر الكريم أحسن شمول .

وهي بلدة كثيرة الفواكه ، طيبة الماء والهواء ، من أحاسن بلدانالجبال، فيها قلعة محكمة ، وبساتين معظمة .

ثم انتقل حضرة الوزير ، والعسكر المنصور ، إلى فضاء في فناء (ذمار) وجعل في قلعتها (دَزداراً) ونوبتجية ، وأمن أهل (ذمار) وأحسنإليهم، وبلغه ان مطهراً في (صنعاء) فأراد حضرة الوزير أن يركب ، ويركب معه من أبطال العسكر جماعة ، على جرائد الخيل ، ويتوجه الى (صنعاء) على وجه الابتدار ، جريدة يطردون بالليل والنهار .

الفصل الرابع والعشرون

في توجه حضرة الوزير الى أخذ (صنعاء)
وهروب مطهر ونويه الى (جبل ثلا)

لما بلغ حضرة الوزير ان مطهراً حط خارج (صنعاء) ، وحوله أعوانه وأحفاده ، وأقاربه وأولاده ، خطر بباله أن ينتقي ألف فارس ، ويركب معهم على جرائد الخيل ، فيقطع مسافة ستة أيام من (ذمار) الى (صنعاء) في يوم وليلة ، ويكابس على مطهر في محطته ، فبينا هو في هذا الفكر، وهو متهيء الى أخذ أهبته ، إذ بلغ مطهراً هذا الخبر من الجواسيس ، فهرب في ليلته ، مع جميع حلته وأهل محطته ، ونسائه وعبيده ، وكهله ووليده ، وطارفه وتليده ، وطلع الى (جبل ثلا) وتحصن بهـ ، وترك لهم الدار والديار ، وأخذ معه أعيان أهل صنعاء من الكبار والصغار .

وفي ثاني يوم رحيله ، وصل خبر هروبه الى حضرة الوزير ، فرجع عن ذلك التدبير ، وأخذ في أهبة المسير ، وارتحل مع العسكر السلطاني ، والجيش المظفر الخاقاني ، من (ذمار) فوصل بعد ثالث مرحلة ، الى محل يقال له (ذراع الكلب) ، وَعْرٌ صعب ، في غاية الوعورة ، والشدة والذعورة ، وهو (دَرْبَند) بين جبلين شاهقين هما مأوى المفسدين، وقطاع الطرق من الزيديين، فرتب حضرة الوزير هناك مُقَدّمة وساقة ، وجعل على

اليمين والشمال من يحفظ السبيل ، وُرستاقه ، وعين في كل موضع ما يليق ، ورتب فجاج الطريق ، بالرأي الوثيق ، والفكر العميق ، وانقطع ذلك اليوم كثير من الجمال ، وسقط في الطريق كثير من الاحمال ، وتعب فيه العسكر تعباً شديداً ، ولاقوا نصباً زائداً عديداً ، وسلمهم الله تعالى ، وله الحمد على لطفه ، الذي تواتر وتوالى ، وتأييده الذي انزل اليهم أمدادَ إمداده ارسالا ، وبعد المرحلة الثالثة من ذراع الكلب وصل حضرة الوزير ، وجميع العسكر المنصور الى (صنعاء) في يوم الاثنين المبارك حادي عشر شهر صفر الخــير سنة سبع وسبعين وتسعمائة .

وصنعاء مدينة كثيرة الخيرات ، متصلة العمارات، ليس في بلاد اليمن أقدم عهداً ، ولا اكبر قطراً منها، قال في «الروض المعطار» في خبر الاقطار» : الذي اسس غمدان وابتدأ بنيانه ، واحتفر بئره الذي هو اليوم سقاية لمسجد جامع صنعاء ، سام بن نوح عليه السلام ، لأنه سار يطلب موضعاً معتدل الحر والبرد فلم يجد اعدل من هذا الموضع ، في صحة الهواء ، ورأى الشمس تسامتها في السنة مرتين ، في ثماني درجات من الثور، وثلاث وعشرين من الأسد، فاتخذها بلداً ، وسكنها ، وهي قاعدة بلاد اليمن ، ينزل بها ملوك اليمن قاطبة وهي على نهر صغير يأتي اليها من جبل في شمالها فيمر بها نازلا الى مدينة (ذمار) .

وذكر محمد بن اسحق ، في خبر سيف بن ذي يزن ، من اذواء ملوك اليمن أنه وفد على كسرى يستنصره على الحبشة المتغلبين على اليمن ، وان كسرى جهز معه ثمانمائة رجل واستعمل عليهم (وَهْرز) وخرج في ثمان سفائن غرقت منها سفينتان ، ووصل منها ست سفائن الى عدن ، فجمع سيف من استطاع من قومه ومعه (وهرز) وتصافوا مع مسروق بن ابرهة ملك الحبشة فرماه (وهرز) بسهم فلم يخطئه ، وانهزمت جموع الحبشة واقبل (وهرز) ليدخل صنعاء حتى إذا اتى بابها رآه لا تدخل منه الراية الامنكسة ، فأمر بهدم الباب ، فهدم ، ثم دخل ناصباً رايته ، قال : وتعمل بصنعاء الحبرات من القطن لا تعمل في غيرها ، والاردية الملمعة في أحسن الوشي ، قال :وصنعا

لا تمطر الا في حزيران وتموز وآب، وبعض ايلول ، ولا تمطر الا بعد الزوال، فيلقى الرجل صاحبه نصف النهار والسماء مصحية ، فيقول : عجل قبل نزول المطر . لأنهم قد علموا انه لا بد من المطر في ذلك الوقت .

ولما ظهر الأسود العنسي الكذاب بصنعاء بعث رسول الله ﷺ في أمره رجلاً من الأزد أو من خزاعة ، فنزل على (دَاذَوَيه) الأبناوي ، فأخفاه عنده ، فتحرك في قتل الأسود (داذويه) وفيروز الديلمي ، وكانت زوجته قد أبغضته ، إذ كان قد تزوجها قسراً ، فوعدتهم موعداً ، وقد سقته الخمر ، حتى سكر فسقط نائماً ، فدخل عليه فيروز ونفر ، فوجدوه على فراش عظيم من ريش ، فقطعوا رأسه ورُمي به الى أتباعه ، فانفضوا عنه ، وألقي عليهم الخزي والذل ، وأتى الخبر الى النبي ﷺ في مرضه الذي توفي فيه فقال عليه الصلاة والسلام ـ وذكر الاسود : « قتَلَهُ الرجل الصالح فيروز وداذويه » إلى آخر ما ذكر من قصته.

وصنعاء كثيرة البساتين ، كثيره الفواكه ، بعيدة عن الجبال، في صحصاح من الأرض ، عليها سور دائر قديم،فافتتحها حضرة الوزير ، فعادت كما كانت من الممالك المحروسة العثمانية ، والأمصار المصونة السلطانية ، وخطب باسم حضرة السلطان الأعظم ، سلطان سلاطين العالم ، سليم خان بن سليمان خان، نصره الله تعالى وخلد ملكه ، وجعل بساط البسيطة مِلكه ، وصارت محطة العسكر المنصور على باب صنعاء ، وكانوا كل قليل يغير منهم طائفة على جماعة (مطهر) في قراه ممن لم يدخل تحت الطاعة السلطانية .



الفصل الخامس والعشرون

في ارسال سرية على (قطران) وتخريب حصنه المدعو خولان

كان (قطران)من أكبر نقباء مطهر، وله عسكر وقدرة وقوة، وكان يمشي قدامه سبعمائة بندقاني ، وحوله غيرهم ما ينوف عن ألف مقاتل ،بحيث يكون مجموع جنده ألفي نفر ، وهو كثير الفساد ، شديد الاذى للعساكر السلطانية، يتعقبهم ، وينفرد بمن انفرد منهم ، ويقطع الطريق على الميرة المجلوبة اليهم ، الى غير ذلك من الحركات المعكوسة . وبيد (قطران) المذكور كثير من نواحي صنعاء ، وله حصن حصين ، وموضع متحكم متين ، يقال له (خولان) في غاية الإحكام والإتقان ، هو مقر شياطينه ، ومستقر ملاعينه ، ووقع الاتفاق بينه وبين مطهر أن العسكر السلطاني إذا توجه مع حضرة الوزير الى ناحية (ثلا) يكون (قطران)هذا في عقبهم ، يقطع الطريق على القوافل، وعلى الميرة الواصلة الى المحطة من الاطراف والجهات والمنازل ، فيضيق على العسكر السلطاني أمر الزاد والعليق ، ويضطربون لذلك ويقعون في الضنك والضيق ، مع كبسه أحياناً على صنعاء ، ومن تخلف بها وبغيرها في الحصون والقلاع ، وإرعاب من أقامه حضرة الوزير في تلك البقاع والاصقاع ، هذا كان مقصد (قطران) ومطهر، ووقع اتفاقهما على ذلك، فاطلع حضرة الوزير على هذه الاتفاقات الفاسدة ، والآراء المظلمة الكاسدة ، فتوجّه برأيه المنير ، وضميره الثاقب المستنير ،إلى دفع هذا الفاسد،وقطع مادة هذا المفسد المعاند ، وعين لذلك الأمير (تمّي) أحد السناجق الشجعان ، وواحد الفروسية

وأوحد الفرسان،وعين معه طائفة من الأبطال ، وشرذمة من صناديدالرجال، أهل الضرب والطعان ، والسيف والسنان،فتوجه الأمير(ممي) هو وأبطاله، وأتباعه ورجاله ، الى حصن خولان ، وقد تحصن بـــه (قطران) ، وهو حصن في غاية الإحكام ، مستحكم نهاية الاستحكام ، وأمامه خندق عميق،يمنع من يريد اليه الطريق ، وهو مشحون بالبنادق والمكاحل ، والمطاعم والمآكل ، فقصد الأمير(ممي) الهجوم عليهم في الحال،والدخول عليهم بالرجال والأبطال، فنفضوهم نفضة واحدة من الحصن بالبنادق والمكاحل ، ومنعوهم من الوصول الى داخل ، فسقط من العسكر احد وعشرون رجلاً ، قضى الله تعالى لهم بالشهادة ، وختم لهم بالخير والسعادة ، فمضوا الى الجنان ، واستقبلتهم الحور والولدان ، وغشيهم العفو والرضوان .

ثم اعد لهم العسكر السلطاني المدافع ، وضربوهم بالنيران والمقالع ، فرأوا انهم لا يطيقون المقام ، ولا يثبتون على الموت الزؤام ، فخرجوا من الحصن مظهرين انهم يريدون القتال ، ففرحت بهم الرجال الابطال ، وفسحوا لهم ميدانا يمكن فيه المجال ، واذا بهم هربوا في الجبال ، وتركوا الحصن بما فيه من السلاح والغلال ، فتعقبهم بعض الفرسان ، وادركوا منهم بعضهم، وقتلوا منهم من امكنهم ، وفر الباقون الى جبـــل (ثلا) ورجعوا الى مطهر بالخزي والبلا .

وعاد الامير (ممي) الى حصن خولان ، فوجده مشحونا بالسلاح والطعام، والغلال، فقسم ذلك بين العسكر، وهدم الحصن حجراً بعد حجر،الى ان قلع اساسه واطفأ نبراسه، واخمد انفاسه ، وتركه قاعا من القيعان، لا يحجبه بناء ولا جدران ، وصار يقال : كان في هذا المكان ، حصن يقال له خولان .

وعاد الامير (ممي) الى حضرة الوزير مظفرا منصوراً ، فائزا بالغنيمة من الاعداء فرحاً مسروراً، فالبسه حضرة الوزير خلعة فاخرة ، وشمله بنظره الكريم وعنايته الزاهرة .

وكان الفتح المبارك في مستهل شهر ربيع الاول سنة سبع وسبعين وتسعمائة

الفصل السادس والعشرون

في اغارة حسن باشا على (وادي السّر) ووضع السيف في طوايف العدو المنكسر

من جملة الحصون التي بقرب صنعاء (حصن ذمرمر) وهو للطف الله بن مطهر ، وحوله قرى كثيرة في واد عظيم يقال له (وادي السّر) فيها خلق كثير من غلاة الزيدية ، اتباع مطهر لا يحصل منهم غير الضرر،وقطع الطريق على القوافل ، فعين حضرة الوزير طائفة من العسكر السلطاني ، وأمر عليهم حسن باشا ، وأمره ان يغير على القرى ، وينهب مـــا يجد فيها من الغلال ، والنساء والرجال، والولدان والأطفال ، وأمره ان لا يقتل احداً منهم ، بل يستأسرهم ، ويضعهم مع (الكوركجية) يسحبون المقاذيف في البحر ، مع الاحتياج العظيم الى (الكوركجية) وكان من طبعه الكريم ان لا يريد اراقة الدماء ، وما عهدمنه القتل لمن استحق ذلك الا قليلا جدا، بل يدفع بالتي هي احسن ، هذا دأبه دائماً من أول أمره الى الآخر ، وهذا من محاسن الخصائل ، ومن أحسن الشيم الفواضل .

وقد جرت عادة الله تعالى في الملوك والأمراء (والبكلربكية) ، وغيرهم ان السفاك لا يعمر،وورد في الاثر: بشر القاتل بالقتل ولو بعد حين.وملاحظة احوال الملوك السلاطين ، يغنى عن ذكرهم وعدهم للحاذق الفطين .

فامتثل حسن باشا أمر حضرة الوزير بالسمع والطاعة، وبذل في ذلك مقدور الجهد والاستطاعة ، وأغار مع الذين عينهم حضرة الوزير ، على (وادي السر) واسر من وجـد فيها من النساء والرجال ، والولدان والأطفال ، والحبوب الغلال،ولم يقتل منهم الا من باشر القتال، فقتل في الحرب والجدال، فاغتنم غنيمة متوافرة ، وحصل الأموال الوافرة المتكاثرة ، فحمل منها ما أمكنه حمله ، وترك ما أجهده ثقله ، وأضرم فيه النار ، وما تركه لاؤلئك الفجار ، وتتبع تلك القرى والنواحي ، واستوعب بسيفه هاتيك الضواحي، وأقام على ذلك أياماً ، يجول بخيله يميناً وشمالا ، وخلفاً وأماما ، يهجم عليهم الكرة ، ويذيقهم المرة المرة ، ويكسرهم كسرة بعد كسرة ، قد تركهم كأنهم اعجاز نخل خاوية ، وهي هاوية الى الهاوية (وما ادراك ماهية . نار حامية – فهل ترى لهم من باقية) ؟ .

وعاد الى حضرة الوزير مظفراً منصوراً ، وجلب عليه ميرة كثيرة وغنما كبيراً ، واسارى من الرجال ، والصغار والأطفال ، فرقهم في العسكر للاستخدام ، وجهز كبارهم الى السفائن كالخدام ، يستخدمونهم الرؤيسا ، في البحر على الدوام ، وسارت بها البشائر ، فسرت البعيد والقريب ، وخصت من جداها بالخصب الجديب ، وعمرت بمعانيها المغاني ، وعمت بمسرتها الأقاصي والأداني ، وصح منها للإسلام نصره ، وللالحاد هزيمة وكسرة، ولاهل الايمان هناء ومسرة ، وامتلأت الايادي بالاسلاب والاكساب ، ودخل الدفتر من عدد الاسرى ما لم يكن في الحساب ، وقام بهوان الالحاد قاطع البرهان ، وليس الخبر في ذلك كالعيان .



الفصل السابع و العشرون

في عزم حضرة الوزير على الدخول الى بلاد مطهر ، وفتح (قلعة شبام) من حصون ذلك المغتر المعثر

لما كان رابع ربيع الأول المبارك ، سنة سبع وسبعين وتسعمائة قوض حضرة الوزير وطاقه وحمل مضاربه ورواقه ، وكمل للسفر الميمون يراقه ، وجنب جنايبه وركب خيله وبراقه ، وقد ستر بسواد عديده النهار ، وأفاض بياض جديـده الأنوار ، في جيش يصادم مناكب الأطواد ، مواكبه ، وتملأ الوهاد والآكام ، وطوالعه وغواربه كأنما قدحت لإذكاء نار الحرب كتائبه ، وعبرت فاعربت عن مناقبه مقانبه ، وقد صرفت فرسانه أعنة خيلها إلى الجلاد ثانية ، وعلمت الوقايع انها لثمراته اليانعة من ورق الحديد الأخضر جانية ، فاستمر يسير في جحفله الكبير ، إلى أن نزل حول (قلعة المقنّب) فضرب وطاقه هناك وطنّب ، وهذه القلعة هي نهاية حـد مملكة صنعاء ، وهي لطائفة الدعاة المطيعين للسلطنة أصلاً وفرعاً .

وأقام حضرة الوزير بهذا المقام ، لاستكمال وصول المدافع ثلاثة أيام ، لصعوبة نقلها في تلك الأغوار والانجاد ، وعدم سلوكها بالهون في الآكام والوهاد ، فلما تكامل وصولها وقرب حصولها ، ارتحل حضرة الوزير في تاسع ربيع الأول، وانتقل بعساكره المنصورة وتحول، وخيم في فناء (مدينة شبام) وضرب حوله الوطاق والخيام .

وهي مدينة واسعة ذات أندية شاسعة ، يحيط بها من الجوانب الثلاث جبال شامخة في الهواء ، راسخة في حضيض الماء ، لا يمكن الوصول اليها من تلك الجوانب ، ولا يرقاها غير الثعالب والأرانب ، والجانب الرابع المستقبل للفضاء ، محصن بجدر شاهق البناء ، مبني باللبن الشديد ، المنسبك كالحديد ، طوله خمسة آلاف ذراع ، وعرضه خمسة عشر شبراً ، وفي جانبيه قلعتان يحفظانها من طوارق العدوان ، فيها مدافع ورماة ، لا يقربون إلى ذلك الحصن من اراده ورماه ، احدى القلعتين اسمها (قصر العَرضة) والثانية تسمى (اللبّاخة) مشحونتان بآلات السلاح من المدافع وغيرها .

قال في « الروض المعطار » : شبام بكسر أوله وقد يفتح ، جبل لهمدان باليمن ، ومن مدينة شبام إلى حضرموت أربع مراحل ، وهو حصن منيع جامع آهل ، في قنة جبل منيع لا يرقى أعلاه إلا بعد جهد ، وفي أعلاه قرى كثيرة عامرة، ومزارع ومياه جارية، وغلات وافرة. قال : ولما وقعت الزلزلة باليمن انهدمت شبام جميعاً إلا دار ابراهيم ابن الصباح ، وكان كثير الصدقة ، فقيل : انه سلم من البلاء لكثرة صدقته انتهى .

وقلعة (كوكبان) حوالة على من يريد أخذ شبام ، كالقاهرية بالنسبة إلى (تعز) وكوكبان قلعة عالية في قلّة جبل عـــال ، لا يصعده غير الأوعال ، ولا يرقاه غير نسيم الصبا والشمال ، هي مقر محمد بن شمس الدين ، مسلطة على شبام ، ترمي عليه من خلف وأمام ، ووراء وقدام ، فصمم رأي حضرة الوزير على أخذ شبام ، ووجه اليها بعض الأقوام ، فجاسوا خلالها ، وتأملوا قلالها ، فوجدوا مجرى الماء من داخلها إلى الخارج ، يمكن أن يدخل منه واحد ، فكمن هناك جماعة بالليل ، ودخلوا من ذلك المجرى دخول السيل ، وأتوا إلى باب الحصن وهو من حديد ، وحوله حرس فضربوهم بالسيوف ، وفتحوا باب القلعة، ورأى العسكر السلطاني باب القلعة مفتوحاً ، فهجموا منه ، ودخلوا البلد وملكوها، وثار ضرب السيف ، وتفرق العسكر

في أزقتها ، وقتلوا من وجدوا منهم ، وسلك بعضهم إلى أعلى قنة الجبل ، وكثر عليهم العربان ، فقاتلوا وهم منفردون عن أصحابهم ، فمنهم من استشهد ، ومنهم من رمى نفسه من أعلى الجبل فتكسر ، ومنهم من نزل على حمية إلى أن اجتمعوا ببقية العسكر ، واشتد الحرب بينهم ، فرأى حضرة الوزير ذلك فهجم بنفسه ، مع طائفة من شجعان عسكره إلى داخـــل شبام ، وشجع العسكر ، فصار الرمي يأتيهم من حصن (قصر العرضة) ومن حصن(اللباخة) فعين حضرة الوزير لأخذ (قصر العرضة) حسن باشا ، وعين معه جماعة ، ثم عين آخرين (لحصن اللباخة) فأخذتا ، وهرب من فيهما .

وكان في حصن (قصر العرضة) نحو مائة أسير ، من طائفة الاروام ، ومعهم عم الشيخ عبد الله الداعي ، وهو يعرف الموضع الذي هم به محبوسون ، فتوجه سريعا إلى محل الحبس ، وأخرج عمه ومن معه من المأسورين ، فكأنهم عادوا إلى الحياة الدنيا ، وتوجهو إلى حضرة الوزير ، فلاطفهم ، وعين لهم الجوامك ، واستمر الحرب ، إلى أن حجز بين الفريقين سواد الليل ، وغنمت العساكر السلطانية شيئاً كثيراً مما وجدوه مخزونـــاً في (شبام) ، وعاد حضرة الوزير إلى محطته ، واستشار الأمراء في أمر(شبام) فاجمع رأيهم على ان تخريبه أولى من ابقائه ، لأنه لا يمكن تملكه إلا بعد أخذ (قلعة كوكبان) لأنها حوالة عليه ، فأمرهم بهدم شبام ، إذا أصبح الصباح ، فلمـــا أشرقت الشمس توجه العسكر إلى شبام ، وأحرقوا ما يمكن احراقه ، وهدموا ما يمكن هدمه وقلعوا أبواب بيوته ، وأخشاب شقوفه ، وجعلوه حطباً في المحطة لقلة الحطب ، في ذلك المكان ، وأخربوه بقدر الاستطاعة والامكان .

ومن أحسن ما قيل في تواريخ (شبام) : دخل شبام . وكذلك أيضاً : إنا فتحنا أبوابك يا شبام . وكان أخذه وأخذ العَرْضة واللباخـــة وهدمها وتخريبها في حادي عشر ربيع الأول سنة سبع وسبعين وتسعمائة .



الفصل الثامن والعشرون

في نقل حضرة الوزير من محطته من شبام ، إلى تحت جبل (ثلا) ، وكوكبان وطلب عبد الله الداعي الإذن في التوجه إلى بلاده ليجمع من قبائله وغيرهم ممن يساعد عسكر السلطان

لما فرغ حضرة الوزير من أمر شبام ، نقل محطته بين ثلا وكوكبان واستدعى الأمراء والعقلاء الكبراء ، يستشيرهم فيما يفعله في ذلك المكان ، فكل واحد من (ثلا) وكوكبان ، في غاية العلو والتحصين ، وقلاعها في أعلى درجات الاستحكام والتمكين ، وهما من احصن قلاع الزيديين ، وأقوى ما بأيديهم من المكان الحصين، فاجمع رأيهم الى أن أخذ مثل هذه القلاع يحتاج الى مصاولة ، والى مخاتلة ومخادعة ، وكثرة علاج ومزاولة ، وان الاحتياج شديد الى علف الدواب ، والى ما يطبخ به من الأحطاب ، وكلاهما من الضروريات ، وكذلك العليق ، وسائر المؤونات .

فاستأذن الشيخ عبد الله في أن يتوجه الى(المنقب) وسائر بلاده،ويطلب جميع قبائله واتباعه ، ليجلبوا على العسكر أنواع الميرة ، وما يحتاجون اليه من المنافع الكثيرة،ووعدهم بأن يطلب لهم العربان، ويستجلبهم باعطاء الأمان، ويأخذ منهم الرهائن ، على عادة أهل تلك الأماكن ، وانه اذا جمع طائفة مطيعة من العربان ، توجه من خلف (حصن كوكبان) ليشغلهم بالقتال في

ذلك المكان ، وتقاتلهم عساكر السلطان ، من جهة المحطة بالمدافع والنيران ، فلعلهم ينتصرون ، ويأخذون (كوكبان) ويغلبون .

فرأى حضرة الوزير كلامه صوابا ، وارتجي ان يفتح الله عليه من ذلك ابوابا ، ورضي له بذلك ، ووافق ان يأذن له في سلك تلك المسالك ، وجعل غاية غيبته الى اوبته عشرين يوماً ، فوافق على ذلك، فحصل الاذن الكريم ، فتوجه الى قومه مصحوبا بالتكريم .

واستمر حضرة الوزير في ذلك المقام، بجيشه وأعوانه في الاوطاق والخيام، فاحتاجوا الى العلف والحطب ، والى بعض ما لزم من الضروريات ووجب ، فسأل عما هناك من القرى والمزارع، التي يوجد بها تلك المعايش والمنافع، فذكروا له قرية اسمها (حبابة) فيها من النعم والخيرات صبابة ، والزرع فيها قائم على سوقه ، غير أن الزيدية يتظاهرون على خيلهم فوق الآكام ، ويبدون سوادهم من بعد لعسكر الاسلام ، فركب حضرة الوزير بنفسه في نفر قليل، وأخذ معه ثلاث مدافع على عجل بالتعجيل ، وساق نحوهم ورماهم ، فغابوا كأن الله قد أرماهم فأصماهم ، فأمر الغلمان فمضوا إلى (حبابة) وقطعوا من الزرع ما أرادوا ، وقلعوا من الأبواب وأخشاب السقوف ما قدروا عليه وأصابوا في ذلك وأجادوا ، ورجعوا إلى المحطة ، وحطوا أحمالهم حطة ، وارتفقوا بذلك أياماً، واتسعوا طعاماً واطعاماً ، ثم احتاجوا إلى مثل ذلك ، فتوجه الأمير محمود مع بعض الفرسان ، وخرج بطائفة من الخدم والغلمان ، وأرسلهم إلى المزارع المعهودة ، على الوجه المعهود ، وكمن هو ومن معه من اللاوث والأسود ، في موضع خفي عن العيون ، يصلح للاستتار والكمون ، وذلك في وقت السحر، حيث لم تنفتح فيه عيون الزهر، في السادس والعشرين من ربيع الأول سنة سبع وسبعين وتسعمائة .

فما وصل الغلمان الى المزارع ، إلا وظهر من صوب الجبل لوابس ، ملفوفة في مقانع وملابس ، وأغاروا الى صوب الغلمان ، يحسبون انهم منفردون في

ذلك المكان ، وإذا بالأمير محمود ظهر لهم من الكمين بالفرسان ،وحمل عليهم هو وفرسانه بالسيف والسنان ، كأنهم صف مرصوص البنيان ، وثبت الزيديون بعض الثبات ، ثم وثبوا للفرار أشد وثبات ، وقطع منهم عدة رؤوس ، وأسرت نفوس ، ورجع الغلمان غانمين بالأسرى واللبوس ، والامير محمود ورجاله سالمين من البؤس ، فدخلوا الاوطاق وطافوا بالرؤوس على الرماح ، وغرسوها في جنب البطاح ، وتوسعوا فيما أتوا به من العليق والعلف ، وصانوا الدواب من الجوع والتلف ،وطال عليهم غيبة عبدالله الداعي ، ومضى موعده ، ولم يصل بما وعد به من المساعي ، وضاق حال العسكر في الإقامة ، وكره كل واحد منهم في ذلك المقام مقامه ، غير ان حضرة الوزير ، أمعن في الفكر والتدبير ، وهو يأخذ رأي كل واحد ويستشير ، ويتلطف بهم في الموارد والمصادر ، ويبسط لهم القول في المعاذر ، ويتضرع إلى الله العزيز الحميد ، ويطلب منه الاعانة والتسديد ، انه كريم مجيد ، فعّال لما يريد .



الفصل التاسع والعشرون

في أريحية ظهرت من الصلاح الداعي ، حققت له انه للصدق مراعي

كان الصلاح الداعي الهمداني (دزادار القاهرية) من جهـــة مطهر ، لما وصل في الطاعة ، ووافق الجماعة ولبس تشريف الإذعان والإطاعة ، ونابذ المطهر وأتباعه ، وقطع منه ومن طائفته أطماعـــه ، قصد أن يظهر خدمة ونصحا ، ويبدي صداقة ونجحا ، ليستر ما مضى له من العُوار ، ويغسل عنه ما دنسه من عور العار ، وكان قبل ذلك في أيام اتباعه للمطهر ، جعله حاكما على (وادي بون) وفيه قرية عظيمة ، تسمى (الحائط) فلما نابذه وخالفه ، جعلها لغيره ، وكان للصلاح إدلال سابق على أهل ذلك الوادي ، وإحسان متقدم وأيادي ، وخبرة واطلاع على أحوال ذلك النادي ، طمع في الاستيلاء عليهم ، والانتفاع بما لديهم .

ولما رضي عنه حضرة الوزير ، جعله أميراً على طائفة (الشفاليت) وهم طائفة من العرب ملفقين من كل قبيلة ، يأكلون العلوفة السلطانية ويخدمون العسكر سفراً وحضراً ، ويربون شعورهم ، ويسمى الواحد منهم (شفلوتاً).

فالتمس من حضرة الوزير أن يأخذ طائفة من (الشفاليت) والخدام ، ويغير بهم على (وادي بَوْن) وقرية (الحايط) في الظلاّم ، ويأتي منها بما يجد من الذخيرة والطعام ، فأذن له حضرة الوزير في ذلك ، فأخذ طائفة من (الشفاليت) ، وسلك فجاج السباريت ، وركب مع من يعز عليه ،ويعرف

طاعته وانقياده اليه ، وأغار على ذلك المكان ، وهو يعرفه ساساً وغراساً ، ولا يخفى عليه مخالسه ومخانسه ، ولم يخش من أهله بأسا ، فوجد هناك جمعاً قليلاً من الزيديين ، ولفيفهم من العربان المذبذبين ، فقاتلهم وقتل منهم عدة، وقطع منهم رؤوساً ، وأسر منهم جملة أنفار،واستاق ألف رأس غنَم وغنِم، وحمل ما قدر من الغُنْم وسلم ، ونهب أبقاراً ، وآبَ قارّاً ، وقدم جميع ذلك لحضرة الوزير ، فقابله بالشكر الكثير ، والخير الكبير ، وتحقق نصحه وصداقته ، وعلم وثوقه واستقامته .

وفي الحقيقة فإن طائفة (الدعـــاة) بتلك الأقطار ، من أكبر أعداء الزيدية الأشرار ، ولا يوالونهم إلا بحسب الظاهر لأجل الاضطرار ، ولا يقيمون لهم شيئاً من القدر والاعتبار ، وعداوتهم مستمرة راسخة القرار ، يثير آثارها قرب الجوار ، وتشب نيرانها ملاصقة الدار ، وهكذا جرت عادة الله بينهم قديماً وحديثاً ، ولا زال بأسهم بينهم حثيثاً .



الفصل الثلاثون

في بعض الحروب الجزئية ، بين بعض السرايا وطــــائفه من الزيدية

وفي اليوم الرابع من ربيع الثاني، سنة سبع وسبعين وتسعمائة ، خرجت مقدمة من الجيش المنصور السلطاني ، والجند المجبور الخاقاني ، مـا بين شبان وكهول ، على سلاهب وخيول ، تطير إلى المنايا كالنبال ، يختالون في سفح (ثلا) طلباً للمبارزة والقتال ، ويتخطفون ما وجدوا في ذلك السفح من الحيوان والمال والرجال ، فلما لم يتراءى لهم أحد ، ولم يقع نظرهم على من نحا اليهم وقصد ، نزلوا آمنين ، وأطلقوا دوابهم للرعى كامنين ، وأخرجوا اللجم عن أفواه الجياد ، ومنهم من قيد حصانه بالقيد المعتاد ، وإذا بالكمين هجم عليهم من الزيديين على غفلة ، فوثب من قدر على حصانه وثوب الأُسد عند الجفلة ، وحمل على العدو قبل أن يتكامل الفرسان ، وأخذوا في الضرب والطعان، وانتشرت فرسان الزيدية ، وكانوا أضعاف مقدمة جيش السلطان، وأدركوا من قيد حصانه وهو يريد أن يفك قيد الحصان ، وما تمكن من ظهر حصانه ولا لجه بفضل العنان ، فوقعت عركة أي عركة ، واشتبكت السيوف والارماح بينهم أي شبكة ،فانتشب الحرب،واشتجر الطعن والضرب، وكثرت الجراحات وعظم الكرب ، وقتـل من الزيدية جماعة ، أسرع بهم مالك إلى النيران ، واستشهد اثنان من عسكر السلطان ، تسلمها رضوان إلى

الجنان ، وما زالت رجوم البنادق تنقض ، وأبكار الدروع بجـــد الذكور تفتض ، إلى أن افترق الفريقان ، وتراجع الجمعان ، وعادت الفرسان ببعض رؤوس الأعداء الى الديوان ، وطيف بها في الميدان ، وأوقد أهـل (ثلا) و (كوكبان) شعل النيران ، لإعلام العربان انهم قتلوا اثنين من عسكر السلطان ، ولم يحتفلوا بما قطع من روس الزيدية التي لا يحيط بها الحسبان ، فتفرح العرب بذلك الفرح الزور ، ويقوى قلبهم على إيغار الصدور ، فباتوا في اشتغال بالاشتعال ، يورون شعل النيران في قلل الجبال .

فلما كان وقت السحر ركبت المقدمة كرة أخرى للكر ، وهي ترجو على العدو الظفر ، فأغاروا على سفح جبـل (ثلا) فلم يجدوا فيه رجلاً ، فنزلوا عن ظهور الخيل، وأراحوها بقية آخر الليل، فلما سل جيش الصبح قواضبه، وأظهر قرن الشمس حاجبه ، وانهزم سواد الليل وقوض سحائبه ، وهجم بياض النهار وطنّب مضاربه ، نزلت فرسان من الجبل تريد القتال، وأقدمت على الهبوط إلى ذلك المجال ، وانتشروا ممتدين ، فنطحهم من تلك المقدمة كل خفيف على ظهر حصانه ، معتقل بعطف مرانه ، مشتمل بشرفيه وسنانه ، بيـت :

ثقال إذا عادوا ، اخفاف إذا عدوا   كثير إذا لاقوا،قليل إذا عدّوا

فطحنوا العد طحنا ، وأشبعوهم ضرباً وطعنا ، وطال القتال ، وطارت النبال ، وحاضت الذكور ، وحامت حول القتلى العقبان والنسور ، وأين بارزوا العدو فالمنون له بارزة ، والعزائم له مناجزة ، والفرسان زاحفة اليه حافزة ، وهم يسكبون في نار الوغا سبائك الظبا ، ويحصدون بحدود الشفار سنابك الطلى ، إلى أن حجز بين الفريقين حر النهار ، ورجـــع عسكر السلطان بعد انهزام جند الشيطان إلى الدمار ، وقـد رويت السيوف من الدماء، وسالت الحتوف الدأما،وأتوا إلى حضرة الوزير برؤوس القتلى،وارتعد لذلك فرائص أهل كوكبان و (ثلا) .

الفصل الحادي والثلاثون

في تجهيز حسن باشا الى خلف (كوكبان) واستدعاء الداعي الى اعانته في ذلك المكان

لما طال ابطاء عبد الله الداعي ، ومضى موعده ولم يصـــل بعربانه إلى المحطة ، كما سبق وعده بذلك المساعي ، عـــلم حضرة الوزير فتور عزم عربانه الأنذال ، عن الوصول معه للقتال ، وإيثارهم الراحة على الجـلاد والجدال ، وانهم يحتاجون إلى محرك يثير عزمهم الساكن ، ويسوقهم الى تلك الأماكن والمكامن ، وكأن حسن باشا ، له اسم حسن بين الناس بأنه (بكلربكي) اليمن،وانه ممتاز عن سائر أمراء السناجق بالهيكل والاسم الحسن، وانه أعطي بسطة في الجسم ، وبركة ولطفاً في الاسم ، أمره أن يأخذ جميع عسكر اليمن مع جميع متفرقة مصر القاهرة،أهل الجوامك الكثيرة الوافرة ، ويأخذ معه محمود بك ، صاحب اللواء الشريف السلطاني ، ويتوجه إلى بلاد الداعي ، ويستصحبه مع جميع عربانه ، ومن دخل تحت الطاعة ، من القبائل والعربان، ويتوجه بهم خلف (حصن كوكبان) ويحاصرهم من هناك ليتوجه حضرة الوزير ، لمحاصرتهم ومقاتلتهم من الجهة التي هو فيها ، فيقوى بجند الأروام ، قلبُ عبدالله الداعي، وطائفته الداخلين تحت الطاعة والاستسلام ، فاجتمع على حسن باشا من عسكر اليمن وعسكر مصر الف وخمسمائة نفر ، ما بين فارس وراجل ، وتوجه في خامس ربيع الثاني سنة سبع وسبعين

وتسعمائة ؛ فلما فارق حسن باشا وطاق حضرة الوزير ، ومحطته ، دار حول جبل كوكبان بنفسه ، ونظر زواياه وخباياه ، وتأمل ظاهره وخفاياه ، وفكر بنظره هل يمكن أن يدخل منه إلى الحصن ، وهو متفكر في ذلك ، إذ فارقه آغا (الينكجرية) الواردين من مصر ، وآغـا (الينكجرية) الواردين من الباب ومعهم نحو الخمسة عشر نفراً من (الينكجرية) وتوجهوا إلى الجبل ، إلى أن وصلوا إلى أعلاه ، قريباً من (حصن كوكبان) وقد بعدوا جداً عن حسن باشا ، ومن معه من العسكر ، فخرج عليهم مـن (حصن كوكبان) خيل ورجل بكثرة ، وانفردوا بالأغايين المذكورين ومن معهما ، وكثروا عليهم ، فعلموا انهم انقطع عنهم المدد ، وبعدوا عن العسكر جدا ، وشاهدوا الموت عياناً فثبتوا للعدو ، وقالوا: نقاتل فنُقتل ونقتل لئلا نمضي هدراً ،وصدقوا في القتال فقتلوا عدة عديدة من الأعداء ،إلى أن كثر العدو عليهم ،فقتلوا في سبيل الله ، ورزقهم الله تعالى الشهادة ، وفازوا بالجنان ، ومضوا تحفهم الرحمة والرضوان ،وقد غروا بأنفسهم فيما فعلوا رحمهم الله تعالى.

وقد قيل : ليس المغرِّر بمحمود وان سلما .

فلما وصل خبر ذلك إلى حسن باشا تكدر لذلك ،وأرسل إلى حضرة الوزير يعرض عليه ما وقع ، وفرحت الزيدية لذلك ، وأوقدوا له النيران ، إظهاراً للسرور ، وارادة للغلبة ، ويأبى الله إلى ما أراد ، والله رؤوف بالعباد .

ولم يكترث في الظاهر حسن باشا بذهاب هذه الفتيان حيث أقدموا على الهلاك بأنفسهم ، من غير استشارة من أحد العقلاء ، ولا استئذان منه في القائهم أنفسهم بأيديهم إلى التهلكة ، ولا يقدم عاقل على مثل هذه المَهلكة المُهلكـة .

وتوجه حسن باشا إلى بلد الداعي يستنهضه في ما أمره به حضرة الوزير.

وسيأتي بيان ما وقع في ذلك المسير ، ان شاء الله تعالى .



الفصل الثاني والثلاثون

في ركوب حضرة الوزير الى (ذيل كوكبان) لملاحظة طريق أخذه ، واغتنام مطهر غيبته ، واقدامه على المحطة وانكساره وخيبته

لما جهز حضرة الوزير من جهز من العسكر مع حسن باشا ، خطر بباله أن يركب إلى سفح (كوكبان) ليتأمـــل مخالسه وجوانبه ، وطرقه ومساربه ، ليختار ما هو الأهون منها لصعود العسكر السلطاني ، وافتتاحه والاستيلاء عليه ، فبرز مع جمع من الفرسان ، الأسـاررة الشجعان ، وطاف بسفح (جبل كوكبان) وعلم ذلك محمد بن شمس الدين وابتدر إلى حفظ الحصن والخندق ، ونبه أهـل الحصن وحذرهم وأنذرهم ، ورمي بالمدافع الكبار ، وأوقد النار لإعلام مطهر في (ثلا) بان الوزير وصل إلى ذيـل كوكبان ، وان محطته خلت منه ، فلعله يغير عليها ، وكان ذلك مرموزاً بينهما ، فأكب على مطهر نقباؤه وأمراؤه ، وجرّؤوه على النزول الى محطة الوزير ، ورأوا أن ذلك فرصة لا يقع لها نظير ، وانهم يبذلون مجهودهم ، لينالوا مقصودهم ، وعملوا له رجلا من حديد ، وقلباً كالبولاد الشديد ، وما ذلك له بعادة ، بل كان الفرار [وعدم القرار] فيه معتادة ، فجمع أولاده وبنيه ، وأتباعه ونقباءه وذويه ، وأسلحته التي يظن انها تحميه ، وأراد النزول الى ذيل جبل (ثلا) وركب حماراً كما هو مألوفه أولاً ، فانه لعرجه

لا يقدر على ركوب الخيل ، ويخاف أن يميل به الحمار أيضاً بعض الميل ، بل يمسكه نقباؤه وهو على الحمار ، خوفاً من الكبوة والعثار .

فلما خرج من داره ، واستولى على حماره ، ضرط الحمار فاتخذه فالاً لانكساره ، وعلامة على هزيمته ونفاره، فتقهقر ورجع وأدركه الجبن والهلع، وأرعده الخوف والفزع ، وظن انه إذا خرج من جحره لا يعود اليها ، واذا برز من نافقائه لم يقدر بعد ذلك عليها ، فاعتذر الى العسكر بعض الأعذار منها التفاؤل بضرط الحمار ، وصار كلما شجعه أصحابه ، وقوى قلبه أحبابه، نكص على عقبه الى ورا ، ورجع بحماره القهقري ، وأحجم وما أقدم ، وعزم على النكوص وصمم ، غير انه اختار من فرسانه ، وخاصة أعوانه وشياطينه الملقين اليه بطغيانه ، المحسنين لبغيه وعصيانه ، المشاركين له في إلحاده وعدوانه ، مائة فارس ، وثلثمائة راجل ، وقوى زعيمهم بزعمهم الباطل ، وقال لهم : اغيروا على الوطاق ، وأظهروا شقاشق لا تطاق ، فإن أصبتم المحل خالياً غنمتم ، وإن وجدتم من يحمي المحطة ففروا كما وهنتم ، وكفاكم شائعة الاغارة على الوطاق السلطاني ، وأراجيف الناس أنكم أغرتم على المحطة ، وفزتم بنيل الأماني . بيت :

مُنًى انْ تكنْ كِذباً فقد طاب كِذْبُها   وإن صدقَتْ يوماً تضاعَف طيبُها

فانظر إلى هذا الملك الضِلّيل ، الذي يرده وجيشه ضرطة حمار ضئيل ، وأعجب منه ومن رأيه الكليل ، وقناعته من المُنا بالأباطيل ، مع هذا الادعاء العريض الطويل ، والأنف الشامخ إلى ذُرى الاكليل ، وخذ من دهرك عجباً فانه أبو الأعاجيب :

والليالي كما علمت حُبالى   مُثقلاتٍ يَلِدْنَ كل عجيبِ

ولما انفصلت السرية ، وهبطت بخيلها ورجلها ، إلى سفح الجبل على حميّة ، وظنت أن محطة الوزير أَجَمَة من الأسد خلية ، وحملت الخيل جملة واحدة ، والرجال في أثرهم متواعدة ، إذ برز لهم شيخ عربان الجيزة ،

وعزيز مصر نجل الامراء العزيزة :

متفرع من دوحـــة عربيـــة هي والشجاعة جـاءتا من عنصر
مثل الحسام جلا الصياقلُ مَتنَه حتى ترقرق فيه ماءُ الجوهر

الأمير الكبير، الزيني حماد بن خبير،وكان مع فرسانه متخلفاً في الوطاق، عن حضرة الوزير ، وكان متيقظاً للحفظ والدرك ، متهيئاً للدخول في حومة المعترك ، فلما رأى الزيديين مقبلين ، والى الاغارة على طرف الوطـــاق مسترسلين ، ركب في تُرْكٍ أنجاب ، وعرب على عراب ، وفرسان من سماتها الطعان والضراب ، بأكباد غلاظ على العدى ، ورقاق حداد على الطلا ، ورمـــاح لدن عسالة ، وسيوف أحكم صيقلها الصقالة ، فاختلط أحزاب الشيطان بابطال الايمان ، ونزع السيف ما في صدورهم من غل فاعتنقوا كالاخوان ، وتعانقت الرقاق والرقاب ، وتقطعت بهم الأسباب ، فأيقنت فرقة الالحاد بالدمار ، وصممت على الانهزام والفرار ، وعرفت أن البلايا عليهم متصلة غـــير منفصلة ، وان قواهم لما لقوه من النكاية غير محتملة ، ففروا إلى جبل ما عصمهم ، ولقوا في منصرفهم ما حطمهم وقصَمَهم ، ورجعوا وقد كُسِروا ، وخسروا ، وقتل منهم عـــدة وأسروا ، وأرغمت منهم معاطس ، وفرست منهم فوارس ، وفرشت بالعراء أشلاءهم اللوابس ، وعـــاد الامير حمّاد إلى الوطاق ، ومعه منهم عدة اسرى مشدودين بالوثاق ، ورؤوس على رماح حاق بهم ما حاق ، وقتل من الزيدية طائفة من أعيان نقباء مطهر ، الأعرج الأبتر ، واقتلع خيلهم وهي من أحسن الخيل ، وعليها وسم مطهر ، واقتلع عدة منخيول أُخَر ، وعادوا الى الوطاق المنصور ، وأخذت الشمس في الأفول كما تدخل المخـــدرات الى الخدور ، وترخي جلباب الستور ، وأقبل الوزير عائداً الى أوطاقه المعمور ، فلما تقدم اليه حماد ، وأعلمه بما وقع من الحرب والجهاد ، ونثر بـــين يدي

حصانه رؤوس القتلى ، وقدم اليه الأسرى يرسفون في قيودهم هوانا وذلا ، فحمد الله تعالى على هذه النصرة ، وشكر لطف ربه إذ لم يتمكن الاعداء أن يأخذوا وطاقه على غرة ، واعترف بعجزه عن شكر خالقه الكبير المتعال ، وقوي جأشه بما شاهد من لطف الله تعالى به في جميع الأحوال ، وكان ذلك في العشرين من ربيع الآخر ، سنة سبع وسبعين وتسعمائة .



الفصل الثالث والثلاثون

في ركوب حضرة الوزير على معتاده الى ذيل (كوكبان) وارسال مطهر نقيبه فرحان ، مع طائفة من الزيدية الى المحطة ، ووقوع القتال ، وقتل فرحان وغالب عسكر الدجال

كان الوزير المعظم في كل يوم ، يركب إلى ذيل (كوكبان) ويأخذ معه بعض أهل الرأي والتدبير من الأمراء والفرسان ، متــأملاً في أطراف ذلك الجبل وجوانبه ، متوخياً محلاً يمكن الهجوم منه اليه من كواه ومساربه ، وجعل ذلك دَيْدَنَـهُ في حركاتــه ، ودأبه وهجيراه في سائر أوقاته ، والجواسيس تحفظ جميع أحواله ، وتنقل الى الاعرج ما تجدد من حاله .

فلما كانت الليلة التي يسفر صبحها عن ثالث عشري ربيع الآخر ، برز على عادته ، والنصر ملازم ركاب سعادته ، وخلف في الوطاق السعيد ، لدفــع مكر الزيدية فان مكرهم لشديد،ابن اخيه الفارس المقدام ، الاسد الضرغام ، افتخار الأمراء العظام ، الامير مصطفى ، أعلى الله شأنه ، ومكن من صدور الأعداء رمحه وسنانه ، والبطل الفارس الشجاع الكبير ، المداوس الامير (قيت آغا) وطائفة من الجراكسة اللوابس ، وشيخ عربان مصر بالجيزة الامير الكبــير ، الزيني ، المتقدم ذكره قبل هذا التقرير ، حماد بن خبير، وأوصاهم بحفظ الوطاق المعظم، ومضى إلى ما توجه بصدده وتقدم.

فلما نشر الصبح خافق لوائه ، وطرد جيش الظـــلام بصمصام ضيائه ، وطبق الأرض ضياء ونوراً ، وانهزم جيش سواد الليل مكسوراً، قوى جأش الأعرج بغيبة حضرة الوزير المعظم ، وأرسل طائفة من غُواته للهجوم على المخيم ، وجعل قائدهم وأميرهم ، وسفيرهم ومشيرهم عبده النقيب (فرحان) وضم اليه ما ينوف على المائة من الفرسان ، ونحو الخمسمائة من الرماة ، فنزلوا إلى سفح (ثلا) من أعلاه ، وقصدوا الوطاق بالعزم والاتفاق .

وكان الأمراء المحافظون كمنوا في ذيل الجبل،حيث لا يشعر بهم الزيديون، فاستمروا في كتم الخفا الى أن زلفت الزيدية عنهم زلفاً، وتوسطوا بينهم وبين الوضاق السعيد ، وأحاطوا بهم احاطة السوار باليـــد والطوق بالوريد ، فحطمتهم الخيول من جانب الكمين ، وبرز لهم من الوطاق أسود العرين ، فجاؤوهم فجاءة ، وقطعوا من كل منهم رجاءه ، وبغتوا فبُهتوا ، وطلبوا أن يفلتوا فما فلتوا ، فحبطت أعمالهم ، وخابت آمالهم ، وضلوا في سعيهم وتورطوا في بغيهم، وسقط في أيديهم، وحاق مكرهم بهم، وكيدوا بكيدهم. وزحف أهل السنة على الملاحدة بالصوارم الملتمعة والأسنة المشرعة والأعنة المسرعة ، فانكسرت الملاحدة كسرة ، فرشتهم على الأرض ، وذكرتهم الواقعة بوقوعهم في النار يوم العرض، وركبت أهل السنة وجوههم وأكتافهم، وفلوا فيهم أسيافهم ، وعقروهم وعرقوهم ويجّوهم وبعجوهم ، وحكموا في الرقاب الرقاق ، وضربوا بالسيوف الأعناق ، فصاروا كاعجاز نخل خاوية ، وهوت أرواحهم هاوية الى الهاوية ، فكم جثة بلا رأس وبنية بلا أساس ، ونحْر قد نحِر ، ونهر دم قد أنهر ، وعنق قد قطع ، وأنف قـد جُدع ، ونقب ظهر النقيب وصدره باطراف المران ، وبدل بالترح فرح (فرحان) وقطع رأسه ، وخمدت أنفاسه ، وانكسر به ظهر (الأعرج) وعضده ، كما انكسر قبل ذلك رجله ويده ، ودعا على نفسه بالويـل والثبور ، وانكسر جند الباطل ، وهو في كل وقت مكسور ، فوضعوا رأسه مع رؤوس القتلى على الرماح المثقفات ، وداروا به تلك الجهات، وكان له علو بل عتو في الحياة

فصار علوه فوق الرمح بعد الممات ، وكللوا الرماح برؤوس كثير من القتلى ، وطافوا بها وذلك جزاء من تولى .

فلما عاد حضرة الوزير المعظم ، وقارب وصوله إلى المخيم المكرم ، تلقته الأمراء المزبورون ، وهم يرمون تحت سنابك الخيل برؤوس الأعداء وينثرون، ويحمدون الله تعالى ويشكرون ، فسجد الوزير شكر الله تعالى ، فاعترف بما أولاه ربه تعالى من النعم ووالى ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وله الحمد والشكر في الآخرة والأولى .



الفصل الرابع والثلاثون

في اعتزاز (مطهر) وإرسال ولديه (الهادي) و (لطف الله) مع جماعة من الفرسان ، إلى قتال الوزير ، وبروزه معهما الى ذيل الجبل وقتل (الهـــادي) وانهزام الباقي قبل النزول الى ذيل الجبل .

لما شاع بين العربان ، ما اعترى الأعرج من الفشل والخذلان ، وتحقق عندهم أنه خوار خواف جبان ، أراد أن يظهر من نفسه شيئاً من البسالة ، ويحقق عند الزيدية بروزه ولو مرة واحدة إلى الميدان مع الخيالة ، فطلب ولديه (الهادي) الضال ، و (لطف الله) المضل ، وهما اجرى من عنده من الجيش المبطل ، فانهما وصلا مع (علي بن شويع) وجمعه الشريد ، في الفترة السابقة ، أيام حسن باشا إلى حافة (زبيد) وانكسروا بها كسرة شنيعة ، وانهزموا وهربوا هزيمة فظيعة بشيعة ، ولكن عدُّوا الوصول إلى ذلك المحل مع الانكسار والهزيمة إقداماً تاماً ، وصاروا يفتخرون بذلك على العربان افتخاراً عاماً ، فاختارهما الأعرج جناحين ، ولم يدر أن كلاً منهما لنفسه جَناَحين ، فجعل الهادي على ميمنته ، ولطف الله على ميسرته ، وبين يديهم كماة المصاع وحماة القِراع ، ورماة الحَدَق ، وكلاب السلق ، وصفاة الحتف ، وسعاة العسف ، من كل سرحان ، لا ينظر إلا من جِلد أرقم ، وشيطان ، لا يقتحم من نار الحرب إلا جهنم ، وهم هائجون للثأر ، ثائرون للهيجاء مائجون في دأماء الدما ، مثابرون إلى اللقاء .

وخرج الأعرج من عُشه خروج الخائف المرتعش ، وجعل نصب عينيه انه بهذا الخروج ينتعش أو ينتعش ، وبالغ في كثرة وقود النيران ، وبرز من كهفه ذاكراً بتلك الواقعة يوم المحشر من كثرة الدخان . وأطلقوا على العسكر السلطاني ما عنده من المدافع والبنادق ، وأكثروا من رفع الألوية والرايات والبيارق ، وجعلوا خلف كل حجر من يرمي بالبنادق ، وهيأوا المدافع الطوال ، وزلزلوا الأرض والرمال ، ونسفوا القلاع والجبال ، وأشعلوا نار الحرب ، وأقدموا على الطعن والضرب ، وأصموا الأذان بأصوات كصواعق ، تهلك بالصعق ، أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ، وقامت القيامة وما آن أوانها ، ووقعت الواقعة وما حان زمانها ، ولكن ظهر للعيون عيانها ، وبهر الأبصار برهانها .

فتوجه حضرة الوزير بنفسه النفيسة ، ودس في كل سرب من الكماة دسيسة ،وظن ان الزيدية الخسيسة يحسرون على النزول الى القاع ، ويقدمون هذه المرة وما كل اقدام يستطاع ، فرآهم وقفوا في أثناء الجبل وكمنوا خلف الصخار ، وهم يرمون بالمدافع والبنادق والاحجار ، فاطلقوا عليهم طلقاً من النار ، وأراهم كواكب الليل في منتصف النهار ، وضربهم بالضرابزنات الكبار ، والمدافع التي تهد الجبال وتنسف الصخار،فاراهم الزلزال كيف يكون ، والنفوس والأرواح كيف تبذل وتهون ، وكيف تنشب في فرائس الفرسان اظفار ريب المنون ، فكم من بنيان عمر تهدم ، وكم من طفل تيتم ، وكم من امرأة أرملت ، وكم من حبلى القت ما فيها وتخلت ، وكم من جثث تهلهلت ، ورؤس تجدلت ، وانشد الوزير المعظم سنان ، وهو في حومة الميدان ، يجول مع الفرسان :

لأجردنّ العضب أوقظ َحدّه	من جفنه ، من بعد طول منام
حتى تبيد قبائل فقبائل	ويعض كل مثقف بالهام
ويقمن ربّات الخدور حواسرا	يمسحن عرض ذوائب الأيتام

فهناك اطفأ نيران الحق نيران الباطل ، وظهر أهل السنة ، وأصيب أهل الالحاد المقاتل ، وقتل كثير من رجال الزيدية وأبطالها ، وبطل باطلها وهلك فرسانها ورجالها ، وأصيب (الهادي) بدفع فهدأت انفاسه ، وانطفأ نبراسه وانمحك من صحيفة الوجود نقشه ، ومحيت أنقاسه ، وهرب الأعرج على حماره الى حصنه ، وهرب بعده ولده (لطف الله) بحصانه وهو على متنه يركض مع من ادبر من فرسانـــه ، وانهزم بقية السيف وبقايا النار من جنده العولاء ، ودخلوا في ذلة وقلة الى الحصار في قلة جبل (ثلا) ، ونادى خلف الأعرج من أهل المدافع كل فارس بهَمّة ، (لينبذن في الحطمة ، وما ادراك ما الحطمة نار الله الموقدة ، التي تطلع على الأفئدة) وتلى عليه وعلى اتباعه عساكر أهل السنة المؤيدة. (اينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة)وخفقت الوية النصر وهبت رياحها ، وانفجر فجر الغلبة وطلع مصباحها ، ونادى منادى الفلاح : الا ان جند الله هم الغالبون ، وظهرت اسرار (الم غلبت الروم في ادنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون) فغلبوا بحمد الله وسلبوا، واختطفوا أسلاب الأعداد ونهبوا ، وحال الليل بينهم فلبس الجو جلباب الظلام ، وانفضّ حـــكم اليقظة وتسلط على الأجفان سلطان المنام ، فعاد حضرة الوزير الى وطاقة مظفراً منصوراً ، ورجع الأعرج المكسور الى وكره محطما مدحوراً :

ولمـــا أبى الاعداء الا تمردا أبى الله الا ان يكون لنا النصر
وكم زَجَرَتهُم من سُطانا مواعظٌ فما نفع الوعظ المنبهُ والزّجْرُ
ابى الله إلا أن يموتوا أذِلـّةً وفروا ، وسيّان المنيّةُ والفـَرُّ

وخمدت ولله الحمد نيران الباطل ، وانطفت وانكسفت ، وظهرت أنوار الحق وبهرت وانكشفت ، وقام أهل السنة بنصرة الدين المتين ، وكان آخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين .



الفصل الخامس والثلاثون

في افتتاح حضرة الوزير حصن (حب العروس) ، وطمع الاعرج لغيبته في الاوطاق المحروس ، وانكساره وهو مخذول منكوس

كان من جملة قلاع الأعرج وحصونه ، وأبراجه التي أعدها لأيام غبونه ، ثلاث قلاع ، متقاربة الأصقاع ، متدانية البقاع ، تمد إحداها الاخرى ضراً وشراً ، وأهلها يقطعون الطريق على العسكر سراً وجهراً .

إحـــداها (حصن العروس) ويليها (حب العروس) وبعدهما حصن (الظفر) المعكوس ، مصطفة صفاً واحداً . بعد مسافة إحداها من الأخرى بقَدْر وصول المدفع الكبير جاهداً .

وكان أراد حضرة الوزير أخذها لما مر بها ، فأظهروا له العجز والانقياد ، ورأوا من أنفسهم الضعف وتسليم القياد ، وقالوا له : إذا أخذتم (كوكبان) فنحن تابعون ومطيعون ، ولنشر أعلام الطاعة مذيعون ، وليس عندنا تعرض لكم ولطائفتكم ، ولا تجدون منا ضرراً ولا ضرورة لعامتكم وخاصتكم ، ولكن لا يمكننا الآن تسليم هذه القلاع لـكم ، لئلا ننسب الى العبث والغدر ، وأما إذا أخذتم (كوكبان) فما بقي لنا في تسليمها اليكم عذر ، فصدق حضرة الوزير كلامهم ، بعدم ميله الى إراقة الدماء ، وبغضه لازهاق الانفس ، كما

هو شأن الرحماء ، وقال : إذا أخذنا (كوكبان) و (ثلا) فما حساب هؤلاء ، ولا بد حينئذ أن يطيعوا قسراً ، ويدخلوا تحت الألوية السلطانية قهراً، فتركهم بشروط : ألا يضروا أحداً، ولا يقطعوا الطريق ، ولايكونوا لمطهر الأعرج مدداً ، ثم لما أقدم على قتالى أهل كوكبان وثلا ، وأقام سوق الحرب على ساقها ودعى اليها الجَفَلى ، بلغه ان اهل هذه القلاع يسعون في الارض فساداً ،ويقطعون الميرة على العساكر السلطانية بغياً وعناداً،وينضمون الى جيش الاعرج ، ويكثرون له سواداً ، فظهر لهم انهم خانوا عهوده ، وقصدوا بالاضرار جيوشه وجنوده ، وانه حل له بذلك دمهم ، وانه تعين قتلهم وعدمهم ، دفعا للصائل ، ورفعا للضرر المتواصل من أؤلئك القبائل ، فتوجه بعض (الضربزنات) على عجل ، وصبحهم صباح الويل والوجل ، فانهم صاروا عوناً للباطل ، وغوثاً لزمرة الأباطل ، ورأى ان أخذ القلعة الوسطى أقرب الى تشتيت جمعهم ، وأشد في كسر وسطهم وقصم ظهرهم وصفعهم ، فتوجه اليها ، وحط بعسكره المنصور عليها :

وأموا الحصن ، وطافوا بـه	وأحدقوا كالغِلّ ، لا كالسوار
وانهزم الاعـداء اذ ابصروا	بَحْرَ وَغا تغرق، فيه البِحار
وعذرهم ، إذ هربوا ، واضح	هل يثبت الليل أمام النهار ؟

فتعلقت الرجال الأبطال بجدار الحصن وتصاعدوا الى أعـلاه ، وهم لا يبالون بالنار ورمي الاحجار ، من اؤلئك البغاة ، ويتلقى كل واحد ذلك بوجهه لا بقفاه ، وبصدره لا بِصلاه ، ويتطايرون الى ذلك ويتظافرون ، ولا يبالون بصدمه ريب المنون ، ويعدون الى طرق الموت وهم له مستعدون، الى أن نصبوا السنجق السلطاني في أعلى (حب العروس) وحل بأهل القلعة النقمة والبؤس ، وخربت دارهم وديارهم ، ومحيت من لوح الوجود آثارهم ، وصاروا كحصيد تذروه الرياح ، وخلت من أرواحهم الأشباح ، كما خلى منها النجاح والفلاح ، واستؤصلوا ببيض الصفاح وسمر الرماح ، جزاء بما كانوا

يعملون ، ووفاء بما كانوا يجهلون ، ولكن أكثرهم لا يعقلون ، فهم في طغيانهم يعمهون .

ثم ان طوائف العسكر نهبوا ما فيه من الغلال ، ونهبوا منه الاجمال والأبغال ، ووجدوا فيه حطباً كثيراً ، كانوا محتاجين اليه ، ومثابرين عليه ، فحمّلوه نساء الزيدية ، إلى المحطة العلية ، فكانت كل واحدة حمالة الحطب ، في جيدها حبل من مسد ، وكان ذلك أمرّ ما مرّ عليهم واصعبه وأشدّه ووجدوا في الحصن صهريجاً مملوءاً من الماء فخرقوه من أسفله في النادي، فسال الماء في ذلك الوادي ، وبطل كيد الأعادي ، وفرح الموالي وحزن المعادي .

ثم إن حضرة الوزير أمر بقلع هذه القلعة حجراً حجراً ، وهدمها إلى أن تصير رواية وخبراً ، وأراد بذلك أن يدفع عن العساكر السلطانية ضرراً ، وان لا يترك للأعداء هناك مدداً ولا أثراً ، فما أسرع من أن صارت ربوعها دوارس ، ورسومها طوامس ، وأعاليها إلى أسافلها نواكس، وكانت المصلحة في تخريبها ، والرأي الصواب في تدميرها وتنقيبها ، واكتفى بذلك شر أهل الحصنين الآخرين ، فانها لا يوصل من أحدهما إلى الآخر لبعد المسافة والبين .

وعاد حضرة الوزير إلى مخيمه الشريف كعادته ، والنصر والفتح محتفان بركاب سعادته ، وإذا قد وقع في غيبته أمر عجيب ، وشأن عند العقلاء أغرب من كل غريب ، وذلك أن أهل (كوكبان) لما شعروا ، لقربهم من الوطاق ، بتوجه حضرة الوزير بالليل، وأحسوا بخلو المخيم الكريم عن جرائد الخيل ، رموا بالمدافع من أعلا (كوكبان) وأوقدوا النيران ، ليشعروا أهل (ثلا) بخروج الوزير عن مخيمه بالفرسان ، من أهل الضرب والطعان ، وهذه علامة كانت بين أهل (كوكبان) و (ثلا) على خروج الوزير عن أوطاقه ، ومفارقته عن مخيمه ورواقه ، ففرح الأعرج بهذه الغيبة ، وجمع بقية السيوف من عربانه ، وأهل فساده وطغيانه ، وظن أن هذه فرصة تغتنم ونادى : هذا أوانُ الحربِ فاشتَدّي زِيَمْ ، وقصد الهجوم وقت الصباح

على الوطاق السلطاني ، وجمع شياطينه المردة طامعاً في بلوغ تلك الاماني ، وأعانهم على ذلك قوم آخرون ، وظنوا انهم على ذلك قادرون ، فلما أحس بهم أهل الوطاق ، وكانوا على حذر من مثل هذه المشاق ، جرّدوا سيوفهم وركبوا خيولهم ، وقدموا فرسانهم وفحولهم ، فلقيتهم الأعراب على العِراب ، وهجمت على العربات والأطناب ، فركبت اليهم من الخيام ، أسودٌ تتلقى بصدورها الحمام ، فزحفت الزحوف ، وتداخلت الصفوف ، وتفللت السيوف ، ودنا من ورق الحديد الاخضر القطوف ، فأجهد الخيول الجهـــاد ، وأنضاها الطراد ، وفرى جلودها الجهاد ، وكلت حدود البيض الحداد ، وأثخنت الصوارم في أجساد العدو الجروح ، وفرقت السهام بين الاجسام والروح ، فولت العرب أدبارها ، وحققت انهزامها وإدبارها ، وعادت تعتصم بالجبل ، وأهل السنة تضرب أقفيتهم بالسيوف والأسل ، وتصور في ظهـــورهم وجوهاً لها بالضرب والطعن حواجب وعيون ، وجباهاً لها منها أسارير وغضون ، واقتلعوا منهم أفراساً جديدة ، وقطعوا منهم رؤوس رؤساء عديدة ، وهرب الباقون مع الاعرج المفتون ، الى عش قلعة (ثلا) بعد مقاساة أنواع الفتك والبلا .

ولما قدم حضرة الوزير عائداً من فتح (حب العروس) تلقاه أهل المخيم بالخيول المقتلعة ، والارماح عليها الروس ، فنثروها بين يديه تحت سنابك فرسه ، وقدم كل أسد بمفترسه ، ففرح المؤمنون بما شاهدوه من النصر الذي اتفق وصادف ، وقرّت أعينهم بالفتح والظفر المضاعف .

وكان ذلك في الخامس والعشرين من ربيع الاخير سنة سبع وسبعين وتسعمائة .



الفصل السادس والثلاثون

في صعود العسكر السلطاني الى قلعة (بيت العز) من (كوكبان) وانهزامهم أولا ، ثم صعودهم ثانياً في يوم واعدوا حسن باشا ومن معه أن يصعدوا من جانب آخر، وتخلفهم عن ذلك، وحصول المقصود، ووصول خبر فتح قلعة(درام) في ناحية(وادي خبان) في أثناء ذلك

لما كان يوم الجمعة السادس والعشرون من ربيع الآخر، رأى حضرة الوزير أن يتوجه مع بعض العسكر المنصور الى ناحية (كوكبان) ليصعد بهم إلى قلعة (بيت العز) ويفتتحها بالسيف والسنان ، وجبل (كوكبان) هذا مع ارتفاعه وشهوقه ، وصعوبة مسالكه ، وتوعر طريقه ، وامتناع طروقه ، أعلاه مُسَطَّح فيه عدة قلاع ، متباعدة المسافة ، محكمة الأوضاع ، من أحكم القلاع في سائر البقاع ، وهذه القلعة أقرب قلاع (كوكبان) إلى (ثلا) وأنفعها لأولئك الملا ، فعيَّن حضرة الوزير جماعة انتقاهم ، وتخيرهم لخدمته وابتغاهم، واختارهم للركوب معه من الليل ، ليميلوا إلى أخذ هذه القلعة كل الميل ، وأخذ معه عدة ضربزنات وعدة قوية وآلات، وتوجه ليلة الجمعة سابع عشري ربيع الآخر، فوصل ليلاً إلى ذيل (كوكبان) ولم يرفيه غير نجوم الثور والسرطان ، وقدم المشاة ، ثم الخيالة الثقاة ، ثم عجلات الضربزنات والآلات ، وصعدوا في الجبل بقدر ما أمكنهم في

ذلك المكان ، وتعلقوا بأسباب بجد الامكان ، إلى أن لم تجد الخيل مصعداً في التسيار ، فنزل الرجال عنها وتشبثوا بالأحجار ، وصعدوا في أثناء الجبل بين الصخـــار ، إلى أن لم يجدوا طريقاً للصعود لغلبة الظلام ، وما أمكنهم إيقاد المشاعل كيلا يتيقظ لذلك أهل القلعة من المنام ، فصبروا إلى أن أصبح الصباح ، ونادى منادي الفجر : حي على الفلاح ، واسفرت الوجوه الصباح ، ودارت رحى الحرب دوران كؤوس الراح عند الاصطباح ، وفطن لهم أهل القلعة ، وعلموا ، وشاهدوا مـــا فوجؤا به ودهموا ، فبرزوا من قلعتهم ، وتظاهروا بمنعتهم ، وملكوا سطـــح الجبل ، وانتشروا خلف الصخار كالخنافس والجعل ، وصاروا يدحرجون الصخار ، ويدفعون الأحجار الكبار ، على من تحتهم من العسكر الكرار ، وصار الحجر الواحد يدحرج معه عدة من الأحجار ،فتحطم ما تصادف من الخيل والرجال، وتطحن ما تمر عليه من العسكر الأبطال ، ولم تجد العسكر محـــلا يمكن الصعود فيه ، وما وجدوا مسلكا إلى الجبل ولا طريقاً إلى مراقيه ، فذهبت تحت الحجارة نحو عشرة أنفس من الكماة الأبطال ، ونحو السبعة من الخيل والبغال ، فأمر حضرة الوزير أن يرمي بالضربزنات على من في سطح الجبل ، ممن يدحرج الصخار ، وان يشغلوهم بأنفسهم ، ويشملوا عليهم بذات لهب ترمي بشرر كالقصر ، ليذوقوا عذاب النار ، فأطلقوا عليهم طلقاً ، واحرقوا بنار الله حرقاً ، وزادوهم فرقا ، وقتلوا منهم ثلاثين رجلاً ، ورموهم بالعجل، فأوردوهم بالنار إلى النار عجلا .

وكان ممن سبق منهم إلى السعـــير ، وصار إلى جهنم وبئس المصير ، (قاسم) دزدار قلعة (بيت العز) المأخوذ ، والسيد (بهال) وزير الأعرج المنبوذ ، والنقيب (جابر بن عامر) وزير (محمد بن شمس الدين) ، وغيرهم من طوائف الزيديين نقلوا من (بيت العز) إلى دار الهوان في سجّـــين ، وتمزقت أشلاؤهم ، وهوت إلى أسفل سافلين .

فتراجع العسكر المنصور ، ولواء السلامة على رؤوسهم منشور ، ورجعوا مع حضرة الوزير المعظم إلى المخيم المكرم ، وحمدوا الله تعالى السلامة وهي رأس كل مغنم .

وكان أبطأ على حضرة الوزير خبر حسن باشا ، بعدما جهز معه مقدار الف من العسكر ، وما علم ما وقع له في غيبته ، فجاءه الخبر انه دار خلف (كوكبان) ونزل في سفحه ، وانه اتفق مع الداعي أن يطلعوا الى جبل (كوكبان) من خلفه .

فرأى حضرة الوزير ان يرسل الخبر الى حسن باشا، ومن معه من العسكر السلطاني ، وعسكر الداعي ، حيث وصلوا وراء جبل (كوكبان) أن يصعدوا من ذلك الجانب، الى قلعة (بيت العز) في يوم معين، ليصعد الوزير مع بعض من معه من العسكر السلطاني من هذا الجانب الى أهل القلعة المذكورة، ليتحير أهل القلعة ، ويحصل لهم الوهج ، فتوخذ القلعة من أحد الجانبين ، أو منهما ، واستصوبت الأمراء هذا الرأي ، واجمعوا عليه ، فأرسل حضرة الى حسن باشا مكتوباً ، ذكر فيه : انا نتكلف الصعود من جانبنا الى جهة قلعة (بيت العز) في ليلة الاثنين ، رابع عشر شهر جمادى الأولى ، لنوقع الحرب على أهل القلعة صبحا ، فاصعد انت ، ومن معك من العسكر ، في تلك الليلة من جانبك ، وأوقع الحرب صبحاً ، على أهل القلعة ، ليمكننا افتتاح القلعة المذكورة في الوقت المذكور .

ولما كانت تلك الليلة ركب حضرة الوزير وأخذ معه من اختاره من مشاة العسكر ، فان الخيل لا عمل لها في الجبل ، وأخذ بعض ضربزنات ، وتوجه ليلا الى أن وصل الى ذيل الجبل، وتعلق العسكر السلطاني، وتشبثوا بالحجارة، وتسلقوا الى أن قاربوا ذروة الجبل ، فوجدوا بعض الطرق التي كانوا يعهدونها قبل في المرة الأولى قد سدت بالبناء وجعل عليها الحرس والمحافظون، ففطنوا منهم ، فصاروا يدحرجون الاحجار من فوق ، وقد هيؤها على شفير ذروة الجبل ، بحيث لا يحتاج في دحرجتها إلى أسفل إلا إلى أدنى حركة ، فإذا دحرجوا الحجر الواحد من فوق دحرج معه عدة احجار ، بقدر ما يصادف، فيتحطم من كان في ممر هبوطه ، كائناً من كان ، لكنهم لا يشخصون بالليل من يدحرجون عليه الصخار ، الا تخميناً ، ولا يرون ما يرمون عليه الاحجار

يساراً أو يمناً ، وكثرت في تلك الليلة الأصوات الهائلة ، أعظم من الرعود والصواعق النازلة ، نشأت عن دحرجة هذه الصخار ، ومن قدح الأحجار بالأحجار ، الى أن وضح النهار وصح الإسفار ، وتعارفت الوجوه والأبصار ، ونشر الصبح لواء الضياء المنشور ، وانهزم جيش الليل الأسود وولي دبره وهو مكسور ، وسل الفجر سيفا مصقولا مشرقاً ملأ الشرق والمغرب بغلايل النور ، وتناثرت جند الكواكب مهزومة لما شاهدت سيف سلطان الشمس وهو مشهور .

فلما تراآى الجمعان ، والتقى الفريقان ، وقع الحرب الشديد ، بينهم في ذلك اليوم المشهود ، وثبت حضرة الوزير ومن معه من الجنود ، ولكنهم ما وجدوا طريقاً الى الصعود ، فاستمروا طول نهارهم في الجهاد ، وجاهدوا في سبيل الله حق جهاده بالجد والجلاد ، وصاروا يرمون من أسفل على الزيدية وهم في قلة الجبل بالضربزنات ، وصارت الزيدية ترميهم من فوق بالاحجار والصخار المدحرجات ، فاذا أصابت أحداً في طريقها حطمته ، وإذا صدمت شيئاً وهي نازلة عليه كسرته وطحنته ، والمدافع تصب على أهل الجبل من أسفل إلى فوق شعل النيران ، وتمج عليهم من أفواهها شرر النار والدخان .

وتجلد حضرة الوزير ، وأنف من الانهزام ، وأناخ بمن معه في ذلك المقام ، مستلذين بوقع الحمام ، وأقدموا على شرب كؤوس المنية كالمياه ، وتلت السنتهم: (وما لنا الا نقاتل في سبيل الله) وابطأ عليهم موعد حسن باشا ، وهم في الانتظار ، وما زالوا صابرين متجلدين الى آخر النهار ، ولم يقترن بحركتهم هذه حصول المراد ، وما حصلوا على طائل في هذا الجلاد ، واستشهد منهم تحت الصخار ، نحو عشرة أنفس من الأبرار ، نقلهم الله تعالى الى الجنة دار القرار ، وأسكنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، وقتل من الملاحدة الفجار ، الأبالسة الأشرار ، عدة كثيرة ودفعتهم النار الى النار ، وأدخلوا إلى جهنم وبئس عقبى الدار .

فلما ولى النهار بجنوده ، وأقبل الليل بجيوشه وبنوده ، وتعممت بعمائم السواد روس المهاد والوهاد ، واكتحلت الأعين باثمد الرقاد عن السهاد ، عاد حضرة الوزير بمن معه الى المخيم الكريم ، وأراحهم بالاستراحة في ذلك الليل البهيم ، بعد التعب طول النهار، بمقاساة الحرب التي هي أشد من العذاب الأليم ، مترجياً من الله الفتح والنصر بكرمه العميم .

ولما تكرر على حضرة الوزير هذا التكدير ، فوض أمره الى الله السميع البصير ، وانتظر الفرج لصدق النية وصفاء الضمير ، وتوقع الجبر والخير من الله تعالى وهو على كل شيء قدير .

فلم يلبث أن جاءه البشير ، وبشره بافتتاح بقاع كثيرة ، وحصن كبير ، فسرى عنه ما كان يجد من الحزن الكثير ، وسلم الأمر الى الله العلي الكبير فانه نعم المولى ونعم النصير (شعر) :

ألم ترَ أن الصبر للشكر توأم وانهما ذخران ، في اليسر والعسر
فشكراً اذا اوتيت فاضل نعمة وصبراً اذا نابتك نائبـة الدهر
فلم أر مثل الشكر حافظ نعمة ولا ناصراً عند الكريهة كالصبر
وما طاب نشر الروض الا لأنه شكور لما أسدى اليه يد القطر
ومــا فضّل الابريز الا لأنه صبور اذا ما مسّه وهج الجمر

ومحصل هذه البشارة في وادي (خبان) وهو الموضع الذي انكسر فيه المرحوم مراد باشا وتمزقت عساكره قلعة اسمها (درام) منيعة حصينة، شديدة رصينة ، محكمة مكينة ، وهي بيد شخص من أتباع مطهر اسمه (محمد بن سعيد) جبار عنيد ، شقي طريد ، من أهل قرية (مدل) من نواحي وادي (خبان) ولاه مطهر حاكما في (درام) ، ورئيساً في ذلك المقام على الاقوام ، ولم يواجه أمير اللواء السلطاني بذلك النواحي ، واستمر هو وطائفته على العصيان بتلك الضواحي .

وكان له رفيق بلدي من أهل قرية(مَدِل)اسمه الشيخ (منتصر المريسي)

كان مطيعاً للبكاربكية السابقين ، وكان من مشايخ العرب الطائعين الموافقين ، فلما كانت أيام الفتنة ، وتواتر البلاء والمحنة ، أيام خلو اليمن من البكلربكية ، وضعف أهل السنة السنية ، أمسك مطهر (الشيخ منتصر) المذكور ، بالخداع والمكر والزور ، وحبسه في قلعة (شبام) وطوقه بالغل طوق الحمام ، وقيده في رجله بالحديد ، وكتب على قيده : مؤبد بالتخليد . بيت :

والغل طوق الرجال حليـــا والقيد خلخال كلّ فحـــل

فلما فتح الله (قلعة شبام) على يد حضرة الوزير ، وملكه الله دارهم وديارهم ، وهو على كل شيء قدير ، كان هذا من جملة الاسارى الذين أطلقهم من الحبوس ، ومَنّ عليهم بالخلاص من النقم والبؤس ، فتقـــدم إلى حضرة الوزير ، وعرفه باستقامته ، وصدق إخلاصه ، وكمال انتسابه الى الدولة العثمانية واختصاصه ، وطلب الاذن أن يجمع من يطيعه من الاقوام ، ويتوجه لمحاصرة قلعة (درام) ، فانه أدرى بشعابها ومساربها ، وأعرف بطرق مطالعهـــا ومغاربها ، فأحسن له حضرة الوزير ، وأذن له في مراده ، وأمره بالتوجه الى بلاده ، والخوض في ذلك الوادي ووهاده ومهاده ، فتوجه الى بلده ووفى بما التزم من موعده ، وجمع طائفة أطاعوه من العربـــان ، وزلزل أطراف وادي (خبان) وحاصر حصن (درام) ، سبعة وعشرين يوماً بالتمام ، وهجم الحصن ودخله بقائم سيفه الصمصام ، وقتل (محمد بن سعيد المَدَاْنّي) بقاضبه ، وقتل معه ولده ، واثني عشر شيخاً من أقاربه ، وأرسل برؤوسهم الى حضرة الوزير على رؤوس العيدان ، فأطاعته عربان وادي (خبان) ودخلوا تحت طاعة السلطان ، وأطاعوا أمير اللواء السلطاني المنصوب في ذلك المكان ، وكان وقوع هذا الفتح العظيم الشأن ، في السابع والعشرين من ربيع الثاني ، سنة سبع وسبعين وتسعمائة .



الفصل السابع والثلاثون

في أحوال (الشيخ عبد الله الداعي)
وما ظهر منه في مدة غيابه من المساعي

تقدم في الفصل الثامن والعشرين أن حضرة الوزير ، لمـــا حط أرطاقه المعظم على جبل (ثلا) و (كوكبان) لافتتاحها بالسيف والسنان ، والمدافع والضربزان ، طلب منه الشيخ (عبد الله الداعي) أمير الدعاة الهمدانية، ان يتوجه إلى بلاده (المنقب) ويدعوا قبائل العربان ، إلى إطاعة السلطان ، ويجمع عسكراً من العرب من أهل الطاعة والاذعان ، ويتوجه بهم الى خلف (جبل كوكبان) ويشرع في مقاتلتهم في ذلك المكان ، ويقاتلهم العساكر السلطانية من هذا الجانب ، ليسهل فتح الجبل ، واستمهل لذلك ستة أيام لا لا غير ، فتعجب حضرة من سرعة وعده بالعودة وأمهله عشرين يوماً ، وانه توجه من أوائل ربيع ربيع الأول ، وانه لما طالت غيبته وأبطأ خبره ، أرسل حضرة الوزير عسكراً من عنده ، مع حسن باشا ليدور خلف (جبل كوكبان) وينظر إلى الداعي وما فعله في هذه المدة ، ويتقوى به ، وبمن يجمعه من العربان .

وكان توجه حسن باشا مع العسكر المزبور ، في خامس ربيع الثاني ، كما تقدم شرحه .

وكان الداعي قد وعد حضرة الوزير بوعود كثيرة ، من جميع الجنود العديدة ، وإطاعة العربـــان ، وأخذ البلدان ، فأبطأ وكثر منه البطالة ، وارتكب في دعواه السرعة أمراً شططا،وسبب بطئه انه وجد سائر العربان ينظرون إلى حال المحارب ، وينتظرون لمن تكون الغلبة فيتبعون الغالب ، فهم بين هؤلاء وهؤلاء مذبذبون ، لا يصدقون في دعوى الصـــداقة بل يكذبون ، وأطاعه بعد زمان منهم شرذمة قليلون ، ومع ذلك يخشى أن لا يثبتوا ، ويميلوا مع الذين يميلون .

وحصل خبر الداعي أنه لمـــا فارق المخيم السلطاني المنصور ، في سادس ربيع الأول ، نزل في قرية (اللؤلؤة) وهي من بلاد الداعي ، ثم انتقل إلى قصبة له أيضاً اسمها (الحضور) ما فيها شيء من الحُضور ، كما يسمى الأسمر بالكافور .

ثم في ثامن ربيع الأول وصل إلى ناحية يقال لها (الحيمة) فيها عدة قلاع، أكبرها قلعة اسمها (يناع) فجاء أهل (يناع) ودخلوا في طاعة السلطان ، وتابعوا إلى الله تعالى ورجعوا عن العصيان ، وأطاع باطاعتهم عربان نواحي (الحيمة) من غير حرب ولا هزيمة .

ثم ارتحل من (الحيمة) ووصل إلى (همدان الحراز) وأهلها تابعون له، وحصل منهم نحو ثلاثمائة نفر يرمون بالبندق .

ثم في حادي عشر ربيع الأول وصل إلى جبل حصين ، اسمه (آنس) فلما دعا أهل هذا الجبل من قبل حضرة الوزير إلى الدخول إلى طاعة السلطان قبلوا أمره ، وقابلوه بالاذعان ، ورجعوا عن طاعة الشيطان ، وتابوا وأنابوا ودخلوا مع أهل الايمان ، ولله سبحانه وتعالى الحمد والشكران .

ثم ارتحل إلى بلاد (ابن اسمعيل) وهم جيل في جبل أكبر من شامة وطفيل ، ولهم حصنان حصينان ، كانا من جملة مملكة المرحوم السلطان سليمان تغمده الله تعالى بالرحمة والرضوان ، وسقى عهده صوب الكرم والغفران ،

بناهما من قديم الزمان ، رجلان من طوائف العربان، اسمهما (شايم)و(سباعة) سمي بهما الحصنان ، ودخل اهلها في ايام الفتنة والعدوان ، في اطاعة الزيدية من أهل الغدر والعصيان .

فلما دعاهم الداعي الى اطاعة السلطان اجابوا داعيه ، واعتذروا بانه لم يكن لهم في العصيان داعية، فقبل حضرة الوزير عذرهم ، وشفع فيهم داعيه وشكر مساعيه،واقبلت تلك القبيلة لهذا القبول بآذان سامعة وقلوب واعية، وتمّ هذا المرام ، وحمدوا الله على الاتمام .

ثم توجه الداعي الى قبايل نواحي (سارع) وسارع الى تلك المسارع ، واناخ بفناء تلك المواضع ، وهو واد فسيح ، يشتمل على مهامه فيح ، فيها قبائل من العربان، يسكنون ذلك المكان،ما دخلوا قبل الآن في طاعةالسلطان ولا لبسوا رداء التسليم والاذعان، بل كانت حكامهم من الزيديين ، واطاعتهم سابقاً لاؤلئك المفسدين ، وهم ثمان قبائل : بنو الأزرق ، وبنو الشديد، وبنو محمد ، وبنو الوليد ، وبنو العوادي ، والدحادحة ، والجعافرة ، والمجاديل ، فأرسل اليهم الداعي ، ودعاهم الى الطاعة ، وبذل لهم في ذلك نصحه حسب الاستطاعة ، وذكر لهم ان حضرة الوزير يؤمنهم على بلادهم ، ويطمنهم على اموالهم وانفسهم واولادهم ، ويترك لهم خراج عامين ، من غير خلاف ولا مَيْن ، وانه يحسن الى محسنهم ويعفو عن مسيئهم، ويقابلهم بالبشر والتكريم في اقبالهم ومجيئهم ، ويخلع عليهم خلعاً سنية فاخرة ، وينعم عليهم نعماً بهية زاخرة ، فرأوا ان اغتنام السلامة أحرى وأولى ، ودخولهم في ظلال الأمن السلطاني اجدى وانجا، وانهم يسلمون بذلك من القتل والأسر،ويأمنون به من الفتك والقهر والقسر ، فاطاعوا واذعنوا واستأمنوا فأمنوا، وناموا في ظلال الأمان ، ودخلوا في طاعة السلطان .

وكان في قربهم حصن شديد ، ذو عماد عميد ، قديم البناء ، وسيع الفناء يقال له (قرن المسجد) يقي أهله المكارة وينجد ، فدخل اهله أيضاً مع

القبائل في الطاعة ووافقوا الجماعة ، واذعنوا للاطاعة فقوبلوا بالقبول،وامنوا من الدخول ، وبلغوا المأمول .

فلما قضى الداعي المرام، من اؤلئك الاقوام ، وادخلهم في طاعة سلطان الاسلام ، وشملهم بالسلامة والسلام ، اقام في قرية قريبة من جبل (التيس) يقال لها (سوق القفاف) مستجلباً عصاة العرب بالتقريب والائتلاف، ونصب لهم شرك الاتفاق برفع الخلاف ، وجل قصده استجلاب عربان جبل (التيس) إلى حضرة الوزير ، وتحذيرهم من الفساد والعصيان أشد تحذير ، فانقاد بعضهم اليه ، ووفد من انقاد منهم عليه ، وهو يعمل الرأي والتدبير ، والأمر لله العلي الكبير .



الفصل الثامن والثلاثون

في إطاعة أهل (جبل التيس) المحصور ، وما وقع لحسن باشا ومن معـــه من العسكر المنصور

أما (جبل التيس) فهو من الجبال الشاهقة ، التي كادت أن تكون في السمو بالسماء بل السماك ملاصقة ، يسامي في العلو والشهوق، كواكب الجوزاء ويناجي نجم العَيّوق ، ويستصغر برجه برج الحمل ، لأنه تيس والتيس على الحمل يفوق ،

مُصغ إلى الجو أعلاه فان خفقت زهر الكواكب خلاّها تخاطبه
كان أبراجها من كل ناحيـــة أبراجـــه وسِماكيها مناكبه

وفيه اعراب غلاظ شداد ، ورجال كالجبال والأطواد ، يختارون الأصلاد على لين المهـــاد ، ويفترشون شوك القتاد لطيب الرقاد ، فلا زال حضرة الوزير يستجلبهم بالالطاف ، ويتعطف اليهم بمكارم الأخلاق أكرم انعطاف ، ويغمرهم باحسانه العامر ، ويأخذ قلوبهم بالكرم الوافر ، الى أن وفد عليه شيخهم وكبيرهم ، والمطاع فيهم وأميرهم ، وهو الشيخ (عبد القادر النزيلي) وكانوا يرفعون شأنه وقدره ، ولا يخالفون إشارته وأمره ، فقابله حضرة الوزير بالاكرام ، وأنعم عليه بجزيل الأنعام ، وألبسه خلعاً فاخرة سلطـــانية ، وأركبه خيولاً بسروج سنية ، وغمره بانعام لم يخطر

بخاطره ، ولا مرّ يوماً قبل ذلك في ضمائره ، والانسان بالاحسان يستعبد ، ومن وجد الإحسان قيداً تقيّدا .

بيت :

احسن إلى الناس ، تستعبد رقابهم   فطالما استعبد الانسان احسانُ

فأدى ذلك الفعل الجميل ، والاحسان الزائد الجزيل ، إلى أن أطاع حضرة الوزير الشيخ (عبد القادر) المزبور ، وأطاعت باطاعته قبائل جبل (التيس) المذكور ، وصار جبل (التيس) وضواحيه ، وقراه ونواحيه ، من مضافات الممالك الشريفة السلطانية ، وأقاليمها المحروسة الخـاقانية ، وخطب أهله للسلطان ، واستبدلوا حلل الطاعة عن اسمال الخيانة والعصيان ، وترفهوا بالأمن ورفلوا في أردان الأمان ، ودخـلوا في الطاعة السلطانية مع أهل الايمان ، فانكسر لذلك ظهر (مطهر) وفئته الباغية من العربان ، وتحطم كذلك أهـل (كوكبان) ووهنوا وفشلوا ، وتزعزعوا وتزلزلوا ، فان هذا الجبل يرمي على (كوكبان) ويهدم ما بها من بنيان ، ويزلزل ما فيها من أركان ، وعد ذلك من الفتوحات الباهرة ، والسعودات الزاهرة ، والنصرة المتواترة ، الصادرة عن آراء الوزير، وأفكاره الثاقبة الصائبة في التدبير .

وأما حسن باشا فانه كان توجه ، هو والأمير محمود بك ، أمير الأمراء السلطاني ، في زهـاء الف من العسكر المنصور ، لإعانة الداعي ، لما أبطأ خبره ، كما تقدم في خامس ربيع الآخر ، ووصل إلى وادي (الحيمة) بالحاء المهملة ، والمثناة التحتية ، في عاشر ربيـع الآخر ، ففتح أربع قلاع ، من حصون تلك البقاع ، في غاية الشدة والامتناع ، والعلو والارتفاع ، لا تناجي إلا الثريا ، ولا تناجه إلا نجوم الجوزاء كانها دعائم السماء ، تمسكها أن تقـع على الثرى .

أحدها (المصنعة) لبني (الشقاق) .

والثانية (قلعة ظفار) تضاف إلى (بني الأحبوب) .

الثالثة (قلعة بني السودان) لشيخ (بني سويد) لسمرة الوانهم .

الرابعة (قلعة عتر) بالتشديد ، (لبني الأعضب) .

وكانت القلاع المذكورة داخلة في المملكة السلطانية قبل هذا وعصت أهلها أيام الفتنة ، وأطاعوا الأعرج لما عصى ، وهذى ، فعادت الآن تلك المسارب والمسالك إلى الطاعة السلطانية ، كما كانت قبل ذلك ، ولله الحمد على ذلك ، وقوبل أهلها بالعفو عن جنايتهم ، والاغماض عن غدرهم وخيانتهم ، وعوملوا بالصفح الجميل ، شكراً لنعمة الله تعالى وإحسانه الجزيل ، وطلبا لعفوه وغفرانه ، وفضله وكرمه وامتنانه .

من كان يرجو عفو من هو فوقه   عن ذنبه فليعف عمن دونه

وارتحل حسن باشا خامس عشر ربيع الآخر ، متوجهاً إلى جهات توجه اليها الشيخ (عبد الله الداعي) فاجتمعا في قرية (دير رجم) بضم الراء المهملة ، وسكون الجيم آخرها ميم ، في رابع عشري ربيع الآخر ، ورحلا بعسكريها إلى بلاد اسمها (سهل باقر) فيها قبائل عديدة من العربان ، وحصون محصنة متان ، على الأجانب حصان ، أطاع من أهلها أهل ثلاثة حصون ، لبسوا جلباب الأمن المصون ، الأول (الجالد) الكبير .

والثاني الجالد الصغير ، ويسميان الجالدين بالتثنية .

والثالث حصن (الكاهل)وكلها من حصون الزيدية أتباع الأعرج الباطل، فأطاعت أهلها وانقادت، واختارت الصلح على الحرب فعموت ربعه وأشادت، وأقبلت بمفاتيح قلاعها إلى حسن باشا ، وسلمت ، والقت مقاليد الرضا والاذعان واستسلمت،فقوبلت بالقبول،وشملت بالنظر اليها أوفى شمول،واعيد

اليهم المفاتيح ، ففازوا بالمتجر الربيح، وأبقوا في قلاعهم على الطاعة والانقياد، وبلغوا بسبب ذلك الأمن غاية المراد ، واطمأنت لهم القرى والبلاد ، وقرت منهم العين بذلك واستقر الفؤاد .

وتم ذلك لحسن باشا ، والداعي في آخر ربيع الآخر .

ثم انتقلوا الى قلعة اسمها (هبيني) من قلاع مطهر فوهبت نفسها لرجال العسكر،وصالح أهلها من غير جدال ولا جلاد، ودخلوا في الطاعة والانقياد، وربح أهلها أنفسهم وأموالهم،وكفت عنهم العساكر السلطانية قتلهم وقتالهم، وقبلوا على وجه الصلح اقبالهم ، وصارت القلعة المذكورة من مضافات الممالك العثمانية المنصورة،وشملهم الأمن والأمان، واشتملوا على الاستقرار والاطمئنان، في ظلال معدلة حضرة السلطان ، وأمنوا روعة الخوف والعدوان ، والله ولي الاحسان ، وبه المستعان وعليه التكلان .

وكان ذلك في مستهل جمادى الأولى ، سنة سبع وسبعين وتسعمائة .



الفصل التاسع والثلاثون

في محاربة محمد بن شمس الدين ، وعلي بن شويع ؛ ومحمد بن رضي الدين ، مع حسن باشا ، ومن معه من العسكر المنصور ، وممن خلف جبل كوكبان المحصور

لما فرغ حسن باشا ، والشيخ عبد الله الداعي من افتتاح ما تقدم ذكره من القلاع والقبائل، التي آخرها قلعة (هُبيني) اقاما أياما للاستيثاق بالعربان الذين صالحوا ، ثم توجه عبد الله الداعي للفحص عن بقية تلك تلك العربان ، والولوج الى خلف (جبل كوكبان) ليصعدهو وحسن باشا من خلف الجبل، ويغيروا على الزيدية وتتم عليهم الحيل ، فاقام حسن باشا بذلك المكان ، وتوجه عبد الله الداعي إلى سفح (جبل كوكبان) ونزل في واد يقال له (ضيمان) فرأى جيشاً كثيفاً،وعربانا ولفيفا ، جمعهم (محمد بن شمس الدين) و (علي بن شويع) المهين ، و (محمد بن رضى الدين بن شرف الدين) واذا هم كالجراد المنتشر فيذلك المكان،قد استعدوا للقتال والطعان،وأوقدوا للحرب شعل النيران ، فلما أحس بهم الداعي ، أرسل الى حسن باشا أسرع ساعي ، يستحثه على الوصول ، ويخبره بما شاهد من الأمر المهول ، فاسرع والجم ، وارعد ، واضرم ، وترك الأحمال والأثقال ، وأخذ الخيل والرجال ، وأغار بالالغار ، وطرد هو ومن معه جريدة في تلك القفار ، وأجابوا داعي الداعي

رجالا وفرساناً، وطاروا اليه زرافات وركباناً، الى أن أصبحوا يوم الاثنين، لعشرين ليـــلة خلت من جمادى الأولى، وأقبلوا عليهم باخفاف وحوافر، وسيوف بواتر، واسود كواسر، فما راعهم كثرة الأعداء كما لم ترع كثيرة الاغنام فؤاد الجازر، ولا كثرة الجآذر قلب القانص الماهر، فصدموا وهدموا، وطحنوا وحطموا، ومزقوا ومرقوا، رفرقوا وما فرقوا، وأعملوا السيوف والأرماح، وحددوا حـــدود الصفاح، وأرسلوا السهام كالرياح، وقطعوا الجماجم والرؤوس، ونزعوا الأرواح والنفوس، وخاضوا دأماء الدماء، وما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما. شعر :

قـــوم يبيت على الحشايا غيرهمُ ومبيتهم فوق الجيـــاد الضُمَّر
وتظل تصبح في الدماء قبابهم فكـــأنهن سفائن في أبحر
لا يأكل السرحانُ شِلوَ طعينهم مما عليه من القنـــا المتكسر

وثبت الرجال للرجال، وأسرع البطآء الى العجال، واختلط أهل التقوى وأهل الفجور، اختلاط النور بالديجور، فأرغموا آنافهم، ونفروا ألافهم، وردّوا إلى المئين آلافهم، ورماة الحدق، وكماة الفيلق، ترمي شياطينهم بشهابها، وتهوي إلى أوكار أفئدتهم بطير نشابها، وهم يجنون من ثمر القنا ثمر الردى متشابها، ويحتسون كؤوس الموت من علقمها وصابِهـــا، وقتل من رؤوس الزيديين (محمد بن رضى الدين) وقطع رأسه، وخمدت انفاسه، وهلك في جرته من كبار الزيديين كثيرون، وجرح جراحات مثخنة آخرون، رحمل فوق الرماح نحو ثلاثين رأساً، واقتلع من خيولهم عدة تزاحم العشرين أفراساً، ومن اللبوس واليلَب أعدادا، ومن البغـــال والركاب أفرادا، واستشهد من العسكر المنصـــور كاشفان، ومن المشاة عشرة شجعان، قد سبقوا الى الجنة باقتحام الظُبا والأسنّة، كما سبق اخصامهم الفجار، إلى عذاب

النار ، وبئس القرار ، فطفق السيف مسحاً بالسوق والاعناق ، والرمح طعناً في الصدور والأحداق ، والنبل رشقاً في النحور والآماق ، ومد النقع على الرؤوس اعظم رواق ، وضرب العثير في الجو أوطافاً سد به حجب الآفاق ، فنقصت من طباق السبع أرضين طبقة ، وزادت في أطباق السماء واحدة من الطباق ، واستمر القتل والفتك ، والسفح والسفك ، والهتم والهتك ، إلى أن حال بين الفريقين حجاب الدجى ، وتلا لسان السماء على الأرض : (والليل إذا سجى) وكل الكل من الطعن والضرب ، ومــــال إلى الوسن جفن الحرب ، فانحاز كل من الفريقين الى مقرهما ، متفكرين فيما آل اليه الحال من أمرهما ، يعدد كل منهما على قتيله ويعده في القتلى ، وينوح عليه ويبكي بكاء الثكلى ، وإلى الله الرجعى ، وبيده الخير والشر ضرّاً ونفعا ، وارتفع العسكر المنصور السلطاني الى تل عالي ، مرتفع الوسط والحوالي ، ونصبوا حراساً تحفظهم بالنوبة ، يحرس كل واحد منهم صوبه ، لئلا يهجم عليهم العدو على حين غفلة ، لغلبة النوم وشدة الاعياء والمهلة .

ثم رأى حسن باشا أن يرسل إلى حضرة الوزير بتفصيل هذه الواقعة ، واستشار الكبراء من العسكر في ذلك ، فأشاروا عليه بطبق مــــا رأى ، والتمسوا منه أن يطلب مع ذلك معونة ومددا ، وأن يكثرهم سواداً وعددا ، ليمكنهم الصعود إلى جبل (كوكبان) وإيقاع الحرب مع أهل الحصن من ذلك الجانب بالبنادق والنيران ، فكتب مكتوباً بمضمون ذلك الحال ، وما وقع لهم في تلك السهول والجبال ، وأعطاه لشخص اخفى من الليـــل إذا عسعس ، يخوض به حدس الظلام الأطلس ، فاستمر سائراً سارياً ، وبعلامات النجم مهتدياً مبارياً ، يسري في الليل ، ويكمن في النهار ، ويفري أديم الأوديــة والقفار ، إلى أن ورد على حضرة الوزير ، وأدى الأمانة واعلم بالمسير ، وفصل الأحوال ، وعدل إلى التفصيل عن الاجمال ، فأصغى الوزير إلى مقاله ، واستخبره عن جميع أحواله ، وأحاط بالأحوال خُبراً ، وفسح لاستماع ذلك الخبر صدراً ، وتلقى كلامه بقلبه وهو شهيد ، وتوجه إلى تدبُّر

ذلك وتدبيره برأيه السديد ، وفكره السعيد ، وعين جماعة من الفرسان الشجعان ، أهل الضرب والطعان ، والسيف والسنان ، أن يتوجهوا على دفعتين ، واحدة بعد واحدة، ويصلوا اليهم فوجاً بعد فوج ، لتكرر حصول الفائدة ويشيع أولهم بوصول جنود اخرى متتابعة ، يظهر لهم في كل لحظة شائعة ، ليكون أرهب للعدو ، وأفزع ، وأخوف لقلوبهم وأفظع .

فتوجهت الفرقة الأولى ، في ثامن جمادى الأولى ، وتوجهت الفرقة الثانية في تاسعها ، وتفرقوا في الأودية شاسعها وواسعها ، وأخذوا القلوب والأفئدة بمجامعهـــا ، واستمر حسن باشا ومن معه من العساكر المنصورة ، حافظين وطاقهم ، وحارسين محطتهم المعمورة ، إلى أن وصل المدد من عند الوزير ، فقوي جأشهم ، وظهر بوصول المراد اليهم انعاشهم وانتعاشهم ، وكانوا قبل وصول المدد ، في خوف وفشل ونكد ، فانهم استكثروا سواد الأعداء ، وصاروا كالشامة البيضاء ، في جلد البقرة السوداء ، وخافوا أن يهجم العدو عليهم ، ويصلوا من كل جهة اليهم ، فيحتارون في حفظ المحطة ، والخيـــم المنصوبة والأثقال المنحطة ، فإنهم لكثرتهم لا يفنيهم السيف والنار ، ولا يقهرهم إلا العزيز القهار ، فنصب حسن باشا الديوان ، وجمع كماة العسكر والشجعان ، واستشارهم فيما يفعل في هذا المكان ، ويكون صواباً بحسب الامكان ، فمنهم من أشار اليه باحراق الاثقال ، ونحر الجمال ، والتوجه دفعة واحدة إلى القتال ، فان كسروا العدو تعوضوا عن الذي أتلفوه ، وحصلوا بدل ما أحرقوه ونسفوه ، وان قتلوا فازوا بمرتبة الشهادة ، وحازوا في الدار الآخرة مراتب السعادة ، ولم تبق للأعداء أثقـــالهم ولا ينتفع بهـــا جهالهم وأسفالهم ، ولا يفرح بذلك سفهاؤهم وضلالهم ، وما وافق على هذا الرأي الباقون ، وقالوا : هذا من محض الجبن والجنون ، وهـــل هؤلاء العربان الا كامثال الغربان يطرد الألف منهـم بحجر [واحد] في الميدان ، ولولا اعتصامهم بالجبال والصخار ، واكتنانهم خلف الصخور والأحجار ، لحصدناهم حصدا ، ومـــا أحصينا لهم عدّاً ،

والرأي أن نقاتلهم باحمالنا وأثقالنا ، ولا نفارق دوابنا ولا جمالنا ، ويؤتى الله النصر لمن شاء ، والله لطيف بمن يشاء ، واتفقوا على هذا الرأي، ووافقوا على انه أحسن الآراء ، وأجمعوا على ذلك ، ونبذوا كل رأي خلافه بالعراء ، ووصل المدد في أثناء ذلك من الوزير ، وعلموا ان الله تعالى لطف بهم ، وهو على كل شيء قدير ، فارتفقوا واتفقوا ، وعاهدوا الله وصدقوا ، وتعاهدوا أن يحملو على العدو حملة رجل واحد ، وأن لا يولوا أدبارهم في تلك المشاهد ، وإذا حمى الوطيس وبلغت القلوب الحناجر ، ثبتوا وصبروا على حر السيوف والخناجر ، ومن نكص منهم على عقبيه بدأوا به فقتلوه ، قبل قتــل العدو الفاجر، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله، ونصر الدين الحنيفي وتأييد السنة ، وعلموا ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة ، وتعاقدوا على ذلك بالأيمان ، وتعاهدوا عليه بالجنان واللسان ، وتصادقوا بالبيان والبنان والأركان ، وتركوا المدافع الكبار مع الأمير محمود صاحب اللواء السلطاني ، في الوطاق ، وطاروا الى الحرب على ذلك العهد والميثاق ، وحملوا على العدو حملة رجل صادق في اللقا ، وتيقنوا ان البقا في هذا الدار هو الفناء ، وان القتال في سبيل الله هو البقاء ، وعلموا ان الموت على الفراش هو موت الجبناء الحمقاء ، وداموا على حفظ ميثاقهم الذي واثقوا به في العموم والخصوص ، وقاموا يقاتلون في سبيل الله صفا كأنهم بنيان مرصوص ، ولو وجدوا للقتال ميداناً ، وأرضاً تجول فيها الخيل جولانا ، لمـا حملهم العدو ساعة ، ولا آنا ، بل كانوا ينطحنون بحوافر الخيل انطحاناً، لكنهم كانوا في وعر لا تعمل فيه الخيول ، وصخار وأحجار يمتنع بسببها اليهم الوصول ، ومع ذلك فما صبر الاعداء على حملتهم ، ولا قدروا على دفع صولتهم ، بــل هربوا وانهزموا بجملتهم ، وتشلتوا وتمزقوا ، وتبددوا وتفرقوا ، وذهبوا شذر مذر في البحر غرقوا ، وركبت العساكر السلطانية أدبارهم وأكنافهم ، وقتلوا منهم الجمّاء الغفير الى ان فللوا أسيافهم ، وربطوا منهم ربطاً شدوا أكتافهم ، وساقوهم سوق الغنم بيد القصاب ،وداوسوهم دوس الحصيد بأرجل

الدواب ، الى أن اوى الليل المهزومين الى قرية (تريادة)وبعدوا عنالعسكر المنصور وعرفوا جهاده ، وفاز أهل الحسنى بالحسنى وزيادة ، ونالوا بصدق عزمهم أعلى درجات السعادة .

ورجع حسن باشا مع رفاقه من العسكر إلى أوطاقه ، وباتوا آمنين من غدر العدو المخذول ونفاقه ، وسلموا أمرهم الى الله العلي الكبير ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

وكان من كشاف مصر (أحمد بك) المدعو (جتر قيل) الكاشف قد أبلى بلاء حسناً ذلك اليوم ، في تلك المواقف ، ودخل جوف الأعداء وسلم ، وتجرأ على الدخول اليهم وهو مُشهر معلم ، وأظهر اليد البيضاء في ذلك الجو المظلم ، والفضاء الذي هو من وهج العثير مقتم ، فقدر الله تعالى له السلامة ، وثبّته في ذلك الموقف وأقامه ، وعاد بعدة رؤوس وشكر الناس مقـامه .

واستشهد ستة أنفس من العسكر المنصور ، خلصوا من دار الغرور إلى دار السرور،وتنعموا في جنات عدن تجري من تحتها الأنهار بالحبور والسرور، واستوفوا لذات قصور الجنة بلا قصور .

أما العدو المقهور ، فقتلاه عدد غير محصور ، وأساراه موثوقـــة بالقيود والسيور ، وإلى الله تصير الأمور .

فلما تجلى أفق الصباح، ونادى منادي الصبوح حي على الاصطباح، وأبدى الشمس بحاجبه علامة الطغراء السلطاني ، ونشر لواء الصبح رايته البيضاء على الأقاصي والأداني ،وانهزم جند الليل مكسوراً ، وانتشر جيش النهار مظفراً على الظلماء منصوراً ، ركب حسن باشا وجنده الموصول ، لتتبع بقيةالسيوف من العدو المخذول ، وساروا في طلبهم يقطعون الأوعار والسهول ، إلى أن وصلوا الي قرية (تريادة) ففرحوا بالوصول ، وتهيأوا للقتال بطلب الدخول، فأحس بهم أهل الالحاد ، فأرادا أن يثبتوا للجدال والجلاد ، وأقبلوا بالمثقفة الصعاد ، والمرهفات الحداد ، والمقاليع والأصلاد ، فما ثبتوا ولا نبتوا ، بل

تشلتوا وانفلتوا ، وتركوا في القرية أسبابهم وهربوا، واتخذوا الفرار بدلا عن القرار خشية أن يُجنَبوا ، ولم يقدم العسكر السلطاني على نهب القرية، خوفاً من المكيدة، وخشية من شتات العسكر وعود العدو عليهم بجريـــدة ، بل تركوا القرية للعربان ، فنهبوها في أسرع آن، وأدخلوا في خبر كان،واستلبوا ما تركه العدو في ذلك المكان .

ومن عجيب الاتفاق ان العسكر السلطاني كان قد فرغ البارود من عندهم، فوجدوا من جملة ما تركه العدو وهرب ، خمسة أحمال من البارود ، فأخذوه وقسموه على اصحاب المدافع ولم يتعرضوا لشيء غير البارود ، من الاسباب التي هرب العدو عنها ، وتركها في القرية ، وهذا من المـدد الإلهي ولله الحمد على ذلك .

واستمر العسكر المنصور،يطردون العسكر المكسور،الى أنالتجأ الىجبل (ضلع) فأحاطوا بهم من جهة الوادي ، ورموهم بالمدافع والأسود العوادي ، وقاتلوهم طوال النهار ، إلى أن غابت الشمس عن الأبصار ، وأقبل الليل وأظلم ، ونشر الظلام جناحه فاسود الجو وادلهم ، فهرب العدو إلى جبل (سيان) فصحبهم فيه (عبد الله الداعي) ومن معـــه من الفرسان ، فهزمهم وهدمهم ، وكسرهم وحطمهم ، فانهزم الأعـــداء وهربوا ، وتشلتوا وما حاربوا ، ولا حربوا ، واستولى (عبد الله الداعي) على جبل (سيان) واجتمع العسكر السلطاني في ذلك المكان ، ووصل اليهم محمودبك بالأثقال والأحمال ، والأوطاق والخيم والزمال ، محمولة على الجمال والبغال ، تحفها الأبطال والرجال ، فضربوا خيامهم في رأس جبل (سيان) ونصبوا الوطاق بغاية الاتقان ، وفرحوا بالنصر عند الله العلي الكبير ، وحمدوا الله على ما ساقه اليهم من النعم والخير الكثير ، وصاروا يعجبون ممن أشار منهم بحرق الأسباب ، ويلومونهم على ذلك الرأي الذي تبين انه غير صواب ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الوهاب .



الفصل الاربعون

في صعود العسكر المنصور الى (جبل كوكبان) وهروب (محمد ابن شمس الدين) الى داخل الحصن المحروق بالنيران ، وهروب (علي بن شويع) الى (جبل ثلا) بالويل والخذلان ، وافتتاح بعض الحصون والبلدان

لما قوى جأش العسكر المنصور ، بانهزام العدو المدحور ، وغابوا عن النظر مغيب الظلام عند سطوع النور ، وعلموا أن لا طاقة لهم بهذا الجيش المخبور ، وتفرقوا مع كثرتهم في قلل الجبال والصخور ، وصمم عسكر الاسلام على قطع جادرتهم بحد الحسام ، وتتبعهم في الجبال والآكام ، وعزموا على صعود (كوكبان) ولو أنه مع الكوكب بان ، وعزموا على عروجه ولو أنه السماكان ، أو انه أعلى من السماء كان ، فتطافروا تطافر الغزلان ، وتظافروا على نصرة الإيمان .

وتوجهوا خامس عشر جمادى الأولى ، مع الداعي (والأغا عبد الله الهمداني) طريقاً تسمى (القلة) وسلك الأمير محمود ومن معه طريق (تربة) وسلك حسن باشا وباقي العسكر الطريق الوسطى ، بين الطريقين المذكورين وركبوا من نصف الليل ، وسلكوا تلك الطرق بالرجل والخيل ، ومالوا على

أهل الالحاد كل الميل ، ونادوا عليهم بالثبور والويل ، فوجدوا بعد المسير ، والأخذ في التسيير ، طريق (التربة) والطريق الوسطى قد سدهما الزيديون بالأحجار الكبار ، ودحرجوا اليها عظائم الصخار ، فلم يُبْقوا فيهما طريقاً للسلوك والتسيار .

فأما الداعي والاغا عبد الله الهمداني فسلكوا طريق (القلة) ووجدوا بها مسلكاً واسعاً وسع الجملة ، فسلكوه وصعدوا أعلاه بلا تعلة ، ولا مهلة ، ووصلوا الى موضع يقال له (رأس المخرف) والعسكر المنصور يقدم على صعود الجبل ويزحف ، وعاد الأمير محمود وحسن باشا ومن معهما من طريقهما المسدود الى هذا الطريق السالك ، وقد غفل الزيديون عن سد هذا المسلك من بين تلك المسالك ، وكان ذلك لما قدره الله عليهم من المداهك والمهالك ، فلا يغني التدبير عن التقدير ، واذا نزل القضاء عمى البصر وغفل البصير .

فلما تكامل العسكر المنصور في (رأس المخرف) واحتال كل واحد من العسكر الى الصعود اليه وتكلف ، واجتمعوا هناك بالسلاح والعدد ، وأعانهم الله تعالى بلطيف الاعانة والمدد،شعر بهم الزيديون عند فلق الصباح، وأحسوا بالعسكر السلطاني معهم في الجبل وهو شاكي السلاح ، فكان الفجر أول من شهر سيفه صبحا ، وعدت عليهم عوادي الخيل والعاديات ضبحا ، ورمت عليهم المدافع والمكاحل ناراً فهي الموريات قدحاً ، ودارت رحى الحرب الى ان وضح النهار واضحى ، ففر الزيديون فرارا ، ولم يطيقوا ثباتا ولا قراراً ، واوى (محمد بن شمس الدين) الى حصن (كوكبان) وهرب (علي بن شويع) الى جبل (ثلا) ووصل الى (مطهر) بالخزي والخذلان ، وقتل في أثناء ذلك خلق لا يحصون ، وكانت الدائرة على الزيدية وما حفهم عون ، ولا صون،ولما وصل الخبر الى حضرة الوزير ، بهذا النصر الكبير ، وانكسار العدو الكسير ، حمد الله تعالى على انعامه بالنصر والتأييد ، وبالغ في شكر المنعم الكريم يستمري بذلك خلف المزيد ، ومرغ وجهه في الأرض تعظيما

لله ، وما النصر إلا من عند الله ، واعترف بتواتر الاء الله وتوالي نعماه ، وتحقق عجزه عن ذلك لولا نصرة مولاه، وركب في الحال مسارعا الى صعود (جبل كوكبان) من جانبه الذي يليه ، وتوجه بغاية الاستعجال ولم يكن شيء عن ذلك يلهيه ، وصار من عينه للمسير معه يتتابعون خلفه ، ويتلاحقون به في عجلة وسرعة وخفة ، وساروا من أول الليل فلما اصبح عليهم الصباح ونشر طائره الميمون أبيض جنـــاح ، الا وهم محاصرون قلعة حصينة ، من قلاع كوكبان المهينة ، تسمى (بيت العز) وهو بيت الذل والهوان ومحل البغي والطغيان ، فلم يدر أهل القلعة الا وقد احيط بهم احاطة الخاتم بالأصبع ، ولم يجدوا مفراً ولا ملجأ مما نزل بهم من العذاب ولا مفزع ، فما زال أهل الالحاد يجالدون ويجادلون ، ويقابلون ويقاتلون ، ويقومون ،ويعقدون ،ويتصبرون ويتجلدون ،الى ان عجزوا عن الكفاح وصاروا غرضاً للسهام والرماح ، وثلم عليهم السور ، وهجم عليهم ، ففر منهم مَن أمكنه الفرار ، وسيق باقيهم إلى عذاب النار ، وقتلوا قتلاً ذريعاً إلى آخر النهار ، بحيث ملت السيوف وكلت ، وانثلمت الصوارم وانفلت ، وطلع السنجق السلطاني على السور ، وأشرق الموضع بعد اعتكاره بالالحاد من سنا الاسلام والسنة بالنور ، ولله عاقبة الأمور ، وله الحمد في العاقبة والأولى ، واليه النشور ، وذلك في سادس عشر جمادى الاولى ، ووافق هذا اليوم صعود حسن باشا ،بمن معه من الجانب الذي هو فيه إلى قلعة اخرى حصينة ، وقلعة مسورة متينة ، تسمى (حجر الركانين) من أوثق حصون أهل كوكبان فأحاط بهم حسن باشا ، وقاتل أهلها أشد قتال ، ورمى عليهم بالمدافع الثقال ، وشن عليهم الغـــارات ، ودهكهم بالبنادق والضربزنات ، وتسور الرجال أعلى السور ، وأطلعوا السنجق السلطاني المنصور ، ووضعوا السيف في أهل القلعة ، وقلعوهم منها أشد قلعة ، وهرب منهم من أعانه طول العمر ليقتل ثانياً فيما بعد ، وصدق الله المؤمنين بنصره المتوالي ما سبق لهم من الوعد ، وكان يوماً شديداً على أهل الالحاد ، بأخذ هذه القلاع الشداد ، وبذهاب الملك من أيديهم والبلاد ، وانكسر بذلك ظهر الأعرج المهـــين ،

وظهر (محمد بن شمس الدين) ونزل (علي بن شويـع) إلى أسفل سافلين ، ودعوا على أنفسهم بالويـــل والثبور ، وتوالت عليهم الخمول والكسور ، وتحققوا أن جيش الالحاد مثبور ومكسور ، وجند أهل السنة بتأييد الله تعالى مظفر منصور ، وسيف السلطنة الشريفة العثمانية طويل مشهور ، وسنانها المثقف يزرى بالسيوف اليمانية إذا طعن في النحور ، ولا يعدها ماضية بالنسبة إلى عزمه يوم بأسه المحذور .



الفصل الحادي والاربعون

في تعيين حسن باشا لمحاصرة «كوكبان» وتطليع المدافع الكبار الى أعلى الجبل المذكور ، بالحبال والأرسان ، وفتح حصن (شماط) وتخريب ذلك البنيان ، وخلاص الأمراء المحبوسين في (كوكبان) في ذلك الزمان

لما مَنّ الله سبحانه على حضرة الوزير العظيم الشأن ، الرفيع المكان ، بفتح هذه القلاع في أعلى (كوكبان) حمد الله تعالى على انعامه بنصرة أهل السنة وخذلان الملاحدة وأهل العصيان ، وتوجه حينئذ إلى أخذ قلعة (كوكبان) وهي في غاية الإحصان والاتقان ، ونهاية القوة والمتانة والامكان، يحيط به خندق عميق عتيق ، لا يركبه جسر لطول عرضه ولا اليه طريق ، ولأهل القلعة نقب ينزلون منه إلى عمق هذا الخندق ، ولهم طريق واحد من أعلاه ، لا يسلك لغيرهم ولا يطرق ، يضعون فيه بعض الأخشاب المجعولة لذلك عند الاحتياج ، ثم يرفعونها فلا يوجد اليها مسلك ولا منهاج ، فإذا قصد طم ذلك الخندق بالاحجار ، نزل أهل القلعة اليها من النقب ورفعوها فلا تمتلي بتلك الصخار، وعندهم من المدافع الكبار ما

يرمون بها من يقرب من الخندق ، فلا يكاد أحد يقرب من طرق الخندق الا ليلاً وهو خائف يفرق .

فعين حضرة الوزير لمحاصرة هذه القلعة جماعة من الفتيان الشجعان ، وجعل حسن باشا سرداراً عليهم في ذلك المكان، وعاد هو الى المخيم الكريم ، ليطلع اليهم المدافع الكبار بالليل الليل البهيم، وكان من أصعب الامور تطليع هذه المكاحل العظيمة بين تلك الصخور ، ولكن همة الرجال تقلع الجبال ، ولا شيء على الهمة العالية بمحال ، وعلو الهمة أعلا وأغلا صفات الرجال ، ورحم الله من قال (بيت) :

له همم لا منتهى لكبارها وهمته الصغرى أجلُّ من الدهر

فأحسن حضرة الوزير الى العسكر غاية الاحسان ، وجلب قلوبهم اليه بجزيل البذل والمكارم الحسان ، ونثر عليهم أكياساً من الذهب والعِقيان ، وأمرهم بتطليع المدافع الكبار الى أعلا (كوكبان) فحملتها الرجال على الاعناق فهانت في الحملان ، فحملوها على الرقاب في تلك النقاب ، وأطلعوها بأنواع الصنايع والدولاب ، وتساعدوا على ذلك ، والتعاون يهون الامور الصعاب .

اذا الحمل الثقيل توازعته أكف القوم هان على الرقاب

وكان في اقامة حضرة الوزير في أوطاقه المظفر ، أنواع الرفق بالعسكر ، وتطمين سكان البر ، فلا ينال أحد بشرّ أحداً من البشر ، وفي ذلك تسليك الطرقات ، والأمن من السرقات ، وورود القوافل بالمعايش والمؤونات ، وتقوية جأش العساكر المتفرقة بالبلدان ، وتقوية جنان حسن باشا ومن معه في علو (كوكبان) ، بتواتر ارسال المـــدد ، وتكثير سوادهم وسلاحهم بتلاحق العدد والعُدد ، الى غير ذلك من الفوائد التي لا يحصرها عدد، وكانت في ممرهم بالمدافع قلعة تسمى (شماط) عالية المناط ، معدة للقتال والرباط، خاف أهلها ورتاعوا ، وشاهدوا من هيبة العسكر ما ذابوا لأجله من الفرق

وانماعوا ، فسلموا القلعة لحضرة الوزير وأطاعوا ، فألبسهم خلع الامان ، وعاملهم باللطف والاحسان ، ونقلهم الى أحسن مكان ، وأجرى عليهم بالجرايات والنفقات الحسان ، فخرجوا بقضهم وقضيضهم، ونزلوا من ذروتهم الى حضيضهم،وتركوا الدار خالية تنعي من بناها،وتبغى بسكانها بدلاً سواها، فأمر حضرة الوزير بهدمها ونقض أسوارها،وتخلية معصمها من تحلية سوارها، ورفع أساسها وخفض جدارها ، وأعمل المعاول في أحجارها ، فعادت لاتعد من الحصن ، وصارت كأنها لم تكن ، وإنما أمر الوزير لذلك خشية أن يعود أهلها الى العصيان ، اذا أضلهم الشيطان عن طاعة السلطان، فتكون معقلاً ، تصونهم بعد زمان ، ورأى الأمر يفضى الى آخر فصيّر آخره أولاً ، ولما حصل للعسكر المنصور هذا الفتح العظيم متعاقباً للفتوحات السابقة ، وتواتر انكسار العدو المخذول بتواتر النكبات المتلاحقة ، وتوالت نعم الله تعالى على أهل السنة بتوالي نعمائه والآئه المتناسقة ، حمدوا الله تعـالى على نعمه الجمة ، وشكروا إنعامه ولطفه والتوفيق على شكر النعمة أجل نعمة ، وعلموا أن النصر بيد الله تعالى يؤتيه من يشاء من عباده ، حسب ما سبق من التقدير ، وان الملك لله وحده لا شريك له ، يحيي ويميت بيده الخير ، وهو على كل شيء قدير .

ولما تحقق (محمد بن شمس الدين) وأهل (كوكبان) ومن انضم اليهم من العصاة وأهل العدوان ، ان العسكر السلطاني اطلع المدافع والمكاحل الى أعلى الجبل ، سقطوا في أيديهم وبطل منهم جميع المكر والحيل ، وتيقنوا انهم مأخوذون ، وعلموا أنهم سيذوقون عذاب عذاب الهون ، جزاء بما كانوا يعملون ، واضطربوا غاية الاضطراب ، وقرعوا باب الصلح وتعلقوا بالأسباب، وكان عندهم من أمراء السناجق الكبار ، ستة من الأمراء محبوسين عندهم في الآبار ، استولوا عليهم أيام الفتنة والعدوان ، وأخذوهم بعد اعطاء الأمان ، وغدروا بهم وربطوهم ، وقيدوهم بالحديد وضبطوهم ، وذلك في أيام استيلائهم على صنعاء ، وغيرها من البلاد ، واشتعال نيران الفتنة والفساد ، فبعد غيبتهم

في غيابـــة الجب سنين ، ولبثهم في السجن مع المسجونين ، ومقاساتهم فيه العذاب المهين ، أخرجوهم الآن من الحبوس ، وفكوا قيودهم من الأرجل والأغلال من الأعناق والرؤوس ، وقرروا معهم أن يشفعوا لهم عند الوزير في رفع القتال ، وكف هذا الجلاد والجدال ، والابقاء على ما بقي من الأنفس والأموال ، فكسوهم وطيبوا خواطرهم بليّن المقال ، وجهزوهم بالليل خفية مع بعض الرجال ، وأطلقوهم بقرب محطة الوزير وفارقوهم فارين الى الجبال ، فأقبل الأمراء المشار اليهم على الوطاق ، وصاروا يرفعون أصواتهم باللسان التركي ، كيلا يظنهم الحرس من الزيدية ، فيرمون عليهم بالبندقيات والسهام ونحو ذلك فاستأنس بهم الحرس ، وسألوهم : من أنتم ؟ فعرفوهم بأنفسهم ، فتقربوا اليهم ، وقدموا بهم في ذلك الليل على حضرة الوزير ، فاستبشر بهم ، وفرح بخلاصهم ، من أيدي الزيديين وأجلسهم بحضرته ، وحادثهم وحادثوه ، وهم ستة أنفس من أمراء السناجق .

الأول : دفتر دار اليمن وناظر أموالها محمود بـــك ، ابن أخت المرحوم بكلربكي اليمن سابقاً قره مصطفى باشا رحمه الله تعالى .

الثاني : من قدماء أمراء اليمن شاه علي بك ، ويقال له شيخ علي بك .

الثالث أيضاً : من قـــدماء أمراء اليمن قزلباش محمد بك أخو أحمد بك الذي استشهد أيام المرحوم مراد باشا ، وإنما قيل لهما(قزلباش) لأنهما من أمراء العجم وكانا من الشجعان المعروفين بضرب السيف .

الرابع أيضاً : من قدماء أمراء السناجق باليمن ، يقال له أريق حسن بك ، كان مقداماً متهوراً ، شاع ذكره بالبسالة في ديار اليمن .

الخامس أيضاً : من قدماء الأمراء باليمن ، يقال له (قره كوز بك) كان له ثروة واسعة بين الأمراء ، أخذها (مطهر) ولم يترك معه شيئاً .

السادس : كُدخُدا المرحوم مراد باشا ، اسمه حسين بك ، عرض له

المرحوم مراد باشا أن يكون سنجقاً ،فجاءه من الباب العالي سنجق سلطاني، فلما قتل المرحوم مراد باشا أُسر هذا من جملة من أسر ، وقدر الله تعالى خلاصه مع من ذكر ، وكان ذلك في الكتاب قد سطر ، وفي علم الله تعالى قد قدر .

فقربهم حضرة الوزير ، وآنسهم بالحديث وحسن التقرير ، وأنعم عليهم بالخيل والسلاح ، وبيض النقود وسمر الرماح ، وأراحهم كال الارتيـــاح ، وأضافهم وأكرم مثواهم ، وأذهب من أفكارهم أيام محنتهم وأنساهم ، وذلك من فضل الله تعالى عليهم ، وتواتر لطفه وحسن نظره اليهم،وهكذا الشدائد تؤول الى الانفراج ، والحزن يتبعه السرور والابتهاج ، ولا تدوم شدة ولا أحزان ، وهذا دأب الدهر وشأن الزمان .

لا تسأل الدهر في ضرّاءَ يكشفها فلو سألت دوامَ البـــؤس لم يَدُم

وكان خلاص الأمراء المذكورين ، من حبس محمد بن شمس الدين ،في سابع عشر جمادى الأولى من السنة المذكورة ، كما زبر ذلك في الزبر المزبورة .

وباقي الامراء محبوسون عند مطهر في (ثلا) ، يَسَّرَ الله تعالى خلاصهم من البلا ، إن شاء الله عز وعلا .



الفصل الثاني والاربعون

في محاربة بين أهل (ثلا) المأخوذ ، والعساكر السلطانية ، واطاعة بعض أهل الحصون اختياراً ، وبعضها قسراً واضطراراً ، وهدم ما رأى حضرة الوزير هدمه من الحصون بدفع ذلك ضراً واضراراً :

في العشرين من جمادى الأولى ، أمر حضرة الوزير ، بتقريب وطاقه إلى ذيل (كوكبان) الحصين حصير ، فصارت محطته المنصورة بنصر الله العزيز القهار ، قريبة من الخندق ، لتملأه العسكر بالأحجار ، ويتعدى عليه بالمرور إلى حصن (كوكبان) للحصار .

وفي اليوم الحادي والعشرين من جمادى الأولى ، جاء أهل قلعة (براش) غربي (كوكبان) من بلاد (الطويلة) الى حضرة الوزير يطلبون الصلح والالتئام ، وهي قلعة في غاية الأحكام ، ونهاية المكنة والاستحكام ، وهي من جملة قلاع (جبل التيس) لم يصالح أهلها لما صالح أهل جبل (التيس) وحصل من أهلها سوء أدب بالنسبة الى عسكر السلطان ، عند المرور عليهم في ذلك الزمان ، فاعتذروا مما وقع منهم قبل الآن ، وطلبوا الاستئمان ، فقبل حضرة الوزير عذرهم وأعطاهم الأمان ، ودخلوا في الطاعة ، ورجعوا عن الخلاف والشناعة ، وتشفعوا ببعض الأمراء فقبلت منه الشفاعة ، لكن كانت هذه

القلعة على طريق من يريد الصعود الى (كوكبان) فأمر حضرة الوزير بهدمها ونقضها ، وتصييرها خاوية بعضها على بعضها ، خوفاً من ضرها في المآل ، واحتمال عصيان أهلها في ثاني الحال ، فاقتضى الحال هدمها ، خصوصاً اذ حفت قرائن تدل على الفتنة ووصمها (شعر) :

تمثل ذو اللب في نفسه نوائبه قبل ان تنزلا
فان نزلت بغتة لم تَرُعـــه، لما كان في نفسه مثلا
رأى الأمر يفضي الى آخرٍ فصيَّر آخره أولا

وفي الثاني والعشرين من جمادى الاولى ، وقعت محاربة شديدة بين أهل (ثلا) وبين العسكر المنصور ، الذين في المخيم الشريف ، بالمحطة السعيدة .

وسبب ذلك انه لما كثر افتتاح القلاع والحصون الحصان ، بعضها بالقهر وبعضها بطلب أهلها بالأمان ، ضاق صدر الأعرج لذلك جداً ، ولم يجد لدفع ذلك بداً ، فاراد ان يشغل العسكر السلطاني بالأوهام والخيالات ويظهر لهم انه يأتي بحركات ، يخيل بها ان في قدرته القتال ، وجمع الرجال ، وأنه يغير على الأبطال، وذلك خيال باطل من أوهن الخيال أو اختلال عقل أو خبال، فجمع الذين معه من الزيدية في جبل (ثلا) وضم لفيفا آخر اليهم من حول الجبل ، وأمرهم أن يكمنوا من الليل ، تحت جبل (ثلا) وأن يصبحوا العسكر صبحا في هـــذا اليوم ، اظهاراً للقوة ، وعدم الاكتراث بما أخذه حضرة الوزير من القلاع العديدة في الزمن اليسير ، ففعلوا ما أمرهم بـــه ، وكمنوا خلف صخار الجبل ، ممـــا يوالي السهل ، وهم زهاء مائتي خيال ، والف من المشاة الرجـــال ، شاكين السلاح ، متوشحين بالسيوف والرمـــاح ، فلما تعرّى الفجر عن ثوب الغلس ، وتنفس الصبح من جانب الشرق أوضح نفس ، وسل الصباح سيفه الصارم على جند الظلام ، فانهزم الليل إلى جانب الغرب أشد انهزام ، حملوا على جانب من المخيم السلطاني ، ظناً انهم غافلون ، وانهم باثمد المنام بعد مكتحلون ، وما علمو انهم أحذر من

غراب ، وأيقظ من عقاب ، وأسرع من السهم المنساب . (بيت) :

ينام باحدى مقلتيه ويتـّقي   بأخرى الرزايا فهو يقظان نائم

فما كان باسرع من أن ركب الجند السلطاني ، وتهيأوا لقتال العدو الجاني ، وصبوا عليهم مطر النبل ، فكان أغزر من الطل والوبل ، وجالت الفرسان في الميدان ، واعملت السيوف والسنان ، والسمهرية والمـُرّان ، وحمي الوطيس ، وارتجّ بالضراغم الخميس ، واقتحم الخميس في الخميس ، وكان الوزير بنفسه النفيسة حاضراً في المخيم النفيس . (شعر) :

الخائض الغمرات في وهج الوغا   والحرب حاسرة بغــير قناعِ
بمُطهـّم َنهْدٍ كأن طرادَهُ   سيلٌ تحدّر من متون تِلاعِ
ومهندٍ يبدو على صفحـاته   ماءٌ ترقرق فوق نمل ، ساعي
ومثقف إن رام مهجة فارس   لم تحمهـا مسرودة الأدراع
بجنان مضاء العزائم رأيه   في الحرب غير الكاسد الضعضاعِ
فكأنمـا يختال في غمراتهـا   والنقع قد سـَتر الضـُحى بلِفاعِ
ليث الشرى ، في متن أجدل كاسر   يسطو بنصل ، في ثياب شجاعِ

فركب حضرة الوزير حصانه ، واعتقل سيفه وسنانه ، وجال في الميدان مع الفرسان ، وقتل عدة من الزيدية بالضرب والطعان ، فانهزموا في الحال إلى جبلهم ، وما أغنى عنهم ما تقدم ، من مكرهم وحيلهم ، وصاروا يثبون في جبل (ثلا) أمثال القرود ، ويرميهم العسكر السلطاني بالبندق والنار ذات الوقود ، إلى أن قتل منهم خلق كثير غير معدود .

ورجع حضرة الوزير من الميدان ، وقدامه عشرة من رؤوس الأعداء على العيدان ، وهو يحمد الله ويشكره ، ويستزيده من نعمه ويستنصره ، وفرح هو والمؤمنين بنصر الله ، والله تعالى يؤيده بنصره وعلاه ، ويهلك بأيديهم الملاحدة من أعداه .

وفي الثالث والعشرين من جمادى الأولى ، وصل من ناحية (حراز) أهل قلعة (شبام) وهو (شبام اليعافر) ويقـال له (شبام حراز) من بلاد الداعي أحد الخدام ، إلى مخيم الوزير ، المحفوف بالعز والنصر والاكرام ، يطلبون منه الأمان من حد السنان ، والدخول في إطاعة حضرة السلطان ، فأجـابهم إلى سؤالهم ، وعقد لهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ، وقابلهم باكرامهم واجلالهم ، وربحوا بذلك انتظام أحوالهم ، وسلامتهم في حالهم ، ونجاح آمالهم .

وفي غرة جمادى الآخرة وفد قوم يقال لهم (بنو قوي) على حضرة الوزير الآصفي ، وطلبوا الأمان على حصنهم ، ورجوا الاحسان اليهم باعطاء أمنهم ، ويقال لحصنهم المذكور (حداد بني قوي) من بلاد (الحيمة) والله تعالى هو العزيز القوي ، فقابلهم حضرة الوزير بالاقبال والقبول ، وشملهم بنظره الشريف أكرم شمول ، وبلغهم مما أملوه كل مأمول ، وأفرغ على كواهلهم حلل الاكرام ، وزين اعطافهم بخلع التكريم والاحترام، ولم يؤاخذ أحداً منهم بما اقترف ، سواء أنكر إساءته أو اعترف ، وتلى عليهم بلسان الصفح والعفو : عفا الله عما سلف ، استجلاباً لباقي العصاة من العرب ، واستعطافاً لخواطرهم النافرة لما تقدم من سوء الأدب ، ودفعاً للسيئة بالتي هي أحسن ، وأبقى على الأنفس والأرواح من الهلاك والمحن ، وهذا دأب العقلاء من أهل الحلم والفطن ، حيث يرتكبون الأهون فالأهون ، كما قيل :

تكفي اللبيب إشـارة مرموزة وسواه يُدعى بالنـداء العالي
وسواهما بالزجر من دون العصا ثم العصا هي رابع الأحوال
ثم الحسام يهز تخويفـاً به والفتك آخر حيلة المحتال

وقيل أيضاً :

وللمعـادي رُتَـبٌ في الحجـا الكيد ، ثم الصلح ، ثم الكفاح

قد يغلب المرء بتدبيره الفـــاً ، ولا يغلبهم بالسلاح

فلما بلغ خبر ذلك الأمان مع الاكرام والاعزاز، إلى أهل قلعة (رومان) في بلاد (حراز) بادروا إلى الوصول إلى حضرة الوزير ، ووفد منهم إلى بابه الجماء الغفير ، وألقى سلاحه كل كبير منهم وصغير ، وطلبوا الأمان على رقابهم ، وعلى أولادهم ، وأموالهم ودوابهم ، فقابلهم حضرة الوزير بغاية الجميل ، وعاملهم بما هو شأنه من اللطف الجزيل ، وطيب خواطرهم بالبشر والتبجيل ، وأعـــادهم إلى قلعتهم فرحين مستبشرين ، آمنين على أنفسهم وأموالهم بالترفيه والتأمين ، داعين له بكل لسان ، شاكرين لمـا عاملهم به من اللطف والاحسان .

وكان ذلك في خامس جمادى الآخرة من ذلك العام ، أحسن الله له الختام .

ثم في تاسع جمادى الآخرة ، وفد على حضرة الوزير من بلاد (حراز) أهل (قلعة نهاد) بالنفس والأتباع والأولاد ، داخلين في الطاعة والانقياد ، تائبين عن العصيان والعنـــاد ، فأكرمهم ورحب بهم ، ووافقهم على طلبهم وأربهم ، وشرط عليهم هدم قلعتهم ، لعدم الوثوق بتوبتهم وأوبتهم ، لأمر فهمه بحدْسه ، وتحققه في هَجْسه ، فوافقوا على ذلك وأخذوا الأمان ، وشرعوا في تخريب القلعة وما بها من البنيان ، وانتقلوا عنها إلى أبعد مكان ، وكفى الله تعالى بذلك شرهم ، وآمن المسلمين مكرهم وغدرهم .

ثم في بقية هذا الشهر حصل فتح عدة قلاع ، بطريق الصلح ، بطلب من أهلها ، فوافقهم حضرة الوزير على اعطاء الامان ، بشرط هدم القلاع ، التي لا تؤمن غائلتها ، وإبقاء البعض الذي يؤمن غائلته منها .

فمن ذلك أربع قلاع :

الأولى : (حصن دعلة) .

الثانية : (قلعة بنى العمران) .

الثالثة : (حصن مُعَدْعِد) .

الرابعة : قلعة (العقبة) .

حضر أهل هذه القلاع الاربعة ، ودخلوا تحت الطاعة ، وطلبوا الأمان منهم على أنفسهم وأولادهم ، وعبيدهم وأموالهم ، فأنعم عليهم الوزير بذلك ، فقدموا له التقادم النفيسة ، ولبسوا منه الخلع الفاخرة ، وتوجهوا بخاطر طيب وفؤاد مطمئن ، وصدر منشرح ، وأبقى عليهم حصونهم ، وأبقاها في أيديهم ، ولم يأمر بهدمها ولا تخريبها ، لاطمئنان خاطره الشريف من جانبهم.

ثم ورد عليه بعد ذلك أهل اثنتي عشرة قلعة في نواحي متفرقة يطلبون الأمان ، ويتوخون المكارم والاحسان ، وقدموا اليه الهدايا والتحف ، وكل ظريف ، من تالد وطريف ، استجلابا لخاطره الشريف ، وتقرباً من جنابه المكرم المنيف ، فوافقهم حضرة الوزير على إعطاء الامان ، وشرط عليهم هدم قلاعهم التي بأيديهم ، واتخاذهم بدلها مكانا آخر ، يكونون فيه كسائر رعايا السلطنة الشريفة ، نصرها الله تعالى ، لائذين بظله الممدود ، آمنين من القتل والأسر والقيود ، فقبلوا هذه الشروط وكتب عليهم العهود ، وعادوا الى حصونهم ، وهدموها كما برز به الأمر المعهود ، وتلك القلاع الاثنتي عشر:

أولها : حصن (ثنينة) كانت تابعة للعُدَيْن حوالي (جبلة) .

ثانيها : (حصن ظفران) في ناحية (أصاب) .

ثالثها : (حصن قبضان) .

رابعها : (حصن ريمان) وكلاهما في ناحية (يريم) .

خامسها : (حصن قَيْلة) من توابع نواحي (صُهْبان) .

سادسها : (حصن القفل) من توابع ناحية (مضرح) محل كان فيه استشهاد المرحوم مراد (باشا) رحمه الله تعالى .

سابعها : (حصن شخب) وهو حصن منيع في نواحي بلاد(آل عمار).

ثامنها : حصن (المقرانة) وهي من ناحية (رداع) .

تاسعها : (قلعة دمت) وهى أيضاً شرقي (رداع) .

عاشرها : (حصن سانه) في نواحي (وصاب) .

حادي عشرها : (حصن راجد) وهو أيضاً من قلاع نواحي (وصاب) وهي ثلاث عشرة حصناً .

ثالث عشرها:(أريشة) عشر من الحصون المنيعة هدمها أهلها، واستأصلوها امتثالاً لأمر حضرة الوزير ، وتطييباً لخاطره الشريف الخطير ، ودخلوا في رعايا السلطنة الشريفة، تحت طاعتها وأمنها وظلال سلطنتها الوريفة ، وذلك مما هداه اليه عقلهم ودينهم ، وغفلت عنهم في ذلك الوقت شياطينهم ، والله ولي الهداية والرشاد ، ومن يهد الله فما له من مضل ، ومن يضلل الله فما له من هاد .



الفصل الثالث والاربعون

في محاربة بين قراول حضرة الوزير الكبير، وبين عساكر الزيديين، وخروج الفرسان عليهم من الكمين، وقتل (أبي داود بن الهادي) وسوقه إلى سجين

لما كان ثاني شهر رجب المرجب سنة سبع وسبعين وتسعمائة، بلغ الأعرج من جواسيسه، وطواغيته الساعين في نكبته وتعكيسه، الذين يضرونه ويظنون نفعاً، وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً، ان حضرة الوزير المعظم، غاب عن مخيمه المكرم، إلى ناحية (كوكبان) المحطم، لتدبير الحرب، لأخذها، وفتحها واقتلاع قلعتها وصرحها فظن الأعرج المخذول، خلو المخيم الشريف عن الفرسان الفحول، فجمع طائفة من مخاذيله، وأغواهم بمكره وأباطيله، وروى أن شيطانه رأى له في النجوم، ان في هذا اليوم يحصل له الظفر على عسكر الروم، لأنال هذا المروم، ولا وصل إلى ما يروم، وكان أشجع من عنده من نقبائه، وأنجب من يعتمد عليه من نجبائه، صاحب الدرع المسرود، والوسط المشدود، النقيب (أبو داود) فلف اليه جماعة من الفرسان والمشاة، والحرابة والرماة، وقوي جأشهم كذباً وزوراً، ووعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا.

وكان حضرة الوزير قد علم بمكرهم، وفطن إلى ما يجول في صدورهم، وأعد جماعة من الفرسان، وأبطالاً من الشجعان، وأمرهم أن يمضوا من نصف الليل، إلى ذيل (ثلا) ويكمنوا تحت صخار هناك إلى وقت الصبح مثلاً، فاذا نزل من الجبل ناس صبروا حتى يصلوا الوطا، ويدخلون إلى

الميدان فيكر هؤلاء من خلفهم ، ويسوقوهم داعي المنيـة إلى حتفهم ، فيحصدونهم حصيداً، ويمهدوا لهم الهلاك تمهيداً ، ويأتوا بالسيف على آخرهم ، ويقطعوا شأفة دابرهم ، فامتثلوا أمر حضرة الوزير ، وكمنوا من نصف الليل خلف كل صخر كبير ، فلما دعى داعي الصباح ، ونادى :حي على الفـلاح ، وجرد الفجر صارمه الابيض ، ولبس الصبح ثوبه المشرق المبيض ، وانهزمت جيوش الظلام ، وانتشرت ببياض الصبح الرايات والاعلام ، نزل المغرورون من الزيدية ، وزلفوا إلى الميدان بالسيوف الهندية ، والرمـــاح السمهرية ، مغيرين على الوطاق المعظم ، غافلين عما خبىء لهم من سم الأرقم ، فماتوسطوا الميدان ، إلا وأعقبهم الفرسان ، وركب أكتافهم أهل الكمـــين بالسيف والسنان ، والبنادق التي تقذف بالنيران ، وخرج لهم من قدامهم رجال المخيم، وأحاطوا بهم كما أحاط السوار بالمعصم ، وقتلوهم قتلاً ذريعاً ، وقتلوا النقيب (أبا داود) ورموه بالعراء صريعا ، وحملوا على الرمح رأسه رفيعا، ورجعوا الى الوطاق بالنصر والظفر ، ورجع الزيدية بالخيبة والخَوَر ، وما سلم منهم إلا من كتب عليـــه القتل مرة اخرى ، فما سلم من الحسام إلا إلى الحمام قسراً وقهرا .

فلما رجع حضرة الوزير آخر النهار ، وعاد من ذيل (كوكبان) الى وطاقه المحفوف بالسكينة والوقار ، تلقاه الفرسان الذين كمنوا بأمره العالي ، وحملوا اليه رؤوس القتلى على الرماح العوالي، ثم دحرجوها تحت أرجل الخيل، وأذاقوا أصحابها في الدنيا الهوان ، وفي الآخرة الويل، واستمرت الزيدية في الوهن والكسر ، وتوالي القهر عليهم والقسر والأسر ، وما قصد الاعرج بهذا الاحتراش كل مرة ، وعدم الاحتراس من الذلة والكسرة الكرة بعد الكرة، إلا ليشيع عند العربان انه يقاتل، ويوهم الأطراف والجوانب انه يجالد ويجادل، ويسلي طوائفه وأعوانه بأن الحرب سجال ، ويعدهم بأنه قرأ في المنجوم: ان له دولة في المآل ، ويكذبه الله تعالى في المآل والحال ، فيما توهمه وأوهمه من الأمر المحال ، والله شديد المحال .

الفصل الرابع والاربعون

في وصول خبر هلاك (حسين بن شمس الدين) وقتل أخيه (الهادي) بالمدفع الرصين ، وقتل (البهال) من رؤوس القوم الباغين ، ووصول السيد (ناصر بن الحسين الجوفي) بالامان ، ودخوله في طاعة السلطان مع زمرة أهل الايمان

كان لشمس الدين بن شرف الدين ثلاثة أولاد ، كلهم شطار ، كأنهم شعلة نار ، يحبون الفتنة والفساد ، ويسعون في الأرض فسادا في كل بلاد .

فأما حسين فكان هو وعلي بن شويع أساس الخروج والعصيان ، ومدار البغي والطغيان ، وهما اللذان خرجا على احمدبك (القزلباش) ، وجمعوا عليه طائفة من الانذال والأوباش ، حين أرسله المرحوم (مراد باشا) بالميرة الى صنعاء ، وقطعا عليه الطريق في (ذراع الكلب) قطعا ، وقتلاه وأخذا الميرة ، وسعيا في الفساد سعيا ، وقد تقدم شرح ذلك في الفصل السابع والعشرين ، فارجع اليه إن أردت عليه رجعاً .

ولأخيه الهادي ضلال كبير ، وفساد لا يخفى على الكبير والصغير .

وأخوهما محمد يرجع إلى عقل وبصيرة ، ومرة ومَريرة ، فلهذا رجع

بعد إلى الطاعة ، وخالف أولئك الجماعة ، كما يأتي بيانه ، ونشرح إن شاء الله تبيانه .

وكان حصل لحسين بن شمس الدين مرض طويل ، آل به إلى الاستسقاء ، فأهلكه ودق عنقه دقا ، وكان هلاكه في حادي عشر شعبان ، سنة سبع وسبعين وتسعمائة ، فكفى الله المسلمين شره ، ودفع عنهم كيده وضره ، وصيّره لأهل الاعتبار عبرة ، وساقه إلى عذاب النار ، وأورده جهنم وبئس القرار .

وأما أخوه الهادي الضال ، رئيس أهل الضلال ، وزعيم الملاحدة في الافساد والاختلال ، فأصابه مدفع كبير ، طير رأسه ، وأخمد أنفاسه ، وطفى نبراسه ، وسار من النار إلى النار ، ومن الدمار إلى البوار ، وحسبه جهنم وبئس القرار .

وكان مع صغره ركناً كبيراً في الفتنة ، وأساساً مشيدا في وقوع هذه المحنة ، فهدمه الله تعالى وأعدمه ، وأحرقه بالنار وأضرمه ، وكفى شره كافة عباده ، وأبطل صور أباطيله ، ومواد فساده ، وقرت بهلاكه عيون المسلمين ، وفرحوا بذلك إذ جاءهم النصر والفتح المبين .

وكان لمحمد بن شمس الدين صهر يعاضده في الضلال ، ويسعفه بالنفس والمآل ، ويمده بالأولاد والخدم والرجال ، اسمه (السيد البهّال) ، معدود من الأبطال ، معروف بشدة الجلاد والجدال ، كان لمحمد بن شمس الدين ظهراً ظهيرا ، وللأعرج المخذول عكازاً يعتمد عليه ونصيرا ، وكان ركناً من أركان (ثلا) و (كوكبان) وسيئة من مساوىء الدهر الخوان ، ورواغاً يروغ مكراً وخديعة كالثعلب والثعلبان ، خرج في بعض الليالي من (كوكبان) قاصداً حصن (ثلا) ولم يدر ما جنى له في الغيب من نزول البلا ، فمر على طائفة من الحرس ، يطوفون حول العسكر ، من أول الليل إلى وقت الغلس ، ويتخطفون من يجدونه ، ويرتقبون العدو ويرصدونه ، فلما لحوا خيال

(البهال) عدوا عليه بالنبال والنصال ، وأدركوه بالسيوف والأسل الطوال، وأذاقوه كأس الحمام ، وذبحوه كما تذبح الأغنام ، وساقوه إلى جهنم وبئس المصير ، وحملوا رأسه إلى حضرة الوزير ، ورموه تحت سنابك الخيل وحوافر البغال والحمير ، وكفى الله تعالى شر ذلك الشرير ، وفرح المؤمنون بنصر الله ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

وانكسرت بذلك شوكة محمد بن شمس الدين ، وانقضم ظهر الأعرج ، وانخذلت بقتله الملاحدة وكل أعوج معوج ، والله يؤيد بفضله الدين القويم ، ويطرد عن دينه الحق المستقيم ، أذى كل شيطان رجيم .

ومما اتفق في أثناء هذه الوقائع وصول (السيد ناصر بن الحسين) من شرفاء (الجوف) إلى حضرة الوزير ، داخلاً تحت الطاعة السلطانية ، مستظلاً بظل سلطنة الحضرة الخاقانية ، مستمسكا بأذيال عفوها وصفحها ، ومستنشقاً من نفحات مراحمها العثمانية فوحات نفحها .

وهذا السيد مشهور بالشجاعة والبسالة ، معروف بالنخوة والفروسية والعتالة ، يكاد يصادم الألوف ، ويرمي نفسه على الحتوف ، رمية الملهوف ، بحيث يلقب بالمجنون ، لما يشاهدون منه في الحروب من الجنون ، وفي الحقيقة لا يسمح العاقل بنفسه، ولا يتلقى السيوف بجمجمة رأسه ، ولا يختار المبادرة إلى حفرته ورمسه ، ولا يقدم على ذلك غير المتهور المجنون ، إذا غاب عن حسه ، وكان هذا معروفاً بذلك، القى نفسه في كثير من المهالك ، وفي ذلك يقول القائل ، من جبناء القبائل . شعر :

ولو أن لي رأسين أدخر واحدا وألقى السيوف الموهفات بواحد
لأقدمت في الهيجاء إقدام باسل ولم أك رعديداً ، زمان الشدائد
ولكن لي رأساً إذا ما فقدته فما أنا رأساً غير هذا بواجدِ

وهذا هو ابن عم (علي بن شويع) وبينه وبين ابن عمه المذكور عداوة

مؤسسة ، يتمنى كل منهما قتل الآخر ، ويود هلاكة بعدا وقربا ، كما هو شأن عداوة ذوي القربى .

وكان حضرة وزير لما شم هذه الرائحة ، وعلم ما بينهما من المنافسة الواضحة ، دس اليه من عرض عليه الالتجاء الى حضرة الوزير ، والاستنصار به على ما يرومــــه من كل أمر خطير ، وانه اذا سبق الي التشبث بأذياله ، والتمسك بحباله ، قبل أن يستولي حضرة الوزير على البلاد ، لنال منه أقصى المراد ، وأما اذا صبر بعد استيلاء العساكر المنصورة ، على البلاد والحصون المشهورة ، فلا فائدة في ذلك الانقياد ، ولا عبرة بالطاعة بعد أخذ البلاد ، كما أن إيمان اليأس غير مقبول ، واسلام الكفار بعد نزول العذاب منحول مدخول ، فكذلك يكون ما يظهر من الاستسلام والاذعان بعد الآن لا يصادفه القبول.

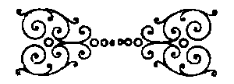
فرأى الشريف ناصر ان هذا الراي هو الصواب ، واستصوبه غاية الاستصواب ، واقدم على القدوم على حضرة الوزير ، وأن يدوس بساط السلطنة مستسلما الى الله العلي الكبير .

وأرسل الى حضرة الوزير يسأل فضله في بذل الامان ، وفي العفو عما جرى منه من جرائم العصيان ، فقابل حضرة الوزير سؤاله بالقبول ، وبذل له الأمان ، ووعده ببلوغ المأمول ، فاقبل الى حضرة الوزير وهو يحمر تارة من الخجل ، ويصفر تارة من الهيبة والوجل ، فسكن حضرة الوزير روعه ، وطمن خاطره وأبسط ضمائره ، وقابله بالانشراح والانبساط ، وأراه سناً ضاحكا عن نشاط ، وأفرغ على كاهله حلل الرضا ، وتلى عليه : عفى الله عما مضى ، وأبهجه غاية الابهاج ، وألبسه خلعاً من الزرياف والديباج ، وخلع على كل من معه على مراتبهم ، وأحسن إلى حاضرهم وغائبهم ، ونثر عليهم الدنانير والدراهم ، ونشر عليهم الوية اللطف والمراحم ، ثم أرسلهم إلى دار الضيافة ، ومد لهم سماطاً عظيما في غاية النفاسة واللطافة ، فأكلوا وشربوا وفرحوا وطربوا ، ثم قدم له ولأعيان جماعته خيولاً مسومة ، بالسروج المذهبة المكرمة ، والركب

واللجم المفضضة ، ومن خالص التبر والفضة ، وقطفوا من شجر المودة ثمارها الغضة ، وصاروا يعجبون من تلك النعم البيضاء والأيادي المبيضة ، ورجعوا إلى مواطنهم آمنين فرحين ، وعادوا إلى أهليهم مطمئين مستبشرين ، فكانوا كما قيل :

فعادوا فأثنوا بالذي أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

فانكسر بذلك ظهر الاعرج ، كما انكسرت رجله ، وجزع وفزع هو ونقباؤه وأهله ، وأقاموا لذلك مأتماً ومصيبة ، وأصابهم من ذلك سهام كانت في أفئدتهم وأحشائهم مصيبة ، وكل ذلك معدود من نصر الله وفتحه القريب، وتأييده لأهل السنة السنية على كل معتد ومريب ، والحمد لله القريب الرقيب، السميع المجيب .



الفصل الخامس والاربعون

في كذب (مطهر) وحيلته وتلبيسه ، وترويج كذبه ودجله على زمرة أباليسه ، واستدعاء أهل (الجوف) وأهل (صعدا [1]) للقدوم عليه ، وانخداعهم بمكره وتزويره، ووصولهم اليه، وبروز حضرة الوزير للقتال، وهروبهم من بين يديه الى قلل الجبال

كان من دأب هذا الأعرج ، وعادته التي نشأ عليها طبعه المعوج ، الكذب والتزوير والتلبيس ، والغوص في بحر الدجل والخوض فيه إلى التلابيس ، بحيث لا يشك أنه أحد الدجالين ، ولا يرتاب نه أكبر أهل الخداع والحيالين ، بيت :

اكسير كذب، فلو ألقيت أيسره على الأنام ، لصاروا كلهم كذبة

وكان في مدة هذه الحروب ، وهو في جميعها مكسور منكوب ، مدحور مغلوب ، لا يرى من نفسه عجزاً ولا انكساراً ، ولا يظهر وهناً ولا اضطراراً ، بل يقتل من عسكره المِئون ، وهو يخفي ذلك عن العيون ، ويكتم ذلك لئلا تسري اليه الظنون ، وإذا قتل جماعته واحداً من الأروام ، أشهره بين العربان وسائر الأقوام .

وكان من عادة تلك الديار ، إذا وقع القتال ، أوقد الغالب من الفريقين

(١) كذا في الأصل : صعدا ، صوابه (صعدة) وفي (ف) : صنعا غلط .

النيران بأعلى الجبال ، إشعاراً بأنه الغالب ، وإظهاراً للفرح بذلك في تلك الجوانب .

وكان هذا الأعرج كلما انهزم وغلب ، وفي أي حرب انكسر وعطب ، يوقد في جبله ، نيراناً عظيمة من العشاء إلى الصباح ، ويظهر للعربان كال السرور والانشراح ، ويوهم انه الغالب ، والحال انه المكسور العاطب .

ومن جملة حيله ومكره ، وخدعه التي أبرزها من صدره ، انه أرسل إلى أهل (الجوف) وصعْدا ، ومن حولهم من العربان البعَدا ، وهو يقول لهم: ان العسكر الروم ضعفوا ووهنوا، وأصيبوا بالنوائب ومحنوا ، وقتلت منهم مقتلة كبيرة ، وأخذنا منهم مغانم كثيرة ، وقد بقي منهم شرذمة قليلون ، وطائفة ذليلون ، لا يستطيعون القتال ، ولا يحتملون المبارزة والـــنزال ، فأقبلوا الينا لنخصكم بغنائمهم واسلابهم ، ونبركم بما بقي من آلاتهم وأسبابهم ، فتغنموا تلك الغنائم ، وتملأوا جربانكم عوض حشيش الأعشاب وخسيس المطاعم ، من نفيس الجواهر اللطائم ، ولا أقل من الدنانير والدراهم ، وملأ اسماعهم من هذه الأباطيل ، وزوق عليهم سفساف الاقاويل ، فانتفخت عروق اطماعهم ، وصدقوا بما طرق من الباطل في اسماعهم ، فأجابوا دعاء الأعرج الكذوب ، وظنوا انه الصدوق الغلوب ، كما زعم في تلك الحروب ، وما فطنوا انه لو كان غالباً كما قال ، فما فائدته في استدعاءاتهم للمحال إلى تلك المحال ، وهل يترك احد فريسته لسواه ؟ وهل يدع الكلب صيده لغيره إذا تولاه ؟! لكنهم عربان حمقاء جهلا ، ليسوا عقلاء بل غفلا ، ينخدعون بالكلام الباطل ، ويصدقون بالمموهات الأباطل ، فركبوا من عقولهم متن عمياء ، وخبطوا خبط عشواء ، ووصلو إلى (ثلا) لمقاساة المحن والبلاء ، وساقوا من وجدوه في طريقهم ، وكثروا بذلك سواد فريقهم ، وهل يروع الجزار كثرة الغنم؟ ، وهل يعد الراعي كثرة النـّعم إلا من النـّعم ، ورحم الله النابغة الذبياني [1] ، حيث قال :

(١) انظر حماسة ابي تمام .

وكنّا حسبنا كل بيضاءَ شحمة ... ليالي لاقينا جُذاماً وحِمْيرا
إلى أن لقينا الحيَّ بكر بن وائل ... ثمانين ألفا ، دارعين وحُسَّرا
فلما قرعنا النبع بالنبع بعضه ... ببعض أبتْ عيدانه ان تكسرا
سقيناهم كأساً ، سقونا بمثله ... ولكننا كنا على الموت اصبرا
وننكر يوم الروع الوان خيلنا ... من الطن حتى تحسَب الجون اشقرا
وليس بمعروف لنا أن نردها ... صحاحا ، ولا مستنكراً أن تُعفّرا
غلبنا فلم نكشف قناعاً لحرة ... ولم نستلب إلا الحديد المسمّرا
ولو اننا شئنا سوى ذاك أصبحت ... كرائمهم فينا تباع وتشترى
ولا خير في جهل إذا لم يكن له ... حليم إذا ما أوردَ الامرُ أصدرا
ولا خير في حلم إذا لم يكن له ... بوادر ، تحمي صفوه أن يُكدرا

وما تمكنوا من العبور ، إلى مهاوي العثور ، ومهالك الغي والغرور ، حتى سلكوا الوهاد والآكام ، ومداحض الحجار والآجام ، وبلُوا بكلكل من الأهوال ، وهم في كل يوم في نقص من الأنفس والأموال ، فأذهب الله عنهم البركة ، وصعبت عليهم الحركة ، فما صدقوا حين وصلوا إلى (ثلا) كيف خلصوا من العدم إلى الوجود ، ومن السهر إلى الهجود ، ومن الضيق إلى السعة ، ومن تعب إلى دَعة ، فخرج الأعرج إلى لقائهم ، ورحب بهم وفرح ، وتلقاهم بسن ضاحك وصدر منشرح ، وخاطر منفسح ، وأضافهم وأكرمهم ، وقربهم اليه ونعمهم ، وتملق اليهم بغاية الملق ، وترفق لهم فحن غالبهم ورق ، وأمرهم أن ينصبوا خيامهم في مَحْجَر بذيل الجبل ، وقبالة مخيم الوزير ، في موقع لا يمكن فيه جولان الخيل ، لانتشار الصخر الكثير ، ولا يصل اليه المدفع الكبير ، وقد رصوا الصخار أمامهم ، وتترسوا بالحجار الكبار قدامهم ، فلا يهجم عليهم بالخيول المسومة ، ولا يوصل إليهم بالمدافع المحكمة ، وإن تكلف لسلوك تلك التعاريج ، والمشي بين تلك الصخار والتعاريج ، وقد هيأوا خلف كل صخرة من يرمي بالبندقيات الصغار ، مخبوءٌ خلف تلك الصخار كخبوءِ النار في الأحجار ، يصيب الطير في الجو بين الأطيار ؛ فما

يدري السالك إلا وقد أصيب بالنار، فلا يسلكها إلا الشطار، ولا يقحمها إلا كل متهور عيّار ، وبعد هذا التعب كله إذا صادفوا من دهمهم ، وأقدم عليهم وهجمهم ، هربوا مثل القرود إلى الجبل ، وتركوا المحطة والحلل ، وأبقوا من شدة الخوف والوجل ، وفروا ولهم حصاص كحصاص الشيطان ، عند سماع الآذان ، ونهاق كنهاق الحمير عند مشاهدة الضبع في الميدان ، ومع هذا الهروب إذا وصلوا إلى (ثلا) أوقدوا النيران ، وأظهروا انهم منصورون بالكذب والزور عند العربان ، فإذا شاهدهم أهل الجبـال الأخرى أوقدوا أيضاً النيران بالزور، وصاحوا اصياح القرود فوق الصخور، ويثبون وثوب العصفور، يظهرون الفرح والسرور ، وكل ذلك كذب وزور، والله عليم بذات الصدور .

ثم ان حضرة الوزير ، لما بلغـه وصول هذا الجيش الكبير ، واجتماع هذا الجمع الكثير ، عزم على مقاتلتهم ، وأجمع على مقابلتهم ، وركب من مخيمه العالي، واركب عسكره جرائد الخيول الغوالي ، يهزون طوال المثقفات العوالي ، واستكمل الات السلاح ، فأرهف البيض الصفاح ، وثقف متون العسالة الرماح ، وجند جنوده ، ونشر الويته وبنوده ، وكتب كتابه وهيج اسوده ، وصفف عساكره بالميدان ، وأوقفهم في محل يمكن فيه جولان الفرسان ، ووقف في القلب واشرع الجناحين ، ورتب الخميس أزين ترتيب في العين ، ونشر الأعلام والرايات ، وضرب الطبول والكاسات ، فاشبه يوم الحشر يوم ينفخ في الصور ، وزلزلت الأرض زلزالها ، وكادت السماء ان تمور، والفرسان يلعبون بين يديه بالجريد ، ويقصدون بالادمان به ضرب العدو من الوريد، وقد اشتاقوا الى التصاف ، وتهيجو لملاقاة المصاف ، وهزوا المناكب والاعطاف ، وجردوا الصوارم والأسياف (شعر) :

حملوا قلوب الأسد بين ضلوعهم	ولووا عمائمهم على الأقـمار
وتقلدوا يوم الوغا ، بصوارم	امضى اذا انتضيت من الأقدار
قوم اذا لبسوا الدروع حسبتهم	كسحاب غيث ممطر بنهـار
ان خوفوك لقيت كل كريهة	أو آمنوك لقيت دار قرار

وأرسل حضرة الوزير الى اولئك الاجلاف، ليبرزوا للاصطفاف، ويركبوا صهوات الخيل صواف ، ودعـــاهم إلى الميدان ، ليظهر دعواهم بالامتحان ، فيكرم المدعي أو يهان .

وتكرر في جانب الوزير طلب المبارزة من الفرسان ، واستدعاء القتال والضرب والطعان ، فلم ينبس احد منهم ببنت شفة ، ولا اظهر برهانه على دعاويه المزخرفة ، بل سكتوا خائفين ، ومن الرعب العظيم مرتجفين ، وولوا هاربين من غير قتال ، وفروا الى قلل الجبال ، وأووا الى حصن (ثلا) ظنا انه يعصمهم من البلاء ، وفي مثل ذلك يقول أبو الطيب المتنبي :

إذا ما سرت في آثار قوم ... تخاذلت الجماجم والرقاب

رميتهم ببحر من حديد ... له في البر خلفهم عباب

فصبّحهم وبسطهم حرير ... ومسّاهم وبسطهم التراب

ومن في كفه منهم قناة ... كمن في كفه منهم خضاب

كذا فليسر من طلب الأعادي ... ومثل سراك فليكن الطلاب

واستمر حضرة الوزير ومن معه من العسكر إلى قريب المغرب ، واقفين في الميدان ، ينتظرون وصول العدو اليهم للمحاربة والطعان ، فلمـــا طال الوقوف ، ومل طول الانتظار عرض تلك الصفوف ، وقرب هجوم المساء ، وحصل اليأس من وصول العدو ، حتى (لعل) أو (عسا) وصل الخبر بفرارهم قبل اللقا ، وهروبهم عن المقابلة والملتقى ، شعر :

ابى الله الا أن يمـــوتوا أذلة ... وفروا وسيّان المنيـــة والفرّ

ولو صبروا ماتوا كراماً أعزة ... ولكن عند الحرب خانهم الصبر

وقد كان خيراً من حياتهم الردّى ... وأجدى عليهم من فرارهم الأسر

يعز على زُرْق الأسنة عودهـــا ... وما نهلت منهم ذوابلها السمر

تروعهم الأحلام في ساعة الكرى ... ويفزعهم خوفاً إذا استيقظوا الفجر

طووا مكرهم تحت الضلوع خيانة   فحاق بهم خبث الطوية ، والمكر
نبت بهم أوطانهم وتذكروا   وحق لأوطان بغى أهلها النكر
لقد ركضت خيل المنايا وأوجفت   بهم ، ولهم فيمن بقي منهم ذكر

ولما تحقق هروبهم حضرة الوزير المذكور ، مع العسكر المنصور ، عاد مؤيداً الى وطاقه المعظم المعمور ، وبات في خفض ودعة وسرور ، وبات عدوه المدحور ، وهو من خوفه حتى في المنام مذعور ، بيت :

فإذا تنبه رعته واذا غفا   سلت عليه سيوفك الأحلام



الفصل السادس والاربعون

في ذكر مقدار من بقي مع حضرة الوزير من العسكر المنصور ، ومن اجتمع على مطهر من الجيش المقهور ، واقدام الأعرج مرتين على القتال والطعان ، في أوائل شهر رمضان ، وانكساره ونكوسه بالخذلان والخسران

لما كان يوم الاثنين مستهل شهر رمضان ، سنة سبع وسبعين وتسع مائـة ، خطر في بال الاعرج الأعوج ومن على رأيه السقيم المعوج ، أن يقدم على قتال حضرة الوزير ، ورأى انه تقوّى بمن جاء من أهـل (الجوف) وصعدة من الجيش الكثير ، ورأى ان الغلبة بكثرة السواد ، وما علم انه بثبات حصاة الفؤاد ، ولا اعتبار بمجرد الكثرة إذا احاط بالقلب الخوف واحتواه ، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، وخصوصاً من خان سلطانه واتبع هواه ، من طوائف المبتدعة والطغـاة ، وزمرة الملاحدة والعصاة ، وفرقة الخوارج والبغاة ، وما النصر إلا من عند الله .

ولقد أحصى حضرة الوزير من بقي عنده من العساكر ، وعد من فضل معه من ذلك الجيش الكاسر ، بعد قتل من استشهد منهم ، وغيبة من غاب ، وموت من مات منهم بأجله المحتوم في ام الكتاب ، وتفريق من فرقه لحفظ

البلاد التي افتتحهـــا ، وتجهيز من أرسله على القبائل العاصية ليغير عليها ويصبحها ، وغير من أحاطوا بحصن (كوكبان) ، للمحاصرة والمقاتلة في ذلك المكان ، فكان العسكر الذين حول الوزير في مخيمه المحروس ، ووطاقه المعظم الذي هو بالعز والسعادة مأنوس ، ألفا ومائتي مقاتل ، ما بين فارس وراجل ، وأبطال أقامهم الله تعالى لإزاحة الباطل ، وهم في كل يوم يطلع نصفهم بالنوبة إلى (كوكبان) اعانة للعسكر المحاصرين المقيمين بذلك المكان ، وقصدهم بهذا الطلوع أن يتساعدوا على ملء الخندق ، يرمون فيه بالأحجار ، والصخار الكبار ، ليمتلىء فيسلك فيه ويطرق .

وفي اليوم الثاني يطلع النصف الآخر ويفعلون كذلك .

وعـــين حضرة الوزير لكل نصف أميراً من الاغوات ، يطلع بذلك العسكر ، ويعود به آخر النهار ، ويطلع فيما بين ذلك في أكثر الايام حضرة الوزير بنفسه ، وحفدته ومماليكه لهذا الاستخدام .

وأما عسكر الزيدية اللئام ، ومن حول مطهر في جبـــل (ثلا) من الأقوام ، فهم ألف فارس وثمانية آلاف راجل ، منهم أربعة آلاف يرمون بالبنادق والمكاحل ، وثلاثة آلاف يقاتلون بالحراب والسلاح الكامل ، غير ان الله تعالى ألقى في قلوبهم الذلة ، ورماهم بالعجز والقلة ، وأعلهم بكل مرض وعلة . (بيت) :

وما تنفع الخيل الكرام ولا القنا   إذا لم يكن فوق الكرام كرام

فأكثر ما يستعملون من السلاح الصياح ، فاذا رأوا عين الجد ألقوا السلاح والسلاح ، وأبقوا إلى الجبال ، وأبقوا الغبار في يـــد الرياح ، هذا شأنهم ودأبهم ، وقتالهم وضرابهم ، ليس لهم غير ذلك براح ، لكنهم معاندون مكابرون ، وعلى طرق الضلال مثـــابرون ، يعرفون الحـق ولا يعترفون (ان الذين يكسبون الاثم سيجزون بما كانوا

يقترفون) فجمع زخرفه وأباطيله ، وجيشه المموه وحيله ، ورتبهم أفواجاً وانهجهم انهاجاً ، وأراهم في سلوك الغي منهاجاً ، وطلب طلبته وشجعهم ، ونفث سحره واسمعهم ، وعين لهم رأساً ، وحلف له أن يكون منصوراً ، ووعدهم وما يعدهم الشيطان الا غرورا ، فشرعوا في النزول إلى الميدان ، وساقوا اليه وقد أرخو العنان ، وذلك في مستهل شهر رمضان .

فلما شاهد حضرة الوزير بعض اقدامهم ، وجراءتهم بانفسهم على حمامهم ، أمر عسكره بالتثبط والتغافل ، والتأني عن المبادرة إلى التكاسل ، كي يشجع العدو المخذول ، فيستوفي النزول ، إلى الميدان والوصول ، فما أطاق العسكر المنصور صبراً ، وطاروا على ظهور الخيل يطفرون طفراً ، ويوقدون لضرام الحرب جمراً ، وركب في أثرهم حضرة الوزير ، بكبكبته الكبرى ، وضربوا له طبلاً وزمراً ، وقد ثمل العسكر بمشاهدة ذلك سكراً ، كأنهم شربوا خمراً ، ودارت رحى الحرب وقامت على ساقها ، وانتبهت عيون المنايا ، وادارت على القوم اقداحها باحداقها ، وحمي الوطيس ، واقتحم الخميس في الخميس ، واختلطت جنود الملائكة بجند ابليس ، بيت :

وابن اللبون إذا ما لز في قرن   لم يستطع صولة البزل القناعيس

واستمر الحرب والقتال ، من أول الفجر إلى ما بعد الزوال ، فقتل من لا يحصى من الزيديين ، واستشهد قليل من أنصار الدين ، واقتلعت خيول كثيرة ، وصرع كثير منهـا في الميدان ، وتثلمت السيوف من الضراب ، وتحطمت متون المران ، وصارت تسيل بدماء القوم تلك الشعاب كماء منهمر ، وترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل منقعر ، فلما جاء وقت العصر ، أتى أهل السنة النصر ، وانهزم الملحدون بالقتل والأسر ، وولى أدبارهم بالقهر والقسر :

ولزّهم الطراد إلى قتـال   أحدّ سلاحهم فيه الفرار
مضوا متسابقي الاعضاء فيه   لأرؤسهم بأرجلهم عِثار

إذا صرف النهار الضوء عنهم دجاليلان ، ليل ، والغبار
وان جنح الظلام انجاب عنهم أضاء المشرفيـة والنهار
إذا فاتوا الرماح تناولتهم بأرماح من العطش القفار
يرون الموت قداما وخلفا فيحتارون والموت اضطرار
ومن طلب الطعان فذا (سنان[1]) وخيل الله ، والأسل الحرار

واستمرت الرماح تنفذ من ظهورهم الى صدورهم ، والسيوف تعمل في اقفيتهم وظهورهم ، الى أن حال بينهم الليل ، واسدلت الظلماء على الجو فضل الذيل ، واكتحلت العيون بأسود الظلام من سواد الدّجى ، وضرب بـين الأبصار والمبصرات حجاب حالك نسجه الليل إذا سجى ، فعاد العسكر المنصور إلى مخيمه العالي ، ورياح النصر تخفق بعذبات اسنته العوالي ، ورجع حضرة الوزير الى وطاقه المعظم ، والنصر والظفر يخفقان بركابه المكرم ، ورؤوس الأعداء مجنوبة تساق اليه ، ووجوه النصر والسعادة والاقبال مقبلة عليه ، فارسل بالرؤوس لتنصب قبالة حصن (كوكبان) ليرى أهل الحصن ما اصحاب اعوانهم من الخزي والخذلان ، وهذا مما قدم لهم من عذاب الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

وأقـام حضرة الوزير في عزه وجلالته ، وامره النافذ وايالته ، يرسل السرايا الى الأطراف،ويجهز الاجناد لضبط البلاد والاكناف ، ويعطي الامان لمن ورد عليه من القبائل والاجلاف ، وقد أعطى كليته لأخذ (كوكبان) واذا فرغ من افتتاحه توجه لأخذ (ثلا) من كبير العرجان ودجّال الزمان، هذا هو الذي يحدثه ضميره ، ويبيت كل ليلة هجيراه وسميره .

فلما كان يوم الجمعة ، خامس رمضان ، ترآى الجمعان ، والتقى الفريقان،

(١) : يقصد اسم من ألف له الكتاب . وقد تصرف بالشعر القديم .

ونزل من (ثلا) من كان به من العربان، يقدمهم الخذلان ، ويسوقهم الشيطان، حتى اصطفوا في الميدان ، فكانوا كما قيل :

لقد أقدموا لوصادفوا غير آخذ   وقد هربوا لو صادفوا غير لاحق

فخرج اليهم حضرة الوزير ، بمن معه من عساكر السلطان ، وتسابقت الخيل والفرسان، الى الطرادوالجولان ، والبوارق الملتمعة ، والفيالق المجتمعة، بعزائم قوية سامية ، وصوارم للدماء ضامية ، ورتب حضرة الوزير رجاله في اماكنها، واكمن ابطاله في مكامنها، وعين لها مواقفها في مياسرها وميامنها ، وتعاضد أولياء الله على قتال اعدائه ، وانتظروا نزول نصر الله من صوب سمائه ، وأقبلوا على الضراب والطعان ، وقد التقت حلقتا البطان (شعر) :

فكان اثبت ما فيها جسومهم   يسقطن فيالأرض والارواح تنهزم
يسابق القتل فيهم كل حادثة   فمـــا يصيبهم موت ، ولا هرم

فكم من رؤوس تنثر، وأعمار تبتر ، ودماء تسكب ، وأرواح تنهب، حتى عادت سود الحصباء عقيقا ، وانبتت رمال البطحاء شقيقا ، وضرب النقع في الجوّ طريقاً (بيت) :

وضاقت الأرض حتى ان هاربهم   اذا رأى غير شيء ظنه رجلا

وجالت الخيل،من الصبح الى الليـــل ، ومالت أهل السنة على أهل البدعة كل الميل ، وقتلوا منهم مقتلة كبيرة ، وقطعوا من رؤوسهم كثيرة ، فلو كان عددهم يقل بالقتل لتفانوا وما فانوا ، ولكنهم من الكثرة لا يظهر فيهم القتل وإن قلوا وهانوا . (شعر) :

لمـــا تحكمت الأسنة فيهم   جارت، وهن يَجُرْنَ في الاحكام
فتركتهم خلل الغبار كأنما   غضبت جماجمهم على الأجسام

جثث ترامت فوق أرض من دم   ونجوم بيض في سمـــاء قتام
وذراع كل (أبي فلان) كنية   حالت ، فصاحبها (أبو الأيتام)

وهرب بقية العربان ، وتفرقوا في الشعاب والغيران ، وطلع بعضهم إلى (ثلا) وإلى (كوكبان) وأخبروا عما شاهدوا ، وليس الخبر كالعيان .

واستمر حضرة الوزير ثابت الجنان ، راكباً في صدور الميدان ، كأنه الطود الأشم ، يحطم ولا يتحطم ، والبحر الخضم ، يدهك الخصم بعباب تياره الأطمّ ، فلما عزم سلطان الشمس على المغيب ، واصفر لونه كلون العاشق الكئيب ، وظهرت من جانب الغرب سُود الغرابيب ، عاد حضرة الوزير إلى مخيمه العـــالي ، وقد قطعت رؤوس الأعداء ورفعت على أسنته العوالى ، وسيقت بين يديه مع الخيول المقلوعة ، والاسلاب المنزوعة ، والجماجم المقطوعة ، فسجد لله تعالى شكراً ، وتضرع اليه سراً وجهراً ، وتبرأ من حوله وقوته ، واعترف أن ذلك بحول الله وقدرته ، وتفقد من العسكر من فقد ، وحُرر من قتل في سبيل الله واستشهد ، فكادوا يصـــلون إلى العشرين ، درجوا إلى أعلى عليّين ، واما من ألقته ملائكة العذاب إلى سجين ، من الجند الباغين ، واتباع الشياطين ، فقد جاوز المئين ، ممن قطع رأسه وخمدت أنفاسه ، وانطفأ من قبس الحياة نبراسه ، ومن لم يعلم فأكثر من أن يحصى ، وأوسع من أن يدخل حد الضبط والاستقصا ، غير انهم لا يقلون بالقتل والفتك ، ولا يعدمون بالسفح والسفك ، لأنهم من مقولة الحشرات ، وأنواع العقارب والحيات ، ونفوسهم من أرذل النفوس ، ما بين منحوس ومنجوس ، ومبخوس ومنخوس . (بيت) :

كلابٌ أرادت أن تقوم بدولة   لمن تركت رعي الشويهات والبَهْم؟



الفصل السابع والاربعون

في طلب الأعرج بتبديل محل القتال ، وجرأته على المبارزة والنزال ، وانكساره وانهزامه وهروبه وجيشه كالقرود إلى رؤوس الجبال .

لما كان منتصف شهر رمضان ، بلـــغ حضرة الوزير عن العربان ، انهم يقطعون الطريق شارعين في العصيان ، وانهم اغتنموا اشتغال حضرة الوزير بقتال أهل (ثلا) و (كوكبان) ورؤا أن ذلك من فرص الزمان ، وهذا شأن عربان تلك النواحي ، وعادات القبائل الجهال في تلك الضواحي ، فانهم إذا بعد عنهم حد السيف ، شرعوا في الفتنة والحيف ، ولا يحسبون العواقب ، ولا يرقبون ما يأتي به زمان المستقبل الغائب ، بل هم اسراء الحالة الراهنة ، عميٌ صمٌ عن الذي سيقع من الأهوال الكائنة ، فجهز الوزير جيشاً لضبط الطرقات ، وقطع رؤوس من خالف في تلك الجهات ، وتأديب من رام الغدر والخنبات ، وأرسل لهذه الخدمة أفرس من عنده من الفرسان ، وأشجع من حوله من الرجال الشجعان ، أهل الرأي الصائب ، والتدبير الثاقب ، فبلغ الأعرج هذا الخبر ، فانتفخ أوداجه بذلك واغتر ، وظن أن العساكر المنصورة قل عددهم ، وضعف لأجل غيبة هؤلاء مددهم ، فرأى أن قتالهم في هذا الحال فرصة ، وطمع ان البياذق تتفرزن إذا خلت من الرخاخ العرصة ، وطلب من حضرة الوزير تبديل ميدان القتال ، وعين من تلقاء نفسه مكاناً آخر لمبارزة الرجال ، لأنه تشاءم بالمكان الأول ، وظن انه يظهر

منه نتيجة إذا تبدل المكان وتحول ، وما عرف أن الأراضي والأمكنة لا تأثير لها في الكر والفر ، وان ذلك جميعه منوط بالقضاء والقدر ، وان القرار والفرار دائران على ما أودعه الله في حصاة الحشاء ، وان النصر بيد الله يؤتيه من يشاء ، واختار الأعرج لمحل الجلاد ، ومكان الطراد ، محجراً كثير الأحجار والاصلاد ، لا يتمكن من الجولان فيه الخيل الجياد ، ويختفي فيه خلف كل صخر عربي من العربان ، معه بندقية بالمرصاد ، يشاكل لون الأرض في الغبرة والسواد ، ولا يتميز شخصه للفارس لتحرزه إذا أراد ، وذلك موضع حزن في سفح جبـــل فيه قلعة تسمى (الحضور) جمع فيه شياطين البدو والحضور ، وأحضرهم فيه فبادروا إلى الحضور ، واستدعى القبائل فجمع وأوعى ، ورتبهم في تلك الشعاب جمعاً فجمعا ، حتى ضاقت بهم فجاج الأرض ذرعا ، وتوهمت الأودية والمهاد أنها حية تسعى ، فأجابه حضرة الوزير إلى سؤاله، وماشاه على ما شاء من معوج خياله ، وتوجه بنفسه النفيسة ورجاله ، ورتب من بقي عنده من اطلابه وأبطاله، وضرب مزاميره وكوس أطباله ، ورفع الرايات ونشر الاعلام ، وفوّق إلى نحور الأعداء نصول السيوف والسهام . (شعر) :

ورب جواب عن كتاب بعثته وعنوانه للنـــاظرين قتامُ
تضيق به البيداء من قبل نشره وما فُضّ بالبيداء منه ختامُ
حروف هجاء الناس فيه ثلثة جواد ، ورمحٌ ذابل ، وحسام
وما زلت تفنى السُّمر ،وهي كثيرة وتُفني نفوس الجيش، وهي لهام

وفي صبح يوم الاثنين ، ثامن عشر رمضان ، تصادم الخميسان ، والتقى الجمعان ، وعَدَتِ العرب عادين ، وللمنايا الى نفوسهم منادين ، فردت عليهم فرسان أهل السنة ، وفوقت إليهم ألسنة الأسنة ، وأحاطت بهم من أمامهم وخلفهم ، وفتحت عليهم بشبا السيوف أبواب حتفهم ، وأرتهم وجوه المنايا في مرايا غرر الجيـــاد ، ونزعت عنهم لباس الجلَد لباس الجلاد ، وفلقوا

البَيْض بالبيض ، وفلحوا الحديد بالحديد ، وأشعلوا نار الظبا في ماءالوريد، وفضوهم بالفضاء ، وعروهم بالعراء ، وسلب الأعداء وملك سلبهم ، وتقطع بهم سببهم ، وما وصل إليهم أرَبُهم ، وجاء كثير من المماليك ، يقودون إلى الوزير سراة الاسارى، ويتلون على كماة الحرب :(وترى الناس سكارى وما هم بسكارى)، واستمر القتل والقتال، والفتك إلى آن نكص أهل الضلال، وولوا الأدبار منهزمين الى الجبال ، وقتل منهم عدد الحصى والرمال ، واندهكوا تحت سنابك الخيل وحوافر البغال ، وقتل ابن أخي الأعرج المخذول ، وهو أعظم فرسانه الفحول ، وأقوى من يقاتل بين يديه لإدراك الذحول (محمد بن عز الدين) وقد كان والده من أكمـل أولاد شرف الدين ، وكان جامعاً بين الفضل المتين ، والعقل الرصين ، وكان أخذ وجهز به الى الباب العالي ، أيام مصطفى النشار ، لتسكين الفتنة في تلك الديار ، فلما وصلوا به إلى (الينبع) مرض فمات ، وآل عزه إلى الذل وفات،فقطعوا رأسه بعد الفوات ،وجهزوه الى الابواب والعتبات ، ونشأ هذا على قدم أبيه ، وكان إليه أقرب شبيه ، مع البسالة والشجاعة ، وحسن العبارة والبراعة ، فكان يرميه في الدواهي العظام ، ويلقيه في مخالب المنية وأفواه الحِمام الى أن قدر الله أجله المحتوم، على الوجه المرقوم ، وقدم عليه الموت أقدم قدوم ، على يد أولئك القوم . واستشهد من هذا الجانب (سنجق دار حضرة الوزير) وكان قد قدم عليه بذلك نذير ، فانه رأى مناماً عبّره بهذا التعبير ، فبادر الى اقتحام مرتبة الشهادة ، وعلم انه إن شاء الله من أهل السعادة ، ومضى فائزاً بالرضوان ، حائزاً الروح والريحان ، جائزاً إلى أعلى الجنان ، وأنشد لحضرة الوزير لسان الحال ، وهو يعزيه بهذا المقال :

لا زلت تبقى ، ونُعَزّيكا ولا نُعَزّي أحـداً فيكا

ثم رجع حضرة الوزير إلى وطاقه ، والظفر والتأييد في سياقه وسباقه ، والنصر قد مدّ على رأسه فاضل رواقه ، وترك الأسلاب والخيول لآخذيها ،

ولم تطمح عينه لشيء من ذلك ، ولا رغب فيهـــا ، وكان فيها حُصُنٌ ، كأنها حصون ، وزرد دلاص موضون ، وخوذ منها مذهبة ومدهون ، وسيوف ذكور يتوالد عنها المنون ، وملابس تحار فيها العيون ، وساق الأسرى بين يديه مصفدين مغلولين بالاغلال ، ورؤوس القتلى على أعلى الرماح والاسل الطوال .

فلما وصل إلى مخيمه ، خرّ سا جداً لله تعالى ، وحمد لله على نعمه ، واعترف بتقصيره في شكره على ما افاض الله عليه من لطفه وكرمه ، وعرف ان ذلك انعام الله تعالى عليه ، وأوفر إحسانه الذي لم يزل يتوارد اليه ، عالما بعجزه التام وقصوره ، مفوضا الى جناب الحق تبارك اسمه وتعالى عامة أموره ، قائلاً بلسان قاله ، منشدا بصريح مقاله (بيت) :

فوض الى الله الأمور مسلماً   فالعبد أحسن ما له التسليم



الفصل الثامن والاربعون

في بعض حيل الأعرج الدجال ، ومكره وكذبه الذي يكاد تنفطر منه الجبال ، ومناماته الكاذبة الذي خدع بها النساء والرجال

قد تقدم في الفصل الخامس والأربعين نبذ من خدع هذا الأعرج الدجال ، الفائق في دجله على الأعور الدجال ، وما هو منطو عليه من الكذب والزور، وما يشتمل عليه من المكر والخداع والغرور ، وذلك دأبه الذي نشأ عليه ، وطبعه الذي يرجع في كل وقت اليه ، وعمله الذي لا ينفك عنه بل لا يزال حاضراً بين يديه .

ولما ضاق ذرعه بتعدد الكسائر، وقتل أكثر من كان يعضده من العساكر، وتشلت عليه ما جمعه من الأموال والذخائر ، وصار محصوراً في قلعة (ثلا) في قلة وذلة وبلاء، مترقبا ان تختطفه مخالب المنايا، متوقعا ان تحطمه معاطب الرزايا ، منتظراً أن تفترسه نوائب البلايا ، حار في امره وخار ، وغاص بفكره ودار ، وشرع في أكذاب يخترعها ، وأنواع من الحيــــل والخداع يبتدعها ، ليصون بذلك روحه من الهلاك ، ويحرك الجهال بالعصبية الجاهلية أشدّ حراك ، فكتب الى طوائف البدوان ، ومشايخ العربان ، وقبائل العدوان ، ومواد الفتن والعصيان ، والى أهل الوبر والمدر ، والبدو والحضر، كتباً متفرقة، ورسائل مزوقة، مؤنقة ، يطلب منهم الاستنجاد ، ويستجيش

بهم مواد الفساد ، ويخيل الى عقولهم الضعيفة ، وأنظارهم الفاسدة السخيفة ، انه من أهل الكرامة والولاية ، وان لله تعالى به غاية العناية ، وانه ممن ينظر النبي « ﷺ » في المنام ، وانه يخاطبه ويوصيه على أمته في الأحلام ، ويوجه اليه الكلام فيما يفعله بأهل الاسلام ، وحاشى جناب النبوة الشريفة من هذه الأكاذاب والأوهام ، ومـــا أعظم هذه الجرأة على الله تعالى وعلى نبيه عليه الصلاة والسلام ، فصنف من أكذابه انـــه رأى النبي ﷺ في المنام ، وهو يَعِـــدُ بالنصرة على الأروام ويأمره أن يستجيش عليهم بالأقوام ، ويقول له : قـــد ولت دولتهم هـــذه الأيام ، وانكسرت شوكتهم بين الانام ، وحاشاه من هذا الزور والكذب والأوهام ، فان دولتهم قائمة إلى يوم القيام ، وانه يجب على الأمة قتالهم ، ويفترض عليهم اغتيالهم وصيالهم ، وبعد ذلك يعود الملك اليك ، والسلطنة تلقي أزمتها بيديك ، وامراء الممالك يطيعونك ويعولون عليك ، فإذا صرت بهذه المرتبة العظمى ، ووصلت إلى عروج هذا المقام الأسمى ، فاستوص بأمتي خيراً ، وادفع عنهم ضرراً وضيرا ، وارفق بأهل اليمن ، فان لي بهم عناية ، ولهم عندي كرامة ورعاية ، فأول ما تعامل به رعاياهم ، أن ترفع عنهم الخراج ثلاث سنوات ، وأن لا تؤاخذهم بما مضى لهم من الهفوات ، وأن تسامحهم عما صدر منهم من اتباع غيرك فيما مضى ، وتسبل عليهم ذيل العفو وتلبسهم حلل الرضا ، فقال الأعرج الكذاب – وحاشا مقام النبوة عن هذه الاكذاب –: يا رسول الله كيف تصدقني أمتك في هذا المقال؟! وكيف يعلمون صدقي فيما أنقل اليهم عنك من هذه الاقوال ، ؟ فقال هـــذا الكاذب : انه قال: علامة ذلك أن يكسف القمر في الليلة الرابعة عشر منشهر شوال ، وهذه علامة ليس فيها ريب ولا اختلال ، فان وقع ذلك فلتعلم الامة صدق ذلك المنام ، فليبادروا إلى ما فرضت عليهم بالنفير العام ، فمن فعل ذلك بعد مشاهدة العلامة فهو من أهل الاسلام ، والا فأنا بريء منه في الدنيا وفي يوم لقيام ، واستفاد الاعرج كسوف القمر في تلك الليلة من التقاويم ، فأبرزه في هذا القالب السقيم ، وجعله علامة لهذا المهم العظيم ، ومـــا خشي عار

الكذاب في ذلك لان العربان جهال ، وعقولهم في غاية الضلال ، يظنون أن ذلك من علم الغيب ، الذي استأثر الله تعالى بعلمه ، وأخبر بذلك نبيه ﷺ ، وان البشر لا يمكنه الاطلاع على ذلك إلا باطلاع الله تعالى له عليه ، والقائه الوحي أو في المنام الصادق اليه ، وما علموا أن أسخف المنجمين يستخرج ذلك من الزيــج ، وبيع تقويه بدراهم قليلة في الاسواق لمن احتاج إلى علم ذلك من المحاويج ، بل يمكن أن أهل ذلك القطر من عربان الجبال ، واجلاف البدو من على ذلك المنوال ، ما سمعوا مطلقاً بالتقويم ، ولا شعروا باسلوبه القويم ، فافتتنوا بهذا الكتاب ، واظلهم الشيطان بتلك الأكذاب ، وحاد بهم ومـــال عن طريق الصواب ، وما اكتفى الاعرج الكذاب بهذه الخدع والانداب ، حتى أرسل إلى كل طائفة بما يليق بهـــا من النقود ، ليستعينوا بها على الخروج في ذلك اليوم الموعود ،والوقت المعهود، ليخلعوا ربقة اطاعة السلطان ، ويظهروا الخروج والعصيان ، ويقتلوا من قدروا عليه من الأتراك ، ويفسدوا في الارض بالإتلاف والإهلاك ، وأضاف الى إرسال كتبه ونقوده ، إرسال شعور بناته ونسائه ، وشعور أهل بلده وأقربائه ، واستصراخهن على الأروام ، بأنهم يسلبونهن ويفعلون بهن الفعل الحرام ، فأين الحمية ؟ وأين ذهبت العصبية ؟وهؤلاء يبتذلون نساء الأشراف، ويُلجؤنهن الى مهاوي الاعتساف ، ويكرهونهن على الزنا ، ويفتضون الأبكار الحصنا ، وأنتم حَشْوُ أثوابكم ، وملءُ سروجكم وأقتابكم ، تأكلون وتشربون وترقصون وتطربون ، ولا تدفعون عن حريمكم هذا العار ، ولا تركبون في دفع هذا العار عنكم مراكب الاخطار . أما سمعتم ما وقع لطسم وجـديس ، وأولئك الأقوام الاحاميس ؟! وأكثر الأعرج الكذاب من هـذه التشنيعات، وكبر عليهم بذكر البشائع الفظيعات .

وأما حكاية طسم وجديس فهما قبيلتان من العرب القاربة ، الذين كانوا قبل ولد اسمعيل عليه الصلاة والسلام ـ وهم العرب المتعربة ـ وطسم هو ابن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام .

وجديس هو ابن عابر بن إرم بن سام بن نوح عليه الصلاة والسلام ،وكثر أولادهم ونسلهم جداً ، وكان مسكنهم اليمامة ، وكانت ذات فواكه وأثمار ، وأعناب ونخيل وأنهار ، وحدائق ملتفة ، وقصور مصطفة ،ونِعَم ونـَعَم ، وضروع وزروع ، وكان الملك في طسم ، فولي منهم ظالم غاشم ، اسمه عملوق فأذل جديساً وامتهنها ، ورماها بالمظالم وامتحنها ،ولم يزل على ذلك حتى أتته امرأة من جديس ، يقال لها هزيلة بنت مازن ، تخاصم زوجاً لها يقـال له ماشق قد طلقها، وأراد أن ينزع ولده منها، فأبت عليه ، فارتفعا الى عملوق فقالت المرأة : يا أيها الملك ! هذا الذي حملته تسعاً ، ووضعتـه وضعاً ، وأرضعته رضعاً ، حتى إذا تمت فصاله ، واستوفت خصاله ، وظهر كماله ، أراد أبوه أن يأخذه مني قسراً ، ويسلبنيه قهراً ، ويتركني منـه صفراً . فقال زوجها : قد أخذت المهر كاملاً ، ولم أنل منه طائلاً ، إلا ولداً جاهلاً، وقد جئنا ملكاً حُلاحِلاً ، فليفعل ما كان فاعلاً ، فأخذ عملوق الولد منها ، وجعله في غلمانه وطردهما عنه ، فقالت هُزَيلة في ذلك :

أتينا أخا طسم ليحكم بيننا   فأبرم حكماً في هزيلة ظالما
لعمري حكمت اليوم لا متورعاً   ولا فَهِماً عند الحكومة عالما

فبلغ عملوق قول هزيلة ، فغضب، وأمر أن لا تتزوج امرأة من جديس ، فتزف إلى زوجها حتى تحمل اليه فيفترعها قبل زوجهـا ، فما أمكنهم غير إطاعته ، ولقوا من هذا ذلاً طويلاً ، وما زالوا على ذلك حتى تزوجت عفيرة بنت عفار الجديسي ، أخت الاسود ابن عفار ، على رجل من جديس ، فلما كان ليلة اهدائها إلى زوجها انطلق بها اترابها إلى عملوق ليطأها على عادته ، وهن يغنين بالدفوف :

ابدي بعمـلوق فقومي واذهبي
وبادري الصبح بأمر معجِب
فما لبكر غير ذا من مذهب

فلما دخلت عفيرة على عملوق افترعها ، وخلى سبيلهـا ، فخرجت على قومها ملطخة بدمائها ، وقد شقت جيبها على قُبُلِها ودُبرها وهي تقول :

لا أحدٌ أذلُّ من جديس أهكذا يفعل بالعروس ؟

وذهبت إلى بيتها ، ولم تذهب إلى بيت زوجها ، وأنشأت تقول :

أيصلح أن يؤتى إلى فتياتـكم وأنتم رجال كثرةٌ عدد الرمل
أتصبح تمشي في الدماء عروسكم صبيحة زفت بالدفوف إلى البعل
فإن أنتمُ لم تغضبوا عند هذه فكونوا نساء للبخور وللغسل
وهاكم جلابيب العروس وطيبها فأنتم لأثواب العروس وللكحل
فقبحاً وتعساً للذي ليس دافعاً ويختال يمشي بيننا مشية الفحل
فلو اننا كنا رجـالاً وكنتم نساءً لكنـا لا نقر على ذل
فموتوا كراماً ، واصبروا لعدوكم بحرب تلظى، في الضرام من الجزل
فيهلك فيهـا كل من جاء يومه ويسلم منها ذو النجابة والاصل

فلما سمعت جديس ذلك تحركت حميتها، والتهبت نيران غيرتها وغضبتها، وغضبت لذلك غضبة كادت تهـد الجبال ، وتقدُّ السلاسل والاوصال ، واجتمعت للتدبير في النضال بالنصال ، وعزمت على الحرب والقتال ، فقال لهم الاسود ابن عفار ـ وكان سيداً مطاعاً فيهم ـ : يا قوم أطيعوني فيما آمركم به ففيه عز الدهر،وذهاب الذل ، وذلك أن طسما ليس بأعز منكم حسباً ولا نسباً،ولكن ملك صاحبهم عليكم هو الذيذللنا بالاطاعة له،ولولا ذلك ما كان لهم عليكم من فضل، ولو امتنعنا منهم لانتصفنا منهم،فقالوا : قد قبلنا قولك ولكن اخواننا العرب أكثر منا عدداً وعدداً ، فإن ظفروا بنا لم يبقوا منـا سبداً ولا لبداً . قال : فاني رأيت رأياً أقسم عليكم بالله لتطيعني فيه ياجديس أولا تكئن بصدري على ذبابة سيفي ، إلى أن أنفذه من ظهرمي ، فقالوا له : فما هذا الرأي ؟ قال : اني صانع لعملوق وقومه طسم طعاماً ، ادعوهم اليه ، فإذا جاؤوا اليه يجرون أذيالهم في المروط والبرود ، ملنا عليهم بالسيوف ،

فأنا أقتل عملوق ، وليقتل كل منكم واحداً منهم ، فوافقوه على ذلك ، وصنع الأسود طعاماً كثيراً ، ونحر لهم مائة من الابل ، وأمر قومه أن يدفنوا سيوفهم في الرمل ، حيث أعد الطعام ، وأمرهم أن يبدأوا بقتل الرؤساء . ثم دعى الأسود عملوقاً وقومه إلى الطعام ، فأجابوا دعوته ، وجاؤوا اليه يرفلون في أثوابهم ، فلما أخذوا مجالسهم ، بادرت جديس إلى اخراج سيوفها من الرمل ، فقتلوا عملوقاً وأصحابه ، حتى أفنوهم عن آخرهم ، ومضوا إلى دورهم فانتهبوها ، وقتلوا من بقي فيها ، فهرب منهم رجل يقال له رياح ابن مرة الطسمي، إلى أن وصل إلى حسان بن تبع فاستعداه على جديس فأرسل معه جيشاً إلى اليمامة ، فخرج لهم الاسود بن عفار ، وهو ملك جديس يومئذ ، وما كان لهم طاقة بالجيش، فاقتتلوا إلى ان فني أكثر جديس، فهرب الأسود بن عفار ، بمن بقي معه إلى (طيء) فلما نزلوا بدارهم أجاروهم من تبع وجيشه ، فاستمروا عندهم ، ويذكر أن نسلهم اليوم في طي ، ذكر هذه القصة السيد تقي الدين الفاسي المالكي قاضي مكة المشرفة في كتابه الذي جمع فيه ولاة مكة في الجاهليه والاسلام ، وكان وفاته في عام اثنتين وثلاثين وثمانمائة .

رجعنا إلى أكاذيب الأعرج ، وإضلاله لطوائف العربان الهمج ، وسكان البادية من البدو الهوج ، وانهم لما وصلت اليهم أوراق هذا الدجال ، متضمنة لما سبق تفصيله من المكر والاحتيال ، واظهار الاستنصار بهم ، والاستمساك باذيال عربهم ، والتشبث بعرى سببهم ، تحركت فيهم الحمية ، والتهبت نيران العصبية ، واستعظموا هذه القضية ، وأجمعوا على الغدر والعصيان ، وعلى الخروج ثانياً من طاعة السلطان ، وشرعوا يسعون في الأرض فساداً ، وسعوا في الخراب اذاً وبطراً وإفساداً ، وقطعوا الطرقات ، وانتهكوا الحرمات ، واستعانوا بما وصل اليهم مع الكتب من النقود ، على حل العقود ، ونكث العهود ، وأكد ذالك وعده إياهم بالمسامحة عن الرسوم والخراج ، وترك ذلك عن اغنيائهم وعن الفقير المحتاج، وان ذلك بأمر سيد الأولين والآخرين،لرفقه

بأهل اليمن في مقابلة مساعدتهم على القيام في الدين ، الى غير ذلك من الأوهام الواهية ، والخيالات الفاسدة في ادمغة خالية ، من العقول خاوية ، هي أوهى عند أهل العقول من نسج العناكب ، وأضعف من مخراق اللاعب ، بالنسبة الى مخراق الحرب المحارب ، فهاجت العربان . وماجت ، ومالت الى فسادها السابق وعاجت ، واستسمنت من مواعيد الأعرج الكذاب ذا ورم ، ونفخت في غير ضرم ، وقطعت السبل ، واخافت العباد والبلاد ، وسعت في الأرض بالفساد ، وأقامت الفتن بعد ما نامت ، وقامت لحرب الله ورسوله فلا قعدت ولا قامت ، والله يؤيد المؤمنين بنصره وكرمه وفضله ، ويرد مكر الملحدين في نحورهم ، ولا يحيق المكر الشيء الا بأهله .



الفصل التاسع والاربعون

فيما اظهرته عصاة العرب من الشموص والشموس ، ونقض العهود وقتل النفوس ، وما فعله (القطران) المنجوس و (ابن نشير) المنحوس

لما تخبطت ادمغة عصاة العرب ، وحصل لهم الغرور بما ارسل به اليهم الأعرج وكتب ، وصدقوا بما فتراه من الأباطيل ، وكذب ، شرعوا في البغي والفساد ، وقطعوا السبل واخافوا البلاد والعباد ، فمنهم من بادر الى العصيان اختياراً واستبشارا ، ومنهم من أكرهوه على ذلك جبراً واضطراراً ، فحصل منهم النفير العام ، واقاموا على قدم واحـــد أشدّ قيام ، وكان أكثرهم ممن أعطاه حضرة الوزير الأمان، واعفاه عن القتل ، وأحسن اليه أكبر احسان ، فما افاده ذلك اللطف إلا زيادة في البغي والطغيان ، ومبادرة الى الخيانة والعصيان ، وهذا شأن نفوس الاراذل ، ودأب من لا يعرف المعروف من الأسافل ، ولقد صدق أبو الطيب المتنبي القائل (شعر) :

اذا أنت أكرمت الكريم ملكته ‌ وان انت اكرمت اللئيم تمردا
ووضع الندى في موضع السيف بالعلا ‌ مضر ، كوضع السيف في موضع الندى

وابلغ من ذلك في الفتك بالأخصام ، واغتنام الفرصة والانتقام ، قول المقرّب حيث قال من قصيدة له في هذا المعنى ،

ومن عرف الأيام معرفتي بها ‌ وبالناس روّى رمحه غير راحم
فليس بمرحوم إذا ظفروا به ‌ ولا في الرّدى الجاري عليهم بآثم

ولكن حضرة الوزير ، لم يعاملهم بالتشديد والتعسير ، بل بالحلم الزائد واللطف والتيسير ، ليكون إحسانه إليهم نقمة بعد ذلك عليهم ، وكاسراً رقابهم عند الأشر والبطر ، وغصة في حلوقهم عند الخيانـــة والغدر « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » ولقـد قيل :

وإذا بغى باغ عليـــك وحُزْته   فاقتـــله بالمعروف لا بالمنكر
فإذا تكرر بغيُه يأتيه من   قبل الإلهِ جزاهُ قبل المحشر

ولما كان حضرة الوزير مشغولا بمحاصرة (كوكبان) ، اغتنمت العربان إظهار العصيان ، وخرجت للإفساد والبغي من كل مكان ، وخرجـــوا على على أهل (تعز) وأهل (التعكر) ، وعلى أهل (ذراع الكلب) وألـبّوا وحشدوا العسكر ، وكان الأمير خير الدين (قرط اوغـــلى) و (كوجك أحمد بك) على حصن (حب) محيطين عليه بمحطة ، فأحاطت بهم عربان (بعدان) وأهل (جبلة) وحطوا على (ذمار) وصنعاء) ،وأساؤوا فيمن أحسن إليهم صنعاً .

وكان حضرة الوزير لما مر بذمار ، بذلك العسكر الجرار ، طلبوا منه الأمان ، واستعفوا عما صدر منهم قبل ذلك من العصيان ، فقابلهم بالقبول ، وشملهم بلطفه أكرم شمول ، وأفرغ على كواهلهم خلع الاحسان والانعام ، وأكرمهم غاية الاكرام والاحترام ، فقابلوا جميله الآن بالرداءة ، وإحسانه السابق بالاساءة ، ومبرته الشاملة بالكفر والمساءة .

وكان من جملة مشايخ أهل (ذمار) وشيوخهم الذين خلصوا من القتل والاسار ، وأعطاهم حضرة الوزير الأمان ، ودخلوا في طاعة السلطان ، بعد الغدر والعصيان ، وقوبلوا بالجميل والاحسان ، وعفا عن جرائمهم في ذلك الزمان ، الخائن الغدار (علي بن نشير) من أهل ذمار ، ساقه الله إلى دار البوار ، فانه حين مرور حضرة الوزير في تلك الديار ، وصل اليه في صورة الصلاح والوقار ، وأبدى غاية الاعتذار ، عمـــا وقع من العصيان من أولئك

الفجار ، فحصل بكلامه الاغترار ، وحسن الظن به قبـل الاختبار ، وأمر حضرة الوزير أن يتولى الامانة في (ذراع الكلب) وفي (ذمار) وأن يحفظ الطرقات من قطاع الطريق الاشرار ، وأن يكون صاحب درك بتلك الاقطار ، فامتثل ذلك ، وشرط على حضرة الوزير أن يدفع البدع والمظالم ، ويزيل الشبهات والرسوم الحادثة والمآثم ، ويمضي على نهج الصراط المستقيم ، ويجري قواعد الشرع الشريف القويم ، فاستحسن ذلك منه حضرة الوزير الكريم ، وصار للذكور عنده مقام جليل وقدر عظيم ، وألبسه الخلع الكريمة ، ورتب له العلوفات العظيمة ، واغدق عليه سحب الانعامات الجسيمة ، وصار من أكبر الخواص ، ومن أعظم أهل الشفاعات والاختصاص ، إلى ان وصلت اليه مـــكاتبات الاعرج الدجال ، بما تقدم شرحه من المكر والخداع والاحتيال ، وكان الغدر كامناً في طبعه ، والنفاق والخيانة آخذان بضبعه ، فامتثل في الحال أمر ذلك المحتال ، وتلقاه بالقبول والامتثال ، وأخذ في الافساد والاضلال ، وصدّق بالامر المحال ، والله شديد المحال .

وكان من نقباء الاعرج المفتون ، كبير اسمه (قطران المجنون) كان فاتكا شجاعا ، وللخير مناعا ، ملأ ذلك القطر إلحاداً وإبداعاً ، وحشاها خيانة ومكراً وخداعا ، اتفق مع (علي بن نشير) أن يجمعا العربان جمـــا ، ويتوجها إلى اخذ صنعاء ، ويقطعا الميرة عن الترك قطعا ، ليضعفوا فيسلموها اليهم صونا لانفسهم ودفعا ، فجمعوا الجنود ، وحشدوا الحشود ، وحطوا على صنعاء ، ومنعوا الميرة عنهم منعا ، وقطعوا الطرقات قطعا ، وأخافوا الحاضر والباد ، من سائر العباد ، وزلزلوا البلاد ، وأظهروا الفساد ، وأيقظوا الفتنة بعد الرقاد ، واجتهدوا في نشر الافساد ، غاية الوسع والاجتهاد ، فاستولى عليّ بنُ نشير على ناحية (سنحان) وأضلّ أهلها بالطغيان ، ودعاهم إلى العصيان ، فأجابوا كلمته ، واختاروا اطاعته ، ونفذوا امرته ، واستولى قطران على ناحية (الحضور) ، وتأمر عليهم بالكذب والفجور ، وهما ناحيتان واسعتان ، كان يحفظها الكشاف من قبل السلطان ، فلمـــا احتاج حضرة

الوزير ، الى الجيش العديد والجند الكثير ، توجه إلى ما هو أهم من هذين الناحيتين ، واعتماداً على إطاعة أهل الجهتين ، وفوض أمرهما إلى من أطاع من عربانها ، فاغتنم أهلهما في هـــذه الغفلة ما كان كامناً من غدرهما وعصيانهما ، فأظهرا ما في بواطنهما من بغيهما وطغيانهما ، فأما قطران فـكان (ممي الكاشف) هدّ حصنه ، وهدم ركنه ، وفتك في جماعته ، وقتل كثيراً من رجالته ، ونجا هو من الهلاك ، وفر من يد الاتراك، فكانت هذه ضغينة في قلبه ، وحزازة في فؤاده ، وحرارة في لبه ، وكان ينتظر الفرصة، والانتظار أكـــبر غصة ، وأما (علي بن نشير) فقد كفر النعمة ، وهتك الحرمة ، وقابل الاحسان بالكفران ، ومحى نور الطاعة بظلم العصيان ، ويجازي الله كلاً على فعله ، ويعرفه عاقبة خسرانه وجهله ، والعرق الفاسد نزّاع إلى الفساد ، وان أظهر صاحبه الصلاح فما عليه اعتماد .

فان الجر ينغر بعد حين اذا كان البناء على فساد

فقطعوا الطرقات الى حضرة الوزير، ومنعوا الميرة عنه، وما تركوا أحداً إلى جهة الترك يمير، وارسل (قطران) الى أهل بلد صنعاء يعدهم ويمنيهم، وما يعدهم الشيطان إلا غروراً،وجهز لهم كتباً يستميلهم بها،ويطلب منهم الخروج على الترك الحافظين لصنعاء ، وينفرهم منهم تنفيراً ، وذكر فيهـــا أباطيل الأعرج وكذباته، وأحلامه المفتريات ومناماته، إلى آخر ما عدد من الأكاذاب وفصّله ذلك المفتري الكذاب ، فحصل بين أهل البلد كال الاختباط، وأسروا ذلك واستشاروا فيه وصاروا في أعظم خباط ، فمنهم من أشار بشق العصا ، واظار الخلاف ، ومنهم من توقف في ذلك ولم يعتمد على هــذا الارجاف ، وبعد طول البحث والنزاع فيا هو الأصوب ، وكثرة الاختلاف ، أجمعوا على أن يكونوا في هذا الزمان لا للترك ولا عليهم في المقاتلة والمصاف ، وأرسلوا إلى (قطران) يعرفونه بما وقع من الآراء ، والذى اتفق عليه جميع أهـل صنعاء ، فما حصل داخل صنعاء اختلال ظاهر ، ولكنهم كانوا متوقعين ظهور

الفتن، ودوران الدوائر ، وصارت القلوب متشاحنة ، والبغضاء في الضمائر المكنونة كامنة ، والعهود والمواثيق بحسب الظاهر باقية ، ولكنها واهية واهنة ، واستولى (قطران الكلب) على (ذراع الكلب) ، وقطع الطريق إلى الترك من اليمين واليسار والقلب ، ومنع حتى الطائر أن يطير ، وانقطعت الأخبار عن حضرة الوزير، ومن انفردوا به من الترك قتلوه، ومن وافق منهم على العصيان قبلوه ، رجهزوه إلى الأعرج وأرسلوه ، ومن كان منهم في الحصون حفظ حصنه وحصّنه ، ودفع عن نفسه الصائل مهما أمكنه ، وبالغ (قطران) فيتخويف الترك المحافظين لصنعاء ، وارعابهم ، وفي قطع الميرة عنهم وارهابهم ، وطلع إلى (جبل اللوز) هو ومن تبعه من عصاة العربان، وأكثروا من الصخب والشغب وإيقاد النيران ، وافشاء العداوة والعدوان ، وانشاء البغي والطغيان ، فارتجت لذلك القرى والبلدان ، واضطربت الأمور بعدما انتظمت ، بقدر الامكان ، ولكن الحق يعلو ولا يعلى ، والباطل يذهب جفـــاء ويقلى ، ومن المعلوم أن الحق يصدع الباطل ويصرع ، ويحمي أهله ويدفع عنهم ويمنـع ، (بيـت) :

وما من بغي له صولة على الناس الاله مصرع



الفصل الخمسون

في فتنة كادت أن تقع بصنعاء ، كفى الله تعالى شرها ، وأطفأ نيرانها ودفع ضرها ودرأها وأخمد شررها

كان في جانب صنعاء قصر عظيم ، يسكنه (البكلربكية) وهو في غاية الاستحكام والاتقان ، وكان لحصانته يكون فيه بيت السلاح ، ومكان البارود ، وفي جانبه محبس واسع يحبس فيه أهل الجرائم ، فلما توجه حضرة الوزير إلى أخذ صنعاء ، جعل في هذا القصر (دزدارا) يحكم على نحو السبعين من العسكر ، خدمتهم حفظ هذا القصر بجميع مـا فيه من خزائن السلاح والبارود ، والمحبوسين ، وولي عليهم آغـا يسمى (خضر بك) فتأدب (خضر بك) عن سكنى القصر ، لكونه سكن (البكلربكية) وسكن خارج القصر ، فصار القصر حكمه حكم قلعة ، بها حفظة ، لهم آغا هو (دزدار) أولئك الحفظة ،و(كدخدا) على عادة القلاع، فصاروا يسكنون القصر للحفظ ، ويسكن الآغا وباقي العسكر خارج البلد ، فتخرّج وتدهقن، وتعلم الظلم وتعدى على أهل البلد ، فشكوه إلى حضرة الوزير ، وذكروا مظالمه وتعديه على الرعايا ، فعزله حضرة الوزير عنهم ، وولي عليهم (يحيى) جـاووش من جاويشية الباب العالي ، وكان من جملة المحبوسين على جرائم كثيرة ، وفتن عديدة ، شخص مفتن ، يقال له (ترك ممي) من قدماء الترك المقيمين باليمن ، تعددت منـه المفاسد والفتن، فحبسه حضرة الوزير في محبس

القصر مع جملة المحبوسين،فأخذ يختبر في الحبس عن أخبار المحبوسين وضمائرهم ونياتهم ، ولا زال يحسن لهم العصيان ، واقامة الفتنة لما عصى قطران ، ويقرب إلى المحبوسين امكان ذلك ، وصور لهم قرب وقوعه ، وانهم يتخذون يداً عند الأعرج ، بواسطة قطران ، وانهم يخونون السلطان ، ويكسرون قيودهم ، ويقتلون الحفظة ، ويفتحون باب القصر ، ويواعدون قطران ، فيأتيهم من خارج صنعاء ، فيمكنونه من الدخول إلى القصر ، فيملك صنعاء وسوّل لهم الشيطان هذا الخيال ، وقرب إلى عقولهم هذا المحال ، وحسن لهم الاقدام على ذلك ، ورماهم في ورطة المهالك فأرسل (ترك ممي) مكتوباً مع عبد له أسود ، كان مأذوناً له في الدخول عليه ، وأمره أن يدفع ذلك المكتوب إلى قطران ، في (جبـــل اللوز) ويأتيه بجوابه ، وكان في المكتوب اظهار التوسل به إلى مطهر ، وأنهم يمكنونه من صنعاء ، ويفتحون لقطران باب القصر ، فإذا فعلوا ذلك كانوا من خواص مطهر ، ففرح (قطران) بذلك ، واكرم العبد الأسود ، وأرسل بخبرهم إلى مطهر ، ففرح بذلك ، ووعدهم انهم إذا فعلوا ذلك أكرمهم غاية الاكرام ، وبلغهم جميع المرام ، واعطى (ترك ممي) أي بلد أراد ، ومكنه من جميع البلاد ، وحلف له على ذلك ايماناً باطلة ، وآلى أليات كاذبة هائلة ، ووضع خطه القبيح بذلك ، وأرسله الى قطران ، فأرسله قطران مع العبد الأسود الى (ترك ممي) فلما ورد كتاب (قطران) وكتاب (مطهر) اليه ، مع عبده المذكور ، فرح بذلك ، وقرأه على المحبوسين ، وكانوا نحو مـــائتي نفر ، اتفقوا على العصيان ، وأرسلوا الى قطران ، يذكرون له أن نحـــن نهيء المبارد والمطارق ، ونقطع السلاسل والاغلال ، قبيل الظهر في اليوم السادس والعشرين من رمضان ، ونهجم على البوابين بالقصر ، ونقتلهم ، ونفتح لكم الباب ، فتكونوا حاضرين خارج صنعاء ، لندخلكم إلى القصر ، فان دخلتموه فانكم غالبون ، وظنوا أن وقت الظهر وقت غفلة ، وزمان قيلولة ، وان ذلك

الأمر يتم لهم، ويأبى الله إلا ما أراد، وحمى الله المسلمين عن ولاية أهل الالحاد، ورد كيد المفسدين في نحر أهل الفساد . والله بصير بالعبـــاد . ثم أرسل (ترك ممي) بالمكتوب الذي فيه الموعد ، مع عبده الأسود الى قطران ، وعرفوا الميعاد .

فلما كان يوم السادس والعشرون من رمضان ، فك المحابيس قيودهم ، ومشى (ترك ممي) ومعه جماعة من المحابيس ، وقت الظهر ، والناس نائمون ، وتقدموا إلى البوابـين ، وكانوا أربعة أنفس وكان ثلاثة منهم مستغرقين في النوم ، والرابع متيقظ ، فهرب الرابع لما شاهدهم فكوا القيود ، وجاؤوا إلى الباب وصار يجري الى أن أيقظ الأغا وباقي العسكر ، وذكر لهم ما فعل المحابيس ، فتهيأ كلٌ سلاحه وجاؤا الى الباب فوجدوا (ترك ممي) ومعـه نحو العشرة أنفس ، أخذوا سيوف البوابين الثلاثة ، الذين كانوا نائمين ، وقطعوا رؤوسهم ، وفتحوا باب القصر ، وخرجوا إلى خارج صنعاء ، فلم يمكنوه من الدخول الى القصر ، ولم يجدوا فيهـا داعياً ولا مجيباً فخابوا وخاب سعيهم ، وظهرت خيانتهم ، فقتلوا هنـــاك ، ثم ضبطوا الباب ، وهيأوا المدافع لقتال من يرد عليهم ، وعادوا إلى باقي المحابيس ، فوجدوهم قد عادوا إلى المحبس ، ووضع كل رجله في القيد كما كان ، وأبدوا الاعتذار وحلفوا الايمان ، انهم لم يطيعوهم في العصيان ، ولم يوافقوهم في الطغيان ، واستقتلوا ، فشد الأمير وثاقهم ، وضيق عليهم ، وتنبه لمكرهم وخداعهم ، وتهيأ هو ومن معه من (النوبتجية) للقتال ، وتفطنوا لحفظ الجهات ، وأبراج السور وأطراف الجبال ، وتداركوا ما كان فيه من الغفلة والقصور والإهمال ، فوصل قطران ومن معه من العربان إلى ذيل (جبل اللوز) وترآوا لمن واعدهم وقد شربت كل أرض ماءها ، وتحسر قطران ، وقد أخطأت أسته الحفرة ، وتأسف على (ترك ممي) وقد صار تحت الجنادل ، وفاته منه النصْرة ، وبكى عليه وعلى من قتل معه من المحابيس ، الذين اغتنموا الخيانة في هذه الفترة ، وأرسل يخبر الأعرج الدجال ، بما وقع عليه من النكال ، وانه لم يتم مـا دبره من الاحتيال ، فاسف الآخر أسفاً عظيما ، ولاقى من ذلك غصة وعذاباً اليما .

الفصل الحادي والخمسون

في وصول هذه الأخبار الى حضرة الوزير وذكر نبذ من مضايقته في العسكر والخزينة وأخذه في الفكر والتدبير ، وارسال (قره كوزبك) لقتال قطران و (على بن نشير) الشرير ، وقتلهما بسيف السلطنة القاهرة ، وسوقهما الى جهنم وبئس المصير

لما كان حضرة الوزير بمصر (بكلربكياً) ووصل اليه الأمر الشريف السلطاني بالتوجه إلى اليمن ، لاطفاء نيران الفتن ، وتقليد منصب الوزارة وانحصار الأمر فيه والاشارة ، بادر إلى امتثال الأمر الشريف السلطاني ، من غير توقف ولا تلعثم ولا تواني ، وبرز بمن قدر عليه من عسكر مصر ، ومن معه من المماليك و (العلوفجية) وأصرف عليهم ما وجد في خزينة مصر من الأموال السلطانية ، وأوصل إلى العسكر علوفتهم إلى غاية ذى الحجة من السنة التي برز فيها ، وهي سنة ست وسبعين و وفضل معه من علوفة سنة سبع وسبعين ، ما يصرفة على العسكر سبعة أشهر ، آخرها آخر شعبان سنة سبع وسبعين ، واحتاج الى العلوفة من شهر رمضان ، من السنة المذكورة ، ولكنه كانت بيده أحكام شريفة سلطانية إلى (بكلربكية) مصر أن يرسلوا مهما احتاج من الخزينة ، ومن العسكر . وكان (البكلربكي) بعده بمصر (اسكندر باشا الجركسي) وكان حريصاً على جمع الأموال السلطانية ، وكان يجمعها ويجهزها إلى الباب العالي ، ولم يرسل إلى حضرة الوزير لمهات اليمن ولا لعلوفة من معه من العساكر المنصورة السلطانية علوفة .

فأما من كان مع الوزير فكانوا زهاء أربعة آلاف ، وكان مع عثمان باشا الذي توجه قبله ما ينوف على ثلاثة آلاف ، وكان مع (حسن باشا) المتوجه قبل عثمان باشا نحو الألف ، هذا غير بقية العساكر السلطانية باليمن ، من قبل حدوث هذه الفتن ،وبعدها،مع صدور الأمر الشريف السلطاني لاسكندر باشا أن يرسل عقب حضرة الوزير العسكر الوارد من الشام والروم ، فاعتمد حضرة الوزير على ذلك ، وبادر إلى التوجه الى اليمن ، فلما ورد إلى اليمن لم يجد من عسكر عثمان باشا غير ألف مقاتل ، رجع منهم مع عثمان باشا نحو الثلثمائة نفر ، ووجد من عسكر حسن باشا وجميع عساكر اليمن نحو الألف وذهب غيرهم تحت السيف في الحروب والفتن ومات كثـــير منهم بالأمراض والعلل ، وفرق حضرة الوزير باقيهم في حفظ البلاد والقلاع ، ووضع فيها (نوبتجية) ومحافظين ، ولولا ذلك لم تنحفظ له البلاد ، وبقي معه في محطته على (كوكبان) نحو الألف ، لأن ذلك العسكر الكثير تفرق في البلاد ، وقتل بعضهم في الجهاد،وهرب بعضهم بإغواء أهل الإلحاد ، وأما (الشفاليت) ومن أطاع من العربان ، فلا اعتماد عليهم ، وإنمـــا يكثرون سواد العسكر لا غير .

فلما وصل إلى حضرة الوزير ، أخبار أفعال قطران الشرير ، وعـــلي بن نشير بالنقير والقطمير ، تكدر لذلك غاية التكدير ، وفوض الأمر الى الله ، والله على كل شيء قدير ، وأخذ يفكر فيمن يصلح لدفع هذه الفتن ،وتسكين هـــذه البلايا والمحن ، ولم يظهر من نفسه عجزاً ولا قصوراً ، وثبت جنانه فكان حليما وقوراً .

ذكر ارسال (قره كوز بك) لقتال قطران وابن نشير ، وقتلهما

لما أجال حضرة الوزير فكره فيمن يصلح للاقامة في تسكين هذه الفتنة، وقع اختياره على (قره كوز بك) وكان هذا من أمراء السناجق ، الذين وقعوا في أسر مطهر ، ثم حبسه في (كوكبان) عند (محمد بن شمس الدين) فأطلقته أمه مع الأمراء ، الذين كانوا محبوسين معه ، وكان (قره كوز بك) المذكور ذاق حلو الزمان ومره ،وكابد من الدهر بأسه وضُرَّه ،ولقى البأساء والسراء،وطعم اللأواء والنعماء ،ولبس بُرْدَي العز والذل ، ورفل في حِجْلي السعة والقلّ ، وكان شجاعاً فتاكاً ، مقداماً، مجرباً للامور هماماً، لكنه ذهب طارفه وتليده ، ومحق قديمه وجديده ، وصار صفر اليد ، عاري الجسد ، ضئيل الكتد ، غير انه خبير بأحوال البلاد ، مطلع على دقائق أهل الفساد ، عارف بطرائق الأودية والوهـــاد ، فقربه حضرة الوزير ، وأكرم نزله ، وأوطأه فراش الكرامة وجلله ، ورفعه بعد ما خفضه الدهر وأنزله ، وأعطاه كلما يحتاج اليه من (اليرق) والآلات ، وأركبه الخيول المضمرات ، وجمع اليه شرذمة من الشجعان ، وقليلا من كماة أهل الطغيان ، وجهزهم إلى قتال (علي بن نشير) و (قطران) فذهبوا يطوون الأرض طيا ، ويطأون السهل والوعر وطأً شديداً ووطيا ،ويقدحون بأنعل خيلهم نار الحباحب وريا، إلى أن وصلوا الى صنعاء ، فاستزادوا من العربان المطيعين جمعا ، وأخذوا منهم (تفكجية) عدة ، وزادوا سوادهم بذلك طلباً للنصرة والنجدة ، ونادى حاكم (صنعاء) في البلد : من يأكل العلوفة السلطانية من سائر الطوائف المطيعين ، فليأت ببندقه ، وسلاحه المركوز ، ويأخذ العلوفة ، ويخرج الى (قطران) مع الأمير (قره كوزبك) فحضر من نفس البلد

وضواحيها ، ومن (سنحان) ونواحيها من كان باقياً على طاعة السلطنة الشريفة ، جموع الى الديوان بصنعاء ، وكتبهم الامير (قره كوزبك) وجمعهم جمعا ، وقدم لهم العلوفة ، وخرج بهم مع من جاءهم من الترك، الى(قطران) و (علي بن نشير) فلما علما ذلك جمعا شياطينهم وعصاتهم ، ومن أظهر الخلاف ، وخرج على العسكر المنصور، وتحصنوا في جبل (اللوز) ، فأقدم (قره كوز) بمن معه لقتالهم، وتوجه الى ذيل (جبل اللوز) وحط محطته هناك ، ولاحظ من معه من العسكر ، فرأى من معه من الترك قليلون ، وأكثرهم من الأعراب الذين اظهروا الطاعة ، وأخذوا العلوفة السلطانية ، فلم يعتمد عليهم ، وظن بالاعراب الغدر ، كما وقع لهم قبل ذلك كثيراً ، وما رأى في الترك الذين معه قوة المقاومة ، لكثرة العصاة أتباع قطران ، وابن نشير . وما وجد في الاقدام على القتال فائدة ، بل تحقق الانكسار والهزيمة ، فخاف من ذلك ، وعمل بقوله تعالى (ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة) فعاد بمن معه من العسكر الى صنعاء ، وخيم خارج السور ، وأرسل (أحمد الصوباشي) الى حضرة الوزير ، يعرض أحواله ، وهو مملوك حضرة الوزير ، كان جعله رأسا على بقية مماليكه ، الذين جهزهم مع (قره كوز بك) لهذه الخدمة ، وكان من الفرسان المشهورين بالقوة والنجدة ، فقال له (قره كوز بك) : امض الى حضرة الوزير ، وعرفه جميع الأحوال بالنقير والقطمير ، على ما عاينته وشاهدته ، فان الحال أحوج الى ارسالك لعدم كاتب يكتب عرضاً الى حضرة الوزير ، بالتفصيل ، فأنت كتابي اليه ، فقبل (أحمد الصوباشي) ذلك ، وتوجه في الحال الى حضرة الوزير ، ولم يخف قطاع الطريق ، واتخذ الليل مركباً ، والحنادس ملبساً وأنشد لسان حاله يقول :

عليّ ان لا أريحُ العيسَ والقتَبا   وألبس البيْد والظلماء واليلبَا

فلما وصل الى حضرة الوزير ، وقص عليه القصص ، وفرج عن نفسه بذكر ما شاهد من الاكدار والغصص ، لم يستصوب حضرة الوزير فعل (قره

كوز بك) وما أعجبه نكوصه بمن معه عن الإقدام على (جبـــل اللوز) فاعتذر اليه (احمد الصوباشي) عن لسان (قره كوز بك) بأن رؤوسنا إذا ذهبت في القتال مع أعداء السلطان فهو سهل لا نبالي بها ، ولكن خشينا على ناموس السلطنة الشريفة ، فوفرنا أنفسنا ليوم الظفر إن شاء الله تعالى ، فعلم حضرة الوزير عذْرهم في ذلك ، وعَذَرَهم في عدم إلقاء النفس إلى التهالك ، وأعانهم بفرسان آخرين ، وثياب وكساوى للعربان المطيعـــين ، استجلاباً لخواطرهم ، وسلم ذلك (احمد الصوباشي) فبرز هو ومن معه ، واشتوَروا فيما يفعلونه ، فقال (قره كوز بك):نرسل أولا الى مشايخ العربان المطيعين، ونستجلبهم بارسال الكساوى إليهم ، ونتوثق منهم،وكذلك نرسل بالكسوة الى كل من له شأن منهم ، ونطيب خاطرهم ، ليكفونا شرهم ، وأقل المراتب أن لا يكونوا لا لنا ولا علينا ، ثم نتوجه الى الخصوم لنقاتلهم ، آمنين من من هؤلاء العربان ، فما ارتضى هذا الرأي أكثر الـــترك الذين معه ، ولا استصوبه مماليك حضرة الوزير الواردين مع (قره كوز بك) ، وقالوا : الإرسال الى العربان بالكساوى لاستجلابهم فشل منا وجبن وخوف،وإظهار خشية منهم ، ولا نكتفي شرهم بذلك ، بـــل ان رأونا في ضعف وعجز أظهروا ما في بواطنهم من الغش ، وساعدوا علينا العدو، فلا وثوق بملاءمتهم، الآن ، فالأولى أن نبـــادر الى القتال ، ولا نظهر من أنفسنا عجزاً وخوراً ونبدأهم قبل أن يبدأونا ، فان كانت الغلبة لنا أتانا العربان من كل جانب ، مذعنين لنا ، مبادرين الى خدمتنا ، مرغومين في إظهار الطاعة لنا ، وإن غلبونا ، وظهروا علينا ، وظفروا بنا ، كنا أدينا حق السيف والرمـــح ، وقاتلنا إلى أن نقتل في سبيل الله تعالى ، من غير أن يظهر منا ذلة وعجز ، ونموت كراماً على ظهور خيلنا ، ونكسب الذكر الجميل من الناس ، ونفوز بالرحمة من الله تعالى .

وبالجملة فلا نعـــود الى حضرة الوزير إلا ظافرين ، أو يصل إليه خبر شهادتنا في سبيل الله تعالى ؛ فاستمروا على هذا الرأى الاخير ، الى ان برزوا

من صنعاء ، ونزلوا في ميدان فسيح ، وهم على هذا الرأي مقدمون ، وله على غيره مُقَدّمون ، وإذا بغبار كثير ظهر في ذيل (جبل اللوز) وغبرة سدت عين الشمس ، لا يعلم ما وراءه ، وإذا خلف هذا الغبار (قطران) و(علي بن نشير) وجندهما الفجار .

وكان من أمرهما انهما وصلا الى جبل (ثلا) وتمثلا بين يـــدي الاعرج ، فأكرمهما إكراماً زائداً عن الحد، وأضافهما، ووعد كل واحد منهما أن يزوجه بنتاً من بناته ، وأن يكون (قطران) رئيس كل النقباء ، يعزل من أراد منهم ، ويقدم ويؤخر من أراد ، ويكون (علي بن نشير) نائبه في هـــذه المرتبة ، يتصرفان في ملكه وخزائنه ومناصبه ، وعادا من عنده وقد استوثقا لأنفسهما بهذه الوعود ، ووصلا الى (جبل اللوز) وأجمعا أن يردا بمن معهما من العسكر الى صنعاء ، ويأخذانها، وسول لهما الشيطان هذا الخيال الباطل ، فنزلا بجميع عربانهما من أعلى الجبل إلى ذيله ، ووصلوا الى السهل ، فثار الغبار ، ولا يدرون من قدامهم . وإذا (قره كوز بك) و (أحمد الصوباشي) ومن معهم من الفرسان ، في ذلك الميدان ، فتلاقت الفئتان من غير قصد وروية ، وتمايلت أعطاف ذوي الحمية ، وتأججت نيران العزائم القوية ، ودارت فيما بين الطائفين كؤوس المنية ، وقد اسوَدّ بوقع السنابك بياض النهار ، وابْيَضّ بلمع بروق السيوف سوادُ ليل الغبار ، وعُدّ النقع في وبل البندق والنبل من حساب السحاب ، وغارت عين الشمس من لمعان أطراف الرماح فتوارت بالحجاب ، وغلت الصدور بما فيها ، كأنها القدور على أثافيها ، وهجمت الترك على عصاة العرب يحملون ، ويعلون من دمائهم وينهلون ، فانتشب الحرب ، واشتجر الطعن والضرب ، وكثرت الجراحات ، وكرثت الاجتراحات ، وما زالت نجوم النصول تنقض ، وبناء الجسوم تنقض ، وعيون الدماء ترفَضّ، وأبكار الدروع بحدود الذكور تُفتَضّ ، فكم قتل من بدوي ردي ، له في الهاوية هوي ، وعليه من زفير جهنم دوي ، وكم من صريـــع من العصاة بغيّ ، أورده بغيه النار وهو غويّ . (شعر) :

وانقلبت بـــالذل أدبارهم فصار ذو المِغفر ذات الخمار
وانهزموا للـــبر إذ أبصروا بحرَ وغىً تغرق فيه البحار
وعذرهم ، إن هربوا واضح هل يثبت الليل أمام النهار

وكان ممن قتل من العصاة (قطران) وكذلك (علي بن نشير) رأسا جنود البغي والعدوان ، وطائفة كثيرة من أركان الفساد والطغيان ، فحملت رؤوسهم على الارماح وطيف بهم البلدان ، وقدمت بين يدي حضرة الوزير ونثرت تحت الأقدام ونالها الهوان ، والحمد لله على نصرة أهل الايمان على جند الشيطان ، وخذلان جيوش الملاحدة وخيبة أهل العصيان ، والله المستعان وعليه التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .



الفصل الثاني والخمسون

في محاصرة علي بن شرف الدين في (حصن حب) في مملكة (بعدان) واستشهاد بعض الامراء مع(خضر بك القابودان) وحلولهم أعلى مراتب الجنان

لما افتتح حضرة الوزير (جبل الأغبر) وحصن (القاهرية) وأخذ نواحي تعز وجبلة ومملكة بعدان ولم يثبت في وجهه ، بل استمر الخصم هارباً على وجهه ، والعسكر الشريف السلطاني في عقب العدو ، حيث توجه ، وكان علي بن شرف الدين أخو مطهر متحصناً في حصن (حب) رأى حضرة الوزير أن استئصال العدو وطرده أولى من التخلف لأخذ حصن حب ، فعين حضرة الوزير لمحـــاصرته محمود بك الكردي ، وكان شجاعاً فاتكاً،جواداً سخيا ، وأرسل معه نحو الثلثمائة من العسكر ، فأحاط بحصن حب ، صوناً له عن أن يدخل اليه أحد ، أو يخرج منه أحد ، فانه ليس له إلا طريق واحد ، وهو في الارتفـــاع والشهوق يناطح النطح ، ويرامح الرمح ، ويعاوق العيوق :

مصغ إلى الجو أعلاه فان خفقت زهر الكواكب خلناها تخاطبه
كأن أبراجه من كل ناحية أبراجهـــا ، وسماكيها مناكبه

وولى على تعز الأمير أحمد ، ويقال له (كوجك أحمد بك) لقصر قامته ، وكان من الامراء المحافظين بمصر ، وله تهور واقدام مع بعض جلافة ، فما أحسن الحكومة في تعز ، بحيث قالوا عن حكمه : حكم قراقوش، وقراقوش هذا كان والياً بمصر في أيام العبيديين ، وكانت له أحكام عجيبة ، يضرب الناس بها المثل منها أن شخصاً قلع عين شخص آخر ، فتخاصما اليه ، وكان القالع صيرفياً عند قراقوش ، ولزم أن يقلع عينه عوض المقلوع عينه فقال له القالع : أنا صيرفك وإذا قلعت عيني لا أنفعك في نقد الدراهم ، فقـــال : صدقت ، ولكن لا بد لنا أن ننصف هذا المظلوم ، فتفكر وقال : هاتوا النشاشيبي لنقلع عينه بدل هذا فانه لا يحتاج في تحرير النشاب إلا إلى عين واحدة ، فإنه يغمض احدى عينيه وينظر في طرف النشاب بفرد عين فصار مثلاً .

وكان أحمد بك هذا قريباً من قراقوش في أحكامه ، وكان أمير الحاج المصري في سنة ست وسبعين وتسعمائة ، فغضب على مباشر الركب المرحوم القاضي زين الدين الجزيري الحنبلي ، وكان فاضلاً أديباً لبيباً مؤرخاً ، أجاز له علماء مذهبه بالافتاء والتدريس ، ومع ذلك كان شيخاً مسناً وقوراً ، فما استحى أحمد بك من شيبته ، وضربه ضرباً مبرحاً ، ثم حطه في الحديد ومشاه مرحلة كاملة ، مع زيادة ضعف بدنه وترفهه، وحصل له بذلك الثواب العظيم عند الله تعالى بالنصر على هذا الظالم ، ولعل أحمد بك ما هلك بعد ذلك إلا بدعائه عليه . (شعر) :

الا قولوا لشخص قد تقوى   على ضعفي ولا يخشى رقيبه
خبأت له سهاما في الليالي   وأرجو أن تكون له مصيبه

فلما شكى أهل تعز الى حضرة الوزير حكومات أحمد بك عزله من تعز، وأرسله الى بعدان ليكون محاصراً حصن حب ، مع محمود بك الكردي ، وولى على تعز بدله (قورد أوغلى سنان بك)اخا (خضر بك القابودان) فوصل

سنان بك الى تعز ومضى أحمد بك إلى بعدان ، وحط على حصن حب الى أن استشهد بعد ذلك في ذلك المكان ، فكان تراب كل منهما جاذباً له اليه ، ومنية كل واحد منهما سابقة له الى محله الذي يهال فيه التراب عليه .

ومن كانت منيتـــه بأرض   فليس يموت في أرض سواها

وسيأتي خبر وفاة كل منهما قريباً .

وأما محمود بك الكردي فما أحسن سياسة العسكر في المحطة حول حصن حب ، وبلغ الوزير ذلك ، فارسل (خضر بك القابودان) ليكون سردارا على الأميرين المذكورين،وعلى باقي الامراء وعلى جميع العسكر المأمور بمحاصرة حصن حب ،فوصل اليهما خضر بك واتى بالمدافع الكبار من تعز والتعكر ، بغير أمر حضرة الوزير ، وصار يرمي بها على أهل حصن حب ، ولا يبالون بها لعلو الحصن المذكور كما تقدم بيانه ، فاستمر هو ومن معه محاصرين للحصن المذكور الى أن وصلت مكاتبات الأعرج الى عربان جبلة والشوافي وأهـــل بعدان وهم أكثر أهل تلك الأقطار شراً ، واسرعهم الى الفتنة ، وأقواهم عليها ، وسبقت منهم الفتنة قبل هذا ، وكانوا سبباً في اخذ إب وجبلة ، وقتل من بهما من العسكر السلطاني ، أيام المرحوم مراد باشا ، الى أن قتل شهيداً رحمـــه الله تعالى ، كما تقدم بيانه ، فاستفزهم الشيطان ، وبادروا الى العصيان ، وأقبلوا على الافساد والطغيان ، وقطعوا الميرة عن أهل المحطة ، وحصروهم وهم حاصرون محصورون ، وضغطوهم أشد ضغطة ، وكان الترك متفرقين في إب وجبلة ، في بيوت القهوة وفي أماكن اللهو والطرب والغفلة ، ففاجأتهم العربان باظهار الخلاف والعصيان ، وبادروهم بنقض العهد والغدر والطغيان ، وقتلوا من انفردوا به من الترك في كل مكان ، فلم يبق حول مخيم خضر بك القابودان غير الأمراء وقليل من عسكر السلطان ، وكان حضرة الوزير منع خضر بك عن تفريق عسكره ، ومنعه ان يأذن لهم في دخول بيوت القهوة في إب وجبلة، أو يتوجهوا اليهما للاستراحة أو يأووا الى اؤلك

العربان ، أو يثقوا باظهار محبتهم لهم ، بل يلازمون مخيمه ولا يتفرقون عنه في بـــلاد العدو ، فخالف أمره الكريم ، وكل من طلب منه الاذن الى إب وجبلة اذن له .

وكان أمره أيضاً أن لا يقاتل أهل حصن حب ولا يجلب عليهم المدافع الكبار للرمي عليهم كيلا يثقله ذلك ، بل يحاصرهم فقط ليضيقوا من المحاصرة ويسلموا الحصن اليه بطلب الأمان ، فخالف في ذلك أمر الوزير ، وطلب المدافع الكبار من التعكر وتعز ، وصار يضرب بها من حصن حب فلا يفيده شيئاً ، غـير تضييع البارود ، وأثقلته المدافع عن الكر والفر .

وكان أمره أيضاً أن لا يكثر من استخدام عربان تلك الديار ، ولا يكتب لهم علوفة ، ولا يقربهم إذ لا اعتماد عليهم في استخدامهم ، فخالفه في ذلك جميعه وتكاثر بجماعة منهم ، فخانوه عند الاحتياج اليهم ، ولم ينفعوه بشيء بل أضروه ، وكانوا عليه فيما بعد ، وكلما عذل عن مخالفة أمر حضرة الوزير قال : إذا افتتحنا حصن حب اغتفر لنا مخالفتنا لأمره .

فلما طال عليه المقام ولم ينتفع بضرب المدافع ، واذهب كثيراً من البارود سدى ، وتحقق خطأه ، أرسل إلى حضرة الوزير يعتذر عمـا وقع منه من الخلاف ، ويطلب مسامحته فيما فعل من الخطأ ، فكتب اليه حضرة الوزير بقبول عذره ، وأدرج في مكتوبه الشريف اليه أنواعاً من النصائح تطبيبـاً لخاطره ، وتعليما له .

وكان الأمير خضر بك المذكور من المعتمدين في خدمة السلطنة الشريفة ، ولهذا اختاره لفتح عدن كما تقدم شرحه .

وكان شجاعاً مقداماً عارفـــاً بالحروب سيما افتتاح القلاع الصعبة بحسن تدبيره ، ولكنه ما أفاده التدبير عند عدم مساعدة التقدير ، وإذا حلت التقادير ضلت التدابير ، وإذا نزل القضا عمي بصر البصير :

طامن حشاك فان دهرك موقع بك ما تحب من الأمور وتكره
وإذا أتاك من الأمور مقــــدر ففررت منـــــه فنحوه تتوجّه

ومن جملة العكوسات ان حاكم ذمار من قبل حضرة الوزير فرغ بارودہ ، فأرسل إلى خضر بك يطلب منه أن يرسل اليه بعض أحمال بارود ، ليقاتل به العدو، إذا احتاج اليه، فأرسل اليه خضر بك احمالاً من البارود، مع الأمير برويز أحد أمراء السناجق السلطانية باليمن، وجهز معه فرساناً يحمونه ، فلما توجه إلى ذمار بالبارود ، وأراد أن يعود قطع العصاة عليه الطرقات ، وما مكنوه من العودة .

وكان برويز بك من الشجعان المعروفين بالنجدة والبسالة ، وكان معه نحو الخمسين فارساً من الشجعان ، فكثرت عليه عصاة العرب وما أمكنه العودة إلى بعدان فاستمر في ذمار ، وكان من العسكر الذين جددهم الأمير خضر شخص يقال له (بالي آغا) كان شريراً كثير الفتن ، من قدماء الأروام في اليمن ، وكان صاهر الزيديين ، واستولد منهم ، وكان مباطناً معهم ، ولم يكن له وثوق حتى يأتي إلى حضرة الوزير ، بل كان خائناً خائفاً يترقب ، وكان وصل في غيبة الوزير ، واشتغاله بقتال كوكبان الى الأمير خضر بك ، وعرض نفسه عليه ، فقبله غاية القبول ، وأقبل عليه ، وعمل له علوفة وقربه ، وجعله صاحب سره ونديمه ومستشاره ، وولاه (كتخدا العرب) فجلب إلى خضر بك طائفة من عصاة الزيديين ، ومنافقيهم ، وأظهروا له الطاعة ، وكتب لهم علوفات وقربهم ، فكان هذا (بالي آغا) ومن معه من الزيديين ، عينا لعـــلي بن شرف الدين على خضر بك ، وكانوا يكاتبونه بأحواله ، ويفسدون عليه بعض العسكر ، إلى أن اجتمع على رأيه من الترك والعرب المظهرين للطاعة ، المضمرين للعصيان نحو تسعمائة مقاتل ، فارسل إلى علي بن شرف الدين يذكر له انه اجتمع عنده تسعمائة مقاتل، وأن خضر بك ليس معه من العسكر غير مائة وخمسين مقاتلاً ، وطلب من علي أن ينزل من

حصن حب للقتال ، وانهم يكونون معه ، ويستأصلون الترك ، ولا يبقون منهم داعياً ولا مجيباً ، فأرسل علي بن شرف الدين إلى عربان جبلة واب وبعدان ، وبني حبيش وأهل الشوافي، ان يجتمعوا في سابع عشري رمضان، على قتال خضر بك ، ويحيطون به ، ويـــنزل هو من حصن حب لهم ، فامتثلوا امره وكانوا متهيئين لذلك ، وغالب العربان عصت ونقضت العهد ، وقطعت الطرقات ، وقتلت من انفردت به من الترك ، واغتالت من قدرت عليه منهم .

فلما كان السابع والعشرون من شهر رمضان سنة سبع وسبعين وتسعمائة وصلت العربان العصاة ، وأحاطت بمحطة الأمير خضر ، ونزل علي بن شرف الدين ، وشرعوا في القتال ، وكانت العربان ثمانية آلاف ، وكان مع الأمير خضر بك مائة وخمسون رجـــلا ، فثبت للقتال على ميمنته الأمير (محمود الكردي) وعلى ميسرته (الأمير أحمد) واصطف من بقي معه من الترك أمامه وخلفه ، وأيقنوا بالموت، وأقبلوا على الشهادة لينالوا مراتب السعادة ، وطال القتال ، وطارت النبال ، وجرى كالديم سيل دم الأبطال ، وصار كل فارس من الترك يقاتل مائتي فارس فصاعداً من جنود الضلال ، وهجم العدو فارساً وراجلا ، ورامحاً ونابلا ، ومقتولاً وقاتلا ، وتحزبوا أحزاباً وتجمعوا أطلابا ، وحمي الوطيس ، وبذل النفس النفيس ، فمن استشهد من أهل السنة تسلمه رضوان إلى الجنان ، ومن قتل من أهل الالحاد أسرع به مالك إلى النيران ، إلى أن قتل في سبيل الله الأمراء الثلاثة بعد أن أبلوا في العدو بلاء شديداً ، وأنكوا فيهم بالسيف ، حتى مضى كل منهم شهيداً ، وأدخلهم الله تعالى جنات تجري من تحتهـــا الأنهار ، ورضي عنهم ورضوا عنه ، وأكرمهم بالنظر إلى وجهه الكريم في الدار القرار .

واستشهد معهم من العسكر الشريف نحو النصف ، بعد أن قتلوا أضعاف أضعافهم من الفجار ، وانهزم الباقون وهم يضربون بالسيف في وجه العدو ،

ليجدوا طريقاً إلى الفرار ، وهكذا الحرب ، فرٌّ بعد كرٍّ ، وكر بعد فر وانكسار وكسر ، وقتل وأسر . (بيت) :

ومن ظن أن سيلاقي الحروب ــــــ وان لا يصاب فقد ظن عجزا

ونهب الزيديون ما بقي في الوطاق ، من الاسباب والسلاح واليراق ، ووضعوا أيديهم على المدافع الثلاثة الكبار ، وما وجدوه من المتاع والأثاث والأوقار ، وهكذا شأن الفلك الدوار ، ودأب الزمان العيَّار الغدار ، (بيت) :

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نُساء ويوم نُسرّ



الفصل الثالث والخمسون

في تدارك حضرة الوزير ما وقع في البلاد من الاختلال الكبير ، وارسال الامير (شيخ علي) والامير (صفر الريس) الى حفظ تعز وعدن ، وارسال (قره كوز بك) و (برويز بك) و (أحمد الصوباشي) لقتال المفسدين في نقيل سمار ، وقتل الملاحدة الفجار .

لما وصل خبر شهادة خضر بك وأحمد ومحمود الكردي إلى حضرة الوزير، تأسف كثيراً ، ولكنه مـــا أظهر التأسف للعسكر لئلا يحصل لهم الجبن والخور ، بل عمل ديواناً ، وأظهر غاية التثبت وعدم المبالاة بهؤلاء ، وقال : ان حضرة السلطان الأعظم نصره الله تعالى ، وخلد ملكه السعيد ، له في كل قطر من مماليكه المحروسة أكثر من ألف مملوك ، خير من خضر بك وأحمد بك ، ومحمود بك الكردي ، واني بفضل الله وبسعادة السلطنة الشريفة قادر أن أولي من جنب عسكري في كل يوم أمثال هذه الأمراء ، الذين مضوا إلى رحمة الله تعالى ، وان سيف السلطنة نصره الله طويل،ولا بد أن أقطع رأس (علي بن شرف الدين) وآخذ حصنه الذي هو متحصن فيه ومُتقوٍّ به ، وإذا فرغت من أمر كوكبان وثلا ، فلا بد لي من قطع جادرة من خالف وعصى ، وأين تختفي الشمس عن القصّارين (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) . (بيت) :

ستعلم ليلى أيُّ دَينٍ تداينَتْ   وأي غريم في التقاضي غريمها

ثم أحضر صفر بك الريس ، وكان شجاعاً مقداماً من رؤساء البحر ، وضم اليه مائة مقاتل من الشجعـان ، من عسكر البحر ، وجعله سرداراً عليهم ، وألبسه خلعة فاخرة ، وأمره أن يتوجه من طريق لعسان إلى المخا ، ويركب في الأغربة التي هناك في ساحل البحر ، ويصل إلى عدن ، ويحفظها من الأعداء ، فان حفظ بندر عدن من أعظم المهات .

ثم طلب الأمير شيخ علي وكان شجاعاً فتاكاً ، مدبراً قديماً في اليمن ، من أمرائها السناجق ، ولي عدة بـلدان ، ويعرف أحوال اليمن وعربانها ، وطرقها ومسارها ومشاربها ، وضم اليه مائة مقاتل وجعله سرداراً عليهم ، وألبسه خلعة وأمره أن يتوجه من طريق لعسان إلى زبيد ، ويأخذ من وصل من مصر إلى زبيد من العسكر معه ، وكان وصل اليهـا من مصر خمسمائة عسكري ، ويتوجه بهم إلى تعز فيحفظها ، ويحفظ القاهرية وحصن التعكر ، وتلك النواحي .

ثم استدعا بالأمير برويز ، وكان بطلاً شجاعاً مقداماً ، معروفاً في اليمن بالبسالة والشجاعة ، وضرب السيف ، وهو أيضاً من قدماء أمراء اليمن ، ولي فيها عدة مناصب ، وصار أمـير الحاج اليماني ، وغير ذلك ، وضم اليه الامير قره كوز بك المتقدم ذكره في واقعة قطران ، وعلي بن نشير ، وضم اليه أيضاً أحمد الصوباشي من مماليك حضرة الوزير ، وتقدم ذكره في واقعة قطران أيضاً ، وضم اليهم فرساناً وأبطالاً ، والبسهم الخلع الفاخرة ، وأرسل حكماً إلى سنجق رداع الأمير أحمد بك المأمور بمحافظة رداع ، وحكماً آخر إلى أمير اللواء في ذمار عبدي بك المأمور بمحافظة ذمار وأن ينضما بمن معهما من العسكر إلى الأمراء المذكورين ، ويتوجهوا جميعـاً إلى مقاتلة العرب العصاة ، المجتمعين في (نقيل سمار) من اولئك الأرجاس الفجار ، وتمهيد ذلك الطريق لسلوك القوافل والتجار ، وتأمين تلك النواحي ، وتطمين سكان

تلك الضواحي ، وقلع أساس العصاة بالمعاول والمساحي ، وقطع رؤوس من قدروا عليه من كل ملحد إباحي ، فمضى كل من المذكورين إلى ما أمر به ، وسافروا مصحوبين بالأمن والسلامة والنصر ، والتأييد من الله تعالى .

فأما الأمير صفر الريس فوصل بمن معه إلى بندر المخا ، ووجد به ثلاثة أغربة ، مهيأة في ساحل البحر ، فجرها إلى البحر وشحنها بالزاد والسلاح ، والمدافع وتوجه بها إلى عدن ، فوصل اليها بالسلامة ، واستمر بهـا هو ومن أرسل معه ، يحفظونها ويحرسونها من البر والبحر ، وما رأوا بهـا سوءا ولا مكروها ، واستقر به خواطر أهل عدن ونواحيها ، وأمنوا كيد الأعداء ومكرهم ، ودعوا للحضرة الشريفة السلطانية، ولحضرة الوزير السعيد بالنصر والتأييد ، وخلود السعادة والعز والتأييد .

وأما الأمير شيخ علي فسلك بمن معه من طريق لعسان إلى ان وصل إلى زبيد ، فرأى بها العسكر الذين وصلوا من مصر ، وكان جهزهم أمير الأمراء اسكندر باشا الجركسي البكلربكي بمصر ، ولكنه ما أصرف عليهم علوفتهم وجوامكهم ، وقال لهم : إذا وصلتم إلى اليمن يصرف عليكم الوزير سنان باشا علوفتكم ، وأرغمهم على السفر ، فتكلف كل واحد منهم ، واصرف جميع ما يملكه ، وباع وسلاحه وتجملاته ، ووصلوا إلى اليمن ، وهم لا يملكون نقيراً ولا قطميرا ، واستمروا في زبيد ، يأكلون مثـــل الفأر بالقرض ، ويعجزون عن أداء الفرض ، بيت :

وقد كنت مثل الليث أ كِلي فريستي وقد صرت مثل الفأر أَكِليَ بالقرض

فلما رآهم الأمير شيخ علي بهذا الحال تحير في أمرهم ، ورأى انهم عاجزون عن السفر ، ليس لهم سلاح ولا بيدهم شيء ، وقد استحقوا علوفة ستة اشهر، وليس عنده ولا في خزينة زبيد ولا عند حضرة الوزير شيء من النقد، للصرف على هؤلاء، فارسل الى حضرة الوزير يعرفه بذلك ، وينتظر جوابه الشريف، فيما أمره به ، فوصل العرض الى حضرة الوزير بتفصيل الحال ، ولم يكن في

خزينته شيء يجهزه للصرف على هذه العساكر ، كما تقدم بيانه ، ففكر في ذلك ورأى ان له بعض القماش والامتعة مودعة في زبيد ، ورأى ان يسمح بها ، وان كانت لا تفي بصرف هؤلاء ، مع احتياجه اليها ، فكتب الى الأمير شيخ علي يأمره ببيع جميع ما أودعه بزبيد من الآلات والثياب والاثاث ، ويقترض عليها مـــا يمكنه الاقتراض ، ويصرف جميع ذلك على العسكر ، ويسلحهم ، ويعطي لكل واحد منهم بندقا وبارودا ، ويدفع ذلك اليهم من (الجبه خانه) المودع في بندر مخا ، ولا يتوقف ، ويتوجه بهم الى حيث أمر .

فلما وصل كتابه الشريف الى الأمير شيخ علي بادر الى بيع تلك الأسباب ، فباعها بابخس الأثمان ، لكساد السوق وقلة الراغب ، واحتياجه الى الثمن ، ولم يتوقف في ذلك ، واقترض عليه مبلغاً ، واصرف على هذا العسكر علوفة تسعة اشهر ، فانتعشوا بذلك ، فسلحهم وأعطاهم البندقيات ، وأخذهم معه الى تعز ، فحفظ بهم تعز والقاهرية ونواحيهـــا ، والتعكر ، وقطع جادرة من هناك من العربان والعصاة ، وانتظمت أحوال تلك الجهات بتدبير حضرة الوزير ، وآرائه الصائبة وفكره الثاقب ، واطمأن المسلمون ، وأمنت الرعايا ، ونامت البرايا ، في ظلال أمن السلطنة الشريفة ، ودعوا بدوام السلطنة المنيفة ، جعل الله ظلالها سايغة وريفة .

وأما برويز بك وقره كوز بك وأحمد الصوباشي فوصلوا بمـن معهم إلى ذمار ، واجتمعوا بعبدي بك سنجق ذمار ، وكان شجاعاً فتاكاً ، واجتمع عليـــه من العسكر المنصور السلطاني ، ومن العرب الباقين على الطاعة نحو الف مقاتل .

وكانت مظان جمعية الزيدية والعصاة في ثلاثة أماكن : أولها (بعدان) مع علي بن شرف الدين .

والثاني في (نقيل سمار) .

والثالث في يريم .

فتوجهوا يريم فاجتمعت الزيدية ، وانضم اليهم أهل نقيل سمار ، وكانوا زهاء عشرة آلاف ما بين فارس وراجل ومبندق ونابل ، يدكون الأرض دكا ، ويفكون حلق الحديـــد من الزرد فكا ، ليس لهم دين ولا دنيا ، ولا يعرفون عقلا ولا رأيا ، عصوا الله ورسوله واولي الامر ، فاطاعوا الشيطان الرجيم واستحلوا دماء المسلمين وأموالهم ، وذلك أشد من شرب الخمر ، فحملت عليهم العسكر المنصور ، وعليهم الألوية المنشورة ، وبأيديهم الصوارم المشهورة ، من كل فارس حمته حميته ، وحميت نخوته ، وغيرته غيرته ، وحركته عزيمته ، وكل طائر بأجنحته السوابق ، مطرق لطوارىء الطوارق ، وكل صاد عزمه صادق ، ورام سهمه الى المقاتل رامق ، وكل ضار ضارب هام العدو ، ويعد الضرب ضَرْباً من الضَّرَب ، وكل بطَل يمحق الباطل وهو مُحِقٌّ في الطلب ، وكل أمير ما أبطأ له عن حميته أبطاله ، وما أرجأ له رجاله ، قـــد أوقد بالجميع جمراً ، وجلب بيضاً وحمراً ، ودهماً وشقراً ، وصوارم بُتراً ، وصواهل ضمراً ، فجاؤوا في سواد اسودٌ منه الجو ، وانسد بظلامــــه الضوء ، وتجلى بنجوم رماحه ليل العجاج ، وتجلى بسفور صفائحه صبح الهياج ، فدنت الآساد إلى الاساد ، وأغرى بالجلاد الأجلاد ، وأشرع المراح رمــاحه ، وأطلع فجر الغمد صفاحه ، وماجت غدران الدروع ، وهاجت حفائظ الجموع ، واشتكت الأرض من الحوافر الحوافر وقعاً ، واثارت لفرط تألمها الى السماء نقعاً ، واستمر الطعن والضرب في أقفية الاعداء ، بعد أن كانت في صدرها ، وانتقل القتل والفتك والسفح والسفك من نحورها إلى ظهورهـــا ، إلى أن ولوا مدبرين ، وانهزموا على وجوههم هاربين ، يعدون الفرار من أكبر الظفر ، ويعدون على أقدامهم فلا يعدون مهاوي الحفر ، فقتلوا قتلا ذريعـــا ، وكسروا كسراً شنيعاً ، فما أنجى من أبقته السيوف منهم إسبال الليل ستره المظلم ، ولا أخفاهم عن الطلب غير إرخاء الظلام عليهم أذيال سواده المقتم ، ونصر الله أهل السنة ، وخذل أهل الإلحاد والفتنة ، ومحنهم بالقتل والأسر أعظم محنة ، ولله تعالى الحمد على ذلك والمنة ، واطمأن المسلمون في نواحي رداع وذمار ، وانقطع

آثار الملاحدة العصاة الفجار ، وانفلت جموعهم من بريم ونقيل سمار ، ولم يبق إلا عـــلي بن شرف الدين ، ومن اجتمع عليه من طوائف الزيديين ، وهم متحصنون في حصن حب ومملكة بَعدان، وسيأتي تفصيل ما سيقع لهم من السوء والخذلان ، والقتل والاسر والهوان ، وذلك جزاء الظالمين ، والحمد لله رب العالمين .



الفصل الرابع والخمسون

في تعمير ما خرب من حصن شماط ، وتحصينه ،
ووضع الامير كلابي بك فيه وتأمينه ، وغدر الزيديين واستشهاده
بعد اخراجه بالمكر من عرينه

كان من جملة القلاع التي أخذت خلف كوكبان وجبل التيس قلعة شماط ، وتقدم أن أهلها طلبوا الأمان ، فأعطوا الأمــان بشرط أن يخرجوا منها ويهدموها ، لأنها كانت في طريق المحطة ، وكان يحدث من أهلها العصيان وقطع الطريق على القوافل الجــالبين للميرة على العسكر المنصور ، وكانوا لما باشروا هدمها ما بالغوا فيه ، ولا استأصلوها مرة واحدة ، بل أبقوا بعض مساكنها وأسوارها ، فخشي حضرة الوزير أن يعمرها الزيديون بأدنى توجه ، ويحصنوها كما كانت ، ويكمن فيها قطاع الطريق لمنع القوافل التي ترد بالميرة الى المحطة ، مع كمال احتياج العسكر الى جلب الميرة اليهم ، فرأى أن يسبق الى تعميرها وتحصينها ، وأن يضع فيها جنداً لصونها لئلا تضع أيديهم الزيدية عليها ،فعين لذلك الأمير كلابي بك — بضم الكاف العجمية نسبة إلى الماء ورد — وكان رجلا طويلا هبيلا ، شجاعاً مقداما ، تغلب عليه السذاجة ، فاختاره حضرة الوزير لشجاعته ، وما لاحظ مآل حماقته ، وضم اليه ثلاثين رجلا بالبنادق والسلاح ، وأعطاه بعض المدافع ، وأمره أن يعمر ما تهدم من قلعة

شماط المذكورة ، ويحفظها ، وطلع اليه من الزاد ما يكفيه ، فتوجه إلى المحل المذكور ، وعمره وحصنه ، واستمر فيه محافظاً ، فضاقت حضيرة الزيديين بذلك ، وحرجت صدورهم ، فجاء اليه أهل شماط سابقاً، وأظهروا الطاعة السابقة ، ورحبوا به ترحيباً عظيما ، واروه من أنفسهم انهم فرحوا بقدومه على حصنهم ، وانهم باقون على الطاعة ، وصاروا يتوددون اليه ، وطلبوا منه أن يضيفوه ، وكان ذلك جميعه مكراً ونفاقاً وكذبا ، وقدموا عدة أغنام كثيرة ، وآلات الطبخ، وعملوا سماطاً عظيما ، طلبوه هو وطائفته اليه . فقال لهم : ادخلوا الينا الضيافة إلى الحصن ، فقالوا : اخرج الينا إلى الفضاء ، في محل واسع،لنمد فيه الطعام ، ويكون بيننا وبينكم الخبز والملح، وذبحوا غنما كثيراً ، وأوقدوا قدوراً كثيرة ، وأحضروا من سائر أنواع المأكول ، ولا زالوا يستلطفون به إلى أن غره الملق الكثير منهم ، فاغتر بذلك لسذاجته ، وبرز لهم هو ومن معه ، بعد أن توقفوا في البروز معه ، فألزمهم بذلك ، وقال : هؤلاء يريدون أن يجتمعوا ويكونوا ظهراً لنا ، ونستعملهم في خدمنا ، ولا يحصل منهم خلاف ولا خداع،فاغتروا باغتراره ، وبرزوا معه إلى خارج القلعة ، في فضاء واسع ، فرشوه وزينوه ، وقالوا : نجعل هذا اليوم يوم بسط وسرور ، وتنزُّه وفرحة وحبور ، فإلى متى أنتم في غم وكرب ، وطعن وضرب ، ومكابدة وحرب ، ألا تتنفسون في أثناء هذه الأتراح ، بيوم بسط وانشراح ، ولذة ولهو ومزاح ؟ فقالوا : نعم نفعل ذلك ، وانى لنا بيوم نأخذ فيه حصّة نشاط وقليلا من فرح وانبساط .

نزه النفس بالحنو عليها   لا تكن جالب الهموم اليها
ربما مسك الزمان بضر   لا تكن أنت والزمان عليها

وما علموا أن هذا الكلام ظاهره مرهم وباطنه كلام ، وانه سم في دسم ، ونار في ضرم ، وكان محمد بن شمس الدين أرسل من كوكبان جماعة يضربون بالبندق ، فكمنوا للترك خلف بعض الآكام ، فلما جلسوا على مائدة الطعام ،

فاذا ببندقية حررها راميها على كلابي بك، وقد مضغ لقمة ، وأراد ازدرادها فأصابت فؤاده ، فانكب على وجهه لحينه ، ووافى موعد حينه ، وانتقل إلى رحمة الله الكريم ، متنقلا في درجات النعيم، فلما رآه أصحابه وقد فات، وصاروا بلا رأس وبلا ثبات ، بادروا إلى التفرق والشتات ، فمنهم من لحق بأميره ورزق الشهادة في سبيل الله ، ومنهم من هرب على وجهه يسيح في عرض الفلاة ، واستولت العربان على ما جاؤوا به معهم إلى حصن شماط ، وأفرطوا في الخيانة والغدر أشد الافراط ، وكان الترك يوصفون عند العرب بالغدر ، ويعرفون عندهم بالحيل والمكر ، لوقوع ذلك أحياناً قبل الآن من بعض ظلمتهم، لتفرقهم وعدم اجتماع كلمتهم، فصارت العربان الزيدية الآن من أغدر بني نوع الانسان ، وأشدهم خيانة بالنسبة إلى جميع العربان ، فرضوا بالخزى والخذلان، وقبلوا عار الخيانة، ومن خان لا كان .

ولما بلغ حضرة الوزير تفصيل هذه القضية ما ألقى لها بالاً ولا أظهر لها شأناً ، ولا راجع فيها أحداً من الناس وأهملها سدى ، ولم يسأل عنها ولم يلق اليها فكراً ، واستمر في التشديد على أخذ (كوكبان) والتضييق على أهلها بالمحاصرة ، ورميهم بالمدافع الكبار ، والاستعانة بالله الواحد القهار ، على اؤلئك الملاحدة الفجار ، وانتظار ساعات الظفر والانتصار .



الفصل الخامس والخمسون

في تضجر محمد بن شمس الدين من طول الانحصار ، وقرع باب الصلح ودخوله في الطاعة بغاية الذل والانكسار

قد تقدم بيان حصن كوكبان ، وارتفاعه في الجو إلى عنوان كيوان ، وما حوله من الخندق العميق المقطوع في الصخر الصوّان ، وان له باباً من تحته نافذاً إلى القلعة ، فكان كلما ملىء بالأحجار والصخار نزلوا اليه من تحت، وأخرجوها من ذلك المنفذ ، فحصل اليأس من ملء الخندق ، وفكروا أن يعملوا جسرا من الخشب يضم بعضه إلى بعض بالحديد ، ويوضع على الخندق بالليل ، ويمر عليه العسكر ، إلى أن يصلوا الى السور ، فيصعدون اليه بالسلالم ، ولا يبالون بالقتل والرمي من أهل القلعة عليهم ، ويهجمون عليهم هجمة واحدة ، فيأخذون القلعة وتلك البلاد قليلة الأخشاب والأحطاب ، فتكلفوا إلى حمل الادقال الطوال من صنعاء إلى المحطة التي بأعلى كوكبان ، وجلبوا اليهم الألواح والأخشاب ، والمسامير والأطواق الحديدية ، ورتبوا جسرا على طول عرض الخندق ، واستمروا في عمله ، إلى أن تم ، وحملوه إلى الخندق ليلا ، وأرادوا وضعه عليه ليمروا من فوقه ، فشعر أهل كوكبان بذلك فجاؤوا بالمدافع والضربزنات إلى قرب الخندق، وصاروا يرمون بها طلقاً بعد طلق ، ويرمي اليهم العسكر المنصور بالمدافع من خارج الخندق ، ويزحفون بالجسر ليضعوه على الخندق ، فقتل كثير من الجانبين بالمدافع ،

فلما قرّبوا الجسر ووضعوه على طرفي الخندق انكسر أحد طرفيه ، ووقع في الخندق ، وما تم لهم أمرهم الذي أضمروه ، وخسروا في ذلك أموالاً كثيرة، وأنفسا عديدة ، ورجعوا إلى المحطة ، وصمم حضرة الوزير أن ينشىء جسراً آخر ، ولو أصرف عليه مهما أصرف ، ولا يترك فتح كوكبان ، ودبر تارة أن ينقب نقباً في الجبل ، ليصل إلى أسفل الخندق ، ثم منه إلى القلعة ، ويملأه باروداً ، ويطلق فيه النار ، ولكن النقب في الحجر الصلب الصوان في هذه المسافة المديدة يحتاج إلى صرف خزائن ومدد مديدة ، فأمر البناء أن يبني جدراً عريضاً في حافة الخندق ، يجتمع فيه العسكر ، ويعملون خلفه جسرا آخر من خشب ، فلا تصيبهم المدافع من جانب العدو .

ولما بلغ محمد بن شمس الدين تصميم حضرة الوزير في أخذ كوكبان ، وانه لا يتصور ان يرجع عن ذلك ولو طالت الايام ، علم ان كل محاصر غالب ، وكل محاصر مغلوب ، فشرع في طرق باب الصلح ، وبذل الطاعة والانقياد ، وطلب الامان ، وقدم لذلك مقدمات ، وطابق ذلك ما في ضمير جماعته ، وأهل قلعته ، فانهم اجتمعوا وتشاوروا سراً ، وقالوا : لقد قتل من أمرائنا وكبرائنا ورجالنا خلق كثيرون ، وقد تبين لنا ان هذا الوزير لا يرجع عنا قط دون أن يفنى هو ومن معه ،وعلمتم ان لا طاقة لنا بمقابلته، وطال حصره لنا ، وزاد ضعفنا ، وكلما قتلنا منهم جاء بدلهم من مصر ، فلا يفنيهم إلا الله تعالى ، وأجمعوا أن يـــذكر ذلك بعض كبرائهم لمحمد بن شمس الدين ، ويحسن له طلب الصلح،وبذل الطاعة ، واختاروا لذلك وزيره محمد بن الحسن العياني ، فأقبل على محمـــد بن شمس الدين ، وقال له : لقد ظهر لي رأي أريد أن أذكره لكم ، وأعرضه بين يديكم ، فقال : قل ما عندك ، لعلك تطابق ما عندي . فقال له : لا يخفاكم أنا كنا في أيام إطاعتنا لبني عثمان ، في غاية الأمن ، وجمع الخاطر ، نتقلب في النعيم المقيم ، وأجلها أنا كنـــا آمنين على أنفسنا وأولادنا وأموالنا وذوينا ، إلى أن افترقت الكلمة ، وطمعنا في الملك، واستضعفنا من حولنا من الاتراك ، وحسن لنا الشيطان عصيان السلطنة ،

والخروج عليها ، فلما فعلنا ذلك اختلت البلاد ، وسفكت دمــاء العباد ، وجرت أمور بعضها باختيارنا وبعضها بغير اختيارنا ، وصدرت أفعال نحن مسؤولون عنها ، بين يدي الله تعالى ، ووقعت أحوال لزمنا فيها العار إلى آخر الدهر ، ثم لما سخط سلطانهم علينا أرسل وزيره إلينا بهذا العسكر ، الذي لا طاقة لنا بمقاومته ،وقد قتل من أشرافنا وأمرائنا من واراهم التراب، وكانوا زينة الدنيا وجمال المحافل ، وما بقي منهم غيرك ، وقد تقدم أخوك الهادي وأبناء عمك ، ومن لا يحصى منا ومن أمرائنا ، ولا يرجعون عنا إلى أن يملكوا البلاد ، فالرأي أن نبقي على أنفسنا وأولادنا وأموالنا ، وندخل في طاعة آل عثمان ، ونطلب منهم الأمان ، فنستريح ونريح أنفسنا وخدامنا وأهلينا . فلما أتم كلامه وهو مصغ اليه بفهمه وسمعه ، أعجبه كونه طابق ما سبق منه من الرأي ، فقال له : والله ان هذا الرأي له مــدة يختلج في في صدري،وأنا أحبسه،خوفاً أن أنسب فيه إلى الجبن والخور،وحيث كاشفتني عليه فلا بد أن أرسلك الى الوزير ، لتبرم معه هذا الامر ، وتعقد لنا معه الهدنة،واتفقا على ذلك ، وافترقا عليه، وكانت محطة حسن باشا حول كوكبان، محاصرة لقلعتها ، ومعه من العسكر نحو الألف من كل صنف ، وكل منهم تنزّق من طول المحاربة ، واستمرار القتل والقتال ، وكانت محطة حضرة الوزير أسفل جبل كوكبان ، ومعه الامراء وباقي العسكر ، وهو في كل قليل يطلع إلى الجبل ، ويأمرهم بما يأمرهم به ، ويرتبهم فيما يرتبهم فيه من النقب والحفر وملأ الخندق بالصخر والتراب ، وعمل الجسر ، وعبر ذلك ، ثم يعود إلى محطته ، ولا يفتر من المحاصرة والقتال ، وفتر كل من معه من العسكر ، غير انهم يهابونه ، فلا يظهرون فتورا ، ووصل خبر طلب الصلح من محمد بن شمس الدين إلى حسن باشا ، وإلى بعض امراء السناجق ، ومــا أمكن واحد منهم أن يتجرأ على عرض ذلك على حضرة الوزير، وهم يريدون عرض ذلك عليه ، ولا يقدمون على ذلك ، وكان القاضي شمس الدين السعودي ، الموقع ــ سلمه الله تعالى ــ اماماً لحضرة الوزير ، مداخلاً له ،

معتمداً عليه عنده ، يحادثه في الليل ، وينادمه ، ويعرض عليه في أثناء المصاحبة بعض الأمور ، ويشير عليه بما يراه صالحاً فيصغي الى كلامه ، ويتلقاه بالقبول ، وهو مطلع على بعض أسراره ، حافظاً لها ، كتوم لأحواله عن الأجانب ، وعمن لا يكون محرماً ، فقال له في ليلة – وقدراه يشتكي من انكار الدهر ، وعدم مساعدة الزمان له في بعض مراداته : طال الله تعالى أيام دولتك أيها الوزير ، وسخر لك كل صعب وعسير ، أريد أن أعرض عليك أمراً مهما أنا خائف من إلقائه اليك ، وأخشى أن تجبهني بالرد ، أو اثقل عليك ، فالخوف يمنعني عن الاقدام ، والنصح يحثني على ترك الإحجام ، وأنا حائر بين ذلك المقام وهذا المقام ، فقال له : قل ما بدالك ، ولا تخشى ، فاني معتمد على صدقك وصداقتك . فقال له : اعز الله أنصارك ، وضاعف قوتك واقتدارك ، لا يخفى على رأيك المنير ، وضميرك المشرق المستنير ، ان حصن كوكبان لا يمكن أن يفتح قسرا ، ولا يتصور أن يؤخذ عنفصا وقهراً ، وما بقي عندنا من البارود للمدافع ، وقد انقطعت الطرقات ونجحت الأزواد ، وقلت العساكر ، فتفرقت في البلاد ، فمنهم من عين للبـــلاد التي افتتحت لحفظها ، ومنهم من أرسل لقمع العصاة وقطاع الطريق ، ومنهم من استشهد في سبيل الله ، ومنهم من مرض ومات ، أو استمر متوعكا ، ومنهم من هرب وأبعد عنا ، وكل من بقي عندنا نحو الألف نفر الآن ، غير العرب المطيعين للسلطنة والدعاة وأمثالهم ، فالأولى أن ارسل كتاباً إلى محمد بن شمس الدين أنصحه فيه ، وأذكر له قوتنا وشوكتنا ، واشير عليه بأن يطلب الصلح ، ويدخل في طاعة السلطنة الشريفة ، ويغتنم خلاصه من هذه المحاصرة ، وحصول الأمن له لنفسه ولأولاده وذويه ، وهذه نصيحة ألقيتها اليكم ، وليس عند أحد من الامراء جرأة وإقدام على ذكر هذا لحضرتكم . فتفكر الوزير طويلا ، فرأى بعين فكره الثاقب ، ان هذا رأي صائب ، فأذن له أن يفعل ذلك من تلقاء نفسه ، من غير أن يطلع عليه أحد ، فشرع في ذلك وكتب من عند نفسه كتاباً الى محمد بن شمس الدين صورته :–

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، اللهم صـــل وسلم على أشرف الخلق ، سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، هذا الكتاب من المحب في الله ، اللائذ بجناب الله ، الباذل نصحه لله ولآل رسول الله ، ابتغاء لوجه الله ، قال الله عز من قائل: (ألا الله الدين الخالص) وقال النبي ﷺ : « الدين النصيحة ». يا سيدي محمد بن شمس الدين ، السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، لا أخلاك الله من عقل ودين ، وأيقظك من سِنَة الغفلة ، اعلم يا أخي أن آل عثمان دانت لهم الرقاب ، واطاعتهم الملوك والسلاطين ، وملكوا غالب الربع المسكون ، ولا يعجزهم قلة مال أو رجال ، ولا هم مضطرون إلى هذه الديار ، وانما عزهم وشرفهم حفظ ناموس الشرع الشريف ، وتأييد الدين الحنيفي المنيف ، والله الذي لا يحلف بغيره انهم غير راجعين عن هذا الحصن ، ولا عن غيره ، ولو أقاموا عليه سنين ، وليس بخاف عليك قوتهم وشوكتهم ، ومكنتهم وقدرتهم ، وتغلبهم على الملوك ، وانما أذكر ذلك نصيحة مني اليك ، والله خير الشاهدين ، فان قدر الله أخذهم للحصن عنوة ، وهو المتبادر إلى الفكر ، فأي بلاء يحل بأهله ، وأي ابتذال يقع على من فيه من الأشراف والشرايف والنساء ، والأطفال والرجال ، وما يحصل من القتل والأسر ، والنهب والسلب ، والافتضاح بين القبائل ، ولا يرضى بذلك إلا من لا خلاق له ، ولا يستهون بذلك إلا من لا عقل ولا دين له ، وأرجو أن يقرب الله ما بين الفريقين من البعد ، ويوفقكم إلى ما فيه صلاح البلاد والعباد، والصون للدماء والأموال والأنفس ، فان كنت يا سيدي من ذوي الألباب ، فتبادر لاستماع هذا الخطاب ، وترسل إلى حضرة الوزير - نصره الله تعالى - تسأله الأمان الآن ،والعفو عما سلف في غابر الأزمان ،والإطاعة لحضرة السلطان، خلد الله تعالى سلطانه ، وليكن جوابك على الفور ، فاذا فعلت ذلك فان حضرة الوزير حليم ، أظنه لا يرد سؤالك ، لكنه يشترط عليك أن تكون الخطبة والسكة باسم السلطان ، فالرأي أن تجيبه على الفور ، وتشترط عليه أن يكون لك لواء والدك سابقاً ، فاذا حصل هذا ترسل من عندك من تثق به ، يواجه حضرة الوزير ، ويختلع منه ، ثم تواجهه أنت ، وتكتسي حلل

الرضا ، والله ثم والله اني باذل لك هذه النصيحة ، محبة في آل رسول الله ﷺ ولم يعلم ما بيني وبينك الاعلام الغيوب ، وانك ان فعلت ما ذكرته لك ، وطلبت من الوزير الاقامة في كوكبان ، فلا يمنعك من ذلك ، ويمكنك من جميع مرادك ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

فلما فرغ الموقع من كتابه ختمه ، وجهزه إلى محمد بن شمس الدين ، فوصل اليه ، ففرح بوصوله وابتهج بذلك ، وكتب إلى الموقع جواب كتابه وصورته :

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الأكرمين ، وصحابته الراشدين ، السلام ورحمة الله وبركاته على الشيخ الأجل الأفضل ، الأكمل الأمثل الأنبل ، محب أهل البيت الأكرمين ، والفائز بحبهم في الدارين ، العامل بقوله تعالى : (قل لا أسألكم عليهم أجراً إلا المودة في القربى) صفي أهل البيت الطيبين ، جمال الدين أبي السعود الموقع ، اسعده الله تعالى في الدارين ، وبعد : فقد وقفنا على المطالعة الكريمة ، وتحققنا ما تضمنته من النصيحة الصحيحة ، وذلك يقتضي دينه وامانته ، وخلوص طويته وصدق نيته ، ومحبته لأهل بيت نبيه (ص) .

وأنت ايها الشيخ الفاضل ممن لا يعزب عنه ما ورد من الآثار الصحيحة في أهل البيت كخبرى السفينة ، و « اني تارك فيكم ما ان تمسكتم بـه لن تضلوا بعدي » الحديث وكحديث « كل سبب ونسب منقطع الاسببي ونسبي » . فالحمد لله الذي جعل الشيخ ممن عرف حقهم ، وراعى معنى القرابة فيهم ، وجميع ما أشار به في مطالعته من أمر الصلح المبارك فهو مقبول ، وعلى الرأس محمول ، فلعل الله تعالى يصلح بين المسلمين ، ونحن ممن يحب الصلح ، ويرغب اليه ، ولا يتأخر عنه ، وقد عرفتم ما كان بين والدنا الموحوم وبين (ازدمر باشا) من المحبة والصفا والمودة ، ولمـا توفي والدنا رحمه الله تعالى ، جعلنا عوضه عمنا السيد فخر الدين مطهر والداً لنا ، وهو بركتنا وعمدتنا ، ولا يتم الصلح الا بعد دخوله أيضاً معنا في الصلح أيضاً ، وهو مثابر على ذلك ،

راض به ، فاسعوا بينه وبين حضرة الوزير في الصلح أيضاً ، ليكون الصلح تاماً ان شاء الله تعالى ، وتنحقن بذلك دماء المسلمين .

وقد جهزنا لإتمام هذا الأمر وزيرنا السيد محمد العياني الى حضرة الوزير أدام الله نعمته في هذا المعنى ، ليذكر لحضرته بعض الأمور مشافهة ، فان الكتب لا تفي بذلك ، والله تعالى يختار لنا وللمسلمين ما فيه الخير والخيرة ، إن شاء الله تعالى والسلام ، حرر ذلك في ثاني عشر ذي القعدة الحرام في سنة ٩٧٧ .

وجهز وزيره السيد محمد بن الحسن العياني ، وياقوت الحبشي النقاره زن ، إلى حضرة الوزير ، ومعهما مكتوب من عنده يتضمن طلب الصلح ، كتبه الى حضرة الوزير صورته :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على خلقه محمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين .

المقام الكريم العالي،والجناب المعظم السامي ، الأعظمي الاكرمي الافخمي الأمجدي الاسعدي الا وحدي ، من ارتقى من المفاخر اسماها ، وتسلم من صهوة الوزارة اسناها، وزير سلطان الاسلام والمسلمين ، نافذ الأوامر والأحكام في العالمين ، حضرة الوزير سنان باشا عظم الله شأنه ، ورفع قدره ومكانه ، نهـــدي الى حضرته العلية ، وسدته السنية ، اسنى السلام ، وازلف التحية والاكرام والاعظام .

والذي ننهى الى علومه العالية انه صدر الى حضوره الشريف السيد محمد ابن الحسن العياني ، ليؤدي بين يدي تلـــك الحضرة العلية ما أودع من الحديث ، ريشافهها بـــه ، ويأتي بجواب ذلك ، ونحن منتظرون لما يرد به من تلقاء تلك الحضرة ، ولا يخفى على علومها العالية أن أهل الهمم السامية ، وأصحاب المراتب العاليــة ، يـــدأبون في اصلاح البلاد والعباد ، ويرغبون الأمة المحمدية فيما كان لها فيه صلاح وسداد ، في

أمر المعاش والمعاد ، وليس بعازب عنكم ما ورد في صحيح مسلم : « لزوال الدنيا أهون على الله تعالى من قتل رجل مسلم » . وفي « الآثار » : « لحقن ألف دم محلل أهون من سفك دم محرم »وفي علمكم الشريف أمثال ذلك كثير، والله تعالى يصلح أحوالنا أجمعين ، والسلام على السدة العاليـــة ، ورحمة الله وبركاته ؛ حرر ذلك محمد بن شمس الدين ، في ثاني عشر ذي القعدة الحرام ، سنة سبع وسبعين وتسعمائة

فورد الرسولان المذكوران إلى محطة حضرة الوزير ، ومعهما من خفرهما ، إلى أن وصلا الى المخيم الكريم ، وهـــو (علي جلبي لكلك) و (حسن الترجمان) من جماعة حسن باشا المحاصر لقلعة كوكبان ، وكان وصولهما الى محطة حضرة الوزير في ثالث عشر شهر ذي القعدة ، فسلما مكتوب القاضي محمد الموقع اليه سراً ، واستأذن لهما على حضرة الوزير ، وكان الوزير مترقباً في الباطن وصول أحد من جانب محمد بن شمس الدين لطلب الصلح ، ومثابراً على ذلك ، غير انه لا يظهر ذلك ، بـــل يظهر الشمم والاستغناء ، وباطنه خلاف ذلك ، فعوّق الواردين اليه عن الدخول عليه أياماً ، ثم أذن لهما في الدخول بعد أن يئسا من السلامة ، فأكرمهما ، وباسطهما ، وألان لهما القول ، وألبسهما من الخلع السراسر ، وأضافهما وأمرهما بالانصراف ، بعد أن أخذ مكتوب محمد بن شمس الدين،ولم يقرأه بحضورهما ، وأرسلهما الى دار الضيافة، ثم استدعاهما ليلاً ، وحادثهما وباسطهما ، فعرضا عليه ان محمد بن شمس الدين أرسلهما ليطلبا له من مراحم حضرة الوزير العفو والصلح ، وأن يسألاه الامان على نفسه وأمواله وأولاده ،وانه داخل في طاعة السلطنةالشريفة محب لمحبها، عدو لعدوها، وانه يتضرع فيإعطاء الامان لعمه مطهرأيضاً، وانه مستغفر عما صدر منه ، داخل الطاعة ، محب لمحبي السلطنة الشريفة ، معـــاد لعدوها ، فأضمر لهما البشر ، وقبل ما التمسا منه ، وشرط أن يعطي محمـــد بن شمس الدين رهينة ، إما ولده أو أخاه، يكون مقره في صنعاء، على عادة أهلتلك البلاد من أخذ الرهائن ، فقبل ذلك ، وحصل لجميع الفئتينبذلك غاية السرور

والانشراح ، فأرسل حضرة الوزير معهما من وصل الى محمد بن شمس الدين ، ويحلفه على المصحف ، أن لا يخـــون ، وانه صادق ظاهراً وباطناً للسلطنة الشريفة ، ويأخذ منه الرهن ، وعين لذلك القاضي محمد الموقع ، فتوجه معهما اليه ، وكان توجههم في ثاني عشر ذي القعدة ، فلما وصل إليه القـــاضي محمد الموقع مع رسوله فرح بوصوله كثيراً ، وعظمه وأكرمه ، وعقد بينهما عقد الهدنة ، وكتب كتابا مطنطناً ، وحلف له محمد بن شمس الدين على المصحف الشريف ، وسلم إليه أخاه السيد عبد القدوس رهينة ، فارتحل بأهله وعياله وأولاده الى صنعاء ، واستمر رهينة هناك ، وقدّم محمد بن شمس الدين إلى حضرة الوزير من الطعام والمأكولات والحبوب شيئاً كثيرا ، ملأ به الوطاق وتوسعت به العسكر المنصور ، بعد حصول القحط العظيم في المحطة، ووصول العليقة بعشرين محلقاً ، ولله الحمد على هذا الصلح المبارك .

وأنعم حضرة الوزير على محمد بن شمس الدين باللواء السلطاني ، وكتب له براءة سلطانية ، على لسان السلطنة الشريفة ، رقمها على ما عنده من الأوراق التي أرسلت اليه من الباب العالي ، المشمولة بالطغراء الشريف السلطاني ، على البياض ، ليكتب فيها حضرة الوزير ما أراد من الأمور اللازمة في سفره الميمون إلى بلاد اليمن وصورة ما كتبه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد الله فاتـــح القلوب ، وكاشف الكروب ، وغافر الذنوب ، الذى خاطب من أخطأ وحرّف ، إذا تاب وفزع من جرمه وتخوف : (عفا الله عمـــا سلف) والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، مصلح أحوال الأمة ، الكاشف لكل كربة وغمة ، المرسل إلى كافة العالمين رحمة المأمور بوفاء العهود وتأييدها، المنزل عليه : (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) وعلى آله وأصحابه المهتدين بهداية الله وارشاده، الباذلين أنفسهم في تأمين عباده وتعمير بلاده ، نحمده على أن أدخلنا في عداد من خاطبه بشريف خطاب : (انا جعلناك خليفة في الأرض) ووفقنا لإشادة الدين ، واحياء السنة والفرض ، من الجهاد في سبيله إلى يوم العرض ، واسعدنا

بخدمة الحرمين الشريفين مكة ويثرب ، وأطاع لنا أكثر بقاع أهل الأرض من المشرق إلى المغرب ، وملكنا تخوت الروم والعراقيين والعرب والعجم ، وجعل من مماليكنا ملوك مصر والشام والعراق والكرج والترك والديلم ، وأيد عساكرنا بالنصر المبين ، والفتح العظيم المتين ، فحيث سلكوا ملكوا ، وأين حلوا سفكوا وفتكوا ، وأيان توجهوا إلى الأعداء غلبوا وأذلوا وأهلكوا ، ونشكره على أن خصنا بالرأفة واللطف والاحسان ، كما جعل فينا القهر لمن ظهر منه الطغيان والعصيان ، وحبب الينا تمهيد العدل الذي به العمران ، وأوجب على همتنا العلية دفع الظلم والجور والعدوان .

وبعد : فلما اتصل بمسامعنا الشريفة ، وذكر في أعتاب سدتنا العالية المنيفة ، ما حصل في أرض اليمن في العناد وخروج بعض أهل الجبال عن سلوك الرشاد ، الى البغي والفساد ، واظهار العصيان بعد الطاعة ، واخافة البلاد والعباد ، خصوصاً ممن كان هو ووالده طول العمر الى أن مات داخلاً في طاعة والدنا السلطان السعيد الشهيد ، المالك الملك المظفر ، (سليمان خان) سقى الله عهده صوب الرحمة والرضوان ، فلما آل الملك الى قبضة اقتدارنا الشريف ، وورثنا ملك ممالك الأرض بتقدير الله الكريم اللطيف ، لم يسلك أبناء هؤلاء مسلك آبائهم من الطاعة ، وخلعوا أيديهم من الجماعة ، وقابلوا أوامرنا الشريفة بالاضاعة ، وحاربوا عساكرنا المنصورة بتلك الديار ، وخرجوا عن طاعة الله ورسوله وأولى الأمر ، ونفروا عن الدين الحنفي أشد نفار ، فوجب على ذمة همتنا العالية ، قمع أهل الفساد ، وردع الفئة العاصية ، وتأمين البرايا ، وتطمين الرعايا الذين هم ودائع الله تعالى بايدينا ، ودفع الظلم عنهم وترفيههم في ظل دولتنا الشريفة ، وادخالهم في ظلال معدلتنا الوريفة ، فبرز أمرنا الشريف المطاع ، وحكمنا المنيف النافذ في الأقطار والبقاع ، الى وزيرنا المكرم ، ومشيرنا المفخم ، الدستور المعظم ، مدبر مصالح الأمم ، المجاهد في سبيل الله ، القائم لاعلاء كلمة الله ، متمم مهام الأنام بفكره الثاقب ، مصلح أمور الجمهور برأيه الصائب ، المخصوص بصنوف عوارف الملك المنان (سنان)

دامت معدلته ، وزهت سريرته ، فعيناه سردارا لجندنا المنصور ، وامددناه بعساكرنا المؤيد بالظفر والحبور ، والزمناه باصلاح ما فسد من الأمور بأرض اليمن ، واطفاء نيران حدثت بها من المحن والفتن ، فلما وصلت ركائب وزيرنا المستشار ، إلى نواحي تلك الديار ، بادر لمقاومته محمد بن شمس الدين ، وصار ينهزم من سطوات عساكرنا المنصورين ، إلى أن حصروه في جبل كوكبان ، وضيقوا عليه كل مكان ، فخشي اطراف السنان ، وطلب الأمان ، وتبين ان عجزه قد بان ، واسترجع الى الله الكريم وتاب ، وبذل الطاعة لدولتنا القاهرة وأناب ، ولاذ بوزيرنا المومى اليه ، واستشفع به الى بابنا الشريف ، ورجا أن ينال منا ما نال والده من العز والتشريف ، فلما علم وزيرنا حقيقة حاله ، وتحقق عنده رجوعه عن غيه وضلاله ، أخذ عليه المواثيق والعهود ، واشترط عليه الشروط وحد عليه الحدود ، وكان من جملة ما اشترط عليه تسليم احد اخوته رهينة عندنا بقصر صنعاء المحروس ، ويكون أكبر اخوته وهو عبد القدوس ، يقيم بها مجللا محترما ، يتداول مع أخيه عبد الله ، على ما يختاره اخوهما محمد ويراه ، وعلى ان يكون لنا (قلعة العروس) وما يتصل بها من البلاد ، في مقابلة ما ينعم به عليه من اللواء الذي يتشرف به بين العباد ، وعلى أن يكون معاديا من عادانا ، مواليا من والانا ، مسالما من سالمنا ، محارباً من حاربنا ، واذا فر اليه احد من عساكرنا اعاده الينا ، وان لا يدخل هو ولا اخوته واتباعه في موالاة مطهر ، لا سرا ولا علانية ، ما دام على المخالفة والفجور .

ولما عرض علينا وزيرنا هذه المعاهدة والمهادنة ، على الوجه المشروح ، نفذناه وارتضيناه ، وعينا للسيد محمد بن شمس الدين ما كان لوالده من الجهات ، وهي .جبل النيس ، وبلاد سمات ، والطويلة ، وبيت العز ، ورتبنا علوفته في كل عام ستمائة الف عثماني ، من احساننا التام ، وانعامنا العام ، والزمناه بالاستمرار على ما كان عليه والده من الطاعة ، والانقياد لدولتنا الشريفة ، وامرنا بالعمل بهذا المقال ، وان يتلقى بالقبول والامتثال ، من غير عدول عن لفظه ولا خروج عن معناه ، وعلامتنا الشريفة اعلاه حجة ناطقة بفحواه ،

تحريراً في عاشر ذي الحجة الحرام، آخر شهور سنة سبع وسبعين وتسع مائة

ثم وصل عبد القدوس أخو محمد بن شمس الدين، الى ملاقاة حضرة الوزير، فألبسه خلعة سنية، وقام بواجبه، وجهزه الى صنعاء ليقيم بهـا، وانتظم الحال، وزال الإشكال، وكفوا الحرب والقتال، ولله الحمد على سكون الفتن، وعلى انتظام أحوال مملكة اليمن، ورفع الجور والمحن، انه كريم رحيم بالعباد، بَرٌ جواد .



الفصل السادس والخمسون

في تضرع مطهر الى حضرة الوزير في طلب الصلح والانقياد، والدخول في الطاعة واظهار التوبة وترك العناد ، ومقابلة سؤاله بالقبول، بعد تكرار السؤال في ذلك المسؤول

لما استقر صلح محمد بن شمس الدين مع حضرة الوزير ، واستقر ذلك على الوجه الجميل أحسن تقرير، وتمت المواخاة ، وعمت المهادنة والمهاداة، وحصلت المواتاة ، وطابت القلوب ، واستراحت الجنُوب ، وهبّت بالرغبـــاء الشمال والجَنوب ، اشتغل خاطر مطهر واشتعل ، والتهبت أحشاؤه بلواعج الخوف والفشل ، وعرف أنه مأخوذ لا محالة ، وانه نزح ما عنده من أنواع الحيل والبسالة ، فطرق باب الصلح مرارا ، وأظهر عجزاً وتوبة واعتذارا ، وكان حضرة الوزير لا يجيبه على سؤاله ، لعدم اعتماده على مقاله ، لما تكرر عنده من مكره وخدعه واحتياله ، فكان مشابهاً في رداءة حاله ، وعدم الاعتماد على أقواله، لذلك الكذاب الذي كان يطلع على سطـــح داره ، ويصيح بأعلى صوته : يا مسلمين الحريق الحريق في داري يرحمكم الله تعالى!!. فيسعى اليه كل أحد ، إما بقربة ماء ، أو معول حديد ، وغير ذلك ليطفئوا عنه النار ، ويهدموا ما احترق من الدار ، فلا يجدون شيئاً ، فيرجعون وقد ندموا على قيامهم من فراشهم ، وهم يتجارون في الطرقات على الأحجار والأوحال ،

وتكرر منه ومنهم ذلك ، فعرفوه بالكذب ، واشتهر بينهم كذبه ، فقدر الله تعالى بوقوع الحريق في داره ، ليلة من الليالي ، فصعد الى السطح ، وصار يصيح بأعلى صوته : الحريق الحريق هذه المرة لا كلام فيه ! فلا يغيثه أحد، بل يهزأ الناس بكلامه ، ويطنزون عليه ، فلا زال يصيح حتى أدركته النار فاحترق ، فلهذا منع العقلاء من ان يعود احد لسانـــه الكذب ، لئلا يصير ذلك عادة ، فلا يصدقه أحد ، وإن صدق ، فلما تكرر سؤال مطهر في الصلح ولم يجبه الوزير الى سؤاله ،تشبث بأذيال ابن اخيه محمد بن شمس الدين ، وأرسل قاصداً اليه يستحثه في ذلك ، فأرسل محمد قاصداً مع قاصد مطهر الى حضرة الوزير ، يتضرع اليه في مصالحة عمه مطهر ، وإجابته الى ما سأل فيه ، وقبول توبته ، ودخوله في الطاعة السلطانية ، وبذل الأمن له على نفسه وماله وأولاده وبلاده ، وأن يكون من جملة رعايا السلطنة الشريفة ، وأن تكون الخطبة والسكة باسم حضرة السلطان الاعظم ، نصره الله تعالى .

وكان محمد بن شمس الدين أرسل لاتمام هذا الصلح قريبه ونسيبه ، السيد محمد بن الحسن العياني ، بكتاب منـــه الى حضرة الوزير ، والسيد محمد بن الحسن المشار اليه رجل من أهل الكمال واللطف ، وحسن الأداء ، وبشاشة الوجه ، والأصالة والعراقة .

صورة الكتاب الذي جاء به من عند محمد بن شمس الدين :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، والسلام التام الأفيح، الذي لم يزل يعبق نسيمه الطيب وينفح ، على المقـــام الكريم ، العالي الأجلى الأكرمي الأفخمي الأعظمي الأمجدي الأوحدي الذخرى ، أمير الأمراء الأكابر ، كبير الوزراء ذوي المكارم والمفاخر ، من ارتقى من المعالي أعلاها ، وتسنم من الوزارة سنامها وأسناها ، أمين سلطان الاسلام والمسلمين في الأقطار ، القائم بصلاح الأمة في كافة الأمصار ، المعان من الله المستعان ، الوزير المعظم سنان ، زاد الله رفعته وجلالته ، وألهمه حسن النظر وعدالته ، والذي ينهي إلى سدتـــه

السنية ، وحضرته الشريفة العلية ، صدور هذه المطالعة ، معرفة خواطره الخطيرة ، وضمائره المشرقة المنيرة ، ان الوالد فخر الدين مطهر قد استشفع بمحبكم اليكم في قبول عذره عما مضى من الهفوات ، فان الله تعالى يعفو عن السيئات ، وقد طابت نفسه بما يحققه لكم السيد محمد بن الحسن العياني ، من رفع ناموس السلطنة الشريفة العثمانية ، والدخول في طاعتها المنيفة، وقد ورد الى محبكم كتاب من السيد الوالد المشار اليه ، فسح الله لنا في مدته ، وهو مجهز صحبة السيد محمد المشار اليه ، لتحيط به العلوم الشريفة ، ولا شك أن حضرتكم الشريفة ، تحب صلاح أمور المسلمين ، كما هو دأب أهل المراتب العالية ، والهمم السامية الساعية في اصلاح الدنيا والدين ، والذي يتشبث به الوالد مطهر حفظه الله تعالى إجراء على القواعد السابقة بينه وبين الباشوات المتقدمين ، فانه وفى بها ، حتى وقع النقض من جهة رضوان باشا ، فوقع في رعاع الناس وغوغائهم ما وقع ، مع لزومه الأدب ، والدفع عن نفسه لا غير فإذا أعيدت تلك القواعد عاد الأمن على ما كان من الصلاح ، وارتفع النزاع والوقاح ، وكلنا كما علم الله تعالى نبلغ الجهد في صلاح المسلمين ، واطفاء لهب الفتنة ، وإخماد نارها إن شاء الله تعالى ، والله تعالى المسؤول بحق القرآن ، وحرمة الرسول ﷺ أن يجمع القلوب على ما يرضاه ، وان يطفىء نار الفتنة ببرد لطفه ورضاه، والسلام الأتم، والدعاء الأعم يخص المجلس الشريف، ورحمة الله وبركاته ، حرر ذلك في العشرين من شهر ذى الحجة الحرام ، آخر شهور سنة سبع وسبعين وتسعمائة .

فلما أحاط حضرة الوزير علما بهذا المكتوب ، وبمكتوب مطهر ، استشار من حوله من كبراء العسكر ، وامراء المعشر ، وكانوا قد ملوا القتال ، وسئموا الجلاد والجدال ، ورأوا أن الصلح هو أصلح الأحوال، خصوصاً بعد تكرر السؤال ، وتعدد الضراعة والابتذال ، فكل أشار بالقبول ، ورضي بالصلح على الوجه المسؤول ، فتوثق حضرة الوزير منهم غاية التوثق، وتحقق مرادهم في ذلك غاية التحقق ، فوافقهم على ذلك ، وأرسل إلى مطهر الأمير

المعظم ، والفارس المطهم ، محمود بك صاحب اللواء السلطاني، والأمير المكرم والفاضل المفخم مصطفى بك الرموزى دفتر دار مملكة اليمن ، ليحلفاه على المصحف الكريم ، ويعقدا معه عقد الصلح المبارك ، وكتب معهما كتاباً الى مطهر ، صورته :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله ، وسلام على من اتبع الهدى ، ان أبهى حبر يشرق على صفحات الوجود نوره ، وأزهى زهر يعطر المكنات كامه ونوّره ، حمد الله الذي وفق لسبيل هدايته من أحب من أهل الرشاد ، وأبعده ، حيث اختاره وارتضاه ، من سبل الغي والعناد ، والصلاة والسلام على أجل نبيّ سطعت شموس رسالته فنورت أرجاء الوجود، وبزغت أقمار هدايتـــه فعمرت بالعدل كل موجود ، وعلى آله وأصحابه هداة الأنام ، ومصابيح الظلام ، ونجوم الهدى للاقتداء عن الغواية والآثام .

أما بعد : فلما طرقتم باب الصلح بكتابكم الباهر ، وتكررت رسلكم في ذلك بالكلام الزاهر ، ورجعتم عما نسب اليكم من الخلاف ، وعدتم الى طلب المؤانسة والائتلاف ، ودخـــل في عهدتكم ولد أخيكم السيد محمد بن شمس الدين ، وأظهرتم الطاعة لسلطان السلاطين ، قابلنا ذلك بالقبول ، وبذلنـــا لكم المطلوب والمأمول ،وجهزنا اليكم الأمير الكبيرين ، المعظمين ، محمود بك، ومصطفى بك أميري اللواء السلطاني ، وصاحبي السنجق الشريف الخاقاني ، ليحلفاكم على المصحف الشريف ، ويعقدا معكم عقد العهد المبارك اللطيف ، على أن تكون الخطبة والسكةفي سائر قطر اليمن ، لحضرة الخنكار الأعظم، نصره الله تعالى ، وخلد ملكه الشريف ، ومد ظله السابغ الوريف ، وان جميع ما افتتحته امراؤه السابقين ؟امن البلاد ،يعود الى مملكته الشريفة كما كان سابقاً ، وان يكون ثلاثون نفراً من الرتبة مقيمين في قلعةصعدا ، وان تكون صعدا لكم، على أن تسلمو خراجها الى وكلاء السلطنة الشريفة في كل قسط ، على انه متى تأخر قسط واحد عن الوعد كان المتولي عليها منخلعاً ، وليس له عليها ولاية من بعد ، وان لنا الطويلة وما اليها من البلاد ، كذلك

بلاد الظاهر وعمران ونواحيها ، وجميع ما كان سابقاً في يد ولاة السلطنة الشريفة يعاد الينا ، وان تطلقوا من عندكم من الأمراء المحبوسين ، وأما حصن حب ومن تغلب عليه فالأمر بيننا وبين من فيه من المخالفين ، على ما يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ، لكنا نشترط عليكم عدم مساعدة من فيه ، وعدم مكاتباته وموالاته ، وسيف السلطان طويل ، وسيصبح مأخوذاً عما قيل ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ، حرر ذلك في خامس عشر ذى الحجة الحرام ، سنة سبع وسبعين وتسعمائة .

فلما وصل الأميران الى مطهر فرح بوصولهما ، وخرج الى لقائهما واستقبلهما الى خارج الحصن ، وأكرمهما وبالغ في اكرامهما ، وأضافهما ، وقدم اليهما من التحف ، وأكرم خدامهما وأحسن اليهم ، واعتذر بانواع من الاعتذار عما سبق منه في أيام الفتنة والمحاربة ، وعقد الأيمان ان ذلك جميعه بدون أمره ، وبدون رأيه ومشورته ، فقبلا منه ذلك الاعتذار ، ورضيا منه بالاعتراف بالانكار .

أقبل معاذير من يأتيك معتذراً	ان برّ عندك فيما قال أو فجرا
فقد أجلك من يرضيك ظاهره	وقد اطاعك من يعصيك مستترا

فجمع أقاربه وبنيه ، وخدامه وذويه ، واحضر الأميرين ومن معهما ، ومد لهما سماطا كبيراً ، ثم أحضر المصحف الشريف ، فحلفه الأميران المذكوران على ما تضمنه مكتوب حضرة الوزير ، فحلف لهما بحضور الحاضرين ، ولبس الخلعة الشريفة السلطانية ، فوقع الوفاق ، وحصل الاتفاق ، وارتفع الشقاق ، وزال النفاق ، ورجع الاميران الى حضرة الوزير ، وأخبراه بما وقع بالنقير والقطمير ، وحصل من الجانبين السرور والفرح ، وزال بحمد الله تعالى كل تعب وترح ، والحمد لله رب العالمين .

الفصل السابع والخمسون

في رجوع حضرة الوزير الى صنعاء، وذكر وصول بهرام باشا وما وقع من الحروب في ذلك الاثناء

اعلم انه لما تم عقد الصلح مع محمد بن شمس الدين، وعمه المطهر، رجع حضرة الوزير الى صنعاء مع العسكر، واستقر به أوطاقه المنصور، وشرع في إرسال الجيوش إلى الأطراف لإصلاح الأمور، وكان (البكلربكي) الجديد الذي ولاه السلطان -نصره الله تعالى- مملكة اليمن، عوضاً عن حسن باشا، قد وصل الى زبيد أوائل شهر ذي الحجة، وهو أمير الأمراء العظام، نافذ الأوامر والأحكام، مستخدم أرباب السيوف والاقلام، الباشا المعظم، بهرام، لا زال مؤيداً بجيوش الملائكة الكرام، وهو شاب كامل، له كمالات وفضائل، مع حسن الرأي والتدبير، والسمت الحسن والعقل الكثير، والده المرحوم مصطفى باشا، وشهرته (قره شاهين) أحد بكلربكية اليمن، وأخوه رضوان باشا أطال الله تعالى بقاه، وولي اليمن أيضاً، وقد تقدم ذكرهما سابقاً.

ولما ولي بهرام باشا مملكة اليمن، وأراد التوجه اليها من مصر، كان متوليها اسكندر باشا الجركسي، صاحب ديار بكر، ووان سابقاً، ولم يعتن بارسال بهرام باشا، ولا جهز معه عسكراً كما ينبغي، بل لفق له نحو ستمائة عسكري، كتبهم في مصر ممن لا سلاح له، ولا قوة له، وأعطاهم نفقتهم،

إلى أن يصلوا الى زبيد فقط، فطال مكثهم في الطريق، وأكلوا كل ما معهم، وباعوا أثوابهم ، وما وصلوا الى زبيد إلا وهم عرايا جياع فقراء ، ضعفاء عن كل شيء ، فتحير بهرام باشا في ذلك ، ولم يجد بزبيد من الاموال السلطانية ما يصرفه على العسكر ، فتوجه بهم الى تعز ، وكان واليها الأمير (شيخ علي) أحد السناجق الذين خلصوا من كوكبان ، كما تقدم بيانه ، وكان حضرة الوزير أنعم عليه وقوّاه ، وولاه سنجق تعز ، فلما وصل اليه بهرام باشا قابله ، واستقبله وجمع له ممن كان معه من عسكر اليمن نحو ثمانمائة فارس ، وجمع أيضاً من المشاة نحو سبعمائة مقاتل ، ببنادقهم وسيوفهم ، فلما سمعت بهم عصاة العرب تألبت وجمعت واجتمعت القبائل في نقيل أحمر ، واجتمع عسكر بهرام ومن معه في القاعدة فلما فهمت العربان ضعف الأتراك ، وتخيل لهم ذلك بمعكوس الادراك ، نزلوا من الجبل للقتال ، وظهروا قاصدين للنزال ، فبرزت اليهم الترك ، على خيول بلق وكمت وحلك ، تجري بهم في بحر الحرب كأنها الفلك ، وصار بهرام باشا يشجعهم ويستميلهم ، ويقوي قلوبهم على العصاة ويميلهم ، إلى أن حمي الوطيس ، وظهر الدسيس ، وبذل الروح النفيس ، واشتبك الخميس في الخميس ، فنهض بهرام باشا إلى السيوف البواتر ، بعسكره الحاضر ، ولم يتمهل لانتظار باقي العساكر ، وقد بلغت الروح الحناجر ، وغرزت في الصدور الخناجر ، والتحم القتال ، واشتبك النزال ، وزحف الناس وحضر الباس ، وعلت السيوف من الدماء ونهلت، وغرست أغصان الرماح في أجساد الأعداء فأثمرت الرؤوس وحملت :

وحوّمتِ الطيرُ الخماص خواطفا	رؤس العدى ، والموت يهوى عقابُهُ
وقد شرقت رزق الأسنة بالقنا	وانكر حد المشرفيّ قرابه
فكم أمرد خط الحسام عذاره	وكم اشيب سود الدماء خضابه
وقد ملأ الميدان أشلاؤهم وقد	تقاسمها أطياره وذئابه
جهاد ، بأمر الله في نصر دينه	وفي طاعة الله الكريم احتسابه

وتثلمت الصفاح ، وتحطمت الرماح ، وامتد الكفاح ، من أول الصباح إلى الرواح ، فلما اغمد الشمس سيف شعاعه المسلول ، ورد صارمه المصقول إلى غمد الأفول ، انهزم جيش العدو المخذول ، وهو مكسور مفلول ، ودخل تحت ذيل الليل ، فأجاره بارخاء ستر الظلام عليه عن عيون فوارس الخيل ، واكحل أجفانهم بكحل الدجا ، فسلم العدو كحيل ، واستمر الجيش المنصور مكانه ، وأوقد لاظهار نعمة النصر والظفر نيرانه ، وعد قتيل الأعداء فأنافوا على مائة وستين قتيلا ، وتشتت بقية السيوف منهم في الجبال فما أغنوا فتيلاً ، ونصبت رؤوس القتلى على أسنة الرماح وصفقت لإرهاب العدو ميلاً ، وأنشد هاتف النصر يمثل تمثيلاً :

قالوا وينظم فارسين بطعنة يوم الهياج ولا تراه كليلا
فأجبتهم لو أن طول قناته ميل إذاً نظم الفوارس ميلا

ثم لما تم الفتح والظفر ، وانهزم العدو وأدبر ، ارتفعت المنهزمة إلى (نقيل أحمر) وتوجه العسكر المنصور في الأثر ، فما أمكنهم العروج في الجبل ، وما تمكنوا من الصعود إلى تلك القلل ، لصعوبة المسلك ووعورة المدخل ، لدحرجة الصخار الكبار عليهم ، ورمي الأحجار من فوق الجبل اليهم ، فخيم حضرة (الباشا بهرام) ونصب أوطـــاقه بذلك المقام ، وأرسل إلى حضرة الوزير عرضاً يذكر فيه ما وقع له من النصر العزيز ، والفتح الغزير فالحمد لله العلي الكبير ، على هذا الخير العظيم والجبر الكثير ، واعتذر له عن الوصول الى بين يديه ، وذكر له تفصيل أحواله ، وما جرى عليه ، وطلب من حضرة الوزير عسكراً يمـده به للظفر على من بقي من الأعداء ، ليقطع جاذرتهم من وجه الأرض ، ولا يبقى لهم رأساً ولا يداً ، فلما وصل رسوله بكتابه الى حضرة الوزير ، سر بذلك وسرى عنه ما يجده من اشتغال الفكر بالتهائم وأعمالها ، وحمد الله تعالى على احسانه وإمداده ، وشكره على فضله واسعاده ، وجهز إلى بهرام باشا خلعاً سنية فاخرة ، وتلطف معه وطيب

خاطره ؛ وعين له من الأمراء الشجعان ، أهل المعرفة والخبرة بمحاربات أهل الجبال ، وحيلهم ومكرهم ، وهم الأمير برويز الفارس ، البطل الشجاع ، وأحمد بك سنجق بلاد رداع ، وعبدي بك المشهور بشجاعته في تلك البقاع، وجعل عليهم سرداراً الأمير المعظم محمود بك ، فاجتمعوا هم وعسكرهم ، ولفيفهم ، ووصلوا إلى ديوان حضرة الوزير ، فأكرمهم وحباهم ، واخلع عليهم وأعطاهم ، وقوي جأشهم ، ووسع معاشهم ، وزاد انعاشهم، وتوجهوا من عنده في عز وكرامة ، مصحوبين باليمن والبركة والسلامة .

فلما وصلوا إلى قرب (نقيل أحمر) وجدوها مشحونة بالعصاة ، مملوءة بالطغاة والبغاة ، وما وجدوا في أنفسم قوة لازاحتهم عن الطريق، لوعورتها وصعوبتهـــا وكثرة المضيق ، فأقاموا هناك ؛ وأرسلوا إلى حضرة الوزير يستزيدونه عسكراً يمدهم به على دفع هذا العدو الكثير ، والجماء الغفير ، فلو فرض أن طائفة الأعداء ربطت أيديهم ، وأمر العسكر السلطاني بضرب أعناقهم لعجزوا عن افنائهم ، فكيف وهم بالأسلحة المتنوعة ، والبنـــادق والبارود ، وما خذلهم إلا الله عز وجل ، وإلا فليس في قدرة بشر قهر هؤلاء وتفريقهم ، وتشتيتهم وتمزيقهم .



الفصل الثامن والخمسون

في تجهيز حضرة الوزير عسكراً مع حسن باشا لامداد الامراء الذين توجهوا لنصرة حضرة بهرام باشا وانهزام عسكر العدو ، واجتماع العساكر على بهرام باشا ، وأخذ الرهائن من العربان :

لما وصل إلى حضرة الوزير عرض محمود بك وبقية الامراء الذين أرسلهم لإمداد بهرام باشا، يتضمن عدم وصولهم إلى بهرام باشا لكثرة العربان الذين لا يحصيهم إلا الله تعالى ، في (نقل سمار) وطلبهم عسكراً آخر يتقوّون به على الولوج من (نقل سمار) تكدر حضرة الوزير منذلك، وأرسل يعاتبهم على عدم النهوض بهذا الامر ، وكتب يستحقر لهم كثرة العربان وانهم لخيانتهم غلب عليهم الجبن والخور ، فان الخائن خائف ، واخذ يشجعهم ، ويقوى قلوبهم ، وارسل اليهم المدد جماعة من خيار شجعان مماليكه ، ولف عليهم لفيفاً من اطراف العسكر ، وجعل عليهم (حسن باشا) سردارا ، وجهزهم ووعدهم واوعدهم ، واعانهم وامدهم ، فتوجهوا وهم يهدون الارض هداً ، ويزبدون لملاقاة العدو زبدا ، ويشدون عليهم شداً ، فلما وصلوا الى الامراء هجموا على العربان هجمة واحدة ، وتواردوا عليهم كالابل الظماء الواردة، وصدقوا اللقاء بصوارم يبرين ، وقواضب يفرين ، وشموس سيوف للطلا يفرين ، وبالردى يغرين ، من كل معتقـــل بسنانه ، ملتثم بعثير حصانـــه ، معتنق لعطف مرانه ، الى ان ازاحوا الاعداء على كثرتهم عن مكانهم ، واحرقوهم قبل نار جهنم بلهب نيرانهم ، ودفعوهم بالمدافع الى اقصى غاية خذلانهم،وحاق

بهم سوء ما جلبوه الى انفسهم بسبب عصيانهم، فتمزقوا ايدى سبا ، وتفرقوا شذر مذر ة لا يعلم لهم نبأ ، واستمر العسكر المنصور منحدرا من نقل احمر محفوفاً بالنصر والظفر ، والسكينة ، إلى أن نجم على محطة حضرة بهرام باشا فتلاقى العسكران بالفرح والسرور ، والتقى الأمراء والبكلربكية بالأنس والحبور ، وحمدوا الله تعالي على خذلان أهل العصيان ، وانهزام المفسدين من عصاة العربان ، وتكررت الضيافات والأسمطة العظمية ، اظهاراً للفرح بالنصرة على الأعداء ، وبملاقاة الأحباء والأصدقاء ، وأقاموا على ذلك أياماً .

ثم توجهوا إلى (ممالك بعدان) واستدعوا عربان تلك النواحي إلى الطاعة السلطانية ، فشرطوا عليهم اعطاء الرهائن من مشايخ كل قبيلة ، كما هو هو عادة ذلك الاقليم ، وأن تكون الرهائن محبوسة في صنعاء ، فاستمروا على ذلك إلى أن أخذوا الرهائن من نحو مائة قبيلة ، أطاع جميعهم ، ودخلوا تحت الحوزة ، وسلموا الرهائن من شيوخهم المعتمدين فيهم ، ولم يأب اعطاء الرهائن إلا القليل من المتمردين منهم، البعيدين عن الممالك الشريفة السلطانية، وصارت العربان المطيفة والعساكر المنصورة يتخطفونهم ، إلى أن أبعدوا مرماهم ، وذهبوا إلى جبالهم وقلاعهم البعيدة ، وسكنت الفتن في تلك الجهات في الجملة ، وما بقي من أهل العصيان غير (علي بن شرف الدين) المتحصن في (حصن حب) بغاية الوثوق والتحصين ، فتوجهت العساكر المنصورة السلطانية إلى محاصرة ذلك الحصن الحصين ، والله تعالى بيده النصر يؤتيه من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين .

ومن بدائع حكم الله تعالى ان الأقاليم السبعة التي انقسم اليها الربع المسكون من كرة الأرض ، البارز عن صفحة كرة الماء المحيط بالأرض ، منسوب كل اقليم منها إلى كوكب من الكواكب السبعة السيارة ، واقليم اليمن منها منسوب إلى زحل ، وزحل كوكب نحس تأثيره باذن الله تعالى ، وتقديره في الفتنة والشر والقتال ونحو ذلك ، فقل ما تخلو تلك الديار من الفتن ، لذلك التأثير الكوكبي ، الواقع بتقدير الله تعالى ، ذلك تقدير العزيز العليم .

الفصل التاسع والخمسون

في توجه حضرة بهرام باشا ومن معه من العسكر المنصور بأمر حضرة الوزير ، إلى فتح حصن حب، ووصول حضرة الوزير الى ذمار، ليكون قريباً منهم ، وانكسار علي بن شويع وعلي بن الحسين ، ومن معهما من الزيديين ، وهلاك علي بن شرف الدين ، وافتتاح حصن حب بتأييد الله تعالى ونصره وفتحه المبين

لما أطاعت عربان تلـــك النواحي وأخذت رهائنهم إلا من شذ منهم وندر ، وبعد عن القرى والحَضَر ، وبيوت المدر والحجر ، أمر حضرة الوزير لبهرام باشا ومن معه من جيوش الاسلام أن يتوجهوا إلى محاصرة علي بن شرف الدين ، الامام ، المتحصن في حصن حب، ليصبوا عليه البلاء أعظم صب ، ويأخذوا ثأر من استشهد هناك من الأمراء المغدور بهم ، المغفور لهم، رحمهم الله تعالى ، وأنزل على أشلائهم ورفاقهم مطر الرحمة والغفران ارسالاً ، وجعل أرواحهم جوف طير خضر تبيت تحت عرش الرحمن ، وتسرح من الجنة حيث تشاء اكرامـــاً واجلالاً ، فتوجه حضرة بهرام باشا للقيام بهذا المأمور ، وصحب من كان في صحبته من العسكر المنصور ، وحط على حصن حب ، وأحاط ، وضرب عليه الأوطاق المعظم والفسطاط ، ورابط به للجهاد مع أهل الالحاد أشد رباط ، وأرسل الى حضرة الوزير يسأله أن

يكون مخيمه الشريف قريباً منه ، ولا يكون بعيداً ، ليستشيره ، ويستعين به ويقوى بقربه جأشه ، ولا يكون وحيداً فريداً ، فارتحل حضرة الوزير من صنعاء ، وحط في ذمار ، وصار بمرأى ومسمع من محطة العسكر المنصور لقرب الديار ، وقد تقدم وصف قلعة حب ، وصعوبة مسالكها وارتفاعها ، وملامسة كواكب الجوزاء لمناكب بقاعها ويفاعها ، وقصور نحور النجوم عن أطواق اعلا قصورها وقلاعها ، وما عهد أنها أخذت قسراً ، ولا قهرها أحد من الملوك قهراً ، وانما أخذها محمود باشا وغيره بالغدر ، والاحتيال والخديعة والمكر ، ولكن اذا اراد الله أمراً هيأ أسبابه ، وإذ قدر شيئاً أمضاه وفتح بابه .

وكان من جملة الأسباب أن قاضياً رومياً ، وشفلوتاً جبجبياً أسرتهما الزيدية ، وحسبتهما في حصن حب للاستخدام ، كما يفعلون بمن يستأسرونه من الأروام ، وكان محل حبس هؤلاء قريباً من مخزن البارود ، فتفكر القاضي ومن معه في حيلة يتوصل بها الى احتراق البارود ، فرأوا شقاقة في أعلى المخزن ، فأخذوا هرة وربطوا في ذنبها فتيلة طويلة وأوقدوا أطرافها ، ورفعوا الهرة الى شقاقة المخزن ودفعوها الى المخزن ، فطافت بالفتيلة الموقودة على أحمال البارود ، فاشتعل النار ، وأخذ جانباً من القلعة ، ورفعه الى عنان السماء ، وزلزل الجبل جميعه زلزلة هائلة ، وهدم كثيراً من البنيان ، وذهب البارود بأجمعه ،وانقصم بذلك ظهر أهل الحصن ،وعلموا انهم مأخوذون، وشعروا بمن فعل هذا بهم ،فأخذوا القاضي ورفيقيه فأداروا أكتافهم وأرجلهم رباطاً ، وأرادوا بذلك عذابهم ، فاشتطوا وزادوا في ذلك اشتطاطاً ، ودحرجوهم من أعلى الجبل الى أسفله، فتكسروا وتمزقت أشلاؤهم ، فاحتسبوا وتصبروا، وما ترددوا إلا وقد تردّوا بحلل الغفران، وانتقلوا من أسفل الجبل إلى أعلى عليين من طبقات الجنان،فائزين بمرتبة الشهادة والرضوان،حائزين لأعلى مراتب الرضا والرحمة من الله الرحيم الرحمن ، وصادف هذا الخبر السار ، إلى حضرة الوزير المعظم العالى المقدار ، يوم حلول ركابه الشريف في ذمار ،

فحصل له بذلك كال الاستبشار ، وتيقن بحصول الظفر والانتصار ، وترحم على أولئك الشهداء الأبرار ، وعلم أن الجنة لهم ونعم عقبى الدار .

ثم أرســـل حضرة الوزير إلى بكلربكي اليمن بهرام باشا ، ومن معه من العسكر المنصور ، يستحثهم في الاحتياط بحصن حب ، والاحاطة به كيلا يصل إلى أهله البارود من خارج ، فامتثلوا أمره ، وشددوا في الاحاطة بالحصن ، وتنبهوا لذلك ، واحتفظوا .

وكان علي بن شويع وعلي ابن الحسين مكمنين في نواحي رداع ، في عربان عصاة ، وزيدية غواة ، ومعهم أحمال من البارود ، قصدوا أن يوصلوها إلى علي بن شرف الدين ، في حصن حب ، ليكون عوضاً عما احترق من البارود عنده ، فشعر بذلك حضرة الوزير المعظم ، فأرسل اليه من خواص مماليكه، المعروفين بالشجاعة والفروسية ، علي صوباشي وأحمد صوباشي ، وكانا فارسين مشهورين بالنجدة والبأس ، والقوة ، سيفهما في الحرب مشهور ، وخصمهما في ميدان الفروسية مقهور مكسور ، فضم اليهما ثلثمائة فارس ، نقاهم تنقية من بين العسكر ،واختارهم اختيارالجوهري نفائس الجوهر ،وقوى بأسهم ،وانتخب لهم حصنهم وأفراسهم ، ورتبهم أحسن ترتيب ، وعلمهم وساسهم ، وجسرهم وشجعهم ،وودعهم وودّعهم ،فساروا يدكون الأرض دكا،ويصكون صم الأصلاد بحوافر الخيل صكا ، وجدوا في الرحيل ، واختلطت الأصوات بالصهيل ، وسالت بأعناق المطي أباطح المسيل، وعمدوا إلى السماء فاستعاروا من أنجمها الأسنة الذبّل ، واقتلعوا الأرض فوهبوا ترابها للقسطل ، واستمروا في عزم مُثار النقع ينوب عن لوائه ، وحزم أمضى من لمع البرق في مضائه ، وبجر كصدر العضْبِ في لمعه وضيائه، ومضوا سابقين، وإلى طرق العليا مسابقين ، وللنصر والظفر مرافقين ، إلى أن طرق الويل في ظلماء الليل علي بن شويع وعلي بن الحسين ، وساق اليهما وإلى من معهما من العصاة داعي الحين ، فزحف العسكر السلطاني زحفاً شديداً ، ونثروا على العدو جندلاً وحديدا ، وسطا بعصاتهم سوط العذاب المصبوب ، ووجبت له الجنوب، وسقطت به القلوب،

فهرب منهم من هرب ، وفات منهم من فاته الطلب ، وصار باقيهم طعمة للسيوف فالسباع ، وانتهب ما معهم من السلاح والكراع ، وذهبوا شذر مذر ، وتفرقوا أيدي سبأ لم يظهر لهم حسٌ ولا خبر ، ورجع العسكر المنصور السلطاني ، تخفق عليهم ألوية العز الخاقاني ، ومعهم الروس المرفوعة على الرماح ، والخيول المنهوبة والسلاح ، وقد فرح المؤمنون بنصر الله ، ودارت الدائرة على أهل الالحاد والغواة ، وانقطعت جادرة الطغاة والبغاة والعصاة ، فحمد الله تعالى حضرة الوزير ، وأطلق بين يدي خالقه لسان العجز والتقصير ، واعترف بنعم الله تعالى وفضله الكثير ، وتضرع إلى الله العلي الكبير ، وتبرأ من حوله وقوته وعلم ان الله على كل شيء قدير .

وكان من اتمام النصر من عند الله العزيز المجيد ، وظهور آيات الفتح لهذا الوزير المعظم السعيد ، واستيعاب ممالك اليمن على يديه بالفتح الجديد ، هلاك علي بن شرف الدين ، وهو في حصنه الحصين ، في محل لا يصل الطـــير إلى مداره ، وينقطع الفكر دون الوصول إلى خيال مزاره ، وقد اتخذ الاكليل مناجماً ، والعيوق منادماً ، والجوزاء نطاقاً ، والجبهة مصادماً ، لكن الله تعالى إذا أراد أمراً هيأ أسبابه ، وإذا قدر شيئاً سهل صعابه ، وكشف جلبابه ، (شعر) :

ولست بعيداً من تناول مطلب عسيراً إذا مـــا يسرته المقادر
وإن لم يصنك الله عما تخافه فلا الحصن منّاعٌ ولا الدرع ساتر

ومحصل هذه القصة ، التي ملأت صدور الاعدام غصة ، أن شفلوتين من خواص علي بن شرف الدين ، كانا في غاية التقرب منه ، والدخول فيه ، بحيث كان يستأمنهما على طعامه وشرابه ، وكان كثير السكر لا يصحو من الشراب ، وكان قد ملأ خدمته لطول الحرب ، واسمهما نُقير ووُبَير ، بالتصغير ، نزل أحدهما إلى حضرة بهرام باشا ، وتوصل اليه وقال له : معي سر فأخلي له بهرام المجلس ، فإذا به يقول: أنا اطعم لكم علي بن شرف الدين

السم ، فماذا يكون لي عليكم ؟ فقال له بهرام باشا : يكون لك عندنا الاجلال والاكرام ، ونعطيك ما نرومه من المناصب العظام ، فقال له : نحن رجلان في خدمة هذا الرجل ، وقد اتفقنا على أن نسمم له ، وهيأنا له سفرجلا مسموماً ، فإذا رآه تناوله منّا وأكله ، فلا يعيش بعد ذلك ، فقال له بهرام باشا : نعطيك الف ذهب ونعطي صاحبك الف ذهب، فقال : ارقبوا الوقت الفلاني ، واهجموا القلعة ، فانكم لا تجدون من يمنعكم عنها ، فكونوا حاضرين في ذلك الوقت ، ولا تغفلوا فيه ، فمضى من عنده ، وطلع إلى الحصن ودخل إلى علي بن شرف الدين ، وهو سكران طافح ، فقال له : ما الذي جئتنا به من أسفل ؟ فأخرج له السفرجلة، فشره اليها في الوقت ، وأكلها كلها فانكب على وجهه ، وخر ميتاً ، وسيق إلى النار وبئس القرار ، ووقع الصراخ في الدار ، ودعوا بالثبور والبوار ، والويل والشنار ، وإذا بالعسكر المنصور قد صعدوا الجبل وكان بأعلى باب الحصن مائتا نفر منهم ، طلبوا الأمان لأنفسهم ، فأعطوا الأمان ، فخرجوا يداً واحدة ، وآمنهم بهرام باشا،فمضوا فارين ، ونجوا بأنفسهم، فدخل العسكر الحصن ، وأحاطوا بما فيه، وأخذوا ما وجدوا به من الخزائن والأموال ، والاسلحة والطعام ، ووجدوا به جميع ما أخذته الزيدية من مدافع المرحوم الأمير خير الدين القبطان ، وتم الفتح ، وكفى الله المؤمنين القتال .

ووصل خبر الفتح الى حضرة الوزير المعظم ، فكان ذلك عنده أجل مغنم ، فحمد الله تعالى على تواتر الآئه ، وتعاقب كرمه ونعمائه.

وكان تاريخ فتح حصن حب في هذه النوبة خامس شهر رجب الفرد ، سنة ثمان وسبعين وتسعمائة .

وكتب لمن طلب الأمان من جماعة علي بن شرف الدين وأمضى لهم تأمين حضرة الباشا بهرام،وسكن روعتهم بعض الاسكان،ومنحهم الأمن والاطمئنان.

وتم الفتح المبارك لجميع مملكة اليمن ، مما كان تحت أمر السلطنة الشريفة العثمانية ، خلد الله نصرها ، بل زاد على ذلك عدة حصون وبلدان ، وقرى وقصبات ، فتحت فتحاً جديداً ، وكان رأي حضرة الوزير في جميع التدابير صوابا سديدا ، وطالعه في المحاربات مع طوائف أهل البغي سعيدا .

ولما سمع مطهر بتفصيل الحال ، وما وقع لأخيه من الخيبة والنكال ، ارتعدت فرائصه ، وتهلكت بالروع قوانصه فاراد توكيد العهود ، وتشييد أساس العقود ، وأرسل يسأل فضل حضرة الوزير أن يجعل عمل صعدا إليه ، ويعول في تسليم محصولها الى الخزانة العامرة السلطانية عليه، وان يعين حضرة الوزير في قلعة صعدا نوبتجية من العسكر المنصور السلطاني، يحفظونها للسلطنة الشريفة ، عمن يتعدى أو يخالف ، ومن لا يدخــــل تحت الطاعة الشريفة السلطانية ولا يخالف، فتحفظ العساكر المنصورة صعدا ، ونواحيها من البلاد ، ويكون خراجها على القدر المعتاد ، على مطهر يسلمها عاما فعاما على المعتاد ، ويحصل بذلك كال الاعتدال ، وتسكن الفتن ويبطل الجدال ، ويتم بذلك الوصلة والاتصال ، فاجابه حضرة الوزير إلى سؤاله ، وبلغه من ذلك المطلوب غاية آماله،وكتب له بمضمون ذلك عهودا ، وأكد به مواثيقاً سابقة وعقودا ، وعين ثلاثين نفراً من النوبتجية ، يقيمون بالنوبة في حصن صعدا ، ويحفظون تلك البقاع واليفاع عن أهل الفساد والاعداء،والزم مطهر بخراج تلك الأراضي الى الديوان الشريف السلطاني ، وأن تكون الخطبة والسكة في تلك الجهات كلها بالاسم الشريف الخاقاني .

ولما تم ما أراد، وبلغ من الفتح الخاقاني غاية المراد، بالجد وعلو الهمة وبذل الاجتهاد ، واسفر سفره الميمون عن بياض الوجه وغاية السداد ، ولم يبق له مأرب في ذلك البلاد ، عزم على العود من مملكة اليمن، مريدا لثم الاعتاب الشريفة السلطانية ، وتقبيل السدة المنيفة الخاقانية ، فشرع في ذلك ، وبالله التوفيق ، ومنه الاعانة في سلوك كل سبيل وطريق .

الفصل الستون

في تسليم حضرة الوزير مملكة اليمن الى البكلربكي المعظم بهرام باشا المكرم وعوده من تلك البلاد ومروره ببلد الله الحرام ، واداء حجة الاسلام، وزيارة سيد الانام ، عليه افضل الصلاة والسلام والاحسان الى أهل الحرمين الشريفين ومن حضر فيهما من الأنام

لما أراد حضرة الوزير البروز من مملكة اليمن ، بعد تمام الفتح الخاقاني ، وتسكين مواد الفتن ، طلب البكلربكي المنصوب من جهة السلطنة الشريفة ، وهو أمير الأمراء الكرام ، ربيب حجر السعادة والاكرام ، مكلم الأقوام بحداد السنة السيوف والأقـــلام ، الأسد الضرغام ، والليث الهمام والباسل المقدام ، الباشا بهرام ، ابن المرحوم المغفور ، المقدس المبرور ، السعيد في الدنيا والآخرة القادم على رحمة ربه الزاخرة الباشا مصطفى ، عرف بقره شاهين ، أسكنه الله تعالى أعلى عليين ، ، وأسعد أولاده وأحفاده أجمعين .

فلما وصل إلى حضرة الوزير ، تلقاه بالبشر الكثير ، ونصحه نصائح مفيدة، وعدد عليه من الرأي والتدبير والفطنة خبايا عديدة ، وأشار عليه في أمر الملك وضبطه ، وحفظ العسكر وربطه ، ما يحتاج اليه ، ويعول في حفظ الممالك عليه ، ونبهه على أمور يجب التنبيه عليها ، وأيقظه لأحوال

يتعين التيقظ لهـا والنظر اليها ، فتلقاها بحسن القبول والاقبال ، وامتثلها
أحسن امتثال ، فسلم اليه حضرة الوزير جميع بلاد اليمن ، سهولها وجبالها ،
وعامرها وطلالها ، ووهودهـا وتلالها ، وبنادرها وسواحلها ، وأعاليها
وأسافلها ، فتسلمها بهرام باشا بصدر منفسح ، وقلب منشرح ، وعيّن فيها
عماله وكشافه ، وولاته وعرافه ، واستعان الله تبارك وتعالى في تحمل هذه
الأثقال ، وضبط تلك التهائم والجبال ، وأظهر فيها بقدر الامكان العدل
والأمان ، والانتصاف ، والعدول عـن الظلم والاعتساف ، وتوكل على الله
الخفي الألطاف ، وأخذ حضرة الوزير في أهبة السفر ، واحضار ما لزمه في
ذلك الوطر ، وخيّر من معه من الجنود والعساكر ، والجيوش الذين هم أسود
كواسر ، بين الرحيل معه والعود إلى القاهرة ، أو الإقامة ببلاد اليمن مع
العلوفة الوافرة ، فمنهم من اختار الرحيل معه ، ومنهم من أقام باليمن حيث
وسعه ، وكان في زيادة من الجوامك وسعة ، وقرر أمرهم ، وأشرح صدرهم ،
وركب البحر في سفائن أعدها ، وجلاب أجدها ، ومدها وأمدها ، ووضع
فيها أثقاله ، وحمل فيها حوائجه وأحمـاله ، وأخر بعض خيله لتصل اليه
بالتواني ، في البرّ مع الركب اليماني ، وشرع شراعه وأقلع قلاعه ، بعد
عيد الفطر ، في رابع شوال ، سنه ثمان وسبعين وتسعمائة ، ووافقته الرياح
نشرا بين يديه ، وأقبل السعد عليـه ، وسعى اليه ، وركب الأغربة وقال:
بسم الله مجراها ومرساها ، فطارت به ولم تعرج على المراسي ومرساها ،
وطوت عباب الباحات في البحر طيّاً، وقطعت المسافات البعيدة قطعاً فرياً،
إلى أن ندخت به إلى بندر جدة المعمورة، وأرست في مراسيها التي هي بالأمن
مغمورة ، وكان نزوله الميمون من سفينته إلى البر المأمون في ثامن عشر
شوال ، فكان أيام سفره جميعها في البحر اثني عشر يوماً ، من بندر المخا إلى
بندر جدة ، غير يوم الدخول والخروج ، وقلّ أن يقع هذا لغيره من ولاة
الأمور وغيرهم ، ووصل معه ستة عشر غراباً فيها بقية العساكر الراجعة ،
وأمراء السناجق والاغوات وغيرهم متتابعة ، وتلقاه بجدة من رؤساء مكة

أعظمهم مقداراً،وأجلهم شأناً واعتباراً، ذو الأصل الأصيل، والعرق الأثيل، والقدر الجليل ، والفعل الجميل ، ناظر المسجد الحرام ،ورئيس العلماء الاعلام، مولانا القاضي حسين بن أبي بكر الحسيني جدد الله سعده وإسعاده،وأخدمه الإجلال والسعادة ، وكان قد علم بوصول حضرة الوزير قبل أن يصل بيوم واحد ، من ساع وصل إليه من القنفدة يبشره به ، فركب من ساعته مصبحاً الى جدة في ليله واحدة،فدخل جدة قبل أن ينزل حضرة الوزير منالسفينة، فطلع إليه إلى السفينة ، ولاقاه أعظم ملاقاة ، وفرح كل منهما بوصول الآخر ولقياه ، وأفرغ عليه خلعة جليلة سنية ، وحلة جميلة خسروانية ، ونزل معه الى البر ، فأنزله مولانا دار السعادة ، بيت مولانا السيد الشريف بجدة، وأنزل الأمراء والسناجق فيما حولها من البيوت ، وأمر مولانا السيد الشريف بعمل سماط عظيم هائل ، وهدة كبيرة لها طائل ، تشتمل على جميع ألوان الأطعمة والمشروبات والحلويات والحلاوات ، والمحمضات ، عملها الوزير شرف الدين أبو القاسم بن قرقماش بأمر سيده ، ومد نحو ألف وخمسمائة صحن، فما فوقها، إلى ألفين ، فجلس حضرة الوزير بنفسه على السماط ، ونادى أمراء السناجق الواصلين في صحبته ، وهم : مصطفى بك بن اياز باشا ، وإبراهيم بك ابن اخته ، والأمير بمي بك ، والأمير حماد بن خبير شيخ عرب الجيزة بمصر ، وسلاق أحمد ، وعلي بك ، وغيرهم من الاغوات ، فجلسوا على السماط وجميع من وصل من العسكر المنصور ، فأكلوا وحملوا ما أرادوا ، ولم يتغير السماط إلى أن قاموا عنه ، وقعد بعدهم أطواف بعد أطواف ، إلى أن رفع السماط فأعطي الباقي للبحرية والكوركجية والفقراء ، وألبس حضرة الوزير قفطاناً للشرفي أبي القاسم . ثم وصل سيدنا ومولانا ربيب حجر السعادة ، ورضيع ثدي العز والشرف والسيادة ، نجل الكماة اللوابس ، وصفوة الليوثالعوابس، المقر الكريم العالي ، والكوكب المضيء المتلالي ، مولانا السيد حسين بن المقام الشريف العالي ، مولانا السيد حسن أدام الله تعالى نصرهما ، وشد بالسعادة والاقبال ازرهما ، ومعه البطل الكرار،مولانا السيد عرار بن عجل بن عرار،

وجميع الترك وأكابر من بني حسن والقواد الكبار ، جاؤا للسلام على حضرة الوزير وتهنئته بالقدوم ، والنصر على العدو المهزوم ، فقدموا عليه ، ووفدوا إليه ، وبلغوه السلام عن سيدنا ومولانا السيد حسن ، وانه أمرهم ان يستمروا في خدمة حضرة الوزير ، والقيام بما يحتاج إليه في البندر من قليل أو كثير ، فقابلهم حضرة الوزير بالتبجيل والاحترام ، وأنواع التعظيم والاكرام ، وألبس مولانا السيد حسين بن حسن ، والسيد عرار خلعاً فاخرة ، وتشريفات باهرة ، ولاطفهما ملاطفات ، وتلطف معهما في الكلمات ، واستمرا بمن معهما في جدة يتفقدان أحوال الوزير بالخدمات ، ويلازمانه في أغلب الأوقات ، إلى أن قضى أوطاره ، وجهز إلى مصر من البحر سفاره ، وارسل في الأغربة أحماله وأثقاله ، وخفف مماليكه ورجاله ، وتكامل بقية عساكره ووصلوا من اليمن وفرق عليهم بعض الجوامك ، واذن لهم في العود إلى الوطن ، فمنهم من لم ينتظر الحج ، وسافر بحراً ، ومنهم من تأخر لقضاء النسك وحاز مثوبة وأجراً ، ووصل بعد أيام حسن باشا البكلربكي السابق بزبيد ، ومعه كيلان بك الدفتردار باليمن سابقاً ، المنفك من أسر مطهر العنيد ، ومحمود بك الدفتردار قبله المتخلص من الأسر أيضاً والتقييد ، وصارا يذكران ما قاسوه في الحبوس ، ومما لاقوه من الشدة والبؤس ، من ذلك الوجه العبوس ، ويتعجب الناس من مقالهما ، وما عانوه من شديد أحوالهما ، وكيف جعل الله لهما الفرج بعد الشدة ، وكيف توالى من كرم الله تعالى البشر واليسر بعد العسر والمهدة ، ولقد صدق الله تعالى ما وعد به من البشر والبشرى: (إن مع العسر يسرا ، ان مع العسر يسرا) .

وقدم على حضرة الوزير لاستقباله من مكة الأفندي الاعظم الأمجد الأكرم ، قاضي حرم الله المعظم ، مولانا محي الدين افندي بن حاجي حسن زاده ، حياه الله تعالى بمنازل الاكرام وزاده ، والامير المعظم ، صاحب البند والعلم ، الأمير قاسم سنجق جدة المعمورة ، المأمور باجراء عين عرفات إلى مكة ، فوجدا من حضرة الوزير اقبالاً عظيما وسناً ضاحكاً بسيما ، ووجهاً

مشرقاً وسيما ، فخلع عليهما خلعتين فاخرتين ، زاهرتين باهرتين ، وأكرم نزلهما ، ورفع محلهما ، وأحسن حضرة الوزير بالاحسان الوافر الكثير إلى الصغير والكبير ، والغني والفقير ، وقرر لكثير من الفقهاء والفقراء من محصول بندر جدة علوفات ، ورقى بعض من له علوفة من الفقهاء والعساكر السلطانية أنواعاً من الترقيات ، وبذل لهم من الانعام والاكرام ، ما لم يبذله قبل ذلك الوزراء والأمراء الكرام .

ثم أخذ في أهبة التوجه إلى بيت الله الحرام ، زاده الله شرفاً وتعظيما ، ومهابة وبرّاً وتكريما ، وكان محرماً بالحج قارنا ، لأنه أفضل عند الامام الأعظم رضي الله عنه ، فأرسل اليه سيدنا ومولانا المقام الشريف العالي ، رافع رايات الكرم والمعالي ، السيد حسن بن أبي نُميّ ، أدام الله تعالى عزهما ونصرهما ، ورفع شأنها الشريف ، وقـدرهما ، باربعمائة جمل لحمل أثقاله ، وبمائة دابة أخرى ما بين الخيل والبغال والرواحل ، واخلى لسكناه مدرسة المرحوم الأشرف السلطان قايتباي ، سقى الله تعالى عهده صوب الرحمة والرضوان ، وأمر باخلاء بيوت كثيرة لأمراء السناجق ، وبقية العسكر المنصور ، فأخليت بيوت كثيرة ، وهيئت لسكناهم ، وبرز حضرة الوزير من جدة بعد العصر من يوم الجمعة ،رابع ذي القعدة الحرام ، سنة ثمان وسبعين وتسعمائة ، ودخل حَدّاً - بالحاء المهملة - صبحاً ، ونزل في رأس العين ، وهيأ الشرفي بو القاسم بن قرقاس سماطاً من النواشف ، قدمه بعض مقدمي السيد الشريف بين يدي الوزير ، فألبسه قفطاناً ، وأكرمه ، وفرق على من معه من تلك الحلويات وغيرها ، وركب بعد صلاة العصر من (حدّا) ومعه مولانا القاضي حسين يسايره ويحادثه ، فلما وصل إلى الموضع الذي يقال له (الشاقة) وصل اليه مقدمة خيل مولانا السيد حسن - أدام الله عزه ونصره ووصل السيد عرار بن عجل ، وقبل يدي حضرة الوزير ، وذكر له وصول مولانا السيد حسن لملاقاته ، فرحّب بهم ، وفرح بوصول مولانا السيد الشريف ، وأظهر السرور بمجيئه اليه ، وإذا بالخيل أقبلت سرباً ، لكنهم وقفوا صفاً

واحداً كبيراً ، نحو الثلثمائة فارس ورجل كثير ، وتقدم من بينهم مولانا السيد حسن ، ومعه السيد عرار ، ومحمد بن يونس ، ونحو الخمسين فارساً من خواصه ، فوقف له حضرة الوزير إلى أن قرب منه ، وتصافحا على ظهور خيلهما وتسالما ، ومشى عـــن يمين حضرة الوزير ، وأخذ يحادثه ويباسطه ، ويتأنس كل منهما بالآخر ، فألبسه حضرة الوزير خلعتين عظيمتين ، أحدهما شيب ، والثانية سراسر ، وقلده سيفاً مذهباً عظيما ، فيه أنواع الفصوص ، واستمرا يتحادثان إلى أن قرب دخول المغرب ، ففارقه مولانا السيد حسن ومن معه ، وأخذوا جهة النخل ، ومال حضرة الوزير إلى جهة الحديبية ، وصلى المغرب ، ثم ركب واستمر هو ومن معه إلى أن جاوز الموضع الذي يقال له المفترق ، ونزل هناك ، ونام هو ومن معه إلى أن أصبح الصبح ، فصلى وركب ، ومعه مولانا السيد حسين المالكي ، إلى أن قربوا من الرّيع ، وإذا بمولانا السيد حسن لحقه مع خيله ورجله ، فلاقاه واستمر يماشيه إلى أن دخل مكة من الشبيكة ، وفارقه مولانا السيد حسن أدام الله تعالى عزه أسفل مكة ، وتوجه إلى منزله ، واستمر حضرة الوزير ومن معه إلى أن نزل في مدرسة الملك الاشرف قايتباي ، سقى الله عهده ، فورد عليه الفقهاء والأعيان ، طوفاً بعد طوف ، وهو يقوم لهم ، ويكرمهم ويعدهم بالخير ، ثم دخل الطواف ، وكنت معه ، فطاف بسكينة ووقار ، ورمل على السُّنة ، ثم خرج إلى الصفـــا وسعى ماشياً ، ولم يترك شيئاً من الآداب والسنن والمستحبات ، ثم طاف للقدوم ثانياً ، وأخّر سعي الحج إلى محله ، ومد له الخواجـــا كمال الدين أبو الفضل ابن ابي علي سماطاً عظيما جميلاً ، من أعظم الأسمطة وأجملها ، بأمر مولانا السيد حسن أدام الله تعالى عزه ، فأكل وفرق على الأمراء والعسكر ، والبس الخواجا خلعة سراسر .

وفي يوم الاثنين سابع ذي القعدة وصل سيدنا ومولانا السيد حسن ، مد الله تعالى ظلال سعادته إلى حضرة الوزير المعظم ، بمدرسة الأشرف قايتباي ، مسلماً عليه ، وجلس عنده ساعة كبيرة ، واستأذنه في التوجه إلى السيد

الشريف الكبير ، مولانا السيد ابي نُمَـي أدام الله عزه وسعادته، وخلد دولته وايالته ، وكان في الشرق ، فأذن له في ذلك ، فتوجه إلى والده ، أطال الله تعالى عمرهما ، وشيد أركان عزهما ونصرهما ، وحصل لأهل البلاد بذلك كال الاطمئنان ، وزال عنهم الوسواس والاضراب ، وذلك من بعد أن كاد تزيغ قلوب فريق منهم بالجهل وسوء الظن والارتياب ، والله سبحانه وتعالى يصون حرمه الآمن من كل فتنة وانقلاب .

ثم في عاشر ذي القعدة ، توجه الى عمل عين عرفات ، للكشف عليه ، ومعه أمراء السناجق ، وكل فارس بطل سابق ، وكان الناظر على عمل العين قدوة الأمراء ، زين الكبراء ، الأمير قاسم البوصنوي ، نائب جدة المعمورة، وكان نازلا حيث انتهى العمل ، وهو بقرب بركة السَّلَم ، فهيأ لحضرة الوزير سماطاً عظيما، فيه انواع الاطعمة الرومية ، تكلف عليه كلفة كبيرة، وكان حضرة الوزير يغض من الأمير قاسم المذكور ، لأنه رُمِيَ عنده بأمور الله أعلم بها ، فلما وصل حضرة الوزير الى محل العمل ، مَدّ لديه الأمير قاسم سماطه فأراد منعه من ذلك ، فشفعت له الأمراء ، وتقدم الامير سلاق أحمد، والأمير ممي وقبلا يده على ذلك ، فقبل ذلك منهم ، وأكل هو والأمراء والعسكر من سماطه ، وشربوا السكّر ، وأحضر الأمير قاسم خمسة رؤوس من الخيل والبغال ، بآلاتها وسُرُجها وركبها ، ولُبسها ، والدروع والخوذة، وقدمها لحضرة الوزير ، وأحضر من عنده خلعة ، وتضرع في أن يلبسها ، ويوهم الناس ان ذلك من إلباس حضرة الوزير له ففعل ذلك ، فظن الناس ان الوزير ألبسها له ، وكانت البواطن مشتعلة ، ونيران الغل مشتغلة ، وأقام عليه من يفتش عليه دقائق العمل مدة الاقامة بمكة ، ومع ذلك فما ظهر على الأمير قاسم شيء ، لملاطفته بالمفتش عليه ، ولضيق الوقت ، واتساع العمل ، ولما فرغوا من السماط عاد حضرة الوزير الى مكة ، والفرسان تستبق بين يديه ، وتظهر دقائق فروسيتها وتفننها لديه ، وتعرض بضائع كمالها في هذا الباب عليه . شعر :

كأنهم في ظهور الخيل نَبتتْ رُبي من شدة الحَزْم ، لا من شدة الحُزُم

ثم صار يتعهد المعاهد ، ويزور المآثر والمشاهد ، ويتصدق على الفقراء ، ويحسن الى الضعفاء ، بحيث عم إحسانه ولطفه ، وشمل غالب المستحقين فيضه وعطفه، وحصل لهم به كمال الارتفاق ، وملأوا بالدعاء له أكناف الارض وأطراف الآفاق ، وفي أثناء ذلك زار غار حرَاء محل شَقّ صدر النبي (ص) ومكان ابتداء الوحي إليه، ونزول جبرئيل عليه الصلاةوالسلام،بالقرآن العظيم عليه ، فتوجه مع أمرائه وكبراء جيشه المنصور ، وبَكّر لزيارة هذا المحل الشريف المأثور ، وعند عوده من الزيارة تقدم له مولانا شيخ الاسلام ، ناظر بلد الله الحرام،المتفق على جلالته وعظمة شأنه ألسنة الخاص والعام،بدر الدنيا والدين،السيد القاضي حسين الحسيني المالكي،مدرس المدرسةالشريفة السلطانية السليمانية،وما مع ذلك من الوظائف الشريفة السنية،ولاقاه عند بستانه بالأبطح وقد هيأ له سماطا عظيما ، يليق بمثل هذا الوزير المعظم الكبير ، ويسع من معه من الجمع الكثير ، بل يفيض عليهم وعلى أمثالهم باذن الله القدير . فمد ذلك السماط العظيم بين يديه ، وجلس هو والأمراء واعيان العسكر عليه ، فكانت الأواني كأنها الزبرجد والفيروزج ، مملوءة بنفائس الأطعمة كاللوزينج والفالوذج ، والخراف المشوية والدجاج والمهلبية ، والمأمونية [والسكباج ، والرشيدية والشرابية] والكلاج ، لا يستطاع للكثرة حصر اسمائها ، ولا يتمكن ان يصف الواصف حسن صفاتها وصفائها ، وأجلس حضرة الوزير مولانا المشار اليه عن يمينه ، وصار يلاطفه بالكلام ، ويتعجب من حسن الطعام ، وكثرته ولطف ذلك المقام ، ويؤنسه بحديثه ، ويستأنس بتحديثه ، وكان من جملة كلامه له : مولانا القاضي أنت بذلت لنا محصول وظائفك عن خمس سنين ، في ساعة واحدة، يعني به هذا السماط ، فأكل بانبساط وسفاط، وأكل الحاضرون،ثم جلس العسكروأكلوا،ورفعوا ما أرادوا،ثم أعطى الفقراء وفضل بعد ذلك شيء كثير، ثم نزل حضرة الوزير الى محل سكنه بالمدرسة .

ثم توجه بعد أيام الى جبل ثور وزار غار النبي (ص) وطلع ذلك الجبل بغاية القوة والجلد ، مع انه وعر المسلك ، صعب الصعود ، ودخل من النقب الذي عشعش عليه العنكبوت ، وفرخ فيه الحمام ، كما دخل النبي (ص) منه الى الغار ، وهو المحل المأثور الذي اختفى النبي (ص) فيه هو وأبو بكر رضي الله عنه ، وتبعهما المشركون الى هذا النقب ، فرأوا عش الحمام ، ونسج العنكبوت ، وصدهم الله تعالى عن نبيه (ص) وعن صاحبه في الغار ، بذلك السبب الضعيف ، اظهاراً لكمال قدرته تعالى ، وفيه يقول صاحب البردة رحمه الله تعالى . شعر :

وماحوى الغار من خير ومن كرم ... وكل طرف من الكفار عنه عمي
فالصدق في الغار،والصديق لم يريا ... وهم يقولون : ما بالغار من إرم
ظنوا الحمام،وظنوا العنكبوت على ... خـــير البرية لم تنسج ولم تحم
وقاية الله اغنت عن مضاعفة ... من الدروع وعن عال من الأطم

وعند العوام أن ولد الحلال يدخل من هذا النقب ، وأما ولد الزنا يشتبك فيه ، وليس لذلك أصل ، وانما يحتاج الداخل الى دربة ، فانه اذا انبطح على وجهه ليدخل صادمه أمامه حجر ناتيء يمنع صدره عن الولوج ، فيشتبك لعدم لباقته وظرفه، فاذا مال الى جهة اليسار وجد سعة وولج بسهولة من غير تعب، وقد اشتبك فيه في عصرنا وقبل ذلك ناس كثيرون ، يطلب لهم الحجارون في مكة ، فيكسرون عنه ليتسع الخرق ، ويخلص بذلك ، ولأجل ذلك لا يجسر كل أحد على الدخول منه إلا قليل من الناس ، ثم عاد حضرة الوزير من زيارة جبل ثور ، وهو في غـاية النشاط ، مع طول الطريق ووعورته وصعوبته، وتعب بقية الأمراء والعسكر من الصعود والهبوط ، وحصل ثواب الزيارة ولله الحمد .

ثم ان حضرة الوزير لا زال يتبع المزارات المأثورة ، والمشاهد المعروفة المشهورة ، ويتصدق على الفقراء ، ويحسن إلى الكبراء ، ويخرج في الليل

فيطوف بالبيت الشريف ، ويحسن إلى من يجده من الفقير والضعيف ، ويخفي الصدقة ، ويفعل المعروف ، إلى أن جاءت أيام الحج ، وكان أول ذي الحجة يوم الخميس باكمال ذي القعدة ثلاثين ، وصادف الوقفة الشريفة يوم الجمعة ، وذلك من كمال سعادة حضرة الوزير ، وحسن نيته وخلوصها ، إذ يسر الله تعالى له الحج الأكبر ، وكان ذلك موافقاً لحجة النبي ﷺ في حجة الوداع ، وهي آخر حجاته ﷺ فكان أفضل الحج ، وقد ورد في ذلك من الآثار ما هو محرر في موضعه .

وكان أمير الحاج المصري افتخار الامراء ، وواسطة عقد الكبراء ، مراد بك ، كتخدا المرحوم محمود باشا ، وكان دخوله إلى مكة بالركب المصري في يوم السبت ، ثالث ذي الحجة ، ولاقاه السادة الاشراف إلى سبيل الجوخي ، على المعتاد ، وضرب أوطاقه بالمعلاة ، ولم ينزل مدرسة قايتباي على عادته ، لأن حضرة الوزير كان نازلاً بها ، ودخل بعده أمير الحاج اليماني ، ووصل معه بقية أثقال حضرة الوزير ، وبعض خيله وأسبابه ، ثم دخل أمير الحاج الركب الشامي حضرة رضوان باشا بن مصطفى باشا وتأخر عن المعتاد لحصول بعض المطر والسيول في الطريق ، صده عن سيره المعتاد ، فدخل مكة يوم صعود الناس إلى عرفات وهو يوم الخميس ، ثامن ذي الحجة ، ونزل في منى ، علي وجه السنة ، وصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح ، ولم يترك هذه السنة ، وأحياها ، وكان ذلك سبباً لأن أحيا هذه السنة كثير من الناس ، بعد أن كانت متروكة منذ زمان مديد ، ثم توجه إلى عرفات ، ونزل بها ، ومد سماطاً كبيراً للفقراء والأكابر ، وجمع بين الظهر والعصر بمسجد نمرة ، ثم عاد ووقف في ذيل جبل الرحمة ، ودعا وتضرع إلى الله تعالى ، وبكى وأبكى الواقفين بذلك المحل الشريف ، وتواضع لله تعالى ، ومرغ وجهه في التراب بين يدي خالقه جل وعلا ، ودعا هو وجميع الواقفين بذلك الموقف العظيم ، بدوام دولة السلطان الأعظم ، والخاقان الأفخم الآكرم ، سلطان سـلاطين العرب والعجم ، ملك البرين والبحرين ،

سلطان الروم والعراقين ، خادم الحرمين الشريفين ، السلطان سليم خان بن سليمان خان ، خلد الله تعالى سلطانه مدى الزمان ، وأبقى ملكه ما سار النيران .

فلما أفاض الإمام أفاض معه الناس ، وكان إمام الموقف الشريف يومئذ المرحوم المغفور له مولانا محي الدين محمد بن خضر شاه بن محمد بن حاجي حسن أفندي القاضي بمكة المشرفة المتوفي بهـا سنة تسع وسبعين وتسعمائة ، أسكنه الله تعالى أعلى عليين ، وجعله من عتقاء هذا البلد الأمين .

ثم وصل إلى مزدلفة فبات بها بعد أن جمع بين المغرب والعشاء فيهـا ، وعمل بقوله تعالى : (فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام) وبات بجمع ، واستغفر الله من المظالم والآثام ، وطلب من الحي القيوم غفران الذنوب وارضاء الأخصام ، وقد وعد النبي ﷺ أمته أن يتجاوز الله عن مظالم العباد ، بمن وقف متضرعاً إلى الله تعالى في هذا المقام ، ويرضى الله تعالى خصومه بالاحسان والانعام ، فيتجاوزون عمن ظلمهم باذن الملك العلام.

ثم أفاض حضرة الوزير ومن معه مع سائر الحجاج إلى مِنى ، ونزل قرب مسجد الخَـيف ، ورمى جمرة العقبة بسبع حصيات ، قطع التلبية بأولاها، وهو يكبر لكل حصاة ، وذبح نحو المائتين من الهدي ، ما بين الغنم والابل، وانهبها الفقراء وأباحها لهم ، وكانت سنة محل وقحط ، فارتفق الفقراء بذلك كثيراً وتوسعوا ، ودعوا له بالقبول ، ثم حلق وحلّ من احراميه التحليل الأول ، وكان قارنا كما تقدم، والقران أفضل ، عند علمائنا ـرضي الله عنهمـ من التمتع والأفراد .

ثم أفاض إلى مكة ، فطاف طواف الافاضة ، وهو طواف الحج ، وبه يحصل التحلل الثاني ، وهو قربان النساء ، وسعى وعاد إلى منى ، وأقام بها يومين يرمي فيها الجمار الثلاث ، من بعد الظهر ، يرمي الجمرة الأولى وهي التي تلي مسجد الخيف، ثم الثانية ، ثم جمرة العقبة كل جمرة بسبع حصيات .

ثم تعجل ، ونفر مع النفر الأول الى مكة ، ونزل بالمحصب ، كما هو السنة .

ثم دخل الى الطواف وطاف للصدر ، ثم عاد إلى أوطاقه ، وهو لا يخلو من البر والصدقات ، وبذل أنواع الخيرات ، واطعام الطعام للفقراء ، وكسوتهم ، وبذل النقود لكثير من الفقراء بالخفية ، وكانت أيامه طاعات ، وأوقاته مستغرقة في العبادات .

ومن جملة الخيرات التي فعلها بمكة انه بنى حول المطاف الشريف ، وفرشه بالحجر المنحوت ، مثل فرش المطاف ، وكان هذا المحل مميزاً عن باقي المسجد بافريز دائر عليه من الطرف إلى الطرف ، وباطن الافريز إلى المطاف نحو ثلاثة أذرع كان مفروشاً بالحصى الصغار ، كباقي المسجد ، ففرشه بالحجر المنحوت مثل المطاف ، وانتفع المصلون بالصلاة فيه لملامسته وحسنه بالنسبة الى باقي المسجد ، فصار مثل المطاف الشريف ، إلا أن بينه وبين المطاف افريز آخر ، فيه وضع الأساطين النحاس ، التي تعلق فيما بينها القناديل حول المطاف .

ومن آثاره الجميلة أيضاً البئر التي جددها بالتنعيم للمعتمرين ، ولأهل القوافل ، التي تمر بها من كل جهة ، فصاروا يشربون من هذه البئر ، ويستقون ، ويملأون قربهم وأوانيهم من ذلك الماء العذب ، وتضاعف الدعاء من المعتمرين والحجاج وأهل القوافل ، والمارين بالتنعيم ، لحضرة الوزير ، كتب الله له ثواب ذلك في صحائفه الكريمة .

ومن آثاره أيضا رَبْعَة عَيَّنها ليقرأ له بطول السنة ثلاثون نفساً من أهل القرآن ، كل نفر في كل يوم جزءاً من القرآن العظيم ، ويختمون ختمة قرآنية في كل يوم ، يهدون ثوابها في صحائفه الكريمة ، ورتب لكل شخص تسعة دنانير ذهباً ، في كل عام ، ورتب مثل ذلك في المدينة الشريفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام .

وله غير ذلك من الخيرات في طريق المدينة الشريفة من حفر آبار ، في المقاطع والمعاطش ، وإحسان على الفقراء ، ومرتبات ووظائف ومعاليم ،وغير ذلك ، وقرر لكثير من أعيان الفقهاء والعلماء وظــائف في ديوان السلطنة الشريفة ، نصرها الله تعالى، بحيث لم يعهد أحدٌ قبله من السلاطين والوزراء، فعل مثل هذه الخيرات والمآثر التي صدرت منه ، والله تعالى يجزيه خيراً على إحسانه ، ويسبغ عليه سحائب فضله وكرمه وامتنانه.

وفي يوم الجمعة سابع عشر ذي الحجة نزل حضرة الوزير من مخيمه بالأبطح، وضرب خيامه في سبيل الجوخي ، وصلى الجمعة ، وتوجه بعد أن وادع البيت الشريف ، وقام في الملتزم قيام الخائف الضعيف ، وبكى فأبكى العيون لفراقه ، وأظهر شدة كآبته على ذلك واحتراقه ، وتضرع إلى الله تعالى في القبول ، واعترف بين يدي خالقه بالعجز والقصور ، وتصدق كثيراً ،ومشى القهقرى إلى أن خرج من باب الحَزورة ، وركب إلى مخيمه ، وهو يتصدق يميناً وشمالاً ، فلما أمسى عليه الليل ذهب الى التنعيم ، وأحرم بعمرة مفردة، وأتى إلى أن طاف بالبيت ، وسعى وحلق ، ثم دخل المسجد الحرام، وأعاد طواف الوداع ليلاً ، مختفياً عن الناس ، واختلى ببيت ربه ، وتضرع إليه ، وعدد إحسانه عليه ، واعترف بتقصيره بين يديه ، وعاد الى مخيمه ، ثم توجه مصحوباً بسلامة الله تعالى إلى زيارة رسوله ﷺ ، ثم الى مصر ، كتب الله سلامته (١) ، وضاعف عزه ونصره وسعادته .



---

(١) هنا ينتهي كتاب « الفتوحات » وبعده : (وكان الفراغ من كتابة الأصل الذي نقل منه هذه النسخة في مستهل رمضان الشريف ، سنة احدى وثمانين وتسعمائة ، بمكة المشرفة ... الخ) وانظر المقدمة .

الخاتمة

في توجـــه حضرة الوزير الى ايالة مصر ، ثم الى الباب
العالى وزيرا ، ثم توجهه الى فتح تونس ، وجهاد
النصارى ، وأخذ حلـق الواد ، وعوده
مظفراً منصوراً وفيها خمسة
فصـــول

الفصل الاول

في توجه حضرة الوزير الى مصر، بقصد الوصول الى الاعتاب الشريفة السلطانية ، وملاقاته في أثناء الطريق الاوامر النافذة الخاقانية ، متضمنة شكر صنيعه في فتح اليمن ، وإعطائه ايالة مصر في مقابلة ما لاقاه من المحن و الاحن

لما شرع في المسير حضرة الوزير الى جهة مصر ونعم المصير ، ليسير منها الى الباب العالي ، وشمر أذيال عزمه الى هذا القصد السامي ، فبينما هو في أثناء الطريق ، وهو مشمول من الله تعالى بحسن التوفيق ، إذ وصل إليه جاووش من الباب المستطاب ، على يده مراسيم شريفة سامية الخطاب،وخلع فاخرة تهتز لها كواهل الاعجاب ، وتتضمن الشكر والرضا ، من الحضرات الشريفة السلطانية ، والمواقفة العلية الخاقانية ، عن ذلك الوزير المعظم ، والمشير الكبير المفخم ، في سعيه المبرور ، وجدّه وإقدامه المشكور ، وان المراحم الشريفة السلطانية ، والعواطف الكريمة الخاقانية السليمية العثمانية ، أنعمت عليه بايالة مصر ، حميت عن المخاوف والأصر ، وان حضرة الوزير يطوي شقة المسير،وينشر لمحروسة مصر لواء المعدلة ويلقي بها عصا التسيير ، ويستريح بها بعد ذلك من التعب الكثير ، ويَشتمّ أنفاس الراحة من نسيم روضها النضير ، فامتثل حضرة الوزير ذلك الامر الشريف الخطير ، إذعاناً

لأوامر السلطنة الشريفة ، وانقياداً واستسلاماً لأحكامها النافذة المنيفة، وكان أحب إليه أن يقدم على السدة الشريفة السلطانية ، ويفوز بلثم اعتابها العلية الخاقانية ، ويذكر بلسانه شفاهاً أحوال تلك البلاد الشاسعة ، ويبين خفيات المصالح والمفاسد الجارية بتلك الأقطار الواسعة ، فليس الخبر كالعيان ، ولا يجوز بيان البنان ما يقرر لسان السنان بسنان اللسان ، فلما لم يتيسر له ذلك اكتفى بالكتاب عن الخطاب ، وعرض ما يجب عرضه على الباب ، وأعاد الجواب ، وتلقاه بالاستقبال من مصر أكابرها وأعيانها، وأمراؤها وكبراؤها وأركانها ، وفرح أهـــل مصر بولايته عليهم ، لما يعهدون من حسن انشائه الشريف إليهم ، ولمعرفته أحوال مصر لسبق ايالته عليهم .

فلما وصل الى مصر شرع في تعمير البلاد ، وتأمين العباد ، واستجلاب خواطر الحاضر والباد، ودفع مواد البغي والعناد ، وقطع جادرة أهل الفساد، وإكرام العلماء والاحسان إليهم ، والتلطف بهم والحنو والعطف عليهم، وجبر خواطرهم وقضاء حوائجهم ، وتقوية الضعفاء من الفلاحين والرعايا ، وجذب قلوب كافة البرايا ، إلى أن كادت تعمر مصر بعد خرابها وتدميرها ، ودب فيها ماء الحياة وانتعشت بعد سوء مصيرها . وأرسل جرايات أهل الحرمين الشريفين ودشائشهم ، وأحسن إليهم بالتقارير والوظائف ووسع معائشهم ، وفاض إحسانه على الخاص والعام ، وشملهم بالفضل والكرم والانعـــام ، واستجلب قلوبهم للدعاء بدوام دولة سلطان الاسلام ، ظل الله في الأنام ،خلد الله تعالى ظلال سلطنته على الدوام ، وشيد اركان خلافته وعقبه ونسله الى يوم القيام .

وأنشأ عمائر جليلة حسنة ،وأبنية عالية متقنة،أوقفها في وجوه الخيرات، وجعلها صدقة جارية بعده على جهات الخيرات والمبرات .

ومن محاسن آثاره حفر الخليج ، الذاهب إلى الاسكندرية ، فإنه امتلأ بالتراب ، وصار الماء لا يجري فيه إلى الاسكندرية لاستيلاء الخراب ، فنظفه

وحفره ، وبناه وعمره ، فعاد إلى أحسن مما كان ، وجرى فيه الماء كسائر الخلجان ، وكان الاحتياج إلى حفره وتعميره شديداً ، وكان ذلك رأياً صائباً وفكراً سديداً ، وانتفع أهـــل الاسكندرية بذلك غاية الانتفاع ، وعمر بسبب ذلك كثير من الأراضي والبقاع ، وصار ثواب ذلك جميعه في صحائفه الشريفة مسطوراً ، ولواء الشكر والثناء عليه من الناس ولله الحمد منشوراً ، ولا شك أن الله تعالى أعطاه الحكمة في تصرفاته ، ومن يُؤتَ الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً .

واستمر حاكما متصرفاً في تخت يوسف الصديق عليه السلام ، باذلاً للكرم ناشراً للعدل بحسب الامكان بين الأنام ، مشكور السيرة ، محمود السريرة بين الخاص والعام ، إلى أن اشتاقت السلطنة الشريفة إلى مشاهدته ، وحلوله بالسدة العلية لمشارفة أمور الملك ومساعدته ، فطُلِب إلى الباب العالي بغاية التعظيم والتكريم .

فتوجه براً في أوائل عام ثمانين وتسعمائة وخرجت لوداعه أكابر مصر وأمراؤها وعلماؤها إلى الصالحية ، ومنهم من وصل معه إلى قطية، وعزم إلى الأبواب الشريفة السلطانية ، مصحوباً بالسعادة والسلامة، في السفر والاقامة، وعاد أهل مصر اليها إلى أن ورد عليهم المتولي الجديد لمصر ، وهو أمـــير الأمراء الكرام حسين باشا ، أحسن الله تعالى أحواله ، وبلغه آماله ، إن شاء الله تعالى .



الفصل الثاني

في وصول حضرة الوزير المذكور بالسلامة الى الأبواب ، وتعظيم السلطنة الشريفة له ، وتأهيله للذيذ الخطـــاب ، وابقائه على منصب الوزارة الشريفة ، مع الترقيات العظيمة المنيفة

لما يسر الله تعالى لحضرة الوزير المذكور طيّ المسافة ، من غير مَسّ آفة ، وفَرى أديم الغـــبرا ، وشق شقة الثرى ، من غير مشقة ولا مخافة ، (بيت) :

إذا اعتاد الفتى خوض المنايا   فأهون ما تمرّ به الوحول

صار يطوي البيد والفجاج ، ويقطع المهامه بالسرى والادلاج ، ما بين هياج وغياض ، ورياض وحياض ، وجبال تناغي كوكب الجوزاء ، وآجام تواري وجه الأرض عن عين السماء ، وقرى وبلدان ، وضياع وعمران ، فكان ذلك أحلى من حلاوة اللوزينج ، في صحون الفيروزج ، بالنسبة إلى ما قاسوه من أهوال اليمن وهرجه ومرجه الأوهج ، فسلكه أتباع حضرة الوزير سلوكاً رضيا ، وجنوا من رياض جناته ورداً جنيا ، وزهراً طريا ، وافترشوا من نسج ربيعه فراشاً عبقريا ، الى أن لاحت لهم غُرّة قسطنطينية العظمى ، وأشرفوا من (اسكودر) على السراي العالي السلطـــاني الأسمى ، فخضعت الأعنـــاق لذلك المرأى المدهش ، وانتعشت النفوس بذلك المنظر الشريف المنعش ، وأقبل كبراء اصطنبول وعظماؤها ، ومواليها

وأمراؤهـــا ، إلى ملاقاة حضرة الوزير ، وتهنئته بالسلامة باذن الله القـدير ، وتقدمت كواخي الوزراء ، ودفـــتر دارية الباب العالي إلى (اسكودر) برسم الاستقبال ، وقدموا اليه من الضيـافات والتقادم ما يقصر عن حصره لسان المقال ، وقدم إلى اصطنبول بغاية التعظيم والاجلال ، وحفته في قدومه الدولة ، وساعدته السعادة ، وأقبل عليــه الاقبال ، واجتمع بالسند الأعظم ، والصدر الأفخم الأكرم ، ملاذ كبراء وزراء سلاطين العالم ، أعدل وزير أحيى العـــدل وأنعشه انعاشاً وانكر المظالم ، فان ذكرت في أمامه قال : كلا وحاشا ، حضرة الوزير المعظم ، محمد باشا ، أنعم الله به تعالى للبرية معاشا ، وانتعشت الرعية بحسن معدلته انتعاشاً ، فرأى منه الجبر والخير ، واللطف الكثير ، وقرّ عين كل منهما برؤية الآخر ، مع الاقبال الكبير ، وجاءه بقية الوزراء للسلام عليه ، وحصل له كال التعظيم والاجلال باقبالهم اليه ، وهرعت الناس اليه من الأركان والأعيان ، ولم يتخلف عنه أحد من عظماء الشأن ، ودخل بالاذن الشريف السلطاني ، إلى السراي العالي المعظم الخاقاني ، وتشرف بلثم قوائم سرير الملك العثماني ، ونال بهذا الشرف غاية المرام ، ونهاية الأماني ، وخاطبته لسان السلطنة الشريفة بالترحيب والاجلال ، وناجتـــه الحضرة الشريفة السلطانية بحسن الالتفات الشريف ويمن الاقبال ، وشكرت حسن صنيعه ، وصدق خدمته ، في افتتاح ممالك اليمن ، وما قاساه من الأهوال ، وأفرغ على كاهله خلع الرضا والتشريف ، فقبل الأرض ورجع القهقرى ، إلى صوب الباب الشريف ، وتلقته جاووشية الباب العالي ، والقابجية والخدام ، والنوبتجية والموالي ، وأوصلوه إلى دار سعادته بالتبجيل والاكرام ، ووقفوا بين يديه ، صفوفاً للتعظيم والاحترام ، فانعم عليهم جزيـل الانعام ، ونثر عليهم الذهب والفضة والنعم الجسام ، وذهب كل حامداً شاكراً ، محصل المرام .

ثم استأذن أيده الله تعالى ، وضاعف نعمه عليه ووالى ، في أن يقدم إلى الحضرة الشريفة السلطانية هداياه ، ويهدي تحفه التي ادخرها لهـذا اليوم

وخباياه ، فبرز الاذن الشريف السلطاني له بالتقديم ، وعرض ذلك على النظر الشريف الخاقاني الكريم ، فقدم بين يدي الحضرة الشريفة السلطانية تقدمته ، وأهدى إلى سرير السلطنة العلية الخاقانيـــة هديته ، وأبرز من التحف واللطائف ، ونفائس الذخائر والطرائف ، والخيول المسومة ، والسروج واللجم المرصعة ، والركب المجوهرة ، والسيوف المسقطة ، والرماح المكللة ، والجواهر النفيسة ، وصنوف السراسر والديباج والزرياف، والمالك والخدام ، من سائر الأصناف ، ما بهر العيون ، وأدهش العقول والظنون ، ومن تحف الهند وطرف اليمن والأنجاد ، وظرف مصر وسائر البــلاد ، ما لا يحصره العاد ، ولا يحيط به القلم والمداد ، فقوبل جميع ذلك بالقبول ،وشمل بالنظر الشريف الخاقاني أكرم شمول ، وخلع أنواع ملابس التشريف ، على من حمل ذلك إلى الباب الشريف ، وصار له ذكر أطيب من المسك والعنبر ، ونشر أذكى من نشر العود وأعطر ، وهادى كلا من الوزراء العظام ، والبكلربكية الكـــبراء الفخام ، والدفتردارية وأغوات البلوكات ، وأعيان الأصباهية والشاوشية والمتفرقات ، الى أن عم بره وإحسانه العميم ، أكثر من في ذلك الباب الكريم ، واشتهر بالكرم والجود ، وأنسى بفعله المحمود ما سبقه بــه المرحوم محمود ، وأمر من جانب السلطنة الشريفة بالجلوس في الديوان السلطاني مع الوزراء ، وأنعم عليه باستمرار وظيفة الوزرة ، وعوائدها ورسومها مع الوزراء الكبراء ، وصار مشاراً اليه في المهات ، مستشاراً مؤتمنـــاً في أمور مصر ، والحرمين الشريفين ، وممالك اليمن ، وتلك الجهات ، يستضاء بأنوار رأيه الصائب ، ويعمل بما يشير به فكره السديد الثاقب ، وقد دفع من المظالم المظلمة ما لا يحصى ، ورفع من الخطوب المدلهمة ما أكسب الدولةالشريفة كمالا وأزال نقصا ، وأحسن إلى العام والخاص ، وخص بكرامته كثيراً من أهل الاختصاص ، وقرر كثيراً من المرتبات لأهل الحرمين الشريفين ، ونفعهم في جراياتهم ودشائشهم ، وصَرّهم ومرتباتهم ، وبسط في ذلك كلتا اليدين ، طلباً للمثوبات العظمى من الله الكريم ، (يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم) .

الفصل الثالث

في توجهه الى الغزو والجهاد ،
على طائفة النصارى باقليم تونس وما والاها من البلاد

وقع في حدود سنة إحدى وثمانين وتسعمائة حركة من طائفة النصارى الافرنج دمرهم الله تعالى ، وخذلهم ، وزادهم خزيا ووبالا ، فعاثوا في بحر الروم ، ما بين جزيرة رودس والاسكندرية ، وما حول تلك المراسي بالسواحل البحرية ، فصاروا يأخذون من المسلمين كل سفينة غصباً ، ويأسرونهم وينهبون ما يجدون من أموالهم سلباً ونهباً ، الى أن تعدى ضررهم على طوائف أهل الاسلام ، وزاد فساد عُباد الصليب على ضعفاء المسلمين من الانام ، وأخرج (أصبانيا) الملعون جيشاً كثيفاً من النصارى ، جهزهم للفساد في الارض عناداً واستكباراً ، فوالس معهم السلطان أحمد بن حسن الحفصي صاحب تونس ، وطلبهم لأخذها من عساكر الروم المسلمين في تونس ، فصارت توحش الأبصار ولا تؤنس ، فأخذوها بالغلبة والقهر ، والاستيلاء والجبر ، وسبوا النساء والأطفال ، وقتلوا الرجال والأبطال ، وباء مولاي احمد بإثمه ، وسود الناس في صحائف الأيام ديباجة وجهه واسمه ، وانقلب خاسراً مدحورا ، وانخلع عن ربقة الدين وازداد كفورا ، ونفرت قلوب الخلق عنه نفورا ، حيث استعان بملة الكفر على الاسلام ، واستدعى عبدة الصليب والأصنام ، وامتهن ديار

تونس باقدام الكفرة اللئام،فوصلت هذه الأخبار الموحشة ، والأنباء المدهشة، إلى مسامع سلطان سلاطين الاسلام ، ظل الله على مفارق الأنام ، خليفة الله في بلاده ، وظله الظليل على كافة عباده ، رفيع ذرى المجد والغارب ، ملك الملوك في مشارق الأرض والمغارب، صاحب الأمانة العظمى، والسلطان الباهر ، وارث الخلافة الكبرى كابراً عن كابر، واسطة عقد ملوك بني عثمان ، المخصوص من الله تعالى بشمول الرحمة والغفران، السلطان سليم خان بن سليمان خان سقى عهده الله صوب الرحمة والرضوان، وأبقى الملك في عقبه إلى انتهاء الزمان ، فلما طرق سمع المرحوم ما وقع لأهل الاسلام ، من هذه المصائب العظام ، والامتهان الذي أحزن القلب وأوهن العِظام ، اشتاط سخطاً وغضبا ، وتأججت نار حميته واضرمت لهبا ، وقام لنصرة دين الله قياماً عجبا ، وحمى ملة الاسلام وسل لذلك سيوفاً وُقضُبا ، وخاطب وزراءه العظام ، وبكلاربكيته الكبراء الفخام ، بتجريد العساكر المنصورة لنصره الاســلام ، ولإذلال عباد الصليب من الكفرة اللئام ، ولاستنقاذ من استؤسر من المسلمين بيد أولئك الكفرة الطغام ، فبادر الوزير المعظم ، والليث الكاسر الغشمشم ، صاحب السيف القلم ، فاتح ممـــالك اليمن الأيمن المكرم ، أبو الفتوحات ، حضرة سنان باشا المعظم ، لا زالت ألوية نصره منشورة الذوائب ، مشرقة كالشمس يغشى ضوءُها المشارق والمغارب، صاعدة إلى أفق السماء حتى تزاحم مناكب الكواكب ، وقال : أنا لسد هذه الخلة ، أنا لها ، افرج كربتها ، وأفتح مقفلها ، واصلح خللها ، وأقيم عَوَجهـــا ، وأركب ثبَجَها ، والحضرة الشريفة السلطانية لأي يوم تدخرنا ، ولأي ساعة تؤخرنا.فقابلته الحضرة الشريفة السلطانية بالشكر منه والثناء عليه، وشرفته بحسن الالتفات الكريم اليه ، ولقب سردار العساكر السلطانية ، وأفرغ على كاهله تشاريف الخلع الفاخرة السنية ، واذن له في أخذ الأهبة والاستعداد ، وتحصيل أسباب السفر وآلات الجهاد ، فبرز من الديوان العالي وهو مملوء سروراً ، محشو من فرقِه إلى قدَمِه بهجة وحبوراً ، وأخـــذ


(٣٠)

في تهيئة السفر ، وأخذ معه من ليوثه كل أسد غضنفر ، وكل باسل معقود بناصيته النصر والظفر ، وأمرته الحضرة الشريفة السلطانية ، أجرى الله تعالى في الخافقين أحكامها النافذة الخاقانية ، أن يكون معه تحت ايالته ، لمساعدته ومعاونته ودفع ملالته ، وضبط العساكر البحرية ، وأعمال المدافع والمكاحل الحربية ، قابودان الباب العالي ، ناشر رايات المكارم والمعالي ، أمير الأمراء العظام ، كبير الكبراء الفخام ، الصارم الصمصام ، الأسد الضرغام ، البكلاربكي المعظم المفخم ، حضرة قلج باشا علي باشا المكرم ، لازال مؤيداً منصوراً ، ولا برح سيفه صارماً مشهوراً ، ومن الأبطـــال المشهورين والشجعان المخبورين، ممن له في حرب البحر يد بيضاء آية للناظرين، وقد تقدمت له عدة حروب انتصر فيها على النصارى ، والله خير الناصرين .

وبرزت الأوامر الشريفة السلطانية بتجهيز مائـــتي غراب ، وعدة من المؤونات الكبار ، لحمل الأثقال والأسباب ، وملأها من العسكر المنصور ، والمدافع الكبار لفتح الثغور ، وهدم السور ، والجسور ، وآلات الحرب والجهاد ، وما يحتاج اليه من المؤن والأزواد ، وتقدم إلى الركوب في تلك السفائن حضرة الوزير الأعظم سنان ، وحضرة أمير الأمراء القبودان ، وقد حضرة الوزير الأعظم ، خـــلد الله تعالى ظلال وزارته العظمى ، وجميع الوزراء ، وأركان الدولة الكبرى ، وكان يوماً عظيما مشهوداً ، وساعة مباركة أظهرت يمناً وبركة وسعوداً ، وكان جمعاً مباركاً مسعوداً ، وجنوداً مؤيدة من عند الله تأييداً ، وفرساناً يعدون فيعدون ليوثاً وأسوداً ، وبدأ سردار بعساكره نصره الله تعالى بملائكتـــه الكرام ، وهو يتدفق تدفق الغمام ، ويستبق هو والسهام ، فأي صدر ما تزحزح عند رؤيته ، وأي قدر مـــا تضاءل عند مشاهدة عظمته ، وأي بدر ما غاب ، وأي شمس مـــا توارى ضياؤها بحجاب ، ويا لله العجب كيف ما نزحت البحار ، عند عبور هذا الجيش الكرار ،فحصل الوداع عند السفر المسفر السعيد ، المشعر بالعود سريعاً مع الظفر والتأييد ، وعاد حضرة الوزير الأعظم ، وبقية الوزراء العظام ،

وأركان الدولة الشريفة والأمراء الكرام، ودعوا حين ودّعوا بالنصر والظفر، واستبشروا بحصول البشر والبشر ، وركب حضرة الوزير المعظم سنان باشا، وحضرة علي باشا القبودان ، وجميع العسكر المنصور بتأييد الله الملك الديان، وطارت بهم الأغربة على وجـــه البحر أقوى طيران ، ومضوا مصحوبين بسلامة الله تعالى لنصرة أهل الايمان .

وكان ركوبه الشريف في اليوم الثامن والعشرين من محرم الحرام ، افتتاح شهور سنة اثنين وثمانين وتسعمائة .



الفصل الرابع

في افتتاح البلاد والبقاع ، وأخذ الحصون والقلاع ، وانتصار عساكر الاسلام ، وانكسار جيوش النصارى اللئام ، وتمزيقهم كل ممزق بالسنان والحسام

قدر الله السميع العليم بقضائه وقدره، وهو العزيز الحكيم ، ان بكلاربكي طرابلس المغرب من قبل السلطنة الشريفة ، أمـــير الأمراء العظام ، الأسد الباسل الضرغام ، والسيف الصارم الصمصام ، دلو مصطفى باشا ، أدام الله تعالى نصرته ، وخلد رفعته وعزته ، لما بلغه ما وقع في تونس من الاختلال ، والحرب والأسر والقتال ، جيّش جيشاً كثيفاً ، وعسكراً نقاوة للحرب نظيفاً ، وتوجه بهم إلى بلاد تونس ، وهو يحث الركاب حثاً ، يطلق نحوها الأعنة ولا يحبس، فصادف في برها السلطان أحمد بن حسن الحفصي ، صاحب تونس ، في زهاء أربعة آلاف مقاتل ، وهم غارون آمنون ، جالسون في صدور المحافل ، فأغار عليهم دلو مصطفى باشا،وغار غيرة لله والاسلام،وحمل عليهم حملة أسد ضيغم ضرغام ، وكر عليهم كرة بعد كرة ، وضرب بحدود سيفه مرة بعد مرة ، إلى أن قتل أحمد الحفصي ، قتلة شنيعة ، وضاقت عليه الأرض الرحبة الوسيعة ، ونقل من المُلكِ إلى الهلك ، وانطوى أمره ولله الملك ، وقتل أكثر عساكره ، وتمزق باقيهم في السهل والوعر ومحاجره ،

وقدم حضرة الوزير إلى بلاد تونس وبرها وبحرها ، وافتتحها بحد السيوف ونحرها ، وقتل من وجد بها من النصارى ، وأسر باقيهم وما وجدوا من دون الله أنصاراً ، وضبط البلاد ، وأحكم الجهاد ، ونشر العدل بين العباد ، يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، وخذل البـــاغون والمشركين وباؤوا بغضب الله .

وكان هذا الفتح المبارك بعد بروز حضرة الوزير المعظم سنان باشا من الباب العالي ، بعد وصوله إلى بلاد تونس ، وما يقاربها من البلاد ويوالي ، فلما حصل خبر هذا الفتح العظيم ، وأنعم الله بهذا الفضل العميم ، بادر بارسال بشارة هذا الخبر إلى الباب العالي من ساعته بلا تعويق ، ففرحت الحضرة السلطانية بهذا الخبر السار ، وعم جميع أركان الدولة الشريفة السلطانية ، وكافة المسلمين بشائر البشر والاستبشار ، وتوجه حضرة الوزير المعظم الى حصن حصين للكفار ، قريب من ، تونس جزيرة في البحر الزخار ، وهـــو محل مجتمعهم وامنهم ، وأقوى القلاع التي اتخذها الكفرة لحصنهم ، في محل يقال له حلق الواد ، تتسلط منه النصارى على ما هنالك من المسلمين من البلاد ، يجتمع فيه عَدَدُهُم وعُدَدُهم ، ويتوصل اليهم فيه من جميع طوائف النصارى خذلهم الله تعالى ممدهم ، اتخذوه مقراً لجيوشهم الفجرة ، ومعقلاً حصيناً لطوائف النصارى الكفرة .

وكانوا شرعوا في بناء هذا الحصن سنة تسع وثلاثين وتسعمائة ، ولا زالوا يشيدونه في كل عام ، ويملأونه بآلات الحرب والمدافع العظام ، الى أن صار لهم ملجأ وذخراً ، وموئلاً يأمنون فيه ويأخذون منهم حذراً ، ولقربهم من من المسلمين يؤذونهم سراً وجهراً ، ويواصلون جيوشهم المردة الى بلاد المسلمين براً وبحراً ، فقصد حضرة الوزير تدمير هذا المكان المكين ، وتخريب هذا الحصن المنيع الحصين ، وقلع هذه القلعة من تخومها ، ومحو أعلامها من العالم ورسومها ، حتى لا تجد الكفار على المسلمين سبيلا ، ولا يكـــون لهم محل يجتمعون فيه من البلاد الشاسعة قليلا قليلا ، فيخف أذاهم عن أهل الاسلام ،

وتأمن أهل تونس وغيرها من شر أولئك الفجرة اللئام ، وهذا كان من أحسن الرأي الثاقب المصيب ، وأحكم التدابير الآخذة من الاصابة أوفر نصيب ، فحط بعسكره المنصور على حلق الواد ، وبرز المجاهدون في سبيل الله بآيات الجهاد ، ونصب على أبواب هذا الحصن المنجنيقات والمدافع ، ووجـــه اليه المكاحل الكبار والمصانع ، وبرز حضرة الوزير يخوض الاهوال محتسباً نفسه في سبيل الله ، معتمداً على نصر الله وعونه والقوة لله ، الذي تسجد لعظمته الجباه ، وأقدمت العساكر المنصورة السلطانية بصدق اعتقـــادها ، وفاتك جلادها ، وثبتت النصارى الكفرة بغلظ أكبادها ، وشدة أحقادها، وتراموا بالمدافع الكبار ، التي هي أقوى من الصواعق ، وأخطف للأبصار والأسماع من الرعود والبوارق ، تخطف ما صادفت من النفوس والارواح ، وتمزق ما صادمت من الصور والاشباح ، وتفكك اللحم عن العظم ، وتذيب الشحم وتسيل الدم ، وعساكر المسلمين مقدمون على هذه النيران ، وهم كالجبال ثباتا مع قوة الجنان ، لا يسأمون مصادمة الجمر ، ولا يبالون على أية جنبيه وقع الأمر ، لم يتأوه أحدهم والنار تحطمه عضواً عضواً ، ولم يجزع واحد منهم وجسده يخاط ويرفا رفواً ، لأنهم مقدمون على جنة الخلد وملك لا يبلى ، طالبون درجة الشهادة من الله العلي الاعلى .

ثم اشتد الوغا والكفار داخل السور متحصنون بحصنهم الشديد،والمسلمون خارج السور محيطون به إحاطة القلائد بالجيد ، متحصنون بحماية الله الحميد المجيد ، والارض تزلزلت من وقع المدافع ، وصواعق البنادق البواقع، والجبال تهتز كأنها تميد ، والاطواد كأنها تنشق وتحذف بأصلاد الجلاميد ، والمعركة من الهول تظن كأنها عراص المحشر ، وطبول الحرب ومزاميرها كنفخ الصور إذا أقبل أو أدبر ، وقد عقد مثار القساطل ، على رؤوس القبائل غمائم تمطر بالنيران ، بروقها بريقُ المناصل ،ورعودها أصوات المكاحل والضربزان، وظلت المدافع تتهاوى كما تتهاوى لوامع الشهب ، وتترامى كما تترامى بوارق السحب ، الى أن صبغت الشمس فرش الأرض بلون الورس والزعفران ،

وبدأ الاصيل بلون ذهبي ينفض لونه على الأكـوان ، وضرب الليل بجرانـــه الى الارض ، ومـــالت أعين الزهر والزهير الى الانفتاح والغمض، ونثر النجم على البساط الأزرق وشاحه، وأخذت النفوس والأرواح تتوجه من الكدر والتعب إلى الراحة والاستراحة ، ومد سلطان النوم على أعين القوم رواقه ، وهجموا هجمة نائم ، يخاف أن تغمض أحداقه ، كما قال القائـــل :

ينام باحدى مقلتيه ويتقي   باخرى الرزايا فهو يقظان نائم

إلى أن صافح الليل صباحه ، وانشق الفجر وكشف أوضاحه ، وانهزمت عساكر فوارس النجوم ، والليل ولى إلى طرف الغرب وهو مهزوم ، فعادت العساكر السلطانية إلى تحمل أمسهم ، وبادروا إلى الجهاد في سبيل الله غـير مبالين بحتفهم ورمسهم ، واستمروا على هـــذا المنول في الجلاد والجدال و والحرب والقتال ، إلى ثلاثة وأربعين يوماً بعدد السنين التي أحكم فيها بناء هذا الحصن الحصين ، الذي فاق على حصون الآفاق ، وذلك من غريب الاتفاق ، فتوجهت عساكر الاسلام توجهاً خالصاً لوجه الله ، وحملوا حمـلة واحدة بغاية التيقظ والانتباه ، وما بالى أحد منهم بموت ولا حياة ، وأيقنوا أن لا مفر ولا محيص مما قضاه الله ، وهجموا على القلعة ودخلوها ، ومزقوا الكفرة والفجرة وقتلوها ، وافتتحوا ذلك الحصن الحصين ، ونصر الله تعالى طائفة المسلمين ، وكان اليد البيضاء في هذا الفتح المبين للعساكر المصريين الذين جلبهم معه الوزير المعظم المكين ، بحيث استشهد منهم ثلثمائة مقاتل عنـد دخول الحصن ، وفتحه بجد السيف وطعن الذوابل ، فنصر الله المؤمنين ، وخذل فرقة النصارى المشركين ، فوضع المسلمون السيف في عباد الصليب والكفار المخذولين ، إلى أن قتلوا منهم بغير عد ولا حساب ، ونهبوا الأموال وسلبوا ما أرادوا من الأسلاب ، وأسروا النساء والأطفال ، وغربلوا ما في الحصن بالغربال ، وهدموه حجراً حجراً ، وتركوه خبراً لا أثراً ، وأعملت

المعاول في رأسه ، إلى يلغ العمل بها إلى أساسه ، فصار طللاً في الأطلال ، ودمنة يلعب بها هبوب الصبا والشمال ، ولم يبق بها من الأنس والأنيس ، إلا اليعافير وإلا العيس ، ولا يسمع في جوانبه صدى ، إلا من بوم أو صدى .

وقد من الله تعالى بهذا الفتح العظيم عقيب فتح تونس ، لمـــا سل هذا الوزير ، مدية الحزم والتدبير ، على حلق الواد ففرى منه الأوردة والأوداج ، واساغه سلسبيل الفرات العذب من الايمان بعد ماء الكفر الملح الاجاج ، على يد هذا الوزير الكبير ، المعظم المشير ، مدبراً أمور الجماهير ، بثاقب الفكر وصائب التدبير ، حضرة الوزير المعظم سنان باشا ، يسر الله له ما شاء ، ونصره الله تعالى نصراً قريبا ، وفتح له فتحاً مبيناً (شعر) :

فتح الفتوح المعلى لن يحيط به — نظم من الشعر ، أو نثر من الخطب
فتح تفتح أبواب السماء لـــه — وتبرز الأرض في أثوابها القشب

واعقب الله ذلك فتحاً آخر ، هو ثالث الفتوح ، أهلك الله بـــه عباد المسيح ، ولـبّـاس المسوح ، وهو ان (أصبانيا) اللعين ، وجنوده المردة الملاعين ، جمعوا مائة غراب مشحونة بالسلاح ، وأهل القتال ، بالمدافع والمـكاحل الثقال ، وما يقدرون عليه من آلات الحرب والابطال ، وأرسلوهم لنصرة النصارى المتحصنين في حصن حلق الواد ، ليدركوهم بالاعانة والامداد ، ويسعفوهم بالأسلحة والازواد ، فصادفهم المسلمون بعد أخذ تلك البلاد ، وخرجت عليهم العمارة السلطانية كأنها الأطواد ، وأحاطوا بأغربة الكفار كإحاطة الأطواق بالأجياد ، فوقع بين الطائفتين على وجـــه البحر حرب عظيم ، وتراموا بالمدافع الكبار كأنها نار الجحيم . وقاتل حضرة الوزير المعظم هنالك أشد قتال ، ورمى بالمدافع الطوال ، كأنها صدع الجبال عند طارقة الزلزال ، تفاجىء بأعظم تهويل ، وترمي بحجارة من سِجّيل ، وتزاحمت السفائن بالسفائن ، وتواجهت الوجوه بالوجوه ما بين ضارب وطاعن .

وكان لحضرة القابودان قلج علي باشا المكرم يد بيضاء في نصر المسلمين ،

لقوة معرفته بالقتال في وجه البحر مع النصارى الملاعين ، فغرق في البحر بضرب المدافع من أغربة النصارى ثلاثين غراباً ، وأسر منهم خمسون غرابا ، بمن فيه من المقاتلة ، وهرب الباقون من النصارى لضعفهم عـــن المقاومة ، ووهنهم عن المقابلة ، ونصر الله تعالى عساكر الاسلام ، وغنموا من النصارى غنائم لا يحصرها الدفاتر والاقلام، وآبوا فائزين بالمؤونات العظام، والكرامات المتعاقبة والانعام ، وجهزوا أخبار الفتح والظفر ، والبشائر العظيمة البشر ، إلى الابواب الشريفة السلطانية ، والاعتاب الشريفة المنيفة الخاقانية ، لتعم بشائرهم كافة بلاد الاسلام ، ويفرح المؤمنون بنصر الله والملائكة الكرام ، فورد البشير كأنه الصبح الصادق ، ونشر على الخافقين رايات النصر والخوافق

(بيت) :

وكوكب الصبح نجّابٌ على يده مخلق تمـــلأ الدنيا بشائره



الفصل الخامس

في عود حضرة الوزير المعظم ، والقابودان المكرم المفخم ، بالعساكر المنصورة السلطانية ، الى الأبواب العلية الخاقانية ، محفوفين بنصر من الله وفتح قريب ، وبشر المؤمنين

لما قضى الوطر حضرة من أخذ ثأر المسلمين من الكفرة والمشركين ، وبلغ ما أراده من خيري الدنيا والدين ، وأرسل البشائر بما وقع له من الألطاف الربانية ، والنصرة الالهية السبحانية ، إلى الأبواب الشريفة السلطانية ، والاعتاب المنيفة الخاقانية ، عاد بالعساكر المنصورة إلى الباب العالي السلطاني وقد أدى خدمته كما أمر بها من غير تكاسل ولا تواني ، فقوبل بانواع القبول والتهاني ، وشمله النظر الشريف الخاقاني ، ونظرت اليه السلطنة الشريفة بعين القرب والتداني ، وحصلت له المرتبة العظمى ، والمكانة الكبرى ، وبلغ غاية الاماني ، وخرج الوزراء وأركان الدولة الشريفة لملاقاته ، وتلقوه بغاية التعظيم والتكريم في استقباله واكراماته .

وكان يوم دخوله إلى اصطنبول يوماً مشهوداً ، ووقت حلوله في منزله السعيد وقتاً مباركاً مسعوداً ، وازدحمت الخلق على مشاهدة طلعته ، والتبرك برؤية وجهه الكريم وميمون غُرته ، وصاروا يتبركون بالنظر إلى المجاهد في سبيل الله ، ويلتمسون البركة بطلب الدعاء منه وممن معه من طوائف الغزاة ،

المخلصين في الغزاة، والاسارى من النصارى تقاد بين يديه بالسلاسل والأغلال، مقرنين في الأصفاد ، يسحبون على وجوهم بشديد النكال ، وسفائنه وأغربته جاءت إلى الأصقال ، مزينة مزخرفة بزخارف تبهج النظر ، وصواريها نصب عليها رايات الفرح وهي تخفق بالنصر والظفر ، وإذا اطلقت المدافع زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، وصمت آذان الناس فلا تكاد تسمع مقالها ، والعساكر المنصورة السلطانية تواردت صفوفاً بعد صفوف ، وتعاطفت عائدة بالنصر والتأييد الوفاً بعد الوف، وكانت ساعة فرح وسرور، وحالة ابتهاج وبشاشة وحبور ، ولله الحمد على بلوغ المرام ، والشكر له على مـا تجدد من الفضل والانعام ، وتحقق من نصرة دين الاسلام على الكفرة المشركين اللئام ، وخذلان طوائف النصارى وعباد الصليب والأصنام .

فلما توجه حضرة الوزير المعظم المذكور ، والقبودان المؤيد المنصور ، إلى الديوان الشريف السلطاني ، لتقبيل قوائم سرير السلطنة الخاقاني ، قوبلا من الحضرة الشريفة السلطانية بغاية القبول والاقبال ، وخوطبا بلسان الشكر والثناء على سعيها الجميل بالتفصيل والاجمال ، وأخلع عليهما الخلع الشريفة السلطانية، والتشاريف العظيمة الباهرة الخاقانية، وقبل كلما عرضا على الاعتاب السلطانية من المطالب ، وأنعم عليهما بكل ما سألا فيه من المقاصد والمآرب، فكان من جملة ما طلبه حضرة الوزير المشار اليه الترقي في العلوفة بجميع من كان في هذا السفر المبارك الميمون، من العساكر السلطانية المنصورة ، فأجيب الى ذلك .

وطلب ثانياً حضرة القابودان المكرم زيادة اخرى لهم في العلوفة ،فأجيب الى ذلك ثانياً ، وحصل لكل واحد من العسكر المنصـــور بحسب مراتبهم الترقي مرتين في العلوفة ، وكان ذلك مالاً عظيما ، وخزانة كبيرة ، سمحت بها الخواطر الشريفة السلطانية ، وأنعمت بها عليهم الحضرة العلية الخاقانية،وكان جزاؤهم جزاء موفوراً ، وعطاؤهم عطاء وافراً مشكوراً ، ومع ذلك فقد

ادخروا عند الله ثواباً عظيما وأجراً جزيلا ، وصاروا من الغزاة المجاهدين في سبيل الله ، ونالوا في الدنيا والآخرة من الله ومن الناس شكراً جميلا ،وبذلوا نفوسهم وأموالهم في طاعة الله وطاعة رسوله ، وطاعة أولي الأمر ، وسمحوا برؤوسهم بالجهاد في سبيل الله ، وإعلاء كلمة الاسلام ، وناهيك بهذا العز والفخر ، وقد بقي لهم هذا الذكر الجميل مخلداً في صفحات الدهر ، والله تعالى يديم هذه الدولة الشريفة العثمانية على صفحات الليالي والأيام ، وينصر بهم المسلمين ويؤيد بهم الاسلام ، ويبقي سلطنتهم القاهرة على الدوام ، الى يوم القيام ، فكم لهم ولأسلافهم الكرام في نصرة دين الاسلام من يد بيضاء آية للناظرين ، وكم فتحوا دار الكفر ، وصيروها دار الاسلام رغم المشركين والكافرين ، وتكاد تلتحق فتوحاتهم بفتوحات الصحابة رضي الله عنهم في صدر الاسلام ، والله خير الناصرين .

ولقد حكت علماء أمة الاسلام ، واتفق قول الأئمة الأعلام ، رضوان الله عليهم أجمعين ، وشملهم برحمته انه أرحم الراحمين ، ان سيوف الحق أربعة ، وما عداها للنار : سيف رسول الله ﷺ في المشركين ، وسيف أبي بكر رضي الله عنه في المرتدين ، وسيف علي رضي الله عنه في الباغين ، وسيف القِصاص بين المسلمين .

أقول : وسيوف بني عثمان رحمهم الله تعالى ، وأبقى الملك كلمة باقية فيهم ، وفي عقبهم إلى يوم القيامة إن شاء الله تعالى ، إذا سبرتها وتأملتها لا تخرج عن هذه السيوف الاربعة فانهم ما زالوا من أول أسلافهم رحمهم الله تعالى إلى الآن ، يجاهدون الكفار والمشركين ، ويقاتلون الملحدين والباغين ، ويقيمون شعائر شرائع الدين ؛ فالله تعالى يمد ظلال سلطنتهم على المسلمين ، ويؤيد بهم أهل السنة ، ويقمع بهم كافة الملحدين ، وهذا دعاء يجب أن يدعو لهم به جميع طوائف المؤمنين ، فانهم عماد الاسلام وقوام هذا الدين المتين ، والدعاء لهذه السلطنة الشريفة دعاء لكافة أهل الاسلام ، وإعزاز دين الله تعالى ، ونصرة ملة سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، وتأمين البلاد ، وتطمين العباد ، وتوهين أهل الفساد ،وقطع جادرة

أهل الالحاد ، وقمع جميع أرباب البغي والعناد ، والله تعالى يختم لنا بالحسنى، ويبلغنا من جوده وكرمه المقام الأسنى . وهذا آخر ما أجرى الله تعالى به القلم من أخبار غزوة الوزير المعظم ،بحسب ما بلغ الينا بجمل هذا الخبر المعلم، وأما تفاصيله فيحتاج الى بسط طويل،ومع ذلك فما وصل الينا ذلك التفصيل، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على خير خلقه سيد الأولين والآخرين، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين .



فهارس الكتاب

تنبيهان :

١ – وضع المؤلف عناوين فصول الكتاب مسجوعة ، وقد تحتوي على بعض كلمات نابية فتصرفنا فيها في الفهرس .

٢ – الكلمات التي تتكرر كثيراً في الكتاب مثل : (اليمن) و (سنان باشا ويعبر عنه بالوزير و (الزيدية) و (العرب) و (أهـــل السنة) – وأمثالها – لم تذكر في الفهارس .

١ - فهرس الموضوعات العامة

مقدمة المحقق :

الباب الثاني : في ابتداء الفتح العثماني ٦٩ — ٢٠٨

الخاتمة

٢ ـــ فهرس أسماء الرجال

حرف الالف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف النون

حرف الواو

حرف الهاء

حرف الياء

٣ ـــ المواضع

حرف الباء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الواو

حرف الهاء

حرف الياء

٤ ـ الفرق والطوائف والقبائل

حرف الألف

[تنبيه : لمعرفة موضع الاسم جرّده من (أبنـاء) و (بنو) و (قبيلة)]

حرف الباء

حرف التاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الهاء

حرف الياء

الخطأ والصواب

ص	س	خطأ	صواب
٦	(الحاشية)	العملية	العلمية
٧	٥	واهداء رجل	واهداء النمل رجل
٩١	١٩	أحمد حلبي	أحمد جلبي
١١٤	٧	لدب	كَذِبٌ
١٢١	٧	ثلاث وسبعين	ثلاث وستين
٤٣٦	٨/٧	نقل سجار	نقيل سمارة
٤٣٧	٢	نقل أ[illegible]	نقيل أ[illegible]

[وهناك كلمات أخرى لا تخفى على فطنة القارىء لم نصححها]

منشورات دار اليمامة

- ٢ -

مدينة الرياض

عبر أطوار التاريخ

بقلم: حمد الجاسر

ملحق به:

١ - مجموعة من الصور الاثرية للمدينة

٢ - خارطة كبيرة مقاس ٥٦ × ٤٨ س م

الثمن { ٦ ريالات (الورق الابيض الصقيل)
٥ ريالات (« « العادي) .

وللكمية : تخفيض خاص

منشورات دار اليمامة

- ٣ -

بلاد ينبع

لمحات تاريخية جغرافية وانطباعات خاصة

بقلم : حمد الجاسر

الثمن { ٥ ريالات (للورق الابيض الصقيل)
٤ « (« « العـادي)

وللكمية : تخفيض خاص

DAR AL=YAMAMAH Al - Riad : SUODIA ARABIA

Al- Bark Al - Yamani
Fi
Al-Fath Al- Othmani

BY

Qotb Al - Din Al - Nahrawali Al - Makki

(917 - 990 - A. H.)